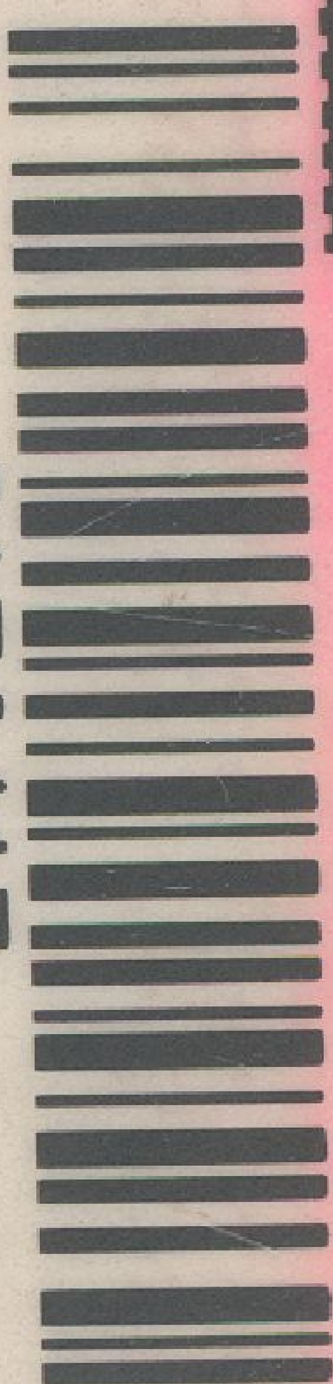



كتاب



د. زكي مبارك

اللغة والدين والتقاليد



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

العدد ٤٧٦ - محرم ١٤١١ - اغسطس ١٩٩٠

اسعار البيع للعدد فئة ١٥٠ قرشاً

لبنان : ٧٠٠ ليرة ، الاردن : ٦٠٠ فلساً ، الكويت : ٥٠٠ فلساً ، العراق : ١ دينار ، السعودية : ٧ ريالات ، تونس : ٢ دينار ، المغرب : ٢٠ درهم ، البحرين : ٢٠٠ر١ دينار ، الدوحة : ٨ ريالات ، دبى : ٨ دراهم ، ابوظبى : ٨ دراهم ، مسقط : ٨٠٠ بيسة ، الجمهورية اليمنية : ١٠ ريالات ، غزة : ٢٥ر١ دولار ، لندن : ٥٠ر١ جك .

الغلاف تصميم الفنان :
محـــمد ابو طـــالب

اللغة والدين والتقاليد

بقلم

الدكتور زكي مبارك



قصة الدكاترة زكى مبارك

بقلم : كمال النجمى

تصدر سلسلة «كتاب الهلال» فى الشهر الحالى كتاب «اللغة والدين والعادات .. باعتبارها من مقومات الاستقلال» وهو بحث كتبه الأديب الكبير المرحوم الدكتور زكى مبارك منذ أكثر من خمسين عاما .. وفيما يلى المقدمة الجديدة لهذا الكتاب الذى مازال يحتفظ بطابع الحداثة ومسايرة العصر ، رغم مرور نصف قرن على تأليفه ..

فى مثل هذا الشهر منذ تسعة وتسعين عاما ولد مؤلف هذا الكتاب ، الدكتور زكى مبارك رحمه الله ..

وكتابه هذا يصدر فى ٥ أغسطس أى فى اليوم الذى ولد فيه زكى مبارك سنة ١٨٩١ ، بعد ميلاد طه حسين وعباس محمود العقاد بسنتين فقط ،

فهو أديب كبير من جيل كبار الأدباء في مصر والعالم العربى الذين برزوا منذ العقد الثانى من القرن العشرين ، ومازال أثرهم باقيا ، ولن يزال ..

وهذا الكتاب «اللغة والدين والعادات» أنشأه زكى مبارك فى ظروف لم يتعرض لمثلها طه حسين ولا العقاد ولا أحمد أمين وأمثالهم من أدباء ذلك الجيل فهؤلاء كانوا فى غنى عن التقدم بكتبهم إلى «المسابقات الأدبية» طلبا لقليل أو كثير من المال يستعينون به على الحياة . أما زكى مبارك فإن الحياة دفعته إلى التقدم بهذا الكتاب إلى مسابقة أدبية أقامتها الحكومة المصرية فى أوائل عام ١٩٣٦ وحددت لها بحوثا يكتب فيها المتسابقون ، كان من بينها بحث فى «اللغة والدين والعادات ، باعتبارها من مقومات الاستقلال» .. وقد جذب هذا البحث بخصوصه أقلام عدد من نبهاء الأدباء ، من بينهم زكى مبارك ..

ملك الشعراء

كانت هذه المسابقة الأدبية التى سميت فى

وقتها «المباراة الكبرى» تشمل الشعر والنثر . واختار زكى مبارك ميدان «النثر» ، وترك ميدان الشعر ، مع أنه ـ رحمه الله ـ كان يسمى نفسه «ملك الشعراء» .. وإنما ابتعد عن الشعر فى تلك المباراة لأن الشعر فيها كان مقصورا على نظم «نشيد قومى» للعهد الجديد الذى أظل البلاد بتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ودخول مصر من باب الاستقلال التام فيما زعم دعاة تلك المعاهدة حينذاك ..

كان زكى مبارك منذ نشأته نصيرا لحزب مصطفى كامل ومحمد فريد (الحزب الوطنى) الذى جعل رأس مبادئه : لامفاوضة إلا بعد الجلاء ، ولهذا ابتعد عن الشعر لكيلا ينظم نشيدا للعهد الذى جاءت به معاهدة ١٩٣٦ ، تلك المعاهدة التى تمخضت عنها «المفاوضات» ولم تنص بنودها على الجلاء ! ..

وكانت جائزة كل موضوع من الموضوعات التى طرحتها الحكومة فى مباراتها الكبرى ، مائة جنيه ، وهى مبلغ جسيم من المال فى سنة ١٩٣٦ إذ كان الجنيه المصرى أقوى عملة فى «كتلة الاسترلينى»

وكانت هذه الكتلة تهيمن على أسواق المال فى العالم .

ولعل زكى مبارك ـ بصراحته التامة المعهودة ـ هو الكاتب الوحيد الذى قدم بحثه إلى المباراة ، معترفا بأنه لو ظفر بالجائزة لعادت عليه بأجزل النفع فى ضائقته التى ضاق بها ذرعا لطول أخذها بخناقة ، وملازمتها له ملازمة المحب لحبيبه ! ..

وكان من عادة بعض أدباء ذلك العصر أن ينشروا موضوعاتهم أو قصائدهم قبل أن تنظر فيها لجان التحكيم ، وكانت الفترة الممتدة من أول العشرينات إلى آخر الثلاثينات أحفل الفترات بالمباريات الأدبية ، وامتد أثر هذه الفترة إلى ماتلاها من السنين حتى أوائل الخمسينات وكانت لجان التحكيم معروفة بالكفاءة والأمانة فى أغلب الأحوال ، ولكن كبار الأدباء والشعراء كانوا يستنكفون من دخول هذه المباريات إلا إذا ضمنوا نتائجها ، كما حدث عندما تقدم أمير الشعراء أحمد شوقى إلى إحدى مباريات العشرينات بنشيده الوطني الذى بدايته : «بنى مصر مكانكم تهيأ» .. فقد تعهدت لجنة المباريات بفوز النشيد

لكيلا يحجم أمير الشعراء عن دخول المباراة .. وفاز النشيد بطبيعة الحال ..

الا أن الفقراء من كبار الأدباء والشعراء أمثال زكي مبارك ومصطفى صادق الرافعي كانوا يتحاملون على كبريائهم ويدخلون هذه المباريات معرضين انفسهم للوقوف في صفوف عامة أهل الأدب ، عسى أن يظفروا بشيء من المال يسد خلة في حياتهم لايسدها أدبهم ولا علمهم ...

ولكن كيف عاش زكي مبارك لايجد كفاية العيش من عمله في التأليف والصحافة والتدريس بينما استطاع أنداده أن يلتحقوا بطبقة المياسير مع أنه لم يكن يقل عنهم غزارة إنتاج ولا استفاضة شهرة ولا تزودا بالشهادات الجامعية العليا ؟ !..

عاش زكي مبارك قرابة ستين عاما وتوفي قبل إحالته إلى التقاعد بأشهر قلائل سنة ١٩٥٢

وحياته بدأت في سنتريس من قرى محافظة المنوفية وعرف في صباه العمل في الحقل بعد فراغه من دروس « الكتاب » .. وكان والده الشيخ عبد السلام مبارك محبوبا في القرية مشهودا له

بالصلاح والتقوى مواظبا على واجباته فى الطريقة الصوفية التى ينتسب اليها ..

السير فى طريق التصوف

ومن كُتَّاب القرية انتقل الطفل محمد زكى عبد السلام مبارك إلى القاهرة والتحق بالازهر وهو فوق الخامسة عشرة من عمره وترانيم مجالس الصوفية التى حضرها مع والده ترن فى سمعه وفى خلده وتدعوه إلى مواصلة السير فى طريق التصوف فى القاهرة مقتديا بهذا الشيخ المتصوف أو ذاك من شيوخ الأزهر ..

يقول زكى مبارك :

"فى سنة ١٩١٢ وأنا طالب بالأزهر رغبت فى صحبة الصوفية فأخذت أنتقل من ناد إلى ناد حتى تعرفت إلى رجل فاضل من اساتذة الأزهر كان يومئذ من كبار الصوفية فأخذت عليه العهد وبدأت اقوم بالأوراد على طريقة الشاذلية .. وفى سنة ١٩١٥ رآنى ذلك الشيخ صالحا للأستاذية فى

الطريق فأضاف اسمى إلى قائمة الخلفاء وصار لى فى سنتريس وفى غيرها مريدون وأتباع" .

هكذا صار الطالب الأزهرى زكى مبارك من حلفاء الطريقة الشاذلية وسار فى ركابه المريدون والاتباع .. وعاش متصوفا مخلصا حتى نشب بينه وبين شيخه الكبير خلاف حاد اذ اتهمه الشيخ بالخروج عن تعاليم الطريقة ! ..

ولا ندرى هل أقصاه الشيخ عن حلقات الطريقة ومجالسها أم انصرف هو عنها زاهدا فيها ولكن من الواضح انه مضى عن الطريقة ساخطا عليها وافرغ سخطه فى كتاب شرع يؤلفه منذ ذلك الحين عن "الاخلاق عند الغزالى" ..

وللغزالى عند المتصوفة مقام عظيم أغرى زكى مبارك بأن يجعله هدفا لسهامه فتجنى عليه كل التجنى ولم يراع ان المتصوفة وسائر المتدينين يسمونه "حجة الاسلام" ويبجلونه كل التبجيل فكان ذلك سببا لحملة كثير من الازهريين على زكى مبارك واتهامهم له بالمروق عن سواء السبيل .

أحلام وجهاد مع العلم

انصرف زكى مبارك عن التصوف والصوفية ، وتفرغ لدراسة الادب والشعر فى حلقة العالم الازهرى الاديب الشيخ سيد المرصفى ، الذى بفضله عرف زكى مبارك الادب والشعر ، وقرر ان يكون شاعرا واديبا ، وسلك بالفعل طريق الادباء والشعراء .

يقول زكى مبارك عن شيخه سيد المرصفى : "كان الشيخ خافت الصوت ، فكنت ابكر الى درسه لأقرب منه ، وكنت اكتب كل ما ينطق به ، حتى جمعت من دروسه ثلاثين كراسة ، هى اليوم انفس ما املك من ذكريات الأزهر الشريف ! .. فان كان من بين آلاف القراء قارىء واحد استطاب ما اكتب ، فليذكر ان الفضل فى ذلك يرجع الى تشجيع الشيخ سيد المرصفى طيب الله ثراه" ..

واتسعت احلام زكى مبارك ، وصار حلمه الاكبر ان يصبح مفتيا للديار المصرية ، ولكنه وجد نفسه مسجلا فى ألازهر مع اصحاب المذهب الشافعى ، فنقل نفسه الى المذهب الحنفى ، لان مفتى الديار

المصرية لا يكون الى على المذهب الحنفى ، مذهب الدولة العثمانية والحكومة المصرية ! ..

ولكن زكى مبارك بدأ يتخلى عن حلمه فى مشيخة الافتاء عندما فتحت الجامعة المصرية "الاهلية" ابوابها قبل الحرب العالمية الاولى ، ورأى زكى مبارك زميله الازهرى طه حسين يلتحق بهذه الجامعة ويحصل منها على شهادة اسمها "الليسانس" وقد استغنى بها عن شهادة "العالمية" التى فاته الحصول عليها من الازهر ، ثم رآه يفوز بشهادة اسمها الدكتوراه يهز اسمه برنينه الاسماع والقلوب !

لم يلتحق زكى مبارك بالجامعة الا سنة ١٩١٦ وترك الازهر قبل ان يحصل على "العالمية" وهو يومئذ فى الخامسة والعشرين من عمره ، موزع الفكر والفؤاد بين الصحافة والشعر والادب والجامعة وشهاداتها ذات الاسماء الرنانة .

وحين تقدم زكى مبارك لامتحان الليسانس فى الجامعة اسقطه الدكتور طه حسين ، فتقدم مرة ثانية فاسقطه ايضا .. ثم نجح فى الثالثة واخذ يتم

ابحاثه التى كان قد بدأها منذ سنوات حول "الاخلاق عند الغزالى" ..

وتبدت تباشير ثورة ١٩١٩ فسارع اليها زكى مبارك تحت راية "الحزب الوطنى" .. ثم تحت راية "الوفد المصرى" بزعامة سعد زغلول ، وعرف طريقه الى منبر الازهر ، فكان من خطباء الثورة ، ثم كان من نزلاء المعتقل الذى اقامه البريطانيون للنشطاء من مؤيدى الثورة ..

وفى سنة ١٩٢٤ ظفر بدرجة الدكتوراه من الجامعة عن كتابه فى "الاخلاق عند الغزالى" .

والظاهر ان زكى مبارك كان له مثل اعلى هو "استاذه" الدكتور طه حسين .. وقد رآه يبنى مجده على شهادة الدكتوراه التى نالها من باريس ، فقرر ان ينال من باريس هذه الشهادة ! ..

ترك زكى مبارك زوجته وبنيه فى مصر وسافر الى فرنسا فى مارس سنة ١٩٢٧ وليس فى جيبه الا قليل من المال ، ووعد من صاحب جريدة "البلاغ" ـ عبدالقادر حمزة ـ بان يرسل اليه كل شهر بعض النقود ، لقاء مقالات يبعثها اليه من باريس لتنشر فى الجريدة

مكث زكى مبارك فى باريس خمس سنوات عجاف يناضل فى سبيل "الدكتوراه" التى ناضل فى سبيلها طه حسين من قبل ، الا ان طه حسين كان يتلقى راتبا من الجامعة ، اما زكى مبارك فلا يتلقى إلا ما تجود به جريدة "البلاغ" وهو اقل من القليل فى باريس ، مدينة النور ! ..

ولولا ان زكى مبارك كان يعود الى مصر فى الاجازة الصيفية كل عام ، لما استطاع ان يواصل حربه "المقدسة" فى سبيل الدكتوراه من باريس ..

لقد شقى زكى مبارك فى سبيل هذه الدكتوراه الباريسية ، ولولا صدق عزيمته لفر هاربا من تكاليفها الباهظة ، ومن قسوة البؤس الذى انزلته به ، وقد كنا نحفظ فى صبانا مقطوعة له قالها يخاطب باريس فى تلك المحنة ، وهى من احسن شعره :

ياجنة الخلد كيف يشقى
فى ظلك النازح الغريب
الناس فى لهوهم نشاوى
ودمعه دافق حبيب

يقتات اشجانه وحيدا
فلا صديق ولا قريب
اقصى امانيه حين يُمسى
ان يهجع الخفق والوجيب

هذه الابيات حفظناها من "مجلة الهلال" التى نشرتها بعد عودة زكى مبارك ببضع سنوات ، وكنا نتناقلها اعجابا برقتها وشجنها ! ..

كانت دكتوراه باريس هى الدكتوراه الثانية فى حقيبة زكى مبارك بعد الدكتوراه الاولى التى حازها من الجامعة المصرية القديمة ..

ولكن زكى مبارك لم يكف عن طلب شهادات الدكتوراه بعد عودته من باريس فى مارس سنة ١٩٣١ ظافرا بدكتوراه السربون ..

وشرع من فوره يعد رسالة الدكتوراه الثالثة ، ليأخذها فى هذه المرة من الجامعة المصرية الجديدة التى شيدت مبانيها فى الجيزة ..

وكما كانت رسالته ايام الجامعة القديمة عن التصوف او الاخلاق عند الغزالى ، كانت رسالته الثانية عن التصوف ايضا ، واهتبلها فرصة لتعديل ارائه القديمة عن الغزالى ، تلك الآراء التى اثارت عليه المتصوفة ومريديهم

الدكاترة زكى مبارك

وفى سنة ١٩٣٧ عاد زكى مبارك الى الجامعة طالب علم وباحثا مجتهدا يسأل الاساتذة ان يمنحوه الدكتوراه ، فلم يبخلوا عليه بها ، واجتمعت فى حقيبته ثلاث من هذه "الدكتوراه" وحق له عندئذ ان يسمى نفسه "الدكاتره زكى مبارك" .. فقد كان وحيد عصره بين اقرانه فيما يحمل من اوراق هذه الشهادة الساحرة !..

كيف جرت المقادير بعد ذلك بهذا الرجل الذى جعل شعاره ان يطلب العلم من المهد الى اللحد ، وان يحتفظ بروح "التلميذ" الخالد ، وان بلغ درجة الاستاذية الكبرى ؟! ..

كان زكى مبارك وعارفو فضله يأملون ان تفتح له الجامعة المصرية ابوابها مرحبة به استاذا بين اساتذتها ، ولكن الجامعة لم تطق صبرا على هذا الدكتور العنيف الذى ينطبق عليه قول الحكيم العربى القديم "ان قول الحق لم يدع لى صديقا"

فهو دائم التحفز للمعارك الادبية ، ومقالاته فى

"البلاغ" وغيرها من الصحف ، لا تحابى صديقا ، ولا تخشى عدوا ، كأنما هو سيف مُصْلَتٌ على الرقاب بلا حساب ! ..

ووجد زكى مبارك نفسه متوحدا يحارب من اجل مكان له تحت الشمس ، ولكن اصدقاءه واعداءه جميعا يتهمونه بالعنف وبداوة الطبع ، ولا يمدون يدا لمناصرته فيما يطلب من حقه .. فرد عليهم يقول : "ان بدواة الطبع التى كثر الكلام فى ذمها وتجريحها لم تكن من المثالب الا فى كلام الشعوبية ، وهم قوم ارادوا الغض من الشمائل العربية ، فكيف ينكر على رجل مثلى ان يظل بدوى الطبع فى زمن توارت فيه الصراحة وكثر تنميق الأحاديث ؟!"

ودخل زكى مبارك معارك ادبية ملتهبة مع جميع ادباء عصره المعدودين ، واولهم الدكتور طه حسين الذى اعتبره زكى مبارك عدوه الاكبر لانه حارب حقه فى الجامعة واخرجه منها وطارده حتى فى عمله المتواضع بالتدريس فى المعاهد الفرنسية بمصر ، وتستطيع ان تضم الى اسم طه

حسين اسماء مشاهير الادباء جميعا في عصر زكى مبارك ، فليس فيهم من لم يهجم عليه زكى مبارك اعنف هجوم ، ومن بين هؤلاء العقاد والمازنى ومصطفى صادق الرافعي واحمد زكى باشا واحمد امين وسلامة موسى وعبدالعزيز البشرى وغيرهم ..

كانت مشكلة زكى مبارك ان الجامعة ، ووزارة المعارف قد اهدرتا حقه فى كرسى الاستاذية بالجامعة ، واضطره ذلك الى الالتحاق بوظائف فى وزارة المعارف لا تناسب مكانته العلمية التى تعززها ثلاث شهادات للدكتوراه من الجامعة المصرية والسربون .

وفى هذه الظروف المضطربة ، جاءت المباراة الادبية الكبرى فتقدم اليها املا فى جائزتها ، وطبع على نفقته كتابه هذا قبل ان تنظر فيه لجنة التحكيم ، وانتظر ان تقدره هذه اللجنة حق قدره بعد ان يئس من تقدير الجامعة والحكومة وتقدير معاصريه من كبار الادباء ..

وكانت نتيجة التحكيم مفاجأة له ، فان اللجنة قسمت الجائزة بينه وبين ادباء آخرين ، فلم ينل

من المائة جنيه ما يساوى نفقات طباعة كتابه ، وهكذا خسر هذه المعركة ايضا !

ولكن كتبه كانت تلقى رواجا عند القراء ، فلعله استرد من "توزيع" هذا الكتاب ما غطى نفقاته بعد تلك الخسارة .. وقد كان من عادته ان يطبع كتبه على نفقته ، ولا ندرى كيف استطاع ان يطبع اكثر من اربعين كتابا بهذه الطريقة ، من بينها كتبه المشهورة "عبقرية الشريف الرضى" و "ليلى المريضة فى العراق" .. و"التصوف الاسلامى" .. و"النثر الفنى" .. و"مدامع العشاق" .. و"الاسمار والاحاديث" .. و"حب ابن ابى ربيعة" ، وغيرها ..

وفى سنة ١٩٣٨ سافر زكى مبارك الى بغداد ليعمل بالتدريس في دار المعلمين العليا هناك ، وترك وظيفته في القاهرة غير آسف عليها فقد كان يعمل فيها بعقد مؤقت ، وامضى فى بغداد سنة واحدة كانت خيرا وبركة عليه وعلى الادب ، ولكنه حين عاد الى مصر قبيل الحرب العالمية الثانية وجد نفسه ينغمس من جديد فى معركته الطاحنة التى فرضها عليه الناس او فرضتها عليه الايام

صرخات بلا مجيب .

ومرة اخرى اخذ يتطلع الى حقه السليب فى الجامعة ، ويثور على وظيفته المؤقتة فى تفتيش المدارس الفرنسية بمصر .. وكانت صراحته تقطع رزقه ـ على حد قوله ـ ولم ينتفع بشىء من نضاله المستميت ، ولبث منذ عودته من بغداد الى يوم وفاته يرسل صرخاته فى واد سحيق بلا سميع ولا مجيب ! ..

وتملك الاسى والخوف من الحياة هذا الرجل الذى كان لا يأسى على شىء ولا يخاف من شىء ، وصار كل شىء عنده ككل شىء ، وصفرت كفاه من الثمرات التى ظن انه سيظفر بها حين كان يملؤه الامل الكبير فى شبابه وفى ايام نضاله بين سنتريس والقاهرة وباريس وبغداد ..

وفى السنوات الثلاث الاخيرة من حياته ـ رحمه الله ـ كنت اراه ليلا او نهارا جالسا الى مائدة مستديرة ضئيلة فى مقهى بميدان التوفيقية على مقربة من نزل "بنسيون" كنت اقيم فيه حينذاك بشارع سليمان باشا بالقاهرة ..

كان الشراب سلواه فى ذلك المأزق الضنك

الذى وجد نفسه فيه ، وقد قارب سن الستين ، فلزم مقهاه او مشربه لا يريم ، كانه حصنه الحصين ! ..

ولما توفى فى ٢٣ يناير ١٩٥٢ نشرت الصحف نبأ وفاته فى اسطر قلائل ، واندلع حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ فابتلع النبأ ، وانقضى الحديث عن زكى مبارك قبل ان يبدأ ، ولقى الرجل العظيم فى مماته من سوء الحظ ما لقى فى حياته !

وبعد ....

فليست هذه الا ومضة خاطفة من الضوء الوهاج الذى كان يحيط باسم زكى مبارك فى ايام مجده وسعده وليس كتاب "اللغة والدين والعادات" ـ على اهميته وطلاوته ـ الا نفحة واحدة من نفحاته التى تستحق أن تملأ الدنيا وتشغل الناس ، لو انصفها الزمان ، ولم يتنكر لها كما تنكر لصاحبها طوال حياته ..

وليس القارىء بحاجة الى دليل يقوده بين سطور كتاب "اللغة والدين والعادات" فانه من البساطة بحيث يتنقل فيه سالكه بغير دليل ، ولكننا ـ فى هذه المقدمة ـ انما اردنا ان نقول كلمات نحيى بها ذكرى هذا الكاتب الكبير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فهذا بحث أدرت معانيه فى ذهنى أسبوعين ، ثم كتبته فى سهرتين .. وأنا أقدِّمه الى الجمهور قبل أن أقدِّمه الى لجنة التحكيم فى المباراة الأدبية ، أقدِّمه سمحاً سهلاً كما فاض به الطبع بلا توشية ولا تنميق .

ولم يكن كل همى حين أنشأته أن أظفر بالجائزة الأولى وهى مرصعة بمائة دينار تعود على مثلى بأجزل النفع ـ وانما كان أكبر همى أن تصل بعض آرائى الى آذان قومى ، وهذا مغنم ليس بالقليل .

وإنى أعتذر عما اصطنعت من الايجاز ، فقد ضاق الوقت ، وصرفتنى الشواغل عما كنت أريد من الاطناب وجهد المقل غير قليل .

زكى مبارك

مصر الجديدة فى : ١٢ المحرم سنة ١٣٥٥ ـ ٤ ابريل سنة ١٩٣٦

اللغة والدين والعادات

باعتبارها من مقومات الاستقلال

- ١ -

الدين واللغة والعادات من الظواهر التى يتصل بعضها ببعض أشد اتصال ، ومن المؤكد أن اللغة تخضع فى بعض ألوانها للدين والعادات ، وقد يكون فى صورها القديمة ما يؤثر فى الدين والتقاليد .. وهذه الظواهر الثلاثة تبدو مختلفة

بعض الاختلاف ، ولكنها عند التأمل ترجع الى أصل واحد هو التعبير عن الخلائق الأدبية : فاللغة مظهر من مظاهر الأناقة والدقة فى الافصاح ، والدين صورة العقيدة التى يحيا بها الناس ، والعادات مظاهر لما تأصل من كريم الشمائل والخلال .

فالانسان المهذب تقوم حياته الأدبية على لسان فصيح ودين حق ، وعادات كريمة تصل بينه وبين الأقربين من إخوانه فى الوطنية ، وقد تسمو فتصل بينه وبين الأبعدين من اخوانه فى الانسانية .

■ ٢ ■

ونريد فى هذا البحث أن نخص كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة بشىء من البيان فنقول :

اللغة فى ذاتها شخصية استقلالية ، فالذى يعبر بلغته يشعر بالقوة وتنطبع نفسه على حب الكرامة والاستقلال ، ويزيد هذا المعنى وضوحاً مانشعر به حين نضطر ونحن فى بلادنا الى التفاهم مع بعض الأجانب بغير العربية ، فاننا حين ذاك نشعر بالتخلف ، ونوقن بأن سلطاننا فى العالم سلطان ضعيف ، فقد يجىء الأجنبى الى مصر ، ثم تمضى عليه الشهور والأعوام بدون أن تقهره الظروف على تعلم العربية ، ويكون معنى ذلك أن مصر ليست ملكاً خالصاً للمصريين ، فان الرجل لايستطيع أن يتخذ باريس أو لندن أو برلين مقاما بدون أن يتعلم الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية ، ولكنه يستطيع أن يتخذ القاهرة مقاماً

بدون أن يتعلم العربية ، لأن فى القاهرة عصبيات أجنبية لها مدارس ومكاتب وجرائد ومسارح ومنتديات ، ويستطيع الفرنسى أو الأنجليزى أن يعيش فيها سنين عددا وهو لايتكلم غير الفرنسية أو الانجليزية ، وهو يستطيع بقوته الاستقلالية أن يقهر المصريين على مخاطبته بلغته الأصلية ، ثم لايستطيعون هم أن يقهروه على مخاطبتهم باللغة العربية .

أليس هذا من أنصع الدلائل على أن اللغة فى ذاتها شخصية استقلالية ؟

لقد كنت آسى كلما تذكرت تقصيرى فى تعلم الانجليزية ، ثم مرت ظروف حمدت فيها ذلك الجهل ، لأنه على قبحه كان عنواناً على الشخصية الاستقلالية .. وتفصيل ذلك أنى أقمت عدداً من السنين فى باريس ، وكنت ألقى فيها ناساً من النمسويين والبولونيين والهولنديين والألمان فكان يتفق أحياناً أن يجرى ذكر اللغة الانجليزية فكنت أعلن أنى أجهلها كل الجهل ، فكانوا يقولون : وكيف يصح ذلك ومصر في قبضة الانجليز ؟ فكنت أجيب : إنكم واهمون ، إن مصر ليست فى قبضة الانجليز وانما هى ملك لأبنائها الصناديد ،

واللغة الانجليزية فى مصـــر لغة أجنبية يرغب فيها من يشاء ، وآية ذلك أنى أحمل أكبر الألقاب العلمية ، بدون أن أتعلم الانجليزية .

■ ٣ ■

ومن أمراض الشخصية الاستقلالية فى مصر مانشهده فى المصالح والدواوين من كتابة أسماء الغرف والحجرات بلغة دخيلة تزاحم اللغة القومية بلا تحرج ولا استحياء ، فان تلك الكلمات تشعرنا دائماً بأن لنا فى الوطن شركاء ؛ وأن لغتنا لاتملك السيطرة والاستقلال ، وقد اتفق أن رأيت فى بعض قطارات فرنسا كلمات انجليزية بجانب الكلمات الفرنسية فدهشت ، ثم سألت عن السر فى ذلك فعرفت أنه لم يقع تلطفا مع الانجليز ، وانما وقع تألفاً للسائحين من الأمريكان ، وهو لم يقع إلا فى القطارات التى تسيرها الشركات ، أما قطارات الدولة فهى كمصالح الدولة لاتكتب فيها كلمة أجنبية على الاطلاق .



قد يقال : وأين نحن من فرنسا ؟ ونجيب بأن فكرة الاستقلال خليقة بأن توحى إلينا التشبه بكرام المستقلين ، والذى عرض هذا الموضوع للمباراة لم ينس أن يشير إلى أن للكاتب « مطلق الحرية فيما يبدى من آراء ومقترحات » وأخشى أن أخون الواجب إن قصرت فى تذكير الحكومة بواجبها فى الاكتفاء بالكلمات العربية فى جميع المصالح والدواوين ، ولست أزهد فى إرشاد من يفد على دور الحكومة من الأجانب فأضن عليهم ببعض مايعرفون من الكلمات ، لا ، وإنما هى مسألة قومية لايفرط فيها إلا من يستهين بما اصطلح عليه الناس من شارات الاستقلال .

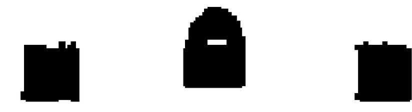
ولنفرض أننا نكتب أسماء الغرف والحجرات بكلمات أجنبية لنرشد الأجانب ، فكيف يجوز أن نفترض أن الأجانب لايكونون إلا من الانجليز ؟ إن

فى الدنيا أمماً كثيرة شرقية وغربية ، ولمصر مع الشرق والغرب صلات فكيف صح عندنا أن الأنجليز هم وحدهم الجاهلون باللغة العربية ، وأنهم الخليقون بالعطف والاشفاق ؟

ومن المحزن أن هذه البدعة السيئة انتشرت فى جميع المدن المصرية ، حتى حىّ الأزهر الشريف ، فأمام مسجد الحسين بائع (فول مدمس) زين واجهة المطعم بكلمات انجليزية .

أتكون الصراحة التى دعانا إليها رئيس الحكومة فرصة لتذكير أولئك الغافلين بأنهم يجرحون القومية ويؤذون الاستقلال .

قلتم إن التفضيل فى المباراة سيكون « للرسالة العملية النتائج » فأسرعوا غير مأمورين بدعوة الموظفين والجمهور إلى احترام اللغة العربية احتراماً يجعلها بلا مزاحم ولا شريك فى المصالح والمتاجر والدواوين ، ابدأوا باحترام اللغة فى جميع دور الحكومة وسترون كيف يتبعكم سائر الناس .



اللغة من مقومات الاستقلال ؟
كذلك يقول صاحب الدولة رئيس الوزراء ..
إذن ما رأيكم فى لغة التعليم ؟
إن التعليم عند المستقلين يجب أن يكون باللغة القومية لغة الآباء والأجداد ، ومن العسير أن نجد فى الدنيا أمة مستقلة تصطنع فى التعليم لغة أجنبية .
أما مصر العزيزة فقد قسمت إلى مناطق ، منطقة ضعيفة تسود فيها اللغة العربية وهى المدارس الابتدائية والثانوية ، ومنطقة قوية تسود فيها اللغة الفرنسية وهى كلية الآداب وكلية الحقوق ، ومنطقة أقوى تسود فيها اللغة الانجليزية وهى كليات الطب والهندسة والعلوم ..
ومناصب التعليم فى المدارس العالية أكثرها

للاجانب وهى بلية لاتصبر عليها أمة تسمو إلى كرامة الاستقلال .

إن الأمم الحرة لا تعطى مناصب التعليم غير أبنائها ، واللغات الأجنبية ذاتها لايدرِّسها الأجانب ، وإنما يُدَرِّسها الوطنيون ، ففى فرنسا ـ مثلا ـ أساتذة اللغات الأجنبية كلهم فرنسيون .. ومن أجل هذا تملك فرنسا طائفة كبيرة من النوابغ فى اللغات الأجنبية ، أما فى مصر فيندر أن تجد من يتفوق فى لغة أجنبية ، لأننا نتعلم اللغات لغاية محدودة هى الاستفادة من المؤلفات ، ولو كان لنا مستقبل فى تعليم اللغات الأجنبية لتبدل الحال غير الحال ، وشعر شبابنا بأن لهم مصالِح يخلقها التفوق فى اللغات ، وكان ذلك حجرا فى بناء الاستقلال .

لا أريد أن يجرفنى الاستطراد ، فلأرجع مسرعا إلى ماكنت فيه ، وأنا أقرر أن لغة التعليم فى كليات الجامعة المصرية يجب أن تكون العربية ، وأقول بصراحة : إن اللغة الانجليزية لم تسُد فى كليات الطب والهندسة والعلوم لسبب معقول ، إنهم يزعمون أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات العلمية ، وهذا وهم ، أو هو عجز

يُسترُ بهذا الوهم المصنوع ، فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الانجليزية أو الفرنسية ، وإنما هى ألفاظ نحتت نحتاً من اليونانية واللاتينية ، وفى مقدورنا أن نأخذها كما أخذوها بعد أن نصقلها صقل التعريب فتضاف إلى اللغة القومية .

■ ٦ ■

وتعليم العلوم بلغة البلاد يخلق فينا قوى جديدة ، ويدفعنا إلى الترجمة والتأليف ، ويرفع عنا إصر الكسل المخجل الذى يتمتع به أساتذة الكليات ، وهو كذلك يرفع عنا هذه الوصمة البشعة ، وصمة الفقر فى المكتبات ، ففى الممالك المستقلة يرى الانسان فى الأحياء الجامعية مكتبة خاصة بالطب ، ومكتبة خاصة بالعلوم ، ومكتبة خاصة بالفلسفة ، ومكتبة خاصة بالطيران ، وهكذا دواليك ، أما فى مصر فلايجرؤ أحد من الناشرين على إنشاء مكتبة خاصة بعلم من العلوم ، وإنما تتجمع العلوم والآداب والفنون والحكايات فى مكتبة واحدة تلتقى فيها قصة القط والفأر بكتاب أرسطو فى الأخلاق .

إن فقر مصر فى الترجمة والتأليف يقع وزره على رجال الجامعة المصرية ، فلو سلكوا مسلك

الحزم والجد وتذكروا أنهم يعيشون فى بلد كان وطن المعارف والعلوم لأقبلوا على لغتهم فاصطفوها وجعلوها لغة التعليم ، وأمدوها بكل طارف وتليد ، وتسامت همتهم إلى جعلها لغة الشرق فعاشوا بفضلها سادة أعزاء .

وفى مقدور سعادة مدير الجامعة أن يشير بهذه التجربة فى حزم وجد ، وما أظنه يخشى الاخفاق ، لأن اللغة العربية لها ماض مجيد فى الحياة العلمية والطبية ، ومن السهل رجعها إلى مجدها القديم ، ونحن لاتعجزنا الأصول وإنما تعجزنا الهمم العالية التى تخلق الممالك والشعوب ، وليس من الكثير أن نشقى عشر سنين فى سبيل تجربة شريفة نحفظ بها ذكرانا نقية بيضاء على وجه التاريخ .

أقدم ، يامدير الجامعة المصرية ، على هذه التجربة ، لتحوِّل أساتذه الكليات إلى طلاب جادين يشعرون بالعزة ، كلما تذكروا أنهم يحملون الأحجار لوضع أساس الاستقلال .



إن مصـــر حين تعلم العلوم باللغة العربية ستفتح أسواقا جديدة هى أشرف الأسواق ، وحسبكم أن تتذكروا أن مصـــر ستصبح بحق زعيمة الشرق ، وستكون مؤلفاتها عمدة الباحثين فى المشرقين ، فيتغنى بذكرها أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق .

أتحسبون أن من القليل أن يكون فى الخارج مكاتب خاصة بالثقافة المصــرية ؟

إن من مجد فرنسا وانجلترا أن يرى الانسان فى مثل القاهرة مكاتب فرنسية وانجليزية ، وتلك من أظهر علائم السيطرة الأدبية عند من يتمتعون بنعمة الاستقلال ..

إن اللغة العربية من أكبر لغات الشرق ، ومصـــر فى هذا الزمان على رأس الحركة العلمية فى الشرق ، ولاينقصـها إلا أن تجعل العربية لغة

التعليم فى جميع المعاهد ، فتقهر الأساتذة على الترجمة والتأليف ، وتسوقهم سوقا إلى اجتذاب الأمم الشرقية باسم الأدب الحق ، أدب الفكرة والمنطق والفن الجميل .

كيف ندعى شرف الاستقلال وليس عندنا معجم واحد يسجل تطور اللغة في العصر الحديث ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وليس عندنا مكتبة طبية أو علمية باللغة العربية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وآثار مصر نفسها لم ينشر عنها كتاب وافٍ باللغة العربية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وليس عندنا كتاب فى القانون خلت صفحة من صفحاته من سطرين أو ثلاثة بلغة أجنبية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال ولايستطيع رجل من علمائنا أن يكتفى فى أى بحث بالمصادر العربية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وليس عندنا وزير واحد خلت بطاقته من الكلمات الأجنبية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال والمطبوعات الأجنبية هى أكبر محصول فى دار الكتب ومكتبة الجامعة المصرية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وفى القاهرة والاسكندرية مناطق لاتباع فيها غير الجرائد الأجنبية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وفى الدواوين أقلام لاتدون ملفاتها بغير الانجليزية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال ولغتنا منسية فى معاهدنا ومدارسنا ومكاتبنا ؟ وأخشى أن أقول انها منسية فى دور الوزراء والأمراء وأكثر المتحذلقين من أبناء الزمان ؟

إن مدير الجامعة مسئول أمام الوطن وأمام التاريخ عن هذا البلاء ، وفى يده أن يكشف هذه الغمة وأن يجعل لغة البلاد لغة الدرس والتأليف فى جميع الكليات ، نعم يستطيع الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا أن يجمع أبناءه المخلصين من أساتذة الجامعة المصرية ويفرض عليهم اصطناع اللغة العربية فى جميع المواد ، وعلي الضعيف أو المتخلف أن يستقيل ، فان مصر تعانى أزمة تقض المضاجع لأنها مستقلة رسمياً ، ولكنها محرومة من أشرف مظاهر الاستقلال .

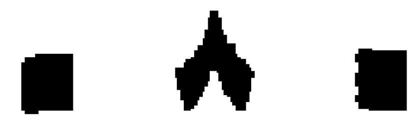
أريد أن أعرف ما الذى يقهرنا على هذه التبعية العلمية للانجليز والفرنسيس ؟

ان اللغة الفرنسية ليس لها إلا سلطان ضئيل فى كلية الحقوق وكلية الآداب ، أما اللغة الانجليزية فتطغى وتستطيل فى كليات الطب والهندسة والعلوم ، وما أذكر أن هذا الطغيان كان من التحفظات المشهورة فى التاريخ .

لنا عذر واحد : هو الكسل المعسول الذى ينعم به الخامدون .

ولكن هل يعجز مدير الجامعة عن استئصال هذا الداء ؟

إن الوطن ينتظر منه هذه اللفتة : لفتة الوالد الحازم الذى يخشى على بنيه من انهزام العزائم وانحلال الطباع .



ان اللغة من مقومات الاستقلال ؟

كذلك يقول دولة رئيس الوزراء ..

وهذا والله صحيح ، ألم تروا كيف يحرص الغاصبون على نشر لغاتهم ؟ إن فرنسا فى مستعمراتها تنشر اللغة الفرنسية ، وانجلترا فى مستعمراتها تنشر اللغة الانجليزية وايطاليا فى مستعمراتها تنشر اللغة الايطالية .

فاذا كان الغاصبون يرون نشر لغاتهم من مؤيدات الاحتلال ، أفلا يرى الوطنيون نشر لغتهم من مؤيدات الاستقلال ؟

رحمة الله على ألفونس دوديه ، فما تذكرت كلمته عن « الدرس الأخير » فى (الالزاس) إلّا ثارت نفسى ، وتجدد إيمانى بأن حفظ اللغة هو الأساس فى حفظ الاستقلال ، ونحن خليقون بأن نأخذ الدرس من غاصبينا ، لأنهم أساتذة فى علم

النفس ، واليهم المرجع فى تصريف الشعوب .

اللغة كما قلت لكم شخصية استقلالية ، وهى وحدها من أهم مظاهر الاستقلال ، فعضّوا عليها بالنواجذ إن كنتم تعقلون .

■ ٩ ■

وما أحب أن تضيع هذه الفرصة بدون أن أذكر سعادة مدير الجامعة المصرية بمسألة خطيرة تمس الاستقلال وتلك هى مسألة الرسائل التى تقدم لنيل الدرجات الجامعية .

ان الرسائل التى تقدم لامتحان الدبلوم والدكتوراه يجب دائماً أن تكون باللغة القومية ، ففى جامعة باريس مثلا لاتقبل الرسالة الأساسية بغير اللغة الفرنسية ، ولو كانت فى موضوع يتصل باحدى اللغات الأجنبية .

أما فى مصر فالأمر بالعكس ، تقدم الرسالة الى الجامعة المصرية بأى لغة أجنبية بدون اعتراض ، ولو كانت فى صميم الآداب العربية ، أو الشريعة الاسلامية ، وهى حين تقدم بالعربية يجب أن تكون مصحوبة بخلاصة فرنسية أو

انجليزية ، ولو كان أعضاء الامتحان جميعاً مصريين .

وقد قاومت هذه البدعة مرات كثيرة فى جريدة البلاغ ، لأن كلية الحقوق جرت فى تقاليد الامتحانات العالية على إيثار تقديم الرسائل بلغة أجنبية ، واتفق لها مرة أن قبلت رسالة كتبت باللغة الفرنسية عن الدِّية فى الشريعة الاسلامية .

تذكروا أنكم دعوتمونا الى تقديم مانشاء من الآراء والمقترحات ، فان كنتم جادين فيما دعوتم فنحن جادون فيما نقترح ، ونحن نرى تقديم الرسائل الى الجامعة بلغات أجنبية ينافى الحرص على مقومات الاستقلال .

قد تقولون انكم تريدون التعرف الى الجامعات الأجنبية ونحن نقول إن لهذا التعرف وسائل كثيرة ، فاختاروا منها ماشئتم ، إلا هذه الوسيلة التى تعلن تبعيتكم لثقافة الانجليز أو الفرنسيس .

أنا أدعو الى تعديل هذه الفقرة من لوائح الجامعة المصرية ، وأوصى بجعل اللغة العربية لغة الرسائل العلمية والأدبية والتشريعية التى تقدم لنيل الدرجات الجامعية .

أترون فى هذا الاقتراح شيئا من الشطط ؟

إن سعادة مدير الجامعة يعرف أنى على حق ، والى رأيه الموفق أكل تحقيق هذا الاقتراح النبيل .

■ ١٠ ■

ولكن ماهى اللغة التى تعد من مقومات الاستقلال ؟ أهى اللغة المخدرة التى لاترى الشمس ولايعرفها غير عشاقها المعدودين من كبار الكتاب ؟ آهى تلك اللغة الهيوب التى تتعثر فى كل حرف ، وتسقط فى كل فقرة ، ويختلف من حولها العلماء فى الصباح والمساء !

اننا نريد « لغة من لغات المدنية » نريد لغة يفهمها الفلاح والملاح والنجار والبناء ، نريد لغة سخية تسعد أبناءها جميعاً بغير حساب ، نريد لغة تجمع بين التواضع والجبروت ، يرى فيها العوام مايشاءون من البساطة والجمال ويرى فيها الخواص مايريدون من السمو والتحليق ، نريد لغة مبذولة على نحو مايبذل الضوء والهواء ، يأخذ منها كل إنسان مايناسب عينيه ورئتيه ، وأنا بهذا أدعو الى الديمقراطية اللغوية ، أدعو الى تيسير

اللغة تيسيراً يقربها من جميع القارئين والسامعين ، أدعو الى القصد فى احترام الالفاظ القاموسية ، وأشير باحترام ما اصطلح عليه الناس من الالفاظ فى مختلف الفنون .

ولن تكون اللغة العربية (لُغَةً مَدَنِيةٍ) إلا يوم تصبح أداة التفاهم بين جميع الطبقات ،ويوم تحترم جميع الالفاظ الاصطلاحية ، فترفع تلك الهيبة السخيفة التى يعانيها كل تلميذ يُكلَّفُ موضوع إنشاء . .

وأنا أقترح أن يتصل المؤلفون بالقراء على نحو مايتصل الأساتذة بالطلاب ، فإن ذلك ينفع أجزل النفع فى تعريف المؤلفين بما يأخذون ومايدعون ، فقد رأيت العجب فى حياة التدريس ، وعلمت علم اليقين أن التلاميذ يتهيبون اللغة ويذهبون ضحية الحذلقة التى يلمسون آثارها فيما يقرأون ومايسمعون .

لقد كنت أجد من بين تلاميذى من يدنو منى فى درس الانشاء ويهمس : يا استاذ ، هل يصح أن أقول « مشيت وحدى »

نعم ، يابنى ، تستطيع أن تمشى وحدك بلا

معين ، وكنت أجد من يقول : يا أستاذ : هل (خرجت) كلمة فصيحة ؟

نريد أن يقبل الأساتذة والمؤلفون على التلاميذ والقراء فيفهموهم أن الافصاح أيسر ممايظنون ، نريد أن يفهم الجمهور أن الافصاح ليس وقفاً على المتحذلقين من أساتذة الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب .

وأنا مع هذا أومن بأن فى كل لغة نوعاً من الاريستوقراطية الادبية ، ولكنى أنكر أن تكون لغتنا فى كل مناحيها لغة أريستوقراطية لايفهمها حق الفهم غير الخواص .

اذهبوا ان شئتم الى مدينة مثل باريس وانظروا كيف تنتشر على الجماهير بعض الفقرات من خطب الوزراء ، رحمة الله على تلك الليالى حين كنت أنظر أقوال هريو ودلادييه منشورة بأحرف من نور فى أكثر الميادين ، وهى فى بساطة تذكر بتعابير الأطفال .

اقرأوا إن شئتم مؤلفات أناتول فرانس : ذلك الكاتب الفحل الذى حول الفرنسية الى أحاديث حلوة عذبة لايدق معناها على أحد من سواد الناس .

إن « البيان » الذى سمعتم عنه لايعرفه الا الأقلون من كتاب هذا الزمان ، وإلا فأين الكاتب الذى استطاع أن يصل بقلمه اللعوب الى أفئدة الجماهير من أهل الريف ؟

وعلى من يقع وزر هذه النكبة الوطنية ؟

يقع وزرها على الأساتذة والمؤلفين ، فهم الذين ملأوا أذهان الناس بالوسوسة اللغوية ، وحرموهم نعمة الفهم الصحيح .

نحن نريد لغة تشبه لغة القوانين والمعاهدات ، نريد لغة محددة الألفاظ واضحة المعانى ، نريد لغة موحدة يخاطب بها جميع الناس بلاتردد ولاتهيب ، وهذه اللغة المنتظرة يجهد فى خلقها كتاب الصحف اليومية الذين عرفوا بالتجربة أن لهم « زبائن » فى جميع البيئات .

■ ١١ ■

ويتصل بهذا الغرض إصلاح الرسم ، وأنا أدعو إلى التفكير فى اختراع حروف جديدة مشكولة ، فان الرسم الذى نكتب به ناقص أبشع النقص ، ولن نصل إلى تحرير اللغة من اللبس إلا يوم نطمئن إلى أن الجماهير المختلفة تنطق الكلمات على نمط واحد ، فقد اتفق لى مرات كثيرة أن أعدل عن كلمة إلى أخرى خوفا من اللبس الذى يوجبه فقد الشكل ، ولو كنت أجد حروفا مشكولة فى مثل مطبعة البلاغ لوصلت فى الافصاح إلى ما أريد .

والذى أعانيه من هذا الجهد يعانيه جميع الكتاب .. والمهم فى هذه المسألة هو إيجاد حروف مشكولة مع القصد فى صناديق الحروف ، فان الشكل ليس بمستحيل ولكنه غير مستطاع فى الجرائد بسبب تعدد الصناديق وازدياد نفقات

الجمع ، وتستطيع الحكومة أن تقيم (مباراة خطية) عسانا نجد من يخترع لنا حروفا مشكولة لايزداد بها عدد الصناديق .

ولتوضيح هذه المسألة أقول :

إن لحرف الفاء مثلا أربع صور هى : « ف ، فـ ، ـفـ ، ـف »

ولو وضعنا لكل صورة ثلاث حركات لاحتجنا إلى اثنتى عشرة صورة لكل حرف ، وبذلك تتعدد الصناديق وتحتاج كل مطبعة إلى مضاعفة عدد الصفافين ، وذلك عبء ثقيل .

وأنا بكل جرأة أدعوكم إلى توحيد الحروف ، أدعو إلى الاكتفاء بصورة واحدة لكل حرف ، فيكون له وضع واحد فى أول الكلمة وفي الوسط وفى الطرف ، ثم يصب من كل حرف ثلاثة أشكال فيها الكسر والضم والفتح ، مع الاستغناء مؤقتا عن حركات الإعراب .

وهذا الاقتراح يبدو غريباً لأول وهلة لأنه يذهب بشىء من جمال الخط العربى ، ولكن جمال الخط القديم لن يساوى مانظفر به من الدقة والتحديد فى الخط الجديد .

قد تقولون : إن هذا الاقتراح سيوجب أيضاً زيادة الصناديق ، وأجيب بأنها زيادة قليلة

بالقياس إلى الزيادة المخوفه التى يرهقنا بها اصطناع الشكل الكامل فى الخط القديم .

على أنه لامفر من التفكير فى إصلاح الرسم ، لأن البدعة التركية في اصطناع الحروف اللاتينية ستلاحقنا بلاريب ، فان لم نتدارك الأمر منذ اليوم فسيكون لشبان الجيل المقبل آراء فى استحسان ماصنع الأتراك .

فان لم تفعلوا ـ وأرجو أن تفعلوا ـ فانى أخشى أن يكون مصير الخط العربى مصير أتعس السمكات الثلاث !

■ ١٢ ■

ولكن كيف السبيل إلى تقريب اللغة العربية من قلوب الناس ؟

إن اللغة العربية لايعرفها أهلها ، لأن المؤلفات الحديثة خالية من الجاذبية فى أكثر الأحوال ، والمؤلفات القديمة مهجورة لا أنصار لها ولا أشياع ، وآية ذلك أن مكتبة الأزهر يندر أن يفد إليها أحد من المطالعين ، ومكتبة زكى باشا لم تجد من يقرأها فى قبة الغورى غير جماعة الفيران !!

والناشرون فى القاهرة لاتعيش مكتباتهم إلا بفضل زبائنهم فى مختلف الأقطار العربية .. أما الاسكندرية فأمرها عجب ، ومن كان يظن أن تلك المدينة العظيمة ليس فيها مكتبة واحدة مصرية تضارع بعض مافيها من المكتبات الأجنبية ؟

وكذلك يقال فى بورسعيد ، وأسيوط ، وأسوان ..

وخلاصة القول أن اللغة العربية ، لغة التأليف ، ليس لها فى مصر قراء ، وهذا عيب يمس كرامة الاستقلال .

إن الشاب الفرنسي يقرأ فى كل سنة نحو ستين كتاباً ، فكم كتاباً يقرأ الشاب المصرى ؟ اسألوا أنفسكم عما تذكرون من المؤلفات الحديثة أو القديمة التى توصون بقراءتها من يستفتيكم من الشبان .. لقد قضيت فى مهنة التعليم نحو عشرين سنة واختبرت ألوفاً من التلاميذ فى المدارس المصرية والأمريكية والفرنسية ، وكنت أحض الطلبة على القراءة والاطلاع ، وكان الطلبة يسألون : ماذا نقرأ ؟ وأقسم صادقاً أنى لم أوفق مرة واحدة إلى الجواب ، لأنى لا أجد ما أوصى بقراءته غير عدد يسير جداً من المصنفات لايفتن ولايشوق .

إن التأليف فى مصر مشلول بالرغم من طنطنة المؤلفين ، والأمة التى تعجز عن تثقيف أبنائها لاتعرف مقومات الاستقلال .

ينبغى أن يكون فى مصر مؤلفات لكل جمهور ،

وفى مصــر نحو عشرة جماهير مختلفة المشارب والأذواق ، فما الذى صنع كبار المؤلفين لتغذية تلك المشارب والأذواق ؟

على أن من التعسف أن نلقى اللوم كله على المؤلفين ، فهذه الجماهير مسئولة أيضاً عن كساد التآليف ، إن هذه الجماهير لاتعرف المكتبات العمومية أو الخصوصية ، وأنت فى الأغلب تقول فى سبيل التعريف : إن المكان الفلانى قريب من المحافظة ، قبل أن تقول : إنه قريب من دار الكتب المصــرية .

فما السبيل الى تشجيع التأليف وخلق ذوق القراءة والأطلاع ؟

لنبدأ بالموظفين الذين ننفق عليهم نصف الايراد ، إن جمهور الموظفين لايقرأ ، ولايهمه أن يقرأ ، مع أنهم يمثلون الجمهور النظيف ، فان كنتم فى ريب من هذا الحكم الصارم فانظروا مصير أهم المؤلفات ، فان أعظم كتاب فى مصــر لايطبع فى كل مائة سنة أكثر من مرتين ، أكان يصح ذلك لو كان الموظفون من عشاق القراءة والاطلاع وهم يعدون بالألوف ؟

قد تقولون إنهم يعوضونماينقصهم بالاطلاع

على الجرائد والمجلات ، وهذا أيضاً غير صحيح ، فالموظفون فى الأغلب منقطعون عن الحياة الأدبية ، وقد يلقانى الرجل منهم فيوجه إلىّ أسئلة عن ناس لايعرف أن صلتى بهم انقطعت منذ سنين ، وقد اتفق منذ أيام أن أرسل إلىّ أحد كبار الموظفين خطاباً على كلية الآداب ، مع أنى فارقت تلك الكلية منذ أشهر طوال ونشرت عن بعض خصومى فيها أكثر من عشر مقالات ، وكنت أظن أن مثل هذا الحادث يصل صداه إلى جميع الآذان .. هذا عيب من عيوبنا فلندمغه غير هائبين ..

■ ١٣ ■

ولكن ما هو العلاج ؟

أنا أقترح أن تؤلف فى وزارة المعارف لجنة خاصة بتشجيع التأليف تكون مهمتها فحص مايصدر من المؤلفات لتختار مايجب أن يقتنيه الموظفون ، وفى هذه الحال أقترح أن تخصم الحكومة عشرة قروش فى كل شهر من كل موظف ، وتقدم إليه فى كل سنة خمسة كتب أو ستة من جيد المصنفات .

ولو تحقق هذا الحلم لخلقنا فى الجماهير المصرية ذوق القراءة والاطلاع ، لأن الموظفين فى مصر لهم إخوان وأبناء ، وهم سيعدون بهذا العرض الجميل من يتصل بهم من سواد الناس .

قد تقولون : وبأى حق نقطع فى كل شهر عشرة قروش من مرتب كل موظف ؟

وأنا أعترف بأن فى هذا حجرا على الحرية الشخصية !!

ولكن مصر فى هذه السنين تحتاج إلى مثل هذه التدابير ، فنحن قوم حديثو عهد بالاستقلال ، وللاستقلال مقومات على رأسها اللغة كما تعلمون .

إن اللغة لاتراد لذاتها ، وإنما يقصد بها التعليم والتثقيف ، ونحن فى مصر نحتاج أشد الاحتياج إلى المصلح المستبد الذى يسوقنا سوقاً إلى موارد العلوم والآداب والفنون .

اتذكرون ماصنع مصطفى كمال أتاتورك حين حرم لبس الطرابيش ؟

لقد عطل نحو عشرة ملايين من الطرابيش كانت تقوم بألوف الجنيهات لأنها لم تعوض إلا بمقادير عظيمة من القبعات .

وأنا لا أدعوكم إلى تبديد قروش الموظفين ، وإنما أدعوكم إلى تجميل بيوتهم بنفائس المؤلفات ... أقدموا على هذه المحاولة الشعرية ، فان فعلتم فستذكرونني ماعشتم بالخير الجزيل .

■ ١٤ ■

وبجانب هذا الاهتمام بالتكوين الادبى لجمهور الموظفين يجب أن نهتم بالتكوين الادبى لجمهور الشبان ، ولاسيما تلاميذ المدارس الثانوية .

وأنا أقترح إلغاء دروس تاريخ الأدب فى تلك المدارس ، لأن تاريخ الأدب لايفهم إلا بعد درس الادب وأكاد أوقن بأن دراسة تاريخ الادب فى المدارس الثانوية ليست إلا ضرباً من تضييع الوقت ، وإجهاد العقول بلا عناء ، وهذا الحكم الصارم لايؤمن بعدالته إلا من عانى تدريس تاريخ الأدب فى المدارس الثانوية ، وأنا عانيته نحو عشر سنين ، وعرفت مافيه من البلاء الذى يصب على رءوس الطلاب بغير حساب .

ومن البلية ألّا تقدم وزارة المعارف لطلبة المدارس الا كتاباً ألفه جماعة لم يعرف أكثرهم عقلية التلاميذ فى المدارس الابتدائية ولا

الثانوية ، ولا دروا كيف يكون الرفق فى مهمة التدريس وان كانوا من أعلام الزمان .. وكان من العجب أن يفرض على طلبة السنة الثالثة أن يدرسوا تاريخ الأدب كله من عهد امرىء القيس الى عصر حافظ ابراهيم ، وهى دراسة سينمائية لايرضى عنها رجل يعرف مهنة التعليم .

وقد خفف البرنامج أخيراً بعض التخفيف ، ولكنه لايزال غير صالح ، وإلا فكيف تنتظر من تلاميذ السنة الاولى فى المدارس الثانوية أن يدركوا الفرق بين كاتب يغرم بالبديع وآخر لايتكلف البديع ، وقد عرضت لى هذه المشكلة مع طلبة الليسيه فشرحتها مرات بالعربية ومرات بالفرنسية ، ثم صدفت عنها صدوف اليائسين .

إن درس تاريخ الأدب بدعة نقلناها نقلا عن أوروبا ، وهى مقبولة هناك ، لأن الأدب الاوروبى يكثر فيه القصص والتمثيل ، وهى موضوعات ألفها التلاميذ ، لأنهم منذ الطفولة عرفوا القصص وعرفوا التمثيل ، فلايصعب عليهم أن يفهموا الفرق بين فن وفن ، وعصر وعصر ، وأسلوب وأسلوب .

أما فى مصر فالأدب فى جملته يتحدث عن شئون جدية لم يعرفها الشبان من قبل ، فمن العسير أن يدركوا كيف تطور واستحال من جيل إلى جيل .

إن تاريخ الأدب لاينبغى أن يدرس إلا فى المعاهد العالية ، أما المدارس الثانوية فيدرس فيها الأدب الصرف ، مع العناية بشرح النصوص ، والبحث عن مواطن الجمال فى النثر الجيد والشعر البليغ .

■ ١٥ ■

درس تاريخ الأدب فى المدارس الثانوية جهد ضائع وسنصبر عليه إلى أن تسوق المقادير إلى وزارة المعارف رجلا حاذقا من بين الذين عرفوا عقلية التلاميذ ، وما أظن أننا سنصبر طويلا ، لأن العناية باصلاح التعليم تزداد من يوم إلى يوم .

وإلى أن تحذف تلك المادة الفضولية نوصى أساتذة اللغة العربية بأن يتخيروا للمطالعة والمحفوظات نصوصا لاتخرج عن العصر الحديث ، لأنه أقرب العصور إلي أذهان التلاميذ ، وقربه من أذهانهم يساعد المعلمين على بيان مايتصل به من الملابسات الخلقية والاجتماعية ، ويمكن التلاميذ من فهم مافيه من أسرار البيان .

قلتم أن اللغة من مقومات الاستقلال

فما الذى يمنع من تعريف التلاميذ بالمصاولات

الأدبية التى تتصل بالحياة السياسية ؟

ماالذى يمنع من دراسة ماوقع بين رجال الأحزاب

ماالذى يمنع من دراسة المناوشات الحزبية التى عرفتها مصر فى الثلاثين عاما الماضية ؟

ما الذى يمنع من درس ماوقع بين كبار الكتاب من صنوف الجدل وضروب النضال ؟

ما الذى يمنع من درس السخرية التى عاناها محمد عبده من معاصريه ؟

ما الذى يمنع من درس رسائل عبدالعزيز شاويش فى نقد سعد زغلول ؟

ماالذى يمنع من تقليب الصحف الفكاهية ودرس ما فيها من النكت اللواذع التى صوبت إلى رجال الأحزاب ؟

...

ما الدى يمنع من درس وطنيات حافظ ؟

بل ما الذى يمنع من درس المنشورات التى طبعت فى سنة ١٩١٩ ؟

إننى أوصى بخلق الفرص لتشويق التلاميذ إلى درس الأدب الذى يحيى النزعة القومية ، ويبعث

فيهم روح الشوق إلى حياة الاستقلال .

أقول هذا وأنا أعلم أن ماأوصى به آت لاريب فيه ، ولكن من الخير أن يعلم أبناؤنا اننا نفكر بعقول المستقلين ، وأننا لانمزح حين نتكلم عن مقومات الاستقلال .

■ ١٦ ■

ذلك مانوصى به فى التعليم الثانوى ، فاذا انتقلنا إلى التعليم العالى فرضنا على أبنائنا أن يتعمقوا فى درس تاريخ الأدب العربى ، ورُضْنَاهم على تذوق النصوص المختلفة ، وانتظرنا منهم أن يكونوا من أعلم الناس بالأدب والتاريخ .

وفى هذه الحال لايرضينى أن يكتفى أستاذ الأدب بالطواف حول حياة الكاتب أو الشاعر أو الخطيب ، بل يجب أن يهتم بدرس الصلات بين الأدب والاجتماع ، وأن يغرى تلاميذه بخوض الحياة ، حياة الجد والاقتحام ، فتكون لهم مواقف يسجلها التاريخ ، على نحو ماتفق لاقطاب الأدب فى العصر القديم .

والأستاذية فى هذه الأحوال توجب أن يكون رجال الأدب رجال اعمال ، فقد شبعنا من تلك

الشخصيات المصقولة التى تحسن الأسمار والأحاديث ، نريد أساتذة مقتحمين مغامرين يشتركون فى الحياة النيابية ، ويتصلون بأمتهم وتلاميذهم اتصالا قويا له أسباب وأوتاد من حياة المجتمع اللاجب الصخاب .

■ ١٧ ■

فإذا انتقلنا من الأدب وتاريخ الأدب فى المدارس الثانوية والعالية ، تلفتنا نبحث عن الأديب المخلوق لدرس الحياة ، ونحن نرجو أن يكون فى أساتذة الأدب من يخرج على الذوق المتكلف والوقار المصنوع ، نرجو أن يكون عندنا أساتذة يزورون تلاميذهم فى بيوتهم ، ويرافقونهم فى الحفلات والسهرات ، ويطوفون بهم على الأحياء الشعبية ليعلموهم كيف تكون الثورة على مافى حياة الشعب من بؤس وشقاء

نريد أساتذة يربون تلاميذهم على مرافقة العمال والصناع والفلاحين ليكونوا فى المستقبل من حملة الأقلام النورانية التى تبدد غياهب الجهل والخمول .

نريد أدبا يبعث فى الشعب روح التمرد على الفقر والمسكنة والذل ، ويروضه على الطمع الشريف فى الغنى والكسب والعزة والكبرياء .

نريد أدبا يطمعنا فى استرجاع ما أضاع الزمان من مجد مصر والنيل .

نريد أدبا يرفعنا إلى صفوف الجوارح ، نريد أدبا يعلمنا فضل المخلب والناب ، نريد أدبا نسيطر به على الدنيا غير باغين ولا عادين .

■ ١٨ ■

ولن تكون اللغة من مقومات الاستقلال إلا حين تسود فى وطنها سيادة قاهرة فتسيطر على العقول والمشاعر والأذواق ، ولايتم لها ذلك إلا يوم يقوى أدبها ويستفحل ، فيشغل الناس بدرس قلوبهم وأهوائهم وأخلاقهم ، ويكون له شعراء وكتاب ومحدثون يغزون القصور والأكواخ ، ومن الحزم أن نشير إلى وجوب العناية بتربية الشبان على حب وطنهم فى ماضيه وحاضره ، ولايكون ذلك الا بقهر الأدب على تصوير مامر بمصر من نعماء وبأساء ، وما شهدته من أنوار وظلمات ، ومايساورها من مخاوف أو يداعبها من آمال .

يجب أن يوجه الأدباء عنايتهم إلى خلق بيئة أدبية يكون جدها وهزلها متصلا بحياة الوطن كل الاتصال ، يجب أن تكون أحزاننا وأفراحنا،

وإسقافنا وتحليقنا ، وضلالنا وهدانا ، وآلامنا وآمالنا مصورة فيما ننشىء من الرسائل ، وما ننظم من القصائد ، ومانكتب من المؤلفات ، ومانتغنى به من الأناشيد .

أننا لانحب وطننا أصدق الحب ، لأن غرامنا به لم يشبه شىء من التصوف والروحانية ، وكان ذلك لأن الشعراء لم يخلقوا فى قلوبنا ذلك الحب ، وكيف يخلقونه وقد غفلوا عن الاشادة بما أنتثر من معالم الحب والمجد على ضفاف النيل ؟

لقد جلست لحظة منذ أيام فى ذهبية ، ثم مرت سفينة فانتشيت ، أتعرفون السبب ؟ لقد طاف بالخاطر حرّاقات دجلة والفرات التى تغنى بها شعراء العراق .

أكنت أقاسى هذه الغربة الروحية لو أن شعراءنا شوقونا إلى سفائن النيل ؟

أتذكرون قول الشاعر العراقى :

يالَيْتَ مَاء الفرات يُخْبرُنَا
أَيْنَ اُسْتَقَلَّتْ بِأَهْلِها اُلسُّفُنُ

إن هذا البيت أُمَّه من الشعر الجميل ؛ وكان مما يحفظ جميع أهل العراق ، فهل تذكرون شاعرا

مصريا حبب إلينا النيل على نحو مافعل ذلك الشاعر فى تمجيد الفرات ؟

أين مآسينا ، أيها الشعراء !

أين القصائد التى تصور ماعانته مصر يوم حريق الفسطاط ؟

أين الشعر الذى يمثل مذبحة المماليك ؟

أين القصص التمثيلية التي ترينا أشباح الليالى السود حين انهزم الجيش المصرى فى الموقعة التى لم يجف دمها إلى اليوم ؟

أين القصائد والرسائل التى تصور عيوبنا الأخلاقية وقد عانينا صنوف البلايا والأرزاء من شيوع المحسوبية والتزلف والنفاق ؟

وأين مواسمنا الغر أيها الأدباء ؟

أين القصائد والرسائل والخطب والمؤلفات التى تفصح عن عبقريتنا فى مقاومة الخطوب ؟

إن صبر الجيش المصرى على منازلة الجيش الانجليزى فى معركة فاصلة دامت ثلاث عشرة ساعة هو فى ذاته نصر مبين ، ولكن أين من يفهم دقائق المعانى فى حياة الشعوب ؟

دلونى على كاتب واحد استطاع أن يخلق فى

قومه الشعور بأنهم يعيشون فى وطن نبيل ؟

دلونى على كاتب واحد همد الى الجوانب القوية من زعمائنا وقادتنا فى القديم والحديث فأفصح عنها إفصاحا يجعلها مضرب الأمثال فى المشرق والمغرب على نحو ماصنع كتاب الانجليز والفرنسيس والطليان والألمان ؟

أيها الناس

إن اللغة لاتكون من مقومات الاستقلال الا يوم تشغلنا بمخاوفنا وأمانينا ، ويوم تصبح من القوة بحيث يكون لها عشاق فى المشرق والمغرب ، ويوم تطغى فى وطنها وتستطيل فلا يكون لها مزاحم ولا منافس ولا شريك .

وخلاصة القول أن اللغة لاتكون من مقومات الاستقلال إلا يوم يشعر الناس جميعا بأن لها فى وطنها سلطانا دونه كل سلطان ، يوم يشعر من يدخل ميناء الأسكندرية أو بورسعيد أنه فى حاجة إلى مترجم ، وأن مصالحه تعطل إن جهلها كل الجهل ، على نحو ما يقع لكل وافد يطأ الأرض الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية .

وأول مايجب لتحقيق ذلك هو إعزاز اللغة فى

أنفس أبنائها ، وهى لاتعز فى أنفسهم إلا حين تغنيهم أو تكاد تغنيهم عن جميع اللغات ، حين تصبح لغة العلم والمدنية فيجد فيها كل طالب مايسعفه من المراجع فى العلوم والفنون والآداب .

لاتكون اللغة من مقومات الاستقلال إلا حين تفى بأغراض الجد والهزل ، وتربط أبناءها بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أوثق رباط ، وسيكون هذا مصير اللغة العربية فى مصر إن صحت العزائم وسلمت النفوس .

وهذا أمل ليس بالبعيد ، فلا تحسبونى من الحالمين .

■ ١٩ ■

والدين ؟

أهو أيضا من مقومات الاستقلال ؟

وكيف وفى الشرق والغرب ناس يتحللون من الدين ليعيشوا سعداء ؟

هذه فرنسا تحارب رجال الدين وتحول بينهم وبين مناصب التعليم ، ثم تعيش مع ذلك فى حرية واستقلال .

وتلك تركيا تقلم أظفار الأشياخ وتقبل على الحياة المدنية ، فلا يزيدها ذلك إلا قوة ، واستقلالا إلى استقلال .

ولكن مهلا ، فان تلك الأمم القوية لم تحارب غير الدين المزيف ، أما الدين الصحيح فهو بلا ريب من مقومات الاستقلال .

الدين المزيف بلاء يصبه التأخر على الأمم

والشعوب لأنه يمنح الكسالى والعاطلين سلطانا خطرا يشل حركة التقدم والنهوض . ورجال الدين المشعوذون لهم سوابق فى قتل الحرية ، واضطهاد الأحرار ، وطمس معالم العلوم والفنون .

أما الدين الصحيح فهو ثروة قومية يجب أن يحرص على تنميتها ساسة الشعوب .

الدين الصحيح حجاز من الزيغ والإفك والبهتان ، وهو حين يقوى يصبح من أدق الموازين فى ضمائر الأفراد ويغنى الدولة غنى لايعرف قيمته إلا من يعرف ما للخلق القويم من أثر حميد .

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لانعدمت النمائم والسعايات والوشايات ، وانقطعت هذه المجازر البشرية التى يخلقها الدس والاغتياب .

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لما رأينا شهود الزور يضللون القضاء بلا حياء .

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لما استطال الأقوياء على الضعفاء ، ولما رأينا ذلك الحقد الذى يبيته الفقراء للاغنياء .

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لقل البغى والعدوان ، وعرف كل أمرىء قدر نفسه ، وأطمأن إلى أن الله مالك الملك ، يؤتى الملك من يشاء .

الدين ثروة قومية وهو عماد من عمد الاستقلال ، لأنه يصحح ضمير الفرد ، ، والفرد الصحيح الخلق ليس إلا حجرا سليما فى بناء القومية .

حدثنى بربك ماهذه الملايين التى تعمر وادى النيل ؟

ماقيمة هذه الملايين وأنت لاتستطيع الأخذ والعطاء إلا بسند مكتوب ؟

اذهب إلى أية محكمة وأحضر جلسة أو جلستين ، فان فعلت فسترى القاضى ينفق أربعة أخماس جهده فى فحص المستندات واستجواب الشهود .

أكان يحتاج القاضى إلى ذلك كله لو كان للناس وازع من خلق ودين ؟

الله أكبر !

لايزال من تقاليد القضاة أن يقولوا للشاهد

قل : «والله العظيم أشهد بالحق» .

وكم رأينا ناسا يحلفون بالله العظيم ثم لايشهدون بالحق !

ما قيمة هذه المخلوقات ؟ وما الذى يفرحنا حين نعدهم كل خمس سنين فنراهم زادوا مليونا أو مليونين ؟

ماقيمة هذه المخلوقات وأنت لاتعادى من تعادى ولاتصادق من تصادق إلا على حذر ؟

مافضل هذه الملايين وليس فيهم مَن يعصمه الحياء من الزور ، أو يصده الدين عن البهتان ؟

خاصم رجلا واحدا ، على سبيل التجربة ، ثم انظر كيف يطعن فى عرضك ، وكيف يلغ فى دمك ، وكيف ينسى أنه مسئول أمام الله عما يقترف لسانه النجس الخبيث !

إنك لاتستطيع اليوم أن تعادى أحدا فى سبيل الحق ، لأن الدنيا انقلبت إلى مطامع يترفع عنها الحيوان .

أتروننى أظلم قومى ؟ أنا لا أظلمهم ، وإنما أشرح بلية اجتماعية يشكو منها أحرار الرجال ،

تقولون إن الدين من مقومات الاستقلال ، فدعونى أشرح كيف يكون ذلك ، وأنا أصرح بأن مانعانى من البلايا الأخلاقية لم يقع إلا بسبب ضعف الدين ، ولو كان الناس يؤمنون بأن الله يعلم ما يضمرون ومايعلنون لكف قوم عن إيذاء قوم ، وتورع فريق عن الإضرار بفريق .

■ ٢٠ ■

الدين من مقومات الاستقلال

ولكن أى دين ؟

أهو ذلك الدين الذى يتمثله ناس فى الصلاة والصيام واصطناع شمائل النساك ؟

لا ، لا

الدين الذى يبنى الأمم هو الدين الذى يهتم أهله أولا وقبل كل شىء بالفضائل الإيجابية .

لايكفى أيها الناس أن تصلوا وتصوموا وترسلوا لحاكم وتكثروا من التسبيح ، فهذه فضائل ، ولكنها فى روحها فضائل فردية .

إن الدين الذى يسند الاستقلال هو الدين الذى صوره الرسول حين قال .

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»

الدين الذى يصون الاستقلال هو الدين الذى

يوحى إليك بأن تكون عون أخيك فى المغيب ، هو الدين الذى يفرض عليك الإيمان بأن عرض أخيك هو عرضك وماله مالك ، وهواه هواك .

هو الدين المضمّخ بالنفحات الشعرية الذى يوجب عليك أن تفرح لفرح أخيك ، وأن تحزن لحزنه ، وإن تقطعت بينك وبينه الأسباب .

هو الدين الذى صوره شوقي حين قال :

مقدونيا ـ والمسلمون عشيرة ـ
كيف الخؤولة فيك والأعمام

هو الدين الذى تتمثل به كل فرد من أمتك وكأنه إنسان من أهلك .

هو الدين السمح الكريم الذى تغنّى به الرسل والأنبياء .

وهذا الدين الذى نتحدث عنه هو الدين الذى يرفع قواعد الاستقلال ، وبدونه لايرفع لأمة بناء .

إن الدين الحق يوصى بدفن الضغائن والحقود ، والناس لايستطيعون التعاون على بناء الوطن إلا إن استطاعوا التعاون على بناء الاخاء .

فانظر أين أنت من إسعاد قومك ، فإن كنت رجلا يفرح لفرح عدوه ويشجى لشجاه ، فأنت أمرؤ فيك خلق ودين ، وإن كنت لاتفكر إلا فى نفسك وفى أشياعك فأنت من العصبة الوحشية التى أطال فى ذمها الحكماء .

- ٢١ -

الدين من مقومات الاستقلال

ولكن أى دين ؟

أهو ذلك الدين الذى يقوم على قواعد الرياء ؟

رباه ، كم قاسينا من عنف المرائين !

إن الرياء فى الدين باب إلى الخراب ، لأنه يروض الناس على التكلف والافتعال فيما يأخذون وما يدعون ، ويوحى إليهم أن المراوغة لباقة وذكاء .

أنا أشتهى أن أومن ، ولكن الشوق يخمد فى قلبى كلما تذكرت أعمال المرائين .

أليس من الحق ، أيها الناس ، أن الصراحة فى زماننا خلق بغيض ، وأن النفاق يسمو بصاحبه أحيانا الى رفع الدرجات ، وأن المداهنة أصبحت أمضى سلاح ؟

تلك بلية خلقية نشير اليها كارهين ، لأنها تهدم قواعد الاستقلال ، ونحن لانذكر الاستقلال لاهين ولا عابثين ، وإنما نغرم بالاستقلال لأن فيه شرف الشعوب ، ولن تشرف أمة تتغاضى عن أعمال المرائين .

ولست آوصى بإعلان الحرب على آهل النفاق ، وإنما أوصى بالحذر منهم ، لأنهم سوس الخراب فى هيكل الاستقلال .

ومن واجب القائمين بالأمر أن يحذروا المنافقين ، لأن النفاق خليق بأن يأتى على بناء الوطن من القواعد ، والعياذ بالله ، وإنما أعنى الرؤساء الذين يصغون إلى كل مرجف ، ويصيخون إلى كل مشاء بنميم ، أوصى بالحذر من مرضى الحذلقة والمراءاة وافتعال النزاهة والاخلاص ، أوصى بالفرار من كل مخلوق لا يضحك إلا حين يبكى الناس ، ولا يفرح إلا يوم يحزنون .

والى من أتوجه بهذا النصح ؟

لست أدرى والله الى من أتوجه ، فقد ساء ظنى بأبناء الزمان ، ولكن لا بأس من توجيه القول الى

من تفضلوا بدعوتنا الى الكلام عن فضل الدين فى بناء الاستقلال ، ولا بأس من توجيهه الى أعضاء لجنة التحكيم فى المباراة الأدبية ، فقد أغناهم الله من فضله ، ورفعهم عن مذاهب الضعفاء ، وكل رجل منهم يقدر بلا مشقة على حرب هذا الخلق الذى ينافى الدين الصحيح ويهدم الاستقلال .

وليس من الفضول أن أتوجه اليهم بذلك فقد دعونا الى ابداء ما عندنا من آراء ومقترحات ، ومن الفضل أن يصغى الآباء الى الأبناء وليس أمام الحق فاضل ومفضول .

■ ٣٢ ■

أحب أن اعرف كيف يكون الدين سياجا لبناء القومية ، وأنا أتمثله قوة معنوية وروحية تضمن سلامة الوطن من الوجهة الداخلية ، فإذا تحاب الناس وتصافوا وتآلفوا كانوا قوة هائلة شبيهة بالأعضاء القوية فى الجسم السليم .

إن الاخلاق الدينية فى بناء الأمة تذكرنا بالجراثيم النافعة التى يقوم عليها جسم الانسان ، ألم تسمعوا أن هناك جراثيم فى داخل الجسم تثب دفعة واحدة فى وجه الجراثيم الضارة التى تفد مع الطعام أو الشراب ؟

كذلك تفعل الاخلاق الدينية ، فإن الأمة حين تصح فى دينها تظل قوية متينة ، لا يفد

عليها واغل الا دفعته عنها بقوة وجبروت .

وهذا هو التفسير الحق لكلمة من قال : إن الدين من مقومات الاستقلال .

■ ٣٣ ■

ثم ماذا ؟

إن الدين الحق يعصم من الشقاق ، ولن يكون الدين من مقومات الاستقلال إلا حين يصون الوحدة القومية من التفكك والانحلال ، ولعل السر فى كره البدع أنها تقسم الناس الى شيع وأحزاب ، وتغريهم بالتعادى والعناد ، وترميهم بأسباب الفتون .

والأمة السعيدة بدينها هى الأمة الموحدة المذهب ، أما الأمة المشتتة فى نوازعها الدينية فهى أمة ضعيفة الرأى منحلة العزم ، لا يرجى لها سلام .

ولكم أن تستفتوا التاريخ .

أتذكرون كيف سقطت بغداد فى أيدى التتار ؟

إن ذلك لم يقع إلا بسبب أنقسام الأمة العراقية الى عصبتين مختلفتين فى الدين .

وما لنا نستشهد بالتاريخ ؟ إن فى الحاضر عبرة ، فقد جدت فى مصر نفسها فتن دينية يعرفها من يخالط السواد فى الأحياء الشعبية ، ويكفى أن يعرف القارىء أن فى القاهرة مساجد يدخلها ناس ، ويطرد منها ناس ، وأن فى بعض القرى أسرات تتقاطع أبشع التقاطع بفضل الانقسام فى مذاهب الدين .

ولست بهذا أوجب أن يقفل باب الاجتهاد ، وأنما أوصى بأن تحصر الأبحاث الذينية على البيئات العلمية ، وأنصح بأن يحرس العامة حراسة شديدة من المشاركة فى الخلافات المذهبية والدينية .

إن العوام هم ذخيرة الأمة ، ومنهم يتكون الجيش وبفضلهم تقوم المتاجر والمزارع والمصانع ، فمن الحزم أن يعيشوا على عقيدة واحدة ومذهب واحد ، ومن البلاء أن تتكرر المأساة التى وقعت فى شبين الكوم منذ عام ،

والتى تقع أشباهها فى كل يوم ، وإن لم تدون أخبارها فى محاضر البوليس .

ومن الحزم أن تسارع الحكومة الى حراسة الأهلين من انقسامات الصوفية ، فإن التصوف أصبح فى أكثر البلاد من أسباب الشقاق ، مع أنه فى الأصل من أسباب الألفة والصفاء .

ولايمكن تحقيق هذا الغرض الا بتخير من يقومون بالدعايات الصوفية ، ويجب أن يكونوا من أهل النزاهة والاخلاص . أما جعل الديار المصرية مسرحا للمفاضلة بين الخلوتية والشاذلية فهو باب من الشر لايعرف أخطاره الا من عرف عقول العوام ورأى كيف يختصمون ويقتتلون لأتفه الاسباب .

■ ٢٤ ■

يظهر أنكم ترتابون فى خطر الشقاق،

تفضلوا بتأمل هذه الصورة :

يذهب المصلون الى المسجد الجامع يوم الجمعة فيسمعون سورة الكهف بقلوب لاتخلو من قلق ، لأن فيهم من يراها سنة ، وفيهم من يراها بدعة ، فإذا أذن المؤذن انقسموا الى فرقتين : فرقة تبيح السلام على النبى بعد الاذان وفرقة تأباه ، فاذا قامت الصلاة رأينا من يسر القراءة ، ورأينا من يكتفى بقراءة الامام ، فإذا أنتهت الصلاة رأيناهم جماعتين : جماعة تصلى الظهر وجماعة تنصرف .

وهذه الصورة لايعرف خطرها المثقفون من أهل الحواضر لأنهم لايقيمون وزنا لأمثال هذه الشئون ، إذ كانت عقولهم أرفع من أن تختصم فى

غير مختصم ، ولكنها تبدذ قوىِ الاهالى فى الريف وتهد من بناء الاستقلال .

وأنا أقترح أنٍ يَطِبَّ أهل الرأى هذا الجرح ، وأتمنى أن تعيش الأمة كلها على مذهب واحد فى الأصول والفروع ، على نحو ما كانت تركيا فى العهد القديم ، فقد كانت فى مسائل التوحيد على رأى واحد ، وكانت فى التشريع على مذهب واحد ، ومن المحقق أن وحدة تركيا فى نوازعها الدينية ، كانت من أهم الأسباب فى سلامة وحدتها القومية .

أقول هذا وأنا أعرف أن خطر الانشقاقات المذهبية فى مصر صائر الى الزوال ، ولكن لابأس من التنبيه الى ما بقى من أوزاره ليحذره المصلحون .

■ ٢٥ ■

وتظهر بشاعة الانقسام إذا تذكرنا ما فقدنا بسببه من النعيم .

أتذكرون السر فى تفضيل صلاة الجماعة ؟ أتذكرون السر فى الدعوة الى اجتماع أهل البلد الواحد ، فى مسجد واحد ، مرة فى كل أسبوع ؟ أتذكرون السر فى التشويق الى أداة صلاة العيد فى ضاحية البلد ليتيسر للناس جميعا أن يتصافحوا بالأيدى والقلوب ؟

تذكروا السر فى ذلك لتعرفوا أننا حرمنا نعيما كثيرا منذ ابتلينا فى ديننا بالخلاف .

وليس هذا كل ما حرمناه ، فقد انعدمت صلاة الجماعة ، أو كادت ، ومضت صلاة العيد الى اللحاق بذكريات التاريخ ، ولم يبق لنا نصيب من أسباب الصفاء .

ليت من يختصمون ويقتتلون بسبب المنازعات الأدبية والسياسية يعرفون السبيل الى المساجد ! إنهم لو فعلوا لكان من اليسير أن تذهب أحقادهم حين يتصافحون عقب الصلاة .

ليت من يتعادون يلتقى بعضهم ببعض فى صلاة العيد ! إنهم لو فعلوا لدفنوا أحقاد العام الماضى ، وقلدوا العام الجديد وساما من ود جديد .

أليس الصفاء الذى نشير اليه من بعض ما يصنع الدين فى بناء الاستقلال ؟

لقد حاول سمو الأمير عمر طوسون منذ سنين أن يجمع أهل الاسكندرية فى مكان واحد فى أيام الأعياد ، وكانت فكرة سامية ، ولكنها لم تنجح مع الأسف الشديد .

فما الذى يمنع من إمضاء هذا الرأى مرة ثانية باسم الدين ؟ ما الذى يمنع من جعل الأزهر ملتقى لأقطاب البلاد ، فى أيام الأعياد ؟

بل ما الذى يمنع من خلق صورة جديدة للتشريفات الملكية ، بحيث تكون موسما أغر تلتقى

فيه القلوب والأهواء ، ويتنادى فيه الناس باسم الحق والدين ؟

إن أكبر ما يعاب به أهل مصر هو موقفهم موقف المتفرجين فى أيام الشقاق ، ولو عرفوا أن دينهم يوصيهم باصلاح ذات البين لوقوا مصر كثيرا من أسباب الفتون .

إن الدين من أهم القوى فى خلق التماسك الاجتماعى ، والتماسك الاجتماعى أهم ما يحفظ به بناء الاستقلال .

■ ٣٦ ■

وليس هذا كل ما يصنع الدين فى بناء الممالك والشعوب ، فهناك مزية أساسية هى خلق الشجاعة فى نفوس الناس .

الشجاعة ؟

أى شجاعة ؟

نعم ، الدين يخلق الشجاعة فى النفوس ، ولولا الايمان بعدل الله ورحمته لتهدمت عزائم وتحطمت قلوب وانطفأت أرواح .

إن الرجل المؤمن يلقى المكاره باسما ، ويوقن فى كل لحظة بأن الشر لايطارده إلا لحكمة سامية ، وبذلك يظل سليم القلب والوجدان ، فيحيا حجرا سليما فى بناء الاستقلال .

الرجل المؤمن لايتهيب العيش لأنه يعرف أن الرزق بيد الله ، وتهيب العيش محنة خلقية ابتلى

بها شبان هذا العصر ، فانصرفوا عن الزواج فرارا من الذرية التى تعرضهم فيما يزعمون للفقر والاملاق .

نريد لمصر جيلا مؤمنا يغامرة وهو متوكل على الله ، فينتصر وهو شاكر ، أو ينهزم وهو صابر .

نريد جيلا يؤمن بأنه مسئول أمام الله قبل أن يكون مسئولا أمام الناس .

نريد جيلا يبحث أولا عن الحق ، ثم يقدم إقدام الشجعان واثقا بأن النصر نصبيب المؤمنين ، وأن العاقبة للصابرين .

نريد جيلا يستهين بطغيان الطاغين ، وكيد المفسدين ولؤم الحاقدين ، لأنه يؤمن بأن الله أكبر ، ويوقن بأنه بسيمن على الذين استضعفوا فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

والشجاعة التى يخلقها الدين فى القلوب هى أساس كل خير ، فإن الرجل الذى لايملك زمام نفسه فى حياة البيت ، لايصلح جندياً في الجيش . ولايمكن لمن عجزوا عن سياسة أنفسهم

أن يصلحوا لسياسة أمتهم ، ومن عجز عن الكفاح الشريف فى سبيل الرغيف لن يقوى أبدا على

الجهاد المشروع فى سبيل الوطن الغالى .

وكيف يصان الاستقلال إن لم تحطه عزائم بنيت على الايمان الصحيح ، الايمان ، بأننا لم نخلق عبثا ، وأن النضال فى سبيل المجد الروحى والوطنى من أشرف الغايات فى الوجود ؟

■ ٣٧ ■

ومصر من أقدر الامم على تقوية العقيدة الدينية ، ففيها الأزهر الشريف ، وعندها من رجال الدين ألوف وألوف .

أفأستطيع أن أقول كلمة عن واجب الأزهر الشريف ؟

ما أحسبنى أخرج عن الموضوع ، فإن لجنة التحكيم دعت الى ابداء ما عندنا من آراء ومقترحات . وأنا أعوذ بالله من الفضول .

الأزهر يستطيع أن يضاعف جهده فى خدمة اللغة والدين .

يخدم اللغة لأن فى إذاعة النصوص الاسلامية خدمة لغوية ، وليس من الاسراف أن نحكم بأن حياة اللغة بين الأهلين ترجع الى حفظ القرآن وتلاوته فى المآتم والأفراح ، وللمدائح النبوية

فضل فى إذاعة النصوص الأدبية ، والألفاظ اللغوية ، فإن المنشدين الذين يتغنون بمدح الرسول تركوا فى أذهان الناس مئات من الصور الشعرية ، وعلموهم كثيرا من طرائق التعبير ، وأمدوهم بكثير من المعارف فى حوادث التاريخ .

فما الذى يمنع من إنشاء لجنة أزهرية للمطبوعات الدينية ؟

ما الذى يمنع من نشر مجموعة لطيفة نذيع بها نحو ألف حديث من كلامِ الرسول ، ونطبع منها ملايين توزع بثمن يقدر عليه جمهور الفقراء ؟ .

ما الذى يمنع من نشر مجموعة تحوى أروع الأخبار أخبار الصديقين والشهداء ؟

وما الذى يمنع من اختيار طائفة من الأحاديث والآثار تكون مادة للمطالعة فى المدارس الابتدائية والثانوية ؟

■ ٣٨ ■

وبهذه المناسبة أصارحكم بأن الصلة كادت تنقطع بين الأزهر ووزارة المعارف ، بل هى انقطعت فعلا منذ أعوام طوال ، وأخشى أن تكون هذه القطيعة بداية العداوة بين الحياة المدنية والحياة الدينية ، وهي عداوة خطرة العواقب ومن واجبنا أن نتقى شرها منذ اليوم .

وانا اقترح ان يلحظ في التلميذ أنه سيكون عضوا فى المجتمع الشعبى قبل أن يكون عضوا فى المجتمع المثقف ، والمجتمع المثقف قد لايضيره أن يجهل أصول الدين ، لأن حياته فى الأغلب موصولة بالمدنية الغربية التى تناست خطر الدين .

ولكن ماهو المجتمع المثقف الذى نعتمد عليه فى بناء الاستقلال ؟

أهو تلك الفئة القليلة الضئيلة التى تمضغ الأخبار فى القهوات ، ولا تصلح لاقامة مصنع أو متجر أو مزرع ، ولاتقوى على مواجهة الخشونة فى حياة الجندية ؟

المجتمع الشعبى هو الأصل ، فلنرض أبناءنا على فهم مافيه من قواعد وأصول ، وهو لاينهض إلا على أساس الدين .

■ ٣٩ ■

وهذا يفرض علينا أن نفكر جديا فى مصير التربية الأزهرية فإن الأزهريين لهذا العهد لم يعد يهمهم أن يتصلوا بالحياة الشعبية ، فقد انتهبوا كلمة (المستقبل) من تلاميذ المدارس ، وأخذوا يترقبون حظوظهم فى المصالح والدواوين ، وذلك من أهم المقاتل فى حياة الاستقلال .

لقد آن للأزهر أن يعرف واجبه ، آن للأزهر أن يفكر فى استرجاع سلطانه الذى ضاع .

أين الأيام التى كان يحتفل فيها الأهالى بقدوم الأزهرى الصالح الذى يحدثهم عن الله والرسول ؟

أين الدروس التى كنت أشهدها وأنا طفل بعد صلاة العصر فى رمضان ؟

أين الآمال الحلوة التى كنا نسمعها من العلماء عن مصير الصالحين ؟

أين ، أين تلك الوسوسة الخلقية الظريفة التى كانت تنتاب من يخرج على بعض آداب الصلاة أو الصيام ؟

اين الزواجر التى كان يرتعد من هولها من يقترفون إثم النميمة والاغتياب ؟

أيها الناس !

أنا أشتهى أن أومن ، فخذوا بيدى موفقين الى رحاب الدين ، الدين السليم من أوضار الشرك والرياء .

■ ٣٠ ■

والعادات ؟ أهى أيضا من مقومات الاستقلال ؟

نعم العادات من مقوماث الحياة فى الممالك والشعوب ، ولكن كيف ؟ إن ذلك يحتاج الى تفصيل .

ولنبدأ فنذكر أن العادات كلمة قديمة كان يسميها ابن خلدون عوائد ، وهى اليوم تعرف باسم التقاليد ، ويكاد العرف الحاضر يفرق بين اللفظين : فالعادات للأفراد ، والتقاليد للجماعات والهيئات ، فالعادات شخصية والتقاليد جماعية .

ويغلب على الظن أن الذين وضعوا العنوان تحاموا كلمة التقاليد عامدين لسبب طارىء لايخفى على اللبيب .

ولكن نحن لا نرى بأسا من الحرص على كلمة

(تقاليد) لأنها فى العرف الحاضر تنفرد بمدلول خاص ، وسيقول الناس (تقاليد جامعية) و (تقاليد دستورية) وإن تحاماها من فرضوا هذا العنوان .

■ ٣١ ■

والعادات تميز الأمم بعضها من بعض ، وهى من أجل ذلك تعد سمة شخصية ، والسمات الشخصية من أظهر الدلائل على حيوية الشعوب .

ولنداعب الموضوع قليلا فنذكر أن لكل أمة أذواقا فى الطعام والشراب ، ففى مدينة باريس مثلا يرى المتطلع مطعما تركيا ، ومطعما نمسويا ، ومطعما صينيا ، ولكنه لن يجد مطعما مصريا ، لأن المصريين ليس لهم مذاهب فى الطعام والشراب ، وأكاد أجزم بأن مصر لاتنفرد فى أطعمتها بغير البصارة والفول المدمس والفطائر فطائر المواقد والأفران .

ويحار الشاب المصرى حين يفكر فى إنشاء مطعم بمدينة أوربية ، لأن مطعمنا أندمج فى المطعم التركى منذ أجيال ، ولم يبق لنا

خصائص ، حتى فى أوانى الطعام والشراب ، ولنا فى ذلك عذر مقبول ، فإن موقع مصر الجغرافى جعلها ملتقى الوافدين من الشرق والغرب ، وفرض عليها الأخذ من كل مدنية بنصيب .

وإنما خصصت هذا الجانب بهذه الفقرة لأدل القارىء على قيمة الخصائص الذاتية ، ولأستطيع التحدث عما تعود الناس فى هذه البلاد .

■ ٣٢ ■

وما قلته عن الدين أقوله عن العادات ، فالعادات لاتكون من مقومات الاستقلال إلا إذا كانت صوالح أما العادات السيئة فهى من أسباب الانحلال .

والمهم فى العادات الصوالح أن تصبح قوانين ، وألّا يخرج عليها ألا المفسدون ، ومتى تأصلت العادات الصوالح وأصبحت رعايتها قانونا قوميا شعر الناس بقوة فى حيويتهم الذاتية ، وأصبحوا بفضلها كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وكان حرصهم عليها من مقومات الاستقلال .

■ ٣٣ ■

كان من عادات المصريين أن يبدأ بعضهم بعضا بالتحية على الطريقة الإسلامية .

أما اليوم فقد انقرض هذا التقليد الحميد ، وأصبح المؤمن لايحيي المؤمن إلا إذا سبق التعارف ، وتلك عادة نقلناها عن الأوربيين ، وحملنا وزرها الثقيل .

وأنا أوصى بالرجعة إلى ذلك التقليد الجميل ، لأن له مزايا فى تقريب القلوب بعضها من بعض ، ولأنه يشعر بالأخوة الروحية والوطنية ، ويخلق للرجل ألوفا من الاخوان .

أنت فى هذا الزمن لاتواسى غير من تعرف ، فلو رأيت مأتما فى طريقك لتحاميت الذهاب إليه ، إلا أن يكون أهله من المعارف والأصدقاء .

ولم يكن الحال كذلك فى العصر الخالى ، فقد كان من الواجب على الرجل أن يمشى فى كل جنازة ، وأن يواسى كل محزون ، وألا يخص ببره أصدقاءه وعارفيه ، وكان من عاداتِ الناس أن يصافحوا كل من يلقون فى أيام الأعياد ، وأن يتبادلوا التهانى وإن التقوا بلا معرفة على ظهر الطريق .

ولست فى حاجة إلى توكيد القول بقيمة هذا التقليد فى ربط الأواصر القومية ، فهو أوضح من أن يحتاج إلى بيان .

وتظهر قيمة ذلك التقليد الحميد إذا تذكرنا تفاهة ما صرنا إليه فى تحيات الأعياد ، فعهدى بالمصرى الحديث يركب سيارة ويطوف بأحياء المدينة فيترك لكل صديق بطاقة ثم ينصرف من دون أن يرى أحدا ، ونسى الناس قيمة المصافحة والتقاء الأعين والقلوب .

قد تعتذرون بأن الشواغل كثرت وصار الوقت أضيق ، ولكن ما رأيكم فى أننا غلونا فى ذلك غلوا صار بنا إلى السخف ، والعياذ بالله من قلة الذوق !

ألا تعرفون أن ترك البطاقة عند البواب فى أيام الأعياد صار أقوم من التحية بالتليفون ؟

ألا تذكرون أن التحيات الموسمية لم يعد لها قيمة إلا فى حساب مصلحة البريد ؟

ألا تذكرون أن المجاملات الواجبة صارت فى صميمها أعمالا آلية لاتغنى ولا تفيد ؟

وماقيمة هذه المتاعب في وصل القلوب ؟

ماقيمة البطاقة الصماء التى تمزق بعد نقل العنوان ؟

ماقيمة الأعياد إن لم نتنسم بها أرواح الأنس بتجديد الصلات ؟

لقد كان الناس يهتمون بالعيد فينظمون القصائد ، ويحبرون الرسائل حين يعز عليهم التلاقى ، أما اليوم فقد اكتفينا بالاشارات الدبلوماسية التى نقلناها عن أهل لندن وباريس ، وفاتنا أن لكل بلد تقاليد ، وأن مايحسن هنا قد يقبح هناك .

■ ٣٥ ■

وكان من عاداتنا أن نقيم السهرات فى البيوت ، أما اليوم فقد انتقل السامر إلى القهوات .

وليتكم تعرفون أى أنس فقدنا منذ حرمنا المنازل بهجة الأسمار والأحاديث ؟

ليتكم تعرفون خطر ما نعانى من التبذل بالجلوس فى المشارب والقهوات ؟

ليتكم تعرفون كيف خفت موازين الناس منذ نفروا من هيبة العرين ؟

لقد كانت لياليا كلها مواسم تشبه ليالى رمضان ، فصرنا لا نتلاقى إلا فى أندية تثقلها الكلفة ، ويعوزها الأنس ، وينقصها الصفاء .

كانت بيوتنا منتديات روحية يعرف بها أطفالنا من نألف ومن نحب ، فأصبحت مقفرة موحشة ،

وأصبح الصديق لايلقى الصديق إلا سأل : أين تسهر وكيف نراك ؟

والويل كل الويل لمن يحدث أبناء الزمان بأنه لايسهر إلا فى البيت وأنه يكره التبذل فى المشارب والقهوات ، وازنوا بين الحالين ، وانظروا أى المذهبين أفضل فى بناء الاستقلال .

■ ٣٦ ■

والحرص على التقاليد يعد بابا من الحرص على التراث القومى ، لأن التقاليد الصوالح لم تكن إلا ثمرات لجهود الألوف من المصلحين فى مختلف الأجيال ، وما نراعيه من الآداب فى غدواتنا وروحاتنا وأفراحنا وأحزاننا ، ليس إلا دروسا تعب فى نشرها الأسلاف ، والعاقل يحرص دائما على الأساس السليم الذى تركه الأجداد ويبنى عليه فى اطمئنان ، ولا يفكر فى زعزعة التقاليد إلا من يجهل ماسيحتاج إليه من الجهد فى تعويض الأدب المفقود

فرعاية التقاليد تنفع من وجهين :

تنفع لأنها سناد حيوى فى صيانة المجتمع وتنفع لأنها توفر علينا جهودا كثيرة حين نفكر

فى تعويضها بآداب جديدة .

وليتذكر القارىء دائما أننى أعنى التقاليد الصوالح ، أما التقاليد الفواسد فحربها من أهم مايعنى به المصلحون .

■ ٣٧ ■

ولاينبغى أن ننسى الاشارة إلى مقام مصر الحديثة فى عالم التقاليد ، فهى اليوم تعانى أزمة لم تعرفها من قبل ، لأن مصر ليس فيها جمهور واحد ، وإنما هى جماهير كثيرة ينظر بعضها إلى بعض نظرات مختلفة لاتخلو من قلق وامتعاض .

واصطراع التقاليد فى مصر يضيع على أهلها كثيرا من الجهد والوقت ، وأكاد أجزم بأن فى كل بيت جيلين يقتتلان ، فالشاب الذى يشاهد الأشرطة السينمائية ويرى فيها مايرى من تقاليد أهل الغرب فى حياة الاجتماع ، هذا الشاب لا يتأتى له الانسجام مع أهله وذويه فى أكثر الأحيان .

ولايمكن الغض من قيمة هذه النظرة ، ولا ادعاء

أنها خيال كاتب يتوهم مالا يكون ، فقد أنفقنا من الورق والمداد مايقدر بالألوف من الجنيهات فى سبيل الجدل حول السفور والحجاب ، وقضينا سنين نختصم حول مايقدم إلى البنات من العلوم . وسنقضى أعواما كثيرة فى نضال إلى أن نتفق على ماتجب مراعاته من محمود التقاليد .

ومعاذ العقل أن أنتظر أن تخلو الدنيا من الشغب حول المبادىء والآراء ، ولكن لامفر من التنبيه إلى أننا جاوزنا حد المعقول من الخلاف .

على أنه لم يكن بد من وقوع ماوقع ، فقد أرسلنا إلى أوربا بعثات علمية ، واضطررنا اضطراراً إلى نقد ماكنا عليه من شتى التقاليد .

وأنا أطلب المستحيل حين أوصى بفض هذا الخلاف ، فهو خلاف يوجبه ظرف الزمان والمكان ، ولن تستريح مصر إلا يوم تنحاز انحيازاً تاماً إلى إحدى المدنيتين : الشرقية أو الغربية ، وأعتقد أن هذا أمل عزيز المنال ، ففى مصر قوتان : قوة الجامعة المصرية وقوة الأزهر الشريف والجامعة المصرية لن تسكت أبداً عن الدعوة إلى المدنية الغربية ، لأنها أنشئت لذلك ،

ولأن فيها قوى أدبية من الأساتذة الأجانب ، وهم ينقلون إليها تقاليد الغرب بلا انقطاع ، ويزيد في خطر الجامعة المصـرية أنها أمنية قومية وأن مصـر تحتاج بالفعل إلى مدد من الحيوية الغربية .

ويزيد في هذا الخطر تشوف الشبان إلى أدب أهل الغرب ، وشوقهم إلى الجرى في ميادين جوت وبيرون ولامرتين ، وقد جروا في ذلك أشواطا يعرفها كل من يتلمس أخبارهم في حياة المجتمع ، وينظر مادرجوا عليه في مذاهب الفكر والمعاش .

والأزهر لن يسكت أبداً عن الدعوة إلى المدنية الشرقية ، ولن يكف أهله عن التذكير بمجد الأسلاف .

ويزيد في خطر الأزهر قرب أهله من قلوب الجماهير الشعبية ، وقدرته على بث الحبائل والأشراك للمدنية الغربية .

وقد ظن ناس أن الأزهر انهزم وأن مدنية الغرب لن تتركه يعيش ، ثم تبينوا بعد لأى أنهم كانوا واهمين ، وأن الأزهر نسج شبكة من الوعاظ سيطر بها على الناس في أرجاء البلاد .

■ ٣٨ ■

إذن لن نصل إلى وحدة التقاليد مادام فى مصر جامعتان لاتلتقيان ، وكيف تلتقيان وقد فصل بينهما النيل : فقامت إحداهما على الضفة الشرقية ، وقامت أخراهما على الضفة الغربية ، واختلاف المواطن يؤذن باختلاف الأرواح !

لاتحسبونى أمزح ، فأنا أوقن بأن هاتين الجامعتين ستعيشان متعاديتين ، وستظلان من أسباب الفرقة فى العادات والتقاليد ، وسيظل الأزهرى يشعر بالغربة حين يدخل الجامعة المصرية ، والجامعى يشعر بالغربة حين يزور الأزهر الشريف .

فما الذى نصنع لصيانة الاستقلال من زوابع هذا الخلاف ؟

أعتقد أن خير الوسائل لذلك هى الدعوة إلى

سعة الصدر ومرونة العقل ، ومن الممكن أن نروض الجيل الجديد على فضيلة التسامح ، ونربيه على فهم الواقع ، والاطمئنان الى أن الله لم يخلق الناس أمة واحدة ، وانما لونَّ فيهم وصنَّف لحكمة يدركها العاقلون .

يجب على أولى الرأى أن يحسموا الخلاف بين هذين الجيلين اللذين يعيشان فى بلد واحد ، ويصبغان العادات والتقاليد صبغات مختلفات الألوان ، ويخلقان الشغب والقلق فى كثير من الطبقات ، ويردان الأمة الى جيشين يصطرعان .

وكل خطوة فى هذا السبيل تصون بناء الاستقلال من معاول الهادمين .

تذكروا هذا ، أيها المصلحون ، واعلموا ألَّا نجاة لهذا البلد إلا بمحو العصبية التى تشب نارها من حين الى حين بسبب اختلاف التقاليد .

■ ٣٩ ■

وأنا مع هذا أعترف بأن اختلاف الناس فى العادات يخلق بينهم ضرباً من المباراة فى الحياة العقلية والخلقية ويحض كل فريق على السبق ، ويسوقه سوقاً الى ميادين النضال .

هذا حق ..

ولكن احذروا خطر الفرقة والشقاق ..

إن مهمة المصلح فى هذا العصر هى التوفيق بين هاتين الطائفتين ، ولعل التوفيق المنشود يمزج بين ماتنافر من التقاليد ، فيصل بنا إلى تقاليد جديدة تجمع بين حدة الغرب ورفق الشرق ، ويومئذ نشعر بأننا بنينا صرحاً من حميد العادات نصون به الاستقلال .

ومن المؤكد أننا خطونا فى هذا السبيل بعض

الخطوات ، فعندنا أساتذة يدرّسون فى الأزهر وفى الجامعة المصرية ، وهؤلاء الأساتذة يوفقون بين العقليتين من حيث يشعرون أو لايشعرون .

ومن عجيب المصادفات أن أكثر الذين يؤثرون فى طلبة الجامعة هم فى الأصل أزهريون ، وأن الأساتذة الذين يؤثرون فى طلبة الأزهر أكثرهم جامعيون .

ومن هنا نعرف أن التوفيق بين العقليتين تسوقه الظروف بلاعناء ، وأن الأمل فى وحدة التقاليد ليس بعيداً الى الحد الذى توهمنا منذ لحظات .

■ ٤٠ ■

أقول هذا وأنا أعرف أن الأزهر ينفر نفره شديدة من التقاليد الجديدة .

ولكن أى « أزهر » ؟ هو الأزهر الذى يتمثله فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى يكره ان يقيم الأزهريون اندية رياضية ، ويأبى عليهم أن يتبذلوا فى ملابس اللاعبين ، كما صرح فى حديث نشرته جريدة البلاغ .

ولكن الاستاذ الاكبر يعرف جيدا حكم الزمن فى تطور التقاليد ، ولذلك رأيناه يعلن انه لا يعارض فى اشتراك الأزهريين فى الاندية الرياضية ، ماداموا بعيدين عن حرم الأزهر الشريف .

والحق ان الأزهريين يتحرقون شوقا الى الاندماج فى البيئات المدنية ، وسيفضى بهم ذلك الشوق الى احدى اثنتين : الفناء في تلك البيئات ، أو النفرة منها نفرة ابدية يعلنون بها حربا لا صلح بعدها ولاسلام ، وفى التقاليد عداوات تشبه عداوات الاجناس .

وقد اتفق لطلبة الأزهر ان مثلوا رواية مجنون ليلى مدد شهرين ليتم لهم ما يريدون من التشبه بطلبة الجامعة المصرية ، ولكنهم وقعوا فى خطأ سخيف حين مثَّل احدهم (ليلى) بلا تحرج ولا حياء .

وما احب ان استقرى الشواهد على صحة ما أذهب اليه من سعى الطبقات المختلفة بعضها الى بعض سعيا حثيثا سينتهى بالالتقاء او الاقتراب .

وكل ما ارجوه ان نظفر من هذا كله بمزاج جديد من التقاليد نصون به الاستقلال ، ونأمن به عدوان الفرقة وطغيان الشقاق .

■ ٤١ ■

ولكن كيف يرى فضيلة الاستاذ المراغى ان طلبة الأزهر يخرجون على الوقار حين يلبسون ملابس اللاعبين ؟ وكيف يسكت سعادة لطفى السيد باشا عن ذلك فلا يصون طلبة الجامعة من التبذل حين يخلعون ملابسهم ويلبسون اقمصة الالعاب ؟

الأ ترون فى مذاهب هذين العاهلين شيئا من التنافر والتضاد ؟

إن هذه الظاهرة فى اختلاف الآراء ترشدنا الى مسألة خطرة فى حياة العادات : هى اختلاف الأزياء ، ولابد من معركة فاصلة نصير بها الى زى موحد ، ونقضى بها على اصل الخلاف ، بين مذاهب التقاليد. فى الحياة المصرية .

إن اقمصة الالعاب لا تهتك وقار الأزهريين الا لأن الناس لم يتعودوا رؤية رجال الدين فى غير العمائم والجبب والقفاطين .

وليس هناك تعليل معقول غير اختلاف الأزياء ، ولو صارت الأزياء إلى أنماط موحدة لما كان هناك مايوجب الشعور بالوحشة من انضمام الأزهريين إلى صفوف اللاعبين .

وقد سمعت أن تركيا لا تبيح لرجال الدين أن يلبسوا الملابس الأفرنجية ، أو هى لا تبيح الملابس الشرقية لغير رجال الدين .

وهذه فيما أعتقد تقاليد نصرانية ، لأن النصرانية تعترف بهيئة الكهنوت ، أما الإسلام فلا يعرف مايسمى بالطائفة الدينية ، كما بين سعادة الاستاذ لطفى السيد باشا فى مقال نشره فى (الجريدة) منذ أكثر من ربع قرن .

فما الذى يفرض علينا أن نعتبر الأزياء الشرقية

وما الذى يوجب أن يظل الأزهريون محبوسين فى ملابس يحاربها التمدن الحديث ؟

وما الذى يمنع من توحيد الأزياء فى هذه البلاد ليكون ذلك تمهيدا لتوحيد التقاليد ؟

لقد ظهرت طلائع الثورة على الأزياء الشرقية منذ عشرين سنة ، فلبس الملابس الأفرنجية مشايخ مشهورون جدا ، أذكر منهم طه حسين وعلى عبدالرازق وأحمد أمين وأذكر منهم صديقنا الشيخ زكى مبارك الذى لاأتصور اليوم كيف كان يلبس الجبة والقفطان !

ومنذ عشر سنين قامت ثورة فى دار العلوم حار فى قهرها رجال المعارف وانتهت باصطناع أساتذة اللغة العربية الملابس الأفرنجية .

ومن سنتين فكر معلمو المدارس الألزامية فى هجر الملابس الشرقية ، فقاومهم وزير المعارف الأسبق معالى الأستاذ حلمى عيسى باشا .

ومنذ تسع سنين فكر طلبة الجامعة المصرية فى لبس القبعات فقاومهم سمو الأمير عمر طوسن والمغفور له سعد باشا زغلول .

ومن كل ماسلف نعرف أننا نعانى أزمة من أزمات التقاليد : هى مسألة الأزياء .

فما أنتم صانعون يارجال العصر الحديث ؟ حدثونى ماذا تصنعون ؟ أتحاربون توحيد

الأزياء فتهزمون كما انهزمتم يوم ثورة دار العلوم ؟ أم تصطنعون الرفق فتتركون التطور يأخذ مجراه وتنجون من الاصطدام بصخرة التمدن الحديث ؟

أحب أن أعرف ماأنتم صانعون ، فان الحياة حركة ، والويل كل الويل للواقفين .

مالنا نبعد عن قصد السبيل ؟ نحن نتكلم عن العادات باعتبارها من مقومات الاستقلال فلنعترف أولا بخطر التطور ، ثم لنجزم بأن المنفعة القومية تأبى مقاومة ماليس منه بد ، فلم يبق إلا أن نبذل مانستطيع فى رعاية التطور بحكمة وعقل : فلا نقاومه ولا نشجعه ، ولا ننهى عنه ولا ندعو اليه ، وإنما نترك الأمة تتقبل وحى العصر فى رفقٍ ولين ، فتأخذ مايزيدها حيوية ، وتصدف عما يَفَلّ من قيمتها الذاتية ... وهل كانت العمائم التى يلبسها الأزهريون عربية ؟ إنها قبطية ولكنهم لايعلمون !

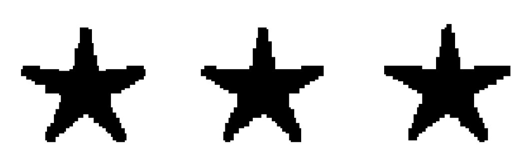
ونحن بهذا الحياد نضمن للأمة سلامة تنفعها فى المعاش فلا نبدد قواها فيما لايفيد .

واسمحوا لى أن أنص بصراحة على أن

التمسك بالتقاليد القديمة من سمات الضعف ، ولا يتغنى بالقديم ويحرص عليه بلا تعقل غير الضعفاء .

فأقبلوا على تقاليد العصر الحاضر بلا خوف ، إلا أن يكون فيها ماينافى الأدب الحق والدين الصحيح ، ولكن احذروا الوقوع فيما يقع فيه المتطرفون ، فانكم أضعف من أن تحتملوا ماوقع بالأمم العاتية التى ثارت ثورة عنيفة على مأثور التقاليد ، وهل تحتملون ما احتملت الأمة الروسية والأمة التركية ؟

والمهم أن تفهموا أن التقاليد لاتراد لذاتها ، وإنما تراد لما فيها من نفع ، فاجعلوا المنفعة القومية رائدكم فيما تأخذون وماتدعون . والله يهديكم سواء السبيل .



أما بعد

فقد آن للقلم أن يستريح بعد هذه الأشواط . وكنت رأيت أن أشترك في «المباراة الأدبية»

لأجرب العدل فى وطنى مرة بعد أن جربته ألف مرة ، وأنا لا أستبعد أن أفوز فى المرة الأولى بعد الألف ، فمثلى لا ييأس من العدل فى وطن وإن تغطرس الظلم واستطال . أما الآن - وقد رأيت كيف هدانى الله إلى رياضة هذا البحث الجموح - فانى أرد القلم إلى غمده مطمئنا بعد أن رأيت كيف جال بفضل الله جولة الجياد .

وحسبى من الفوز أن يعترف سعادة مدير الجامعة المصرية بأن فراسته لم تخب فى تلميذه القديم .

زكى مبارك

الهلال

مرآة العقل العربي

كتاب الهلال القادم :

من قصص المتاعب النفسية لابنائنا

بقلم

أمينة السعيد

يصدر : ٥ سبتمبر ١٩٩٠

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقي والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ١٩٩٠/٥٢٢٥

I . S . B . N
977 - 07 - 0009 - 6

هـذا الكتاب

فى عام ١٩٣٦ دخلت مصر مرحلة سياسية واجتماعية جديرة ، اذ عقدت معاهدة مع بريطانيا انتهى بمقتضاها الاحتلال البريطانى من الناحية الرسمية ، وأجليت قوات الاحتلال إلى مراكز محددة فى منطقة قناة السويس ، وأعتبرت هذه المعاهدة فى وقتها خطوة كبيرة فى طريق الاستقلال ، وأقامت الحكومة المصرية مباريات أدبية وفنية كبرى فى الآداب والفنون احتفالا ببداية عهد الاستقلال .. ومن بينها مباراة حول المفاهيم الاجتماعية الجديدة الملائمة لعهد الاستقلال ، وكان موضوع هذه المباراة : «اللغة والدين والعادات ، باعتبارها من مقومات الاستقلال» .

تقدم إلى هذه المباراة ـ كما تقدم إلى المباريات الأخرى ـ عدد كبير من أدباء مصر ومفكريها ، وكان من بينهم الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك الذى يعتبر من أئمة الكُتاب المصريين فى النصف الأول من القرن العشرين ، ولانتاجه قيمة أدبية وتاريخية كبيرة ..

وقد تقدم الدكتور زكى مبارك برسالته إلى المباراة بعد أن طبعها فى كتاب لم تزد نسخه على بضع مئات ، نفدت كلها ، حتى أوشك هذا الكتاب بعد أربعة وخمسين عاما من صدوره أن يعد مفقودا ، بالرغم من أهميته التاريخية والفكرية الخاصة ..

وسلسلة «كتاب الهلال» إذ تقدم كتاب «اللغة والدين والعادات» للقارىء فى سنة ١٩٩٠ وما بعدها ، إنما تؤدى واجبا عليها لكل القراء ، كما تؤدى واجبا حيال إنتاج الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك الذى لاقى الكثير من جحود عصره ، ولعل نشر كتابه هذا يرفع عن اسمه الكبير بعض ذلك الجحود ، وهو الذى عاش يهتف بالعدالة والوفاء ! ..





د. شكري محمد عياد

كتاب الهلال

نحن والغرب



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

العدد ٤٧٧ ـ صفر ١٤١١ ـ سبتمبر ١٩٩٠

المكاتبات : ص . ب ٦١٠ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ

تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 HILAL U.N.

فاكس : FAX 3625469

مكتب الاسكندرية : ٢٥ شارع النبى دانيال ـ ت : ٤٩١٢٦٩٦ / ٤٩٢٤٧٢٠

اسعار البيع للعدد فئة ٢٠٠ قرش

لبنان ٧٠٠ ليرة ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ١ دينار ، السعودية ٧ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ١٠ ريالال ، الامارات ٨ دراهم ، سلطنة عمان ٨٠٠ بيسه ، المغرب ٢٠ درهما ، غزة والضفة ١,٢٥ دولار ، أنجلترا ١,٥ جك ، تونس ٢ دينار .

الغلاف تصميم الفنان :
محـــمد ابو طـــــالب

نحن والغرب

بقلم

د. شكري محمّد عياد

دار الهلال

تقديم

المقالات التالية كتبت على مدى أكثر من ست سنوات . كتب بعضها في مناسبات مختلفة ، وكتب أكثرها بدون مناسبة ، وهل تحتاج علاقتنا بالغرب إلى مناسبة ؟ نحن نعيش فيها ، ولافكاك لنا منها ، ولكننا نملك ، بكل تأكيد ، أن نغير طبيعتها . والشرط الأول لذلك التغيير أن نفهم هذا الغرب الذى نتعامل معه ، أو الذى يفرض علينا التعامل معه . وأهم من ذلك أن نفهم أنفسنا ، ولكننا قد لانحسن فهم أنفسنا إن لم نفهم الغرب أيضا ، والعالم الواحد الذى يضمنا نحن والغرب ، والذى يزداد توحدا كل يوم .

ولكنها ـ بوجه عام ـ كتبت في جو من الهدوء والاسترخاء . وبينما كان هذا الكتاب فى المطبعة فوجىء العالم كله باجتياح الجيش العراقى للكويت . وعاش الكاتب ـ كما عاش غيره من عامة الناس ـ أياما من القلق والانزعاج بجوار الراديو ، يتلقف الأخبار من كل مكان . وقد أراد أن يخرج من هذا القلق بالكتابة ، فكان المقال الأخير من هذا الكتاب ، لن يجد فيه القارىء هدوءا ولا استرخاء ، ولكن عسى ألا يفتقد نوعا من التأمل فى الأحداث ، ورغبة مخلصة فى استكشاف الطريق بين المهاوى والجبال .

والله الهادى إلى أقوم طريق .

شكرى محمد عياد

كيف نرى الغرب ؟

تابعت باهتمام « مواقف » الدكتور منصور الحازمى النقدية ، وقد بدأت بحوار حول المصطلحات الأدبية التى استعرناها من الغرب ثم غاصت إلى أعماق المشكلة الحضارية التى نعيشها فى علاقتنا بالعالم الغربى ، ويبدو لى أن الحوار يجب أن يمتد حتى نستطيع أن نقلب كل هذه الأعماق ، ونضعها على السطح ، لنتأملها بشجاعة ، بدلا من تركها راكدة تشل إرادتنا ، وتبسمم حياتنا .

إن علاقتنا بالغرب تحتوى على المقومات الأساسية للعقدة النفسية ، فهى علاقة عاطفية وليست عملية فقط ، يمتزج فيها الاعجاب بالخوف ، والحب بالكره ، للغرب فى خيالنا صورتان : صورته فى بلادنا ، متعجرفا مستبدا ، غزانا فى عقر دارنا ، وجعل بلادنا مزرعة لبلاده ، وجعلنا فيها عمالا . قضينا عشرات السنين نجاهده ليرحل ، وقبل أن يرحل ترك بيننا وكيلا عنه ، فيه كل صفات الوكيل الخائن ، الذى صمم على أن يستحوذ على كل ممتلكات سيده ، بالغش ، والقسوة ، والإرهاب البشع .

وصورته فى بلاده : إذا أسعدنا الحظ بالذهاب إليها ، بهرتنا نظمه ، وعلومه ، وفنونه ، ونظافته ، واحترامه للفرد ، حتى لو كان فردا منا ، من تلك الشعوب المتخلفة التى حرمها من كل حق فى بلادها ، لأنها فى نظره ليست أهلا لأى حق ، وإذا لم يسعدنا الحظ بالذهاب إليها ، فنحن نتلهف على كل نسمة تهب من ناحيتها ،

كتابا ، موسيقى ، فيلما ، فنا ، عمارة ، تجارة ، مأكولا ، مشروبا ، ملبوسا ، أو حتى طريقة فى تصفيف الشعر .

هل قلت صورة الغرب فى بلاده ؟ بل هما صورتان : فهناك صورة الغرب امرأة متبرجة ، سهلة .

هذه الصور الثلاث مستقرة فى أعماق كل واحد منا ، قلما يفحصها ليتبين حقيقتها من زيفها ، ولكنه غالبا يتصرف ، فى الكثير من شئون حياته بوحيها ، تختلف النسب بين الصور الثلاث من شخص إلى شخص كما يختلف رد فعله نحو كل واحدة منها ، ولكنه فى جميع الأحوال متأثر بخياله أكثر من عقله ، ولذلك فهى عقدة مشتركة بيننا ، أو بين معظمنا ، كالمرض المتوطن .

نعبر عن هذه العقدة أحيانا بالعداء المستتر : فندين أخطاءه البعيدة ، ونتناسى أخطاءه فى حقنا .

ونعبر عنها أحيانا بالفخر الكاذب ، فننسب إلى أنفسنا فضائل ليست فينا ، وننسب إليه رذائل ليست فيه .

ونعبر عنها أحيانا بأن نتقمص شخصيته ، فنعيش ونعمل ونفكر كما يفعل الغربيون (أو هكذا نتوهم) . ولأن التقمص ظاهرة مرضية معروفة ، فإننا فى أعماق الأعماق من نفوسنا لا نزال نعرف أننا عرب ، ولو طال بنا هذا الحال لأمكن أن يتطور المرض إلى نوع من انفصام الشخصية .

لقد صور الدكتور الحازمى بأسلوبه الساحر الساخر قصة تاريخية طالما زلزلت مشاعرنا القومية بحسرات الفرص الضائعة : قصة ذلك القائد الألبانى الطموح الذى استطاع وهو وال على مصر أن يجلب إليها علوم الغرب وصنائعه حتى استطاع بجيشها وثروتها أن يقيم امبراطورية عربية ويدق أبواب القسطنطينية ، وما أبدع

هذه النهاية التى تخيلها الدكتور الحازمى لمغامرة محمد على : « ماذا لو فعلها الباشا ؟ ماذا لو فعلها ؟ هل كان سيتغير مصير العالم العربى ، أم كان سيتغير مصير العالم أجمع ؟ لا أحد يدرى ، ولكن المرجح أن شيئا مهما ما كان ليحدث . وأن المصير الوحيد الذى كان سيتغير هو مصير الباشا نفسه ، فيصبح خليفة أو سلطانا ولعله كان سيخلد إلى الراحة بعدئذ ويقنع بأوسمته ونياشينه ، ويكف إلى الأبد عن مغازلة أوربا ، أو التحرش بحضارتها ؟ »

ولكن لم هذه النهاية المرة ؟ إن أمر التاريخ عجيب .. نعم هناك أسباب موضوعية كما يقولون ، راجعة إلى توازن القوى أو إلى الظروف الاقتصادية .. أو ... أو .... ولكن المرء لا يستطيع أن يلغى من ذهنه أن قرارا صائبا أو خاطئا يتخذه فرد ما فى لحظة من اللحظات يمكن أن يغير تاريخ أمته ، وإلى حد كبير أو قليل تاريخ العالم ، ألم نشهد بعضا من تلك القرارات فى عمرنا المحدود ؟ ولعل محمد على لو أحكم أمره لما فتح القسطنطينية أو هدد بفتحها ولكان لدولته العربية ـ عوضا عن ذلك ـ شأن غير ذلك الشأن . ولكن ليس هذا هو المهم .. المهم هو أن الدكتور الحازمى لا يصدق أن محاولة محمد على « لمغازلة أوربا أو التحرش بحضارتها » كان يمكن أن تستمر ، حتى لو انتصر فى آخر معاركه الحربية وأخطرها ، لماذا ؟ هل نؤمن نحن أيضا ، كما كان يؤمن ذلك الاستعمارى العنيد ، « أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ؟ » وهل حقا لم يلتق الشرق والغرب ؟ وهل حقا كف محمد على ، أو كف خلفاؤه ، عن مغازلة أوربا والتحرش بحضارتها ، أم الذى حدث هو أن إرادته ـ وكانت فى هذه الحالة تمثل إرادة شعبه وجيشه ـ قد كسرت ، فلم يعد العرب يتعاملون مع حضارة الغرب تعامل الأحرار ، بل تعامل الاتباع ؟

هل هو مظهر آخر من مظاهر العقدة نفسها ، يجعلنا نتخيل أن

هذا الغرب المحبوب المكروه المعجب المخيف لا يمكن أن يمس ؟ إننا نعرف أن « التابو » أو التحريم أو اللامساس أثر مهم من آثار العقدة النفسية .

أما إذا كان الغرض من هذه القصة البارعة هو أن نتلذذ بإيلام أنفسنا ، فارجو أن يسمح لى الدكتور الحازمى بأن أنسج على منواله (ولا أطمع أن أجاريه) فأعرض عليه قصة يتطور فيها الحدث فى اتجاه معاكس لاتجاه قصته ، ولكنه ليس أقل إيلاما ..

قصة « س » من الزعماء العرب ، أو الأفارقة (س = أى واحد من عشرين ، أو ثلاثين ، زعيما معروفا ، لم أحاول إحصاء عددهم) يقضى زهرة شبابه فى كفاح الاستعمار الغربى فى بلاده ، حتى إذا تحررت البلاد وبدأت تفكر فى أن يكون لها نهجها الخاص فى الحياة ، ائتمر به رفاق نضاله ، حتى خاف على حياته ففر إلى الدولة الغربية المستعمرة ، التى فضحها ولعنها ، ليلتمس فى ظلها الأمن والحماية ..

الحقائق أيضا يمكن
أن تكــون مفرضــة

إذا ركبت سيارة أجرة ، فالشيء العادى أن يمد السائق يده إلى درج فى مواجهتك ويقلب عددا من الشرائط قبل أن يختار واحدا ويدسه فى المسجل ، وإذا خمن أنك مصرى فالغالب أن يختار أغنية لأم كلثوم ، أما ذالك السائق فكان فاتحا الراديو على محطة لندن ، الساعة التاسعة مساء .. والصوت لا يصل واضحا كل الوضوح مع حركة السيارة ولكنه لم يفكر أن يستبدل بصوت المذيع المتحشرج أغنية مسجلة .

أردت أن أناوشه فقلت له :

ـ تسمع محطة لندن ؟

شعر أن السؤال ينطوى على شيء من اللوم فقال كالمعتذر :

ـ أعرف أن بريطانيا دولة استعمارية ، ولكننى أسمع التحليلات ، المذيع يقرأ تحليلات مفيدة ويعطينى معلومات .

أردت أن أعفيه من الحرج . فقلت له :

★ الرياض ١٤ / ١٠ / ١٩٨٣

ـ حقا هم يسندون هذه التحليلات إلى مختصين ، وهؤلاء يؤدون عملهم بذمة ، كعادة الأجانب .

تمنيت لو طالت المدة لأحدثه عن هذه الذمة كما ينبغى ، فإذا كنت بريطانيا ، تكتب للاذاعة البريطانية ليسمعك العرب ، فالذمة الوطنية تقتضى منك أن تفكر فى مصالح قومك ، والذمة الإعلامية تقتضى منك أن تقول الحقيقة ، وإذا دخلت الذمتان فى صراع فلابد لك من التوفيق بينهما بأن تقول الحقائق ، التى تخدم مصلحة قومك ، وتغمض عينك عن الحقائق التى لا تتفق مع هذه المصلحة ، وهناك طرق شتى للتعامل مع الحقائق بطريقة وطنية :

١ ـ أن تحول الخاص إلى عام ، وهذا مسلك تحتاج إليه بوجه خاص إذا كنت بصدد التعبير عن موقف سياسى أو اجتماعى يتبناه قومك أو حكومتك أو الفئة التى تنتسب إليها وتتبنى آراءها (هى بلاد ديمقراطية كما تعلم) وكان معروفا لك ولغيرك أن العرب يرفضون هذا الموقف ويلعنونه ولا يوافقون حتى على الاستماع إليه فأنت تسمى ـ مثلا ـ المظاهرات العزلاء التى تواجه مغتصبى الأراضى فى فلسطين المحتلة ، اضطرابات ولا تتحدث عن أقتطاع أجزاء كاملة من جسم الوطن العربى وضمه إلى اسرائيل الكبرى ، بل تتناسى ـ بحكمة ـ كل هذه التفصيلات لتكرر الحديث ، مرة بعد مرة ، عن السلام فى الشرق الأوسط ، وإذا كان العرب يتحدثون عن « السلام العادل » والمحلل البريطانى يتحدث عن « السلام » فقط ، فإن أحدا لن يلحظ هذا الفرق البسيط .

٢ ـ أن تسمى الشىء القبيح باسم آخر جميل ، والتحسين والتقبيح شىء عرفناه نحن العرب من قديم واحفظ من شواهده فى كتب البلاغة :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه
فإن تعب قلت ذا قىء الزنابير

ولكن الغربيين بذونا فيه ، أو لعلهم عرفوا أننا مرضى بمرض عضال اسمه « حب البلاغة » فألقوا إلينا بطرائف فى هذا الباب أعجبتنا وجرت بيننا مجرى الأمثال .

أتريدون مثلا واحدا من هذه الأمثال ؟ إذن خذوا المساعدات الاقتصادية !

وكتب التاريخ الحديث التى كان يقرؤها التلاميذ المصريون منذ عهد الأسرة العلوية ـ ولا أظنها تغيرت فى هذه النقطة بالذات ـ لم تأل إسماعيل الخديوى ذما ولم تبخل عليه بصفات السذاجة والسفاهة والغفلة لأنه ورط مصر فيما قيمته مائة وعشرون مليون جنيه من الديون الأجنبية ، وتبع ذلك تدخل الدول الأوربية فى شئون الحكم ، وتعيين عضوين فى الوزارة المصرية ، أحدهما انجليزى والآخر فرنسى ، ثم تسلسلت الحوادث حتى تم الاحتلال .

وقد حاولت ، مرات ومرات ، أن أجد فرقا بين تلك الديون الأجنبية المعيبة ، وهذه « المساعدات الاقتصادية » المحبوبة ، فعجزت .

فالمساعدات الاقتصادية ، معظمها ديون واجبة السداد ، منها القصير الأجل ، الفاحش الأرباح ، ومنها ما هو أطول أمدا ، وأقل ربحا والقسم الأكبر من هذا القسم تسخو به علينا مصارف عالمية خاصة ، تمثل ما يسميه العارفون رأس المال المالى ، والقسم الأقل ـ وهو الأخف محملا ـ ما تقدمه المؤسسات الدولية التابعة لهيئة الأمم .

والأنكى أننا لا نتسلم تلك القروض المصرفية مالا نشترى به ما يناسب حاجتنا . بل نتسلمه بضائع يحدد نوعها واثمانها المقرضون أنفسهم !

ولا أظن أن إسماعيل الخديوى كان يرضى بهذا .

٣ ـ أما الحيلة الأخبث فهى أن تتناول حقيقة ما ، فتنتزعها من إطارها وتضعها فى إطار آخر من صنعك ، تخرجها من زمانها ومكانها وتقطعها عن تاريخها لتضعها داخل مخطط آخر يراد فرضه على المنطقة العربية ، فيصبح لها معنى غير المعنى ، وشأن غير الشأن ، ومستقبل لا علاقة له بالماضى .

ولهذا الفن من التغرير والتضليل حديث يمكن أن يطول ، وأهم من هذا أن أختم كلمتى بأن القوم ليسوا بأغبياء ، فهم يصنعون هذا كله بحذق وحذر ، ولا يتجاوزون الجرعة المناسبة حتى لا يتغير طعم الشراب .

وشرابهم ـ والحق يقال ـ ملىء بفيتامينات الأخبار الدقيقة ، والمعلومات التاريخية والجغرافية والسياسية المفصلة ، والقوم حريصون ـ رغم كل شىء ـ على سمعتهم بالنزاهة ، والحياد ، والموضوعية ، فطالما وضعوا مكروفوناتهم أمام رجال منظمة التحرير ، وزعماء الضفة الغربية ، والشىء الذى لا أنساه أننى سمعت ذات يوم من أيام عدوان ١٩٥٦ ، على أمواج الاذاعة البريطانية نفسها ، حديثا طويلا لزعيم المعارضة العمالية يومئذ (هيو جيتسكيل) ينتقد فيه دور بريطانيا فى الحرب بأقسى عبارات الانتقاد .

أليست هذه قمة البراعة السياسية ؟

فماذا يصنع خصمك بك ، إذا كنت أنت تسمح لبعضك أن يخاصم بعضك من أجله ؟

وحتى إذا قلت الحقيقة كاملة ، وحتى إذا أوقفت نفسك فى قفص الاتهام ، فأنت المنتصر فى النهاية ، مادام خصمك العبيط مستعدا أن يحنى الرأس أمام نبلك وعظمتك .

هل نحن أطفال ؟

صدم كثير من العرب عندما اختارت الحكومة البريطانية صهيونيا معروفا ليرأس مجلس أمناء الاذاعة البريطانية ، فمعنى ذلك أن الصهاينة قد وضعوا أيديهم على جهاز من أهم اجهزة الدعاية فى العالم ، هذه هى طريقتنا ـ نحن العرب ـ فى فهم مثل هذه الأمور ، والغربيون يضحكون علينا ويقولون عنا أننا ناس متخلفون ، وإننا تعودنا من كل من يرأس عملاً أن يفرض سلطانه على جميع مرؤوسيه ، وألا يجعل لأحد منهم كلمة بجانب كلمته ، ولذلك نحسب أن الناس جميعا مثلنا ، وننسى أنهم قوم متحضرون ، ديمقراطيون ، الخ . وربما كانوا كذلك ، وربما كنا نحن (كذلك) أيضا ، ولكننا نعرف أنهم ، بكل ديمقراطيتهم ـ يصلون دائما إلى فرض إرادتهم ، الرئيس الديمقراطى يفرض إرادته على شعبه الديمقراطى ، والشعب الديمقراطى يفرض إرادته علينا نحن الشعوب المتخلفة التى لم تستطع بعد أن تتطبع بطبائع الديمقراطية الغربية ، لاتنسوا السيدة الحديدية : المسألة فقط مسألة اسلوب ، ولاشك فى أن الأسلوب الذى يستطيع بواسطته شخص ما (أ) أن يقنع شخصا آخر (ب) بأن يسير مفتح العينين (فى الظاهر على الأقل) فوق سطح عمارة من ثلاثين طابقا ليلقى بنفسه مبتسما إلى الشارع ، هو إنجاز عظيم من انجازات

★ الرياض ٢١/١٠/١٩٨٣

الحضارة ، إذا قورن بالأسلوب الآخر المتخلف ، الذى يسمح لـ (أ) ، بل يوجب عليه ، أن يمسك (ب) من أذنه أو يدفعه من قفاه ليجبره على تجرع الدواء المر .

لم تكن ثمة فائدة - إذن - من إظهار الغضب لأن السيدة الحديدية اختارت صهيونيا بارزا ليتولى مسئولية أهم جهاز إعلامى فى بلادها ، فنحن نفكر بمنطقين مختلفين ، وهم لا ينظرون إلينا إلا على أننا أطفال ، وأحيانا أطفال أشقياء ، وهاك الدليل :

بعد أن أصبحت قضية تعيين هذا الرئيس أمرا واقعا (وما أكثر الأمور الواقعة التى نواجه بها كل يوم) كان من الواجب شرح المسألة لهؤلاء الأطفال الأشقياء ، فهم على كل حال يعيشون معنا فى المنزل الكبير ، ولابد من أن يسيطر السلام على هذا المنزل ، فثمة - على الجانب الآخر من الشارع - أعداء متربصون ، ولا ينبغى أن تترك لهم فرصة لبذر بذور الفساد فى المنزل الكبير ، ومن أهم أسباب هذا الفساد تأليب الصغار على الكبار ، وإذن فلابد من أن يقتنع الصغار بصواب القرار الذى اتخذ فى غير مصلحتهم ، وتقضى أساليب الديمقراطية ، و(تكنيك) الدعاية ، وقواعد التربية السليمة ، أن نشرح لهم المسألة تدريجيا ، كما نقدم جرعات الدواء ، أو جرعات المخدر ، أو جرعات السم المميت ، سيتقبلونها أولا على مضض ، ولكنهم سيألفونها شيئا فشيئا ، ثم تصبح جزءا من كيانهم حتى ليصبحون مطالبين بها ، ولكن كيف السبيل إلى إقناعهم بالجرعة الأولى ؟ هذه هى أصعب خطوة ، ولكى تتم بنجاح يجب أن تؤخذ بحزم ، وهى أبعد شىء عن خاطر الفريسة ، حتى لا تفكر ، فترفض ، فتقاوم .

وكانت الخطوة الصعبة والجريئة وغير المتوقعة هى أن أجرت الإذاعة البريطانية حديثا مع نفسها ، هذا يبدو أمرا غير معقول عندما يوضع على هذه الصورة ، ولكنه من الناحية العملية أمر غاية

فى البساطة والسهولة ! أحد مراسلى الإذاعة البريطانية أو محرريها يجرى حديثا مع رئيسها الجديد ، ويذاع الحديث بالإنجليزية مرتين ، ويترجم ويذاع بالعربية مرتين أيضا ، الرسالة : نحن قوم صرحاء ، نحن نعمل فى النور ، نحن لا نخفى شيئا ، ورسالة الرسالة : ليس لدينا ما نخفيه ، وبالذات عنكم أنتم العرب : ورسالة رسالة الرسالة : ليس لدينا ما تخافون منه أيها العرب .

فإذا بدأنا نستمع إلى الحديث ، وراودتنا بعض الشكوك ـ رغم أننا مازلنا مذهولين لهذه المفاجأة أو هذه الصفاقة ، فرسالة رسالة رسالة الرسالة هى :

هل أنت واثق من سلامة تفكيرك حول هذا الموضوع ؟

ليس المهم ما يقوله الحديث ، إنه صدمة ثانية ، زودت بأحدث أجهزة امتصاص الصدمات التى ابتكرتها صناعة الدعاية ، ولكن لا أحد يجهل انها صدمة ، رئيس أكبر أجهزة الدعاية البريطانية يقول صراحة : نعم أنا صهيونى ، ولكن هلْ يمثل هذا الخبر (معلومة) جديدة حقا بالنسبة لأحد من المستمعين ؟ وإذن فما فائدة تقريرها مرة أخرى ؟ الفائدة المطلوبة ، والمحسوبة ، هى :

الأغلبية الساحقة من مستمعينا العرب (وقد لا يختلفون فى هذا عن غيرهم من الشعوب) متوسطو الذكاء ، ومتوسطو الذكاء يفكرون بالطريقة الآتية : العدو لا يجاهر بالعداء إلا إذا أراد الدخول فى معركة صريحة ـ هذا الرجل لا يهاجمنى ـ إذن فهو ليس بعدو .

وتتسلسل الأقيسة المنطقية بهذه الصورة ، حتى نصل إلى رسالة رسالة رسالة الرسالة .

أما فريق الأذكياء فيقول : هذا الرجل يواجهنى بأنه صهيونى ، ومعنى ذلك أنه لا يهتم برأيى فى الصهيونية ولا فيه هو شخصيا ، هو حقا لا يهاجمنى ، ولكن لماذا يهاجمنى مادام غير مهتم بى ؟ هو إذن يريد أن يقول لى : أنتم أضعف من أن تواجهوا الصهيونية وأصدقاءها ، وإذا كنتم تعرفون مصلحتكم حقا ، فالأفضل لكم أن تكفوا عن هذه المحاولة التى لا جدوى منها .

وهكذا يصل الأذكياء منا إلى (خاتمة الرسائل) بسرعة أكبر ! وهذا هو الوضع الطبيعى ! فالأذكياء يقودون سواد الناس إلى النتيجة النهائية : قبول « الأمر الواقع » الذى تريد الصهيونية العالمية أن تفرضه على الشعوب العربية !

لا بأس بأن يوضع مع هذا التقرير المدوى ـ على الرغم من أنه لا يقرر أية حقيقة جديدة ـ بعض (ماصات الصدمات) : أنا صهيونى إذا .... إذا كان المقصود بالصهيونية هو أن يكون لليهود وطن . (أليس من العدل أن يكون لكل شعب وطن ؟ الرجل إذن يطالب « بحق تقرير المصير » لليهود ! لعله إذن يجهل تاريخ الصهيونية فى فلسطين وخارج فلسطين ؟ لعله يجهل أن فى نيويورك نفسها وطنا آخر لليهود ؟ لعله يجهل التاريخ كله والجغرافيا كلها ؟ الأرجح أنه لا يمكن أن يكون جاهلا إلى هذا الحد ، ولكنه يغمض عينيه عن كثير من الأشياء ، فهو يتمتع بأدب « فكتورى » أصيل ، وإذا كان الإنجليز فى عصرنا هذا قد أصبحوا يمقتون الأدب الفكتورى بوجه عام ، فلابد من استثناء واحد على الأقل ، وهو أدب السياسة .

فى وقت من الأوقات كان المندوب السامى فى القاهرة يبعث إلى رئيس الوزراء المصرى طالبا منه الاستقالة ـ آمرا إياه فى الواقع ـ ويكتب قبل توقيعه « خادمك المخلص المطيع » .

شىء واحد سقط من حساب مهندسى الدعاية ، وهو أننا ـ الأذكياء ومتوسطى الذكاء فينا ـ لم نعد نستعمل الذكاء الفطرى وحده ، لقد خبرناهم جيدا ، يعنى لم نعد أطفالا !

تنبهوا ! !

مسألة الأقليات قديمة قدم التاريخ ، أقليات عنصرية وأخرى دينية ، كثيرا ما تلصق بها ذنوب لم ترتكبها ، فيكون عليها وحدها أن تتحمل أخطاء المجتمع ككل ، الأكثرية تتعصب لتحل مشكلاتها (كما تتوهم) على حساب الأقلية ، والأقلية تتعصب لتدافع عن نفسها ، وبما أن العنصر أو الدين وحدهما لا يسببان مشكلات اجتماعية ، فإن اضطهاد الأقلية لا يحل المشكلة ، بل يضيف إليها مشكلة أخرى . .

وقد تفاقمت مشكلة الأقليات فى العصر الحاضر ، والمسلمون فى مختلف بلاد العالم (حتى بعض البلدان المتحضرة) هم الأقلية التى تعانى أشد ألوان العنت ، وفى أحسن الظروف يعاملون كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، هذا مع أن الأقليات فى الدول الإسلامية كانت ولا تزال تتمتع بحقوق مساوية لحقوق الأكثرية المسلمة ، وتزيد عليها بحقوق طائفية خاصة . وبيان ذلك أن الإسلام لا يعترف بسلطة خاصة لرجال الدين ، كما هو الشأن فى الأديان الأخرى ، ومن ثم تصبح لأصحاب تلك الأديان ، فى البلاد الإسلامية ، مؤسساتهم الدينية ، وتصبح لتلك المؤسسات حقوق التملك ، وإدارة ممتلكاتها ، وإنشاء المدارس ، وغيرها من المنشآت الاجتماعية ، ورعاية أبناء الطائفة عموما ، بحيث يستطيع أبناء الطائفة أن يعتمدوا عليها فى الكثير من أمور حياتهم ، إلى جانب كونهم متمتعين برعاية الدولة كسائر المواطنين .

هذا امتياز للأقليات الدينية فى البلاد الاسلامية ، ألفناه من قديم حتى لم يعد مثار عجب أو حسد ، أما العنصرية فلا تجتمع والإسلام فى مكان . وقد كان جيل آبائنا وأخوالنا فى مصر جيلا عرف إباحة الرق ، فعرفنا بين هذا الجيل من كان عبدا فاعتقه البيت الذى رباه وزوجوه من بنتهم ، ولا مجال للمقارنة بين هذا السلوك الإسلامى وبين ما يلقاه السود (عرقيا لا لونيا) فى بلد كالولايات المتحدة تحرر عبيده ، قانونا ، منذ أكثر من مائة سنة ، ولكن نسبة ١ / ٣٢ من العنصر الزنجى فى سلالة إنسان ما تكفى لإلحاقه بالملونين ، مع ما يتبع ذلك من تمييز جرت به الأعراف والعادات ، وإن أنكرته القوانين .

لماذا إذن ـ هذا الاهتمام المستمر من قبل الإذاعات الأجنبية بالحديث عن « الأقليات » فى شرقنا العربى الإسلامى ؟

ألأن لهذه المسألة جاذبية خاصة للغرب الاستعمارى ؟ فمن الموافقات الغريبة ـ بغير شك ـ أنها لم تبدأ فى الظهور فى هذه المنطقة من العالم إلا حين ضعفت الإمبراطورية العثمانية ، فطردت ـ أولا ـ من أوربا ، ثم استعدت الدول الغربية الكبرى لابتلاع أقاليمها العربية ، هنا بدأ « الوضع الخاص » لجبل لبنان ، وأخذ الإنجليز يفتعلون الفتن بين أبناء البلد والأقليات الأجنبية فى مصر ، ثم يتوسعون ، فيحاولون إثارة الفتن بين المسلمين والأقباط ، حتى إذا اضطروا إلى إعلان وثيقتهم بالاستقلال المنقوص ، فى ٢٨ فبراير ١٩٢١ ، « كانت حماية حقوق الأقليات » أحد التحفظات على ذلك « الاستقلال » !

ولم تعرف هذه المنطقة من العالم ، قبل عهد الاستعمار ، مشكلة أقليات حتى عندما جاءنا المعتدون من الغرب ، يحاربوننا متمسحين باسم الصليب ، بقيت الأقليات فى شرقنا العربى الإسلامى آمنة فى ديارها ، إن الذين يكتبون التاريخ يمكن أن

يكَذبوا ويزيفوا ، أما الواقع فلا يكذب ولا يزيف ، وواقع حال الأقليات فى منطقتنا العربية الإسلامية أنها وفيرة العدد ، وافرة الثراء ، وكذلك وجدها المُستعمرون عندما قدموا ـ ضيوفا ثقلاء ـ إلى هذه الديار .

وقد شهدت فى صباى حملة الصحافة المصرية على البعثات التبشيرية ، ولم يكن أحد يجهل أن هذه البعثات ليست إلا جناحا فى جيش الاستعمار ، وأهم من هذا أنها كانت تستهدف المسلمين والأقباط على السواء (كمثيلاتها فى لبنان) . وتحضرنى وأنا أكتب هذه الكلمات صورة صديق قبطى فى مثل سنى آنذاك ، وهو يتحدث بانفعال صادق (وهل كنا نعرف الكذب فى تلك السن ؟ !) عن نشاط المبشرين الأجانب فى الصعيد .

وعلى ذكر هذا الصديق ، أكاد أجدنى ـ حين أعرض هذا الموضوع الذى يمكن أن يراه الناس شائكا بل خطرا ـ أتحدث من قلب تجربة المسلم وتجربة القبطى معا . اسمى طويل جدا ولذلك تعود الناس ـ منذ كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية ـ أن يختصروه إلى (شكرى عياد) . وهو اسم قبطى أصيل ، ولذلك كان ينظر إلى من ناس كثيرين على أنى قبطى ، ثم يمكن أن يكتشف أنى مسلم ، ولكنى لا أذكر أن ذلك سبب لى أى حرج ، لا وأنا بين الأقباط ولا وأنا بين المسلمين ، نعم ، وقعت لى أمور أشبه بالنوادر ، حدث مرة أنى كنت مسافرا فى قطار الصعيد ، والمسافة من سوهاج إلى القاهرة تستغرق نحوا من ثمانى ساعات ، واشتبكت فى حديث مع جارى ، وطال الحديث ، وعرف اسمى ، وبعد قليل فوجئت بسؤاله :

ـ ومن القسيس الذى زوجك ؟

فضحكت ، وأجبته :

ـ أنا زوجنى مأذون .

فنظر إلىّ بشيء من الدهشة ، ولا أدرى هل ظن أنى كنت قبطيا فأسلمت ، أم تعمدت أن يكون اسمى هكذا حتى أضحك على المسلمين والأقباط معا ؟ كان ذلك فى أواسط الخمسينيات ، لم أشعر قط قبلها أنى بحاجة إلى أن أميز اسمى بعلامة فارقة ، ومع أن سوء التفاهم هذا كان - كما قلت - أشبه بنادرة مضحكة ، فقد رأيت من حق الرجل وأمثاله علىّ أن يعرفوا اسمى كاملا .

ثم واصلت الحديث .

من « المستعمر » ؟

لم يعد خافيا أن علوم السياسة والاجتماع والاقتصاد وما إليها من العلوم الإنسانية تخضع فى الدول الاستعمارية لمصالح تلك الدول .

وقد تغرنا مظاهر الديمقراطية وحرية الفكر عندهم حتى نحسب أنه يمكن أن يوجد علم خالص لوجه العلم فى هذه الأبواب التى تمس نظم المجتمع وأساليب الحياة مسا مباشرا ، ولكن الواقع المشاهد هو أنه مهما يتسع مدى الحرية لديهم فى التعبير عن الرأى فإنه يظل عاجزا عن تجاوز الحدود التى تمليها تلك المصالح .. ومن تلك الحدود ـ ولاشك ـ التناقض الذى يمتد أربعة عشر قرنا بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى المسيحى .. ذلك التناقض الذى أخذ خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة شكل صراع بين دول أوربية استعمارية وأقطار عربية مستعمرة ..

وللقوم طرق فى تقييد حرية الرأى لا تعتمد على القوانين الاستثنائية فهناك ـ إن فى شرق أوربا أو غربها ـ أساليب للحصار الفكرى تشل قدرة الكاتب أو المفكر على الاتصال بالجماهير ، أى أنهم لا ينسفون المحطة الكهربائية ولكنهم يقطعون (الكابلات) . ولعلك علمت كيف يحاولون جاهدين أن يجمدوا نشاط المفكر الفرنسى رجاء الجارودى ويئدوا مؤلفاته بعد أن أشهر إسلامه .

ومن أسف أننا لانزال نتلمذ لهؤلاء المستعمرين فى العلوم الإنسانية كما نتلمذ لهم فى غيرها .. ولاشك فى أنهم متقدمون علينا فى طرق البحث العلمي ولكن اعترافنا بإتقان الصنعة لا ينبغى أن ينسينا أن المادة مغشوشة . ونحن نعلم أن من واضعى الأحاديث الذين نسبوها كذبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانوا يدلسون فى أسانيدها ، أى يتقنون تزييفها ، حتى تبدو كالصحيحة ، فلا يتبين ضعفها إلا بالنقد الدقيق ..

وصناعتهم المحكمة في باب العلوم الإنسانية لا تقتصر على تنظيم طرق البحث وتوفير أدواته ، وإنشاء معاهده وتدعيم مؤسساته ، فإنهم يجعلون نتائج هذه البحوث ميسرة للجمهور بوسائل الإعلام الحديثة التى تكاد تقتصر مهمتها عندنا على التسلية الفجة ، أما جمهورهم الذى يعيش وإياهم فى مناخ فكرى واحد فإنهم لا يخادعونه ولا يضللونه بل يتحركون معه بصدق وأمانة داخل الحدود التى وصفناها ليجعلوه أكثر وعيا بهذا المناخ الفكرى ، وأما جمهورنا الذى يخاطبونه من خلال إذاعاتهم العربية الموجهة فما كانوا ليهتموا بمخاطبته أصلا لو كان قصدهم تنويره وإرشاده ، إنما قصدهم أن يجذبوه إلى قبول وجهة نظرهم فى المسائل المشتركة .. وإذا كان الشريكان غير متكافئين ، ومصلحة كل منهما مباينة لمصلحة الآخر فاقتناع الشريك الأصغر بوجهة نظر الشريك الأكبر معناه ببساطة انخداعه له ..

هذا كله طبيعي وبدهى وان كنا لا نذهب إلى حد القول بأن اختلاف المصالح واختلاف وجهات النظر بين الفريقين يستتبع بالضرورة أن لا يلتقيا أبدا على فكرة واحدة .. فهذا زعم مضحك ، والذين يأخذون به يتصورون أن مجرد مخالفة ما يقوله الغرب هى الطريق إلى الصواب فإذا قال الغربى شمالا قلت جنوبا ، بل إذا قال شرقا قلت غربا .. ومثل هذه الطريقة الساذجة لمعرفة الحقيقة يمكن أن توقع فى أفحش الخطأ بل يمكن أن تسهل للخصم خداعنا

والتغرير بنا .. فما عليه إذا أراد أن يقنعنا بأمر ما إلا أن يدعى عكسه ، أو إذا أراد أن يغرينا بفعل ما إلا أن ينصحنا بضده ، كما نفعل مع أطفالنا فى كثير من الأحيان ..

ولكننا ـ على كل حال ـ قد لا نجد كلمة تثير من الخلاف بيننا وبينهم ما تثيره كلمة (الاستعمار) ..

فقد بعث أحد المستمعين العرب إلى إذاعة أجنبية بسؤال مؤداه ، ما هى الأقطار العربية التى استعمرتها بريطانيا ، ومتى بدأ هذا الاستعمار وكيف ، ومتى انتهى وكيف ؟ ولعل هذا المستمع أراد أن يتخابث على الإذاعة المذكورة وأن يحرج العلماء الذين تستكتبهم إجابات مختصرة على مثل هذه الأسئلة ، ولكن استاذ السياسة الذى أجاب عن سؤال المستمع العربى خرج منه كما تخرج الشعرة من العجين ، فقد قال بكل ثقة واطمئنان إن بريطانيا لم تستعمر أى قطر من الأقطار العربية .

أما مصر فقد انحصرت سياسة بريطانيا نحوها فى منع وقوعها تحت سيطرة دولة أخرى ، يمكن أن تقطع طريق بريطانيا الحيوى إلى الهند ، وظلت جزءا من الدولة العثمانية إلى أن دخلت هذه الدولة فى حلف مع ألمانيا ضد بريطانيا وحلفائها ، فلم يكن بد من إعلان الحماية البريطانية عليها أثناء الحرب العالمية الأولى ، ثم لم تلبث أن ظفرت باستقلالها ، وأما فلسطين والعراق فقد كانت بريطانيا (منتدبة) من قبل عصبة الأمم للاشراف على شئونهما إلى أن يصبح أهلهما قادرين على إدارة هذه الشئون بأنفسهم . وأما شرق الأردن فقد كان سكانه دائما قبائل مستقلة ، ولكنها ارتضت أن ترتبط ببريطانيا بمعاهدة صداقة ، وأما (محميات) الخليج فقد عمد بعض شيوخها إلى مضايقة تحركات الأسطول البريطانى ، فلم يكن بد من إيجاد رابطة ما بينها وبين بريطانيا . ضمانا لسلامة هذه التحركات .

كل هذا محتمل وقد يؤخذ على أنه تنصل من أوزار الاستعمار وإن كان من المستحيل أن تتنصل بريطانيا أو يتنصل أى بريطانى بحكم مسئوليته عن تصرفات دولته (الديمقراطية) من تبعة هذه الدولة التى (انتدبت) لتدبير شئون قوم لم يبلغوا بعد سن الرشد فسلمت أرضهم إلى عصابة من شذاذ الآفاق .

ولكن الشىء الأخطر هو تعريف (الاستعمار) الذى تبرع به أستاذ السياسة البريطانى لهذا المستمع وغيره من المستمعين العرب ..

فالاستعمار عند هذا الأستاذ - وليس هذا برأى شخصى له ولكنه يقدمه على أنه حقيقة علمية - لا شأن له بتحكم دولة ما فى شئون قطر آخر خارج عن ترابها الوطنى بحيث تسيطر الدولة المستعمرة على ثروات ذلك القطر ، وتتحكم فى نظمه الاجتماعية وعلاقاته بغيره من الأقطار ، سواء أدخلته تحت سلطانها دون استشارة أهله ، أم حصلت على تفويض (بالانتداب) أو (الوصاية) على ذلك القطر من قبل هيئة ما .. ليس هذا هو مفهوم (الاستعمار) عند علماء السياسة فى هذا العصر ، فتعلموا معناه العلمى الدقيق أيها المتخلفون .

الاستعمار - يقول ذلك الأستاذ .. هو أن تنزل فى البلد المستعمر أعداد كبيرة من بلد آخر ، وتتخذه وطنا جديدا لها . وبناء على هذا التعريف يسلم الأستاذ بأن البريطانيين حقا قد استعمروا كينيا وزيمبابوى (وأظنه تحاشى ذكر جنوب أفريقيا) كما استعمر الفرنسيون الجزائر .

وككثير من هذا (العلم) الذى يأتينا من الغرب ، لا نكاد ننزع عن هذا التعريف ثوب التهويش والادعاء الفارغ والدقة العلمية المصطنعة حتى نجده أوهى من نسيج العنكبوت .. فهل تعد الأقلية

الأوربية التى بقيت فى كينيا أو زيمبابوى بعد انتقال السلطة إلى أيدى حكومات وطنية أقليات « مستعمرة » ؟ وهل كان يعد « المعمرون » الفرنسيون في شمال الجزائر لو بقوا هناك بعد الاستقلال (فإنهم لم يجبروا على الخروج ، بل هربوا من تلقاء أنفسهم خوفا من أن يحاكموا على الجرائم التى ارتكبوها ضد الوطنيين) هل كانوا يعدون (مستعمرين) أيضا ؟ ؟

ولكن الأستاذ البريطانى لا يخاطب أهل كينيا أو زيمبابوى ، ولعله واثق أيضا من أن معظم مستمعيه الجزائريين قد نسوا أمر المعمرين الفرنسيين وكيف خرجوا من بلادهم ، ولكن الأستاذ البريطانى يوحى إلى مستمعيه بفكرة رهيبة ، القصد منها هو القضاء النهائى على الحضارة العربية الإسلامية ، ومن عادة القوم أن يخفوا نواياهم المحددة فى ثنايا حديث عام مثلما يلبسون مغالطاتهم ثوب الحقائق العلمية ويوردون دعاواهم الكاذبة فى معرض الاستدلال كما لو كانت قضايا مسلمة ..

ولنكن صرحاء ...

القوم ـ منذ عهد الأندلس ـ تغلبوا علينا بفضل خلافاتنا ، وقد صاغوا خبرتهم معنا فى قاعدة ذهبية (فرق تسد) وقد عملوا دهرا على إقناع كل بلد عربى بأن له (قوميته) الخاصة ، كان ذلك فى عهد الاستعمار الصريح ، ولكنه ما كاد يتراجع حتى وجد الحكومات العربية والإسلامية تتقارب وتتساند ، والشعوب العربية والإسلامية تتلاقى وتتآخى ، فعمد إلى أكذوبة أشد دهاء ومكرا :

إن فى كل قطر عربى طائفة أو طوائف تصعد بوجودها فى ذلك القطر إلى ما قبل العصر العربى ، وقد خرج العرب من جزيرتهم حاملين لواء الإسلام ، مبشرين بحرية العقيدة وكرامة الإنسان ، فخلصوا شعوب هذه الأقطار من الظلم الاقتصادى والتبعية

السياسية والتعصب الدينى ، ولم يجلوهم عن أراضيهم ولكنهم جاوروهم بالحسنى ، وشاركوهم فى السراء والضراء حتى أصبح الجميع عربا ، لغة وثقافة وحضارة ، إذ إن العرب المسلمين لم يضطهدوا أحدا لدينه أو جنسه ، ولم ينظروا إلى اختلاف الدين أو الجنس فى أى أمر مهم من أمور الدنيا ..

ولكن تعريف (الاستعمار) ـ كما أورده الأستاذ البريطانى ـ ينطبق على العرب ! وإذن فلتقم الطوائف العرقية والدينية فى مختلف أقطار العالم العربى ضد الأكثرية العربية المسلمة لأن هؤلاء هم المستعمرون وليسوا (أوصياءنا) الغربيين !

هذه هى المؤامرة الكبرى .. !

الشرق والغرب بين
الجغرافيا والتاريخ

« الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا » كلمة قالها شاعر الاستعمار منذ قرن تقريبا ، ومازال كثير من الناس يؤمنون بها ، مع أن كل تلميذ فى المدرسة الثانوية يعلم أنها تنطوى على خلط مقصود بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية ، ولاسيما الجغرافيا الاقتصادية ، فأهل الشرق وأهل الغرب يلتقون فى التجارة والزيارة ، وفى الحرب والسلم ، منذ كان الشرق والغرب ، هذه حقيقة مسلمة مثلما أن الجهات الأربعة الأصلية لا يمكن أن تختلط إلا يوم القيامة .

ولكننا نشكر للشاعر الاستعمارى أنه عبر بصراحة عن موقف ، لا يختلف كثيرا عن موقف أنصار « الأيارتهيد » أو التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا اليوم ، وإذا كان قد استخدم فى عبارته نوعا من المجاز ، على عادة الشعراء فى حين أن هؤلاء لا يزعجون أنفسهم بشرق ولا غرب ، ولا جنوب ولا شمال ، بل يدفعون السود إلى المناطق المجدبة أينما كان اتجاهها الجغرافى ـ فالفرق بينهما ليس كبيرا على كل حال ، إنما المشكلة حين يلتبس « الموقف » بـ « الحقيقة العلمية » .

وبيان ذلك أن فريقا كبيرا من علماء التاريخ والاجتماع ، ومن

المستشرقين الذين يعدون أيضا علماء اجتماع ، مثل « جاك بيرك » أو الذين يلمون بعلم الاجتماع وهم جل المستشرقين اليوم ، يتحدثون عن حضارة الغرب من جهة ، وعن الحضارة العربية ، أو الإسلامية ، أو حضارة الشرق الأوسط من جهة أخرى ، كما لو كانا شيئين منفصلين لا يمكن أن يلتقيا إلا إذا التقى الشرق والغرب الجغرافيان .

هو إذن « موقف » شبيه بموقف « كبلنج » ولكنه لا يتستر بثوب المجاز الشعرى الشفاف ، بل يتقدم إلى محفل الحقائق العلمية حاملا بطاقة دعوة عليها اسم غريب مهيب ، إلا وهو اسم « الحضارة » (وهو في العربية ـ بفضل هذه الضاد ـ أعظم هيبة حتى من عديله الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى) .

وأنا أدعو إلى التحقق من صحة هذه البطاقة ، فحاملها يمكن أن يكون واحدا من ثلاثة : يمكن أن يكون هو « العمران » الذى تحدث عنه ابن خلدون ، وهو سنة من سنن الله فى الكون ، أى أنه أمر ثابت من حيث حقيقته وجوهره ، وإن اختلفت أحواله وأشكاله ، ويمكن أن يكون هو « الأنثروبولوجيا الثقافية » أو ثقافات الشعوب وهو علم له وجاهته ، ابتكره الغربيون حين جابوا أركان المعمورة وصادفوا أقواما قريبين من الفطرة ، فجمعوا كل ما استطاعوا جمعه عن أحوالهم وأساليب معيشتهم ، ثم أخذوا يفسرون هذه الأحوال والأساليب بقانون السببية (كما هو شأن الدراسات العلمية عموما) مبينين كيف يتوقف بعضها على بعض ، ويكمل بعضها بعضا ، ولكن مشكلة هذا العلم هى أنه ينظر إلى التغير الحضارى نظرة سلبية ، أى أن المسألة بالنسبة إليه ليست مسألة « تغير » ، بل تغيير ، فالتغير ينطوى على قدر ما من الفاعلية والابداع ، بينما « التغيير » له طرفان : الطرف الذى يحدث التغيير وهو الحضارة المتغلبة ، والطرف الذى يتقبل التغيير وهو الحضارة المغلوبة ، وإذا تأملت هذه الفكرة وجدتها قاصرة علميا ، لأنها لا

تفسر إلا حالة واحدة ، وهى حالة الذوبان التام للحضارة الأضعف فى الحضارة الأقوى ، وهو ذوبان يحتاج غالبا إلى « تصفية » دموية ، ولكنه قليلا ما ينجح ، والذى يحدث فى معظم الحالات هو نوع من « التفاعل » بدرجاته المختلفة ، بحيث إن المغلوب يؤثر فى الغالب ولو إلى حد ما ، كما أنه يتأثر به ، سواء أكان هذا التأثير نحو الأحسن أو الأسوأ ، فمن أطرف ما قرأته عن تاريخ الاستعمار البريطانى فى الهند أن الموظفين البريطانيين فى أوائل عهد الاستعمار كانوا يتشددون فى تنفيذ النظام ، ولا يراعون عادات البلاد ، ولكن الأجيال التالية أصبحت أميل إلى اللين والتفاهم ، ومراعاة « الخواطر » فى كثير من الأحيان ولو على حساب النظام أى أنهم أصبحوا « إنجليزا هنودا » كما أن كثيرا من الهنود ـ بدون شك ـ أصبحوا « هنودا انجليزا » .

كلمة « الحضارة » إذن ، كمفهوم ثابت ومتميز ومتكامل ، لا تعبر عن حقيقة علمية ، بقدر ما تعبر ـ مرة أخرى ـ عن موقف ، الموقف نفسه الذى يقول أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، وهذا هو موقف الفئة المتسلطة دائما ، لأنها الفئة التى ترغب فى بقاء كل شىء على ما هو عليه ، والواقع أن لكلمة الحضارة علاقات مشبوهة ـ من هذه الناحية ـ بما يسمى علم الأجناس البشرية ، أو الاثنولوجيا ، بل أن « الانثروبولوجيا » الثقافية ، التى حددت المفهوم الحديث للحضارة وطرق بحثها ، تعد قسيما لعلم الأجناس البشرية هذا ، الذى يسمى أيضا « الأنثروبولوجيا الطبيعية » . وهذا العلم الأخير موضوعه تصنيف البشر من حيث الصفات الجسمية ، كالطول وشكل الجمجمة ، ولون الشعر والبشرة الخ . ومع أن هذا العلم لا يتعرض بالضرورة للصفات النفسية أو العقلية ، فإنه ينطلق من فكرة « التمايز الأساسى » ، الذى لا يوجد فى الواقع إلا نادرا ، وهو أيضا علم مزعزع الأركان ، فعلى الرغم من المقاييس الكثيرة التى ابتكرها ، فإن هذه المقاييس كثيرا ما

تؤدى إلى نتائج متضاربة ، ومن ثم يختلف علماء الأجناس اختلافا شديدا حول تحديد ما هى هذه الأجناس ، حتى الأساسية منها .

ولكن كلمة « الحضارة » وقد رأتنا نقلب بطاقتها غير مقتنعين ، ونتأمل صفحة وجهها مرتابين ، تفزع إلى التاريخ ليدل على حقيقة هويتها ، فهى تدعى أننا ننسبها ظلما إلى الشعوب البدائية ، وتتهمنا بأننا أخطأنا فى الترجمة ، وتزعم أنها مختصة بالدول التى كان لها شأن فى تاريخ العالم ، وتحيلنا إلى مجلدات توينبى الضخمة الشهيرة عن « علم التاريخ » . لقد لجأ توينبى إلى فكرة « الحضارة » (لعلها تفضل أن نسميها « المدنية » ؟) ليصنف ذلك الحشد الهائل من الوقائع التاريخية المنتشرة فى الزمان والمكان ، فثمة حضارة يونانية وحضارة مصرية وحضارة صينية كما أن هناك حضارة إسلامية ، والحضارات أو المدنيات بعضها أصول وبعضها فروع ، ولها أعمار ، فقد تخلف حضارة جديدة حضارة سابقة فى نفس المنطقة . وقد حاول توينبى أن يتوصل إلى بعض القوانين فى نشوء الحضارات واندثارها ، وأهم هذه القوانين هو قانون « التحدى والاستجابة » . فالنجاح فى التغلب على التحديات هو منشأ الحضارة ، أما سقوط الحضارة فيرجع غالبا إلى العجز عن مواجهة تحديات داخلية ، بحيث تكون الحضارة مرشحة للانهيار قبل أن يقضى عليها عدو خارجى . لاشك فى أننا هنا أقرب إلى الروح العلمية فى جمع الوقائع وتفسيرها ، ولكن هناك نوعا من التحكم فى إبراز الفوارق بين الحضارات ، لا يصل إلى حد التعصب الواضح للحضارة الغربية المسيحية كما هى الحال عند هيجل ، ولكن فيه قدرا كافيا من الغرور بحيث إن توينبى يقول بإمكان استمرار الحضارة الغربية ـ بالذات ودون غيرها ـ إلى ما لانهاية !

لا جرم أننا نرتاب فى كل هذه المفاهيم لكلمة « الحضارة » ونرى فيها بعثا لفكرة التمايز الأصيل الثابت كثبات الجهات الأربعة

الأصلية ، ولكن ليس معنى هذا أننا نرفضها جملة وتفصيلا . إنما نرفض منها كل ما يدل على الثبات والتمايز المطلق . فـ « الحضارة » في حركة مستمرة ، إما إلى الأمام وإما إلى الوراء ، وفي تفاعل مستمر مع غيرها من الحضارات ، ليست هناك حضارة منفعلة على طول الخط ، ولا فاعلة على طول الخط ، مهما تكن قوة هذه أو ضعف تلك . ولكن هناك ، في كل حضارة مهمة ، لحظات إبداع وامتداد ، ولحظات جمود وانكماش ، وربما كانت فترة جمود طويلة إيذانا ببعث حضارة قديمة ، أو انبثاق حضارة جديدة من حضارة قديمة ، سمه ما شئت ، ولعل لقانون « التحدى والاستجابة » دورا في هذا ، بشرط أن يضاف إليه قانون التأثير المتبادل بين الحضارة القوية والحضارة الضعيفة .

ولذلك نرفض أيضا زعم برنارد لويس : « عندما تتصادم حضارتان ، تسود إحداهما وتتحطم الأخرى » ، بل نرى فيه افتئاتا على التاريخ . ولعلنا نرى في هذا القول أيضا سمة خاصة بالفكر اليهودى ، لأننا نراها عند غيره من المفكرين اليهود : أعنى اعتماد مبدأ التناقض ، أو صراع الأضداد ، الذى لا يحل إلا بتغلب أحد الضدين ، دون مبدأ التكامل ، الذى ينتهى باتحادهما .

ونتمنى ، نحن العرب ، أو نحن المسلمين ، ألا ينظر إلينا الغربيون على أننا جماعة مغلقة على نفسها ، لها طرقها في الحياة التى لا يمكن أن تستفيد ، بمحض إرادتها ، من طرق الغرب . إننا نستطيع أن نقول عنهم أيضا ـ أعنى عن علمائهم الذين يدرسون ثقافتنا ـ إن تفكيرهم يظل مع ذلك محصورا في أنفسهم . فهم ينسون أننا نحن أيضا نفكر . هم يتصورون أن أمامنا خيارين اثنين لا ثالث لهما : إما أن نبقى على نظمنا الموروثة لانمسها بأى تعديل كيلا نحطمها ، وقد فات أوان هذا الخيار منذ انهيار الدولة العثمانية ، وإما أن نأخذ نظمهم كما هى ، وبدون تلكؤ ، وينسون أن حركة البعث الإسلامي ، بجميع فروعها ، كانت ثورة على تلك

النظم العثمانية ، وأنها كانت واعية برسالة الإسلام العالمية ، الخالدة ، التى أنتجت حضارة عظيمة عمّ البشرية نورها ، بقدر وعيها بتفوق الغرب وتأخر المسلمين فى الوقت الحاضر .

لعل الغربيين ـ حتى علماءهم المستشرقين ـ معذورون حين ينسون هذا كله ، لأنهم يرون فكرنا حائرا متخبطا فى هذه الأيام ، كحيرتنا وتخبطنا فى الكثير من أمور حياتنا .

ولكن هل نعذر ـ مثلا ـ إخواننا العرب ، الذين يكتبون عن « الإنسان العربى » كما لو كان صنفا مختلفا عن غيره من البشر ؟ ألا يخشون من هذه الصيغة الغريبة أن تذكر الناس بإنسان الغابة ، أو إنسان النيندرتال ؟

كيف يفهمون التاريخ ؟

كان المؤرخون الأوربيون فى القرن الماضى يعتقدون مخلصين أن مهمتهم هى تصوير الماضى على ما كان عليه ، تلك الثقة المطلقة في قدرة العقل البشرى على أن يعكس « الحقيقة والواقع » زالت بالتدريج ، وأصبح من المسلم به أننا لا نستطيع أن نرى من ذلك الماضى الذى يعج بآماله وأحلامه ومشكلاته ومآسيه سوى جانب صغير جدا ، كما ننظر إلى بهو فسيح ممتد من ثقب مفتاح ، ولاشك فى أن هذه النظرة المختلفة إلى حدود المعرفة التاريخية كانت مصاحبة لنظرة جديدة إلى موضوع علم التاريخ ، فلم يعد هذا العلم مقصورا على الأحداث الكبرى من حروب ومعاهدات وقيام دولة وسقوط دولة الخ .. بل أصبح يعنى فى المحل الأول بأحوال المجتمعات البشرية فى شتى جوانبها المادية والروحية ، فتاريخ الإنسان على هذه الأرض لا يختصره تاريخ الدول .

وهنا لابد من وقفة قصيرة نعرج فيها على كتب التاريخ عندنا ـ ولو على سبيل الاستطراد ، فقد عدلنا عن الطريقة العربية القديمة فى التأليف التاريخى ، طريقة سرد الأحداث مرتبة على حسب السنين ، واقتبسنا الطريقة الأوربية الحديثة فى ترتيب الموضوعات التاريخية على حسب الدول ، ونسينا أن لدينا كنزا هائلا من المادة التاريخية يتمثل فى كتب الطبقات ، التى تكاد

تغطي كل جوانب الحياة الاجتماعية فى مختلف عصور الحضارة العربية الإسلامية ، ولو أن نهضتنا كانت نهضة حقيقية ولم تكن مجرد رد فعل لهجوم الحضارة الأوربية لسبقنا القوم الى التأليف فى التاريخ الاجتماعى الشامل ، ولكن الواقع هو أننا مازلنا متأخرين عنهم فى هذا المضمار بمراحل كثيرة ، لأننا لابد من أن نتلقى عنهم كل شىء ، حتى تراثنا الحضارى الأصيل ، ثم لا نتلقى ما نتلقاه عنهم إلا متأخرين !

ونعود إلى مفهوم التاريخ عندهم فى الوقت الحاضر ، إنهم يعلمون الآن شيئا واحدا يقينيا فيما يتعلق بالتاريخ ، وهو أنه مهما يكتشف من الآثار ، والوثائق ، واليوميات ، ومهما ينشر من مذكرات الساسة والقادة الذين رحلوا عن الدنيا ، وتركوا هذه الكلمات وراءهم تعلن ما أشفقوا أن يعلنوه وهم أحياء ، فسيظل القسم الأكبر من معالم الماضى مغلفا بضباب النسيان ، إن لم يكن لأى سبب آخر فلأن هذه الوثائق والآثار الخ .. هى من صنع فئة صغيرة من المجتمع ، كانت تملك وسائل التسجيل ، وهى ـ لا محالة ـ إنما تسجل الأمور التى تعنيها ، وتسجلها من وجهة نظرها .

لذلك شبه بعضهم التاريخ بلعبة القطع الخشبية التى فقد الكثير من أجزائها ، أنت تعرف هذه اللعبة التى تمثل لوحة كاملة قد قطعت قطعا صغيرة غير منتظمة الأشكال ، وعلى الطفل أن يضم بعضها إلى بعض ، كل قطعة فى مكانها الصحيح ، لتكتمل الصورة ، فإذا نقصت بعض هذه القطع ، واستطاع الطفل أن يضع القطع الباقية فى أمكنتها الصحيحة ، فستبقى كثير من أجزاء الصورة غير ممثلة فى اللوحة ، وعلى الطفل أن يملأها بخياله .

هذا التشبيه فى نظرى لا يصور الحقيقة تماما ، وأقرب منه إلى الدقة أن نتخيل صندوقا واحدا جمع فيه عدد لا بأس به من هذه اللعب الخشبية التى فقد بعض أجزائها ، هكذا يمكنك أن تتمثل

حيرة الطفل حين يحاول أن يستخرج من هذا الركام صورة واحدة منتظمة ، وهى بعينها حيرة المؤرخ أمام المادة التى استطاع جمعها من الوقائع التاريخية ، فهذه المادة أكثر مما يجب وأقل مما يجب فى الوقت نفسه ، أكثر مما يجب لأنها تتطلب مجهودا كبيرا لفرزها وتصنيفها ، وأقل مما يجب لأن القطع أو الأجزاء الغائبة من أى صورة بعينها تجعل إعادة تكوين الصورة عملية شبه مستحيلة ، أنها أشبه بلعبة كلمات متقاطعة لم يساعدك واضعها بتسويد بعض المربعات ، ولابد للمؤرخ إذن من أن يعتمد على فكره وخياله معا لاخراج صورة متكاملة بنفى كثير من الأجزاء التى لا تتلاءم ، وافتراض أجزاء أخرى ليس لها وجود فى الواقع ، ولا دليل على وجودها إلا كونها ضرورية لإكمال الصورة .

ومؤدى ذلك أن التاريخ هو - إلى حد كبير - من صنع المؤرخين ، ولا سبيل إلى غير ذلك ، مادامت وقائع التاريخ حشدا من الحوادث التى لا ارتباط بينها ولا معنى لها حتى يعطيها المشاهد رابطة ومعنى . وهكذا يبتعد التاريخ عن دائرة العلم المحقق ، التى طمع أن ينتمى إليها فى يوم من الأيام ، ويقترب بصورة خطرة من دائرة الشعر أو الفن .

ولكن هذه الحقيقة يجب ألا تكون مثيرة للدهشة ولا للأسف عند أصحاب الطموح العلمى ، فليس التاريخ وحده هو الذى يقف هذا الموقف ، بل إن التداخل بين العلم والفن ، أو العلم والشعر ، أصبح سمة من سمات العصر حتى فى اللغة التى يستعملها كل منهما ، وهى فى تقديرى سمة إيجابية ، إذ إنها دليل على أن الفكر الإنسانى يسير نحو وحدة المعرفة مرة أخرى ، ولكن على مستوى أرقى من المستوى الأسطورى القديم .

وبالنسبة إلى علم التاريخ بالذات ، لم يخسر هذا العلم شيئا سوى براءته السابقة ، وما كانت بالبراءة البريئة ولكنها كانت براءة

ملؤها الغرور . كان المؤرخون الأوربيون حتى أوائل القرن العشرين يرتكبون كل أنواع التحيز وهم يتوهمون أو يوهمون قراءهم أنهم لا يقدمون إليهم سوى حقائق « موضوعية » ، أما الآن فهم يعترفون بأن المؤرخ يصور فكره ، المستمد من عصره وبيئته ، بقدر ما يصور الماضى الذى يكتب عنه ، أو بعبارة أخرى أن الحكمة القديمة القائلة بأن الماضى يصنع الحاضر ، يجب أن تضاف إليها حكمة مقابلة وهى أن الحاضر يصنع الماضى أيضا ، ولاشك فى أن هذا الاعتراف يجعل المؤرخ أكثر مراقبة لنفسه وأقل استعدادا للشطط فى أحكامه ، كما يجعل قراءه أكثر تيقظا وأعمق فهما لما يقرأون .

فلا خطأ أفدح من أن يقرأ القارىء ـ غير كلام الله القديم ـ فلا يتجاوز النص إلى الفكر الإنسانى الذى يتخلق ويتكشف من خلال هذا النص .. لقد كان النقاد الرومنسيون يقولون إنهم يبحثون عن الإنسان من خلال النص . ولكن ليس هذا هو ما نعنيه الآن ، فنحن لانتحدث عن قيمة القصيدة ولكننا نريد تصحيح عملية الفهم ذاتها ، سواء أكان الموضوع نصا أدبيا أم غير أدبى ، فالفهم الدقيق للنص كثيرا ما يتطلب تجاوز النص ذاته ، تجاوز نتوءاته وفجواته والتفافاته والتواءاته وسائر ما نسميه « اسلوب » الكاتب ـ بما نعده مزايا أو عيوبا فيه ـ لكى نصل إلى الفكرة الجوهرية فيما يكتب ، ولا يمكن تجاوز الخصائص الأسلوبية إذا لم نتبين حركة الفكر التى وراءها ، هذا على المستوى اللغوى الأقرب ، أما على مستوى الأفكار الكلية ـ أى على مستوى التفسير والتقييم ـ فإننا لن نفهم ما يقوله الكاتب حق الفهم حتى نتبين حدوده ، ولن نتبين حدوده حتى نضع أنفسنا مؤقتا فى الزاوية التى ينظر منها إلى موضوعه ، وبديهى أننا نسترد أنفسنا ، أو نعود إلى منظورنا الخاص ، حالما نفرغ من عملية القراءة .

إن القراءة والكتابة كلتيهما تصبحان عملين فارغين من أى

معنى إذا لم تنطويا على تواصل فكرى حقيقى ، والكاتب ـ ولا سيما المؤرخ ـ حين يحاول أن يوسع منظوره جهد طاقته يعمل على التخلص من أسر معتقداته وعاداته الفكرية الخاصة ليجعل احتلال هذا المنظور أو الاقتراب منه فى استطاعة قارئه . وكذلك القارىء حين يتبنى منظور الكاتب إنما يتخلى مؤقتا عن معتقداته وعاداته الفكرية لكى يفهم أولا كيف يفكر الكاتب ، ثم ربما استطاع أن يصحح بعض أخطاء المنظور عنده هو ، دون أن يتخلى عن رؤيته الخاصة .

ولابد من استطراد آخر هنا ، فبعض أصحابنا يتوهمون أن « شخصية » المؤرخ أو الباحث عموما لا تظهر فى بحثه إلا حين يقول : وأنا أرى كذا ، أو : وعندى كذا ، أو عبارة نحو هاتين ، ولو كانت المسألة تتعلق برأى شخصى للباحث لما كانت لها أدنى قيمة عند غيره ، إن شخصية الباحث لا تظهر إلا فى انتقائه للوقائع المهمة فى نظره ، ثم فى تفسيره لهذه الوقائع ، وهو يحاول ما استطاع أن يبعد تأثير الرأى الشخصى ، ولا يعرضه فى مباهاة طفولية ساذجة ، لأنه يعلم أن القارىء الجاد الواعى لا تهمه الآراء الشخصية .

وفى العلاقة بين الكاتب والقارىء ـ والكلام لا يزال منصبا على كتّاب التاريخ أكثر من غيرهم ـ يوجد الاخلاص كما توجد المداورة والخداع ، حتى خداع النفس أحيانا ، فالقارىء لا يستطيع أن يتعاطف مع كاتبه ـ بتبنى منظور الكاتب ـ على طول الخط ، وإنما يتعاطف معه ويتبنى منظوره بقدر ما يبذل الكاتب من جهد حقيقى لتوسيع هذا المنظور بحيث لا يكون مناقضا لمنظور القارىء ، وإن لم يكن بالضرورة مطابقا له ، والكاتب عادة يفكر فى قارىء معين ، ينتمى إلى نفس المحيط الثقافى الذى ينتمى إليه الكاتب ، ولذلك يكون التواصل بينهما سهلا ، وهنا يقوم سؤال : لماذا نقرأ أعمال المستشرقين ؟

والجواب : أننا لا نقرؤها لنعرف تاريخنا العربى الإسلامى أو ثقافتنا العربية الإسلامية ، فنحن أقدر منهم على معرفتها من مصادرها الأولى ، ولكننا نقرؤهم لغرضين ، أولهما : أن نتعلم طرق البحث - أى طرق التعامل مع الوقائع ، جمعا وتصنيفا وتحليلا وتفسيرا - ولاشك فى أنهم أتقنوا هذه الطرق ، بحكم سبقهم الحضارى الحديث ، كما اتقنوا التعامل مع الأشياء المادية ، أما الغرض الثانى : فهو أن نعرف كيف ينظرون إلى حضارتنا فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وهذا الغرض لا يقل أهمية عن الغرض السابق ، مادمنا مشتبكين معهم فى علاقة قديمة ومتطورة .

التاريخ
وشخصية المؤرخ

بانتهاء عصر الاستعمار الصريح المباشر انتهى دور المؤرخين الهواة من رجال الحرب والسياسة أو الدبلوماسية ، الذين مالوا إلى تدعيم تجاربهم العملية فى البلدان المستعمرة بشىء من الاطلاع على تاريخها القديم أو الحديث بوجه خاص - أمثال كرومر وجلوب وسايكس وانطونيوس ، وأصبح دور المستشرقين فى تعريف الغرب بمشكلات « الشرق الأوسط » المعاصرة أكثر بروزا ، لعل من أسباب ذلك - إلى جانب اختفاء تلك الطوائف من أفقنا - أن الهواية لم تعد مقبولة لدى الغرب ، فيما عدا السياسة نفسها ، ولعل من أسبابه أيضا أن المؤرخين المعاصرين - من جهتهم - أصبحوا يسلمون بأن التاريخ لا يعنى بالماضى وحده ، بل بالعلاقة الحميمة بين الماضى والحاضر ، فإذا كان عمل المؤرخ هو رؤية الماضى من منظور الحاضر ، فينبغى أن يكون أقدر من غيره أيضا على رؤية الحاضر بكل ما يحمله من مخلفات الماضى .

ولكن المشكلة المعروفة - أن نرى الأشجار ولا نرى الغابة - تنطبق على القرب الزمانى ، مثلما تنطبق على القرب المكانى ، فعندما يعرض المؤرخ لحقبة بعيدة ، تلوح أمامه أعلام بارزة ينتظم حولها المنظر الكلى ، وقائع وأشخاصا أثرت فى مجرى الحوادث

من بعد ، كما خلفت طابعها على العصر نفسه ، أما الحاضر أو الماضى القريب فإنهما يضنّان عليه بمثل هذه الأعلام ، إن التاريخ يمكنه أن يفسر ما وقع فعلا ، لكن لا يمكن أن يتنبأ بما لم يقع بعد . والأحداث التى تقع اليوم ، أو التى وقعت بالأمس القريب . لم يتح لها الوقت الكافى لكى تؤتى ثمارها ، ومن ثم فالحدث المهم يظل مغمورا وسط حشد من الأحداث غير المهمة ، وحين يميز المؤرخ حدثا ما وسط هذه الأحداث ، فإنه يقوم بمغامرة فكرية .

والأدهى أن هذه المغامرة قد لاتكون « فكرية » خالصة ، أعنى أن ميول المؤرخ وانتماءاته يمكن أن تتدخل فى إبرازه لاحداث معينة ، وتفسيره لهذه الأحداث ، ثم تقييمه لها ، ولعل المؤرخ الغربى الذى يكتب عن « الشرق الأوسط » المعاصر أن يكون أكثر تعرضا لمثل هذا الانحراف . فالمؤرخ الغربى لا يكتب من فراغ ولا يقف فى منطقة انعدام الوزن ، إنه يكتب وهو مرتكز على الحضارة الغربية ، وتاريخ « الشرق الأوسط » المعاصر شديد الارتباط بالحضارة الغربية ، إن لم نقل إنها صانعته الأولى . وإذا كنا نحن نحاول أن نعلق كل مشكلاتنا ومصائبنا فى رقبة الاستعمار ، فطبيعى أن يحاول الاستعمار التنصل من كل مسئولية عنها ، وإذا كنا نحن نحاول دائما أن نستمد الدعم الروحى من ماضينا المجيد ، فطبيعى أن يحاول الاستعمار إثبات أن ماضينا لم يكن مجيدا إلى هذه الدرجة ، وقد لا يرضى المؤرخ الغربى عن الاستعمار ، وقد لا ينتدب للدفاع عنه ، ولكنه ـ غالبا ـ سيقدم حسابا ختاميا نجدنا فيه مدينين لا دائنين .

وإذا لم يعجبنا صنيعه هذا فلنرجع إلى ما كان يكتبه المستشرقون السابقون الذين تخرجوا فى مدرسة « التاريخ الموضوعى » وسنجد أن مستشرق اليوم أفضل بكثير ، أعنى أنه أقرب إلى « الموضوعية » من سلفه ، بالرغم من اعترافه بأن الموضوعية الكاملة فى كتابة التاريخ مثال لا يمكن تحقيقه ، هو

أكثر موضوعية لأنه يكتب فى ظل مفهوم آخر للتاريخ ، يسلم بأن لشخصية المؤرخ وتوجهاته دورا فى كتابة التاريخ . هذا المفهوم قائم فى ذهن المؤرخ وفى أذهان قرائه على حد سواء ، ومن ثم فهو يكلف نفسه ، وينتظر منه قراؤه ، أن يقاوم توجهاته الشخصية قدر المستطاع . لقد كان الوهم المسيطر على كتاب التاريخ وقرائه طوال القرن الماضى ، وحتى أوائل هذا القرن ، هو أن « وقائع » التاريخ لا شأن لها بميول المؤرخ ، ومن ثم يمكنه أن يسرد « الوقائع » ثم يصدر حكمه بعد ذلك وهو مطمئن إلى عدالة موقفه ، الآن يعرف كتاب التاريخ وقراؤه أن « موضوعية » الوقائع ليست إلا وهما ، فشروط الوقائع التى يعنى بها التاريخ أن تكون ذات دلالة ، والمؤرخ هو الذى يعطيها هذه الدلالة ، أى أنه يصدر أحكامه من قبل أن « يسجل » الوقائع .

والنقطة المهمة هى علام ترتكز هذه الأحكام ؟ إنها ترتكز بالضرورة على مجموعة من القيم ، وللقيم مستويات مختلفة ، منها ماهو شخصى محض ، يرجع إلى الحب أو الكره ، أو إلى المصلحة المادية ، وهذه لن يحترمها القارىء بالطبع ، ولهذا يحاول الكاتب أن يخفيها ، بينما يحاول خصومه فى الرأى أن يلصقوها به ، ومنها ماهو عرقى ، وهذه لم تعد مقبولة كذلك ، منذ أحرقت العرقية نفسها فى الحرب العالمية الثانية ، ومنها ما هو وطنى ، وهذه لا تزال محتملة إلى حد ما ، يتناسب عكسيا مع مقدار تورط البلد المعين فى حلف من الأحلاف العالمية ، ومنها ما ينتمى إلى هذا المفهوم الجديد نسبيا لدى المؤرخين ، مفهوم « الحضارة » ، وقيم الحضارة الغربية هى القيم التى لا يرى كتاب التاريخ ولا قراؤه فى الغرب أى بأس بتحكيمها فى أحداث التاريخ ومعانى تلك الأحداث . حتى توينبى ، الذى ينزع إلى قيم إنسانية عليا مستمدة من نظرة شاملة إلى الأديان العالمية الكبرى ، يقف فى مرحلة وسط بين هذه القيم وبين قيم الحضارة الغربية .

يقول المؤرخ الانجليزى المعاصر إدوارد هالت كار : « إن المبادىء الأخلاقية التى نطبقها فى التاريخ أو فى حياتنا اليومية تشبه (شيكات) البنوك : فيها شىء مطبوع وشىء يكتب ، فأما المطبوع فيتألف من كلمات مجردة مثل الحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية ، هذه عناصر جوهرية ، ولكن (الشيك) يظل بدون قيمة حتى تضيف إليه القسم المكتوب الذى نقرر فيه أى مقدار من الحرية نريد أن نخصص ، ولمن ، أومن الذين نعدهم مساوين لنا ، وإلى أى حد » .

ويعترف كار أن معانى هذه الكلمات المجردة تختلف من عصر إلى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، ولكن من الواضح أن (الشيكات) التى تحمل هذه الكلمات ، يمكن صرفها من أى (بنك) من البنوك فى منطقة الحضارة الغربية ، ولن يسأل أحد عن معنى محدد لكلمة « حرية » أو « عدالة » الخ ، لأن هناك شبه اتفاق على معانيها ، وان بقيت مبهمة ، وقابلة للمط أحيانا أو التضييق أحيانا أخرى ، لدى الكثيرين ، والمستشرق الذى يكتب لجمهور غربى عن « الشرق الأوسط » المعاصر لن يخرج عن هذه المبادىء ، وإذا كان مثل هذا المستشرق يهوديا وذكيا مثل برنارد لويس فلن يتورط فى دفاع صريح عن الصهيونية ، ولن يتجاهل أن كثيرا من الأوربيين أصبحوا أميل إلى إدانتها ، ولكن سيقدم صورة « للشرق الأوسط » أو على الأصح للعالم العربى الإسلامى المعاصر ، تكاد تخلو من ذكر الصراع العربى الصهيوني ، لأن الصراع العربى الغربى ، وحيرة العرب بين القديم والحديث ، قد حولا النشاط الصهيونى فى المنطقة إلى حالة جزئية لن تضار الصورة العامة بإهمالها أو التقليل من قيمتها ، وسيتكلم عن الصهيونية فقط فى معرض الكلام عن « القومية العربية » على اعتبار أنها نظير لفكرة « قومية يهودية » ظل اليهود أنفسهم يرفضونها مدة طويلة ، ولم يسلموا بها إلا تحت تأثير القوميات

الأوربية التى رفضت استيعابهم ، وسيلمح فى مناسبة ثانية إلى أن هناك صراعات حادة تدور فى الشرق الأوسط ، وأن « واحدا من هذه الصراعات بالذات » يرتبط بأنواع من المصالح وأنواع من التحيز (وهذا ما يجعل مهمة المؤرخ الموضوعى ـ مثله طبعا ! ـ صعبة بوجه خاص) . ثم يفسر هذه المصالح والتحيزات بأن فريقا معينا تهمه أصوات اليهود فى الانتخابات ، وفريقا آخر تهمه العقود والمزايا التجارية . وبما أن الفريق الأول هو الذى يناصر الصهيونية ، فسيحرص على أن يربط ـ بذكاء ومهارة ـ بين كسب أصوات اليهود وبين الديمقراطية الغربية ، أى أنه سيكتب للصهاينة « شيكا » يمكن صرفه من أى بنك أوربى أو أمريكى . .

وفى عدة مناسبات أخرى سيطوى قضية « الصهيونية والصراع العربى الاسرائيلى » فى ثنايا قضية أخرى وهى قضية « السامية واللاسامية » فمع أنه يرى أن « السامية » كتصنيف عرقى يجمع بين العرب واليهود ، ليست إلا أسطورة غربية ، فإنه يجمع كل ما يستطيع جمعه من الأدلة على أن أوربا القرن التاسع عشر عرفت من يسميهم « اليهود أنصار الإسلام » ، ويعد على رأسهم السياسى اليهودى الإنجليزى المشهور « دزرائيلى » الذى رأس الوزارة البريطانية ، وكان أيضا أديبا روائيا ، فإن اعتزازه بأصله اليهودى جعله يتعلق بأسطورة السامية تعلقا عاطفيا حتى أنه سمى اليهود « عربا موسويين » أو « عربا يهودا » ويسرد لويس فى قائمة « اليهود أنصار الإسلام » أسماء كل أولئك المستشرقين اليهود الذين عرفوا أوربا بحضارة الإسلام ، متناسيا أن هذا التعريف كثيرا ما اقترن بتجن واضح على الإسلام . وفى مقاله المعنون « الساميون واللاساميون » يعرض بخفة للصراع العربى الإسرائيلى ، فينفى أن يكون سببه « عداء السامية » ، لا لأن العرب « ساميون » كاليهود ، بل لأن أسطورة « السامية » هى

من صنع أوربا ، وليست من صنع العرب ، إنما هو صراع سياسى ، ويتجاوز لويس هذا الصراع السياسى بسرعة ليقول أن الذين يعارضون إسرائيل والصهيونية من الغربيين ويناصرون العرب ، إنما يعبرون بذلك عن الداء الأوربى القديم : داء عداوة اليهود ! .

أهو خداع مقصود ، أم انحراف ناشىء عن الثقافة والبيئة والعلاقات الاجتماعية ؟ دعونا من النيات ، وانظروا إلى النتائج ! !

اليهود فى الاسلام

آخر ما أصدره المستشرق اليهودى البريطانى برنارد لويس ، الذى يعيش ويعمل الآن فى أمريكا ، كتاب عن اليهود فى الإسلام . ظهر هذا الكتاب فى العام الماضى ١٩٨٤ ، ولم يتيسر لى الاطلاع عليه بعد ، ولكن أمامى الآن مقالتين فى كتابه « الاسلام فى التاريخ » نشرتا لأول مرة فى عامى ١٩٧١ و١٩٧٣ ، الأولى بعنوان « الساميون واللاساميون » والثانية بعنوان « قصيدة ضد اليهود » .

أول ما نلاحظه أن اهتمام لويس بهذا الموضوع حديث نسبيا ، فهو مواكب لاهتمامه بتاريخ « الشرق الأوسط » المعاصر . وحتى كتابه « الشرق الأوسط والغرب » ١٩٦٤ لا يولى اهتماما خاصا لمكان اليهود فى المجتمعات الإسلامية ، وإن تحدث ـ بالضرورة ـ عن سياسات الدول العربية تجاه إسرائيل (ولا ينتظر منه بالطبع أن يقدم صورة مشرقة لهذه السياسات) ويمكننا أن نرى فى هذا الاتجاه الجديد لبحث أحوال الأقلية اليهودية داخل المجتمعات الإسلامية ـ أى لموقف الشعوب ـ لا الحكومات ـ الإسلامية من اليهود ـ محاولة لتبرير العداء العنصرى المتعاظم الذى يبديه يهود إسرائيل نحو العرب .

إن برنارد لويس ، فى المقالة الأولى ، معنى بإثبات أن العرب بوجه عام لا يعرفون « اللاسامية » أى عداء اليهود .. لا لأنهم

« ساميون » مثل اليهود ، بل لأن أسطورة « السامية » هى من اختراع الغرب ، غذاها الاعتقاد المسيحي بأن اليهود مسئولون عن قتل المسيح ، ويستدل على ذلك بأن حالات عداء اليهود التى ظهرت فعلا فى الشرق الأوسط ظلت حتى وقت قريب (يقصد بالطبع : إلى أن بدأ النشاط الصهيوني فى فلسطين) مسيحية فى منشئها ، ويستشهد بحادثة مشهورة جرت فى دمشق سنة ١٨٤٠ ، حين أتهم عدد من الرهبان الفرنسيسكان وأيدهم القنصل الفرنسى ، يهود المدينة بقتل أحد زملائهم .

ولكن لويس لايريد فى الوقت نفسه أن ينسب إلى العرب المسلمين فضيلة التسامح الدينى ، ولذلك يسارع إلى القول : « وهذا لا يعنى أن اليهود كانوا يعيشون تحت الحكم الإسلامى التقليدى فى تلك المدينة الفاضلة من الأديان المجتمعة ، التى اخترعها صناع الأساطير المحدثون ، لقد كان اليهود ، ومثلهم المسيحيون ، مواطنين من الدرجة الثانية نظريا وعمليا ، على أن حالتهم لم تكن سيئة إلى الدرجة التى تدل عليها ايحاءات هذا المصطلح الحديث . فقد كانوا يتمتعون بحقوق محدودة ولكنها أساسية ، على اعتبار أنهم أعضاء فى طائفة مشمولة بالحماية ، وكانت هذه الحقوق مرعية فى معظم الأحيان . وفى مقابل ذلك كان عليهم أن يدينوا بالولاء للدولة ، وكانوا يقدمون هذا الولاء فعلا ، كما كان عليهم أن يتحملوا أعباء معينة ، ولم تكن هذه الأعباء ثقيلة جدا فى العادة ، وكان ينتظر منهم ألا يتجاوزوا حدودهم . وكانت انفجارات ضد اليهود والمسيحيين تحدث دائما ـ ونادرا ما كانت تحدث ـ نتيجة للشعور بأنهم قد تجاوزوا تلك الحدود ، وهو ما أصبح ظاهرا فى السنوات الأخيرة » .

إنها وسيلة معروفة لإرباك الخصم ، أن تنسب إليه ما لا يدعيه ، تمهيدا لنفى هذه الدعوى الموهومة ، فالمدينة الفاضلة لم توجد قط فى الواقع ، إنما توجد فى خيال الشعراء والفلاسفة ، وإثبات

التسامح الدينى أو العنصرى لنظام ما لا ينفى أن هناك حالات شاذة أو « نادرة » ـ كما يعترف لويس ـ لقيت فيها بعض الأقليات الدينية أو العنصرية متاعب يسيرة أو خطيرة ، وكون هذه الحالات شاذة أو نادرة هو نفسه دليل على أن ثمة أسبابا أدت إليها ، غير حقيقة كونهم أقليات ، والمؤرخون المعاصرون يعرفون جيدا صعوبة التعبير عن مفاهيم حضارة معينة باصطلاحات حضارة أخرى ، فالدولة الإسلامية لم تعرف مواطنين من الدرجة الأولى وآخرين من الدرجة الثانية لأنها لم تكن دولة قومية بل نظاما عالميا ، من ارتضاه ودخل فيه كان عضوا كامل العضوية فى المجتمع الإسلامى ، ومن لم يقبله وآثر أن يعيش ويعمل بين جماعة المسلمين كان له ذلك ، ولكنه يعد أجنبيا عن هذا المجتمع ، وإن كان « المكان » الذى يعيش فيه هو « وطنه » . فلو أريد قياس هذا النظام على نظام الدولة القومية لكان أقرب إلى الصحة أن يقال إن الأقليات الدينية كانت أشبه بالجاليات الأجنبية ، تتمتع بكل ما يتمتع به « المواطنون » ولكنها لا تشارك فى صنع سياسة البلد الذى تعيش فيه . ومع ذلك يظل القياس غير صحيح تماما ، لأن نظام الدولة الإسلامية لم يلغ معنى « الوطنية » ولا حقوق غير المسلم فى وطنه ، فلم تجل الأقليات الدينية أو العرقية عن أوطانها ، مع أن هذا الإجلاء قد حدث لبعض القبائل العربية المشاكسة ، كما أجلى قسم من بنى تميم إلى خراسان فى عهد الدولة الأموية ، وكما أجلى بنو هلال إلى شمال افريقيا فى عهد الدولة الفاطمية .

ولعل المؤرخ المنصف لو تتبع أحوال الأقليات الدينية بالذات ، تحت الحكم الإسلامى ، لوجد أنها كانت أحسن حالا ، بوجه عام ، من الأغلبية المسلمة ، فقد تركت لها تنظيماتها الخاصة ، ولم تكن نتيجة ذلك أنها حافظت على تماسكها فحسب ، بل أنها ازدادت ثراء وقوة أيضا ، وطبيعى أن يحفظ ذلك عامة المسلمين ، وخاصة حين تستولى أقلية دينية ما على السلطان السياسى أيضا .

ويحتاج المؤرخ المنصف أيضا إلى أن يقارن بين معاناة الأقليات الدينية ومعاناة الأغلبية المسلمة أثناء فترات الاضطراب السياسى ، أما المؤرخ المغرض فإنه سيصنع شيئا شبيها بصنيع لويس فى مقاله الآخر « قصيدة ضد اليهود » .

القصيدة المشار إليها هى قصيدة أبى اسحق الألبيرى التى وجهها إلى شعب صنهاجة وسيده باديس بن حيوس ، وكانوا قد تسلطوا على غرناطة في عهد ملوك الطوائف ، محرضا إياهم على قتل الوزير يوسف بن النغريلة وقومه اليهود . بل أن القصيدة تضمنت نقدا عنيفا للأمير الصنهاجي نفسه ، وكان أبو اسحق كما تدل المصادر رجلا زاهدا لا يتهيب أن يخاصم السلطان فى حق ، ولذلك نفاه باديس إلى البيرة .

يقول أبوإسحق :

ألا قل لصنهاجة أجمعين
بدور الندى وأسود العرين
لقد زل سيدكم زلة
تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا
ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا
وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى
فحان الهلاك وما يشعرون

وقد تحدثت كتب التاريخ فعلا عن أن العامة ثاروا باليهود فى غرناطة وأوقعوا فيهم مقتلة عظيمة .. وذهبت بعض المصادر إلى أن قصيدة أبى إسحاق كانت السبب المباشر فى هذا الحادث .

ولو أن هذه المجزرة ، التى وقعت ليهود غرناطة فى عهد أمير

سيىء التدبير من ملوك الطوائف ، تكرر أمثالها فى تاريخ الأندلس الإسلامية ، أو لو أن ذاك العصر خلا من مذابح مماثلة لها أو أفظع منها وقعت للمسلمين على أيدى أعدائهم الأسبان أحيانا ، وعلى أيدى بعضهم البعض أحيانا أخرى ، لجاز للمؤرخ أن يستخلص منها الدلالة التى يريدها ، وهى نفس الحكم الذى ألقاه فى المقال السابق بدون دليل . فالآن وقد واتاه الدليل ، فإنه يستطيع أن يقرره ، بنفس الألفاظ تقريبا ، ولكن بمزيد من التأكيد !

لاشك فى أن وضع اليهود والمسيحيين تحت الحكم الإسلامى التقليدى كان بعيدا عن تلك المدينة الفاضلة من الأديان المجتمعة ، التى يتخيلها الرومنتيكيون والمدافعون عن العرب فى العصر الحديث .

ولكى يقتنع قراؤه بأنه لايزال ذلك المؤرخ « الموضوعى » المحايد ، يردف هذا الحكم بقوله :

« ولكن هذا الوضع سمح لهم بالبقاء أحياء ، وأحيانا بأن ينعموا بحياة مزدهرة ، إن عبارة (مواطن من الدرجة الثانية) لهاوقع خشن وكريه على الآذان الحديثة ، ولكن المواطنة من الدرجة الثانية ، إذا كانت راسخة الجذور فى التقاليد ، مرعية بالقانون والعرف ، نافذة فى الواقع العملى ، فهى أفضل من مواطنة من الدرجة الأولى على الورق فقط » .

وهكذا يجرد عبارة « مواطن من الدرجة الثانية » من التحفظ الذى ساقه فى المقال الأول ، وكأنها أصبحت قضية مسلمة ، ثم يضيف شاكيا ـ تلك الشكوى التى لاتزال الصهيونية تستغلها لتبتز ما تريد ابتزازه من الغرب ، وكأنما اليهود ـ لا العرب ـ هم الضحايا الذين يجب أن يكفر الغرب عن خطاياه نحوهم :

« إن المواطن في ديمقراطية حرة قد يأنف من وضع الذمى » ، ولكن كثيرا من الأقليات فى عالم اليوم قد يتمنون هذا الوضع ، بما يتبعه من استقلال طائفى ، وحقوق معترف بها ، وإن تكن محدودة »

ولاشك فى أن برنارد لويس ، وهو ليس مجرد مؤرخ ، ولكنه أيضا كاتب بارع ، قد أبدى مزيدا من هذه البراعة فى كتابه الجديد عن « اليهود فى الإسلام » .

بين التاريخ والسياسة

وليم بولك مستشرق أمريكى معاصر ، جاب شبه جزيرة العرب على ظهور الجمال حتى يتصور - على الطبيعة - الرحلة التى وصفها لبيد في معلقته قبل أن يقدم أحدث ترجمة إنجليزية لهذ - المعلقة .

لم يكن إلا عام أو عامان بعد أن فرغ وليم بولك من معلقة لبيد حتى استقال من عمله فى جامعة شيكاغو وقدم إلى القاهرة حيث أنشأ مؤسسة استشارية متخصصة فى شئون أوربا والشرق الأوسط ، كما تقول النبذة التى ذيل بها كتابه « السلام المراوغ : الشرق الأوسط فى القرن العشرين » وهو موضوع حديثنا اليوم ، وقد صدر سنة ١٩٧٩ عن دار نشر لندنية ، بينما كان صاحبه معتكفا فى قرية من قرى اليونان ، بعيدا عن أمريكا وعن الشرق الأوسط ، بعيدا عن الجامعة وعن السياسة وعن الأعمال ..

بعيدا أيضا عن تلك الصورة التقليدية التى يحتفظ بها كل إنسان ولد ونشأ فى حضارة الغرب عن الإنسان العربى ، ذلك المخلوق الألفى الذى لم يتغير قط ، لأنه لا يعرف قيمة الحركة ، لأن الحركة لا قيمة لها فى حياته ، فكل ما يبدو عليه من تغير فإنه لا يخرج عن أحد أمرين : إما اندفاع وقتى أهوج ، يعود بعده إلى ما كان عليه - وأما تغيير سطحى تفرضه عليه قوة خارجية ، ويزول بزوالها ، لم تكن معه إلا دراساته التاريخية ، وعدد من الوثائق المهمة التى تبدأ

بوعد بلفور وتنتهى باتفاق كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل ، ثم تجاربه أثناء عمله الدبلوماسى الذى لم يدم طويلا ، والذى كان حافلا بالإحباطات كما يبدو .

يقول فى المقدمة :

« لقد كتبت هذا الكتاب كمؤرخ أولا ، ولكننى أيضا كنت طوال السنين الثلاثين الماضية أراقب وأشارك فى كثير من الأحداث التى يتناولها ، عرفت عددا من الأطراف الرئيسية فى هذه الأحداث ، وسمح لى بالاقتراب من تفكير عدد من الحكومات وأهم من ذلك أنى أتيحت لى الفرصة لأن أتحدث مع أناس من مختلف الشعوب ، وأعيش بينهم ، وأقرأ أدبهم ، وهذه تجارب قيمة فى حد ذاتها ، ولم تكن وسائل لتحقيق غرض ما ـ بالتأكيد لم يكن القصد منها أن أخرج بهذا الكتاب ، ولكننى أستندت إليها للقيام بتنبؤات وتفسيرات دقيقة لأحداث الشرق الأوسط مثل حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ ، وفشل عدد من مبادرات الصلح ، وأهم من ذلك أنى استندت إليها فى اقتراح وسائل للسعى نحو السلام ، وكم من مرة رأيت فرصة تضيع نتيجة لسوء فهم القضايا والمشكلات فى أغلب الأحيان ، فأنا هنا أحاول إبراز الوقائع والتفسيرات الجوهرية التى يمكن أن تساعدنا على تحقيق السلام » .

رغم النبرة العلمية التى صيغت بها هذه العبارات أجد فيها رنة من الأسى ، وخاصة حين أتذكر أن المؤلف يكتبها وهو « متقاعد » فى سن مبكرة جدا ، تذكرنى هذه البداية بكتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ وقد كتبه هو أيضا حين تقاعد ، مسجلا ذكرياته الشخصية عن الحروب الصليبية ، وعن أواخر أيام الحكم الفاطمى فى مصر ، وكانت هذه الأخيرة بالذات شديدة المرارة والإيلام ،

وإن رواها الشاعر الفارس الأديب العربى بهدوء الرجل المؤمن ، الذى يعلم أن حكمة الله وقدرته فوق تدبير المخلوقين ، ولكن أسامة كان يكتب مذكراته بعد أن شهد بزوغ نجم صلاح الدين ، ولم يكن يكتب كمؤرخ ، أما بولك فإنه يكتب عن فترة شديدة القلق والاضطراب فى حياة العالم العربى ، اشتبهت فيها السبل وتناقضت الحلول . وذكرياته الشخصية لا تظهر فى كتابه ظهورا صريحا إلا حين يشير إلى حادثة معينة وهى قيامه بدور الوسيط بين إسرائيل ومصر لوقف حرب الاستنزاف وبدء محادثات سرية بينهما ، وجدير بالذكر أنه يثبت المسعى الاسرائيلى والموافقة المصرية المبدئية فى متن الكتاب ، ولا يصرح بأنه كان هو المبعوث الخاص من قبل الحكومة الاسرائيلية إلا فى هامش صغير (وهو الهامش الوحيد فى الكتاب كله) على اعتبار أنه الشاهد الوحيد على صحة هذه الواقعة .

الكتاب إذن مؤلف تاريخى ، وليس مؤلفا سياسيا ، وقد يكون الفرق بين هذين النوعين ، دقيقا كالشعرة ، حين يكون الموضوع فترة حرجة فى حياة الأمم ، فترة تظل فيها القضايا والمشكلات التى أثيرت منذ مائة عام بلا حل حتى الوقت الحاضر ، ولكن بولك كمؤرخ ودبلوماسى ـ يؤمن بالحكمة القائلة إن الشعوب التى تهمل ماضيها تجد نفسها مسوقة إلى تكراره ، وكمستعرب عاش فى الشرق الأوسط واختلط بأهله ـ يعرف أن هذه المنطقة من العالم تمثل متحفا هائلا لحضارات تمتد إلى سبعة آلاف سنة ، وأن هذه الحضارات قد ترسبت فى اللاوعى الجماعى لسكانها ، أشبه ما تكون بالطبقات الجيولوجية .

ومن ثم جاء الكتاب تذكرة لكل من شاركوا فى صنع التاريخ الحديث لهذه المنطقة ، ومن يشاركون الآن فى صنع مستقبلها : تذكرة للأوربيين الذين حاولوا فى عصر الاستعمار سلخ شعوب هذه المنطقة عن ماضيها ، تذكرة للامريكيين الذين ورثوا تركة

الاستعمار الأوربى وارتكزت سياستهم فى عصر الحرب الباردة على إبعاد المنطقة عن خطر النفوذ السوفييتى ، تذكرة للاسرائيليين الذين استغلوا عطف الشعوب والحكومات فى أوربا وأمريكا وشعورها بالذنب أثناء الحرب العالمية الثانية وعلى أثرها ، فادخلوا فى روع القوم أن الصهيونية حركة قومية يهودية كسائر الحركات القومية التى عرفت فى العالم الغربى ، ولكن وجه الصهيونية القبيح لم يلبث أن ظهر كنازية جديدة - تذكرة للساسة الأمريكيين الذين قصدهم المؤلف ولاشك بإشارته إلى سوء فهم القضايا والمشكلات - تذكرة للعرب أولا وأخيرا ، أصحاب الأرض الذين كانت مشكلتهم الأساسية هى أن دول الغرب قررت أن هذه الأرض أهم من أن تترك لأصحابها ، والذين لايزالون مضطربين بين متغيرات الحاضر وتراث الماضى الغريب والبعيد .

كل هؤلاء ينظر إليهم وليم بولك من معتزله اليونانى بحياد العالم المنصف ولكن الحياد العلمى لا ينفى أن له منظورا عقليا واضحا ومحددا ، ربما كان هذا المنظور (وهو لا يعرض قط بصراحة ، فهو أشبه بالمسلمات لدى أى مؤلف أمريكى) أهم شىء يجب علينا نحن العرب أن نستخلصه من الكتاب . إنه المنظور العملى (البرجمانى) . فقد تعودنا أن نرفع شعار « السلام القائم على العدل » وهذه لغة غريبة على السياسة الدولية ، التى يسيطر عليها الفكر الغربى ، الفكر الغربى يفهم السلام لأنه نقيض الحرب ، والحرب تخرب الممتلكات وتقضى على الأرواح ، ولذلك لا ينبغى اللجوء إليها فى الأحوال العادية ، ولكنها يمكن أن تصبح ضرورية إذا كانت هناك قوة معادية (منافسة) تهدد مصالحنا ، ولكن العدالة ... ؟ ما معنى العدالة بالضبط ؟ .. إن القوى يأكل الضعيف - هذه هى عدالة الطبيعة ، الذئب يفترس الشاة والأسد يصرع الثور ، والدول القوية تفرض سيطرتها على الشعوب الضعيفة وتكون إمبراطوريات ، هذه هى أخلاق الطبيعة ويجب ألا

تقشعر أبداننا إذا اضطرنا الخصم بعناده إلى أن نثبت قوتنا وحقنا فى السيطرة عليه بسفك دمه .

« الظلم » فى نظر السياسة الدولية لا يكون ظلما إلا إذا رفضه المظلوم ، هنا تصبح المشكلة العملية التى يخلقها لك سببا للعدول عن الإجراء « الظالم » وسلوك طريق آخر ، معنى ذلك أنه ليس هناك ظلم ولا عدالة ، هناك فقط إجراء ناجح وإجراء غير ناجح .

شنق الفلاحين فى ساحة دنشواى كان إجراء خاطئا لأنه أثار الشعب المصرى الوديع المسالم ، بدون مسوغ قوى دعا إلى هذا الإجراء ، وقنبلتا نجازاكى وهيروشيما كانتا إجراء سليما لأنه وضع نهاية سريعة للحرب العالمية الثانية !

يخيل إلىّ أننا قد يمكننا أن نكتب أعظم الكتب ، ونلقى أبلغ الخطب بلغة إنجليزية تزرى بأعظم بلغائهم ، دون أن تهتز لأحدهم شعرة ، أو ينبض فى أحدهم عرق ، وما ذلك إلا لأننا نتكلم فى الحقيقة لغة غير لغتهم .

أما بولك فإنه مؤرخ أمريكى يكتب بلغة يفهمها الأمريكيون وسائر أهل الغرب ، لا أذكر أنى وقعت على كلمة « العدالة » مرة واحدة فى كتابه هذا . موقفه المعلن هو نفس الموقف العربى ، أو موقف من يسمون « بالمعتدلين » من العرب ، وهو وجوب قيام دولة عربية فلسطينية فى فلسطين ، وهو موقف مازالت الولايات المتحدة الأمريكية ترفضه انحيازا إلى جانب إسرائيل ، بينما تؤيده بعض الدول الغربية الأخرى تأييدا فاترا .

لقد استرعى نظرى خطأ ، يمكن أن يكون سهوا ، ويمكن أن يكون مدسوسا على نص الكاتب ، وهو قوله (ص ١٧٩) إنه لا يمكن عمليا زحزحة إسرائيل عن حدود سبتمبر ١٩٦٧ ، فلاشك فى

أنه يقصد حدود ٤ يونيه ١٩٦٧ لأنه يوصى فى الصفحة نفسها بقيام دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة . ولكن الذى يعنينى أكثر من ذلك هو أن حجته القوية لتأييد دعوته هى أن الفلسطينيين لن يسكتوا على ضياع وطنهم ، ولابد أن يلجأوا إلى حرب العصابات ، وإلى الإرهاب .

إسقاط الشعب الفلسطينى من حساب الدول الغربية ، بل اسقاط الشعوب العربية جميعها من حساب هذه الدول ـ تلك هى « الغلطة » السياسية الكبرى التى أدت إلى العجز عن تحقيق السلام فى هذه المنطقة من العالم ، ولكنها غلطة تمتد جذورها إلى بدايات عصر الاستعمار . ومن الوثائق الحكومية المهمة التى أبرزها بولك مذكرة للورد بلفور (صاحب الوعد المشئوم) بتاريخ ١١ أغسطس ١٩١٩ (ص ٤٩ ـ ٥٠) يصرح فيها بأن الدول الأربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية ، وليس فى نيتها أن تستشير سكان فلسطين ! ولأن سكان فلسطين أثبتوا أنهم موجودون ، لهذا السبب وحده كان الغلط !

حقائق وأساطير فى
« الشرق الأوسط »

يقول المستعرب الأمريكى وليم بولك فى مقدمة كتابه « السلام المراوغ : الشرق الأوسط فى القرن العشرين » : لقد تناولت أحداث التاريخ القريب حسب تسلسلها الزمنى غالبا ، ولكننى حاولت أن أبرز داخل هذا التسلسل عددا من الموضوعات الرئيسية ، وأهمها اثنان : الكفاح فى سبيل الاستقلال ـ مع عدم الاعتراف الصريح بأن القومية لاتزال هى أقوى الأفكار السياسية واكثرها شيوعا في عصرنا هذا في الشرق الأوسط مثلما هى الحال فى افريقيا وآسيا ـ ثم موضوع نمو المقدرة » .

ولابد لنا من أن نترك موضوع المقدرة لمناسبة أخرى ، كى نفرغ لمناقشة مايقوله بولك وبعض المستشرقين الآخرين عن ذلك الموضوع الغامض والشائك ، موضوع « القومية » فى الشرق الأوسط . وقد يستنكر بعض الناس هذين الوصفين للقومية . فهى عندهم واضحة كل الوضوح ، لايقبلون منك إلا أن تكون معها أو عليها ، ومن ثم فالدوران حولها بحجة انها غامضة أو شائكة ليس إلا حيلة يلجأ اليها الضعفاء والمتشككون .

ولو كنا نكتب مقالا سياسيا لترددنا ألف مرة قبل أن نطرق هذا الموضوع ولكننا نحاول أن نلم بما يقوله بعض المستشرقين عن عالمنا العربى الحديث ، وهم قوم لايعيشون فى عالمنا العربى

هذا ، وإن نزلوه فى الحين بعد الحين ، فهم يعرفونه بآثاره ، اى انه عندهم موضوع من موضوعات الجغرافيا أو التاريخ ، ولكن هذا ليس كل شيء . فهم يجمعون بين موقفين يصعب اجتماعهما فى العادة : موقف المراقب الخارجى غير المنغمس فى الأحداث ، غير المتأثر بها ، وموقف الشريك الفعال ، عن طريق حكوماتهم التى تتخذهم خبراء ومستشارين ، والموقفان معا يحتمان علينا أن نعرف كيف ينظرون إلى تاريخنا الحديث والمعاصر ، إذا أردنا أن نؤثر ـ من بعد ـ فى نظرتهم إلى هذا التاريخ . ولاتنس أن مواقفهم ونظراتهم تتسرب إلينا كل يوم عن طريق الأنباء والتعليقات ، فلا تلبث طويلا حتى نرددها معهم ، وبذلك تصبح « أمرا واقعا فكريا » يحتل مكانه بجانب الأمر الواقع المادى ، والأفكار الغريبة حين تنفذ إلى جسم الحضارة مزقا وشظايا لاتلبث طويلا حتى تفتك به وترديه ، أفليس الأولى بنا أن نبحث عن هذه الأفكار مكتملة صحيحة ، حتى نواجهها بفكر صحيح ؟

ومع اننا نميز دائما بين الاستشراق الذى يتحلى بشىء من الأمانة العلمية قل أو كثر ، وبين الدعاية التى تسيطر عليها أجهزة لاتقيم وزنا لشىء سوى المصالح المادية للجهات التى تمولها أو تشرف عليها ، فإن الحدود غير فاصلة بين هذه وذاك ، وأوضح مثل على ذلك عبارة « الشرق الأوسط » نفسها ، فقد استخدمت أولا كإصطلاح جغرافى وعسكرى ، ثم غلب عليها معنى حضارى بحيث ارتبطت بالحضارات القديمة من ناحية ، وبالإسلام من ناحية أخرى ، أما فى الوقت الحاضر فارتباطاتها السياسية ربما كانت أغلب عليها من أى شىء آخر ، بما أنها أصبحت علما على بؤرة مهمة من بؤرات الصراع الإقليمى والدولى ، والمستشرقون يستخدمونها فى الوقت الحاضر كما يستخدمها غيرهم ، فيساعدون على خلط هذه المعانى بعضها ببعض ، ويشاركون فى إخفاء حقيقة الصراع القائم فى « الشرق الأوسط » هذا ، جعله صراعا بين « قوميتين » يضمهما هذا الشرق ، وليس ، كما هو فى الواقع ،

حلقة جديدة من الصراع العربى ضد الاستعمار الغربى ، الذى اتخذ فى مرحلته الأخيرة شكل استعمار استيطانى ، شبيه بالاستعمار الفرنسى للساحل الجزائرى .

ولكن من الحق أن يقال إن المستشرقين ليسوا سواء فى معالجتهم لهذا الموضوع ، أما برنارد لويس فهو يهودى شديد التعاطف مع قومه اليهود ، شديد المرارة نحو الدول الغربية التى تخلت عنهم اثناء محنتهم فى ألمانيا النازية ، ومن ثم فلا بد له أن يكون مؤيدا للصهيونية ولدولة إسرائيل ، ولكن دون أن يضحى « بمصداقيته » كما يقال ، كمؤرخ أكاديمى ، موضوعى ، محايد . ولذلك يكتفى بأن يقول ، حين يذكر الصهيونية ، إن أوروبا هى المسئولة عن قيامها ، لا اليهود ، فإذا تحدث عن دولة إسرائيل لم يذكر شيئا عن تاريخها ، بل تكلم عن موقف العرب وأنصار العرب منها ، وكأن إسرائيل هذه كانت موجودة هناك منذ مئات السنين ، وألبرت جورانى ، المؤرخ البريطانى ، يحاول بعبارات غامضة مبتسرة أن يدفع عن السياسة البريطانية تهمة النفاق والوصولية حين كانت تفاوض اليهود والعرب فى نفس الوقت لتتعهد أخيرا بتمكينهم ـ هؤلاء وهؤلاء ـ من اقامة دولتهم المستقلة على نفس الأرض ، ثم لايعنى كثيرا بالصراع العربى الإسرائيلى ، ولكنه يعنى بالصراع بين الطائفة المارونية (النشيطة المتطورة) وبين (النظم الإقطاعية المتخلفة) فى الجبل وحوله لإقامة دولة لبنان الديمقراطية الحديثة على النسق الغربى .

أما بولك فانه يفرد الفصل الثانى من كتابه « السلام المراوغ » لظهور القومية ، ويخصص معظم صفحات هذا الفصل للحديث عن الصهيونية ، منذ بداياتها إلى أن قررت الانقضاض على فلسطين بمعونة « الحلفاء » ، وتخللت ذلك بضع صفحات عن « العربية » (أو القومية العربية) التى يرى ـ بحق ـ انها لم تكن واضحة المفهوم ولامحددة الاتجاه ، ويعلل ذلك ـ بين أسباب أخرى ـ بأن

العرب كانوا يواجهون أعداء مختلفين ، إذ كانت بعض الشعوب العربية واقعة تحت السيطرة العثمانية وبعضها الآخر فى قبضة دولة من الدول الغربية الاستعمارية ، ولكنه يحكم على القوميتين معا ـ العربية واليهودية ـ هذا الحكم الذى يمكن أن يبدو غريبا ، كما يمكن أن يبدو عاما جدا :

« إن أصول الفكرة القومية كثيرا ماتبدو غير لافتة للنظر ، ولكننا نترك الاسطورة تنمو وتسمو مع الزمن أو النجاح أو كليهما معا . فكما أن الصهيونيين الأوائل كان منشؤهم عشرين أو نحو ذلك من الطلاب اليهود فى الجامعات الروسية .. فكذلك كان على العرب أن يلتمسوا أصول قيادتهم لدى قلة من الأندية الأدبية فى الجامعات ، وإن حجمهم لتبدو لنا ساذجة وبعيدة عن الواقع ، فقد بنوا أفكارا فلسفية هائلة على فروق لغوية صغيرة ، بل إن بعض هذه الفروق كان محل شك ، ولم تؤد إلا إلى إسدال ستار من الغموض على ما لم يرد الكتاب أن يواجهوه ، أو ما واجهوه بطرق متنافرة ، وهذا هو مازاد الحركة ضعفا » .

ولاشك أن هذه الفقرة نفسها تتصف بالغموض إلى درجة كبيرة ، ولعل الكاتب معذور فى ذلك ، فما سمي بالحركات القومية فى العالم العربى كان ـ ولايزال ـ شديد التنافر من حيث المدى الزمنى والمكانى ، ومن حيث التوجه التاريخى والمستقبلى بحيث لاتمكن مقارنتها بالأسطورة الصهيونية التى تبدو كآلة صنعت بعناية واصرار ، وادخلت عليها التحسينات مرة بعد مرة لتكون أكثر كفاءة ، فلم تترك « لتنمو وتسمو » كما يقول الكاتب ، أو كما هو شأن الأساطير الطبيعية .

وبما أن الصهيونية أسطورة مصنوعة ، فقد كان من السهل على الكاتب أن يبين كيف بنيت هذه الأسطورة ، فالطلاب اليهود فى الجامعات الروسية ، الذين بدأت بينهم الفكرة الصهيونية ، لم

يكونوا يهودا إلا بالدين والثقافة والوضع الاجتماعى ، إذ كانوا . كسائر يهود روسيا ، من بقايا مملكة الخزر التركية التى دخل أهلها فى اليهودية لأسباب سياسية فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، حتى تقف فى وجه جارتيها القويتين : الدولة الاسلامية من ناحية ، والدولة البيزنطية المسيحية من ناحية أخرى (وكان الدين فى تلك العصور يناظر الايديولوجية السياسية فى هذه الايام ، كما نعرف من صراع اليهودية والمسيحية فى اليمن قبل ظهور الاسلام) .

وهكذا ابتدع اليهود حركة سياسية ، واخترعوا لها قومية ، ثم اخذوا يبحثون لهذه القومية عن وطن يقيمون عليه دولة . ومازالوا يوهمون الغرب بأن دولتهم هى دولة قومية كالدول الغربية ، رغم هذه المفارقة الغريبة ، وهى أن دولتهم « القومية » تقوم جنسيتها على الدين .

أما « الفكرة القومية » فى العالم العربى فشأنها مختلف جدا ، ولألبرت حورانى مقالة عنوانها « الفكرة القومية فى الشرق الأوسط امس واليوم » حاول فيها أن يحيط بجميع الاتجاهات نحو « تحديث نظام الدولة » فى العام الإسلامى ، ولكن الموضوع تشعب بين يديه نتيجة لتشعب هذه الاتجاهات نفسها : بين تحديث مستعد من الشريعة وتحديث مستمد من الأفكار الغربية عن نظام الدولة ، وقومية مرتبطة بحدود الدولة وأخرى تتجاوز تلك الحدود . والمشكلة الأساسية في هذا المقال أن مفهوم « القومية » يتسع آنا بحيث يشمل العالم الإسلامى كله ، ويضيق آنا بحيث يقتصر على السلطة السياسية فى حيز صغير منه .

ولاتزال فكرة « جورج انطونيوس » عن ارتباط الفكرة القومية فى العالم العربى بالأقليات الدينية تلقى قبولا لدى معظم الباحثين ، فهى تلوح كقضية مسلم بها فى كتاب بولك ، وحورانى نفسه ، الذى

يرفضها نظريا ، يطبقها عمليا فى دراسته عن الدولة اللبنانية ، اما واقع الحركات التى قامت فى العالم العربى ضد الاستعمار ولاتزال قائمة حتى اليوم ، فهو انها حركات وطنية ، اى انها مرتبطة بالأرض ، لا « بأسطورة » قومية وانما راجت الاسطورة القومية بين بعض الأوساط العربية ردا على دعوة القومية التركية ، وبتشجيع من الدول الغربية ، واما الوحدة التى تربط بين أجزاء العالم العربى فانها لاتقل واقعية ، وهى وحدة الحضارة التى تعتمد على الدين واللغة ، وأما المشكلة التى تواجه العرب اليوم ، ولن يستطيع ان يحلها غيرهم ، فهى إيجاد نوع من الوحدة السياسية يجمع بين الوحدة الحضارية والوحدة الوطنية .

المقدرة

المقدرة (Capacity) وتترجم أحيانا بالطاقة أو القدرة اصطلاح دائر بين العلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومعناه فى الاقتصاد السياسى ـ كما يشرح وليم بولك فى مقدمة كتابه « السلاح المراوغ : الشرق الأوسط فى القرن العشرين » ـ الناتج القومى فى قطر من الأقطار مقسوما على عدد السكان ، ولاجدال فى أن دلالة رقم كهذا إنما تظهر من خلال المقارنة ، ولذلك يجرى الكاتب مقارنة بين إسرائيل ومصر ، وهنا يظهر نوع من التناقض لافت للنظر ، فالناتج القومى الكلى فى كلا البلدين يقارب البلد الآخر : ١٤ ألف مليون دولار فى مصر و١٢ ألف مليون دولار فى إسرائيل ، ولكن متوسط مايخص الفرد فى مصر التى يبلغ عدد سكانها حوالى الأربعين مليونا لايتجاوز ٣٥٠ دولارا ، فى حين أن نظيره فى إسرائيل ذات الثلاثة ملايين ونصف المليون هو ٣٣٧٠ دولارا تقريبا ، ويقابل ذلك تناقض جغرافى مماثل ، فمصر التى تبلغ مساحتها حوالى ٣٨٦ ألف ميل مزبع لاتملك من الأرض الزراعية إلا مايقارب عشرة آلاف ميل مربع ، فى حين أن إسرائيل التى تبلغ مساحتها ثمانية آلاف ميل تستغل ستين فى المائة من هذه المساحة تقريبا فى الزراعة .

لعل بولك اختار مصر بالذات لانها النموذج الأوسط فى العالم العربى ، فمقدرة العالم العربى ـ ككل ـ مبعثرة على مساحة

واسعة ، ونستطيع أن ننقل هذا الوصف ـ بسهولة ـ من المجال المادى إلى المجال المعنوى ، ولكننى لا أظن أن عربيا واحدا يمكنه أن يقتنع بهذا المعيار الذى يقدمه المؤرخ الأمريكى لقياس الإنجاز السياسى فى الماضى او الاحتمالات السياسية فى المستقبل ، فلو أن مختصا فى « التاريخ الإحصائى » استخرج الناتج القومى الكلى لشبه جزيرة العرب ولكل من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية حوالى سنة ٦٠٠ لميلاد المسيح ، لأمكنه أن يقدم كل احتمال عقلى يخطر على البال سوى ماحدث فعلا .

ولكن المقدرة المحسوبة إن لم تكن هى العامل الوحيد الفاصل فى كل صراع فإنها عامل مهم ، ولايكفى أن تحسب حساب مقدرة الخصم ، بل يجب أيضا أن تعرف كيف يحسب الخصم مقدرتك ، كذلك يجب أن تعرف كيف يحسب الآخرون ، الواقفون خارج حلبة الصراع مقدرتك ومقدرة خصمك ، لأن هؤلاء الواقفين يترقبون من يكون المنتصر منكما ، فإذا لاحت الدلائل على غلبة أحد كما ساعدوه سرا أو جهرا ليشاركوه فى الغنيمة ، هذا هو معنى « قياس المقدرة » والغرض منه ، وهذه هى اللغة التى يتكلمها القوم ويفهمونها ، اما « الحق العربى » فكلام نتكلمه نحن ، ولن يفهموه إلا حين نترجمه إلى مقدرة .

وبولك صديق لنا إن عددنا الاصدقاء ، ألم يدع إلى التحاور مع الفلسطينيين ، والاعتراف بحقوق الفلسطينيين ؟ ولكنه لايتخذ هذا الموقف إلا توقيا لحادث كحادث جنود البحرية الأمريكيين الذى وقع بعد أربع سنوات من تأليف كتابه . يقول : « على قدر نجاح إسرائيل فى أعمالها ضد الفلسطينيين ، سوف يصبح هؤلاء اكثر استقتالا وأشد خطرا ، إن حرب العصابات والارهاب لايحدان بالجنس او بالجغرافيا . لقد استخدمهما الضعفاء فى كل مكان ، واستخدموهما بنجاح غالبا ، ومهما يكن سخطنا على الفظائع التى يرتكبها بعضهم ، فإن قليلين منا يستطيعون ان يقولوا وهم

مستريحو الضمير : إنهم لو وصلوا إلى نفس الحالة من اليأس لتصرفوا بطريقة مختلفة» .

هذا ـ اذن ـ هو الاعتبار الوحيد الذى يمكن للسياسة الدولية أن تأخذه فى الحسبان الى جانب اعتبار « المقدرة » ونستطيع نحن أن نأسف ونأسى لكون السياسة الدولية على هذا الحال ، ولكن الأسف والأسى من جانبنا لايغيران السياسة الدولية .

يمكن ان يكون هناك اعتبار آخر يهم « دافع الضرائب » الأمريكي ، ولو ان بولك يقدم هذا الاعتبار بحذر شديد فاسرائيل فى نظر الأمريكيين « هى الدولة الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط ، والدولة الوحيدة التى يمكن التفاهم معها بحق ، والتى تبدو مؤسساتها مألوفة للغربيين ، ويتصرف أهلها على طريقة الغربيين ، وهى ايضا تهيىء منفذا جيدا الى داخل الاتحاد السوفييتى (عن طريق الطائفة اليهودية) ولذلك فإن خدماتها تكاد تكون حيوية لأمن أمريكا فى بعض الأحيان ، ولكنها تكلف أمريكا كثيرا» : « فأمريكا هى مصدر الأموال لدعم الحكومة وبناء البلد ، والاسلحة لتجهيز الجيش ، والعقود السخية لاقامة مؤسسات البحث وصناعات الحرب ، ولولا المساعدة الأمريكية لكان من الجائز ألا تقوم اسرائيل أبدا ، ومن المؤكد ألا تستمر فى الحياة طويلا ، ولايزال الرسميون الإسرائيليون الذين يقومون بزيارات مكوكية منتظمة إلى الولايات المتحدة يذكرون الطائفة الصهيونية الأمريكية بهذه الحقائق مرارا وتكرارا حتى جعل الاسرائيليون انفسهم فى وضع أشبه مايكون بالولاية الحادية والخمسين ، بل الولاية الأكثر رعاية . ففي ميزانية ١٩٧٨ كان نصيب الفرد الاسرائيلى من المساعدات الحكومية الأمريكية مايقرب من ألف دولار ، وهو رقم أعلى بكثير مما يحصل عليه سكان مدينة نيويورك (٢ بليون دولار) مع انهم يبلغون أربعة أضعاف تعداد الاسرائيليين ، وبينهم عدد من اليهود يفوق تعداد الإسرائيليين ، ونيويورك ـ بعد ـ جزء من الولايات المتحدة .

ولكن هذا كله لايحجب عن عينى الكاتب انجازات « المقدرة » الاسرائيلية ! فاسرائيل هى بطل الرواية ، هذا هو الانطباع الذى يخرج به اى قارىء لكتاب بولك . الصهيونية اولا ، ثم اسرائيل ثانيا ، هى العنصر الايجابى الفعال فى المنطقة ، فى مجال الدبلوماسية ، وفى مجال الحرب ، وفى مجال بناء الدولة ، وكونهم قد اعتمدوا على مساعدات الدول الغربية فى هذه المجالات كلها امر لايؤثر فى احكام الكاتب (ولعله يقول إن الحصول على هذه المساعدات هو نفسه ضرب من النجاح) واليك جملا اقتطفها من ختام الفصل الذى عقده عن « نمو المقدرة » :

« إن إسرائيل استخدمت ماحصلت عليه من الخارج استخداما حكيما وجيدا ، والخلاصة أن الاسرائيليين بنوا مجتمعا صناعيا غربيا حديثا ، ومن السهل على الصناعة فى كل أوروبا وأمريكا أن تتعامل مع الصناعة الاسرائيلية .

وقد استطاع الاسرائيليون ان يحققوا اعلى مستوى معيشة فى الشرق الأوسط ، وبلغ انتاجهم القومى الكلى تسعة آلاف مليون دولار سنة ١٩٧٩ .

... الواقع أن اسرائيل ، فى الأمور المهمة ، أكبر عددا من جاراتها العربيات ، ليس فقط لان لديها عددا أكبر من المهندسين والطبيعيين والكيميائيين والفنيين ، بل لأنها تستطيع أن تضع فى الميدان قوات أكبر ، وان دعت الضرورة فلديها المقدرة منذ زمن طويل على انتاج الاسلحة الذرية وتوجيهها ، لقد سبقت العرب بحيث اصبحت عنصرا فى الشرق الأوسط خارجا عن حدود الشرق الأوسط . ولكن نجاحها فى التحديث اصبح هو نفسه عقبة يجب اجتيازها فى الطريق الى السلام » .

ولكن الكاتب المشغول جدا بقضية السلام فى الشرق الأوسط يوحى لقارئه (الغربى) بأن ثمة طريقا آخر ممهدا ، خاليا من

العقبات ، لتحقيق السلام المنشود ، طريقا يملك الغرب مفاتيحه كلها ، فهو يقول فى فقرة أخرى من الفصل نفسه : « لقد عبر بن جوريون عن الوضع بامانة حين قال انه لو كان عربيا لرفض الصهيونية رفضا تاما كما فعل عرب فلسطين ، ومن المفارقات ان العمل على رخاء العرب والزيادة فى مقدراتهم . وانتشار المعرفة ونمو وسائل الاتصال ، وعلى الجملة نجاح الاسهام الأوروبى فى الشرق الأوسط . قد قوض كل أساس ممكن للوفاق او التفاهم » .

هكذا ، إذا لم يمكن كبح جماح الإيجابية الصهيوبية ، ففى استطاعة الغرب دائما ان يقبض يده عن الإنعام على اولئك العاجزين ، عرب الشرق الأوسط ، فيعود الأمر الى نصابه ، ويفرض الغالب سلطانه على المغلوب !

وعلينا نحن العرب ان نشكر لصديقنا بولك اسلوبه المهلهل ، (وعلائم هذه الهلهلة بارزة فى أكثر من جهة) لأنه لم يخف شيئا من الافكار التى تجول فى رأس أى إنسان غربى حين يفكر فى أمور العرب . مهما تكن درجة علمه بهذه الأمور .

فمن الجائز جدا أنه ألف هذا الكتاب وهو غاضب ومعتزل فى تلك القرية اليونانية لان وزارة الخارجية الأمريكية لم تأخذ بآرائه فى سياستها نحو « الشرق الأوسط » ، ولكنه ـ من وجهة نظرنا نحن ـ لم يقترب كثيرا من فهم مشكلات العرب . بل لعله غالط نفسه فى أمور كثيرة ، وربما كنا نحن العرب أشد نقدا لانفسنا من أعدائنا وأصدقائنا على السواء ، ولكننا نعرف مثلا ، ان ثورة ١٩١٩ المصرية لم تكن مجرد شغب طلاب كما زعم بولك (ص ٤٦) وان ثغرة ١٧ اكتوبر ١٩٧٣ (التى حددت مكانها الأقمار الصناعية الأمريكية وفتحتها أحدث الاسلحة الامريكية) لم توشك أن تؤدى الى هزيمة مذهلة للجيش المصرى ، بقدر ما كادت تشعل حربا شعبية ، اوقفتها القيادة السياسية المصرية .

ترى هل كان بولك ليغير آراءه لو شهد فرار الجيش الاسرائيلى من جنوب لبنان ؟

غربى عن التغريب

يقول المستشرق البريطانى برنارد لويس فى كتابه « الشرق الأوسط والعالم الغربى » : « لقد اصبح من المألوف فى السنوات الأخيرة (لدى الغربيين بالطبع) ان يهتم الدارسون بجمع أطراف الصورة التقليدية التى ارتسمت فى اذهاننا عن ابناء الأمم الأخرى بما فيها من ذكريات ومن اوهام ، وذلك من أجل معرفة ما لهذه الصورة من تأثير فى سياستنا نحو أولئك الأقوام » ، ويقترح أن يهتم الأوروبيون ـ أو الغربيون عامة ـ بمعرفة الصورة التى كونها أهل الشرق الأوسط عن الغرب ، « فربما كانت معرفة هذه الصورة ألزم وأهم » .

انك لاتصادف مثل هذه الصراحة الا حين يكتب العالم المستشرق لجمهور غربى عريض ، لا لقلة من المستشرقين ، ولتلاميذ المستشرقين من الشرقيين ، فالاستشراق غير منفصل عن السياسة : أنه يخدم أغراضها القريبة أو البعيدة ، ولكن هذا لايعنى انه دائما ـ أو غالبا ـ بوق للسياسة ، بل هو من السياسة فى مكان الخبير الذى يستشيره صناع السياسة قبل اتخاذ قراراتهم ، والخبير يدعى لحل مشكلة معينة ، تتوقف على حلها مصلحة ، فهو يفكر ويستنبط ويخترع لحل هذه المشكلة وتحقيق هذه المصلحة ، ولكنه لايزيف الحقائق لانه فى هذه الحالة لايكون خبيرا علميا ، اما إذا أراد صناع السياسة ان يزيفوا حقائق معينة ـ وهم عالمون

بتزييفها ـ فانهم يلجأون الى خبراء مختصين بذلك ، وكل فريق له مكان عندهم ، مادام الغرض دائما هو المصلحة .

ولاتخفى سمات المستشرق العالم ولا سمات المستغرب الداهية ومن سمات العالم البحث عن الحقيقة مجردة عن الهوى ، وليس هذا بالأمر اليسير ، حتى حين تتجمع الوقائع بين يديه لتزلزل المسلمات المستمدة من بيئته وثقافته ، ولكن برنارد لويس يواجه نفسه وجمهوره بانتقاد عادة شائعة فى الغرب (ويضيف بين قوسين : ان هذه العادة تزداد ظهورا كلما اتجهنا غربا) عادة الرضى عن النفس ، فنحن الغربيين نحسب انفسنا مثال الفضيلة والتقدم ، من يشبهوننا هم الطيبون ، ومن لايشبهوننا هم الأشرار . ان يصبح الناس اكثر شبها بنا معناه انهم يتقدمون . وان يصبحوا اقل شبها بنا معناه أنهم يتقهقرون .

ويجب أن نلاحظ هنا ان الكتاب هو نص سلسلة من المحاضرات ألقاها المؤلف فى جامعة انديانا فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وفخر الأمريكيين بحضارتهم امر مشهور !

بل إن برنارد لويس لايعجبه اصطلاح « الشرق الأوسط » وأن وجد نفسه ـ من الناحية العملية ـ مضطرا لقبوله نظرا لشيوع استعماله فى الوقت الحاضر ، وهو يتتبع اصله بدقة العالم ، فيجد ان مخترعه هو مؤرخ عسكرى امريكى متخصص فى تاريخ البحرية ، اطلقه فى سنة ١٩٠٢ على المساحة الواقعة بين بلاد العرب وشبه القارة الهندية ، ثم لم يزل يتداوله الكتاب العسكريون والصحافيون وحتى الجغرافيون بمعان متفاوتة الى ان اصبح يطلق على المنطقة الممتدة من البحر الأسود الى اواسط افريقيا ، ومن الهند الى المحيط الاطلسى ، وهنا يعلق برنارد لويس بقوله : انه مما يلفت النظر حقا ان هذه المنطقة ذات الحضارة العريقة ـ بل هى صاحبة اعرق حضارة فى العالم ـ اصبحت تعرف ، حتى بين اهلها ، بهذا الاسم الجديد الذى لا لون له !

أما الشخصية المميزة لهذه المنطقة فهى ، كما يقرر برنارد لويس ، تقوم على الدين واللغة ، فهى متعددة القوميات ، وبعض دولها تشتمل على اقليات عرقية ، ولكننا لانعثر فى طولها وعرضها على قومية واحدة او اقلية واحدة لم تعتنق اما الدين واللغة معا واما واحدا منهما ، ووراء ذلك وحدة الحضارة من الشعر الى المطبخ كما يقول برنارد لويس ، وتأتى اللغتان الفارسية والتركية فى سعة الاستعمال بعد العربية ، وكلتاهما نشأت فى ظل العربية .

اما صورة الغرب لدى ابن هذه الحضارة فقد اختلفت بين العصور الوسطى (كما يسميها الأوروبيون) والعصر الحديث ، او الحديث جدا . اما فى العصور الوسطى فقد كان ابن هذه الحضارة الاسلامية ينظر الى الانسان الغربى على انه همجي ، ولم تكن هذه النظرة بعيدة عن الحقيقة ـ هكذا يعترف برنارد لويس ـ اذا لاحظنا سلوك بعض الصليبيين .

ولكن الغرب تغير ابتداء من القرن الخامس عشر ، لقد بدأ حركة توسع مستمر ظل هذا « الشرق الأوسط » فى غفلة عنها ، وكانت انتصارات الدولة العثمانية فى شرق أوروبا تمنحه شعورا بالثقة ، ولكن هذه الثقة بدأت تهتز عندما اندحرت الجيوش العثمانية امام فينا سنة ١٦٨٣ ، وتوالت الهزائم بعد ذلك ، ثم احتل الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨ .

هنا أفاق الشرق ، فوجد الغرب قد سبقه بمراحل كثيرة ، ويميز برنارد لويس بين ثلاثة أنواع من التوسع الغربى : توسع تم بابادة السكان الاصليين او حصرهم فى مناطق ضيقة ، ولم ينجح الأوروبيون فى تحقيق ذلك ، الا فيما سموه العالم الجديد ، ثم حاول الفرنسيون تحقيقه فى شمال افريقيا ففشلوا ، ويفسر المؤرخ البريطانى هذا الفشل بأن الاستعمار الأوروبى وجد فى هذه المنطقة من العالم ـ كما وجد فى الشرق الأقصى ايضا ـ شعوبا

مستقرة ، وحضارات راسخة ، ولكن مسلكه كان مختلفا فى الشرقين : فى الشرق الأقصى وجد الاستعمار الكامل ، طويل الامد ، اما فى الشرق الأوسط فقد كان الاستعمار قصير الأمد نسبيا ، ومع ذلك فاننا نجد ـ فى شرقنا الأوسط هذا ـ مفارقة عجيبة ، كان الاستعمار قريب العهد وقصير العمر وغير مباشر غالبا ، ومع ذلك فإن التأثير الأوروبى كان عميقا وشاملا !

ان برنارد لويس لايعطينا تفسيرا نظريا لهذه الحالةالعجيبة ، ولكنه يقدم الينا الشواهد التاريخية ، ولعلنا بعد ان نمضى معه فى استعراض هذه الشواهد نرى ان التأثير الأوروبى لم يكن فى الحقيقة عميقا ولا شاملا ، وانه لم يرد بهاتين الصفتين الا المظهر فقط .

ان الاحتلال الفرنسى لمصر لم يدم الا ثلاث سنوات ، والهزائم التى لحقت بتركيا وقع معظمها فى أرض اوروبية اصلا ، ولكن الصدمة النفسية كانت شديدة على ابناء هذه المنطقة الذين نظروا الى الحضارة الغربية بانبهار كما ينظر المغلوب الى الغالب ، وهكذا بدأت الرحلات الى أوروبا ، وأخذ العائدون يصفون مشاهداتهم هناك ، يعجبون بالكثير ولاينكرون الا القليل ، وكان من هؤلاء الشيخ الأزهرى رفاعة رافع الطهطاوى الذى رافق أولى بعثات محمد على العلمية الى فرنسا مرشدا دينيا لاعضاء البعثة ، ولبث هناك خمس سنين من ١٨٢٦ الى ١٨٣١ ، وعاد ليكتب « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » وينشىء مدرسة الألسن .

ولكن موجة الاعجاب والانبهار لم تقف عند حد . لقد استعيرت الاسلحة والنظم العسكرية اولا ثم استعيرت الافكار ثانيا ، وظهرت فى « الشرق الأوسط » أو العالم الاسلامى على الاصح ، طائفتان كان لهما شأن كبير فى بث « الأفكار الجديدة » : طائفة المحامين وطائفة الصحفيين ، واقتبس كل شىء من الغرب ، حتى أصبح ارتداء الملابس الأوربية مثلا ، دليل الرقى .

غير ان هذه التغييرات ، النافع منها والضار على السواء ، بقيت مقصورة على المتعلمين فى المدارس الحديثة ، وسكان المدن عموما ، وبقى الريف والبادية بمنأى عن كل ذلك ، ولعل هذا هو أخطر مظاهر التفكك الذى يشير اليه برنارد لويس ، لقد تحطمت اشكال الحياة القديمة ، تركت القيم القديمة واستهزىء بها ، وحلت محلها مجموعة من النظم والقوانين والمعايير المستوردة من الغرب ، والتى ظلت غريبة ومقحمة على حاجات الشعوب الاسلامية فى الشرق الأوسط ، وعلى مشاعرها وطموحاتها . قد يقال ان هذه التغيرات كانت ضرورية ولامفر منها ، فهذه هى الكلمات التى يستخدمها المؤرخون ، ولكن الذى لاشك فيه هو انها جاءت بعهد من الفوضى وانعدام المسئولية ينطوى على ابلغ الضرر بالأوضاع السياسية والاجتماعية فى الشرق الاوسط .

هذا هو وصف برنارد لويس لآثار التغريب السلبية فى المجتمعات الاسلامية ، لذلك لانعجب اذا وجدناه يطرح هذا السؤال الذى اخذ المفكرون فى الشرق الأوسط يرددونه فى هذه السنوات الأخيرة . ما نتيجة هذا التغريب كله ، ولكنه يعقب عليه بعبارات تستحق الكثير من التأمل . وقد اقتبسنا بعضها فى صدر هذا المقال ، ونعيد الفقرة هنا كاملة لان السياق يلقى عليها ضوءا جديدا .

« هذا سؤال يجب ان نلقيه على انفسنا أيضا ، [هل يعنى : مانتيجة تغريب الشرق ، او مانتيجة الحضارة الغربية عموما ؟] ان لدينا عادة شائعة فى الغرب ـ وهى تزداد ظهورا كلما اتجهنا غربا : عادة الرضى عن النفس ، فنحن الغربيين نحسب انفسنا مثال الفضيلة والتقدم ، من يشبهوننا هم الطيبون ومن لايشبهوننا هم الأشرار ، ان يصبح الناس أكثر شبها بنا معناه انهم يتقدمون ، وان يصبحوا أقل شبها بنا معناه انهم يتقهقرون ، ولكن هذا لايلزم أن يكون صحيحا ، عندما تتصادم الحضارات ، تتغلب واحدة ،

وتتحطم الأخرى ، دع المثاليين والنظريين يتشدقون (باقتران افضل العناصر) من الجانبين ، فالذى ينتج عادة هو اقتران أسوأ العناصر » .

واضح ان الذى يتكلم هنا هو الفيلسوف وليس المؤرخ ، واذا كنا قد حمدنا له سعة أفقه ، حين تخلى عن موقف الغرور الذى يتخذه عامة الغربيين حين ينظرون الى غيرهم من الشعوب ، فاننا لانوافقه على فلسفته التاريخية التى ترى ان الحوادث تتحرك بحتمية لا هدف لها ، وقد تكون مدمرة ولكنها لايمكن دفعها او تعطيلها . أنه لايختلف عن اولئك « المؤرخين » الذين تحدث عنهم فيما سبق الا بأن عباراته تحمل معمى المأساة .

ولكن الحضارة الغربية المعاصرة ـ كما يعلم الجميع ـ تحاول الآن أن تمحو معنى المأساة بالعبثية ، اما نحن فنفضل ان نكون من فريق « المثاليين والنظريين » (وأن لم نجدهم بين مفكرى الغرب المعاصرين) ونطمع ان نتوقف عن التغريب الأعمى ، وأن نصنع حقا حضارة جديدة !

ثمن الحضارة الغربية

فرنشسكو جابريلى مستشرق ايطالى معروف ، تفتح شبابه على العهد الفاشى ، وشهد الحرب العالمية الثانية وهو فى العقد الرابع من عمره ، طوال هذه الفترة أثر الابتعاد عن مشكلات العالم العربى المعاصر ، عاكفا على ابحاث اكاديمية مثل تاريخ الأمويين ونظرية الشعر عند العرب . وبعد خروج ايطاليا مهزومة (أو محررة ؟) من الحرب العالمية الثانية ، وعودة العرب مرة أخرى ، ولاسباب متعددة ، الى « دائرة الضوء » فى العالم المعاصر ، اهتم جابريلى بالكتابة للجمهور القارىء فى العالم الغربى عن هؤلاء العرب ، ماضيهم وحاضرهم ، فكتب تعريفا موجزا بعنوان « العرب » (الطبعة الأولى بالايطالية سنة ١٩٥٨) ثم كتب بالانجليزية كتابا عن تاريخ العرب الحديث ومشكلاتهم السياسية المعاصرة ، عنوانه « الاحياء العربى » (١٩٦١) .

الظن به ، وهذه خلفيته ، ان يكون أكثر تعاطفا مع العرب من عامة المستشرقين الأوروبيين ، فلايطاليا علاقات تجارية قديمة مع العرب ، ترجع الى ايام دولة المماليك ، والخبراء الايطاليون كانوا اول من استعان بهم محمد على فى تحديث دولته ، او من اوائلهم ، والوحدة القومية الايطالية تأخرت الى اواسط القرن التاسع عشر ، فمثل الوحدة التى يحلم بها العرب ، لاتزال حية فى نفوس الايطاليين اما الاستعمار الايطالى لليبيا فقد بلغ أوج شراسته فى

العهد الفاشى الذى عانى من وطأته الشعب الايطالى نفسه ، ولايبدو أن جابريلى كان من أنصاره او المتعاطفين معه .

والقضايا المعاصرة لايحتكم فيها الى العلم وحده ، بل ان العالم يتأثر فى حكمه عليها بمصالح قومه كما يتأثر بتاريخه الثقافى وميوله الشخصية ، ولاشك أن اهم قضية تشغل العرب ، منذ نصف قرن تقريبا ، هى قضية فلسطين (ولو ان جذورها ترجع الى وعد بلفور سنة ١٩١٧) وجابريلى حين يتعرض لهذه القضية لايعمّى ولايجمجم . ففى سياق الحديث عن شكوك العرب تلقاء السياسات الغربية يقول :

« وثمة عامل اضيف فى فترة مابين الحربين العالميتين ، وزاد فى تذمر العرب ، وغيظهم ، وقلقهم ، وسخطهم ، اعنى القضية الفلسطينية التى خلقتها بريطانيا اثناء الحرب العالمية الأولى ، فى غير مبالاة بالعواقب ، وخلفتها بدون حل الى الحرب العالمية الثانية ومابعدها ، وقبل ان نسرد الوقائع والتواريخ الاساسية يمكننا ان نلاحظ هنا ان هذه المشكلة قد اصابت احتمالات الصداقة المخلصة بين العرب والكتلة الغربية (ان جاز لنا ان نستعمل اصطلاحا عصريا) بضرر لايمكن اصلاحه ، وخلقت عداوة نحو الغرب ظلت حية وقابلة للاستغلال من قبل الآخرين ، بينما كان المطلب الأسبق ، مطلب الاستقلال ، قد تحقق او كاد » .

ولا اظن أن ثمة خلافا بين العرب على ان مطلبهم الثانى هو الوحدة القومية ، ولو ان الخلاف كله حول شكلها ووسائل تحقيقها ، وهنا ايضا نجد جابريلى لايعمى ولايجمجم . فاذا كان فى استطاعته ان يقول كلاما صريحا حول قضية فلسطين ، لأنه ـ فى الواقع ـ ينظر اليها من الخارج ، غير مرتبط باخطاء سياسية فادحة ، قديمة او حديثة ، يحاول البحث عن تبرير لها ، فإنه ينظر الى قضية الوحدة العربية من الخارج ايضا ، هذه القضية التى لاتعنيه الا انه يجد فيها صورة من تاريخ امته ، ولكنه غير مستعد

لان يقبل اعذارا عن المماطلة ، والتسويف ، والنكسات التى اصابت هذه القضية (وإن كان فى استطاعته ـ كمؤرخ ـ ان يفهم اسباب ذلك كله) لأنه ايضا غير متورط فيها . لذلك نلاحظ نبرة من الحماسة فى كلامه عن الوحدة العربية ونقيضتها الاقليمية (وهو المؤرخ الغربى المحايد !) حماسة قد لانجدها عند كثير من العرب . فبعد ان يستعرض التطورات السياسية التى نمت فى كل قطر من الاقطار العربية على حدة فى فترة مابين الحربين ، يقول : « هذه هى الخطوط الرئيسية لتاريخ الاحياء العربى خلال تلك السنوات العشرين ، احياء فقد مثله الرفيعة ، ونزل بطموحات الوحدة القومية العربية صبغة ومدى ، ليوجهها نحو اهداف اقليمية محدودة ، واضفى على قضية ، كانت تتطلع نحو رؤيا عريضة سامية ، ثوبا اميل الى الخشونة والكزازة ، ولقد كانت مثل الوحدة العربية تتنسم انفاس الحياة هنا وهناك ، الى أن تبوأت مكانها بوضوح وقوة بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن عندما جاء ذلك الوقت كان قد خلق جو سياسى دفع القادة دفعا لاسبيل الى مقاومته ـ وان لم يعترف به صراحة ـ نحو السلطة الشخصية والدكتاتورية » .

غير انه لايلقي باللوم كله على القادة العرب فى فترة مابين الحربين العالميتين ، بل انه يصرح بما كان للتخطيط الاستعمارى المبيت من أثر فى تعويق مسيرة الوحدة العربية . فيقول فى موضع آخر .

« بينما كانت الحرب (العالمية الثانية) تقترب من نهايتها ، مطوحة بالاستعمار النازى الفاشى فى التراب ، وبدأ الشعب يتطلع الى انتصار مثل الحرية والعدالة ، عاد الحلم العربى الأول بالوحدة الى الظهور ، بعد ان كتمته المهمة الاكثر اهمية ، مهمة التحرير ، فان الدول التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، ارادت بتحطيم الامبراطورية العثمانية الى دول اقليمية متعددة ان تتعامل

مع إدارة أكثر طواعية ، وأن تستغل الخصائص الجغرافية والتاريخية التى تميز كل اقليم ، لقد أرادت أن تؤكد الفروق ، أكثر من الوحدة بين هذه الأقاليم ، لاشك أن هذا ساعد على تعميق الخلافات الاقليمية طوال العشرين سنة الواقعة بين الحربين ، ولكنه لم يمنع من تطوير خطط اخرى للتغلب على هذه الانقسامات » .

كل هذا حسن من مؤرخ أوروبى .. ولكن القارىء (العربى) يفاجأ برأى غريب للمؤلف نفسه فى مشروعية الاستعمار الاستيطانى ، واكثر مدعاة للاسف أن هذا الرأى يرد فى أول الكتاب (ص ٤٢) . ثم يعود المؤلف قرب النهاية (ص ١٥٦) فيقول مايؤكده ، والقضية هنا قضية جوهرية ، ومستمرة ، اكثر من القضيتين السابقتين ، واختلاف موقف المؤلف يمكن أن ينبهنا الى المشكلة الحضارية الكبرى التى تكمن خلف كل الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى العلاقات بين الشرق والغرب .. ولكن لنسمع اولا مايقوله المؤلف :

« كان احتلال مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية بداية لعشرين سنة من حرب العصابات ، قبل ان يتمكن الفرنسيون من السيطرة على البلاد بصورة كاملة ، وستظل الآراء مختلفة حول هذه الحرب بناء على موقف كل صاحب رأى من الاعتراف او عدم الاعتراف بحق الحضارة المتفوقة فى أن تفرض نفسها على الشعوب البدائية ، وان تمنحها خيرات التقدم التقنى ، وتأخذ منها .. فى مقابل ذلك ـ الثروات التى لاتستطيع تلك الشعوب نفسها ان تقدر قيمتها ، بدءا بالأرض » .

هل نسامح صديقنا الايطالى (ونحن دائما مسامحون وطيبون !) لانه لم يجزم بموقف ، بل وضع القضية فى صيغة سؤال ، وكأنه يعبر عن حيرة الضمير الأوروبى امام مشكلة ، لم

تكن فى نظرة مشكلة عندما كان الاستعمار الأوروبى فى عنفوانه ؟ ولكن كيف نستطيع ان نتسامح ، وهو يعود الى المشكلة الجزائرية نفسها فى الصفحات الأخيرة من كتابه ، بعد ان أوشكت ثورة التحرير الجزائرية ان تتم من عمرها سبع سنين ، وبدأت بشائر انتصارها تلوح فى الأفق ، فلا يتحدث عن الثورة الجزائرية نفسها بخير أو شر ، ولكن يعرض المشكلة من زاوية الخلاف بين ديجول من ناحية ، والعسكريين والمستوطنين الفرنسيين من ناحية اخرى ؟ بل اننا نقرأ ـ بين السطور ـ ما يشبه ان يكون نقدا للأول ، وعطفا على الفريق الثانى . (لاننسى ان الكتاب نشر سنة ١٩٦١ ، عندما وصلت هذه الأزمة الى ذروتها ، وعند الازمات ـ كما هو معروف ـ يتبين العدو من الصديق) .

على اننا لانلوم جابريلى او غيره ـ فالمرء حيث يضع نفسه ، وكذلك الأمم ، ومادمنا نتلقى (خيرات الحضارة) من يد الغرب ، فسينظرون الينا دائما ـ حتى ذوى النيات الطيبة منهم ـ على انهم المنعمون المتفضلون . واليد العليا خير من اليد السفلى ، ولايهم اننا ندفع اثمان مانتلقاه اضعافا مضاعفة ، مادمنا نملك ان نرفض الصفقة كلها . هذا هو المفهوم الغربى للعدالة ، فى جذوره العميقة ، بيع وشراء ، وكل شىء يباع ويشترى حتى الضمائر والذمم ، حتى حريات الشعوب حتى الأوطان نفسها !

بل يجب ان نشكر لهذا الرجل الايطالى الطيب انه عرى تلك الجذور ببساطة تامة ، مع أن كثيرين غيره يلفون ويدورون : تارة يحفرون فى سراديب التاريخ القديم ، وتارة يمدون بحبالهم الى سماء المستقبل ، والمستقبل غيب لا يعلمه الا الله ، ونذر الشر تلوح فى افقه اكثر من بشائر الخير التى يزخرفها بائعو الاحلام للمعدمين .

وقبل هذا وذاك يجب ان نعلم ان قوتنا الحقيقية تكمن فيما

ينساه القوم دائما : وهو اننا لسنا كتلة سلبية صماء ، يضعونها فى معترك القوى ، ويحسبون مسارها بعملية رياضية ، ان الكومبيوتر يستطيع ان يحسب مسار الاقمار الصناعية فى اجواز الفضاء ، ولكن الكومبيوتر الذى يحسب سلوك البشر ـ افرادا او جماعات ـ لم يخترع بعد . اننا نتغير لاننا نريد التغيير ، لا لان الفريق الأقوى يفرض علينا التغيير باساليب الترهيب والترغيب ، تاريخنا لم ينته ـ ومادمنا نعى هذا التاريخ ، حتى عثراته ونكباته ، فلسنا قوما بدائيين ، وأقل ما فى هذا التاريخ ان قيم الحضارة لاتقوم كلها على البيع والشراء ، هذا الذى يحسبه معظم الغربيين سذاجة ، نعلم نحن انه حافظ على كيان شعوبنا حتى فى احلك العصور ، مثلما جعلها تتمسك بالمثل الانسانية الرفيعة عندما كانت تملك القوة المادية ايضا .

لاشك ان الطريق صعب وطويل . ولكن اذا لم تسبقنا هذه الحضارة الغربية المجنونة ، فتدمر نفسها بنفسها ، فلن يكون غريبا ولا مجافيا لسنن التاريخ أن تستأنف الحضارة دورتها فى بلادنا تارة أخرى .

المستشرقون والمستغربون

ليس المستغربون كالمستشرقين ، المستشرقون هم ناس من الغرب يدرسون ثقافة الشرق ، والمستغربون كذلك ، ناس من الشرق يدرسون ثقافة الغرب ، ولكن الفرق بينهما هو الفرق بين حالتي الثقافتين ، كل بالنسبة إلى الأخرى ، في عصر بعد عصر ..

عندما كانت حضارتنا قوية مبدعة ، تأخذ بلا خضوع وتعطى بلا من ، كانت مؤهلة بحكم موقعها عند ملتقى طرق العالم أن تعرف الاستشراق والاستغراب جميعا وفي وقت واحد ، فكان من أمر الثقافة اليونانية ونقلها الى العربية ما هو معروف مشهور وكان من امر الثقافة الهندية وتمثل العربية لكثير من جوانبها ما لايزال فى حاجة الى الدراسة الجادة ، وعلى الرغم من أن العقائد الهندية كانت مباينة للعقائد الاسلامية أشد المباينة فإن العالم المسلم (البيرونى) عكف على دراستها دراسة موضوعية محايدة حتى أضاف الى التراث الانساني ذلك الأثر العظيم (تحقيق ما للهند) ومع ان الثقافة اللاتينية لم يكن لها شأن يذكر فى تلك الأزمان ، اذ كانت دائما عالة على الثقافة اليونانية وكانت هذه قد انسحبت الى الشرق واستقلت بموطنها الجديد فى بيزنطة ، مع ذلك فقد وجد بين علماء المسلمين فى الاندلس من كان يعرف اللاتينية كابن حزم الظاهرى .

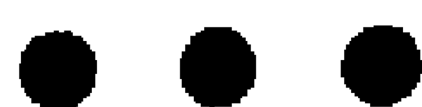
ثم دخلت الحضارة العربية الاسلامية ابتداء من أواخر القرن

الخامس الهجرى على وجه التقريب فى دور جديد : دور قد لايكون من العدل أن نصفه ، كما تعود المؤرخون أن يصفوه بـ « الانحطاط » ولكنه اشبه بحالة الوارث الذى استغنى بما تركه له اسلافه فلم يعد يضيف اليه جديدا ذا بال ، وفى هذه الفترة بالذات كان الغرب يستجمع قواه ليثب على مايليه من ديار المسلمين فى الشرق والغرب ، على الشام ومصر من هنا ، وعلى صقلية والأندلس من هناك ، هذا بينما كان الاسلام يدافع جموع الرعاة المغول الزاحفين من اقصى الشرق .

لم يكن الغرب المسيحى يحارب المسلمين فقط ، ولكن كان يتعلم منهم فى الوقت نفسه ، وقد يزول عجبنا من هذا التناقض اذا تذكرنا ان الصراع بين الفريقين استمر قرابة اربعة قرون (من الحرب الصليبية الأولى حتى خروج آخر بنى الاحمر من الاندلس) .. ومثل هذه الفترة الطويلة لاتنقضى كلها فى المعارك بل لابد ان تتخللها اوقات من الهدوء يمكن ان تطول وتنشط اثناءها الاتصالات التجارية وغيرها بين الطرفين المتصارعين ، ولكننا يجب أن نتذكر ايضا ان التسامح الدينى والعرقى كان سمة غالبة على الحضارة العربية الاسلامية منذ بداياتها ، وهكذا لم يبخل العرب بعلمهم على طلابه من ابناء تلك الشعوب التى كانت اقرب الى الهمجية وخصوصا بعد انحلال امبراطورية شارلمان ، وهكذا كانت مدارس طليطلة على الخصوص مصدر اشعاع قوى لأوروبا التى كانت تستيقظ ببطء من همود العصور الوسطى .

ملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام بل بالتأمل العميق ، وهى أن الغرب لم يكسب شيئا من هجومه العسكرى على العالم الاسلامى ، بل ارتد عن مصر ، واضطر الى الرحيل عن الشام ، حتى انتصاره فى الاندلس عوضه سقوط القسطنطينية واندفاع الاتراك العثمانيين فى شرق اوروبا حتى النمسا ، اما الكسب الحقيقى الذى ظفر به الغرب فهو النهضة العلمية التى اقتبس جذوتها الأولى

من احتكاكه بالحضارة الاسلامية ، ومضى يغذيها وينميها ، حتى عاد الينا من جديد وقد اخذ علينا طرقنا جميعها : طريق التجارة والمال ، طريق السياسة والادارة ، طريق الصناعة والانتاج ، واخيرا طريق القوة العسكرية ايضا ، وما اشبه الليلة بالبارحة ! فقد خرج الاستعمار العسكرى من اقطار (العالم الثالث) كما يسمى ، ولكن هذا العالم الثالث مازال عاجزا عن الوقوف على قدميه ، الا بقدر ما حصل من علوم الغرب .



المستشرقون الأوائل هم أولئك الذين تخرجوا فى مدرسة طليطلة وغيرها من معاهد العلم العربية ، وكانوا فريقين : فريقا افاد من العلوم التجريبية التى نهج سبيلها علماء العرب ، جابر بن حيان والرازى وابن الهيثم وغيرهم ، فترجموا اعمالهم الى اللاتينية واعتمدوا عليها فى دروسهم وابحاثهم ، وفريقا تعلم العربية للطعن على الاسلام والدفاع عن المسيحية ، وهم بعض آباء الكنيسة الذين خافوا ان ينفذ الاسلام ببساطته وسماحته الى قلوب اتباعهم ولاسيما المستضعفين منهم ، ومضى الغرب المسيحى يزداد قوة بينما كان الشرق يزداد ضعفا ومرة أخرى نقول اننا نشير بالقوة والضعف الى العلم والحضارة قبل السياسة والجيوش ، وهكذا تجاوزت العلوم الطبيعية عند الغربيين ماتعلموه من العرب بمراحل شاسعة ، فلم يعد للأولى مكان الا فى كتب تاريخ العلم ، وفتن الناس بهذه العلوم لانها كانت تمدهم باسباب القوة - والناس تسحرهم القوة حيث كانت - فلم تعد المشكلة الأولى عند آباء الكنيسة هى مناهضة الاسلام ، بل مقاومة الالحاد .

كان القرن التاسع عشر هو عصر التحولات الحاسمة فى أوروبا تلقى تراث عصر النهضة وعصر التنوير فسلط العقل على كل شىء واكتشف معنى « التاريخ » فصاغ شتى النظريات عن التطور ، واخضع النصوص - حتى الكتب المقدسة - للبحث اللغوى التاريخى (الفيلولوجى) ، فظهر من نقاد الأدب ومؤرخيه من

زاحموا الشعراء والمبدعين ـ ربما لأول مرة ـ فى اهتمام القراء والدارسين وكان القرن التاسع عشر هو العصر (الذهبى) للاستعمار والعصر الذهبى للاستشراق .

وقد تعودنا ان نربط بين الاستعمار والاستشراق كما تعودنا ـ من جهة اخرى ـ ان نفرق بين سلوك المستعمرين فى البلدان المستعمرة وسلوكهم في اوطانهم ، وكلتا الملاحظتين لها اساس قوى من الحقيقة وان بدا لاول وهلة ان بينهما شيئا من التناقض فالاستشراق فى اوروبا كان يبدو ـ بصفة عامة ـ فى صورة البحث (العلمى) المحايد الذى ينظر الى الاديان كلها بمنظار واحد ، ويراقب (تطور) الأمم الشرقية ولاسيما الأمم الاسلامية نحو (القومية) و(العلمانية) بكثير من الرضى ، ورجال الاستعمار فى اقطار الشرق لم يكونوا مستشرقين بل كان الذين يعنون منهم بدراسة ثقافة البلاد المستعمرة قلة بجانب الاداريين والعسكريين القساة المحدودى الأفق ، ولكن كان بجانبهم استشراق من نوع خاص ، وهو الاستشراق الكنسى التبشيرى الذى واصل مهمة الطبقة الأولى من آباء الكنيسة المستشرقين ، وكانت مهمتهم الأولى هى الطعن على الاسلام والمسلمين .

ومع ان المسلكين مختلفان فى الظاهر فان غايتهما واحدة ، وهى (امتصاص) الشعوب الاسلامية فى حضارة الغرب ، وكأن رجال العلم ورجال السياسة ورجال الدين يعملون فى تفاهم مشترك : المجتمعات الأوروبية (المتقدمة) لم يعد من السهل على رجل الدين ان يحتفظ بمكانته فيها عن طريق الايمان الساذج ، ولكنه يستطيع أن يكسب أرضا جديدة بين الشعوب المتخلفة عن هذا الطريق نفسه ، ورجل العلم لايرى بأسا بذلك مادام الدين ـ كما يقول أوجست كومت ، هو المرحلة الأولى فى تطور العقل البشرى الذى سيصل حتما بعد ذلك الى مرحلة الايمان بالعلم و(دين الانسانية) ورجل السياسة خلف رجل العلم ورجل الدين

يضحك « فى كمه » كما يقولون او « فى سره » كما نقول نحن ، لأن الجميع يخدمون مأربه التوسعية ، ويرسخون (قيما) جديدة هى - فى واقع الأمر - اديان العصر التى استوحاها الغرب من مصالحه المادية العرقية او الطبقية ، وسماها مرة (القومية) ومرة (الديمقراطية) ومرة (الاشتراكية) .

المهم ان (المستغربين) الأوائل من قومنا - من رفاعة الطهطاوى الى طه حسين - ذهبوا الى هذه الطبقة من المستشرقين فبهروا بمنهجهم العلمى ومعرفتهم الجيدة باللغة العربية وصبرهم على البحث والتحقيق وسمتهم الوقور الرزين الذى لايختلف عمن عرفوا من جلة الشيوخ ، فعادوا وهم لا يستريبون فى انهم افادوا علما نافعا واصبح واجبا عليهم نشره بين قومهم ! اما الطاعنون صراحة على الاسلام من المبشرين واشباههم واعوانهم فلم ينالوا خيرا ، بل تصدى لهم الشيخ محمد عبده وغيره فردوا مزاعمهم الباطلة بالنقد الموضوعى الرصين .

هناك بعض الشبه - ولاشك - بين المستشرقين الأول الذين تلقوا عن العلماء العرب علم اسلافهم اليونان ، والمستغربين الأول الذين تلقوا عن العلماء الغربيين علم اجدادهم العرب ، ولكن اين الفريق الثانى من المستغربين ؟ اين رجال العلوم الطبيعية الذين لم يستطيعوا - حتى الان - ان يستأنفوا حركة علمية نشيطة فى قلب الثقافة العربية ؟

لماذا نعنى بالفكر الغربى

لماذا يجب علينا أن نعنى بالفكر الغربى ، وليس بالتكنولوجيا الغربية فحسب ؟ لقد مضى ذلك الزمن حين كان الكاتب العربى لايرضى عن نفسه إن لم يرصع مقاله بما يقدر عليه من اسماء أعجمية ، فان كان ممن يعرفون لغة اوربية فالأمر هين ، مجلد لطيف يضم مقتبسات من مختلف الآداب ، لأدباء وعظماء وقواد وخطباء وشعراء ، مرتبة حسب الموضوعات ، فى جد الحديث ولهوه ، فمهما يطلب يجد ، وان كان لايعرف سوى العربية فلا عليه إن ألف من عنده كلاما ونحله اسما أعجميا قرأ عنه أو سمع به . وأدركنا زمنا لم يقنع فيه بعض هؤلاء بالأسماء التى يعرفها الناس فاخترعوا اسماء لا وجود لها . وإن لم تقتنع فما عليك الا ان تبحث قلت : مضى ذلك الزمن ، وآراك تهم بأن تقول : ليت .. اولعل .. أو ينبغى .. ولكننى أحب أن نحسن الظن بكتابنا .

وقد آن لنا أن ننسى روعة الاسماء .. وآن لنا كذلك أن نتجاوز مرحلة التلمذة الخائفة التى تتلقى نتاج الفكر الغربى بتسليم مطلق ، ويقين تام انها لايمكن أن تسامى تلك القمم فى يوم من الأيام ، وكثير من هؤلاء التلاميذ كانوا ـ من الرهبة أو من الجهل ـ يترجمون بنصف عقل ، فتقرأ كلاما لا رأس له ولا ذيل . وندر من المترجمين ذوى الامانة والعلم من كان يشترط على نفسه أن ينقل النص المترجم بتعليقات تتضمن شرحا أو نقدا .

وقد فترت حركة الترجمة فى العقد الأخير ، وأعنى الترجمة الأدبية بالذات ، ويدخل فيها ترجمة مايسمى الفكر ، من نقد وغيره .

ولا أرانا خسرنا كثيرا بهذا الفتور ، بل إننى لأرى حركة الترجمة النشيطة غير الرصينة فى العقود السابقة سببا مهما من أسباب الفوضى اللغوية التى لانزال نعانى منها ، فقد شاعت فى كتاباتنا واحاديثنا كلمات كثيرة لانحقق معناها ، ولانشعر بالحاجة الى ذلك ، بل لعل معظمنا أصبحوا يستلذون دورانها فى افواههم ووقعها فى آذانهم وهم سعداء بهذا الخداع البرىء .

ونرى فى الوقت نفسه اهتماما متزايدا بالعلوم والتكنولوجيا . وهذه ظاهرة صحية بدون شك ، حتى وإن بدا أننا نبالغ فيها قليلا فى الوقت الحاضر ، او على الاصح اننا لم نصل بعد الى الصيغة الصحيحة التى تناسب حاجاتنا ، ويقينى اننا لن نصل الى هذه الصيغة الا بالتعريب الكامل للغة العلم ، حتى تكون لدينا كفايتنا من القدرات البشرية على جميع المستويات ، من الفنى المتوسط الى العالم الكبير ، وبغير هذا الجهاز العلمى المتكامل لن تتحقق النهضة العلمية او التكنولوجية المنشودة . إن قضية تعريب العلوم هى قضية اليوم والغد ، ومانشك فى أن قومنا سيقتنعون بها ويسارعون الى تحقيقها فى وقت قريب .

فما بالنا إذن نتحدث عن الفكر الغربى بجانب التكنولوجيا الغربية .

إن موقفنا من هذه يختلف عن موقفنا من ذاك ، نحن مؤمنون بأننا حين نعرب التكنولوجيا الغربية نكون قد وضعنا نهضتنا القومية لأول مرة منذ مائة وخمسين عاما على بداية الطريق الصحيح ، أو على الأصح أعدناها الى هذا الطريق الذى حاول محمد على بذكائه الفطرى أن يدفع العالم العربى اليه ، ولكننا لاندعو الى « تعريب » الفكر الغربى بل نبرأ الى الله من ذلك ، لقد

دعونا الى العناية به ، والعناية التى نقصدها تشمل دراسته وترجمته وتشمل نقده ايضا .

هل يمكننا ان نتعلم من هذا الفكر ؟ اقولها صادقا مخلصا ، لا ادرى ، فلعل معظمنا يفهم من التعلم أن نحفظ بعض مايقولونه ونردده وندخله فى كلامنا ، وهذا ضرب من التعليم يجب ان نستهجنه وننفيه .

ولكن هناك أنواعا من التعلم غير هذا : هناك طرق وادوات لتنظيم الفكر ، لجمع المعلومات وترتيب الخطوات ووضع الفروض واختبارها ، وهذه تراث انساني مشترك ، استعان فيها اسلافنا بمن قبلهم ، واخذها الغربيون عن اسلافنا ، ونمت وتنوعت بنمو الخبرات وتنوعها ، هى أشبه بالعلم والتكنولوجيا فنحن نأخذ منها بلا خوف ولا من ، ولكننا يجب أيضا ألا نأخذ منها بلا نقد . فالعلوم الطبيعية والتكنولوجية لها مطالب عملية مادية معروفة تهدينا اليها المصلحة ، وكلها ضرورية لنا مادمنا نعيش فى هذا العالم ، وهذا العصر ، فلا نحتاج فى اكتسابها إلا الى تحديد الأولويات ورسم الخطط ، والعلوم الطبيعية والتكنولوجية لاتعرف اختلاف النظريات والمذاهب ، فالنظرية التى يثبت عند الاختبار ان نتائجها أصح ، أو أن تطبيقها أيسر ، تنسخ ماعداها ، اما ما نسميه الفكر ، ونطلق على أجزاء منه اسم الدراسات النظرية احيانا ، والادبية احيانا أخرى ، فشأنه غير هذا الشأن ، فمهما تصطنع من طرق العلم وادواته فإنها تبقى موصولة بالأغراض المتوخاة منها ، وهى اغراض تختلف باختلاف المجتمعات ، وقد لايسهل تفسير اسباب هذا الاختلاف ولكنه قائم مشاهد ليس الى انكاره سبيل ، وكثيرا مانعبر عنه باختلاف الثقافات او اختلاف الحضارات . وطبيعى مادام الحال كذلك ان تختلف المذاهب فى هذه الدراسات والأعمال الفكرية اختلافا يتسع او يضيق بحسب طبيعة المادة ودرجة الاختلاف بين المجتمعات ، فتطرح مسائل مختلفة وتقدم حلول

مختلفة ، وانك لتجد امثلة واضحة من ذلك فى علم الاجتماع وعلم النفس وما أصبح يسمى الآن علم الأدب ، وكلما أوغلت فى أصول هذه العلوم وجدت نفسك أقرب إلى القلب النابض للحضارة التى انتجتها .

لعلك الآن تعيد إلىّ سؤالى : إذن فلماذا يجب علينا ان نعنى بالفكر الغربى ؟ وانى لأعلم انك تعيده الىّ استفهاما انكاريا ، فمادام الشأن فى هذه الدراسات والأعمال ان تكون نابعة من ثقافة مجتمعنا ومرتبطة بأهدافها فالاليق بنا أن نتركها لأهلها وتكون لنا دراساتنا وأعمالنا الخاصة التى تناسب مجتمعاتنا بقيمها العربية والاسلامية . وأجيبك أن الذى يمنعنا من ذلك أمور كثيرة :

أولها ماتعرفه بخبرتك من أن رؤية ما عند الغير تزيدك اقتناعا بما عندك ، إنك تكون أشد انتماء إلى وطنك وأنت فى بلد غريب ، على أن القضية ليست قضية عاطفية مجردة ، فالأشياء التى نفقد الاحساس بها بحكم العادة تكشف أسرارها لنا عند المقارنة ، وهكذا يمكن ان يكون التقاء حضارة بأخرى سببا فى إزدهار عظيم لاحداهما أو كلتيهما ، ما لم تقع احداهما ـ نتيجة لظروف غير مجرد الالتقاء ـ فى استلاب حضارى كامل تفقد فيه مقوماتها الأساسية ، وحضارة الاندلس مثال على ذلك والنهضة الأوربية كلها مثال آخر . فقد وقعت أوروبا تحت تأثير الفكر والفن العربيين ـ لا العلم العربى فحسب ـ زهاء قرنين من الزمان نضج خلالهما الوعى الثقافى الأوروبى واسترد نشاطه بعد همود العصور الوسطى فى ايطاليا بالذات التى كانت قريبة من مجال التأثير كما كانت بعيدة عن ساحة المعارك . ومالبثت أوروبا ان اكتشفت ـ من جديد ـ تراثها اليونانى الرومانى فرجعت اليه وان واصلت التلمذة للعرب فى مجال العلوم مدة طويلة بعد ذلك .

وسبب ثان يمنعنا من الاعراض عن الفكر الغربى النظرى والأعمال الغربية الأدبية : وهو أنك لاتستطيع ان تفصلها فصلا باتا

عن العلوم والتكنولوجيا التى اتفقنا على ضرورتها ، نعم إن الفكر النظرى أقرب الى الغايات والأهداف ، كما أن العلوم والتكنولوجيا اقرب الى الادوات والوسائل ، الأولى اقرب الى الفهم ، والأخيرة أقرب الى القدرة ، ولكن لاننسى أن بينهما شيئا اسمه الارادة ، وقد يكون لدى فهمى الخاص لأمر من الأمور ، ولكننى استعين ببعض وسائل الاخرين ، إذا رأيتها صالحة لتحقيقه . كذلك قد تخلق لدى القدرة ارادة لعمل شىء ما ، وبذلك يتغير مفهومى لذلك الشىء ، وانك لتدرى ان المال فى أيدى بعض الناس ربما ولد فى نفوسهم الكبر .

أما السبب الثالث والأخير فهو أن الأفكار لاتنتظر الأذن منا حتى تدخل علينا ، وقد علمت انك ربما استعرت الأداة فإذا الفكرة عالقة بها كالمكروب . ومن المكروبات النافع والضار . فينبغى أن نعرف هذا وذاك .

نحن وثقافة الغرب

لماذا ندعو إلى التعامل بحذر مع الثقافة الغربية المعاصرة ؟ انها ليست ـ بكل تأكيد ـ دعوة إلى الانكماش ، أو الانعزال عن الثقافة العالمية ، وقد وضح الآن لاشد المبغضين لثقافة الغرب ، إن هذه الثقافة تملك القدرة والتصميم على اختراق الأسوار ودك الحصون ، لقد اصبحت « الثقافة » صناعة مهمة السينما ، الفيديو ، الكاسيت ، اللعب الالكترونية ، وملحقاتها من اجهزة التسجيل والعرض الخ ، ولذلك فهى لن ترجع عن غزو كل الأسواق الممكنة والثقافة تمتزج بالتسلية دائما ـ ألم يقل ارسطو ان « المحاكاة » وهى اصل كل الفنون ، تجعل « المعرفة » لذيذة لكل انسان ، لا للفيلسوف وحده ؟ ومن باب التسلية تدخل الصناعات الثقافية الى كل بيت وتقدم السلعة المناسبة لكل ذوق .

لا اظن أن أحدا يجادل فى ضرورة التعامل بحذر مع هذه الألوان من الثقافة ، فهى اولا ألوان مكلفة ، ولا تلبث أن تتحول الى لون من التظاهر الاجتماعى ، وهنا لايقتصر استعمالها على القادرين وحدهم ، بل ان غير القادر ربما اقدم على ارتكاب المحرمات ليحصل على المال الذى يتمكن به من ارضاء رغبته او رغبة أهله فى هذه الاشياء ، وهى ثانيا : لاتغنى عن الوسيلتين التقليديتين لتحصيل الثقافة ، أعنى المعلم والكتاب ، وانما هى ـ فى أحسن أشكالها ـ وسائل مكملة . وفى أسوأ اشكالها واكثرها

شيوعا وجاذبية صارفة عن الثقافة ، لان فلسفتها هى شد الانتباه واضاعة الوقت ، وقد تكون لها وظيفتها النافعة فى حياة العامل الأوروبى أو الأمريكى الذى يقضى نهاره فى عمل دائب مرهق للأعصاب ، وقته محسوب بالدقيقة ، فاذا أوى إلى بيته كان فى حاجة إلى أن يجلس متبلدا بينما تمر امامه سلسلة من الصور الغريبة التى تشبه الاحلام ، ولكن بيوتنا لها نظام مختلف : فهى اولا مملوءة بالاطفال الذين يفترض فيهم ان يستذكروا ويعدوا واجباتهم المنزلية ، وهى ثانيا تحتوى على جيل او جيلين ممن فرغوا من الدراسة ، القليل منها فى معظم الاحيان ، أولم يعنوا بها أصلا ، وهؤلاء يشاهدون التليفزيون او الفيديو وهم فى حالة وعى وتنبه ، فيشكل ثقافتهم وذوقهم ، بأضعاف مايفعل بالمشاهد الأوروبى أو الأمريكى ، اما الاطفال والشباب فكيف يدفعون عن هذه المتعة التى يستأثر بها الكبار ، واذا دفعوا عنها فكيف تصفو عقولهم للنظر فى كتبهم ؟

ان هذه الاجهزة الثقافية قد دخلت على المجتمع الغربى وهو لايعانى من الأمية ، ولا من البطالة المقنعة ، وقد تأصلت فيه عادة قراءة الكتب ، فلا يخلو منها سوق « سوبر ماركت » لأنها سلعة يشتريها الرجل والمرأة والصغير والكبير ، لاجرم وجدت هذه الاجهزة مادة ثقافية غنية تستطيع تقديمها بصورة افضل ، كما وجدت جمهورا يمكن ان يستمتع بهذه المادة الثقافية ، ولايطلب التسلية الفجة دائما .

ولكن هذه السلع الثقافية المستحدثة ليست هى كل ما فى الثقافة الغربية المعاصرة ، ولا أهم ما فيها ، فهناك الثقافة الرفيعة الجادة ، ثقافة الخواص،، التى تتمثل فى النصوص الادبية والنقدية الممتازة ، ومايتصل بها من الدراسات الانسانية ، وهذه تدرس فى الجامعات ، وتعقد لها الندوات ، وتدور حولها المناقشات الجادة العميقة على صفحات المجلات الثقافية الراقية ، او

النشرات العلمية المتخصصة ، هذه ثقافة محترمة جدا ، قد لانطمع ان يكون لدينا مثلها في وقت قريب ، فكيف ندعو الى « الحذر » فى التعامل معها ، الا ان يكون هو الخوف من أن نغطس فيها فلا نستطيع أن نطفو ؟

ثم ماذا نعنى بـ « الحذر » فى تناول مثل هذه الدراسات ؟ هل نعنى ـ مثلا ـ اننا ينبغى ان نكتفي بالالمام بها الماما يسيرا ، كلمة من هنا وكلمة من هنا كالملح فى الطعام (واكثرنا يفعل ذلك) ؟ وهلا سألنا انفسنا لماذا لاتطيق معداتنا الا القليل من مثل هذه الدراسات الجادة ، والقوم يبيتون فيها ويصبحون !

أم ترى أن مثل هذه الدراسات يمكن ان تفسد عقول مثقفينا ، كما يمكن أن تفسد وسائل الثقافة الحديثة حياة عامتنا ؟ أن خواص المثقفين مطالبون بما لايطالب به العامة ، العامة ينبغى أن تتخير لهم الوان الثقافة التى تنفعهم ، وتبسط لهم بشتى انواع التبسيط وتقدم فى مختلف الأشكال التى تثير اهتمامهم وتنشط عقولهم . اما خواص المثقفين فهم مهندسو هذه الثقافة الذين يبتكرون قواعدها الاساسية بحسب حاجة شعوبهم ، فلا يجوز أن يكونوا مجرد مستوردين او ناقلين ، ولا أن يتركوا المستوردين والناقلين يغمرون سوق الثقافة العامة بالبضائع الفاسدة ، ولا أن يجهلوا شيئا مما بلغه نظراؤهم فى الأمم الأخرى ، فتأتى ابتكاراتهم وتصميماتهم ركيكة متهافتة ، وبذلك تسقط فى المنافسة ، ويشمل « الاجتياح الثقافى » الخاصة والعامة . بعبارة أخرى ، ان خاصة المثقفين ـ قادة الفكر ـ مطالبون بأن يعرفوا كل ما لدى نظرائهم الغربيين ، ولكنهم مطالبون أيضا بما هو أكثر من ذلك : أن ينظروا اليه نظرة مستقلة ، ليخلصوا الثابت من العارض ، ما يضىء حقيقة مشتركة ، ومايعبر عن مشكلة حضارية خاصة ، بعيدة الجذور فى التاريخ ، أو منتشرة الفروع فى الحاضر ، وهذه مهمة شاقة بدون شك ، وقد يخيل الى البعض منا انها مستحيلة ، فهل يمكن ان نبلغ

من معرفة علوم القوم ، وقد تأصلت فى مؤسساتهم العلمية ، وتجذرت فى أفكارهم ومناهجهم ، ما لايعرفون هم انفسهم ؟ وجوابنا ان البعيد يرى ما لايراه القريب ، فالمسافة الثقافية التى تفصل بيننا وبينهم ، وهى - من جهة - سبب تأخرنا وتقدمهم ، تصبح من جهة أخرى ميزة لنا عليهم ، انهم مضوا إلى آخر الشوط ، وما عادوا يستطيعون الرجوع ، ولايبصرون اختلاف السبل ، بل ربما نسوا الغاية ، أما نحن فمازلنا عند المفترق ، نستطيع ان نتخير الطريق ، ونلمح نهايته .

هذا هو « الحذر » حين نتحدث عن امور الثقافة العليا ، وهو مانطالب قادة الفكر فينا ان يلتزموه . حذر لايدعو إلى الانزواء ، « الذى اصبح مستحيلا » بل الى النزول الى الساحة بعيون مفتوحة ترقب كل شيء : ترى مايجول امامها كما تلتقط ماهو قائم فى الأركان ، وتحيط الساحة كلها ، وماوراء الساحة ايضا ، بالنظر الشامل .. ليس هذا حلما ولا امرا خارقا للطبيعة ، بل هو قضية « حياة أو موت » وهو كذلك سنة الله فى كل حضارة جديدة تنبعث لتجدد شباب العالم ، وقد تحققت ، على نحو رائع ، فى الحضارة الاسلامية الأولى .

ولعل مما يسهل هذه المهمة علينا ان الحضارة الغربية اصبحت منقسمة على نفسها ، فالفريقان يكشف كل منهما عوار الآخر ، والعقلاء الذين لاتطمئن عقولهم الى فريق منهما لا يستطيعون ان يتبينوا طريقا آخر ، وكأنهم أمام خيار بين نقيضين منطقيين لايمكن الجمع بينهما ولا تجاوزهما . وينسون ان هذا الخيار ربما كان خيارا خاطئا أو موهوما من اساسه ، وسأقدم مثالا لهذا المأزق الحضارى من النقد الأدبى ، ان النقاد الغربيين فى هذا العصر فريقان ، فريق النقاد الايديولوجيين ، اى الذين يصدرون عن تصور معين للانسان أو للمجتمع ، يفسرون على ضوئه الاعمال الادبية ، وفريق النقاد البنيويين الذين يقبلون على الاعمال الادبية

مباشرة ، غير معتمدين على اطار نظرى مسبق ، لكن مسلحين بمنهج معين فى تحليل النصوص ، وقد اكتسب هذا الفريق شهرة كبيرة فى السنوات الأخيرة بالذات ، وفتن به عدد غير قليل من خيرة ادبائنا ونقادنا الشبان ، حتى تشيعوا له ، وما عادوا يقبلون سواه . احد اعمدة هذا النقد البنيوى فى فرنسا ، تسفيتان تودوروف ، اصدر كتابا بعنوان « الترميز والتفسير » (١٩٧٨ ـ وهذا التاريخ يعنى أن الحماسة الشديدة للبنيوية كانت قد بدأت تفتر فى فرنسا امها ، بينما كانت هى نفسها « آخر صيحة » ـ كما يقال ـ تأتينا من الغرب) . وفى هذا الكتاب محاولة جادة وعميقة للرجوع بهذين الاتجاهين فى تفسير النصوص الى اصولهما فى الثقافة الغربية .

وأرجو الا يدهش احد اذا علم ـ هذا على الاقل مايقرره تودوروف ـ ان تلك الاصول ترجع الى تفسير « الكتاب المقدس » عند احبار اليهود والنصارى ومعلوم ان فى اسفار هذا الكتاب كما تناقلوها نصوصا لايعقل ان ترد فى كتاب سماوى ، هذا من جهة وأن العقيدة اليهودية ثم المسيحية ـ من جهة اخرى ـ لم تبنيا على هذه النصوص وحدها ، بل دخلتهما عناصر كثيرة من مصادر متعددة ، ومن ثم اضطر الاحبار إلى أن يؤولوا النصوص كى تتفق مع هذه العقائد (على نحو مافعلت الباطنية عندنا) .

كانت هذه هى الصورة الأولى « للتفسير الايديولوجى » للنصوص ، وقد استمرت حتى نهاية القرن السابع عشر ، مرتكزة على سلطة الكنيسة من ناحية ؛ وعلى سلطة الاقطاع من ناحية : هذا يملك الرقاب ، وتلك تملك الأرواح ، فلا غرابة ان تتحرك العقول داخل اطار مفروض من الفهم الكنسى ، ثم حدث الانقلاب حين قامت المجتمعات الأوروبية الجديدة فى المدن التجارية التى اعتمدت على حرية الفرد ، فأصبح للفرد ان يعمل عقله فيما يقرأ ، بشرط أن يلتزم بمنهج لغوى دقيق ، حتى لا يحرف الكلم عن

مواضعه ، وفى ختام البحث يطرح المؤلف هذا السؤال . المهم : كيف امكن ان يوجد المنهجان المتعارضان فى تفسير النصوص فى الوقت الحاضر ، مع ان كل واحد منهما ، كما سبق أن أوضح ، يتفق مع وضع تاريخى معين ؟ ودون أن يجيب عن هذا السؤال العويص ، يتركه الى سؤال « شخصى » قريب منه ، وهو : كيف امكنه هو أن « يفسر » هذين المنهجين المتعارضين ؟ ويجيب بأن كل منهج يستند الى فكرة : المنهج الايديولوجى يستند الى الفكرة الجماعية ، والمنهج البنيوى يستند الى الفكرة الفردية ، والفكرتان توجدان معا فى عالم اليوم . و« قدرى التاريخى » ـ هكذا يقول ـ « هو أن أظل خارجا عنهما ، كما لو أن « الخارج » لم يعد له « داخل » .. وإن أرى حجة كل من الفريقين المتعارضين ، دون ان أستطيع الاختيار بينهما ، وكان خاصية حضارتنا هى تعليق الاختيار ، وأن نحاول فهم كل شىء دون ان نفعل شيئا .

التغيير

لا اعرف أن كان موضوع « التغير الحضارى » من بين الموضوعات التى تدرس فى اقسام الاجتماع عندنا ، ولكننى لا أذكر أنى رأيت كتبا كثيرة خصصت لبحثه ، بل الأصح أنى أذكر بالتحديد كتابا واحدا ألفه ـ منذ أكثر من عشر سنوات ـ الدكتور محيى الدين صابر أمين المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة الان ، والشىء المحقق على كل حال هو أن أساتذة الاجتماع عندنا لم يستطيعوا بعد أن يشغلونا بموضوع التغير الاجتماعى ، لا على مستوى الجمهور العريض من القراء ، ولا على مستوى المجلات الثقافية المتخصصة وعندنا منها اليوم عدد كبير فى العالم العربى ، اننى اتساءل : هل حدث ان خصصت « عالم الفكر » مثلا ، ولعلها اقدم هذه المجلات فى العالم العربى ، عددا من اعدادها الخاصة لمشكلات التغير الحضارى ، كما خصصت « للاغتراب » مثلا ، ولست ادعى الاحاطة بكل ماينشر ، ولا أدعى ان كل مايمر عليه نظرى من عناوين يبقى فى ذاكرتى ، لذلك اتمنى ان اضيف الى معلوماتى فى هذه الناحية مايتفضل علىّ به القراء والكتاب ، ولكننى استطيع ان اقرر شيئا واحدا بكثير من الاطمئنان : وهو أن علماء الاجتماع عندنا لم يستطيعوا (ولو انهم اهتموا لاستطاعوا) أن يجعلوا مشكلة التغير الحضارى من المشكلات الظاهرة فى وعى الانسان العربى العادى ، ولعل الحقيقة التى لانزال نلف حولها وندور هى أنهم مشغولون بأمور

أخرى وأن فى مقدمة هذه الأمور تعريفنا بنظريات علماء الانثروبولوجيا والاجتماع فى الغرب (لا الوهم وحدهم ، نحن أيضا نفعل مثل هذا فى النقد والأدب) ، وقد آن لنا أن نتجاوز هذه المرحلة ، معاذ الله أن أدعو إلى الانغلاق ، فالثقافات تنمو وتزكو بالتطعيم المستمر ، وكل من له ادنى اتصال بالثقافة الغربية مثلى يعلم كم تأخذ أوروبا من أمريكا وكم تأخذ أمريكا من أوروبا ، ولكن الفرق بيننا وبينهم هو أن أوضاعهم الثقافية والحضارية متقاربة ومشكلاتهم متقاربة ، فتبادل التأثير والتأثر بينهم خصب ومفيد ، اما نحن فلابد لنا ، شئنا أم لم نشأ ، من أن تكون لنا ثقافتنا الخاصة لان لنا مشكلاتنا الخاصة ، انفتاحنا على ثقافاتهم شىء حسن ، ولكن انفتاحنا على ثقافاتنا نحن هو ـ بلا شك ـ احسن ، ولم يعد لنا خيار : اما أن نبنى ثقافتنا الخاصة وأما أن نذوب فيهم ، اما ان تكون لنا مدارسنا العربية فى الأدب وعلم اللغة وعلم الاجتماع وعلم النفس وأما أن يظل ماعندنا صورة ممسوخة مما عندهم .

قد يبدو انى ابتعدت عن موضوع التغير الحضارى الى موضوع آخر ، وهو موضوع النقل والابتكار ، ولا أظننى بحاجة الى الاعتذار مادامت فكرة النقل والابتكار تلاحقنا أينما توجهنا ، ومع ذلك فالواقع انى لم أبتعد عن موضوعى الأصلى ، ان موضوع « التغير » هو من الموضوعات الحيوية ـ ان لم يكن أول هذه الموضوعات ـ التى يضعها الواقع أمام انظار الباحثين ، ولذلك يجب أن نهتم به حتى يصبح « علما » من العلوم الانسانية الرئيسية ، ان العلوم تنشأ وتنمو ويطويها الزمن . بحسب حاجات البشر ، واذا كنت قد سمعت ـ ايها القارىء الكريم ـ عن « علم المستقبل » أو مايسمونه « الفيوتشرلوجى » فى الغرب ، واذا كنت قد سمعت ان للمهتمين بهذا العلم جمعية كبيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فلماذا لاننشىء نحن « علم التغير » أو نطوره ، وحاجتنا الى تأمين التغير وتوجيهه ، والتحكم فيه أشد من

حاجة القوم الى تأمين المستقبل ؟ ولكننى لا أعجب اذا انطلقنا وراءهم ، علماؤنا يترجمون مايكتبه علماؤهم عن عالم المستقبل ، ثم يجمعون البيانات عن بلادنا ـ بحسب ماتعلموه منهم ـ ثم يترجمونها لهم مرة أخرى ليغذوا بها ابحاثهم « العالمية » وجها لنا يتشدقون « بالمستقبلية » .

أن البيانات التي يجمعها العلماء تخضع لنظام يخضع بدوره لما يسمى المنهج العلمى ، والمنهج العلمى ثمرة زواج بين المنطق أو العقل من ناحية وبين الموضوع الذى يراد درسه من ناحية أخرى ، ولكن تحديد الموضوع لايتأتى إلا من خلال ، « وجهة نظر » اى من خلال مسلمات معينة ، يحكمها الواقع والحاجة قبل أن يهيمن عليها العقل والمنهج .

والقليل الذى قرأته عن « التغير الحضارى » فى اللغة العربية مكتوب ـ كما يبدو لى ـ من وجهة نظر غربية (أتمنى ان أكون مخطئا) ولو ان المؤلفين المترجمين العرب قد تجنبوا ـ مشكورين ـ كلمة عربية قاسية ، يستعملها المؤلفون الغربيون فى هذا السياق ، وربما كانت أدل على مرادهم من كلمة « التغير » وأعنى بها « التحضر » أو « التحضير » .

فالمسألة فى نظرهم لاتعدو أن تتخلى الشعوب المتخلفة عن أسلوب حياتها وتقتبس اسلوب حياتهم . وهذا موضوع سليم جدا للعلم من وجهة نظرهم ، فهم مضطرون للتعامل مع هذه الشعوب المتخلفة ، ولكى يكون هذا التعامل سهلا ينبغى ان تكون قواعد السلوك واحدة أو متقاربة . فمن من الفريقين يجب ان يكتسب قواعد السلوك من الاخر ؟ اما ان يكتسبوها منا فهذا أمر لايمكن النظر فيه، لانهم هم الأرقى ، (الاستثناء الوحيد هم أولئك البوهيميون او الهيبيون الذين يذهبون الى الشرق امعانا فى رفضهم لحضارة قومهم ، ولكنهم لايكتسبون الا قشور الحضارات

شرقية ، فهم كائنات ممسوخة كالشرقيين الذين يحاولون ان ظهروا بمظهر الغربيين) .

اذن فالأمر الطبيعي هو أن نبحث كيف تتم عملية اكتساب لشعوب المتخلفة لاساليب الحياة الغربية ، وسوف يساعدنا البحث لعلمي فى هذا الموضوع على ضبط الظاهرة والتحكم فيها مصلحتنا .

فههنا مسلمة وهى أن الشعوب المتخلفة التى تتطلع الى اللحاق بركب الحضارة الغربية (ألهذا وصفوها بأنها « نامية » ؟) راغبة رغبة عميقة وأصيلة فى اكتساب قواعد السلوك المتعارفة عند الغربيين ، ولأن هذه مسلمة عندهم فهم لايراجعونها ، ولانهم لايراجعونها فهم لايزالون يصطدمون بنا كل حين ، على الرغم من مناهجهم العلمية وتعبهم (وتعبنا معهم) فى جمع البيانات . والأولى لنا ولهم أن نترك مسلمتهم الساذجة وأن ندرس التغير على طريقتنا .

العربى الصانع

مما يجعلنا نعتز بمتاحف التراث الشعبى فى هذا البلد خاصة ، البلاد العربية عامة ، أنها تقيم الدليل المحسوس على أن الإنسان فى هذه الجزيرة وفى سائر الأوطان العربية كان دائماً لايزال إنساناً صانعاً ، ولم يكن كما زعم أعداؤه بين تاجر وراعى غنم ، وآبر نخل ، ولكنه إلى جانب ذلك صنع كل ما يمكن أن يصنع من كل ما وجده فى بيئته ، صنع من أصواف الأغنام وأوبار الجمال كساء وغطاء وفرشا ، وصنع من سعف النخيل سلالا ومن جريدها أقفاصا ، بل (حفظ) ألبان الماشية فجعلها أقطا وحفظ لحومها جعلها قديداً .. بل إنه كان صانعا واسع الحيلة شديد المهارة كما كانت بيئته محدودة الموارد قليلة العطاء ، حتى فى تلك المواطن التى تعد أوفر حظا من غيرها كأرض مصر مثلا ، فأرض مصر فقيرة فى أشجارها ومع ذلك فقد كانت دائما مركزا مهما لصناعة الأثاث ، ومازلت أذكر أنى وقفت مرة فى المتحف المصرى أتأمل كرسيا عجيب الصنع متين التركيب فقال لى رفيقى وكان متخصصا فى التاريخ المصرى القديم : أتعرف أن هذا الكرسى مصنوع من خشب الجميز ؟ ومع ذلك فهو كما تراه لم ينخره السوس ، ولم يتشقق ، ولم تظهر فرجة واحدة بين أجزائه ، هذا مع جمال تصميمه الذى يتعلم منه صناع الأثاث فى عصرنا هذا . وشجرة الجميز ــ إن كنت لا تعرف ايها القارىء ــ شجرة مصرية صميمة ،

الرياض ١٧ / ١ / ١٩٨٥

لم يكن يخلو منها شاطىء ترعة ، يمكن أن ينعقد تحتها مجلس فهى ممتدة الأغصان وارفة الظلال ، وجذعها السميك متكأ عريض لعدد من الناس .. ثم إن لها ثمرا وفيرا رخيص الثمن - إذا بيع - فيه حلاوة ورى (شجرة الجميز لا تكاد ترى الآن فى الريف المصرى فقد أصابها ما أصاب الأشجار قبلها من قطع وحشى همجى) .. المهم أن هذه الشجرة الطيبة المعطاء هى من أقل الأشجار صلابة ، اذا تسلقتها يوما - وفرضنا أنك رجعت طفلا - فحذار حذار أن تعتمد على فرع من فروعها الهشة .. هذه هى الشجرة التى صنع منها الصانع المصرى القديم روائع قطع الأثاث ! .

وتقرأ عن تنيس ، المدينة التى اكلها البحر شمالى دمياط ، أنها كانت تنتج أصنافا من النسيج توزن بالذهب وتصدر إلى جميع أنحاء العالم المعروف ليقتنيها الملوك والأمراء ، أما الحرير الدمشقى فيكفى أن اسمه انتقل معه إلى جميع اللغات الأوربية الحديثة .. كما انتقلت السيوف الدمشقية والصلب الدمشقى والمصنوعات المعدنية الدمشقية الدقيقة المرصعة .

من حسن الحظ أن المتاحف لاتزال موجودة واننا لسنا أبناء الأمس .

ومع ذلك فإن الانسان يتغير ، وربما تغير إلى الأحسن وربما تغير إلى الأسوأ ، وإذا نظرنا إلى مكانة الحضارة العربية الإسلامية فى العالم القديم ومكانتها فى العالم الحديث فلا أظننا سنختلف فى أن الانسان العربى تغير إلى الأسوأ من نواح كثيرة على هذا المدى الطويل ، ومن ناحية الصناعة بالذات كان أسوأ (تغير) لحق بالإنسان العربى هو أنه لم يتغير أى أنه ظل يتلقى الحرفة كابرا عن كابر ، لا يجدد فيها ولا يضيف إليها بينما كان الآخرون يبتكرون ويضيفون ، ومن هنا استطاعوا أن يهزموه بسهولة ، وحولوه إلى مستورد بعد أن كان مصدرا .

أما إذا قربنا النظرة وضيقناها ، ولنقل أننا سننظر إلى حال (العربى الصانع) خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة فقد

يختلف الرأى ، فلاشك أننا تعلمنا الكثير من الصناعات التى سبقنا إليها الغربيون ، وأقمنا الكثير من المصانع ، وعادت بعض مصنوعاتنا تعبر البحار إلى أقطار بعيدة ، ولكن الحصيلة العامة هى أننا تحولنا إلى مستهلكين ، وأن هذا التحول يزداد ولا يقل برغم كل ما نقوله عن التكنولوجيا واستيراد التكنولوجيا ، وبرغم كل ما ننشئه من المصانع ومعاهد التدريب المهنى . وأنا لا أتكلم الآن عن موازنة الاستهلاك والإنتاج أو الاستيراد والتصدير فهذه مشكلات اقتصادية ، مشكلات سلع وأثمان ، وأنا إنما اتكلم عن الإنسان ، والذى يعنينا أكثر من السلع وأثمانها هو من يصنع هذه لسلع ، أو هذا ما يجب أن يكون ،ولهذا فإن اختلال الموازين لاقتصادية يرعبنا من حيث دلالته على التغير الذى أصاب الإنسان أكثر مما يرعبنا من حيث هو .

لماذا حدث ذلك ؟

أعتقد أن هناك سببين رئيسيين : السبب الأول هو الغزو التجارى أو الاستعمار الاقتصادى ، فمعلوم أن الاستعمار الغربى فى أفريقيا أو الشرق الأقصى بدأ بمراكز تجارية ، ثم جاءت الجيوش لتحمى هذه المراكز ، أما فى الشرق الأدنى أو الأوسط ، أما فى شرقنا العربى والإسلامى فلم يكن الاستعمار الاقتصادى غالبا فى حاجة إلى مراكز أو جيوش ، لقد ضمن حرية التجارة ، وحصل على امتيازات للرعايا الأجانب ، وبذلك استطاع أن يحطم صناعاتنا الوطنية التقليدية بدون عناء وحول أقطارنا الى مصادر خامات لمصانعه وأسواق لمصنوعاته ، كل هذا نتيجة لانبهارنا بتقدمه ورغبتنا الملحة فى تقليده !

ولأن هذا هو الوضع الأمثل للاستعمار الاقتصادى ، ولأن لاستعمار الاقتصادى لم ينته بانتهاء الاستعمار العسكرى بل ازداد قوة وشراسة واتخذ أبعادا عالمية ، فسيظل حريصا على بقاء هذا الوضع ، وسيظل كل ما يقال عن تصدير التكنولوجيا غشا وخداعا ، وسيظل (حوار الشرق والغرب) مراوغة وكذبا !

كيف نتخلص من هذا الحصار ؟ إن الحديث يمكن أن يطول حول الطرق والوسائل ، ولكن المهم هو أن توجد الرغبة اولا فى التخلص منه ، أن توجد لدى الإنسان العربى الرغبة فى أن يعود (إنسانا صانعا) كما كان فى سالف أيامه . ولذلك فإن السبب الثانى فى التغير الذى حدث لنا خلال هذه الفترة الأخيرة يبدو لى اخطر السببين ، لأنه سبب لم يفرض علينا من الخارج بل سعينا إليه بأنفسنا .

ويتلخص هذا السبب فى أن كثيرا من النظم السياسية التى تسمى نفسها (شعبية) ارادت أن تتحبب إلى الجماهير بوسيلة لا تكلفها كثيرا أو لا تكلفها شيئا ، فزعمت أنها تحقق المساواة الكاملة حين تفتح الأبواب لكل الراغبين فى التعليم حتى يحصلوا على شهادة عالية ، وبما أن الرغبة شىء والاستعداد الفعلى شىء آخر فقد شحنت الكليات النظرية بجموع هائلة لم تتعلم علما نافعا ولا حتى غير نافع وخرجت ولا بضاعة عندها إلا القشور مما يقال ويعاد فى مدارسنا وجامعاتنا وهو ـ بالطبع ـ قشور القشور من الثقافة الغربية .

هذه هى القوة البشرية الصانعة المبدعة حولتها الاعيب السياسة إلى قوى عاطلة تسمى رسميا ومن باب التفاؤل : (القوى العاملة) !

وضع مفزع بدون شك ولكنه وضع موقوت لأنه نتج عن أسباب موقوتة ، سواء أكانت هذه الأسباب منحصرة فيما ذكرناه أم كانت هناك أسباب أخرى مثلها أو أقوى منها ، المهم أنه لا يوجد على الإطلاق ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الإنسان العربى أو الإنسان المسلم ليس بطبعه إنسانا صانعا ، فهذا الاعتقاد هو الذى يمكن أن يدمرنا . ولنتذكر أن ما هو (موقوت) يمكن أن يصبح ثابتا إن لم نتحرك لتغييره . فلنحذر أن نستنيم لهذه الكلمة فإن (الموقوت) لا يرتفع من تلقاء نفسه ، وهذا (الموقوت) بالذات قد طال علينا

الوقت جدا حتى بدا لكثير من الناس أنه الوضع الطبيعى .

إن الذين يبيعوننا (تكنولوجيا) عتيقة تافهة بأغلى الأثمان ويحبسون عنا أسرار التقدم التكنولوجى الحقيقى فى خزائن حديدية محتاجون إلى أن يبرروا لأنفسهم ـ ولنا ـ عملهم هذا بأننا لا نميل بطبعنا إلى العلم أو التكنولوجيا ، ولن يعوزهم الدليل فى جمودنا العلمى فترة طويلة من الزمن .. يقول برنارد لويس ـ وهو يخاطب جمهورا من الأمريكيين لاشك أن معظمهم إن لم يكونوا جميعهم سيذهبون للعمل فى (الشرق الأوسط) :

« لقد احتاج الصحفيون ورجال القانون كما احتاج النمط الجديد من الضباط والموظفين إلى نمط جديد من التعليم غير التعليم الدينى والأدبى الموروث .. فكان غذاؤهم الأساسى هو اللغات الأوروبية والآداب الأوروبية والتاريخ والجغرافيا والقانون ، وأضيف إليها حديثا الاقتصاد والسياسة ، وكانت معظم هذه الموضوعات جديدة وغريبة ولكنها كانت مألوفة من حيث إنها جميعا أدبية يمكن تعلمها ثم حفظها من الكتب والمحاضرات ، وبذلك سهل إدخالها فى طرق التعليم التقليدية التى تعتمد أساسا على التلقين من قبل المعلم والحفظ من قبل الطالب .

« أما العلوم العملية والطبيعية فكان أمرها مختلفا ، لقد ضمرت التقاليد العلمية الإسلامية العظيمة التى كانت تقوم على البحث والتجريب وماتت منذ زمن طويل ، وأصبح المجتمع ميالا بقوة إلى مقاومة الروح العلمية ، وكان ثمة عائق آخر مهم وهو الموقف الاجتماعى المتأصل نحو السلطة والعمل والوجاهة ، ذلك الموقف الذى يجعل المسلم حتى اليوم سائقا ماهرا جريئا ولكنه ميكانيكى عنيد متخبط »

لا ينبغى أن نغضب إذا وجدنا كثيرا من الأجانب يحملون مثل هذه الصورة عنا ، فبعضنا ـ ولنكن صرحاء ـ يقرونها ولو بينهم وبين أنفسهم ، لن يفيدنا أن نتجاهل الحقائق التى لا تسرنا ، ولكن الذى يفيدنا حقا أن نعرف كل الحقائق عن أنفسنا ، وسنجد أن

كثيرا منها مرض ومشجع ، ليس فقط تلك الحقائق القديمة التى اعترف بها برنارد لويس بل بعض الحديثة أيضا ، لقد نسى برنارد لويس أو تناسى - ويجب ألا ننسى نحن أبدا - أن الاستعمار وجّه ضربة مميتة إلى تقدمنا العلمى حين أغلق المدارس الفنية التى أنشأها محمد على وجعل التعليم فيها بالعربية ، وأوقف نشر النصوص العربية القديمة والكتب الحديثة المترجمة فى العلوم المختلفة ، وأعطانا بدلاً من ذلك كله كليات ومدارس نظرية فنية قليلة هزيلة تقدم للطلاب العرب قشور العلم باللغة الانجليزية أو الفرنسية .

كيف يكون « التقدم » سبيلا للدمار

في عهود البداوة كان يمكن أن تغير قبيلة على قبيلة فتغنم بعض أموالها ، أو تأسر بعض رجالها وتسبى بعض نسائها ، أو تطردها من اراضيها وتنزل فى منازلها . وكانوا ايضا يتصالحون ، ويتبادلون الأسرى ، ويعقدون المعاهدات ، ويلجأون إلى التحكيم حين يتعذر عليهم الاتفاق فيما بينهم ، بهذا حدثنا التاريخ القديم والآداب القديمة ، وبهذا حدثنا الأنثروبولوجيون الذين درسوا أحوال الشعوب الرعوية فى أواسط أفريقيا وغيرها من أجزاء العالم التى لم تنفذ إليها الحضارة الحديثة إلا فى وقت قريب .

فهل ترى الأمر اختلف بالنسبة الى هذه « الحضارة الحديثة » ؟

أنت خبير بما فعله « المستوطنون » الفرنسيون فى أرض الجزائر ، حين تملكوا الساحل الخصيب المواجه لأوروبا ، وراحوا يدفعون أهل البلاد نحو الصحراء ، وأنت خبير بما فعله ويفعله « المستوطنون » البيض فى جنوب أفريقيا ، الذين انتزعوا البلاد من أيدى أهلها وحولوهم إلى أجراء وخصوهم بأشق الأعمال فى المناجم وغيرها ، وأنت خبير ولاشك بما يفعله الصهاينة فى أرض فلسطين ، ولكنك ربما تنسى أو تتناسى أن ما فعلوه ويفعلونه لم يكن ليتم إلا بمعونة أو تشجيع أو مباركة أو موافقة أو رضى من دول « الحضارة الحديثة » .

الذى اختلف فى جميع هذه الأحوال هو الحجم فقط .

كان الصراع بين قبيلة وقبيلة ، وهو اليوم بين دولة قوية وا ضعيفة ، كانت الجيوش تقدر بالمئات ، وهى اليوم تقدر بالأل وعشرات الألوف ، كان السلاح يقتل فردا أو أفرادا ، وهو ال يفتك العشرات والمئات ، بل أصبحت « دول الحضارة الحديثا تملك من السلاح ما يكفى لقتل عشرات الألوف ومئات الألوف ، ا يمنعها من استعماله ضد بعضها البعض إلا الخوف ، ولايمنعها ا استعماله ضد الشعوب الضعيفة إلا أنها لاتريد افناء هـ الشعوب ، وإنما تريد استعبادها .

هذا هو « التقدم » الذى حدث : تقدم فى الأدوات ، ينتج ء ضخامة فى الحجم وزيادة فى الكم .. حجم ماذا ؟ وكم ماذ يهم !

فلو اردنا أن ننصف الحضارة الحديثة لقلنا إنها أنتجت ا أيضا أشياء من قبيل الطائرة الجامبو .. لعلك نظرت مرة إلى مئا الركاب المحتشدين فى صالة الانتظار استعدادا لركوب الطائر لعل عقلك تردد لحظة أو لحظات قبل أن يصدق أن هؤلاء جمي بأمتعتهم التى تركوها قبل دخولهم سيصبحون بعد دقائق محمول على متن الهواء ، يضطجعون فى كراسيهم ، ويؤتون بالط والشراب ويقرأون الصحف ، ويقطعون مئات الأميال فى السا الواحدة وهم ينظرون من النوافذ ويخيل إليهم أن الطائرة لا تت . هذه نعمة عظيمة بلا شك ، ولكن يحسن بك أن تتذكر أيضا مثل هذه الطائرة قد تحمل ولا تزال تحمل الدبابات والمداف بعضها يستعمل للدفاع عن الحقوق وبعضها يستعمل لتثبيت دعا الظلم .

إذن فقد تضاعفت القدرة على الخير كما تضاعفت القدرة ع الشر ولكن الإنسان مازال عاجزا ـ كما كان دائما ـ عن أن ي وحده إلى طريق الخير ، بل لعله أصبح اميل إلى الشر ، من ح إن الهدم أسهل من البناء دائما ، والسم أسرع مفعولا من الدوا

وحياة الانسان يقضى عليها فى دقائق ، ولكنها لا تظهر إلى الوجود إلا فى تسعة أشهر .. وعندما ينجح الإنسان فى إحداث أثر ما ، يشعر بالسرور لنجاحه ، مهما يكن الأثر ، وإنما يزداد السرور بالنجاح على حسب ضخامة النجاح وسرعة ظهوره ، وهكذا يبدو أن إنسان العصر الحديث أصبح إنسانا تسكره القوة ، وتخنق فيه بقايا الضمير . وإلا فكيف يعقل أن ينفق الانسان آلاف الملايين استعدادا لحرب فضائية قادمة ، بينما يتردد فى تخصيص بضع عشرات لإطعام ملايين الجائعين فى هذه الأرض ؟

أقصى ما يمكننا أن ندعيه ـ إذا كنا متفائلين ـ هو ان إنسان الحضارة الحديثة ليست أسوأ ـ أو ليس أسوأ كثيرا ـ من إنسان الحضارات القديمة ، أو حتى ممن نسميه الإنسان الهمجى ، أنا شخصيا شعرت بشىء من الاطمئنان أول ما قرأت الصفحات الأولى من جمهورية أفلاطون ، حيث يصف المجتمع الأثينى فى فترة انحلاله ، حين تدهورت الأخلاق ، وضاعت القيم ، وأصبح الناس جميعا عبيدا « للدراخمة » . ولعلك أنت تشعر باطمئنان أكثر ، بل بشىء من الرضى عن النفس ، حين تتذكر أن من الهمج من يمارسون تلك العادة البشعة ، عادة أكل لحوم البشر ، ولكننى ارجوك ألا تكون مسرفا فى التفاؤل فأنت لم تحصل بعد على إحصائيات لحوادث القتل الفردى ـ ودعنا من القتل الجماعى ! ـ لدى هؤلاء الهمج ، مقارنة بنظائرها لدى الأمم المتمدنة ، وإلى أن تحصل على مثل هذه الإحصائيات لا يحق لك أن تصدر حكما فى المسألة ، لأن أكل لحوم البشر عادة بشعة فحسب ، أما الجريمة الحقيقية فهى القتل ، وقد تذكرت كلمة قرأتها لأحد الأنثروبولوجيين الذين درسوا أحوال هذه الشعوب : أنهم على درجة عالية من رقة العواطف ، فإذا رأيت أحدهم يجلس طفله فى حجره ويلاعبه لم تستطع أن تصفه بالقسوة !

إنما الذى يثير لدىّ أشد العجب هو زعم الغربيين - أعنى معظمهم - أنهم حققوا « تقدما » روحيا جديرا بأن تحتذيه سائر أمم الأرض ! هذه مقولة أطلقها هيجل فى القرن الماضى وأرضى بها غرور الألمان القومى ، ولكن القوم فى ألمانيا وغير ألمانيا مازالوا يتشبثون بها ، ويعدلونها قليلا أو كثيرا لتتفق مع قياسهم ، ولكن جوهرها واحد : وهو النعى على الشرقيين لأنهم فهموا « الحرية » فهما ضيقا حين قصروها على فرد واحد ، والتنويه بالإغريق لأنهم وسعوا مفهوم الحرية ليشمل جميع الأفراد من أهل المدينة (دون الارقاء والموالى) وتمجيد الجرمان ، الذين اعتنقوا المسيحية ، لأنهم جعلوا الحرية حقا لكل البشر ، ويمكنك أن تضحك من هذا الكلام إذا تذكرت نيتشة وتمجيده للفرد ، والنازية واستبدالها الصليب المعقوف - الذى أخذته من وثنية الجرمان - بصليب المسيحية ، ولكن الأمر لا يدعو إلى الضحك مطلقا حين نلاحظ كيف تفسر الحكومات الأوربية - شرقيها وغربيها - فى ايامنا هذه معنى الحرية .

لقد كان القرن التاسع عشر فى اوروبا يمثل طفولة الوعى الأوروبى المعاصر بكل ما فى الطفولة من معنى الإقبال على الحياة واضفاء زينة الخيال على الواقع ، لذلك أضفوا على التقدم المادى المتسارع ثوب تقدم روحى مماثل ، ولكن الثوب المزيف سقط وظهر عوار المدنية الغربية وكذب مزاعم « الحرية » الغربية حتى بالنسبة للفقراء من أبناء الغرب أنفسهم .

أمام هذه الأفكار الغربية المهوشة والمغلوطة عن « التقدم » الروحى يحسن بنا نحن العرب والمسلمين - بل نحن « الشرقيين » عامة - ان نستعيد نظرتنا الأصيلة إلى كيفيات الوجود ، وهى « الصراط السوى » عندنا ، وربما سميناها « المثل العليا » اتباعا لأفلاطون (وقد كان أفلاطون على كل حال تلميذا للفلسفة الشرقية) فالصراط السوى واحد لا يتغير ، لا يعرف « التقدم » ولا

التأخر ، فهو ثابت بالوحى الإلهى ، هو العروة الوثقى لا انفصام لها ، ولكن البشر قد يستمسكون به ويلتزمونه وقد يحيدون عنه وينحرفون ، وغالبا ما يكون هذا الانحراف ناشئا عن زيادة القدرة ، وربما أوصلهم إلى حد الدمار الشامل ، وهم قد أمروا بعمارة الأرض ، التى تتطلب زيادة القدرة على ذلك لا أن يحولوا القدرة إلى طاغوت كطاغوت التكنولوجيا المعاصرة .

أحرار مسيرون

يفترض الغربيون أن الحضارة كل واحد منسجم ، ونأخذ عنهم هذا القول فنجد أنفسنا أسرى لحتمية كريهة : إذا أخذنا طرق الغرب فى العمل والإنتاج ، إذا أخذنا مخترعاته ومبتكراته ، بل إذا حاولنا أن نجاريهم فى هذه المخترعات والمبتكرات ولم نقتصر على النقل والتقليد ، فلابد من أن نأخذ أيضا أخلاقه وعاداته ومثله وقيمه . أنا لا أشك فى أن هذه القضية إذا طرحت هكذا صريحة فلن تجد واحدا فى المائة من أمتنا يقبلها أو يسلم بضرورتها . ومع ذلك فالرفض الواعى شىء والقبول المرغم شىء آخر ، ولكن لماذا نحس فى قرارة أنفسنا أن هناك نوعا من الإرغام يقع علينا لقبولها ؟ لماذا هذا التمزق وهذه الحيرة ، لماذا هذا التطرف فى القبول ، وهذا التطرف فى الرفض ، إن لم يكن الغرب قد نجح فعلا فى أن يصدر إلينا فكرته عن « وحدة الحضارة » ؟

واسمحوا لى أن أقول لكم ، يا أهلى وعشيرتى ، حقيقة لعل معظمكم يعرفها جيدا ، ولكننا نفضل أن نتجاهلها ، ظنا منا أن الاعتراف بها يزيد تمزقنا وحيرتنا ، تلك هى أن السادة الغربيين ينظرون إلينا ويضحكون ، فمع أن الكثيرين منا ـ إن لم يكن معظمنا ـ قد انساق فى تقليدهم إلى الحد الذى بتنا فيه نشعر بالخطر على شخصيتنا الحضارية ، فإن السادة الغربيين يهزأون من طريقتنا فى تقليدهم ، وكأنهم معلم قاسى القلب ميت الضمير ،

الجاته مصلحته الخاصة إلى أن يقف أمام حفنة من الأطفال يعلمهم شيئا لا يحبونه ، ولا يحب أن يعلمهم إياه ، فهو يلقيه إليهم فى استعلاء المدل بتفوقه ، الناعى سوء حظه ، فإذا لاحظ من احدهم خطأ أو توهمه ، انفجر سخطه عليه ، وربما سب أهله وجنسه ، والطيب القلب منهم إذا رأى أحدنا يحسن محاكاته اشتد تعجبه منه ، حتى حجب أى علامة من علامات الرضى .

تقتحم على تفكيرى ، كلما أخذت فى موضوع من هذه الموضوعات المهمة ، ذكرى قد تكون تافهة ، وقد تكون قديمة ، ولكنها لأمر ما لاتريد أن تبرح مخيلتى ، من هذه الذكريات أنى كنت فى زيارة للولايات المتحدة الأمريكية قبل ثمان وعشرين سنة ، ونزلت فى تجوالى بإحدى مدن « الغرب الأوسط » وكان مضيفى ذات يوم من تلك الأيام رجلا أمريكيا ـ ولكى أكون محددا كل التحديد أقول إنه أمريكى أبيض ـ غمرنى ـ والحق يقال ـ بكرمه ولطفه ، على الرغم من أنى لم أستطع ـ حتى فى تلك الأيام ـ أن أمسك لسانى عن كلمة سخيفة قلتها فى حق الغرب . وكان أشد ما أحرجنى أن الرجل قضى مع أسرته سنة فى مصر ، وزعم أنها كانت من أسعد سنى عمره ، وأن ابنته لا تزال تلح فى العودة إليها ، ولكن حرجى كله زال لكلمة واحدة قالها ذلك الرجل الطيب :

كان يتحدث عن أسرة مصرية ساكنته فى البيت الذى يقيم فيه ، أو فى بيت مجاور (هذه لم أعد أذكرها الآن) وكان لهم أى لهذه الأسرة المصرية ـ طفل فى نحو الثالثة ، وفى حماسة الرجل للأسرة وطفلها قال عن الطفل (واسمحوا لى أن أعيد كلماته الأمريكية قبل أن أترجمها ، فقد انحفرت هذه الكلمات فى ذاكرتى كخط بماء النار على صحيفة من الحديد) :

He was just like a kid .

(كان يشبه الأطفال / أو لم يكن يختلف عن أى طفل) ، وكأنه

شعر أن هذا الثناء لم يقع من نفسى الموقع الطيب الذى كان يرجوه ، فأردف موضحا معناه .

I mean , just like an American kid .

(أعنى : الأطفال الأمريكيين / أو : أى طفل أمريكى) .

دعونى أقولها لكم الآن يا أهلى وعشيرتى : لن نكون أبدا مثلهم ، فتعالوا بنا نكف عن المحاولة !

أنا أعلم أنكم أشد حرصا على دينكم ووطنيتكم وقوميتكم من أن تقلدوهم فى كل شىء ، ولكننى أجدكم أيضا - وأتمنى أن أكون مخطئا - مبلبلى الفكر كلما نظرتم إلى ما عندهم وما عندنا ، وإخال هذه البلبلة راجعة إلى تصديقكم لما يزعمونه من أن الحضارة كتلة واحدة ، إذا حاولت أن تقتطع منها الجزء الذى يعجبك حطمت الكل ولم يسلم لك الجزء ، أو « شروة » واحدة ، تأخذها وأنت مغمض العينين ، وأنت وحظك ، تجد أكثرها ذهبا أو أكثرها حطبا ، فلا شأن للبائع بك .

سواء أكان القوم يؤمنون حقا بوحدة الحضارة أم لا يؤمنون بها ، ولكنهم يروجون الفكرة لخدمة أغراضهم ، فالضرر واقع بهم كما أنه واقع بنا ، وقد بلونا من أمور الناس أنهم ربما تعاموا عن حقيقة أنفسهم وهى ماثلة أمام كل من يرى . وأهل الغرب (المخلصون منهم لأفكارهم - الذين يعرضون دعوى « وحدة الحضارة » على الواقع المشاهد) ليسوا أقل منا تمزقا وحيرة ، فكيف يمكنهم أن يصدقوا أن الازدهار المادى والتخريب المستمر لموارد الطبيعة مظهران لحضارة « واحدة » ؟ وكيف يمكنهم أن يصدقوا أن جنون التسلح و« هيئة الأمم » يمثلان معا فكرة مشتركة ؟ وكيف يمكنهم أن يسيغوا اجتماع « الحرية الأخلاقية » التى لم يعرف لها مثيل فى التاريخ ، مع العبودية الكاملة لنظم

اجتماعية لا حدود لقوتها (إن فى الشرق أو فى الغرب) ؟

كيف يمكن أن يصدر هذا كله عن نبع واحد ؟

ولكن فيلسوفهم زعم لهم ذلك ، لقد جعلهم « هيجل » يؤمنون بأن « التقدم » شىء حتمى ، وأن هذا التقدم يبلغ غايته على أيدى الشعوب الأوربية ، والشعوب الجرمانية على وجه الخصوص ، ومن خلال « فلسفة الروح » ملأهم غرورا ، فقد أوهمهم أن « التقدم الروحى » يتجلى فيهم ، لا فى فرد أو أفراد ، بل فى كل من يجد من نفسه القحة لادعاء ذلك . ومن خلال « حتمية التقدم » جعل كل شىء مبررا ومشروعا لهم ، حتى استخدام القتل الجماعى فى الحروب ، لا عجب إذا وجدوا أنفسهم الآن عاجزين عن وقف السباق الذرى ، فقد أقنعهم هيجل ، قبل أكثر من قرن ونصف القرن ، أن اختراع البارود كان خيرا وبركة على بنى الإنسان .

لم تستطع الحضارة الغربية الحديثة أن تهضم فكرة الخير والشر ، لأن الاعتراف بأن هناك أشياء هى فى ذاتها خير ، وأشياء هى فى ذاتها شر ، يستلزم الإيمان بالحق الذى لا يتبع أهواء البشر ، وهذا الإيمان وذاك الاعتراف يستلزمان مراقبة للنفس ، ومجاهدة لأهوائها ، والفلسفات الغربية والعلوم الإنسانية الغربية تقوم فى مجملها علي أن الهدف الأسمى للإنسان هو تحقيق رغباته ، ولذلك يصطنعون « أخلاقيات » لا تعرف الخير والشر بمعناهما الذاتى الأصيل ، وهما التزام طبيعى قبلته البشرية فى جميع عهودها السابقة ، ولاتزال الشعوب « المتخلفة » أمثالنا تؤمن به ، إنما تقوم « أخلاقيات » الغرب على فكرة « المسئولية » النابعة من « الحرية » وهى فكرة بارعة ، ولكنها تؤول فى الواقع إلى تأليه الإنسان : ألم يصبح هو المشرع الوحيد للكون ، ما رآه حقا فهو حق ، وما رآه باطلا فهو باطل ؟ ولكن كلمة « الإنسان » معنى مجرد ، والذين يوجدون في الحقيقة أفراد متفاوتون فى كل شىء ..

فى القوة والثروة والذكاء والجمال . فالذين يقررون للناس ما هو خير وما هو شر (عفوا ـ أردت أن أقول : ما ينبغى أن يرغبوا فيه وما لاينبغى أن يرغبوا فيه) هم أقطاب القوة والثروة والذكاء والجمال.

كل هذا يبدو لنا طبيعيا من كثرة ما ألفناه ، وكلما كانت « الرغبة » أعنف وأعم ، كان تأليه صاحبها أصرح وأتم ، حتى سمعنا عن كتاب صدر حديثا بالإنجليزية عن ممثلة أمريكية ماتت منذ سنين طويلة ، وفى هذه « السيرة » الموثقة ذكر الكاتب عن الممثلة المذكورة أنها اعتبرت « إلهة الجنس » فى أمريكا أو فى العالم الغربى كله ، لا أذكر .

والأمثلة كثيرة فى كل مجال ، فقس على هذا المثال .

وهنا نجد سلسلة أخرى من « المستلزمات » :

فتأليه الإنسان لنفسه يستلزم الإيمان بأنه يتقدم دائما من حسن إلى أحسن ، لأن الأمر البديهى فى هذه الحالة هو أنه لن يختار الأسوأ . وبما أنه يتقدم دائما « نحو الأفضل » فكل المخترعات التى يتفتق عنها فكره ، وكل التغيرات التى تطرأ على أسلوب حياته ، أو على علاقاته بغيره ، هى بالضرورة أفضل ، وإن بدا لنا غير ذلك فالسبب هو أننا نتشبث بالماضى ، ولا نملك « الخيال » الذى يمكننا من رؤية المستقبل والمساهمة فى إبداعه.

ولكن تمسك الإنسان بما يراه طيبا فى حاضره يستلزم ابتكار وسيلة ـ فكرية ـ لإقناعه بالإعراض عن شىء يراه طيبا ، وقبول شىء آخر يراه سيئا ، فبدلا من أن نواجهه بالحقيقة ، فنقول له إ[...] خلق برغبات متضاربة ، وإن هذه الرغبات إذا تركت بدون ضابط إلا من ذاتها فمن الجائز جدا ـ بل من المحتم ـ أن يدمر بعضها بعضا ، نزعم له أن كل ما يراه شرا إنما هو شرط لازم لتحقيق [ما] هو فيه أو ما يرجوه من خير .

وهكذا يجد الإنسان « الحر » نفسه مضطرا إلى قبول المبادى النفعية المحضة قاعدة للسلوك ، والتحلل من كل العواطف الإنسانية التى لا يبقى « للإنسانية » معنى بدونها ، لأنهم أوهموا أن هذا جزء لا يتجزأ من « الحياة العصرية » .

حمى « الوطنية » الغربية

لست من هواة الرياضة ، أعنى أننى لا أتابع أنباء المباريات الرياضية ولا أعرف أسماء اللاعبين ، ومع ذلك فقد لفتت نظرى دورة الألعاب الأولمبية فى لوس أنجلوس صيف هذا العام ، إذ كانت مظاهرة سياسية تثير القلق ، قاطعها الاتحاد السوفييتى والدول التى تدور فى فلكه ـ كما هو معروف ـ ونظموا دورتهم الأولمبية (العالمية) الخاصة . و(رب جد جره اللعب) فليس من المستبعد أن يكون هذا الانقسام مقدمة أو تجربة لانقسام أكبر وأخطر فتصبح منظمة الأمم المتحدة منظمتين كما انسلخت دول (المحور) عن عصبة الأمم قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات قليلة ، وخطر هذا الانقسام بل وإرهاصاته ، موجودة بالفعل ..

كل ذلك لا يدعو إلى القلق بقدر ما تدعو إليه ظاهرة لوحظت على ذلك (الأولمبياد) ولكنها ـ فى الواقع ـ تعكس مسلك الدولتين العظميين فيما بينهما ، ومسلك كل منهما نحو الدول الصغرى التى تدين لهما بالتبعية أو تحاول الفكاك من هذه التبعية ، وأعنى ظهور حمى (الوطنية) على الجانبين ..

هذه مجلة أمريكية كبيرة جعلت موضوع الغلاف فى عدد ١٣

★ الرياض ١٩٨٤/٩/٢٧

أغسطس الماضى (الحمى الأولمبية) واختارت للغلاف عنوانا أكثر إثارة (جنون الرياضة) وأبرزت هذه الجمل على رأس المقالة :

« كانوا ينشدون : U . S . A , U . S . A ولم تكن هتافات المشجعين المتحمسين ومشاهدى التليفزيون مقصورة على اللاعبين ، إنهم كانوا يهتفون أيضا لبلد يتفجر بشعور جديد بالكبرياء .

إن دورة ١٩٨٤ م الأولمبية التى وصفها البعض بأنها ثانوية وقاطعها آخرون قد تبناها الشعب كله منذ أوائل أغسطس وتحمس لها ومعه كثير من شعوب العالم الأخرى »

ولاشك فى أن شيئا من الكبرياء التى وصلت إلى درجة (الحمى) أو (الجنون) بمناسبة الدورة الأولمبية قد أنسى كاتب المقال أن حماسة شعوب العالم الأخرى لم تكن لها علاقة بكبرياء الشعب الأمريكى ، وكثير منها لم يهتم حتى بكبريائه الخاصة بقدر ما اهتم بلفت أنظار أمريكا والعالم إلى وجوده وإلى قضاياه المصيرية كقضية الزحف الصهيونى على العالم العربى مثلا ، ومهما تحمس العالم الغربى لدورة لوس أنجلوس فقد ظل يتململ لانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بتقرير سياسته المالية من ناحية واستراتيجيته النووية من ناحية أخرى ، ولكن ضجة الملاعب بأعلامها و(ميدالياتها) كان ينتظر منها أن تغطى على مثل هذه الأمور التافهة .

وللسبب نفسه لم يجد الاتحاد السوفييتى بدا من أن ينظم أولمبياده الخاص ليشعل الروح الوطنية فى أرجائه باعتباره (وطن الاشتراكية الأول والأكبر) . وليؤكد زعامته على (أوطان الاشتراكية) الأخرى والصغرى فقد كان عليه أن يغطى على فظائعه فى أفغانستان وتدخله السافر فى بولندا ..

إن كلمة « الوطنية » حين تستعمل فى هذا السياق أو ذاك تصبح مخيفة ومضللة لأنها فى الحالتين تعنى الاستعلاء وإخضاع سائر الشعوب لسلطانها ، نعم إن الطريقين مختلفان ولكن الغاية واحدة ، فالولايات المتحدة الأمريكية تزعم أنها (أمة) واحدة وإن كانت متنوعة العناصر فهى « سبيكة » منصهرة جمعت فضائل سائر الأمم ، ومن ثم فطبيعى أن تكون لها الزعامة على غيرها ، والاتحاد السوفييتى على العكس يقر بأنه مكون من أمم كثيرة مختلفة ، ولكنه يزعم أن هذه الأمم اجتمعت على الرغبة فى إقامة نظام اشتراكى ومن ثم فهى شريكة فى « وطن » واحد ، بل إن كل حزب اشتراكى وكل إنسان يؤمن بالاشتراكية فى أى مكان من العالم يجب أن يعتبر (الاتحاد السوفييتى) وطنه قبل وطنه الحقيقى ! ويجب على (الاشتراكيين) داخل الاتحاد السوفييتى وخارجه أن يؤمنوا بتميزهم على سائر الخلق لأنهم (الطليعة) المتقدمة !

طريقان مختلفان كما قلنا ولكنهما يؤديان إلى نتيجة واحدة وهى السيطرة العالمية ، وهى نفس النتيجة التى أراد هتلر الوصول إليها عن طريق الادعاء بأن الجنس الجرمانى هو أفضل أجناس البشر وأنقاها ، ومن ثم يجب أن تكون له السيادة على سائر الأجناس ، وقد كان هتلر يسمى حزبه (الحزب الاشتراكى الوطنى) ، أين (الوطنية) فى هذا كله ؟ أليست مجرد كلمة تلهب بها بعض الحكومات عواطف شعوبها لكى تدفعهم إلى محاولة السيطرة على العالم ؟

ومن الملاحظات الطريفة فى باب علم النفس اللغوى أن الأوربيين كادوا يهجرون الكلمة التى تدل فى لغاتهم دلالة مباشرة على معنى الوطنية وهى كلمة Patriotisme أو ما يرادفها لأنها مشتقة من كلمة Patrie (الوطن) ومعناها يعرف بالفطرة ويحس بالإلهام فلا سبيل إلى المغالطة فيه ، ووضعوا مكانها كلمة

nationalisme (القومية) والقومية nation كلمة اختلفت حولها المذاهب ، فإذا حملت بالشحنة العاطفية التى لكلمة (وطن) أمكن أن يوجهها السياسيون إلى حيث يريدون .

ومن المزعج حقا أن تصل النعرة (الوطنية) لدى إحدى الدولتين العظميين أو لديهما جميعا إلى حد (الحمى) و(الجنون) اللذين يمكن أن يتحولا بسهولة من أرض الملاعب إلى ساحات القتال ، فحمى الوطنية أو جنون القومية أو الولاء للحزب والطبقة ليست إلا أسماء مختلفة للنزعة الوحشية التى تبثها دولة متسلطة فى نفوس شعبها ، وهى نزعة لا تجد أشباعها إلا فى الحرب ، وقد كان السياسيون دائما حين يشنون حربا جديدة يزعمون لشعوبهم التى تعانى ويلاتها أنها (حرب لإنهاء الحرب) أما الحرب الجديدة - إن قدر الله قيامها - فسوف تضع نهاية للحروب فعلا لأنها ستنهى حياة الإنسان على هذا الكوكب ، وقد يعجب المرء كيف يمكن أن تساق الشعوب إلى حتفها بهذه الطريقة ؟ إن الإنسان لا يضحى بشىء عزيز إلا من أجل شىء أعز منه ، ووطن الإنسان إذا تعرض للضياع يصبح أعز عليه من حياته ومن الدنيا كلها - أو يمكن أن يصبح كذلك - فشاعرنا يقول : (وتهون الأرض إلا موضعا) لذلك نجد الحكومات التى تسعى إلى التسلط أو (الهيمنة) كما يقال توقع فى نفوس شعوبها أن أمنها مهدد فى أوطانها ، وبذلك تستغل العاطفة الوطنية ، وهى من أنبل عواطف الإنسان ، لمزيد من العدوان . وفى منطقتنا نموذج مصغر لهذه الحالة .

وربما كان مستقبل العالم رهنا باستقرار معنى (الوطنية) الصحيحة لدى الشعوب الكثيرة فى الشرق والغرب ، التى تجد أوطانها معرضة لأن « تؤكل » فى صراع العملاقين . إن هذه الشعوب قد عرفت دائما معنى آخر (للوطنية) لا لبس فيه ولا تعقيد ، ولكنه معنى عميق الجذور فى النفس : معنى الحفاظ على

تراب الآباء والأجداد وعلى تراث الآباء والأجداد ، لا يوجد شعب لا يعرف هذا المعنى قولا وفعلا وتضحية مستمرة ، فالشعوب التى نسيته قد ذهبت واندثرت ، وبدونه وبدون التمسك به لابقاء ولا مستقبل .

ولكن هل ضعف هذا المعنى وهو كما نقول معنى فطرى راسخ في النفوس ؟ نقول : لعله لم يضعف ولكن غطت عليه الصراعات المذهبية الآتية من العالم الغربى .

غطت عليه ، بل كادت تفتك به ، فكرتان بالغتا الخطورة نرى آثارهما فى معظم دول العالم الثالث التى حصلت على استقلالها حديثا بفضل قوة (الشعور الوطنى) .

فهذه الدول بدلا من أن تكون عامل ثبات فى عالمنا الذى يترنح على حافة الحرب أصبحت مخالب قطط فى أيدى اللاعبين العملاقين ، وما ذلك إلا لأن الفكرة الوطنية قد زاحمتها حتى كادت تخنقها فكرة (الصراع الطبقى) من ناحية وفكرة (القومية) من ناحية أخرى ، وكلتاهما فكرة تميز بها التاريخ الأوربى فى مراحل معينة من تطوره ، ولا يلزم أن تتكرر فى تاريخ الشرق العربى الحديث أو تاريخ أفريقيا المعاصرة مثلا ..

ولا يتسع المجال هنا لشرح هذا الاختلاف .. ولكن تنبغى الإشارة إلى تعثر الفكرة القومية فى العالم العربى المعاصر وتمزقها بين تيارات كثيرة متعارضة ، واصطدامها دائما بوجود الأقليات العرقية والدينية ، وهذه الظواهر كلها توحى بأنها فكرة غريبة على تاريخنا وواقعنا ، وكثير منا يتساءلون اليوم : ألم يكن قبول بعض الحكومات للفكرة الأوربية الأحدث ، فكرة (الصراع الطبقى) ولو بصورة ملطفة ، وتقسيم الناس إلى (فئات) عاملا آخر فى إضعاف الرابطة الوطنية ، وانحدار الإنتاج القومى نتيجة للاهتمام بتقسيمه ، قبل الاهتمام بزيادته ؟

جولة الكاميرا ...

بكى رئيس وزراء أستراليا فى مؤتمره الصحفى .. صحيح أنه حوصر بالأسئلة ولكن أى رد فعل هذا ؟ إنه يكون غريبا من تلميذ يجلس أمام ممتحنيه ، فما بالك برئيس وزارة ورئيس حزب ، فاز حزبه فى الانتخابات بأغلبية كبيرة ولايزال يتمتع بثقة الناخبين . لم تكن التهمة الموجهة إلى رئيس الوزراء ـ تهمة التستر على جماعة من الفاسدين وتجار المخدرات ـ كافية رغم بشاعتها لتفسير انهياره المفاجى ، إلا إذا كان معناه اعترافا غير مباشر بالخطأ ، كفتاة مخدوعة تتفجر باكية بين يدى أهلها حين يستحيل عليها اخفاء آثار المصيبة التى حلت بها ، لذلك بادرت زوجة رئيس الوزراء الأسترالى بالذهاب إلى التليفزيون كى تعلن لجمهور المشاهدين السبب الحقيقي وراء تلك الدموع ، وهو أن ابنتهما التى لاتزال فى أوائل العشرينيات من عمرها ، العروس الجميلة التى فرحت منذ مدة وجيزة بطفلها الأول ، مدمنة للهيروين ، وزوجها كذلك ، بل ثمة ما هو أفدح : أن الفتاة لا ينتظر ـ رغم العلاج ـ أن تعيش أكثر من سنوات قليلة .

... تنتقل الكاميرا آلاف الأميال مخلفة وراءها الربيع الأسترالى عابرة خط الاستواء طاوية نصف الكرة الشمالى لتحط فى صقيع موسكو ، حيث تلتقط صورة للرئيس تشيرنينكو وهو يعلن عزم الحكومة والحزب على تطهير البلاد من الفساد والانحراف والإدمان .. التى أخذت تنتشر فى جميع الأوساط بصورة مخيفة ..

ولتقفز الكاميرا مرة ثانية لترتمى فى أحضان العملاق الآخر .. إنها الآن فى ربوع مانهاتن حيث تفتح عيونها دهشة وهى تسجل صورا لشوارع كاملة كادت تتحول إلى مستعمرات من نوع غريب على نيويورك .. شباب صغار السن .. يتجولون من منزل إلى منزل ، يحملون نشرات باسم جمعية دينية جديدة ، بيوت بحالها تنتقل ملكيتها إلى الجمعية ، ويترك المصور « كاميراه » تعمل أوتوماتيكيا ، ويسأل فى دهشة : ومن أين جاءت الأموال ؟ فيتلقى الجواب : من وصايا العوانس والأرامل ، ولعل هناك مصادر أخرى ، ويسمع حديثا عن « الأغلبية الفاضلة » التى تزعم هذه الجمعية - وربما جمعيات كثيرة مماثلة - أنها تنطق باسمها ، ويقرأ حملات فى الصحف على السيدة « فرارو » لموقفها من مسألة الإجهاض ، وأصداء الاتهامات التى وجهت إلى زوجها - وبرأته المحكمة منها - بالتلاعب فى الضرائب لم تزل تتردد ، ويلتقط نتفا من هنا وهناك ، عن « حملة مضادة » يدبرها خصوم الرئيس ريجان عشية الانتخابات ، وتذهب إلى حد اتهامه بحماية أناس لهم صلة بالمافيا ، ثم تطالعه صورة فى التليفزيون للمرشح الديمقراطى « مونديل » وهو يخطب منددا وساخرا ، ومستشهدا - فى ثنايا حديثه - بالحكم التى حفظها عن أبيه القسيس ..

والقفزة الثالثة عبر المحيط الهادىء .. إلى « المعجزة اليابانية » حيث نسمع رئيس الوزراء ناكاسونى وحزبه الديمقراطى الحر يرددون شعار « العودة إلى التربية الأخلاقية » ، إلى تأكيد دور المدرسة فى المحافظة على القيم اليابانية التقليدية ، بتنمية مشاعر حب الوطن واحترام الآباء والرؤساء والتمسك بالأعراف العامة فى نفوس التلاميذ .. والذين يعرفون شيئا عن اليابان يعرفون أن نهضتها الحديثة ترجع قبل كل شىء إلى اهتمامها بالتعليم ، نظما ومناهج وأسلوبا وإدارة ، ولعلهم يخشون أيضا أن تكون هذه الدعوة إلى إحياء « التربية الأخلاقية » المحافظة مقدمة لظهور اليابان مرة أخرى كقوة عسكرية خطيرة ، ولكن الواقع الذى تدل

عليه الإحصاءات هو أن مستقبل اليابان الاقتصادى نفسه أصبح مهددا بأنماط سلوكية جديدة أخذت تنتشر بين الشباب اليابانى ، إن اللجنة التى شكلها ناكاسونى من كبار رجال التربية وقادة الفكر وجعلها ملحقة بمكتبه مباشرة تبحث فى وقائع مثل زيادة جرائم الأحداث ، حتى وصلت نسبتها إلى خمس وأربعين فى المائة من الجرائم المسجلة خلال العام الماضى ، أما حوادث الاعتداء التى ارتكبت داخل المدارس نفسها فقد بلغت ٢١٢٥ حادثا ، منها ٩٢٩ حادثا كان ضحاياها من المدرسين .. أين هذا من الأدب اليابانى المشهور ؟ وهل يمكن أن تنجح اللجنة فى إعادة القيم التقليدية إلى المدرسة اليابانية ، كما يرغب رئيس الوزراء وحزبه فى حين أن ٢٤,٥ فى المائة فقط من التلاميذ اليابانيين قد أظهروا رضاهم الكامل عن المدرسة بحالتها الحاضرة ؟

وليس « المزاج الرافض » منحصرا في شباب المدارس الثانوية ومن فى حكمهم .. إن الفريق الأكبر سنا ، والذى بدأ حياته العملية بعد التخرج ، قد أخذ يبدى نزعات رافضة أيضا ، وإن تكن أقل عدوانية كما يمكن أن نتوقع ، إما بحكم أن هؤلاء أكثر نضجا ، وإما بسبب التغيرات المستمرة والمتسارعة داخل المجتمع اليابانى ، والتى جعلت الجيل الأحدث أكثر تعرضا للقلق والاضطراب النفسى ، ربما تصادف الكاميرا مهنيا شابا يفضل أن يبدأ عملا صغيرا فى الريف على أن يتولى منصبا ذا مستقبل مرموق فى شركة كبيرة ، وإذا سألته فسيقول غالبا : إنه يفضل حياة هادئة تكفل له حاجاته الأساسية ، على حياة أكثر بريقا وأعباء ..

إن التغيرات الكبرى لا تتم فجأة ، بل لا يلزم أن تتم على الإطلاق ، فلا تزال الصناعة اليابانية تغزو الأسواق ، ولا يزال الجد اليابانى مضرب الأمثال ، ولكن المجتمع اليابانى الذى وصل إلى درجة التشبع بالقيم المادية قد أخذ يفرز ظواهر جديدة فلم يعد

الكسب أو التقدم المادى هو القيمة الوحيدة ، بل إن هناك سعيا ، ولو غامضا ، نحو قيم أخرى . ربما أخذت الآن أشكالا سلبية ، مجرد البحث عن شيء من الراحة ، لدى الشباب الناضج ، كما يميل الإنسان إلى التوقف عندما يتشكك فى أنه يسلك الطريق الصحيح (وقد تواترت الأنباء أيضا بأن العمال الألمان أصبحوا يطالبون بمزيد من ساعات الراحة ، وإن كان التعبير الرأسمالى عن هذه الظاهرة يقول إنهم أصبحوا أقل إنتاجية ، وأميل إلى الكسل) . أما المراهقون الأقل خبرة وسيطرة على دوافعهم فإن سلبيتهم فى مواجهة مطالب المجتمع منهم كثيرا ما تأخذ أشكالا عدوانية أو منحرفة .

لماذا يتجمع أمامى هذا الشريط كله ؟ هل أريد أن أقنعكم ، أو أقنع نفسى ، بأن شمس الحضارة الغربية آخذة فى الانحدار ، بدليل أن القوم أنفسهم أخذوا يجتهدون فى سد الخروق بما بقى لديهم من معتقدات مهلهلة ؟ هل أريد أن أخلص من هذا إلى نوع من الرضى عن النفس ، لأننا لم نخلق غربيين ، ولأننا لا نزال ، بحمند الله ، محافظين على تراثنا ، متمسكين بعقيدتنا ، مؤمنين بطريقتنا المثلى ؟ أم أريد أن أحذر من الانسياق وراء الحضارة الغربية ، لأنها قد تحل مشكلات الفقر والتخلف (وليس هذا صحيحا دائما) ولكنها تخلق مشكلاتها الخاصة ، فأقل ما يجب علينا نحو أنفسنا هو أن نتخذ الحيطة قبل وقوع هذه المشكلات ؟

أظن أننى أفكر فى هذا كله ، ولكننى أفكر معه فى شيء أخطر ، وهو أن هذه الحضارة الغربية لا تتركنا نفكر فى هدوء ، ولا نختار طريقنا بملء حريتنا ، إنها ، ببساطة تامة ، تفرض نفسها علينا : فإما قبلناها خاضعين ، فأصبحنا صورة ممسوخة منها ، وإما رفضناها وتقوقعنا على أنفسنا ، فكسرت قشرتنا الهشة والتهمتنا . الطريق الأول سلكته أمم كثيرة فى آسيا وأمريكا اللاتينية ، فصار حالها إلى ما نعرف .. والطريق الثانى جربناه زمنا قصيرا أو طويلا

ثم تبين لنا عدم جدواه فرجعنا عنه ـ حمدا لله ـ قبل أن نلتهم تماما . نحن أبناء الصحراء تعودنا طوال تاريخنا أن نبرز ضاحين للشمس مستقبلين السيول العاتية ، لم نحارب قط ، كما حارب أعداؤنا حتى الأمس القريب خلف أطم أو دشم ، فكيف يمكن أن نتقوقع ؟ أمامنا طريق ثالث وهو الطريق الذى سلكته اليابان ، لم نتقوقع ، ولكنها احتفظت بروحها الخاصة لنفسها ، واستعارت قوة الغرب المادية ، فنازلته وزلزلته ، ثم كان ما لابد ـ فى مثل حالتها ـ أن يكون : تضعضعت قوتها الناشئة أمام قوته الشامخة ، فانكسرت ، وها هى ذى تكاد اليوم أن تفقد روحها أيضا ، إن « المعجزة اليابانية » تنطوى على « مأساة يابانية » ..

فهل ثمة طريق رابع ؟ أجل ! وهو طريق الثقافة العربية منذ البدء ! إن الثقافة العربية لم تكن قط إقليمية أو انانية أو متمركزة حول نفسها ، لقد كانت دائما ، أكثر من أى ثقافة أخرى عرفها التاريخ ، ثقافة عالمية معطاء ، ولذلك كانت أيضا تأخذ بحرية ، وتأخذ بنهم .

بالطبع سيسخر منى كل العقلاء حين أقول : إن مستقبل الحضارة العالمية مرتبط بمستقبل الحضارة العربية !

صهيونى ؟

منذ زمن غير بعيد شهدت مجلسا لبعض الفضلاء ، وجرى ذ
تشومسكى العالم اللغوى الأمريكى المشهور ، فعلق أ
الحاضرين بأنه يهودى ، وأضاف آخر بلهجة العارف : إ
صهيونى أيضا ، وإن أباه حاخام ، وأنا لا أعرف شيئا عن وا
تشومسكى ، ولكننى اطلعت أخيرا على مقال لتشومسكى (الابن
نشر لأول مرة فى مجلة سياسية متخصصة سنة ١٩٧٦ ، ثم نش
مع تذييل قصير فى كتاب بعنوان « حرب أم سلام فى الشر
الأوسط » سنة ١٩٧٨ ، أتوقع أن يكون المهتمون بأمور السيا
عارفين بهذا المقال . ولذلك أسألهم المعذرة إن وقعت كلم
الساذجة بين أيديهم ، فأنا بعيد كل البعد عن ساس يسوس وجم
ما اشتق منها ، ولكن لي بعض الاهتمام بمعرفة ما يقوله الآخر
وهو اهتمام فطرى جدا ، يمكن أن يسمى على سبيل التفخي
بلقاء الحضارات ، وقد وجدت المقال المذكور يثير مسائل مهمة
هذا الباب ، ويثير مسائل أخرى فى غيره ، فأحببت أن أشرك م
من يشاطرونني ذلك الاهتمام الفطرى من القراء .

عنوان مقال تشومسكى : « الانزلاق نحو الحرب وبدائله
ومن تاريخ المقال يعرف أنه كتب على أثر اتفاقيات «
الاشتباك » التى جمدت الموقف بين العرب وإسرائيل بعد حر
١٩٧٣ ، ومن العنوان يفهم رأى الكاتب فى هذا « الاتفاق المؤقت
أنه ليس اتفاقا فى الحقيقة ولكنه إعادة للوضع إلى ما كان عليه ب

عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣ ، وأن هذه الإعادة تؤدى لا محالة إلى حرب جديدة ، مالم يتم العدول عن سياسة « الخطوة خطوة » التى أعلنها كيسنجر وزير خارجية أمريكا ، والتى يصرح الكاتب بأن هدفها الواضح هو تحقيق مطامع اسرائيل فى المنطقة العربية فى ظل الظروف المتغيرة (بعد حرب ١٩٧٣) .. ويشير الكاتب فى هذا السياق إلى المعاملة المهينة التى لقيها السادات من الدبلوماسية الأمريكية حين سعى لحل سياسى فى أوائل سنة ١٩٧٣ ، وكيف اضطره ذلك إلى اللجوء للحرب (لعل فى هذا التقرير الموثق ما يدفع شكوك الذين استكثروا على العرب أن ينتصروا فى حرب ، فزعموا أن حرب أكتوبر كانت مسرحية رتبت بالاتفاق مع أمريكا ، وربما مع إسرائيل أيضا !)

والحل الذى يقترحه تشومسكى هو قيام دولة فلسطينية مستقلة على أرض فلسطين ، إلى جانب دولة إسرائيل ، وهو يرى أن إسرائيل نفسها عازفة عن هذا الحل ، ولذلك فلابد من ضغط أمريكى ، وهنا يكون للرأى العام الأمريكى أثره الحاسم ، يقرر تشومسكي هذه النقاط كلها فى الصفحات الثلاث الأولى من مقاله ، ثم يقيم الأدلة على صحتها فى ست وثلاثين صفحة أعقبتها ست صفحات أخرى من الهوامش المدعمة بالوثائق وبعضها مستمد من الصحافة الإسرائيلية والنشرات الرسمية الإسرائيلية ..

وينبغى ألا ننسى أن تشومسكى أمريكى يهودى يكتب أساسا للأمريكيين والإسرائيليين .. ولذلك فهو يكتب من منطلق الحرص على مستقبل دولة إسرائيل .. ومن السذاجة أن ننتظر منه غير ذلك . إنه ينذر بأن الأطماع الإسرائيلية لن تنتهى إلا بتدمير دولة إسرائيل .

يقول مثلا :

« هناك خريطة رسمية (لإسرائيل الكبرى) صدرت فى أكتوبر ١٩٧٣ ! ، وكلها ملونة باللون الأصفر بدون حدود داخلية (تميز الأرض المحتلة فى يونيه ١٩٦٧ عن إسرائيل ١٩٤٨) ، وثمة خريطة رسمية أخرى للمستوطنات التى أنشئت بين ١٩٦٩ و١٩٧٤ ، وهى أقل صراحة من الأولى فى شأن الحدود ، ولكن يكفى أن نرسم خطا يصل بين المستوطنات المبينة على الخريطة ذاكرين قول جولدامائير : (إن الحدود هى حيث يعيش اليهود ، لا حيث يوجد خط على الخريطة) لقد كان الغرض دائما هو : إقامة الحواجز أملا فى أن يصبح من المستحيل تخطيها والعودة إلى الحدود ، والنتائج الواضحة لهذه السياسة تسمح لنا بالقول إن كل واحدة من هذه المستوطنات هى مسمار يدق فى نعش إسرائيل » .

وهو يفضح نفاق الإعلام الأمريكى الذى يغمض عينيه بأدب عن الفظائع التى ترتكبها إسرائيل فى الأرض المحتلة ، ويصف إسرائيل بأنها دولة ديمقراطية (بل « قلعة » الديمقراطية فى الشرق الأوسط !) مع علمه بأن القانون الإسرائيلى لا يعترف بشىء اسمه « مواطن إسرائيلى » فإسرائيل هى الدولة اليهودية ، والمواطن فيها هو اليهودى فقط ، ويسمى الإرهاب الواسع النطاق الذى تقوم به دولة إسرائيل ضد سكان جنوب لبنان « ردعا » بينما يقيم الدنيا ويقعدها لأقل عملية من عمليات الفدائيين الفلسطينيين الذين يسميهم بالطبع « إرهابيين » ، ولا يقتصر هذا التزييف على الاذاعة المسموعة أو المرئية أو الصحف الجارية ، بل إن من « علماء الاجتماع » الأمريكيين من قدم نظرية طريفة عن « تطور أشكال الإرهاب خلال الجيل الماضى » .. ذهب فيها إلى أن الإرهاب الذى كانت تقوم به العصابات الصهيونية مثل شترن وأرجون زفاى ليومى قبيل إعلان دولة إسرائيل كان إرهابا « نظيفا » موجها نحو أهداف متخيرة ، بعكس الإرهاب الفلسطينى العشوائى الذى لا يصدر إلا عن التعصب والتعطش للدماء ! وفى هذا السياق يذكر تشومسكى هذا « العالم » الأمريكى وقراءه بحوادث مثل قنبلة

فندق الملك داود التى قتل فيها واحد وتسعون شخصا من البريطانيين والعرب واليهود .

ولكن تشومسكى لا يقصد بهذه الوقائع الموثقة مجرد « فضح » النظام الصهيونى . إنه يقصد ، إلى « تشخيص » اتجاه سياسى واجتماعى فى الدولة الإسرائيلية يمكن أن يكون له أثره المدمر على مستقبل هذه الدولة كما يمكن أن يصبح خطرا على السلام العالمى .

فالنتيجة الطبيعية لاضطهاد الأقلية العربية فى الداخل ، والسياسة العدوانية تجاه الدول العربية فى الخارج ، هى أن تتحول إسرائيل بسرعة إلى دولة عنصرية فاشية ، والاحتمال الأكبر هنا هو أن يتكرر « سيناريو » الحرب بينها وبين جاراتها العربيات ، وإذا كان الإسرائيليون واثقين فى الوقت الحاضر من تفوقهم العسكرى على الدول العربية مجتمعة ، فإن أرجح التقديرات هو أن هذا التفوق لا يمكن أن يستمر لأكثر من عشر سنوات أخرى .. وفى مواجهة هذا الاحتمال يقول الإسرائيليون إنهم يستطيعون أن يعتمدوا على قوة الرادع النووى .. ومعلوم أن إسرائيل تملك بالفعل القدرة على صنع قنابل نووية ، وحتى إذا امتلك العرب السلاح نفسه فإن توازن « الرعب النووى » سوف يمنع العرب من تدمير دولة إسرائيل .. ويعلق تشومسكى بأن هذه الحالة نفسها ليست بالأمل الذى تصبو إليه البشرية .

والاحتمال الثانى هو ألا تقع حرب ، وتظل إسرائيل محافظة على حالة استنفار عسكرى دائم ، وهذا معناه أن قوة العمل الإسرائيلية ستوجه نحو الصناعات الحربية أساسا (فضلا عن الأعمال الإشرافية والتوجيهية ـ مثل التعليم ـ التى لا يسمح لغير الإسرائيليين بمزاولتها) بينما يعتمد الإنتاج المدنى ، الزراعى والصناعى ، على اليد العاملة العربية ، وهكذا يتحول المجتمع

الإسرائيلى إلى أقبح صور العنصرية ، التى لا يوجد مثيل لها فى عالم اليوم سوى دولة جنوب أفريقيا .

ويستشهد تشومسكى بمشروعات كثيرة رسمية وشبه رسمية على سياسة التفرقة العنصرية التى تتبعها حكومة إسرائيل ويتقبلها الإسرائيليون على أنها مسألة مسلم بها ، ومنها مشروع « تهويد الجليل » الذى تشرف عليه الوكالة اليهودية ، ويتضمن إقامة مدن ومستوطنات زراعية خاصة باليهود ، إلى جانب عدد من القرى اليهودية ، ويقرر أن العرب لا يسمح لهم بالسكنى أو العمل فى المناطق المخصصة لليهود . وقد لا يكون السلوك الرسمى الرمزى أقل دلالة ، فقد استقبلت حكومة إسرائيل رئيس وزراء جنوب أفريقيا ، فورستر ، وهو نازى سابق ، استقبالا حافلا ، كما شاركت دون سائر حكومات العالم فى الاحتفال « باستقلال » الترانسكاى (وهى قطعة قاحلة من الأرض نفت إليها حكومة جنوب أفريقيا قسما من أهلها السود وأطلقت عليها اسم دولة) وقدم التليفزيون الإسرائيلى برنامجا خاصا بهذه المناسبة .

إن تشومسكى يرى فى هذا الاتجاه ، بجوانبه المتعددة ، انحدارا « أخلاقيا وثقافيا » لا يقل خطرا عن حماقته السياسية ، وهنا لابد من أن نقف لنعود إلى بداية هذا الحديث ، أى إلى « صهيونية » تشومسكى ، فتشومسكى يعترف ، فى هذا المقال نفسه ، بأنه كان فى طليعة المتحمسين لنظام « الكيبوتز » (المزارع الجماعية) الإسرائيلية ، يرى فيه صورة راقية للحياة الاجتماعية ، ويقول عن الصهيونية إنها كانت « مثل أى حركة قومية ، مزيجا من عناصر كثيرة منها ما هو مثالى ، بل يكاد يكون نبيلا ، ومنها ما هو قبيح جدا » . ولكنها تطورت حتى وصلت إلى

الحالة التى وصفها ، وأصبح بين قدامى الصهاينة الآن من ينظرون إلى واقع اسرائيل ويتحسرون ..

هذا هو الرجل لا يخفى موقفه ، وربما كان موقف كثيرين غيره أيضا ، وهو على كل حال صوت قوى مؤثر ، فكم يا ترى يكون وزنه بين الأصوات والمواقف ، على هذا الجانب أو ذاك ؟ ...

أثمان البشر

عندما تصل إليك هذه الكلمات ، صديقى القارىء ، تكون قضية الرهائن الأمريكان قد وصلت إلى نقطة غير النقطة التى أراها الآن .

ولكن الحقيقة الثابتة ، والتى لم ينفع فى إخفائها لا تصنع الغضب ، ولا التخويف من العواقب ، ولا إظهار الحنان على المختطفين وأسرهم ، هى أن الولايات المتحدة الأمريكية تساوم على حياة بضعة أمريكان ، بحياة بضعة آلاف من الإيرانيين والعراقيين .

وما نقول ذلك لأننا نستهين بأرواح بضعة أفراد أمريكيين أو غير أمريكيين ، فنحن نعتقد أن الروح سر إلهى ، ويستوى أن يكون هذا السر فى واحد أو كثير ، ونحن نؤمن بأن من قتل نفساً واحدة فكأنما قتل الناس جميعا . ولكن حين يصل الأمر إلى مقايضة سلامة أفراد ، قد لا تمس أرواحهم ولا أبدانهم بسوء على كل حال ، رغم التهديد والإنذار ، بأسلحة فتاكة يعلم المقايض أنها سوف تزهق آلاف الأرواح فى حرب باغية ، فلابد من أن يكون وراء هذه الصفقة اعتقاد ضمنى بأن هناك أكثر من معيار واحد للسلوك ، وأن الإنسان الأمريكى لا يلزمه أن ينظر إلى العراقى أو الإيرانى

★ الهلال : ديسمبر ١٩٨٨

على أنهما أخوان فى الإنسانية ، بل على أنهما عراقى أو إيرانى ، « لا أكثر » .

وليس هذا الموقف جديدا على كل حال ، فالدول الغربية ، وفى مقدمتها أمريكا ، تقاوم الإرهاب بكل صرامة ، ولا تنحنى أبدا لمطالب الإرهابيين ، بشرط أن تكون أرواح الضحايا أرواحا من الدرجة الثانية أو الثالثة ، وقد ساومت الولايات المتحدة الأمريكية على إطلاق ركاب طائرة الخطوط الجوية العالمية التى اختطفت فى بيروت ، لأن معظم ركابها كانوا أمريكيين ، ولكنها حرّضت وصفقت حين قتل عشرات الركاب المصريين والسودانيين واليونانيين (ليسوا أوربيين تماما !) على متن الطائرة المصرية التى اختطفت من مطار أثينا ، فأرواح هؤلاء عملة سهلة ، رخيصة ، يمكن أن تدفع بسخاء فى مقابل إرهابيين أو ثلاثة من الجنس نفسه ، أما إن كان المحتجزون عملة صعبة فإن هؤلاء الإرهابيين أنفسهم يؤخذون بالرفق واللين ، ويعاملون بالطرق الدبلوماسية ، وتوسط لديهم الحكومات ، ورجال الدين ، والشيطان نفسه إن لزم الأمر لإطلاق سراح المحتجزين ، حتى يعودوا إلى أسرهم وأحبابهم ، الذين استبد بهم القلق والجزع .

هل حسبوا أثمان أرواحنا وأرواحهم بمتوسط دخل الفرد ؟ فهم يقولون ؟ « فلان يساوى مليوناً » إذا كان يملك مليون دولار . وهم تعودوا أن يحسبوا كل شىء بالأرقام ، فالأرقام هى لغة العلوم الطبيعية ، والعلوم الطبيعية تحاول أن تحتوى فى حضنها القاتل كل شىء حتى الكون والإنسان . إذن فالروح ليست من أمر ربى ، الروح كلمة تنتمى إلى حفريات الثقافة ، اخترعها أناس لم يفهموا ، ولم يحاولوا أن يفهموا كيف يعمل عقل الإنسان ، وكيف يستجيب للمؤثرات الخارجية ، وهذه أمور استطاع العلم الحديث أن يفسرها ، ويقيسها ، بل ويتحكم فيها ، والمبدأ الأول فى تفسير سلوك الإنسان وقياسه والتحكم فيه هو المصلحة ، فالحقيقة ـ تلك

الحقيقة التى لا تفرق بين صغير وكبير ، وقليل وكثير ، وأسود وأبيض - هذه الحقيقة هى أيضا حفرية من حفريات الثقافة ، يجب شطبها من القاموس ، ومن تعذر عليه التخلص منها فعليه أن يهمل صيغة المفرد ويتحدث عنها فقط بصيغة الجمع ، فليست هناك حقيقة واحدة وإنما هناك حقائق كثيرة ، والحقائق جميعها نسبية ، ومادامت كذلك فيجب أن ترجع إلى ضابط متغير ، وماذا يكون هذا الضابط سوى المصلحة ؟ إذن فلتتنزل الحقيقة عن عرشها ، ولتسلم أمرها إلى سلطان المصلحة ، هذه المصلحة التى يمكن تفسيرها وقياسها والتحكم فيها .

لهذا نحار أحيانا - نحن الشرقيين - فى سلوك أهل الغرب ، كما يحارون فى فهم سلوكنا ، فعندنا أن هناك حقائق لا تقبل التغيير ، ولا تحسب بالأرقام ، ولا تمكن المساومة فيها لأننا - واعين أو غير واعين - ننسبها إلى حقيقة واحدة عليا لها هذه الصفات ، وعندما نخطىء نحو هذه الحقيقة نشعر بالندم ، وربما كرهنا أنفسنا ، وربما دفعناها نحو المزيد من الخطأ ، لنشعر بمزيد من الانسحاق ، وعندما تمتلىء نفوسنا بهذه الحقيقة نصنع المعجزات ، وعندهم أن الإنسان يلبس لكل حالة لباسها : فتراهم فى أروقة الاجتماعات ، وحفلات الكوكتيل ، ناعمين مصقولين ، يمشون هونا ، ويتكلمون همساً ، ويفيضون عذوبة ، وتراهم إذا تصادمت مصالحهم وحوشا أو شراً من الوحوش ، يدب بعضهم إلى بعض بالخديعة ، ويحيك المؤامرات ، ويسدد الطعنات فى الظلام ، أما إذا أشعلوا نار الحرب فكل شيء عندهم مشروع إذا درأ الهزيمة أو حقق النصر ، وكل شيء عندهم مبرر فى حساب الأرباح والخسائر !

ترومان حسبها أيضا حين محا هيروشيما ونجازاكى من على وجه الأرض وقتل الألوف من الأطفال والنساء والشيوخ وترك الوفا

أخرى يفتك بأجسامهم المرض وينتظرون الموت المخلّص بعد سنين تقصر أو تطول ، قال وقال المدافعون عن جريمته : إنه أنقذ بقتل هذه الألوف مليونا أو ملايين كان يمكن أن تزهق أرواحهم لو طال أمد الحرب !

عمل لا غبار عليه ـ بل عمل إنسانى عظيم ! ـ إن قبلت هذه الحسبة .

فالمعيار الأخلاقى فى النهاية لا يخرج عن واحد من اثنين : إما معيار الحقيقة ، وإما معيار المصلحة .

•

الحقيقة لا تنفى المصلحة ، ولكن المصلحة قد تنفى الحقيقة ، لهذا نفهم الغربيين خيرا مما يفهموننا ، ونتعلم منهم دون أن نتخلى عن حقيقتنا ، ولا يتعلمون منا إلا إذا تخلوا عن حضارتهم وهربوا إلى أحضان حضارتنا . ربما بهرتنا أخلاقهم العملية ، أمانتهم فى معاملاتهم ومحافظتهم على مواعيدهم مع سرعة الانجاز وإتقان العمل ، هذه أخلاق يَسهل اكتسابها لأنها لا تنافى الحقائق الإنسانية التى نحرص عليها قبل كل شىء ، بل إنها يمكن أن ترسخ هذه الأخلاق فى النفوس فلا تلعب بها الأهواء الوقتية . ولكن الأخلاق العملية بدون الحقائق الإنسانية تترك الحياة خواء وإن جعلتها سهلة ، والخواء السهل هو آفة الحضارة الغربية ، وقد حاول بعض المفكرين الغربيين أن يعالجوه بإبقاء ركن صغير منعزل لأمور الروح ، وأخذ هذا الحل الساذج عنهم رجال من قومنا ندعوهم فلاسفة ومفكرين ، ولكنه حل لا يحل إلا مشكلة هؤلاء الأفراد الذين يعانون من انقسام الشخصية .

نحن لا ندين الإرهاب فقط لأنه بشع وظالم ودنىء ، ولكننا ندينه أيضا لأنه جزء من حضارة الغرب التى توشك أن تدمر العالم .

وأحيانا أسائل نفسى : لماذا لم أسمع بدراسة علمية فى تاريخ الإرهاب ، شىء يشبه ما صنعه فوكو فى أركيولوجية المعرفة حول تاريخ السجون أو تاريخ الجنون ؟ وأجيب نفسى بأن مثل هذه الدراسات ، مع الأسف الشديد ، لا تزال تأتينا من الغرب ، ويظهر أن موضوعا كموضوع الإرهاب لا يسهل على كاتب غربى ، مع كل الحريات التى يتمتع بها ، أن يعالجه بأمانة وموضوعية . والخطوط الرئيسية للموضوع ماثلة أمام كل باحث يريد أن يتصدى لهذه المهمة ، فالإرهاب ، كمؤسسة اجتماعية ، وتكتيك حزبى ، يتميز عن « قتل الغيلة » الذى عرف منذ أقدم العصور ووجد فى جميع المجتمعات الصغيرة والكبيرة ، الشرقية والغربية . وتسمية الأعمال الإرهابية « اغتيالات » تسمية تنطوى على خلط كبير ، فالاغتيال عمل فردى لا يلزم أن يكون وراءه تنظيم ما ، والإرهاب منظمة اجتماعية تستخدم الاغتيال كوسيلة واحدة من بين وسائل كثيرة ، ويستطيع المؤرخ أن يلاحظ تطور هذه المنظمة من « الاغتيال » البسيط ، وأظن أن ذلك حدث قبيل الحرب العالمية الأولى ، بين فريق من الثوريين الروس ، ففى كتابات لينين كلام مهم عنه (وقد عارضه بشدة) . وأقترح على هذا الباحث أن يدرس العلاقة بين الإرهاب والتقدم التكنولوجى من ناحية ، والإرهاب وأساليب السيطرة السياسية من ناحية أخرى .

أما وأنا بصدد تشخيص الإرهاب فقط ، باعتباره سلوكا عدوانيا فإننى أراه يقوم على نفس المبدأ الأخلاقى الذى تقوم عليه الحضارة الغربية ، مبدأ المصلحة . فكل شىء مشروع فى السلوك الإرهابى إذا حقق النتيجة المبتغاة ، وكل الفرق بين هذه المنظمة الصغيرة والمنظمة ـ الأم ـ الحضارة الغربية ـ إن المصلحة فى الحالة الأولى هى مصلحة فئة صغيرة مظلومة أو مسحوقة .

ألا تعجبون معى لأن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تجرى

اتصالات مع فئات إرهابية صغيرة فى لبنان ، بينما ترفض بعناد أن تجرى أية مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية ؟

ولكن مهما يكن هذا الأمر غريبا فتفسيره واضح : ان حكومة الولايات المتحدة والإرهابيين من كل جنس ولون يتكلمون لغة واحدة ، لغة المصلحة ، لا شيء غير المصلحة ! ولا تعجبوا لهذا الاتفاق رغم التناقض الواضح بين الفريقين ، فهو اتفاق فى اللغة فحسب ، اتفاق فى القانون الأخلاقى ، والمصالح تتناقض وقد حارب الغرب نفسه قبل أن يحارب الإرهاب !

هؤلاء الذين عارضوا سياسة حكومة الولايات المتحدة ، داخل الولايات المتحدة نفسها : المشرعون ، والكتاب ، والناس العاديون الذين لم تنجح عبارات الحنان المصطنع على أسر المخطوفين فى تنويم ضمائرهم .. هل تنبهت « الحقيقة » الكامنة فى قلوبهم : الحقيقة التى لا تقبل الاعوجاج ، ولا تجعل الشر سبيلاً إلى الخير ، ولا تفرق بين أثمان البشر ؟

دعونا لا نخدع أنفسنا ، معظمهم ـ أيضا ـ جادلوا باسم المصلحة . قالوا إن المساومة مع الإرهابيين تشجع على مزيد من الإرهاب . ولعل هذا صحيح . ولكن أصح منه أن بواعث الإرهاب كامنة فى النظام العالمى نفسه ، ولذلك فسوف تظل مصاحبة لهذا النظام إلى أن يتغير من أساسه . وصحيح أيضا أن فرص « النجاح » سوف تظل قائمة بالنسبة للإرهابيين ، سواء تحققت عن طريق التفاوض أم بدونه .

وأهم من هذا وذاك أن البشر لا تتفق مصالحهم جميعا ابدا ، فلابد من أن تتغلب مصلحة الأقوى ، وحب الحرية والأنفة من الظلم طبيعة فى البشر جميعا ، فقيرهم وغنيهم ، أسودهم وأبيضهم ، فلن يقبل الضعيف المظلوم أن يعيش أبدا فى عبودية

القوى الظالم . ولكن البشر الذين تفرّقهم المصالح ، يمكن أن ينقادوا جميعا لصوت الحق .

فإن كان بين المعارضين فى أمريكا من سمع صوت الحق ـ ولن يعدم صوت الحق مجيباً فى أى زمان أو مكان ـ فهؤلاء هم إخواننا لا يفرق بينا وبينهم لون أو جنس أو ملة ، بل نتلقاهم جميعا بالأحضان !

هذه الجائزة

انفض المولد ، وأخذها وليم جولدنج الإنجليزى ، جائزة نوبل فى الآداب أعنى . فجوائز نوبل الأخرى بعيدة عن مداركى ، وخاصة جائزة نوبل للسلام التى أخذها بيجن وشريكه منذ سنتين ثلاثة أربعة لا أدرى ، فقد انقطع التاريخ عندها .

ربما كانت جائزة نوبل فى الآداب شيئا آخر فالجهة التى ترشح لجائزة أدبية لابد من أن يكون فيها بعض الأدباء ، وكذلك الجهة التى تنتخب ، والظن فى الأدباء أن يتعصبوا للأدب ، لا للسياسة ولا للعنصرية ، ومع ذلك فقد ساء ظنى بهذه الجائزة أيضا منذ أخذها سالنجر ، وكنت قد قرأت له رواية طويلة وعددا من القصص ، ثم لم أر ما يدعونى إلى الاستزادة منه فقد أطبق على أنفاسى بجوه الخانق ، وشعرت أن جيتوكبيرا يمد أصابعه الطويلة كالأخطبوط ليحيط بمدينة حديثة وعظيمة ، سالنجر يهودى أمريكى ، ولا اعتراض لى على ذلك ، ولكنه يعرض يهوديته ، بصورة فظة ، بحيث تبحث فى داخلها عن « الإنسان » فلا تكاد تجده .

وأدباؤنا العرب ، عفا الله عنهم ، متلهفون على الجائزة العالمية العتيدة ، لا أريد أن أظلم أو أقسو ، ربما كان كبارهم ، الذين يمكن

★ الرياض ١١/١١/١٩٨٣

أن يرشحوا للجائزة فعلا ، هم الأقل اهتماما بها ، أو حديثا عنها ، ولكننى أتمنى عليهم ، وهم من هم ، أن يزجروا من حولهم من طوائف الحواريين ، والمتحمسين ، والمبشرين ، كلما لاحت طلائع الموسم ، ويبدأ المتنبئون الحالمون يتساءلون : هل يفوز بها كاتب عربى هذه المرة ، وما أكثر ما تحول التساؤل إلى استطلاع للرأى ، هذا يرشح فلانا ، وهذا يرشح علانًا ، وهذا لا يرشح أحدا . وهذا يطعن فى الجائزة ، وهذا يطعن فى الأدب العربى ، وإذا كان وراء الاستطلاع صحفى ذكى امتشق بعض النقاد أقلامهم وراحوا يتجادلون حول « عالمية » الأدب العربى هل « أصبح » الأدب العربى عالميا ؟

واذلاه ، وواحر قلباه ، كأن الأدب العربى لم يكن عالميا قط ، وكأن العرب محتاجون إلى شهادة من مجمع سويدى لكى يؤمنوا برسالتهم العالمية ، فى الأدب وفى غير الأدب .

ويا لها من عالمية بائسة ، تلك التى تنسى كينونتها ، وتتنكر فى غير أزيائها ، وتتحدث بغير لسانها ، وتندس فى زحام الأجانب واهمة أنهم يحسبونها منهم ، وهم ينظرون إليها مبتسمين ، إما راحمين وإما هازئين ، هذا إن التفتوا إليها فى الزحام !

أذكر أن قصاصا أمريكيا زار القاهرة ، فى جولة من تلك الجولات الثقافية التى تنظمها حكوماتهم ، وكنت قد قرأت له بعض ما كتب ، إذ كان يعد وقت ذاك من الأسماء الجديدة « اللامعة » ومع أنى وجدته قصاصا عاديا ، فقد ذهبت لأستمع إلى محاضرته ، فكانت أتفه من قصصه ، وخرجت آسفا على الوقت الذى أضعته . ولعله كان يتجه وسط الزحام إلى حجرة « يستريح » فيها من عناء المحاضرة عندما اعترضه « فلان » وبدأه بالحديث .

كان يثير معه نقطة لا قيمة لها ، لكى يقول بعد بضع ثوان :

ـ أنا أيضا أكتب القصة القصيرة .

وفلان الذى انطلق من عرض الناس ليقدم نفسه إلى الفتى الأمريكى القصاص ، ونسى فى لهفته أن يلتفت لعل أحدا يلاحظ حركاته أو يسمع كلماته ، كاتب مشهور عند قراء العربية ، وعظيم جدا عند نفسه ، ولكنه ينسى كبرياءه إذا قابل كاتبا أمريكيا أو أوربيا قد يكون أقل منه قيمة .

وأنا أفهم أن ترجمة بعض أعمال الكاتب إلى لغات أجنبية شهادة له بأنه كاتب مهم ـ أيا كان معنى هذه الأهمية عندك ـ ولكننى لا أذكر أنى وقعت على كتاب واحد لكاتب واحد أمريكى أو إنجليزى أو فرنسى تضمن فى آخره ثبتا بأعمال الكاتب المترجمة إلى اللغات الأجنبية ، وأعيانى أن أجد كتابا واحدا لأستاذنا وشيخنا توفيق الحكيم خلا من هذا الثبت ، ولم ينكر أحد عليه ذلك حتى هذه اللحظة .

ولست أدرى من أين يأتى بعض الصحفيين بأخبار جائزة نوبل وترشيحات جائزة نوبل ، ولكنى قرأت وسمعت منذ سنين طويلة أن طه حسين رشح ، ثم أن توفيق الحكيم رشح ، وكذلك اسم أو اسمان لا وزن لهما ، لا هنا ولا هناك ، وقبل شهرين أو ثلاثة كنت فى القاهرة ، وقال لى أحد الأدباء فى حديث على الهاتف :

ـ هل علمت أن نجيب محفوظ مرشح لجائزة نوبل ؟

قلت :

ـ شىء عظيم .

قال :

ـ هو بين الخمسة الذين اختيروا ليكون الفائز واحدا منهم .

فضحكت في سرى لأن الفوز بجائزة نوبل أصبح مثل الفوز بدورى كرة القدم ، ولكننى قلت : شىء عظيم .

وانفض المولد ، ولم يفز نجيب محفوظ بالجائزة كما لم يفز بها طه حسين ولا توفيق الحكيم ، وساءنى ـ كما ساءنى فى المرات السابقة ـ أن ندفع بأسمائنا الكبيرة وراء حدودنا ، ونترقب أخبار انتصارها كأن مصيرنا ومصيرها يتقرر هناك ، ولو كنا أصحاء ، ولو كنا واثقين بأنفسنا ، لما أهمنا التفكير فى كيف نبدو للآخرين ، ما دمنا قائمين بما يجب علينا نحو أنفسنا .

درس من الجائزة

أخلفت لجنة جائزة نوبل ظنوننا السيئة هذا العام ، وفاجأتنا بالخبر السعيد ، ما أسرع ما تصدر نشرات الأنباء والتقطته مانشيتات الصحف ، تبادلنا التهانى ، فأنا لا أعرف إنسانا واحدا يعادى نجيب محفوظ ، أو يعاديه نجيب محفوظ ، وما أجمل أن يظفر الرجل ، بعد كفاح أكثر من نصف قرن في حرفة الأدب ، بالتقدير العالمى الذى يستحقه ، وفوق ذلك مبلغ طيب من المال ، يمكن أن يقارن بالجائزة التى تمنح لملاكم محترف أو لاعبة تنس محترفة بعد مباراة واحدة من المباريات الكثيرة التى تقام كل عام .

ولكننى ، بعد أن مرت على الخبر بضعة أيام ، وطلب منى « الهلال » أن أكتب كلمة بهذه المناسبة ، ساورتنى بعض الشكوك ، كما يحدث للكثيرين غيرى عقب أى نبأ سعيد ، وخاصة عندما يكون النبأ سعيدا جدا ومفاجئا جدا ، كهذا النبأ الذى جاءنا عن المجمع السويدى الشهير .

تخيلت أننا ـ جماعة من الفقراء على باب الله ـ جاءتنا دعوة لحضور حفلة تنكرية راقصة فى قصر أحد النبلاء ، شىء ولا فى الأحلام ، نلم شعثنا ونذهب ، حاسبوا يا أولاد . انتبهوا جيدا لئلا تفضحونا ، فنحن مازلنا أولئك الفقراء ساكنى الأكواخ ، حتى حين ندعى إلى قصر الأمير .

★ الهلال : ديسمبر ١٩٨٦

وما ذلك لأننا نستصغر أنفسنا ، فنحن مازلنا ـ بحمد الله ـ نملك تلك الكبرياء التى لا يشعر بها سوى الإنسان الفقير ، لأنها كل ما يملكه ، إنما الذى يزعجنا أن فى أعماقنا سؤالا ، لم نظفر له بجواب : لماذا تذكرونا هذه المرة ؟ ونحن نعلم أنهم ينظرون إلينا على أننا بشر غير كاملى الإنسانية .

وكل من لم يولد تحت سماء الغرب فهو جاهل شقى لا يحسن أن يقوم بأمر نفسه ، وقلما يقبل التعليم لأن طبعه النكد إما أن يرفض التعليم وإما أن يسخّر ما حصله منه لخدمة نزعاته الشريرة ، فهل الدعوة التى جاءتنا إلى مهرجان نوبل تعنى أنهم قرروا أن يتألفونا ، ولأى غرض ؟ وإلى أى أمد ؟

أود أن أقول لمجتمع القوم ، بكبرياء الفقير المنبوذ : كاتبنا العظيم نجيب محفوظ ليس فى حاجة إلى اعترافكم ، رواياته تدرس فى جامعة القاهرة منذ الخمسينيات ، نقادنا عرفوا قدره ورافقوه فى مسيرته الطويلة ، وأنتم ماذا قرأتم لنجيب محفوظ ؟ رواية أو روايتين ، أو ربما بضع أقاصيص ؟ أعظم أعماله : « الثلاثية » التى توجت مرحلة الواقعية ، و« الحرافيش » التى أحيت فن القاص العربى بعد عهود طويلة من التلمذة المتواضعة للغرب ، كلاهما لم يترجم بعد إلى الإنجليزية ، أو الفرنسية ! لقد اتهمت معلوماتى ، فراجعت الدكتورة سيزا قاسم صاحبة البحث القيم عن الثلاثية ، الذى نالت به درجة الدكتوراة من جامعة القاهرة ، فأكدت لى صحة هذه المعلومات ، وزادت عليها أن ترجمة فرنسية للجزء الأول من الثلاثية ظهرت منذ وقت قريب .

وسمعت أن اللجنة نوهت برواية « أولاد حارتنا » ، ولعلها الرواية الوحيدة التى قرأوها له ، ولعل معنى هذا التنويه أن الروائى العربى منح الجائزة عن هذه الرواية (والعادة فى جائزة نوبل أن تربط بعمل أساسى واحد) .

أنا لا أريد أيها الأصدقاء أن أكون صوتا ناشزا فى جوقة الفرح ، ولكننى لا أريد أيضا أن يربط أحد ، فى الشرق أو فى الغرب ، اسم نجيب محفوظ باسم باسترناك أو سولجنتسن ، لا تقليلا من قيمة هذين الروائيين الكبيرين بل لأن مثل هذا الربط يحمل دلالات كريهة .

وحسنا فعلت مصر الرسمية ومصر المثقفة حين أعلنت سعادتها بمنح جائزة نوبل لنجيب محفوظ ، إذا كان القصد من هذا الإعلان أن يعلم العالم أن نجيب محفوظ لم ينبذ ، ولم توصد أمامه أبواب النشر ، لأنه كتب « أولاد حارتنا » . حسنا فعلت إذا كانت تعنى بهذا الترحيب أن منع نشر « أولاد حارتنا » كان عملا سياسيا ، اضطرت إليه مصر الثقافة ، مصر الفن ، فى وقت من الأوقات اتقاء لفتنة فئة جاهلة متعصبة .

يستنكر بعض الأدباء أن تبقى « أولاد حارتنا » محظورا تداولها فى مصر بالذات ، بينما تقام الأفراح والليالى الملاح لكاتبها الذى منح جائزة نوبل من أجلها ! وكأنهم يرون أن الإفراج عن هذه الرواية يصحح الموقف .

وأقول : على رسلكم ! لا نريد ، وبكل تأكيد لا يريد نجيب محفوظ ، أن يأتى أمر الإفراج من إحدى عواصم الشمال .

إذا كان للجنوب أن يتحرر ، فعليه أن يتحرر من داخله .

إذا كان للجنوب أن يتعلم ، فعلى متعلميه أن يعلموا جهاله .

إذا كان للجنوب أن ينبذ التعصب ، ويستقبل النور ، فعلى أهله أن يتحاوروا بالحسنى ، وعلى كل صاحب دعوة أن يعلم نفسه ، قبل أن يتصدى لتعليم غيره .

من تاريخ الحكم « المصرى الإنجليزى » فى السودان الشقيق ، أن نائب « المأمور » المصرى كان يأخذ أهل البلاد بالشدة تنفيذا لتعليمات رئيسه « المأمور » الإنجليزى ، فإذا شعر السودانيون بالظلم لجئوا إلى المأمور الإنجليزى ، فيرفع عنهم أحكام مرءوسه المصرى ! وهكذا كره السودانيون المصريين ، وأحبوا الانجليز .

مغزى القصة لا يحتاج إلى شرح ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

نحن والغرب والمشروع القومى

فوجئنا ، فى الشهر الأخير ، بأحداث لم تكن فى حسبان أحد . وبين كتابة هذه الكلمات وقراءتها ستمضى الأحداث فى اندفاعها المخيف . لعل أحدا فى العالم ـ عدا صناع الحدث أنفسهم ـ لم يكن يتوقع أن يجرى ماجرى ، أما الآن فحتى صناع الحدث لايستطيعون التنبؤ بما سيجرى . وفى مثل هذه الأوقات العصيبة لايكون التنبؤ سوى مشغلة سخيفة ، أو تنفيس عن أعصاب مضطربة ، ويصبح الموقف الوحيد الذى يليق بالإنسان هو التأمل فيما جرى ، وربطه بجذوره العميقة ، والخروج بدليل عمل لما يجب عليه القيام به ، هنا والآن ، هذا إذا لم يرد أن يقع صريعا تحت عجلة الأحداث ، وعندما أتحدث فى مثل هذا الموقف عن « الإنسان » فأنا أعنى كل إنسان عربى بمفرده ، وأعنى العرب مجتمعين ، فهذه لحظة من اللحظات التاريخية النادرة التى توقد شعلة فى الضمائر الحية تقول : إنه لاحياة للفرد بدون الجماعة ، ولا حياة للجماعة بدون الفرد .

هذه الشعلة أراها الآن ـ تحت مظاهر الخلاف ـ تتوهج فى النفوس العربية من المحيط إلى الخليج ، لا فرق بين فقير وغنى ، أو حاكم ومحكوم .

وليس مايجرى الآن فى العالم العربى انتكاسة أو انهيارا . إنه على العكس ، تطور حاسم وعظيم ، فقط نحتاج إلى أن نفهم معناه !

المظاهرات التى خرجت تؤيد هذا الفريق أو ذاك ، إنما تطالب فى الحقيقة بشىء واحد ، وتقرر حقيقة واحدة !

أما الحقيقة فهى أن العرب أمة واحدة ، وأما المطلب فهو أن يكون لهذه الأمة كيانها المستقل عن كيان الغرب ، وسياستها المستقلة عن سياسة الغرب ، وإرادتها المستقلة عن إرادة الغرب .

هذه الشعوب التى زعموها ماتت ، تنتفض اليوم أشد ماتكون حياة .

والاتصالات المستمرة بين الحكام ، اتفقوا أم اختلفوا ، تعنى شعور الجميع بضرورة الوحدة .

إنما الصدع هو أن طريق الوحدة لم يتضح بعد عند الجميع . فهو عند أحد الفريقين مبنى على وهم ، وعند الفريق الآخر محجوب وراء صخور الماضى ، مغلف بضباب الخوف على مصالح شخصية هى بطبيعتها غير مضمونة .

فأما الوهم ـ وهذا أوان المصارحة ولو كانت مُرة ! ـ فهو أن السواد الأعظم من الشعوب العربية مازالت تحلم بالبطل المنقذ ، القائد الملهم ، الذى يعيد إليها حقوقها المغصوبة ، ويشهر سيفه العربى فى وجه الغرب المعتدى . ومازالت أسطورة صلاح الدين ، التى تغنى بها ألف شاعر وناثر ، تلهب خيال الجماهير ، وتلقى على أبصارهم غشاوة أن يبصروا عالم اليوم ، ولعلهم لايفهمون أيضا معنى بطولة صلاح الدين ، فى عصر صلاح الدين . وهم معذورون لأن الحكام المحافظين لايقدمون إليهم طريقا آخر للحرية والوحدة ، ولأن المثقفين الذين يعدون انفسهم ثوريين ، أغرقوهم فى سيل من الكلام ، وشغلوهم بخلافات غامضة ، وقضايا بعيدة عن واقعهم ، فأصبحت أشد الشعارات بساطة هى أقدرها على التأثير فيهم ، لأنها تخاطب فيهم العاطفة ولاتخاطب الفكر .

وأما الطريق الآخر ، الطريق الرسمى ، فيريد وحدة لاتمس الكيانات القائمة ، ولاتتناول نظام الحكم ، ولاتطرح أهدافا قومية ، ولاخططا مشتركة . فهى وحدة اسمية تمثلت فى واجهات ليس

وراءها عمل ، ابتداء من الجامعة العربية إلى « الاتحادات » الإقليمية المعروفة . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن من مزايا الأزمة الحالية أنها أحرقت هذا الزيف كله ، فإما وحدة وإما لا وحدة ولتدخر كل حكومة من الحكومات العربية المشتركة فى هذه اللعبة ، رجالها وأموالها لما هو أنفع .

ولكن هل ثمة ماهو أنفع من وحدة عربية شاملة تضمن لكل شعب عربى ولكل فرد عربى أمنه وسلامته ؟ لقد أثبتت الأحداث حتى من قبل الأزمة العراقية الكويتية الأخيرة ، أن الأمن والرفاهية لايتحققان بالمقدرة المالية وحدها . فدول الخليج العربى الصغيرة الغنية تبدو فريسة سهلة ، بقدر ما هى غنية ، لكل طامع . والطامع الأكبر هو الغرب بدون شك .

ومن ثم فقد يبدو حكام هذه الدول أمام الشعوب - حتى شعوبهم هم أنفسهم - مفرطين بل خائنين إذا هم ظلوا مترددين فى تنفيذ هذه الوحدة التى هى السبيل الذى لاسبيل غيره للتخلص من سيطرة الغرب . هى إذن وحدة طوعية يمكنهم أن يقدموا عليها مطمئنين ، مرضيين من ربهم ومن شعوبهم وشعوب الأمة العربية كافة . بل هى الضمان الصحيح لبقائهم وبقاء عروشهم وامتيازاتهم ، وقد عرفوا ، من تجارب سابقة ملاصقة لهم ، أن « الغرب » صديق لا يؤتمن !

وبما أن الوحدة هى أساسا مطلب شعبى ، فيجب أن توضع دولة الوحدة فى يد شعوب الأمة العربية ، بعبارة أخرى : يجب أن يكون لهذه الدولة الموحدة نظام سياسى واحد ، وهو النظام الديمقراطى . والنظام الديمقراطى مطلب لايقل أهمية لدى القيادات الشعبية الرشيدة فى مختلف أقطار العالم العربى ، عن مطلب الوحدة ، بل لعله أهم ، ولعله قد وضح الآن لهذه القيادات أن الوحدة سند ضرورى للديمقراطية ، كما أن الديمقراطية شرط لازم للوحدة .

ولعل الأحداث الأخيرة لم تمح من ذاكرتنا أن الكويت شهدت

قبلها بقليل معركة طويلة فى سبيل الديمقراطية . ولعلنا نذكر أيضا أن المعارضة الديمقراطية وقفت موقفا نبيلا حين غزيت الكويت ، فرفضت أن تتعاون مع الغازى وان كان جارا وشقيقا عربيا ، ووردت بعض الانباء بأن زعيم المعارضة دفع ثمنا لهذا العناد حياته نفسها . فطريق الديمقراطية غير طريق العنف . وقد تعلم الديموقراطيون من تجارب الماضى القريب أن الانقلاب الشامل المفاجىء الذى يمكن أن تقوم به فئة قليلة أو يعتمد على شخصية زعيم أوحد ، لايلبث أن يتطرق إليه الفساد والانحلال ، وأن التطور السريع فى ظل الشرعية الديمقراطية أسلم عاقبة وأبقى أثرا . ولعل الحكام التقليديين ـ من جهتهم ـ قد ثبت لديهم أن الخطر لايأتيهم من قبل الطلائع الديموقراطية الواعية فى بلادهم ، التى يعدونها بـ « الشورى » منذ سنين كثيرة ، ويؤجلون تنفيذ هذا الوعد لأسباب مختلفة ، بل من قبل أجنبى طامع ، أو انقلابى طامح ، أو من قبل « جهيمان » وأمثال جهيمان .

وقد تعمدت أن أتكلم عن الديموقراطية وأضع الشورى بين أقواس . فالشورى « مبدأ » إسلامى ، والديموقراطية «نظام» سياسى ، والفرق بين المبدأ والنظام لايخفى على أحد . فالمبدأ ثابت باق ، ولهذا فهو صالح لأن يفسر تفسيرات كثيرة ، ويترجم بنظم مختلفة ، والديموقراطية هى أصح هذه التفاسير وأقوم هذه النظم حتى الآن ، وإن لم تكن خالية من العيوب ، ولكن هذه العيوب لاتدعو إلى نبذها ، واللجوء إلى كلام عام مبهم عن الشورى .

أقول هذا وأمامى واقع العالم العربى يقول بأفصح بيان : إن الوحدة المنشودة لايكفى أن تكون ديموقراطية فحسب بل يجب أن تكون إسلامية أيضا ، ولعل هذا الوصف الأخير يثير أكبر قدر من الشك ، فقد اقترن بفضل نشاط فئات متطرفة هنا وهناك ـ بفكرة الإرهاب ، والخوف من تسلط أقلية جاهلة متعصبة على كل صغيرة وكبيرة فى حياة ملايين البشر العاديين فى مختلف الأقطار العربية ، ومعظم سكانها مسلمون ، وفيها أيضا طوائف دينية

مختلفة لايستهان بعددها ولابقدراتها .

ولكن هذه الأقلية الجاهلة المتعصبة لاتمثل الفكرة الإسلامية في جوهرها . فمعظم المسلمين في الأقطار العربية يجدون في الإسلام طبا لأرواحهم وقيما على سلوكهم . وقد كان أسلافنا يقولون : إن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن . ولكن أى إنسان ذلك الذى لايفعل شيئا ولايدع فعل شيء إلا طمعا في مكافأة أو خوفا من عقوبة ؟ إن أى نظام ـ ولو كان النظام الديموقراطى ـ لا يستغنى عن ركيزة روحية يقوم عليها كيان الفرد ، وتمتد منها وشائج التعاون والمحبة بين الأفراد .

وبهذا الفهم الغريزى للإسلام ، تتوجه نحوه قلوب الملايين في الشعوب العربية أملا في حياة أفضل .. وما أظن إلا أن أكثرهم يفهمون الحكومة الإسلامية . بهذا المعنى . وإنما الخوف من وقوع بعضهم تحت سيطرة الجهلاء الذين يدعون العلم بالدين ، وتتملكهم شهوة السيطرة والتحكم في عباد الله ، إن لم تكن فيهم نزعات إجرامية تتخذ شكل الدين كما يمكن أن تتخذ أى شكل آخر . فالأخذ على أيدى هذه القلة المريضة ـ إن لم يكن علاجها بالرفق ـ ينبغى ألا يكون سببا في حرمان أكثرية المؤمنين من صفة يرونها جوهر وجودهم الاجتماعى ، وهى كونهم مواطنين في دولة إسلامية .

ولمن يسمون أنفسهم بالعلمانيين أقول : لا بأس عليكم فأنتم أيضا إسلاميون ! وحجتكم البالغة قول نبى الإسلام ، صلى الله عليه وسلم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » !

ولمن يخافون من تطبيق الحدود ، أقول : لا بأس عليكم أيضا ، فالحدود في الإسلام اختيارية ، وقد كان من أهل الصدر الأول من لم يتشدد في تطبيق الحدود ، والذين يحتجون علينا بقوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » عليهم أن يقرءوا الآية من أولها ، حيث ورد بعد ذكر القصاص : « فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (المائدة/ ٤٥)

وليس هذا مقام نقاش فى هذه القضايا الكبيرة الشائكة ، ولكننا نرجو فقط أن يسلم بمبدأ النقاش ، وألا يسرع صاحب الرأى إلى السلاح يفرض به رأيه ، وأن يتذكر المبدأ القويم الرحيم : « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

× × ×

ولابد أن يقوم سؤال : هل يسكت علينا الغرب حتى نقيم هذه الوحدة ؟

وهو سؤال وجيه . فتاريخ الغرب ، ولاسيما الولايات المتحدة ، فى تشجيع دولة إسرائيل على سياستها العدوانية المستمرة ، أو السكوت على هذه السياسة ، أو - فى أحسن الأحوال - تأنيبها برفق ، تأنيبا لايرد عدوانها ، وإنما يقصد به تطييب خاطر الأصدقاء العرب ، تاريخ أسود .

ولكن الانتفاضة الفلسطينية أبرزت حقيقة جديدة ، كما أن الاجتياح العراقى للكويت أبرز حقيقة جديدة أخرى .

فأما الانتفاضة فقد هزت ضمائر الشعوب فى الغرب ، وللشعوب فى دول الغرب الديموقراطية تأثير قوى فى توجه حكوماتها ، ومن هنا كانت قرارات تلك الحكومات بتشجيع المعاملات التجارية مع الضفة الغربية وقطاع غزة بمعزل عن الهيمنة الإسرائيلية ، وقراراتها برصد مبالغ قيمة للمعونات الإنسانية للفلسطينيين . وهكذا بدأ وجه إسرائيل القبيح يظهر للعالم ، وكانت هذه هى البداية الصحيحة لحصول الشعب الفلسطينى على حقوقه كاملة . وما حديث مانديلا والمؤتمر الأفريقى عنك ببعيد .

وأما الاجتياح العراقى للكويت فقد أظهر لأول مرة أن الحكومة العالمية بدأت بالفعل . فقد اتخذ مجلس الأمن ثلاثة قرارات بالادانة ومعاقبة المعتدى لم يعارضها أحد ، ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية بدت متحمسة أكثر مما ينبغى لوضع هذه القرارات موضع التنفيذ ، فإن حرصها على تأمين موافقة دولية على الخطوات التى اتخذتها دليل على أنها مهما بلغ من قوتها

وسلطانها ـ ليست الأمر الناهى فى مصاير شعوب العالم . وهذه عبرة يستخلصها الأحرار فى كل مكان ، ويستشفون منها صورة المستقبل .

وظهر أيضا أن التناقض بين الدولتين العظميين قد زال أو هو فى طريقه إلى الزوال ، ومن ثم لم يعد ممكنا أن تلعب الدول الصغرى على هذا التناقض ، وأصبح من الضرورى أن يطرح العرب مشروعهم القومى بطريقة مختلفة .

فالعرب الذين يجلسون على مفترق طرق العالم القديم ، وفوق أضخم مخازن الطاقة فى العالم كله ، لايمكنهم أن يخوضوا صراعا مسلحا ضد الغرب ، وسيضطرون ـ إذا اختاروا طريق الصراع ـ أن يلجأوا إلى الارهاب واحتجاز الرهائن ، وسيكون لدى الغرب مايرد به على هذه الوسائل ، ولو عن طريق دولة إسرائيل ، وسينظر إلى العرب على أنهم أشرار العالم ، وبدلا من عزل الصهيونية تمهيدا لتصفيتها سيكون كل ماتقوم به إسرائيل لدحر العرب وإذلالهم مقبولا ومباركا من معظم دول العالم وشعوبه أيضا .

ليس هذا هو الدور الذى يليق بتاريخ العرب الحضارى .

ولكن دولة واحدة للعرب جميعا ، تقوم على العدالة والديموقراطية واحترام حقوق الإنسان ، وتنادى بالسلام والإخاء بين جميع شعوب العالم (بما فيها شعب إسرائيل) لن توضع فى طريقها عقبات يصعب التغلب عليها ، وسيكون فى استطاعتها بقليل من الصبر ، أن تهزم الصهيونية الباغية فى معركة السلام ، وأن تعيد إلى شعب فلسطين حقوقه الطبيعية كاملة .

قد يبدو هذا أشبه بالحلم ، ولكنه حلم قريب المنال جدا .

« إنهم يرونه بعيدا ، ونراه قريبا » .

حقا إن صورة العالم الجديد لن تكتمل إلا بعد سنين ، وربما بعد

أجيال . ولكن مكاننا فيها يجب أن يتحدد فى خلال اسابيع ، أو فى خلال أيام ! وإذا وضحت الرؤية فقد يمكن وضع دستور دولة الوحدة فى أربع وعشرين ساعة ، والاستفتاء عليه فى أسبوع !

فلنكف عن التباكى على مافات ، ولننظر إلى مايمكننا أن نفعله ، هنا والآن ، ولاتكن الحوادث أسرع من استجاباتنا ، فتقذف كلنا ، بقضنا وقضيضنا ، فى مزبلة التاريخ !

كتاب الهلال القادم

مع الايام ..

شىء من الذكريات

بقلـم

د . ابراهيم بيومى مدكور

يصدر :

٥ أكتوبر سنة ١٩٩٠

فهرس

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : Hilal.V.N 92703

رقم الايداع : ١٩٩٠ / ٥٨٤٣
I · S · B · N
977 — 07 — 0017 — 7

هذا الكتاب

المقالات التى يضمها هذا الكتاب محاولة جادة لفهم الغرب ، فهم موقفه منا ، وموقفنا منه .

والموقف فى الحالتين ، فكرى ونفسى قبل أن يتخذ شكل قرار سياسى . وقد لا يكون من السهل أن نغير موقف الغرب منا إلا إذا بدأنا نحن فغيرنا موقفنا منه . إن موقفنا النفسى من الغرب مزيج من العداوة والاعجاب ، من الشعور بالاختلاف والرغبة فى الغرب . والخلفية التاريخية والواقع المعاصر لهذه العقدة المستعصية يعالجان هنا بموضوعية كاملة . لعلنا أحوج ما نكون اليها فى هذه الآونة بالذات .

كتاب
الهلال

د. إبراهيم بيومي مدكور

مع الأيام

من الذكريات



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

العدد ٤٧٨ ـ ربيع أول ـ اكتوبر ١٩٩٠

المكاتبات ص ب ٦١٠ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ

تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 HILAL U.N.

فاكس : FAX 3625469 .

مكتب الاسكندرية : ٢٥ شارع النبى دانيال ـ ت : ٤٩١٢٦٩٦ / ٤٩٢٤٧٢٠

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٥٠ قرشا .

لبنان : ١٧٥٠ ليرة ، الاردن : ١٠٠٠ فلس ، الكويت . ١٠٠٠ فلس ، العراق ٢ دينار ، السعودية : ١٠ ريالات ، البحرين : ١٢٠٠ فلس ، الدوحة : ٨ ريالات ، دبى : ٨ دراهم ، ابوظبى : ٨ دراهم ، مسقط : ٨٠٠ بيسة ، تونس : ١٦٥٠ مليما ، المغرب : ٢٠ درهما ، غزة والضفة : ١٢٥ سنتا ، الجمهورية العربية اليمنية : ٨ ريالات ، جمهورية اليمن الديمقراطية : ٢ دولار ، ايطاليا : ٣٠٠٠ ليرة ، لندن : ١٫٥٠ جك .

الغلاف تصميم الفنان
محمد أبو طالب

مع الأيام

شيء من الذكريات

بقلم

د. ابراهيم بيومي مدكور

دار الهلال

تقديم

مع الأيام
شىء من الذكريات

شىء من التاريخ

إنه تاريخ القرن العشرين ، الذى ولدت فى فجره ، وتابعت أحداثه حتى اليوم ، وأسهمت فى قدر منها ، وهو كما يبدو تاريخ معاصر ، وتسجيل التاريخ المعاصر ليس بالأمر الهين ، لأنه شهادة يجب أن تؤدى على وجهها ، وما أضرها إذا تحكمت فيها الميول والأهواء ، أو إذا خضعت لعوامل التقرب والزلفى .

ويمتاز عصرنا بسرعة سيره ، وتوالى أحداثه ، وقليلا ما نحاول أن نسجلها فى حينها ، واذا عدنا اليها بعد زمن فقد تخوننا الذاكرة .

وكثيرا ما نستسهل معالجة الماضى البعيد ، ونتحاشى أن نعرض لما يتم فى جيلنا أو فى الأجيال التى سبقتنا ، واذا كنا نستمد من الماضى البعيد عبرة ، فإن فى الماضى القريب ما يعيننا على تدارك نقص ، وإنجاز ما لم يتم انجازه .

ولهذا كله ، رأيت أن أستعرض شيئا مما عشت فيه ، أو وقفت عليه ، لارغبة فى ترجمة ذاتية ، أو فى تنويه بعمل كان لى فيه إسهام .

وسأتابع ذلك ، خطوة خطوة ، سيرا مع الأيام ، ومحاولا أن استخلص ما يمكن أن يستفاد من دروس .

د . إبراهيم مدكور

الباب الأول :

عهد الصبا والشباب

الفصل الأول :

أبو النمرس : قرية على بعد كيلو مترات من القاهرة

إنها قريتى التي نشأت فيها ، وتابعت نموها وتطورها ، ودون أن أعرض لاسمها ، أحب أن أشير فقط إلى إنها عرفت في القطر كله بتجارة خاصة هى تجارة « النمرسى » ويعنى بها أدوات المنزل المصنوعة من الصينى أو الزجاج ، وأعتقد أن « أبو النمرس » عرفت ببنيها العاديين أكثر مما عرفت بكبار رجالها ، وكثيرا ما لفت نظر الجالسين على مقهى « بار اللواء » ـ مثلا ـ فى النصف الأول من هذا القرن ، شباب متحرك نشط ، يعرض بضاعته وينجح غالبا فى بيعها ، ومما يسر أمر هذه التجارة أن شباب أبناء « أبو النمرس » وجدوا فى القاهرة لدى بعض أقاربهم أو معارفهم من أهل قريتهم سندا لهم أعانهم على الحصول على بضاعتهم دون حاجة إلى دفع مقدم احيانا ، وإذا ما نجح الشاب فى مهمته ، سدد كل مايستحق عليه ، ولاسبيل له لأن يتلاعب ، لأن عمه أو خاله صاحب المتجر يعرفه ، ويعرف أسرته .

وكان لتجارة « النمرسى » هذه شأن لفت أنظار الجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد لقيت فى « أبو النمرس » ضابطا بريطانيا يبحث عن مصانع الصينى

والزجاج فيها لكى يتعاقد معها ، وأدهشه أن الأمر مجرد تجارة .

لقد عرفت « أبو النمرس » أول ماعرفتها ، قرية صغيرة لايجاوز عدد سكانها بضعة آلاف ، حدود الخمسة أو الستة ، وهى موزعة بين أسر محدودة أيضا ، ولكل أسرة حيها أو دربها ، كما يسمونه ، وما أشبه هذه التجمعات بالحياة القبلية لدى جماعة البدو ، فأبناء العمومة وأبناء الخئولة يتلاقون ويتعاونون ، ولهم دار كبيرة ، تجمع بينهم جميعا فى مناسبات خاصة ، ولم تلبث هذه القرية الصغيرة أن نمت على مر الزمن ، نمت حضاريا وعمرانيا ، كما نمت ثقافيا وتعليميا ، وصحيا واجتماعيا .

فمن الناحية العمرانية ، أخذت الأحياء أو الدروب الصغيرة تنتشر فيها حول المبانى القديمة ، وأضيف إلى القرية القديمة مساكن ، شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، ونما العمران فيها نموا ملحوظا فى الستين سنة الأخيرة ، إلى درجة أن مساحتها المسكونة الآن تكاد تصل إلى عشرة أمثال المساحة القديمة ، واستلزم هذا النمو العمرانى ، نموا فى بعض الخدمات ، فلم يكن للقرية القديمة إلا مسجدان واصبح فيها اليوم خمسة مساجد ، وتضاعف عدد السكان ، وزاد زيادة كبيرة ، عن طريق أبناء القرية أنفسهم أو عمن رحل اليهم وعاش معهم واصبح جزءا منهم ، ولايقل عدد سكان هذه القرية التى اصبحت اليوم مدينة عن خمسين ألف نسمة .

وتحولت القرية الصغيرة الى مدينة ، فيها قسم من أقسام البوليس ، يشرف عليها وعلى بعض القرى المجاورة ، وإلى

جانب هذا النمو ، الحضارى والعمرانى ، نرى نموا آخر تعليميا وثقافيا ، ففى العقد الأول من هذا القرن ، لم تكن « أبو النمرس » تعرف شيئا إلا كُتَّاب القرية ، وربما تعددت هذه الكتاتيب ، ولكنها كانت محدودة النطاق ، بحيث لايزيد تلاميذ كل كتاب عن خمسة عشر تلميذا ، وفى العقد الثانى حلت المدرسة الأولية او الالزامية محل كتاب القرية ، وكانت « أبو النمرس » أولى القرى المجاورة فى إنشاء مدرسة أولية فتحت أبوابها لبنيها ، ولمن يسعى إليها من ابناء القرى المجاورة .

وفى العقد الرابع من هذا القرن تحولت المدرسة الأولية إلى مدرسة ابتدائية بل الى مدارس ، وتنوعت هذه المدارس الابتدائية ، ففيها مدرسة للبنين ، وأخرى للبنات ، وانتقل الأمر الى المدرسة الاعدادية ، ثم انتهى الى المدرسة الثانوية ، سيل تعليمى وثقافى متواصل ومتلاحق فتح أبواب التعليم العالى والجامعى لأبناء « أبو النمرس » جميعا . وحصل عدد غير قليل منهم على ألقاب جامعية مختلفة ، فاتجه منهم من اتجه نحو التعليم النظرى أو نحو التعليم العملى .

وصاحب هذا النهوض ، التعليمى والثقافى ، نهوض صحى واجتماعى أيضا ، ففى العقد الأول من هذا القرن لم تكن « أبو النمرس » تعرف إلا حلاّق الصحة ، ومولدة القرية ، وفى أخريات العقد الرابع من هذا القرن ، انشىء فيها مركز اجتماعى فيه خدمات صحية واجتماعية ، ثم أنشىء مستشفى صغير للعلاج والتطبيب ، وسينمو بدوره ، لكى يصبح مستشفى المدينة ، بعد ان كان مستشفى القرية ، والى جانب المستشفى والمركز الاجتماعى ، عيادات أهلية متخصصة للطفولة أو لأمراض أخرى :

ولاشك فى أن هذا التطور يبعث على الأمل والتفاؤل ، وماهو الا نموذج لأمثلة أخرى تمت في بعض قرى مصر شمالا وجنوبا .

وكم يذكرنى هذا التطور بما كان عليه ريفنا فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين ، فقد طغت عليه بعض المدن فى الشمال أو الجنوب ، وأهمل إهمالا تاما فيما عداها من قرى ونجوع ، وأذكر انى اثناء عودتى من بعثتى فى اوروبا عام خمسة وثلاثين ، صادفتنى على الباخرة سائحة فرنسية ، وتبادلنا الحديث عن جمال الريف الفرنسى ، ولم تتردد محدثتى فى أن تقول : أتوقع أن يكون ريفكم فى ظروفه المناخية والجغرافية أجمل من ريفنا ، ورددت عليها بأن اللمسات الحضارية لم تمتد بعد الى هذا الريف ، ومتابعة لرحلتها الى القاهرة ركبت معى فى قطار واحد ، وألقت نظرة يمينا وشمالا ، وقالت جملة مازلت أذكرها : « أين الريف المصرى » ؟

والواقع انه في ذلك التاريخ لم يكن هناك ريف فعلا ، ولم يكن من يفكر فيه ، ولعل هذا هو الذى ربطنى بموضوع المراكز الاجتماعية التى دعا اليها قسم الفلاح بوزارة الشئون الاجتماعية ، عام تسعة وثلاثين ، وقنعنا بإنشاء أربعة منها فى القطر كله ، لكى تكون تجربة نستطيع أن نتوسع فيها ، وحظيت « أبو النمرس » بواحد من هذه المراكز الأربعة ، أملا أن يكون فى قربها ما يعين على متابعة التجربة وتدارك النقص فيها ، وأشهد أن مركز « أبو النمرس » للخدمة الاجتماعية ، الذى أنشىء عام تسعة وثلاثين ، بدأ بدءا حسنا ، وسار فى طريقه سيرا يدعو إلى التفاؤل ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى

من تعهدوه ، من مشرف اجتماعی ، وطبيب نشيط ، والنجاح والفشل يرجعان أساسا إلى المنفذين والمشرفين .

وكنت أود أن يكون هذا المركز باعثا على متابعة التجربة ، ونشرها فی قرى الريف المختلفة ، وإن كان الايمان بالريف غير ملحوظ بدرجة كافية ، هذا الى انه شغلتنا شواغل أخرى ، وأخصها حرب فلسطين ، وبقينا حتى عام ثلاثة وخمسين عند عدد محدود من هذه المراكز ، بعضها حكومی ، وبعضها الآخر أهلی .

وخطونا بالريف خطوة أخرى فی الماء والنور ، وهما خطوتان موفقتان ، ولهما أثرهما الواضح فی الرقی الصحی والحضاری ، وتكملهما الطرق العامة ، والمرافق الأخرى ، واعتقد أن ما تم فی عشر السنوات الأخيرة يبعث على الأمل .

وبدأنا نحس فعلا بأثر الحكم المحلی ؛ فخرجنا من مركزية العاصمة الى عواصم أخرى ، تحس بوجودها ، وتتنافس فی أداء رسالتها ، وعلى السادة محافظی الأقاليم عبء ثقيل فی تعهد قرى محافظاتهم ومدنها ، وهم بحمد الله سائرون . واذا كنا قد خرجنا من مركزية العاصمة الكبرى الى المحافظات ، والى المدن الكبرى فی شتى المحافظات ، فانی أود ألا نقع فی مركزية جديدة ، هی مركزية عاصمة المحافظة ، وفی وسع كل محافظ أن يستعين بالجهود الذاتية ، وبالقيادات المختلفة فی جميع انحاء محافظته ، والعبء ثقيل .. والنهوض متعدد النواحی ، ومن الخير أن يضطلع به كل من هو أهل له .

وقد قلنا بالمجالس القروية ، الى جانب مجلس المحافظة والمركز ، وأود أن يكون لمجلس القرية وجود حقيقی ، ورسالة

ملحوظة ، وقد عشت فى العقدين الثانى والثالث من هذا القرن مع مايمكن أن نسميه « مجلس قرية أبو النمرس » الذى كان مكونا من بعض رءوس العائلات ، دون أن ينصبهم الحاكم الأعلى ، أو أن ينتخبهم الجمهور. وكانت لهم لقاءات منتظمة ، عصر كل يوم ، تجمع بين شيوخ الأسر المختلفة ، فيتذاكرون فى بعض المشاكل ، وفى شىء من ضروب الاصلاح ، ولم يعز عليهم قط حل مشكلة ، ولم أشعر فى مجالسهم بمؤيدين ومعارضين ، فهل لنا أن نكون مجلس قرية اليوم فيه شىء من هذه الصورة ؟ واستطيع أن أقرر أن شيوخ قرية « أبو النمرس » - وكان عددهم لايزيد على عشرة - لم يَدَعُوا خصومة إلا فضوها ، ولا خلافا الا قضوا عليه ، وعُرفت قريتهم بالسلام والمسالمة ، وبالانتماء القوى اليها ، واحسوا حقيقة بأن ذلك واجبهم ، أدوْه عن طيب خاطر ، وسعدوا بنشر روح الوئام والسلام ، أنا أعرف أن الشباب يجب ان يساهم فى هذه الجهود ، ومن المصلحة أن يفتح الطريق أمامه ، مادام يؤمن بالخدمة العامة ، ويرحب بها ، ولعل هذه هى الناحية التى تحتاج الى تربية متصلة فى البيت والمدرسة ، وملخصها رعاية الضعفاء والمحتاجين ، ومعاملة المواطنين على قدم المساواة ، ومحاربة شهوة النفوذ والسلطان ، أو الكسب والاستفادة .

وفى تجربة « أبو النمرس » مايحملنى على أن أوجه النظر إلى أمر آخر ، يجب أن نرعاه فى نهوضنا وعمراننا ، سواء فيما يتعلق بالقرى القديمة أو القرى الجديدة ، ذلك الأمر هو أن نخطط لما يراد إنشاؤه ، تخطيطا ينزل عنده جميع المنتفعين على السواء ، ويخضع لرقابة متصلة ، ذلك لأن الأرض أصبحت تضيق بنا ، وإذا أحكمنا تخطيطها وفرنا منها

الشيء الكثير ، وها نحن أولاء قد اتجهنا أخيرا نحو الصحراء الشرقية والغربية ، وعلينا أن نتوسع فى ذلك شمالا وجنوبا ، ويكفى أن اذكر بهذه المناسبة « مصر الجديدة » ، التى اصبحت حقيقة مدينة قائمة بذاتها ، مستكملة لكِل مرافقها ، ولم نَعْدُ فيها لاعلى حقل ولا على مزرعة ، وأملى كبير فى أن نرى قريبا « مدينة المقطم » أو مدينة الأهرام ، وقد اتسع صدرها لمساكن ومرافق مخططة ومدروسة ، والصحراء الغربية أفسح صدرا وأوسع مجالا وها نحن أولاء ننشيء فيها مدنا جديدة ، ستثبت وجودها يوما ما ، وقد تطلَّب استكمال مدينة « مصر الجديدة » نحو قرن تقريبا .

الفصل الثانى :

الأسرة الكبيرة

مجتمع ينتمى إلى جد أعلى ، ويحمل اسمه ، ويرتبط أفراده بلحمة الدم أو النسب ويسمى « الأسر الأبوية » ولعله أول صورة من صور التجمعات البشرية ، وعنه نشأت القبيلة والنجع والقرية والمدينة ، ويحرص أفراد هذه الأسرة الكبيرة على أن يكون بعضهم إلى جانب بعض فيسكنون دارا واحدة ، إن اتسعت لهم ، أو يبنون دورا متجاورة ، والشعور بالقرابة والانتماء عندهم قوى واضح ، ولرب هذه الأسرة نفوذه وسلطانه ، نفوذه فى الداخل ، فيشعر أفراد الاسرة جميعا باحترام صادق له ، ونزول عندما يأمر به أو يوجه اليه ، ونفوذه فى الخارج يعطيه الحق فى أن يتكلم باسم الأسرة دون أن يخرج أحد من أفرادها على كلمته ، وهؤلاء الأفراد متعاونون متضافرون اقتصاديا واجتماعيا ، ومتمسكون بصلة القرابة فى زواجهم وتكاثرهم ، ومن الأسرات الكبيرة ما كان له تاريخ فى حياة أمة أو مجتمع قديما وحديثا ، وربما دب الفساد فى بعض افراد هذه الاسرة فكان شيخها وربها كفيلا بجمع الكلمة وتوحيد الصفوف .

وقد عاشت هذه الأسرة الكبيرة معنا فى تاريخنا المعاصر

وحتى منتصف القرن العشرين ، عاشت فى الريف كما عاشت فى المدينة ، وعرفنا فى القرية بيت الأسرة الكبير الذى يعيش فيه أبناؤها أو يلتقون فيه كلما دعا الأمر ، وعرفناه فى المدينة أيضا ، وفى القاهرة أسر كبيرة عرفت فى اوائل هذا القرن بتخصصها فى نشاط تجارى أو صناعى معين ، وسكن افرادها البالغ عددهم أحيانا نحو المائة أو يزيد ، فى دار واحدة .

وقد نشأت في أسرة من هذه الأسر الكبيرة التى ضمت نحو ستين فردا بين أجدادٍ وأبناءٍ وأحفادٍ ، فتلاقت فيها أجيال ثلاثة ، على الأقل ، وقد تزيد على ذلك وكان رب الأسرة مسئولا عن بنيه جميعا ، يحرص كل الحرص على ان يتناولوا معه طعام الغذاء والعشاء .

وفى هذه الصلة ما ربط القلوب وحقق الرعاية ، ففتح رب الأسرة الباب أمام اعضائها تعليما وتثقيفا وسلك بهم مسالك الانتاج زراعيا أو تجاريا ، ولازلت أذكر حفل زفاف فى هذه الأسرة الكبيرة جمع بين خمسة من أبنائها ، أخوان لرب الأسرة وثلاثة من أبنائه ، وأقام كل هؤلاء فى دارهم الفسيحة ، وبعد زمن تطلع بعضهم إلى أن يكون له مسكن خاص ، ولم يتردد رب الأسرة فى أن يعاونهم على ذلك ، وأنشأ لكل واحد من أخويه دارا خاصة به ، ولاتزال الدار الكبيرة التى جمعت افراد هذه الأسرة على وضعها القديم ، وإن خرج منها قدر غير قليل من سكانها ، وبقى من بقى خاضعا للتطور الاجتماعى الشامل الذى انتقل من الأسرة الكبيرة الكثيرة العدد الى الاسرة الزوجية المحدودة الافراد ،

واصبحت الاسرة الكبيرة أو الأبوية فى حكم التاريخ ولم يبق منها إلا بقايا هى قَطْعاً إلى زوال .

والأسرة الزوجية المكونة من الأب والأم وأولادهما هى أسرة اليوم والغد ولاسبيل أن نعود إلى الوراء مرة أخرى ، لكنا نود لهذه الأسرة أن تؤدى رسالتها على وجهها وأن يحس ربها بمسئوليته إحساس رب الأسرة الكبيرة الذى أشرنا اليه من قبل ، فيقترب من بنيها ، ويرعاهم ويشملهم بعطفه كلما كانوا فى حاجة اليه ، وهى كما قالوا « اللبنة الأولى فى بناء المجتمع » وزحمة الحياة ربما صرفت الأبوين على أداء هذه الرسالة ، ولكنه تقصير لايغفر ، وسيندمون عليه يوم لاينفع الندم ، ومسئولية الأب والأم فى تنشئة بنيهما تفوق كل مسئولية .

ويلاحظ أن الأسرة تحاول أحيانا أن تلقى عبء هذه التنشئة كله على المدرسة ، وهذا خطأ واضح ، فهناك جوانب إن لم يرعها الأب والأم فلن يستطيع أحد سواهما أن يرعاها ، وقد قيل : « من لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار » . وأدب الليل والنهار غالى الثمن ، وبعيد المنال .

فالتربية الروحية ، والتربية الأخلاقية يجب ان تنبت فى البيت الأول ، واذا لم يحقق الأبوان فى ذلك قدوة عملية صالحة فلن يستطيع أحد سواهما أن يحققها .

ومرحلة الطفولة أضحت قصيرة ، ولكنها ـ نظرا لقصرها ـ تتطلب قدرا أكبر من الرعاية ، وتليها مرحلة أخرى بين التاسعة والثالثة عشرة ، وهى مرحلة حرجة تتطلب يقظة من الأبوين ، ووقوفا على نوع الأصدقاء والزملاء الذين يخالطون

الأبناء والبنات ، ويجب ان يعالج الشباب فى أسرته معالجة خاصة ، يشعر فيها بالاستقلال والزمالة ، فيتبادل أبوه معه الرأى ، ويضع أمامه بعض المشاكل الملائمة ، وقد قيل قديما : « لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم أجعل حبله على غاربه » . نشكو من انحراف الشباب ، ومن عدم تقديره للمسئولية أحيانا، ومن الانصاف أن نسأل الآباء : هل أدوا رسالتهم على وجهها ؟

والأسرة الزوجية نفسها أصبحت أشبه ماتكون بمصنع تفريخ لتكوين أسر جديدة هى من صنيعها ، فمضى الزمن الذى كان يسكن فيه الأبن مع أبيه فى بيت واحد ، وإذا كانت أزمة المساكن قد دعت إلى شيء من ذلك الآن فإنها أزمة طارئة ، ومنذ ثلث قرن تقريبا نحس بأن الأبناء متى تزوجوا يحرصون على استقلالهم ، وعلى أن تكون لهم حياة خاصة بهم ، وعقدة البنت محلولة من قديم ، فهى تخرج من أسرتها الأبوية إلى أسرة زوجية جديدة هى ملاذها ومقرها ، ونحن من انصار هذا الاستقلال ، وقد دعونا إليه من قبل ، ولكن ليس معنى الاستقلال انقطاع الصلة ، واهمال حقوق القرابة ، وهذه ظاهرة بدأنا نحس بها ، ونشكو منها ، إلى حد أن الأم اصبحت تحس بقربها من ابنتها وإن تزوجت بعيدا عنها أكثر من قربها من ابنها الذى يعنى بحياته الخاصة ، وفى الواقع أنه كان فى الأسرة الكبيرة معانٍ من تعاطف وتراحم ، وشعور بالصلة والقرابة ، بدأنا نفقدها ، ولانكاد نستمتع بها ، وهنا يجيء السؤال : هل تؤدى الأسرة المعاصرة رسالتها على وجهها ؟

إن أوربا بدأت تشكو من تلاشى الحياة الأسرية وأذكر أنى

زرت عام خمس وخمسين أسرة أمريكية تقيم فى ولاية نيويورك ، وهى مكونة من أب وأم وبنتين إحداهما تعمل فى « سان فرانسيسكو » والأخرى تعمل فى « واشنطن » وقد سألت الأبوين عن بنتيهما فقالا : انهما تصنعان حياتهما كما تريدان ، وقد بقيت فى هذه الأسرة أسبوعا كاملا وظللت أرقب أن أرى احدى الفتاتين أو أن يُسْمَعَ صوتها فى « التليفون » من « سان فرانسيسكو » أو من « واشنطن » ـ وهو يسير كل اليسر ـ ولكن لم يحدث شىء من هذا ، فهل نحن سائرون الى نهاية هذا الشوط ؟ لاشك فى أن ذلك يعد خسارة كبيرة ، ويقضى على معالم الحياة الزوجية التى نفتقدها الواحد تلو الآخر ، ونحس منذ الآن أن شعور رب الأسرة الصغيرة بواجبه ومسئولياته الأسرية فى تضاؤل مستمر ، وهو دون نزاع أضعف من شعور رب الأسرة الكبيرة ، وما أحرانا أن نتنبه إلى ذلك ، وأن نربى فى نفوس ابنائنا وبناتنا روح الانتماء ، والانتماء إلى الأسرة دعامة أساسية للانتماء إلى الوطن ومن لا أسرة له لا وطن له .

الفصل الثالث :

كتاب القرية

مبعث النور والعرفان فيها قبل أن تعرف معاهد التعليم الحديثة ، كان الوسيلة الأولى لحفظ القرآن ، وتكوين قرائه ومرتليه ، ولعل الريف المصرى كان أعظم حظا فى هذا من ريف بلاد عربية وإسلامية أخرى ، وشاء التشريع للجندية قديما أن يعفى حافظ القرآن من اداء هذا الواجب الوطنى ، تشريع اريد به فى الغالب الحد من عدد الجنود المصريين ، وعدم تمكين مصر ، منذ بدأ الاحتلال البريطانى ، من تكوين جيش مصرى يعول عليه ، لاسيما وثورة عرابى كانت درسا ، يبعث على الحيطة والتأمل ، ولكن هذا التشريع من ناحية أخرى دفع أسرا كثيرة إلى ان تحفظ أبناءها القرآن ، كى يعفوا من الجندية ، ومن بين هؤلاء الحفاظ من احترف تلاوة القرآن وترتيله فى المناسبات المختلفة ، أو فى بعض المساجد والمجتمعات ، وكان حظ مصر عظيما من هؤلاء القراء الذين عنوا بترتيل القرآن وتجويده ، واستطاعوا أن يغذوا البلاد العربية الأخرى - عندما تدعو الحاجة - وأخشى ما أخشاه ان نفقد هذا الجانب من تربيتنا الدينية ، ومن رعايتنا للقرآن، ذلك لأن أقسام تحفيظ القرآن التى نلجأ اليها الآن ، لم تصل بعد إلى ما كان يصل اليه كُتّاب القرية ، وما

أحوجنا أن نرعى هذا الجانب رعاية حقه ، وكان بيننا قراء لهم ماض مجيد ، سجلنا من أصواتهم ماسجلنا ، وجدير بنا أن نتابع تسجيل كل صوت يستحق ذلك ، وان ننشىء اجيالا جديدة تخدم القرآن وتحسن ترتيله ، والا عشنا على الماضى دون أن نعد للحاضر والمستقبل شيئا يذكر .

وكُتَّاب القرية أيضا كان المصدر الأول لتعلم القراءة والكتابة ، وكَتَبَتُنا فى القرن الماضى ، وفى العقدين الأولين من هذا القرن ، نشأ أغلبهم فى هذه الكتاتيب .

ولم يكن خطهم جيدا ولكنهم سجلوا عقودا ضرورية ووثائق لم يكن ثمة سبيل لحفظها إلا عن طريقهم ، وحسابات القرية وخطاباتها ، قراءة وكتابة ، إنما قامت على من نشئوا فى كتابها ، واليهم يُرجع دائما لقراءة نص ، او تصحيح عقد ، او سند ، أو كتابة خطاب لغير ، ولم يكن عددهم وافيا كل الوفاء ، لسد الحاجة ، ولكنهم كانوا سعداء حين يطلب اليهم اداء هذه الخدمة .

وعرفتُ فى « أبو النمرس » كُتَّابين اثنين فى العقد الأول من هذا القرن ، كانا فى مكانين متواضعين ، وحَرَصَا على أن يكونا على مقربة من مسجد ، أو زاوية للصلاة ، وكان عدد التلاميذ فى كل واحد من هذين الكتابين لايزيد على عشرين تلميذا ، وعلى رأسهم سيدنا وعريفه وكان سيدنا يعرف كل واحد من تلاميذه معرفة تامة ، يعرفه فى شخصه ، ويعرفه فى أسرته ، ويحاول أن يطمئن على أخبار الأسرة كلها ، ويتخذ من تلاميذه أبناء مقربين اليه ، وهم أنفسهم كانوا يشعرون بهذه المودة الصادقة ، وقد يقسو احيانا ، وان كنت لم ار

« الفلقة » فى الكتّاب الذى قضيت فيه بضع سنوات على أن قسوته كانت للخير ، وفى سبيل الخير .

ولم يخل كتّاب القرية من وسائل الترويح ، فقد كان يتلمس المناسبات لكي يروح عن تلاميذه ، فيحتفى بالطفل الذى حفظ سورة او سورتين ويسعد بأن يُكتب له جزء من القرآن فى لوح منمق على يد العريف ، لكي يكون تنويها بنجاحه ، وكان معلم القرية فى كتّابه هذا ، أقرب الى المتعبد بعمله منه إلى الموظف والمحترف .

فما كان يحدد أجرا ، ولايقيد حسابا لكل تلميذ ، بل تترك الأمور لأريحية أولياء هؤلاء التلاميذ ، ومايقدم كان أقرب الى الهدية ، منه إلى الأجر المعلوم ..

وكثيرا ماكان معلم هذا الكتاب هو إمام الصلاة ، وخطيب المسجد ، وفى ذلك مايدفع تلاميذه وابناءه ، الى ان يتشبهوا به ، ويسيروا خلفه ، فكانوا يصلون وراءه ، ومن تخلف منهم عن موعد الصلاة ، يسعده ان يؤم مجموعة أخرى من زملائه فى صلاة الظهر ، أو صلاة العصر .

فلم يكن الكُتّاب مجرد معهد لتحصيل معلومات أو حفظ للقرآن ، بل كان وسيلة أيضا من وسائل التربية الدينية والخلقية ، ذلك لأن معلم القرية كان نموذجا فى مسلكه ، يشجع على الصدق ، ويحث على الأمانة ، ويباهى بأبنائه الحسنى السلوك ، واذا بدرت من أحدهم بادرة عالجها بنفسه ، والا اضطر أن يشرك الأسرة معه ، وأحرص على أن أقرر انه لولا « كتّاب القرية » ما كان يقدر لى ، أن أحفظ

القرآن جميعه ، وقد أكملتُ هذا بدراسة شيء من علوم القراءات على أيدى أستاذ من أساتذتها الكبار ، والقرآن ذخيرة لها شأنها فى سلوك المرء وثقافته ، وقل من يحفظ القرآن كاملا اليوم ، وقد بدأنا نحس بالحاجة الماسة الى تعليم الناشيء وتحفيظه قدرا منه ، وتلك مهمة تتطلب رعاية وحسن اختيار لما يقدم من نصوص قرآنية يجب ان تتمشى مع أعمار التلاميذ .

وأنا لا أدعو إلى أن نعود مرة أخرى إلى كتّاب القرية ، ولكنى أحببت فقط أن أوجه النظر إلى جانبين من جوانبه ، أولهما قرب المعلم من تلاميذه ، واحساسهم بأبوته ، ولعل هذا من ألزم الأشياء فى رياض الأطفال ، والمدرسة الابتدائية ، وعسى ألا نتقيد بأمر الدرجات والمرتبات للسادة المدرسين والمدرسات ، ونتخير منهم آباء وأمهات اكتملت خبرتهم وتقدمت سنهم نوعا لكى نكل اليهم أمر الطفل الناشيء فيما بين الرابعة والعاشرة من عمره .

وأذكر أن أستاذا جليلا فى معهد عال كان يقول : ليتنى أستطيع أن أعود الى رياض الأطفال والمدارس الابتدائية لكى أشعِر تلاميذها بشيء من الحنان والمحبة .

وأمر آخر كان سر نجاح الكتّاب فى مهمته على تواضعها ، هو الاكتفاء بعدد محدود من التلاميذ .

تلك قضية أرجو ألا نغفلها ، وقد أخذت بها معاهد التعليم فى البلاد النامية ، ووقفت فصول رياض الأطفال على خمسة عشر تلميذا ، أو عشرين على الأكثر ، وفى مرحلة التعليم الابتدائى على خمسة وعشرين ..

ويظهر ان احساسا قويا بدأ يدفعنا إلى العودة الى كتّاب القرية إلى حد أن بعض المفكرين يطالبون بإحيائه ، ولاأدرى : لماذا نحن مولعون بالثنائية فى نظمنا التعليمية ، فنأبى إلا أن نضع مرة أخرى الى جانب المدرسة الابتدائية كتّابا لحفظ القرآن ، ولو عنينا بهذا الأمر فى المدرسة الابتدائية نفسها لربينا الناشئة على حفظ قدر ملائم من القرآن الكريم ، أما القراء والمتخصصون فى التلاوة وتجويد القرآن فطريقهم الواضح هو قسم حفاظ القرآن الذى لايقف عند سن معينة ، وينبغى أن يفتح بابه للراغبين والطالبين ، وأن يقوم عليه من هو جدير به .

الفصل الرابع :

المدرسة الأولية

ضرب من التطور في مرحلة التعليم العام ، وهو تدرج يسير ورثت فيه « المدرسة الأولية » أعمال « كُتّاب القرية » وهذبتها ونمتها ، وترجع هذه المدرسة إلى أوائل العقد الثانى من هذا القرن ، وقد قدر لى ان أتتلمذ فيها ، وأشهد أن التعليم الأولى فى جملته بدأ بدءا حسنا فى أماكنه واختيار مدرسيه ، ولم تتردد الدولة فى أن تنشىء مدارس أولية فى قرى مختلفة ، وقد توسعت فى ذلك بقدر ما سمحت مواردها ، وانشأت مدارس خاصة لاعداد معلمى المدارس الأولية ، وكان من حظى ان تتلمذت لشيخين من شيوخ هؤلاء المعلمين ، كانا يسكنان على بعد بضعة كيلو مترات من المدرسة ، ولتعذر وسائل النقل استطاع كل واحد منهما ان يركب حماره ليجىء فى موعده ، ولم يتخلف يوما قط ، ولا ازال أذكر سعادتهما حين كانا يُوفقان فى شرح موضوع أو حل مسألة حسابية ، وعرفت فيهما نظام « مدرس الفصل » الذى يضطلع بمواده المختلفة ويلتصق بأبنائه التصاقا تاما ، وهو نظام مقرر فى رياض الأطفال ومرحلة التعليم الابتدائى ، وكلى رجاء أن تمكننا وسائلنا من الأخذ به دائما .

علمتنى هذه المدرسة العناية بتحسين الخط ، واتقان

القراءة ، وقدرا من علم الحساب وتوسعتَ ـ ما استطعت ـ فى علوم الدين والأخلاق ، واشتمل الفصل على نحو عشرين تلميذا من أعمار متقاربة ، وهذه مسألة لها وزنها فى مرحلة التعليم العام ، وكثيرا مايعز علينا الآن احترامها ، ولم أنس أحدا ممن اشتركوا معى فى هذا الفصل الصغير ، فمنهم من تابع السير فى دراسته ، ومنهم من توقف عند مرحلة التعليم الأولى ، وكان له أثر فى تدبير شئون القرية وتصريف أمورها .

وأمر آخر لمسناه فى منتصف القرن الماضى ، وهو أن الوعى التعليمى ينمو باطراد فى مدننا وقرانا ، ينمو بدرجة قد لاتستطيع مواردنا أن تلاحقها ، فقرية « أبو النمرس » التى كان فيها مدرسة أولية واحدة للبنين انضمت اليها بعد عشرين عاما مدرستان أخريان إحداهما للبنات والأخرى مشتركة بين البنين والبنات ، ولا أزال أذكر يوم أن كنت مقررا للجنة المالية بمجلس الشيوخ أن وزارة المعارف حينذاك كانت تطلب عند إعداد الميزانية الاعتمادات اللازمة لمرحلة التعليم الأولى على أساس ما كانت تتوقعه من إقبال التلاميذ ، ثم لايكاد يبدأ العام الدراسى حتى تضطر لفتح فصول جديدة سدا لحاجة الراغبين ، وتلجأ إلى طلب اعتمادات اضافية ، واستمر الأمر على ذلك سنين متوالية ، ونحاول جاهدين أن نقضى على مشكلة المتخلفين عن التعليم ، وكثيرا ما عز علينا ذلك .

ولهذا الوعى النامى دلالته ، وأملنا كبير فى أن تتوافر لنا الوسائل الضرورية لمواجهة هذا الوعى فى مرحلة التعليم العام على مختلف درجاته ، ونلاحظ جميعا أن مشكلة الكم وكثرة العدد تطغى على مشكلة الكيف والإتقان والإجادة . ويوم أن تعود فصولنا الدراسية فى المراحل البادئة إلى

أعدادها المعقولة نستطيع أن نقول إن البناء الاساسى لتكوين المواطن الناشىء تكوينا سليما قد توافر لديها ، ولابد أن نوفر لهذا النشء أماكن ملائمة ، ومدرسين يطمئنون إلى أداء واجبهم ، ويقبلون عليه فى رغبة وإخلاص .

والمدرسة الأولية ثمرة من ثمار الحكم المحلى الذى عرفناه فى صورة متواضعة على شكل مجالس للمديريات ، عرفناها فى العقد الثانى من هذا القرن ، وعشنا معها نحو خمس عشرة سنة قبل أن نتجه إلى الحياة البرلمانية ، ومجالس المديريات حلقة من حلقات التمثيل الشعبى جديرة بأن نستذكرها ، لأنها قامت فى الأغلب على أيدى شيوخ من وجهاء الأقليم ، رغبوا رغبة صادقة فى أن ينهضوا بإقليمهم ثقافيا وصحيا ، وأنشئوا مدارس أولية ، وأخرى ابتدائية وثانوية وأضافوا إليها بعض المستوصفات والمستشفيات ، وأحرص على أن أسجل ـ مع التقدير ـ إدراكهم لرسالة الفتاة فى تكوين الأسرة والمجتمع ، فأنشئوا فى عواصم الاقاليم ، مدارس ثانوية للبنات منذ العقد الثانى من هذا القرن ، وسعدت حقا بأننا قضينا على ثنائية كتّاب القرية والمدرسة الابتدائية أو الأولية ، وهى ثنائية لم يكن ثمة مبرر لها .

وقلنا بالزامية التعليم ، وضرورة أن ينال كل مواطن حظه منه ولم يستجب بعض الآباء فى البداية استجابة صادقة ، ولكنهم انتهوا إلى إيمان بضرورة التعليم ، وكان الإقبال الذى عجزت مواردنا ومدارسنا عن مواجهته وسد حاجته ، وخطونا بالمدرسة الأولية خطوة أعلى ، وحولناها إلى مدرسة ابتدائية ، ووفرنا لكل قرية من المدارس الابتدائية ما يتناسب مع عدد سكانها .

وحاول الجهد الذاتى فى بعض القرى أن يقوم بنصيبه ، ولم تقف الرغبة فى التعليم عند المدرسة الابتدائية ، بل جاوزتها إلى المدرسة الاعدادية ، وتخطتها أحيانا إلى المدرسة الثانوية ، وعرفت بعض القرى المدرسة الثانوية التى فتحت أبوابها لأبنائها وأبناء بعض القرى المجاورة ، وإن ضاقت مدرسة القرية ببنيها اتجه عدد منهم نحو أقرب مدينة ، لكى يستكمل تعليمه فى مدرسة أميرية أو أهلية .

ومما يؤسف له أن بعض المدارس الابتدائية ـ تحت ضغط العدد الزائد وقلة المدرس المؤهل ـ كانت تخرج « شبه أميين » لايلبثون أن ينسوا كل ماتعلموه اذا لم يتابعوا السير ، ولم يكن سيل الأمية الجارف راجعا فقط الى العدد الذى لم يجد له مكانا فى المدرسة الابتدائية بل الى عدد اخر مر بها ولكنه فارقها بزاد ضعيف ، وتكوين المواطن الصالح فى القرن العشرين أصبح لايكفى فيه مجرد تعليم القراءة والكتابة ، بل تتطلب حياتنا الحاضرة تعليما أقوى وتثقيفا أتم ، وكنا نقول فى الماضى إن مدة الالزام أربع أو خمس سنوات ، وظننا أن فيها مايكفى المواطن الصالح ، والتعليم الأساسى الذى ننشده اليوم يصعد بها إلى تسع سنوات ، تشمل المرحلة الابتدائية والاعدادية معا ، ويرمى الى تكوين ناشىء يستطيع أن يواجه متطلبات الحضارة المعاصرة فى علومها وفنونها ، فى أجهزتها وآلاتها ، فى اختراعاتها ومبتكراتها ، ونحن حديثو عهد بهذا التعليم ، وما أحوجنا اليه ، وما أحوجنا بوجه خاص أن نحققه تحقيقا كاملا .

وآن الأوان لأن نقضى على التفرقة بين شباب لم يعرف إلا التعليم الإلزامى ، وآخر كان من حظه أنه نهل من حياض

التعليم الابتدائي ، وكانت تفرقة مريرة ، وفى التعليم الأساسى مايعين على أن ينهل الناشئون جميعا من معين واحد ، ولهم بعد ذلك ان يسلكوا سبل التعليم الفنى : من صناعى وزراعى وتجارى ، وما أحوجنا ان نمضى فى هذا التعليم ، وأن نربطه بالحقول والمصانع والمتاجر ، حتى يجمع بين الدرس النظرى والتجربة العملية . وفى وسع من شاء - ممن أتموا مرحلة التعليم الأساسى - أن يتجه نحو التعليم الثانوى والعالى ، على أن يكون أساس هذا الرغبة الصادقة ، والاستعداد الكامل ، ومراعاة متطلبات المجتمع وحاجاته ، وعلى سياستنا التعليمية أن ترعى هذا وتقدره قدره ، ولايكفى فى هذا مجرد نسب النجاح الرقمية ، والحلول الآلية ، ومكاتب التنسيق ، ونظام القبول فى التعليم العالى والجامعى يحتاج إلى إعادة نظر .

الفصل الخامس :

المعاهد الدينية

أُنشىء الأزهر فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وأريد به أساسا أن يكون مدرسة مذهبية تعنى بتكوين الدعاة والمرشدين ، الذين يوجهون إلى مختلف الأقطار ، وقد نجح الفاطميون فى شىء من ذلك ، وتوسع الأزهر حينذاك فى دراساته الدينية واللغوية ، واضاف اليها قدرا من الدراسات العلمية والفلسفية ، وما إن استولى صلاح الدين على مصر حتى أخذ الدرس الأزهرى ينحو نحوا آخر ، وقام بخاصة على دراسة الفقه والتوحيد وعلوم النحو والصرف ، وافسح المجال لشىء من دروس الفلسفة والمنطق ؛ وكانت دعامته الأولى المذهب السنى ، لم يقف فى الفقه عند مدرسة بعينها ، بل كان فيه درس للفقه الشافعى ، وآخر للفقه المالكى وثالث للفقه الحنفى ، إلى جانب الفقه الحنبلى ، واتسمت دراساته الكلامية بالعناية بالمذهب الأشعرى ، مع التعرض لقدر من آراء الماتريدية وبعض الفرق الكلامية الأخرى ، وفى ذلك ما فتح أبوابه لطلاب العلم من المصريين والأجانب الوافدين من الاقطار العربية والاسلامية ، وبخاصة من يستمسكون بالمذهب السنى . واعد مساكن وأروقة لهؤلاء الطلاب الوافدين من شاميين وعراقيين أو مغاربة بين تونسيين

وجزائريين ، وبعض أبناء المغرب الأقصى ، فكان يسهم مع جامع الزيتونة فى تونس والقرويين بفاس فى نشر التعاليم السنية ، وكان له ـ دون نزاع ـ قيادة بين هذه المعاهد الكبرى ، ونستطيع أن نقرر انه احتفظ بهذه التعاليم ، وكان سندا للحكم العثمانى .

وقام منهجه فى الدرس على اساس من نصوص متفاوتة فى حجمها وأسلوبها ، فكان أصغرها يسمى متنا ، يحاول المعلقون والمفسرون ان يوضحوه ، وكثيرا ماحظى المتن الواحد بعدة شروح من معلقين فى عصور متلاحقة ، ولم يقف الأمر عند المتون والشروح ، بل امتد الى الحواشى والتقارير ، فكان هناك شيوخ تبحروا فى العلم والمعرفة ، اطلعوا على الشروح المختلفة واستخرجوا منها جميعا تعليقات سموها « حواشى » وتجىء بعد هذا مرتبة اخرى ، وهى مرتبة التقارير ، واذا تتبعنا تاريخ الدرس الأزهرى وجدنا ان هناك اناسا وقفوا عند المتون والنصوص الأولى ، وآخرين جازوا هذا وعنوا بالشرح والتعليق فى صورهما المختلفة التى أشرنا اليها ، ومن بين هذه النصوص ، ماجاء نثرا ومنها ما جاء نظما رغبة فى تيسير حفظه ، وقد يصل الامر فى النصوص النثرية الى ضغط وتركيز يجعل منها رموزا واساليب معقدة ، لايمكن الوصول الى مغزاها الا بالوقوف على شرح موضع لها ، أخذ الأزهر بهذا المنهج منذ القرن السادس للهجرة ، ونما على مر الزمن وكانت حلقات الدرس تتفاوت تبعا لهذه النصوص ، فللنحو مثلا متونه التى تبدأ « بالأجرومية » ثم تنتقل إلى « الأزهرية » فالتوضيح « فالفية ابن مالك » . وهناك أعلام وأئمة قدر لمؤلفاتهم أن تبقى غذاء متصلا عدة

قرون كابن مالك وابن هشام بين النحاة ، والدرديرى صاحب الخريدة واللقانى صاحب الجوهرة بين المتكلمين .

وواضح أن هذا المنهج من التعليم والتدريس يقوم على الأخذ والرد ، وتحليل الألفاظ والعبارات (وتشقيق الكلام كما يقولون) وقد سمي اسلوب : (فإن قلتَ : قلتُ) وهو بهذا يعنى بالشكل اكثر مما يعنى بالموضوع ، ويقف عند المنطوق اكثر من وقوفه عند المفهوم ، وفيه مافيه من تكرار وضياع للوقت ، وإن لاءَمَ الماضى فانه لايلائم الحاضر . وقد كان طلاب الأمس يعدونه عبادة ، ولايترددون فى أن يقفوا حياتهم عليه ، اما ابناء القرن العشرين فوقتهم أضيق ، واهدافهم أفصح ، وهناك علوم ودراسات نشعر بالحاجة الماسة اليها ، ولم يمنحها الدرس الأزهرى فى القرون الأخيرة ماتستحق من عناية كالتاريخ والجغرافيا بين العلوم الانسانية ، أو كالكيمياء والصيدلة والطب بين العلوم الطبيعية ، أو كالجبر والهندسة بين العلوم الرياضية .

وكان لابد أن يتطور التعليم الأزهرى تطورا يتمشى مع روح العصر ، وقد سلك فيه مسلكان أولهما : جوهرى يعنى بالمنهج والطريقة ، وينحو فيهما منحى حديثا ، ويجارى العلم فى نموه وتطوره ، وانشىء لذلك معهدان منفصلان مستقلان تقريبا عن الأزهر وادارته ، وهما مدرسة دار العلوم فى أخريات القرن الماضى ، ومدرسة القضاء الشرعى فى أوائل هذا القرن ، وكان الاستاذ الامام محمد عبده من دعاة هذين المعهدين ومن مؤيديهما وسنعرض لهما فى تفصيل ، ويبدو ان رجال الأزهر لم يطمئنوا على هذا التطوير ، ولم يرحبوا به ، وكأنما عدوه انكارا لطريقتهم ، وانتزاعا لشىء يدخل فى حوزتهم ، ولهذا

نحوا نحو تطوير آخر أقرب إلى الشكل منه الى الموضوع ، وذهبوا الى فكرة المعاهد الدينية . وتقوم على أساسين مهمين ، أولهما : تقسيم التعليم الأزهرى الى مراحل متلاحقة ، يخطو فيها طالب العلم خطوات تمهد كل واحدة منها للتى تليها وثانيهما : وضع نظام ثابت للقبول فى هذه المراحل ، ونشأ عن ذلك ما سمى « الأقسام النظامية » وفى ذلك اشارة الى الدرس الحر الطليق الذى كان يقوم به شيوخ مختلفون ، لكل واحد منهم حلقته التى يقصدها طلابه والراغبون فيه دون تقيد بإثبات حضور أو غياب ودون خضوع لامتحان معين عاما بعد عام ، وإنما كان يتم هذا الأمتحان فى آخر المطاف للحصول على ما كان يسمى « شهادة العالمية والأزهرية» . وبعد أن أنشئت المعاهد الدينية ، أصبحت هناك أقسام أولية وأخرى ثانوية وثالثة عالية ، ولكل قسم امتحاناته وشهاداته ، وكانت هذه المعاهد أيضا موزعة بين المساجد المختلفة ، ولكل مسجد طلابه المقيدون فيه .

وقدر لى فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن أن ألتحق بهذه المعاهد ، فمررت بمسجد ابراهيم أغا الذى خصص لطلاب السنة الأولى ، ثم انتقلت الى مسجد السيدة « فاطمة النبوية » لطلاب السنة الثانية ، وانتهيت اخيرا الى جامع الماردانى . لطلاب السنة الثالثة ، ثلاث سنوات كاملة ، حرصت عليها ، وتابعت فيها الدرس ما استطعت ، وكانت تقوم أساسا على الاستماع ، وأستطيع أن أقرر إنها تركت فى نفسى بصمات ملحوظة فى تفهم التعابير واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها ، ولكن الحصيلة الفكرية والثقافية كانت أقل من الزمن الذى ينفق فيها .

ومهما يكن من أمر ، فإنه أريد بهذه المعاهد أن تعد للدرس

الأزهرى العالى إعدادا منسقا يعود طلابه على النظام ، ويفتح أمامهم آفاق البحث والدرس . وقصرت هذه المعاهد فى البداية على القاهرة حيث يوجد المركز الرئيسى للتعليم الأزهرى فعدت بذلك حلقة لازمة من حلقات هذا التعليم ، ولكن لم يلبث الزمن ان خرج بها عن هدفها الأول ، واصبحت اشبه ماتكون بمعاهد تعليم عامة تنشأ فى المدن الكبرى والصغرى على السواء ، ونمت على مر الزمن حتى جاوزت المئات واسهمت فيها الجهود الذاتية ماوسعها ، وقادتنا إلى ثنائية فى التعليم سبق ان لاحظتها وبينت أنه لايمكن أن يقوم التعليم العام فى بلد على ثنائية من هذا النحو ، ذلك لأننا نريد أن ننشىء وحدة ثقافية وفكرية لدى ابناء الوطن جميعا ، ونربى المواطنين تربية واحدة دينيا وعلميا ، فكريا وثقافيا ، منعا للبلبلة والطائفية الثقافية .

ولم يفتنى أن أعرض المشكلة على الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ (محمد مصطفى المراغى) ويقتضينى الانصاف أن أقرر إنه اتفق معى كل الاتفاق ، وإن لم يطل به الأجل ليحقق هذه الوحدة ، وقد وضعت أمامه القضية على الأساس الآتى وهو : أن الناشىء المصرى يجب أن يثقف ثقافة دينية ، إلى جانب ثقافته العصرية فى نواحى المعرفة المختلفة ، وعلى هذا فالرسالة الدينية مطلوبة فى المدرسة الابتدائية والثانوية بقدر ما هى مطلوبة فى المعاهد الدينية ، ولا محل لأن يكون بيننا تعليم دينى وآخر مدنى ، ولم تعرف هذه الثنائية فى التعليم الاسلامى من قديم . واذكر ان فرنسا عانت حتى اوائل هذا القرن من خصومة بين التعليم الدينى والمدنى ، وانتهى أحد وزرائها (بربان) إلى هذا التوحيد الذى يعتبر دعامة أساسية فى كيان الأمة .

وقد عقدت منذ أربعين سنة ندوة فى الجمعية الجغرافية لمعالجة هذا الموضوع ، وتولى المرحوم لطفى السيد رياستها ، واشترك فيها المرحوم الاستاذ اسماعيل القبانى ، احد كبار رجال التعليم حينذاك ، ودار النقاش حول التقابل بين التعليم المدنى والدينى ، وانتهى الرأى إلى إننا فى حاجة ماسة إلى أن نجمع بين هذين الطرفين ولكننا - مع الأسف الشديد وقعنا تحت ضغط الاقبال على التعليم - فى الاسراف فى هذه الثنائية ، وتنافس الافراد والهيئات فى انشاء معاهد دينية الى جانب المدرسة الأميرية المجاورة فى القرية والمدينة على السواء ، وكم يذكرنى هذا التنافس بتنافس اخر عرفته (لبنان) منذ نصف قرن او يزيد فى التقابل بين ماسمى « الجامعة الأمريكية » و« الجامعة اليسوعية » فحين يُنشأ فرع لاحداهما لاتتردد الأخرى فى إنشاء فرع مقابل فى المكان نفسه .

واعتقد أنه آن الأوان ، لأن ننظر فى هذه المشكلة نظرة جادة ، ونهيىء للنشء المصرى تعليما عاما واحدا وشاملا ، اما التخصص فلكل ان ينهج فيه النهج الذى يرضيه ، وانا لااقبل من ناشىء مصرى ان يجهل اصول دينه ، كما لا ارضى منه ان يغفل عن متطلبات العلم والحضارة المعاصرة .

ولايفوتنى أن أشير إلى أن هناك - إلى جانب هذه الثنائية - « المدارس الخاصة ، من إنجليزية وفرنسية وألمانية ، وانضمت اليها اخيرا » « مدارس اللغات » وما أجدرنا ان يطبع هذا كله بطابع قومى ووطنى واحد ، فهل نجد الشجاعة الكافية للأخذ بهذا التوحيد لتكوين نشء الوطن على اساس من ثقافة واحدة وفكر متسق ؟

الفصل السادس :

مدرسة القضاء الشرعى

محاولة لتطوير التعليم التقليدى فى الأزهر ، سبقت قيام المعاهد الدينية ، وقد كان الاستاذ الامام محمد عبده يرعاها ويؤيدها ، ولعله صاحب فكرتها رغبة فى تنشئة جيل من المثقفين ، يستطيع أن يواجه متطلبات العصر قضاء وتشريعا ، نهوضا وحضارة ، فأنشئت مدرسة القضاء الشرعى لكى تغذى من طلاب الأزهر ، ولكى يغذيها كبار شيوخه وأعلامه إلى جانب بعض كبار أساتذة القانون والعلوم الحديثة ، فهى من الأزهر واليه ، وكانت النشأة محكمة كل الأحكام ، فبدىء بأخذ عدد من قدامى طلاب الأزهر ، وأظن إنه كان من بينهم المرحوم (أحمد أمين) وبعض أقرانه واكتفى لهؤلاء بدراسة مدتها خمس سنوات ، لأنهم قد حققوا قدرا سابقا من الدراسات الأزهرية ، وهذا ماسمى « القسم العالى » فى مدرسة القضاء الشرعى .

ثم رُئِى أن تدعم فى البداية ، وأن تكون مدة الدراسة فيها تسع سنوات ، خمس فى القسم الابتدائى ، وأربع فى القسم العالى ، وطلاب القسم الابتدائى يُختارون بدورهم من الأزهريين ممن تعلموا فى المعاهد الدينية لبضع سنوات ،

وكان الاختيار دقيقا ومنصفا ، أما الدرس فكان موضوعيا يعالج القضايا العلمية المختلفة ، فيجمع بين العلم القديم والعلم الحديث ، يعنى عناية خاصة بالفقه والتفسير والأدب ، واللغة ، ويضيف اليها العلوم الحديثة من : طبيعيات ، ورياضيات ، وتاريخ ، وجغرافيا ، ومما يُتَفكّه به أن علم الطبيعة سمى (علم الخواص التى أودعها الله فى الأجسام) لكى يتيسر اقراره من بعض كبار شيوخ الأزهر ، وبقيت هذه التسمية مستعملة ، وقيل انها اختيرت نزولا عند رغبة المرحوم الشيخ حسونة النواوى ، ومهما يكن من أمر ، فان التطوير الذى إحدثته مدرسة القضاء الشرعى على العلم القديم كان واضحا وجليا ، رجع فيه الى النصوص والمؤلفات القديمة الكبرى ، وكتب قدر كبير منها بلغة العصر وروحه ، وكان طبيعيا أن تقف هذه المدرسة عند فقه الحنفية ، لأنه كان فقه الدولة الرسمى ، وعولج هذا الفقه فى ابوابه المختلفة معالجة متصلة منذ السنة الأولى إلى الأخيرة ، ولا أزال أذكر يوم أن رفض المرحوم الاستاذ (أحمد أمين) فى درس الفقه أن يعرض لباب « الاستنجاء » لأنه فيما يرى أدخل فى التربية المنزلية منه فى الدرس النظرى ، وأذكر أيضا أن المرحوم « على الخفيف » شرح علم الفرائض والمواريث شرحا رياضيا دقيقا ، تقبّله المستمعون عن رضا واطراء .

وفى الحق أن مدرسة القضاء الشرعى خَرّجت فقهاء جمعوا بين الفقه الاسلامى والقانون الحديث فى فروعه المختلفة ، واستطاعت أن تخرج قضاة يجلسون الى جانب رجال القانون ، ولم يقف الأمر عند الفقه وأصوله بل امتد التهذيب والتطوير الى الادب واللغة ودرس النحو بقصد تقويم اللسان ، مع التخفيف ما أمكن من فلسفته التى لاتعنى إلا

المتعمقين والمتخصصين ، وعرضت بعض كتب الأدب القديم في صورة أوضح وأيسر ، وكم أسفت لأن كتاب « مختارات العقد الفريد » (لابن عبد ربه) الذى كان من أعمدة الدرس الأدبى فى مدرسة القضاء الشرعى قدر له أن يموت بموتها .

وإلى جانب العلوم الفقهية واللغوية والأدبية ، كان للعلوم الحديثة نصيب ملحوظ ، فاضطلع بتدريس الجغرافيا والتاريخ بعض اعلامهما ، ولم يقف الأمر عند التاريخ الاسلامى ، بل امتد الى التاريخ القديم والمتوسط والحديث والمعاصر واعدت معامل خاصة ، للقيام بتجارب على بعض الظواهر الطبيعية والكيميائية ، وكانت الرياضيات من حساب وجبر وهندسة عقدة العقد لدى من نشئوا نشأة أزهرية ، وأذكر ان المرحوم « محمد زكى » وهو من كبار الرياضيين فى أوائل هذا القرن عرض مرة نظرية هندسية وعز على طلابه أن يتابعوه فيها ، فوقف الدرس وقال : « ياأبنائى ليس العيب عيبكم وانما العيب انى لم اوضح نفسى على النحو الملائم » ورفعت الحصة وعاد محمد زكى مرة أخرى الى النظرية الهندسية ووفاها شرحا وبيانا .

وأريد أن يكون لمدرسة القضاء الشرعى مبنى وحرم فى ضواحى المدينة ، رغبة فى أن يتفرغ الطلاب لدرسهم ، وأن يبعدوا عن ضوضاء المدينة وجلبتها ، فتعد لهم مساكن خاصة بهم ، وبهذه المناسبة أحب أن أشير إلى أن فكرة مساكن الطلبة فى جامعاتنا الحالية ليست بنت اليوم ، بل لقد سبق اليها فى الأزهر ، فكانت له أروقته ، الخاصة بطلابه من أبناء مصر كرواق الصعايدة وأروقة أخرى للوافدين من الخارج من بلاد العالم العربى والاسلامى ، كرواق المغاربة ، وحاولت

مدرسة القضاء الشرعي ان تتابع هذه السنة ، وتتلخص في أن يكون للطلاب مساكنهم ، وللاساتذة مساكن خاصة بهم ، وبذا تنشأ مدينة جامعية مكتملة ، يتوافر اهلها للدرس ، حلم لذيذ ولكن لم يتحقق ، ذلك لأن القائمين على أمر المدرسة شاءوا ان ينشئوا هذه المدينة الجامعية الجديدة شمال القاهرة فيما يسمى « الزيتون » وبينما هم يخططون اذا بالحملات العنيفة تعرقل سبيلهم ، ومن الغريب ان هذه الحملات يرجع أغلبها الى القائمين على الجامع الأزهر ، فى حين أن مدرسة القضاء ـ كما قدمنا ـ لم ترد شيئا الا أن تنهض بالتعليم الأزهرى وطرائق تدريسه ، ولو قدر لها أن تحيا الى اليوم لاستطاعت ان تقدم مثلا رائعا من (التعليم الدينى العصرى) .

عاشت مدرسة القضاء الشرعي بقدر ماعاش معها ناظرها ورائدَها ، المرحوم عاطف بركات وأخذت تتدهور وتتلاشى بعده ، حقا انها عاشت ما عاش الى جانبها عاطف بركات المربى الفاضل ، والأب الجاد فى غير قسوة ، آمن برسالة مدرسة القضاء ووقف نفسه عليها ، فكان يشغل بأمرها درسا وتعليما ومعاملة وسلوكا وغذاء ، ماديا وروحيا .

عرف كيف يختار أعوانه من خيار الاساتذة ، وكبار الشيوخ ، وكان يجلس اليهم باطراد ، ليناقشهم فى طريق الدرس ، ووسائل البحث ، وكل همه أن تصبح مدرسة القضاء مدرسة نموذجية في تعليمها ، وفيمن تخرجهم من رجال المستقبل ، وله فى أداء هذه الرسالة مواقف شتى يكفى أن أشير إلى مثلين اثنين منها :

أنه كان يعنى شخصيا بتدريس مادة الأخلاق ، ويجلس

فيها الى كبار الطلاب ، ويسمو بهم إلى أهداف عليا ، وقيادات مثلى ، وأعتقد أن درسه في الاخلاق هذا ، هو الذى جعل من أمثال أحمد أمين أديبا وفيلسوفا ، مربيا ومصلحا فى آن واحد ، ووجهه نحو تعلم اللغة الانجليزية كي يضم الى ثقافته العربية ما يمكن أن يقف عليه من الثقافات الاجنبية ، وموقف آخر له دلالته على صغره وقد شهدته بنفسى حين دخل أحد طلاب الفرق العالية منكمشا منزويا على عاطف بركات فلم يتردد المرحوم « عاطف بركات » فى ان يوجه نظره قائلا : أخرج وعد إلىّ رجلا ، هكذا كان يريد عاطف بركات لأبناء مدرسة القضاء الشرعى أن يكونوا جميعا رجالا ، يحكمون العقل وينتصرون للحق ويحرصون على العزة والكرامة .

دخلت مدرسة القضاء بعد الرحلة القصيرة فى المعاهد الدينية ، وكان دخولى فيها حين بدأت الثورة المصرية ، وأشهد أن عاطفتى الوطنية إنما نشأت وتربت فى هذا الجو ، فاشتركت مع جماعات الطلاب فى جدل ومناقشة ، وتحليل للمواقف التى ينبغى أن نتخذها إزاء المستعمر البريطانى ، وطفت معهم فى الشوارع متظاهرين محتجين ، وكم طاردنا الجنود البريطانيون ، واحتكوا بنا ، فجرحوا من جرحوا ، وكسروا من كسروا ، واعتقلت أياما على أثر مظاهرة من المظاهرات ، وأحسن ما فى هذه المظاهرات أن كبار الطلاب كانوا قادتها ، ولا أزال أذكر هتاف المرحوم « أمين الخولى » وهو معنا ، أمام الجنود البريطانيين فكان يردد :

اضربونا بالمدافع ما لأمر الله دافع
اضربونا بالرصاص فالحياة فى القصاص

هذه هى مدرسة القضاء الشرعى ، مدرسة وطنية ، وهى فى الوقت نفسه مدرسة البحث والتحقيق ، قضيت فيها خمس سنوات ، وتتلمذت على شيوخ كانوا ماثلين أمامى دائما، كلما صادفتنى مشكلة ، أو أعترضنى هوى لايرعى الحق ولا الوطن ، ولا أظن أحدا تتلمذ لأحمد أمين ونسى ما كان يسميه « درس المربة » الذى كان يقفه على مشاكل المجتمع ، ونواحى النقص فيه ، وكان « درس المربه » هذا أحب الى طلابه من دروس الفقه المقررة عليهم ، فكان يجتذبهم ، ويحرصون الحرص كله على أن يستمتعوا به ، وقد لقن فيه دروسا فى السلوك والاعتداد بالرأى السليم ، وكم نود أن يأخذ المربون والمعلمون انفسهم بشىء من هذا ، يقتربون من طلابهم ، ويعيشون معهم، ولو لفترات ، وتلك هى الصلة الروحية التى اصبحت تنقصنا الآن فى معاهدنا التعليمية العالية وأعود الى « عاطف بركات » مرة أخرى ، فأسجل جملة وردت على لسانه نصها : « كم أود أن أكون معكم بمثابة الصوفى الكبير من مريديه » . واستاذ آخر لن انساه ، فى استقامة رأيه وكمال قيادته ، وإيمانه بواجبه ، وهو المرحوم عبد الحكيم بن محمد . ولعبد الحكيم موقف من هذه المواقف لاينسى ، قد عارض عاطف بركات فى تعليل نحوى لم يسلم به ، برغم ما كان لعاطف من جلال ورهبة ، ويطول بى الحديث أن عرضت لشيوخ مدرسة القضاء واساتذتها ، فقد كانوا جميعا من صفوة الصفوة وعلى ايديهم فهمت سماحة الإسلام حق الفهم ، وآمنت بأن ديننا لايتعارض مع العلم فى شىء، ولايسد الطريق على البحث والنظر ، صورة ما أحوجنا اليها ، وما أحوجنا الى قيادات تحمل رايتها لأنا كثيرا مانسىء الى

الاسلام بتضييق آفاقه ، وننحو به منحى الجمود والتخلف .

ولو قدر لمدرسة القضاء أن تسير فى طريقها حتى اليوم ، لكانت منارة للتجديد الرشيد ، والنهوض الحق ، والفكر السليم .

الفصل السابع :

دار العلوم

معهد أنشىء فى أخريات القرن الماضى ، قبل مدرسة القضاء الشرعى بنحو عشرين عاما . وكان يهدف الى تطوير تعليم الدراسات التقليدية ، من أدب ولغة ، وحديث وتفسير ، وأريد به بخاصة إعداد معلم يلائم العصر لتدريس العلوم العربية ومن بينها الخط فى المدارس الأميرية على اختلاف مراحلها ، وهو بهذا يكمل الرسالة التعليمية التى تضطلع بها « مدرسة المعلمين العليا » وهى تخريج مدرس العلوم الحديثة من تاريخ وجغرافيا ، ورياضة وطبيعة ولغة انجليزية ، وكان المعهدان يتغذيان معا فى البداية من الطلبة الأزهريين ، ثم قصرت مدرسة المعلمين القبول فيها على الحاصلين على شهادة « البكالوريا » من المدارس الثانوية ، وفى هذا ماباعد المسافة بين المعهدين ، وكان مثار تنافس بينهما . ومثلا على حال الدراسات العليا الحديثة فى اللغة والأدب والعلوم الانسانية والطبيعية والرياضية ، بجانب مدارس الحقوق والطب والمهندسخانة الى ان قامت الحياة الجامعية فى القرن العشرين ، انشئت دار العلوم لكى تقوم على امر الدراسات العربية ، وتطورها بحيث تتلاءم مع روح العصر ومناهجه ، ولم يُحرم طلابها من بعض العلوم الحديثة ، كالتاريخ والجغرافيا

والطبيعة والكيمياء ، لا على أن يتخصصوا فيها ، بل لكى يستكملوا ثقافتهم فحسب ، وكانت مدة الدراسة خمس سنوات ، يتابع فيها الطلاب دروسهم فى حرص وعناية ، ويحاسبون بدقة على فهمهم وتحصيلهم ويختارون من بين من أمضوا فى الأزهر عدة سنوات ، وما أشبه دار العلوم فى ذلك بمدرسة القضاء الشرعى ، وهما معا تتماثلان فى نوع طلابهما ، واساتذتهما ، وترميان الى هدف مشترك ، هو النهوض بالدراسات الاسلامية ، ويوم أن قدر لمدرسة القضاء الشرعى أن تختفى من عالم التعليم أحيل طلابها الى مدرسة دار العلوم ، وكنت واحدا منهم . سارت دار العلوم فى طريقها ، ولم تقو منافسة الأزهر على التغلب عليها ، لأن المعاهد الدينية - برغم ما استحدثت من نظم وشهادات - لم تخرج طوال النصف الأول من هذا القرن معلم اللغة العربية الذى يبغيه المسئولون عن التعليم فى وزارة المعارف ، لاسيما وقد استحدثت دار العلوم تجهيزيتها التى كانت مقدمة للدراسة العالية ، فحققت لنفسها استقلالا مكنها من أن تجود وسائل اعداد المعلم وتكملها ، وقد عولت دار العلوم فى البداية على اساتذة من شيوخ الأزهر ، وكان الاستاذ الامام محمد عبده يباركها ، ويؤيد رسالتها ، ويطرى اثرها فى نهضة اللغة العربية ، حتى قال كلمته المشهورة : « لو أن باحثا مدققا أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية ، وأين تحيا ، لوجدها تموت فى كل مكان ، وتحيا فى دار العلوم » .

ثم انتهت أخيرا إلى أن تتغذى بغذاء ذاتى من طلابها وأساتذتها الذين كانوا يباهون جميعا بأنهم « درعميون » وساعد على هذا الاستقلال الذاتى ما وصلت اليه « دار العلوم » من إيفاد بعوث إلى إنجلترا لاستكمال درسها

وتخصصها ، وقد استطاع المبعوثون بعد عودتهم أن يطوروا المناهج وطرق التدريس ، وأن يلائموا بين القديم والحديث .

عززت دار العلوم استقلالها ، وعمرت طويلا ، واحتفل بعيدها المئوى منذ سنين ، وكانت المعهد العالى القديم الوحيد الذى لم يندمج فى جامعة « فؤاد الأول » بعد أن أدمجت فيها « مدرسة المعلمين العليا » وحل محلها كليتا العلوم والاداب ، ومن المربين من كان يرى أن إعداد المعلم إعدادا كاملا يقضى بالا تدمج مدارس المعلمين فى الحياة الجامعية لانها معاهد مهنية تستلزم اولا اختيار طلابها اختيارا دقيقا ، وتقضى بأن يعدوا إعدادا مهنيا خاصا إلى جانب زادهم الثقافي والعلمي ، ويذكرون على سبيل المثال ، مدرسة المعلمين العليا بباريس التى احتفظت بوزنها وقيمتها ، واستمسكت باستقلالها ، ولم تقض عليها الحياة الجامعية المحيطة بها فى السربون ، ولكن القائمين على دار العلوم فى ثلث القرن الأخير آثروا التبعية على الاستقلال ، ورأوا فى الانضمام إلى جامعة القاهرة تكريما وحماية ، وكأنهم كانوا يخشون زحف المعاهد الدينية عليهم على غرار ماتم لمدرسة القضاء الشرعى ، ودخلت دار العلوم فى منافسة جديدة مع خريجى أقسام اللغة العربية فى كليات الأداب ، وحقق وقع هذه المنافسة ازدياد الطلب على معلم اللغة العربية من الداخل والخارج ، وكان الطلب شديدا من الأقطار العربية التى تسابقت فى الحصول على المعلم المصرى ، ونتساءل حقا : هل يعد خريج كلية دار العلوم الاعداد الذى كان يحظى به خريج مدرسة دار العلوم ؟؟ ومن العسير أن يكون الجواب بالايجاب ، لاسيما وقد عدت مكاتب التنسيق على اختيار معلم الغد عدوانا واضحا ، لأنها لم تغذ كلية دار العلوم الا ببقية

البقية من الحاصلين على الشهادة الثانوية بتقدير متواضع ممن لم يجدوا طريقهم الى كليات أخرى ، ومشكلة المعلم بوجه عام ومعلم اللغة العربية بوجه خاص ، مما يهمنا الآن ، ولابد أن نرسم لإعداد المعلم سياسة أوضح تعده لمهنته وتجعل منه مربيا نافعا ، وقدوة صالحة فى مراحل التعليم العام على اختلافها ، وأعتقد أن وزارة التعليم تقدر هذه المسئولية ، وهى – ولاشك – ساعية الى رسم هذه السياسة .

حُوِّلتُ إلى دار العلوم « عام ١٩٢٣ » مع من حولوا من أبناء مدرسة القضاء الشرعى الملغاة ، وتخرجت فيها عام ١٩٢٧ وتتلمذت لبعض كبار شيوخها ، أمثال عبد العزيز خليل ، وعلام سلامة ، ومحمد عبد المطلب الشاعر البدوى ، الذى امتاز بشعره العمودى الأصيل ، وعرف بحماره ذى السرج الأنيق .

ولقد أخذت من هؤلاء الشيوخ ما أخذت ، وانضم اليهم بعض المربين ممن درسوا فى انجلترا امثال محمد على المجذوب ولقد وجهنى نحو دراسة لغة اجنبية ، فطرقت باب اللغة الفرنسية فى مدرستها الليلية ، وعلى أيدى بعض معلمى الدروس الخصوصية ، وخطوت فيها خطوات ، وشهدت معركة الشعر الجاهلى ، وكان لاساتذة دار العلوم فيها موقف معارض لطه حسين ، وثار بين الطرفين جدل طويل ، ولم يتح لى أن أسهم فى هذه المعركة ، وان كنت قد تابعتها عن قرب ، ولاحظت أن أستاذ الأدب العربى كان يحاول أن يفتح أبوابا من النقد والمناقشة ماكان أجدرنا ان نتابعه فيها ، والحقيقة بنت البحث ، والأدب العربى ككل أدب عالمى له ظروفه وملابساته ، ولابأس من أن نبحث هذه الظروف فى عمق ، وأن

نتأمل في هذه الملابسات تأملا دقيقا منصفا ، ومن حسن الحظ ان المعركة انتهت الى مواقف ايجابية تؤمن بضرورة النقد ، والتحرر من قيود الماضي البالية .

ولفت نظرى فى « دار العلوم » ـ وفى « مدرسة القضاء الشرعى » من قبل ـ ربطها بجامع مجاور لها يؤدى فيه الطلاب الصلاة في أوقاتها ، وهذه تربية دينية وروحية ما احوجنا اليها ، وفى سن المراهقة والشباب بوجه خاص ، واظننا نستطيع ان نعد مصلى بلا مغالاة فى المرحلة الاعدادية والثانوية ، وفيه يستطيع مدرس الدين ان يطبق تعاليمه عمليا .

ولقد عرفت فى مدرسة دار العلوم زملاء جددا ممن مروا بالتجهيزية ، واشترك بعضهم معى فى فرقة واحدة ، ومنهم « حسن البنا » الذى كان ينافسنى فى الدرس والتحصيل ، دون أن يكون لذلك أثر فى علاقتنا ، وكثيرا ماتبادلنا الحديث فى شئون الشباب ، وتربيته الروحية ، وتخرجنا فى عام واحد ، وأخذ كل واحد منا طريقه الى مدرسة ابتدائية ، فتنقل هو بين الاسماعيلية والقاهرة ، ومررت أنا الآخر بالاسكندرية ثم عدت إلى القاهرة ولم يباعد هذا بيننا كثيرا إلى أن سافرت إلى أوربا ، واستأنفنا علاقتنا بعد عودتى ، وكان يرغب فى أن أكون إلى جانبه فى جماعة « الإخوان المسلمين » . ولقد صارحته أنى أؤيدها إن التزمت بأهدافها الثقافية والسلوكية ، أما أن تسلك ميدان السياسة فذلك طريق سلكته من قبل ، ويتطلب اوضاعا وأساليب لم تتهيأ الجماعة لها .

ولدار العلوم تاريخ طويل ، حافل بالرجال والأعمال ،

فخرجت شيوخا أسهموا اسهاما واضحا فى النهضة اللغوية والأدبية ، وغذيت المكتبة العربية بانتاجهم نثرا وشعرا ، وبما أحيوا من تراث ، وماكتبوا من نقد ، وأسهموا فى تكوين، قيادات سياسية واجتماعية ، وتنشئة أجيال متلاحقة من المثقفين والمفكرين ، والمعلمين والمربين ، ولقد تُرجم لكثير منهم ، ووضعت الكتب لاعلامهم وما اجدرهم ان يكونوا مادة صالحة لدراساتنا الجامعية فى الماجستير والدكتوراه ، ويكفى أن أشير إلى أربعة منهم ، أولهم ، حفنى ناصف الذى حمل راية التجديدِ والإصلاح اللغوى منذ العقد الأول من القرن العشرين ، وتلاه بعد فترة ثلاثة كانوا من مؤسسى مجمع اللغة العربية وهم : أحمد الأسكندرى ، واحمد العوامرى ، وعلى الجارم ، ولهم فيه صفحات خالدة .

الفصل الثامن :

البعثات العلمية

انفتاح على العالم ، واستكمال للدرس والبحث ، وعون على تكوين القادة والرواد ، والتبادل الثقافى بين الأمم قديم قدم الإنسان ، والحضارة الخالدة هى تلك التى تأخذ وتعطى .

وللحضارة الاسلامية شأن كبير فى هذا التبادل ، فقد أخذت واعطت وبعثت بالبعوث الى الاسكندرية والقسطنطينية بحثا عن أصول الفكر اليونانى ، ثم جاء دورها بعد ذلك فى البحث والدرس ، فأعطت فى سخاء إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين عن طريق « بلرم » و« طليطلة » وعواصم إسلامية أخرى ، وكان لهذا العطاء شأنه فى النهضة الأوربية ونشأة العلوم الحديثة فى الوقت الذى ركد فيه البحث والابتكار فى العالم الاسلامى ، واستمر هذا الركود حتى أخريات القرن الثامن عشر .

وفى أوائل القرن التاسع عشر ، بدأت فى مصر نهضة علمية وحضارية على يد محمد على وقد استعان فيها ببعض العلماء والخبراء الفرنسيين ، ولم يقنع بهذا بل شاء أن يكون رعيلا من القادة والرواد من أبناء مصر أنفسهم ، وارسل فى أخريات العقد الثانى من القرن التاسع عشر إلى باريس بعثة

كبيرة من المصريين ، ووضع على رأسها إمامها وشيخها « رفاعة الطهطاوى » الذى يعد الرائد الأول فى الدعوة إلى النهضة المصرية فى ذلك التاريخ ، وكان لهذه البعثة أثرها فى الحركات العلمية فى النصف الأول من القرن الماضى وكان من بين أعضائها ، « على مبارك » الذى وضع اللبنة الأولى لبنيان التعليم المصرى الحديث ، إلا أن خلفاء « محمد على » وبخاصة عباس الأول - لم يسيروا طويلا على نهجه ، ولم يهتموا بمواصلة النهوض الحضارى والتعليمى ، ثم جاء الاستعمار البريطانى الذى لم يكن من سياسته أن يتوسع فى التعليم العالى ، وأن أبقى على مدرستى « المعلمين العليا » و« دار العلوم » وكان كل همه أن تخرج معاهد التعليم صغار الكتبة والحسابيين والاداريين ، ولعل « سعد زغلول » يوم أن كان وزيرا للمعارف مِنْ أول من شجع فى أوائل هذا القرن حركة إرسال البعوث إلى أوروبا لربط الفكر العربى بالفكر الأوروبى . وانصب جهد كثير من هؤلاء المبعوثين فى الغالب على المنهج وطرائق التعليم .

ويوم ان ان قامت الجامعة المصرية القديمة أخذت بما أخذ به « محمد على » من قبل ، فاستقدمت عددا من كبار المستشرقين امثال نللينو الايطالى ، وليتمان الألمانى ، وماسينيون الفرنسى ، لكى يسهموا فى التدريس إلى جانب الاساتذة المصريين ، وحرصت هذه الجامعة على أن توفد بعض خريجيها إلى أوربا ، أمثال طه حسين ، ومنصور فهمى ، وعلى العنانى ، وأحمد ضيف ، وكانوا رواد الحركة الفكرية والأدبية فى تاريخ مصر المعاصرة ، بل فى تاريخ العالم العربى جميعه ، وما أن أنشئت جامعة « فؤاد الأول » حتى سارت على سنن الجامعة المصرية القديمة ، فكان

للاستاذ الاجنبى فيها مكان ملحوظ فى الكليات الجامعية على اختلافها من حقوق ، وآداب ، وعلوم ، وضمت إليها ـ بعد زمن ـ مدارس عالية أخرى ، من هندسة ، وتجارة ، وزراعة .

وبرهنت كلها على أن العلم لا وطن له ، وأنه صنع الانسانية جمعاء ، وتعددت البعوث الى الخارج ، وتنوعت واتجهت نحو العلم والفن والأدب ، والسياسة والاقتصاد ، ولاشك فى أن هؤلاء المبعوثين يعدون فى مقدمة بناة نهضتنا الحضارية والعلمية المعاصرة ، وحرص الأزهر بدوره على أن تكون له بعوث خاصة به ، فأوفد من أوفد الى انجلترا والمانيا ، وكل تلك البعثات قد اضطلعت بها الدولة ، والى جانبها بعوث خاصة تولاها القادرون ، وكانت لها ثمارها الطيبة .

ونمت حركة البعوث إلى أوروبا وأمريكا على مر الزمن ، وتوافر لدينا عدد يعتد به من المبعوثين فى الولايات المتحدة بوجه خاص وصل عام ١٩٥٣ الى نحو خمسمائة ، ومنهم من انتهت مدة بعثته ورغبنا أن نستقدمهم لكي يسهموا فى بناء الوطن ، ولكنهم خشوا الا ينالوا حظهم الذى كانوا ينشدونه ، ولم تتضح أمامهم اهداف الحكم العسكرى حينذاك ، وحاول المسئولون اجتذابهم بشتى الوسائل ، وحين ضاق صدرهم بهم فكروا فى حرمانهم من الجنسية المصرية ، ومن حسن الحظ أنهم لم يذهبوا الى ذلك ، غير أن الموقف كان انذارا قاسيا لهؤلاء المبعوثين ودفعهم الى الاقامة الدائمة ، ورحبت بهم الجامعات والهيئات الاجنبية التى كانوا على صلة بها ، وجاراهم فى ذلك مبعوثون آخرون كانوا يدرسون فى اوروبا ، واصبحت لنا جاليات علمية رتبت حياتها فى الخارج ، وكنا

نعول عليها في أن تضطلع بشيء من اعباء النهضة المنشودة ، وحاولنا اخيرا ان نفتح امامها ابوابا كانت مغلقة ، فعادوا الينا ضيوفا وزائرين ، ثم مالبثوا ان احسوا بواجبهم نحو وطنهم ، وها هم اولاء يسهمون اليوم فى نهضته واعادة بنائه .

وصاحب هذا رغبة فى أن نتجه ببعثاتنا العلمية والفنية نحو البلاد الشرقية ، ورحبت روسيا بذلك ترحيبا ملحوظا ، وابدت رغبتها فى أن يبعث اليها شباب فى سن أصغر ، ويكفى أن يحصلوا على شهادة الدراسة الثانوية ، ولم يخف علينا مغزى هذه الرغبة ، وحرصنا على ألا نستجيب لها ، وحاولنا ايفاد بعض مبعوثينا الحاصلين على الشهادات العالية الى بلاد ماوراء الستار الحديدى ، ولم تشجع هذه التجربة كثيرا على متابعتها ، ووقفت اللغة حجر عثرة فى سبيل المبعوثين والعائدين ، وكنت دائما أقول : « أطلبوا العلم ولو بالصين » ، ولكن ينبغى أن يكون واضحا أمامنا مبدئيا هدف كل بعثة ، وما يمكن ان تحقق من نتائج ، وقد دعيت غير مرة إلى زيارة روسيا ولم أوفق لذلك ، والزيارات شيء ، والبعثات العلمية والفنية شيء آخر .

وضعفت حركة إيفاد البعثات العلمية بعض الشيء فى الخمسينيات والستينيات ، ثم استعادت نشاطها فى السبعينيات ونرجو لها اضطراد النمو ، لاسيما ونحن نتوسع فى التعليم العالى والجامعى ، توسعا ملحوظا ، ولابد من أن نعد لذلك العدة الكافية ، واجتذبت الأقطار الشقيقة عددا غير قليل من قدامى الجامعيين الذين نحن فى أمس الحاجة اليهم ، وايفاد البعثات موقوف على التمكن من لغة اجنبية على

الاقل تعين المبعوث على أداء رسالته فى وقت أقصر ، وهذه احية نلحظ فيها قصورا لايصح السكوت عنه .

واستن « محمد على » فى أول بعثة له سنة ما كان أجداها ، وهى مصاحبة مشرف ورائد لهذه البعثة ، ولقد أحسن اختياره ، واستطاع « رفاعة الطهطاوى » أن يؤدى دوره على أكمل وجه ، وحاولنا فيما بعد أن ننظم هذا الاشراف بانشاء مكاتب للبعثات فى أوروبا وأمريكا ، ثم كسبت هذه المكاتب قدرا من الحصانة الدبلوماسية وذلك بربطها بسفاراتنا فى الخارج ، وما أجدر المستشارين والملحقين الثقافيين أن يكونوا على صلة أوثق بالمبعوثين ، وأن يعاونهم ويوجهوهم ما استطاعوا ، ولايراد بالمبعوث أن ينهل من حياض العلم فحسب ، بل يراد به أن يفهمْ العالم الجديد الذى يعيش فيه ، وأن يخرج منه بتجارب عملية يمكن أن يفيد منها بين أهلة ووطنه ، ويقصر المبعوث كل التقصير إن خرج من بعثته فقط بقراءة بعض الكتب ومتابعة بعض الدروس والامتحانات .

قدر لى أن أسافر إلى فرنسا طلبا للعلم ووصلت الى باريس اول فبراير عام ١٩٢٩ فى أقسى شتاء عرفته أوروبا فى الثلث الأول من هذا القرن ، وكان سفرى بعد عاصفة سياسية لم تعمر طويلا لحسن الحظ ، فقد سبق أن رشحت لبعثة اميرية الى لندن ، وأبت السياسة إلا أن تدخل أنفها ـ كالعادة ـ فى ميدان العلم والثقافة ، وشاءت أن تساوم على هذا الترشيح الذى لم يرع فيه أى اعتبار سياسى ، وطلب من والدى أن يستقبل من حزب أعتنق مبادئه منذ زمن طويل ، فرفض ذلك دون تردد ، وكانت النتيجة أن الغيت البعثة ، ونقلت من لندن

الى « كوم امبو » ولم يسعنى الا أن أرفض هذا الاجراء ، وقدمت استقالتى ، وبعد قليل تهيأت للسفر ، واستبدلت بلندن باريس ، ولم يمض الا نحو عام ، ورد الى حقى على أيدى « بهى الدين بركات » يوم أن كان وزيرا للمعارف بعد أن سقطت الحكومة السابقة ، وأبت السياسة إلا أن تعدو على العلم مرة أخرى أثناء غيابى فى عام ١٩٣٢ ، وعلى أيدى حكومة ثالثة ، فقد اشترك والدى مع زملائه الوفديين فى الاحتجاج على تصرفات تلك الحكومة وامتنع عن دفع الضرائب ، وحجز على البيت ، وبيعت كتبى العربية كلها مع مابيع من أثاث ، ولا أملك إلا أن أقول مع الامام محمد عبده : « قاتل الله ساس ويسوس ومسوس وسائس » .

وصلت الى باريس بعد بدء العام الدراسى بأربعة اشهر ، ومع هذا رغبت فى متابعة الدرس برغم ضعفى الواضح فى اللغة الفرنسية ، واجتذبتنى محاضرات علم الاجتماع التى كان يلقيها بعض شيوخه امثال « بوجليه » و« فوكونيه » وفى جرأة غير عادية تقدمت للامتحان ، وشاء القدر أن أنجح فى التحريرى فقط ، وتابعت السير ، وسأعرض لهذا فى تفصيل فى حديثى عن السربون .

قادتنى الأقدار أول ماوصلت الى فندق صغير على مقربة من محطة « ليون » وكانت ادارته لبنانية ولغته مزيج من العربية والفرنسية ، وصادفت فيه بعض المصريين ، وبخاصة جماعة من رجال الجمارك الذين كانوا يتدربون على النظام الجمركى الفرنسى ، ومن حسن الحظ أنى لم أمكث فى هذا الفندق طويلا ، وانتقلت إلى فندق آخر ، نعمت فيه بصحبة زميل كريم هو المرحوم « محمد كامل الغمراوى »

امام السفارة المصرية حينذاك ، وما كان اكرمه من صديق ، ينفر من قيل وقال ، ويؤثر الصمت على الكلام غير المفيد ، وقد عشنا سويا في هذا الفندق طوال ثلاثة شهور ، نلتقي على مائدة الغداء والعشاء ، وما سأل أحدنا صاحبه قط أين كان ولا أين هو ذاهب ؟ وكانت حجرتي صومعتي لا أبرحها إلا للذهاب الى السربون ، أو للسير خطوات في الحي نفسه .

وفي شهر يونية رغبت في شيء من التغيير ، وقادتني الظروف الى بنسيون في ضاحية من ضواحي باريس هي « سيڤر ڤيل داڤتريه » على مقربة من « بارك سان كلو » وعلى بعد كيلو مترات من « فرساي » وفيه حديقة فسيحة ، وتديره سيدة في سن الستين ، وهي أرملة طبيب أمدها بكثير من معلوماته الطبية ، ولم يكن الى جانبها الا ابنة صغيرة ، ومن يتردد عليها من أقاربها صيفا وشتاء ، وعرفت كيف تختار معاونيها من طباخة ماهرة ، ومسئولة عن نظافة حجرات النوم ، والطعام والاستقبال ، وجنايني يحسن اختيار أزهاره وتعهدها ، ويالها من مديرة ماهرة تحرص على راحة نزلائها ، وتعنى بهم مااستطاعت ، وقد زارني بعض الاصدقاء المصريين ، وشهدوا لها بكرم وسخاء لايلحظ كثيرا لدى ربات البيوت الفرنسيات .

ولقد عشت في بنسيونها ثلاث سنوات أو يزيد ، ولم أفارقها الا يوم أن أضطرت هي للسفر الى « نيس » في الجنوب ولغتي الفرنسية مدينة لها بالشيء الكثير ، لاسيما وقد نشأت وتربت في بلد « ديكارت » وعن طريقها فتحت أمامي أبواب الأسر الفرنسية ، وهي مغلقة عادة ، ولاتفتح في يسر ، ووجهتني نحو أقاليم فرنسا المختلفة شمالا ، وجنوبا ،

شرقا وغربا فزرت الألزاس ، واللورين ، ونورماندى ، وبريتاني ، وجبال الألب ، وجبال البرانس وشواطيء المانش والبحر الأبيض المتوسط ، وحببتنى فى بعض الألعاب الرياضية وليتنى داومت على هذا وعنيت به . ويوم أن انتهت مهمتى الدراسية حرصت على أن أزورها فى « نيس » قبل عودتى ، وكم كانت ترغب في زيارة القاهرة لولا متابعة ابنتها لدرسها .

وقفت عن قصد عند بعثاتنا العلمية ، وما مرت به منذ الربع الأول من القرن الماضى ، وماذاك إلا لأنى أومن بالتبادل الثقافي الذى يربط الحضارات بعضها ببعض ، ويفتح آفاقاً جديدة ، وفى هذا التاريخ القصير دروس يجب أن نفيد منها .

وأولها أن حضارتنا المعاصرة وليدة هذا التبادل ، وكان لمن استدعينا من أساتذة وخبراء توجيه وارشاد ، وفيمن بعثنا من بعوث الي الخارج تكوين لقيادات علمية وعملية أسهمت فى هذا النهوض ، ويبدو ان حياتنا الجامعية فى نشأتها فى أوائل هذا القرن لم تقصر فى هذا التبادل ، وتابعناه طوال خمسين سنة ثم تلكأنا بعض الشيء ، وأخشى ما أخشاه أن نظن أن حياتنا الجامعية المصرية تغنينا عن أن نتطلع الى آفاق أخرى خارجية ، وأسعدنى أن بعض جامعاتنا الناشئة أخيرا أدركت هذه الحاجة ، وسعت الى سدها ، فعقدت صلات مع بعض الجامعات الأوروبية والأمريكية ، واستعادت شيئا من صور تبادل الأساتذة والعلماء ، والأمر فى رأيي يتطلب سياسة مستقرة تأخذ بها الجامعات المصرية جميعها فتستضيف من العلماء والأعلام ، وتبعث البعوث التى تعد مشعل المستقبل ومنار الهداية فيه .

وتحقيقا لذلك لابد أن نعيد للغات الأجنبية اعتبارها فى راحلنا التعليمية ، ولقد أصبح عالمنا صغيرا ومتشابكا الى درجة لاتكفى فيها اللغة الوطنية ، والاساتذة والعلماء اعرف الناس بقيمة اللغة الأجنبية ، وما تمدهم به من زاد متصل ، ودعونا منذ قيام جامعة « فؤاد الأول » الى العناية ببعض اللغات القديمة شرقية كانت أو غربية ، وما أحوجنا الى أن نستعيد هذه العناية ، وأن نعد لها من يستطيعون الاضطلاع بها ، واصبحت اللغة الانجليزية شبه لغة عالمية تمكن عارفها من أن يزور العالم شرقا وغربا ، وان يجد السبيل الى الفهم والتفاهم .

وأخيرا هناك أمر أشرت اليه من قبل ، وهو أن المبعوث لايراد منه فقط ان يجمع معلومات أو أن يقرأ أو يكتب بحثا ليعود بدرجة علمية وانما يراد منه أيضا أن يجنى خبرة ، وأن يمارس تجربة فى حياة من يعيش معهم من الأجانب فى نظمهم .. وفى سلوكهم وفى انتاجهم ويستخلص من ذلك كل مايمكنه من أن يؤدى رسالته على وجهها فى وطنه الأصلى .

ويسوؤنى ان العناية باللغة الاجنبية فى مدارسنا الأميرية فى تدهور متلاحق الى حد ان انشئت مدارس اللغات التى أشرنا اليها من قبل ، وأعتقد أن أبناء القرن العشرين بل الصاعدين الى القرن الحادى والعشرين أحوج مايكونون إلى لغة أجنبية تمكنهم من الوقوف على مايجرى فى العالم الخارجى من فكر وانتاج واختراع وابتكار . وطلاب كلياتنا الجامعية يحسون بفقرهم اللغوى ويكادون يعولون فقط على المترجمات المعاصرة أو على الكتب التقليدية القديمة ولازاد لهم الا من موارد غربية .

الفصل التاسع :

السوربون

لا أظنني فى حاجة أن أتحدث عن هذا المعهد صاحب التاريخ الطويل والمجيد ، واكتفى بأن أوضح بعض جوانب ربما خفيت على كثيرين ، ولعل فى توضيحها مايعود بنا الى تقاليدنا الجامعية السليمة ، والسوربون القديم كليتان من جامعة باريس فى مبنى واحد ، هما كلية الآداب ، وكلية العلوم ، ولايفوتنى أن أشير الى أن السوربون انشئت محاكاة للجامعات الاسلامية القديمة وعلى رأسها الأزهر ، وكان لها شأن فى تاريخ الفكر المدرسى طوال القرون الوسطى ، وبخاصة القرن الثالث عشر ، وقد غذاها ابن سينا وابن رشد بغذاء كان مددا للبحث الفلسفى المسيحى على أيدى رجال امثال القديس (توما الأكوينى) و(دونس اسكوت) . وأقف عند كلية الآداب بخاصة فنلاحظ ان الدرس الجامعى فيها يقوم على محاضرات منتظمة يضطلع بها اساتذة أجلاء كل فى مجال اختصاصه ، ولكل أستاذ من هؤلاء مؤلفاته وبحوثه المنشورة ، والمعروفة للطلاب والدارسين ، ولاشك أن فى هذه المؤلفات عونا على متابعة درسه ، والافادة من علمه .

فليس ثمة محاضرات تلقى خاصة لمادة بعينها وتوزع بها مذكرات ، والى جانب هذا ، فى السوربون مكتبة مفتوحة

الطلاب ، ولاسبيل لبحث علمي دقيق دون الوقوف على مراجعه المختلفة ، وأمر آخر لفت نظرى وهو أن الاستاذ (دولاكروا) عميد كلية الآداب وأستاذ علم النفس الأول لم يكتف بمحاضراته ، بل كلف طلبته ببحوث يعدونها ويلقونها على زملائهم تحت إشرافه ، وهذا تقليد جامعى كان له أثره الكبير فى نفسى ، وقد حرصت أثناء قيامى بالتدريس فى كلية آداب القاهرة على أن أطبقه ، وهذه المحاضرات ملك لاصحابها ، وعلى المستمعين أن يفيدوا منها ماوسعهم ، و(دولاكروا) العميد لم تحل أعباء العمادة دونه والقيام بواجبه كأستاذ ، يحاضر ، ويستقبل تلاميذه لكى يعاونهم فيما هم فى حاجة اليه ، ومسجل الكلية هو المسئول عن شئونها الادارية جميعها . وآسف ان الشئون الادارية فى جامعتنا طغت على نشاطنا العلمى وجاوزت حدودها إلى مدى بعيد .

وامتحانات كلية الآداب فى السوربون امتحانات يراد بها أن تبين مدى فهم الحقائق العلمية ، والتمكن من أصولها ومراجعها ، لايجدى فيها مجرد حفظ ، ولاينفع فيها قلم سيال ، أو عبارات لاتتصل بصميم الموضوع ، ومنهج البحث وطريقة معالجته يعتبران جزءا رئيسيا فى الحكم والتقدير . وكانت لى تجربة فى عامى الدراسى الأول تؤيد هذا كل التأييد ، فانى وقفت جهدى على دراسة مادة الاجتماع ورجعت مااستطعت - وفى حدود قدرتى اللغوية - الى بعض المراجع ، وحاولت أن أتقدم للامتحان ، ولم تكن الفرنسية ملك قلمى ، ولا أداة طيعة على لسانى ، ومع ذلك قدر لى أن انجح لانى كتبت فى الموضوع .

تابعت الدرس فى السوربون حتى نهايته ، وحصلت على

الليسانس بعد عامين أو يزيد ، وهم يأخذون بنظام الشهادات لا بنظام السنوات ، ومتى اكتمل عدد منها حصل على درجة الليسانس . وبعد هذا اصبح لى الحق فى أن أتقدم لشهادة الدكتوراه ، وقد قضيت فى الاعداد لها زمنا أطول مما قضيته للحصول على الليسانس ، خصوصا وقد قصدت الحصول على دكتوراه الدولة بدلا من الاكتفاء بدكتوراه الجامعة ، وتستلزم دكتوراه الدولة تقديم بحثين كاملين ، اتجهت فيهما نحو الفكر الاسلامى، فعالجت فى الرسالة الكبرى « تاريخ منطق أرسطو فى العالم العربى » ووقفت الرسالة الصغرى على « الفارابى ومنزلته فى المدرسة الفلسفية الاسلامية وقد كلفنى هذا ماكلفنى ، فاضطررت للسفر الى انجلترا بحثا عن بعض المخطوطات ، وبخاصة مخطوطة « منطق كتاب الشفاء » لابن سينا ، وكان فى هذه الرحلة ماأتاح لى الفرصة لاستمتع بذخائر المتحف البريطانى ، وماأكثرها ، وهيأت لى هذه الرحلة ايضا أن أتزود بزاد أوفر من اللغة الانجليزية ، وقدر لى أيضا ان أزور ألمانيا وكان نصيبى منها (ميونيخ) ولها هى الأخرى صلتها الوثيقة بالفكر المدرسى ، أما المكتبة الأهلية بباريس فكانت هدفى صباح مساء طوال عامين يزيد .

وكان من حظى أن أستاذا جامعيا فرنسيا كبيرا هو الذى أشرف على بحوثى وأعنى به الاستاذ « اندريه لالند » عرفته مصر ، وكانت له أياد على المصريين فى القاهرة وباريس ، وقد اتصلت به طوال ثلاث سنوات ، فكان الأب الكريم والمرشد الهادى ، وما لقيته مرة إلا وأفدت من توجيهاته ودروسه النافعة ، ويوم أن أكتملت دراساتى وتم نشرها ، حان موعد تحديد يوم المناقشة ، وكان لابد من هذا النشر قبل

المناقشة ، لان ذلك تقليد قديم من تقاليد جامعة باريس ، وهو يقضى بأن تهدى الجامعة مائة نسخة من كل كتاب يقدم للمناقشة ، وما أحوجنا أن نفكر فى هذا تفكيرا جديا بالنسبة لدراستنا الجامعية على اختلافها ، لان هذا النشر يضيف زادا الى المكتبة العربية ، والى مكتبات جامعية غربية مما يضعه مبعوثونا من رسائل بلغات أجنبية ، وللمبعوثين من المصريين ثمار من دراساتهم الجادة تعمر بها المكتبات الجامعية فى عواصم اوربا الكبرى ، ولا أتحدث عن مناقشة رسالتى اللتين أشرت اليهما من قبل ، فقد كانت جلسة علمية كلها جلال وروعة ويكفى أن أشير الى انه قد اضطلع بهذه المناقشة خمسة من كبار الاساتذة الفرنسيين اكتفى بأن اشير الى ثلاثة منهم هم الاستاذ (لالند) المشرف والاستاذ (بربيه) أستاذ تاريخ الفلسفة القديمة ، والاستاذ (لويس ماسينيون) الذى أسهم فى تاريخ الفكر الصوفى الاسلامى اسهاما كبيرا ، وكان ثلاثتهم ممن حاضروا فى القاهرة ودرسوا فيها ، وقد زاملت الاستاذ (لالند) بعد عودتى من أوربا فى قسم الفلسفة بآداب القاهرة ، ولم يفتنى فى اية زيارة لباريس أن أتصل به ، واستمتع بمجلسه ، وكان آخر لقاء لى معه قبل وفاته بعام واحد ، واذكر انه ـ وقد جاوز التسعين ـ كان يسعد بالاشراف على حديقة بيته ، ويحرص على أن يحفظ كل يوم قدرا من الكلمات اللاتينية تمرينا لذاكرته ، واستخداما لها . قيادات فكرية نحمد الله على انا اتصلنا بها وأخذنا منها .

واستطعت أيضا أن أزور مكتبة البودليان بكمبريدج ، وهى من أحفظ مكتبات انجلترا لفلسفة القرون الوسطى المسيحية والاسلامية . ويكفى أن اشير ان ترميمها منذ ثلاثين سنة أو

يزيد قد كشف عن صورة للرئيس ابن سينا بين افلاطون وأرسطو من أعلام الفكر اليوناني .

ولايفوتنى أن أشير الى أن باريس اصبحت اليوم لاتشتمل على سربون واحدة ، بل أنشئت الى جانبها اثنتا عشرة سربونا أخرى ، لكى تخفف الضغط على المعهد القديم ولكى تواجه الحشد الكبير من شباب الدارسين والباحثين ، وهذه فكرة تدعونا الى التأمل فيما يتعلق بمنشآتنا الجامعية ، الا يكون من الخير أن نستحدث منها فروعا فى البلد الواحد بدلا من أن نؤسس جامعات متعددة ، قد تتباين طرائقها ، وتتعارض أهدافها ؟ وفى القاهرة الآن أربع جامعات ، ولاأدرى ماذا سيكون المصير غدا .

الفصل العاشر :

المكتبة الأهلية بباريس

المكتبة العامة خزانة الأدب والعلم والحكمة ، ومورد الباحثين والدارسين ، تحتفظ بتراث الماضى ، وتحاول أن تضيف اليه ماتستطيع الحصول عليه من ثمار الحاضر ، أخذت بها الحضارات القديمة على اختلافها ، ويكفى أن أشير فى التاريخ القديم الى مكتبة الاسكندرية التى جمعت قدرا غير قليل من التراث اليونانى والرومانى والعبرى والسريانى ، وتلتها فى القرون الوسطى مكتبات أخرى أخصها « بيت الحكمة » ببغداد الذى كان فى أن واحد خزانة كتب ومعهد درس وبحث ، فقد تولى فيها « حنين بن إسحق » الترجمة من اليونانية أو السريانية الى اللغة العربية ، وكان لها شأنها فى نشأة البحث العلمى فى الاسلام ، وعلى غرار بيت الحكمة قامت مكتبات مختلفة فى الشرق والغرب ، ومن أقدمها ، « مكتبة الفاتيكان » فى روما و« مكتبة الأزهر » فى القاهرة . وفى التاريخ الحديث ازدادت العناية بجمع الكتب وحفظها ، وأسست مكتبات كثيرة فى أوربا وأمريكا ، وكان من حظى أن زرت منها عددا غير قليل ، فقضيت بعض الوقت فى مكتبة « المتحف البريطانى » بلندن ، ومكتبة « البودليان » بكمبريدج واتيحت لى فرصة زيارة بعض المكتبات الأمريكية

الكبرى وفى مقدمتها مكتبة جامعة « هارفرد» ومكتبة الكونجرس بواشنطن .

لكن واحدة من هذه لم تستوقفنى بقدر ما استقوفتنى « المكتبة الأهلية » بباريس ، وهى لاشك من أهم المكتبات العالمية ، لها تاريخ طويل يرجع الى العهد الملكى والامبراطورى ، فتوفر لها ماجمعته خزائن الملوك الفرنسيين فى قصورهم ، وانتهى بها المطاف الى أن اصبح مقرها ذلك المبنى الهادىء الفسيح بباريس على مقربة من « اللوفر » وتوافرت لها صالات اطلاع فسيحة ، وقسمت نفائسها تقسيما فنيا مكتبيا كاملا ، ونصيبها من المخطوطات جد كبير ، وبخاصة المخطوطات اللاتينية ، وفهرستها دقيقة وشاملة ، والخدمة فيها محكمة ، وقد ترددت عليها ثلاث سنوات كاملة ، وكانت دار العلم المحبب الى فيما بين أعوام واحد وثلاثين وأربعة وثلاثين ، ووجدت فيها كل ضالتى فيما أنا بصدده ، سواء كان باللغة الفرنسية أم بلغات أخرى حديثة كالانجليزية والألمانية ، فيها القديم والحديث معا ، وفيها الهدوء والسكون التام الذى يمكن القارىء المطلع من أن يؤدى رسالته على أكمل وجه ، والاطلاع فيها يُنسى صاحبه أن باريس مدينة الاضواء والحركة ، والفن والمسرح ، بالرغم من قربها من « الكوميدى فرانسيز » عرفت فيها زملاء باحثين ودارسين ، بين شرقيين وغربيين .. مدنيين ودينيين ، وكلهم جد وعمل ، وكم وددت أن أعود اليها من حين لآخر ، بعد ان أنقضى درسى فى فرنسا ، ولكن أعباء الحياة لم تمكنى من ذلك .

ويوم أن عدت الى الوطن ، حاولت أن أتتبع سير عمل المكتبات فى القاهرة ، وفى معاهدنا العلمية الكبرى ، وسرتنى

مكتبة جامعة القاهرة ـ وكانت ناشئة ـ فى مقرها ونظمها ، وحُبب إلىَّ أن أتردد عليها لاسيما وقد وجدت فيها بعض قدامى الخبيرين فى فن المكتبات . باعدت الأيام بينى وبينها زمنا ، ثم عدت اليها أخيرا فوجدت أمورها قد انقلبت رأسا على عقب ، فضاقت المكتبة بما فيها ومن فيها .. وفقدت جو الهدوء الضرورى للبحث والدرس ، وفاتها الترتيب والنظام الذى قامت عليه .

وليست مكتبتنا الكبرى أو « دار الكتب » كما نسميها ـ أحسن حظا ـ وهذا أمر ينبغى أن نتعهده وأن نعد له العدة الملائمة ، وسبيل ذلك إعداد خزائن ملائمة لتراثنا العربى الذى لانزال نملك منه ثروة لايقبل ان نفرط فيها ، وكم من مخطوطات سارع اليها البلى ، لانها لم تتعهد التعهد الكافى ، ولاحياة لمكتبة ، ولاسبيل للاستفادة منها إلا أن توافرت لها فهرسة دقيقة كاملة ، وقام على أمرها مختصون فى فن المكتبات ، وملمون بالأصول والمراجع العلمية والأدبية والفلسفية ، وقد حاولنا أن نعد بعض هؤلاء المتخصصين ، وأنشأنا أقساما لتدريبهم ، ولكننا لم نتابع ذلك متابعة صادقة ، وفى كلية آداب القاهرة قسم نبنى عليه آمالا أرجو أن تخرج لنا شبابا معدا إعدادا تاما للإسهام فى هذا المضمار .

ولامحل لأن نتحدث عن مكتبة عامة إلا إذا جمعت فيها المراجع التى تتلاءم مع حاجات قصادها ، ثم رتبت ترتيبا مكتبيا دقيقا ، وتولى أمرها مختصون فى فن المكتبات .

الفصل الحادى عشر :

حياة المبعوثين فى الخارج

حرصنا فى أوائل القرن الماضى على أن يكون على رأس كل بعثة علمية مشرف خاص ، يرعاها ، ويتعهد شئونها ، وكان رفاعة الطهطاوى كما أشرنا من قبل هو المشرف الأول على بعثتنا الكبرى التى أوفدناها الى فرنسا ، وسرنا على ذلك زمنا ثم توقفت البعوث ، ولم نعد إليها إلا فى أواخر القرن الماضى . ويظهر أنا آثرنا أن نترك للمبعوث حريته في تدبير أموره والاضطلاع بمهمته . واكتفينا بأن ننشىء ادارات للبعثات فى العواصم الكبرى باروبا ، وكان لمديرى هذه الادارات صلة بالمبعوثين وان لم تكن مباشرة ، هذا إلى أنا استحدثنا فكرة ارسال بعوث فى سن مبكرة بعد الدراسة الثانوية ، وإن صح هذا فى الدراسات العملية ، فانه لم يكن موفقا فى الدراسات النظرية ، وصغار السن على كل حال أحوج من غيرهم الى من يشرف عليهم ويعاونهم ، ومن حسن الحظ أن التزمنا اخيرا بأن نقفْ بعوثنا على من اتموا دراستهم العالية ، وقد وفق كثيرون من هؤلاء المبعوثين فى اداء واجبهم، وإن طال بهم الزمن احيانا ، ومدت لهم سنة أو اكثر لاتمام دراستهم ، ولايراد بالبعثة ان تقف عند الدرس والقراءة ، بل يقصد بها ايضا اتصال بالحياة الجديدة ،

ومحاولة فهمها ، وتتبع عادات من يعيش معهم المبعوث ونظام حياتهم فى اسرهم وخارجها .

فهى إلى حد ما تجربة شخصية إن احسنت طابت ثمارها ، وليس معنى هذا أن يبعد المبعوث عن مواطنيه ان وجد إلى جانبه بعضا منهم ، ولكن مما يؤسف له أنّا نميل عادة إلى مصاحبة زملائنا من أبناء بلادنا أو البلاد المجاورة لنا ، ونقصر فى تعرف العالم الجديد الذى نعيش فيه ، وكان من نتائج هذا أن عاد نفر من المبعوثين بشهادات علمية دون أن يحققوا تجربة عملية كان يمكن أن يستمدوا منها بعض الدروس النافعة ، والأسرة الاجنبية ليست مفتوحة فى يسر غالبا ، ولكن إن وفق لها المبعوث أضافت الى درسه وبحثه معلومات لايستطيع الحصول عليها عن طريق الكتب والقراءة ، ويجود عن طريقها لغته الاجنبية تجويدا يعز ان يحصل عليه عن طريق سماع المحاضرات وقراءة الكتب ، يراد بالبعثة العلمية أن تخلق روحا ، وتبعث نشاطا جديدا ، وكان من حظنا ان ماحققناه من تجديد فى الفكر ونظم الحياة ، إنما تم على ايدى مبعوثين استطاعوا ان يحيوا حياتهم كاملة فى البلاد الاجنبية ، ومنهم من اختار زوجته من البلد الذى كان يقيم فيه ، ومن بين هؤلاء الزوجات من ادى رسالة نافعة .

وقد عرف مبعوثونا كيف يلائمون بين قديمنا وجديد الغرب دون اسراف أو تعصب ، وربما غالى بعضهم فى نزعته ثم قضت عليه تقاليد وطنه بأن يقف الموقف السليم . ومن حسن حظى ، أنى لم أسكن باريس إلا لبضعة أشهر دخلتها فى أوائل فبراير من عام تسع وعشرين وتسعمائة وألف وقدر لى أن أسكن فى (بنسيون) تديره أسرة لبنانية . فضللت زمنا

بين اللهجة العربية ولهجات لبنان ، واختلطت فرنسيتى بألفاظ شبه عربية ، وكان لابد لى أن أبحث عن سكن آخر ، ومن محاسن الصدف أنى وفقت لزميل وصديق قديم هو المرحوم الاستاذ محمد كامل الغمراوى إمام السفارة المصرية حينذاك ، عشتنا معا فى مدرسة القضاء زمنا ، ثم باعدت سنوات بيننا والتقينا اخيرا فى مدينة النور ، وكان يسكن فندقا فى مكان هادىء ، انضممت اليه ، وعشنا معا دون إن يعطل أحدنا الآخر ، وأصدقاء الغمراوى يعرفون أنه كان يؤثر الصمت ، ولايتكلم إلا لسبب وغاية ، وفى شهر يونيو من العام نفسه ، بدا لى أن أخرج الى ضواحى باريس ، وأستأذنت زميلى الغمراوى فى ذلك فشجعنى عليه ، ووفقت لأسرة فرنسية تقيم فى ضاحية (سيفر فيل دافريه) وقضيت معها اربع سنوات كاملة ، وشاء الغمراوى أن ينضم الىّ ، ووقع اختياره على أسرة أخرى لم يكن موفقا فيها قدر توفيقى ، وفى الحق ان ربة هذه الأسرة التى عشت فيها كانت أرملة طبيب انتقل الى جوار ربه ، وتركها تضطلع بعبئها وعبء بنت صغيرة ، وكانت تسكن فى منزل ريفى محكم البناء ، وفى حديقة كبيرة فيها ثمار وأزهار ، وبقدر ما ماكان صيفنا مزهرا ، كان شتاؤنا عابسا ، وكنت على مقربة من غابة كبيرة مجاورة هى غابة (سان كلو) وكنت أتردد عليها من حين لاخر ، وزهدنى مقامى هذا فى الذهاب الى باريس « اللهم الا لحاجة ملحة او لمتابعة محاضرة ، او الرجوع الى مكتبة ، أو زيارة صديق ، والمسافة بين « سيفر » وباريس قصيرة ، يقطعها قطار كهربائى فى نحو خمس عشرة دقيقة ، ورحلاته متصلة لاتنقطع . أما الاسرة نفسها فقد علمتنى الشىء الكثير ، اكسبتنى لهجة فرنسية صحيحة ، وكانت ربتها تباهى بانها من بلد (ديكارت) وفى الحق انها كانت ترعى نطقى

بقدر ما كانت ترعى طعامى وشرابى ، بل وصحتى اذا ما المت بى وعكة ما ، ولاغرابة فى ذلك لانها ـ كما قلت ـ كانت زوجة طبيب وكانت تسعد دائما بأن تفيد من حولها بخبرتها الطبية ، وليست خبرتها فى شئون المنزل ، بأقل من هذه الرعاية ، فأطباقها ، ممتازة ، وصنعتها متقنة ، قد شهد بذلك اصدقائى ممن زارونى فى ضاحيتى القريبة ، وكان من بينهم المرحوم محمد عبد الخالق مدكور الذى مر بباريس عام ثلاثين ورغب فى أن يطمئن على مسكنى واقامتى ، وهذه السيدة الفاضلة كانت من اسرة كريمة ، ولها علاقات بأسر فرنسية حرصت على أن تعرفنى بهم ، فشهدت حفلاتهم واعيادهم ، ووقفت على تقاليدهم وعاداتهم ، واذكر أن أحد شيوخ هذه الاسرة دعانا الى عشاء فى ليلة عيد الميلاد وقدم للمدعوين نبيذا من مخزنه الخاص ، وقال انه معتق يرجع الى سنة ١٩٠٠ فقلت له : إنه أكبر منى سنا وعلى هذا لا اجرؤ على ان اتذوقه !! وكان من افراد الاسرة طبيب أشعة آخر ممتاز ، كان يعمل فى المستشفى الأمريكى بباريس ، وارتبطنا بصلات وثيقة ، زرته وعرفت بنيه الأربعة ، وقدر لى ان اعود الى باريس عام تسع واربعين ، ومعى زوجى وابنتى وكانت الزوجة فى حاجة الى علاج ، فعرضت امرها على الصديق القديم الدكتور (اندريه شيروه) الذى عاوننا معاونة صادقة ، حجز لنا فندقا قبل ان نصل وارتبط بمواعيد مع الأطباء المختصين ، واضطررنا لعملية جراحية ، وهو الذى اختار الطبيب والمستشفى الملائمين لها ، وسبق لى ان عرفت زوجتى بربة الأسرة فى رحلة سابقة عام ستة وثلاثين ، ذلك أن هذه السيدة اضطرت لان تهجر بيتها فى سيفر ، وان تقيم فى نيس مع ابناء اختها الكبرى ، وحرصت فى تلك الرحلة على أن أمر بها ، وان أزورها ، وقد سبق لها إبان اقامتى معها ان أعربت عن

استعدادها لان تحضر الى مصر ان دعوتها الى ذلك على أن تكون امى الثانية كما كانت تقول هى ، وقد ذكرت زوجي بهذا العرض حين رأتها ، وكم اسفنا نحن الاثنان ، لاننا لم نوفق لذلك ، وفى هذه الصلة ، بتلك الاسر الفرنسية ما دفعنى الى ان اقف ما استطعت على مدن فرنسا واقسامها الكبرى ، فزرت اول مازرت جبال البرانس على الحدود بين فرنسا واسبانيا ، واستمتعت ببعض المياه المعدنية هناك التى تعالج الحنجرة والانف ، وفى زيارات متلاحقة زرت الجنوب غير مرة ، وقضيت فى الألب الفرنسية فترة ممتعة من فصل الشتاء ، وامتدت رحلاتى الى الشمال ، فزرت منطقة الالزاس ، وانتهيت الى حدودها مع المانيا ، وختمت هذه الرحلات بزيارة (بريتانيا) ، ولكل اقليم من هذه الاقاليم خصائصه الجغرافية والمناخية ، ومناظره الطبيعية الممتعة ، ولم تقف رحلاتى اثناء بعثتى عند فرنسا ، بل جاوزتها الى انجلترا ، وايطاليا ، وألمانيا ، وقد أفادنى هذا كثيرا فى تفهم الحضارة الغربية ، والوقوف على مافيها من جوانب ينبغى أن نفيد منها ، وما أدت اليه من اخطاء يجب ان نتحرج منها ، تجربة شئت ان اقف عندها بعض الشىء راجيا أن يكون فيها مايوجه شباب المبعوثين ، ومايحملهم على أن يعرفوا الحضارة الغربية على حقيقتها .

دروس

مرت بنا طوال هذا القرن تطورات متعاقبة ومتلاحقة ، متنوعة ومتعددة ، فمنها الحضارى والعمرانى ، ومنها الاجتماعى والسياسى ، ومنها الثقافى والعلمى ، جاءت وليدة رغبتنا فى النهوض والتقدم ، أو صدى لمحاكاة بلاد وأمم ناهضة أخرى شئنا أن نجاريها وأحكمنا المجاراة ، أو أخطأنا فوقعنا فى تقليد أعمى ، نتابع النهوض والتقدم أحيانا أو نتلكأ أحيانا أخرى ، وقد عايشت هذا التطور ، وأسهمت فى بعض تجاربه ، وحاولت فى الصفحات السابقة أن أعرض لكثير من نماذجه ، وفى هذه النماذج مايملى علينا دروسا إن كانت قد فاتتنا فى الماضى ، فآمل ألا تفوتنا فى الحاضر والمستقل .

١ ـ فوقفت عند « قرية أبو النمرس » ، وليست إلا واحدة من قرى مصرية كثيرة ، ازداد سكانها ، واتسع عمرانها ، وجاء فى الغالب محض الصدفة ، وتحت ضغط الحاجة دون تخطيط أو تنسيق ، ولو اتجهنا فى جد نحو « المجالس المحلية » فى القرية أو فى المدينة ، وأخذنا أنفسنا بتخطيط جاد لاتقينا كثيرا من بعثرة قرانا ومدننا ، واذا كان هذا قد فاتنا فى الماضى فما أجدرنا أن نأخذ أنفسنا به بدقة اليوم ، وهناك وعى قروى يبعث على الأمل ، ولكنه يحتاج الى قيادة تؤمن بالنهوض ، وتحرص على التوجيه والتخطيط ، وقد تحدثنا عن « كوردون المدن » ولم نضعه موضع التنفيذ حتى الآن ، وما أحوجنا أن نفعل .

وبقدر ما نأسف على المدن التى تكونت اعتباطا ، نسعد بالمدن الجديدة التى تؤسس بعد درس وتخطيط وتنسيق ، وما أجدرنا أن نأخذ هذا فى جد وحزم ، فلا نسمح بمخالفات أو مجاملات .

٢ ـ وقفت أيضا عند « كتّاب القرية » لأبتملى منه درسين مهمين ، أولهما : الصلة الروحية بين المعلم وتلميذه الصغير .
ثانيهما : تحديد عدد أبناء هذا الكتاب بحيث تشملهم رعاية سيدنا كاملة ، وما أحوج رياض الأطفال والمدارس الابتدائية بل الاعدادية أيضا أن تأخذ نفسها بذلك ، فيقوم على أمرها المعلم الأب والمعلمة الأم ، ويحمل هذان مايمكنهما من أداء رسالتهما على وجه كامل ، ولم يبق محل للعودة إلى « كتّاب القرية » وإن نادى بهذا من ينادى ، ذلك لأن مواطن القرن العشرين ، والقرن الحادى والعشرين بالأولى ، فى حاجة ماسة الى ثقافة وتعليم أشمل وأدق ، وأصبح « فك الخط » لايكفى المواطن الصحيح فى شىء ، وقد أخذنا بالتعليم الأساسى ، وهو الذى يمكننا من أن نعد المواطن إعدادا يستطيع أن يواجه به أعباء الحياة .

وأدعو الى تحفيظ الناشئين قدرا من القرآن فى مرحلة التعليم الأساسى ، بشرط أن يوضّح هذا القدر ، وان يقرب إلى عقول الأطفال ما أمكن ، أما حفظ القرآن كاملا فله أقسام متخصصة ، يجب أن تخضع لرقابة تامة ، وأن يرسم لها منهج واضح .

٣ ـ ومايقال عن « الكتّاب » يمكن أن يقال عن « المعاهد

الدينية » بفارق مهم ، وهو أن هذه المعاهد جاءت فعلا تلبية لرغبة في النهوض والتقدم ، وتطوير الدرس الأزهرى تطويرا يتلاقى مع متطلبات القرن العشرين ، وقد اصبحت هذه المعاهد قريبة كل القرب من المدارس الابتدائية والاعدادية ، وآن الأوان لأن ينشأ الطفل المصرى تنشئة متحدة فى المدرسة الأميرية أو المعهد الدينى ، ولنسمها جميعا مدارس أميرية أو معاهد دينية ، المهم هو أن نخلص من بقية من بقايا الطائفية الثقافية ، ونحن فى حاجة الى درس دينى ، وتربية روحية ، واجادة اللغة الوطنية فى المدرسة الأميرية بقدر حاجتنا إلى ذلك فى المعهد الدينى .

ولابأس من أن يفتح باب لغة اجنبية امام هؤلاء الناشئين ، وبذا يصبحون جميعا أمة واحدة .

٤ ـ أخذنا بنظام « البعثات الدراسية » لكى نفتح أعيننا على الخارج ، وقد أدت هذه البعثات الى تكوين جيل من القادة والمصلحين ، كان لهم شأنهم فى تطورنا ونهوضنا ، والصلات العالمية تتوثق وتتأكد عاما بعد عام ، ومن الحمق أن نتحدث اليوم عن اغلاق النوافذ والأبواب المفتوحة للعلاقات الثقافية والحضارية ، ولايقول بهذا الا من ضاق أفقه ، وضعفت عزيمته ، وكل مانرجوه أن تكون لبعثاتنا أهداف محددة ، وأن يقوم الاختيار فيها على أساس سليم ، وأن تحظى برعاية تتابع نشاطها وجهودها ، وأخشى ما أخشاه أن تكون هذه الرعاية اليوم دون المستوى ، وفى العلاقات الثقافية مايمكننا من تبادل لاكتساب خبرات ومعلومات جديدة ومن الخطأ أن يظن أن تعليمنا العالى والجامعى يغنينا عن

السفر والرحلات ، ذلك لأن الرحلة نفسها درس وكسب لما أحوجنا اليهما .

٥ - عقدت عن قصد فصلا عن « المكتبة الأهلية بباريس » ، وذلك لأنى أومن بأن البحث العلمى الدقيق لايمكن أن يتحقق إلا أن وقفنا على مراجعة وأصوله المختلفة فى المكتبات الخاصة والعامة ، ولابد لنا من أن نعود طلاب العلم فى الجامعات أو المعاهد العالية على الرجوع الى هذه المصادر ، وأن نشرح لهم كيف يفيدون منها ، وهذا أمر آسف ان أقول إننا نفتقده فى المعاهد العالية على اختلافها ، فقد تحول الدرس العالى والجامعى الى صورة من صور الحفظ والتلقين التى أخذنا بها فى الدراسة الثانوية ، وكم أود أن تحل كتب مؤلفة وبحوث متخصصة محل المذكرات الجامعية التى كثيرا ماوضعت على عجل ، ولم تنته إلى آراء ونظريات يمكن الاعتماد عليها .

ومن حسن الحظ أن مصر تستعيد موقفها القديم الذى كانت فيه ثقافيا حلقة وصل بين الشرق والغرب عن طريق مدرسة الاسكندرية ومكتبتها ، وكم أنا سعيد بهذه العودة وأملى كبير فى أن يكون لنا فى مكتبتنا الجديدة العالمية اسهام مصرى يحرز مكانه بين الوان الاسهام العالمى المختلفة .

البـــاب الثانـــى :

حياتنا الجامعية

حياتنا الجامعية

أساسها بحث حر طليق ، ودرس متعمق متخصص ، يفتح أبوابه للعلاقات الثقافية على اختلافها ، يأخذ عنها ، ويضيف اليها مايضيف ، ولنا حياة جامعية قديمة مثلها الأزهر فيما يزيد على عشرة قرون ، وقد أنشئت على غراره جامعات أخرى ، كالسربون فى فرنسا ، واكسفورد فى انجلترا ، وازدهر البحث الجامعى فى الأزهر ، يوم أن ازدهرت الحضارة الاسلامية وكانت رائدة ، ثم توقف السير عدة قرون ، أغلق الأزهر فيها الباب على نفسه ، ووقف عند تراث الماضى ، ولم يتابع النهضة العلمية الحديثة .

وكان لابد من التطوير ، وقد أشرنا الى ذلك فى فصول سابقة ، وخطا محمد على الخطوة الأولى فى أوائل القرن الماضى ، وانشأ « مدرسة الطب » ومدرسة « المهندسخانة » على غرار المدارس العملية الحديثة ، واسست بعدهما فى الربع الأخير من القرن الماضى معاهد عالية أخرى ، كمدرسة « دار العلوم » ومدرسة « المعلمين العليا » و« مدرسة الحقوق » الا أن هذه كلها كانت مدارس مهنية لم تتسم بسمات الدرس الجامعى الطليق ، فتحت أعينها حقا على الفكر

العربى ، ولكنها لم تهدف الى بحث عميق ، ودرس متخصص ، يمكن أن يؤدى الى اضافات علمية جديدة .

وفى أوائل القرن العشرين ، شئنا أن نضع اللبنة الأولى فى بنيان التعليم الجامعى الحديث ، فأنشأنا « الجامعة المصرية القديمة » التى أردنا ان نربط فيها الحاضر بالماضى ، وان نهتدى بهدى كبار بعض العلماء الغربيين ، وكانت ولاشك خطوة على الطريق ، ومن مزاياها انها كانت جامعة أهلية ، انبعثت من رغبة الشعب ، وعبرت عن ميله الى التطوير والتجديد ، وقد قصرت جهودها على مايشبه « كلية الآداب » في جامعاتنا المعاصرة ، وخرجت الرعيل الأول الذى حمل راية البحث العلمى الحديث .

وحلت محلها فى العقد الثالث من هذا القرن ، « جامعة فؤاد الأول » التي وسعت نطاق البحث الجامعى ، وأنشأت اربع كليات هى : « الطب » التى ورثت مدرسة الطب القديمة و« الآداب » التى ورثت الجامعة المصرية القديمة ، و« الحقوق » التى حلت محل « مدرسة الحقوق السلطانية » والعلوم التى حلت محل مدرسة المعلمين العليا وكل ذلك فى نهج علمى حديث ، ورغبة اكيدة فى الاسهام فى ميدان البحث والابتكار المعاصر ، ومن حسن حظ هذه الجامعة الناشئة أنه قام على أمرها رواد آمنوا بالرسالة الجامعية الحقة ، ونهلوا من حياض العلم الحديث ماوسعهم ، واستطاعوا ان يضيفوا اليها قيما لها وزنها ، فأكدوا حيوية البحث بكل قواهم ، وعززوا استقلال الجامعة ما أمكنهم ، وآمنوا إيمانا جازما بأن العلم لا وطن له ، فاستقدموا كبار العلماء والمتخصصين ، دون تقيد بجنس أو وطن ، واستجاب المسئولون لطلباتهم

وتوجيهاتهم ، وحظيت الجامعة والجامعيون باحترام كبير ، واتصلت « جامعة فؤاد الأول » بكثير من الجامعات العالمية الكبرى ، واصبحت محل تقدير ورعاية ، ولم تقف عند هذه الكليات الأربع التى أشرنا اليها ، بل اضافت اليها ـ فيما بعد ـ كليات أخرى ، كالتجارة والزراعة ، وحققت فى الربع الثانى من هذا القرن نجاحا ملحوظا ، واصبحت الجامعة الأم التى تفرعت منها جامعات أخرى قضى بها النمو السكانى والتطور الحضارى وفى مقدمتها « جامعة الاسكندرية » التى تغذت اساسا بخريجى جامعة « القاهرة » وعولت عليهم كل التعويل ، وقضت نحو عشرين عاما فى نشأة وتكوين ، حتى استطاعت ان تؤسس مبانيها الخاصة بها ، من كليات ، ومعامل ، ومكتبات ، وأن تعد جيلا جامعيا للاضطلاع برسالتها ، وكم كانت الانتدابات فى البداية حجرة عثرة فى طريقها والمسافة بين القاهرة والاسكندرية ليست بالقصيرة ، واذا كانت عاصمتنا الأولى قد اعتدت بجامعتها فان العاصمة الثانية تباهى هى الأخرى بجامعة تحمل اسمها ، وتأمل الا تنقطع الصلة بين الجامعتين ، وأن تعقد بينهما علاقات متلاحقة ، ولا اشك فى انهما يتعاملان الآن معاملة الند للند ، ودعت الحاجة الى ان تنشأ فى القاهرة جامعة أخرى ، لكى تخفف الضغط على الجامعة الأم ، وقد تحقق قدر من التنافس والتعاون المجدي والمحمود بين « جامعة القاهرة » و« جامعة عين شمس » ولعل هذا التنافس هو الذى دفع الجامعة الثانية الى ان تأخذ بشىء من الحيطة والدقة فى اختيار طلابها ، وأن تحاول الابتكار والتجديد ، ودون أن ندخل فى مقارنة بين هاتين الجامعتين ، نستطيع ان نقرر أن فى وجودهما معا خيرا وبركة .

وكان لابد لصعيد مصر أن يطالب بجامعة خاصة ، وقد أجيب الى رغبته ، وقضت جامعة أسيوط نحو خمس عشرة سنة فى البناء والتكوين ، واصبحت اليوم بدورها جامعة مستقلة فى كلياتها ومعاهدها ، ومكتباتها ومعاملها .

وليتنا وقفنا عند هذه الجامعات الأربع زمنا ، واكتفينا بإنشاء فروع مكملة لها لسد الحاجة ومواجهة متطلبات النمو السكانى والحضارى ، وبذا نمنح أنفسنا وقتا كافيا لدرس مشكلة التعليم الجامعى ورسم تخطيط دقيق محكم له ، ولكن السياسة والنزعة الاقليمية اقحمتا أنفسهما فى ميدان ماكان اغناه عنهما ، وفوجئنا بانشاء ثمان جامعات اقليمية ، لم نفكر فى جد أن نواجهها ولاكيف نعولها ، وليست الجامعة مجرد اسم او ادارة خاصة ، بل انها تتطلب ابنية ومعاهد ، واجهزة وادوات ، وتقوم قبل كل هذا على الاستاذ الجدير بالتدريس الجامعى ، والا اصبحت اسماء بلا مسميات ، وماذا كان يضيرنا لو اكتفينا بانشاء فروع لبعض كليات جامعة اسيوط مثلا فى الجنوب ، أو جامعة الاسكندرية فى الشمال وتركنا هذه الفروع تنمو نموها الطبيعى على مر الزمن ، فتصبح كليات مستقلة لها نظمها وقواعدها ؟ وبوجه خاص ، من المجازفة ان ننشىء كلية عملية دون ان نعد لها كل ماهى فى حاجة اليه ، ونلحظ ان اقساما كثيرة فى كلياتنا لاتستكمل كادرها الجامعى ، وآسف أن يكون من بينها مايعول على المعيد والمدرس المساعد اكثر من تعويله على المدرس والاستاذ ، وكنا نتفكه منذ ثلاثين عاما بعبارة شاعت وهى « الاستاذ تاكسى » ويراد بها الاستاذ المتردد بين جامعتى القاهرة وعين شمس بواسطة التاكسى ، فهل فى وسعنا اليوم

ان نتحدث عن « الاستاذ طيارة » لكى يقطع المسافة بين الاسكندرية واسيوط ، حقا لقد اضطرت باريس فى السنوات الاخيرة ان تضيف الى السربون القديمة نحو اثنتى عشرة سربونا جديدة ، لكى تفسح المجال للطلاب والدارسين ، وتخفف الضغط عن المعهد القديم ، وها نحن اولاء نضيف الى جامعتى « القاهرة » و« عين شمس » جامعة ثالثة هى « جامعة الأزهر » لها تخصصاتها وكلياتها ، ثم اضطررنا اخيرا الى انشاء جامعة رابعة هى « جامعة حلوان » وقيمة كل جامعة فيمن تكون وتخرج ، وماتنتهى اليه من بحث ودرس ، واذا كانت قد طغت علينا فكرة الكم فى التعليم العام فانا لانقرها بحال فى التعليم العالى والمتخصص .

واصطدم التعليم الجامعي بمشكلة أخرى ، هى اضطلاع كثيرين من شيوخ الجامعيين بالتدريس فى الجامعات والمعاهد العربية والافريقية ، وتلك رسالة ما أجدرنا ان نضطلع بها ، ولكن لم نخطط لها التخطيط الملائم ، ولم نفكر فى معاهدنا بقدر مانبذله من جهد فى المعاهد الأخرى فانقطعت السلسلة فى دراسات وتخصصات مختلفة ، واصبحت بعض الكليات فى الجامعات العربية اغنى بكبار رجالنا العلميين من كلياتنا المصرية ، وحرم هؤلاء الشيوخ فى الغالب من مكتباتهم ، فلم تتح لهم فرصة الدرس الهادئ والبحث العميق ، وبعدت الشقة بين هؤلاء الشيوخ وبين تلاميذهم الذين تركوهم فى مصر ، ويحس الجامعيون بذلك الفراغ الموجود فى كلياتنا من نقص الاستاذ والاستاذ المساعد والتعويل بخاصة على المعيد والمدرس المساعد ، ولجلال الشيوخ ورعايتهم اثر كبير فى تكوين الأجيال

الصاعدة ، وهذه خسارة احسسنا بها احساسا واضحا فى الربع قرن الأخير .

ولاسبيل لأحد آن يقول اليوم بإلغاء جامعة تحمل اسم عاصمة من عواصمنا فى الشمال أو الجنوب ، ولكن الذى نملك الدعوة اليه هو ان نصرف النظر بتاتا عن انشاء أية جامعة جديدة قبل مضى ربع قرن على الأقل ، وعلينا ـ فوق هذا ـ أن نتريث تريثا تاما فى تكوين ماسميناه جامعات بدون مسميات حقيقية ، ومن العبث ان يعد انشاء جامعة كإنشاء مدرسة ابتدائية أو ثانوية ، والكليات العملية هى عقدة العقد ومشكلة المشاكل ، فهل نحن فى حاجة الان فعلا الى قيام خمس عشرة كلية للطب فى القطر جميعه ؟ وهل فى وسعنا أن نؤدى ذلك على وجهه فى بضع سنوات ؟ وما مصير هؤلاء الخريجين ؟ ولست فى حاجة أن أقول : إن الأقطار الشقيقة بدأت منذ زمن فى استكمال مايسد حاجتها حاليا ، وباب الندب والاعارة لن يبقى فسيحا طويلا ، وبدأت بوادره تؤذن فعلا بأن يضيق عاما بعد عام ، وفى كلمة واحدة استطيع أن أقول : إن سياسة التعليم العالى فى حاجة ماسة الى اعادة نظر ورسم جديدين ، ومن حسن الحظ ان الهيئات النيابية فى مجلس الشعب والشورى بدأت تثير هذه المشكلة ، وأبدت على التعليم العالى الجامعى ما أبدت من ملاحظات ، والموقف يتطلب دون شك تكوين لجان متخصصة ، تدرس المشكلة فى عمومها ، لكى تكشف عن جوانب النقص ، وترسم وسائل العلاج والدواء .

وتواجه وزارة التعليم اليوم هذه المشكلة الكبرى مواجهة

مباشرة ، وأملنا كبير فى أن ترسم للتعليم الجامعى سياسة ثابتة مستقرة تتأنى ماوسعها فى تنفيذ ماتقترحه من خطط ومشروعات وما أغنانا عن إسراف فى الأسماء والمسميات ، والمهم ان نحقق الوسائل والأدوات التى تفتح امامنا أبواب البحث الدقيق العميق الذى نستطيع ان نباهى به فى مجال الفكر العالمى .

الفصل الثانى :

كلية الآداب

عدت من بعثتى عام خمس وثلاثين ، بعد أن قضيت فيها خمس سنوات بعيدا عن الأهل والوطن ، ولم يكن يصلنى الا بعض الصحف المتقطعة ، والخطابات المتبادلة ، وعرض على أن أعود الى الوطن مرة أثناء البعثة . فآثرت أن أتم الرحلة حتى النهاية ، ووقفت نفسى طوال هذه المدة على البحث والدرس ، ويوم أن عدت الى الوطن لم يكن لى هدف سواهما ، ولم أتردد فى أن أقبل ماعرض على السيد وزير المعارف حينذاك من التدريس فى كلية الآداب ، لانى أملت أن أجد فيها الجو الذى وجدته فى (السربون) وأن أساهم فى ايجاد هذا الجو وتكوينه .

وكان لابد لى أن أزور استاذ الجيل ، ورئيس الجامعة حينذاك ، وهو المرحوم أحمد لطفى السيد ، فلقيته لأول مرة وكأنى كنت أعرفه قبل ذلك بسنين . ولقاءات لطفى السيد محببة لدى كل من سعدوا بها ، رحب بى ، وأبى ألا أن أشرب القهوة ، وشاء أن أصحبها بسيجارة قدمها لى فاعتذرت عنها ، وقال لى : « لقد ذكرتني بزيارتى لجمال الدين الأفغانى فى « استنابول » فقد سعيت اليه لكى اتتلمذ عليه ، وحرص

فى مقابلتى على أن يقدم لى هو الآخر سيجارة ، فاعتذرت كما صنعت انت الآن ، ولكنه قال لى : دخن ودخن دائما ، والذى حدث انى استمررت أدخن . « وكان لقائى بلطفى السيد.فاتحة لصلة لم تنقطع ، إن فى الجامعة أو خارجها ، إلى أن لقى ربه .

ولم تكن كلية الآداب غريبة على ، لأنها كانت عامرة بعدد من الأساتذة والاصدقاء الذين عرفتهم من قبل ، وعلى رأسهم طه حسين ، ومصطفى عبد الرازق ، واحمد أمين ، وأمين الخولى ، وعبد الوهاب عزام ، ومن حسن حظ هذه الكلية انه كان على رأسها - « طه حسين » وهو جامعى قديم ، يقدر التقاليد الجامعية ، ويحرص على تثبيتها ، ومن أخص ماعنى به أمور ثلاثة :

أولها : الأخذ بمبدأ التعاون الثقافى العالمى ، فالعلم لاوطن له ، والعلماء يجب ان يتعاونوا ويتضافروا ، بصرف النظر عن جنسياتهم وأوطانهم ، ففتح الباب ماوسعه للاساتذة الزائرين والدائمين كيفما كانت جنسياتهم ، وكان فيها ـ الى جانب الاساتذة المصريين ـ اساتذة من بلاد مختلفة بين عربية واجنبية ، وبخاصة فى الأقسام التى تتطلب عونا خارجيا ، كأقسام اللغات الاجنبية ، من فرنسية ، وانجليزية ، فكان التدريس فى هذه الاقسام على ايدى اساتذة من أبناء هذه اللغات نفسها ، الذين يعرفون كيف يقدمونها لطلابهم .

وقد قامت هذه الكلية على عدة أقسام ، ففيها اقسام للغات ، على رأسها قسم اللغة العربية ، والى جانبه ، « قسم اللغة الانجليزية » و« قسم اللغة الفرنسية » . والى جانب

اقسام اللغات ، قامت فيها أقسام أخرى للعلوم الإنسانية ، فكان فيها قسم للتاريخ وأخر للجغرافيا ، وثالث للفلسفة والاجتماع وعلم النفس ، وما كان أشبه هذه الأقسام بنظائرها فى كليات الآداب فى البلاد التى استكملت هيئات التدريس على مختلف مراتبها ، فقام قسم اللغة الانجليزية مثلاً فى البداية على أساتذة اختيروا من بين كبار الاساتذة الانجليز ، وكان قسم اللغة الفرنسية يجمع بين الفرنسى والبلجيكى ، ولم يكن حظ قسم الفلسفة بأقل من أقسام أخرى ، فيمن دعى إليه من كبار الأساتذة الأجانب ، إنجليز أو فرنسيين ، وأشهد انى لم اشعر بغربة فى هذا الجو الجديد ، الذى يكاد يلتقى فى مناهجه ورجاله مع ماالفت فى السربون ، أو فى جامعات أوربية أخرى .

وكان من حظى ان أصبحت عضوا فى هيئة التدريس بقسم الفلسفة ، فعملت إلى جانب يوسف كرم مؤرخ الفلسفة ، وأبو العلا عفيفى استاذ المنطق ، ومصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية ، وإلى جانب هؤلاء أجانب بين فرنسيين وبريطانيين ، فنعمت زمنا بصحبة أستاذ سابق لى هو الأستاذ اندريه لالاند ، كما نعمت بصحبة زملاء آخرين ، جو كله صفاء وعطاء وحب وتقدير ، وأستطاع أن يكون أجيالا كان لها شأنها فى البحث والدرس الفلسفى منذ الغقد الرابع الى اليوم ، ويسعدنى انه كان من بين تلاميذى من اصبح من شيوخ الفلاسفة أمثال : محمد عثمان نجاتى ، وعبد الرحمن بدوى الذى ملأ الشرق والغرب بكتاباته ومؤلفاته .

وعنى طه حسين ـ ثانيا ـ بإرسال بعوث من المصريين لاستكمال دراستهم وتخصصهم شرقا وغربا ، فبعث من بعث

الى فرنسا ، كما بعث الى ألمانيا وانجلترا وايطاليا ، وحظيت الكلية بدفعات كبيرة منهم ، اصبحوا اساتذة المستقبل ، ولا أظن ان كلية أخرى توسعت فى هذا توسع ، « طه حسين » فى كلية الآداب ، وهى سياسة حكيمة ما أجدرنا ان نستمسك بها ، وأن نمكن شبابنا من الاقامة زمنا فى تلك البيئات الأوربية والأمريكية ، لكى ينهل من حياضها ، ويفيد من تجاربها ، ويربى على منهج البحث والتجربة الدقيقة .

وعنى ثالثا عناية خاصة بالدراسات الكلاسيكية ، وله فيها تجربة شخصية ورأى أن الدرس المتعمق يستلزم الماما ببعض اللغات القديمة ، كاليونانية واللاتينية ، فحرص على أن تعنى أقسام فى كلية الآداب بهاتين اللغتين ، كما ربط اللغات الشرقية القديمة ، كالسريانية ، والعبرية بقسم اللغة العربية ، وأشهد أنه كان فى هذه الاقسام حياة ، كان لها صدى ملحوظ ، وكم كان ينبغى أن تسير فى طريقها الى النهاية ، ونأسف لأنّا نسينا هذا او تناسيناه بعد مدة ، وأصبحت اللغات القديمة بالنسبة لابناء كلية الآداب تقريبا فى خبر كان ، ونال اللغات الشرقية مانالها مع انها وثيقة الصلة باللغة العربية وفقهها .

ولم يقف طه حسين عند الدرس الجامعى ، بل اتجه نحو طلاب الجامعة أنفسهم ، وطريقة تكوينهم ، ولاحظ بحق أن برامج الدراسة فى مراحل التعليم العام ـ وبخاصة المرحلة الثانوية ـ لاتعد الناشئة إعدادا كافيا للدرس والبحث الجامعى ، ولاحظ بالنسبة للجامعة بعامة أنه لابد من أن يعاد النظر فى سياسة التعليم العام والثانوى بوجه خاص ، وسلم بذلك المرحوم « أحمد نجيب الهلالى » وهو من رجال وزارة

المعارف ، قضى فيها زمنا اكسبه ما أكسبه من خبرة ودراية ، ووضع تقريرا معروفا بـ « اصلاح التعليم الثانوى » فأدخل مواد لم تكن تدرس فيه من قبل ، واطال مدته بعض الشيء ، وسبق للجامعة نفسها ان فكرت فى تكوين مدارس ثانوية خاصة بها ، تشرف عليها ، وتتابعها ، لكى تقدم لها الناشئين الذين يغذون كلياتها النظرية والعملية ، ومن حسن الحظ أنه لم يؤخذ بهذا الاقتراح ، وسلمنا من خلق الوان متعددة من التعليم العام ، والأصل فيه ان يكون إعدادا موحدا للمواطن المصرى .

وطلب « نجيب الهلالى »[١] إلى الجامعة أن تمده بالأساتذة لكى يدرسوا المواد الجديدة التى أدخلت على التعليم الثانوى ، وسعدت أن عشت فى هذا الجو ، وأسهمت فى قسط منه بالنسبة لتعليم المواد الفلسفية ، فاخرجت مع المرحوم يوسف كرم كتابا فى تاريخ الفلسفة يتلاءم مع مرحلة الدراسة الثانوية ، وأخرج زميلى المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى كتابا فى المنطق ، والمرحوم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى كتابا فى « علم النفس » وكان يقوم بتدريس المادة فى المدارس الثانوية ، موفدا من كلية الآداب ، كما أوفد زميل له اخر هو الدكتور « محمد توفيق الطويل » . وأريد بكلية الآداب أن تشرف على امتحان الشهادة الثانوية ، وأن تشترك فى وضع أسئلتها ، وقد أشرفت فعلا على أوراق امتحانها .

وفى وسعى أن أقرر أنه ترتب على هذا نهضة تعليمية لابأس بها ، وكان الشباب الذى يتقدم إلى الجامعة يبعث على الأمل ، ويؤذن بقدرته على متابعة السير ، لاسيما وقد استطاعت الجامعة نفسها ان تقدم بعض خريجيها للتدريس

فى المدارس الثانوية ، وطوال خمسة عشر عاما استطاعت كلية الآداب ان تتغذى بغذاء افضل مما كانت تتغذى به من قبل ، ولكن الاقبال على التعليم والرغبة الزائدة فيه لدى البنين والبنات ، خرج بها عن طاقتها ، فقدمت للكليات الجامعية فى العقد السادس والسابع من هذا القرن طلابا ليسوا جميعا على المستوى الذى يتطلبه الدرس الجامعى ، وملئت الفصول والمدرجات فى الكليات النظرية والعملية باعداد يعز تعهدها وتغذيتها بالغذاء الملائم ، لاسيما ولم يوفر لها التعليم العام ذخيرة يمكن أن تستعين بها .

ومشكلة التعليم العام فى جملته قائمة ، ونحاول أن نعالجها فيما أخذنا به ، مما يسمى « التعليم الأساسى » ونرجو أن يحقق أهدافه ، ونجحنا أيضا فى أن نتجه نحو التعليم « الفنى » ونخفف الضغط على الدرس الجامعى ، لكن المدرسة الثانوية لاتزال فى حاجة الى اعادة نظر ، وسبيل تقويمها العودة بالفصل الى العدد الملائم ، وهو ثلاثون تلميذا أو ماحولها نزولا أو صعودا ، واختيار المعلم الثانوى اختيارا يقوم على : الكفاية ، والقدوة الحسنة ، وحب العمل ، والاخلاص له ، واعداد الكتب الملائمة علميا وأدبيا ، وقد شئنا ان نعالج شيئا من ذلك علاجا آليا عن طريق ماسميناه « مكاتب التنسيق » وكم أود ان نعود مرة أخرى الى اختيار شباب الناشئين لكلياتهم على حسب ميولهم واستعداداتهم .

وكان لابد للحياة الجامعية من تقاليد ثابتة ، وقد أخذ طه حسين نفسه بذلك ، مستهديا خاصة بالجامعات الفرنسية ، ودعا دعوة صادقة الى استقلال الجامعة ، الذى يحقق لها وحدها حرية اختيار هيئة التدريس على أصول جامعية سليمة ، وحرية البحث الطليق الذى لايخضع لرقابة او

توجيه ، ويوفر لها الاعتمادات المالية اللازمة التى تمكنها من اداء رسالتها ، وقد بذل طه حسين فى سبيل ذلك مابذل ، ولاقى مالاقى من اضطهاد وإبعاد عن الحياة الجامعية .

عشت فى كلية الآداب ولها بضع سنين ، وكنت أود ألا يعكر صفو هذه العشرة ما يباعد بينى وبينها ، ومررت بتجربة أحب أن أنوه بها ، وملخصها ان الاستاذ العميد شاء أن يفتح مجال قسم الفلسفة لبعض الطلبة الأزهريين ، ممن حصلوا على الشهادة الثانوية فى المعاهد الأزهرية ونالوا من الدرس الفلسفى قسطا ، ولم تكن مراجعنا العربية فى الدراسات الفلسفية ، فى العقد الرابع من هذا القرن كافية وبخاصة فيما يتصل بالفكر المعاصر ، حاولت أن أحبب هؤلاء الأزهريين فى تعلم اللغة الفرنسية ، ووضعت أمامهم نصوصا سهلة بدأوا يتعلمونها ، وانتهى بهم الأمر ، بعد ثلاث سنوات ، أن عرفوا قدرا من اللغة الفرنسية يمكنهم من الاطلاع والقراءة ، وان بقيت لغة الحديث بالفرنسية ضعيفة لديهم ، ولاادل على نجاح هذه التجربة من أن عددا من هؤلاء الطلاب دخل فى مسابقة اعلنتها وزارة المعارف ، لاعداد مدرس اللغة الفرنسية وارسال مجموعة من شبابنا الي فرنسا لتجويد لغتهم ، وقد نجح غير قليل من هؤلاء الأزهريين فى تلك المسابقة ، وما أن عادوا من فرنسا حتى اصبحوا قوامين على تعليم اللغة الفرنسية فى المدارس الأميرية ، وقد تعلمت أنا الفرنسية فى سنهم تقريبا ، والمهم أن توفرت الأسباب الكافية لكل من ينشد التعلم ، ولعل فى هذه التجربة مايهدينا الى أن الجد والمثابرة فى تعلم اللغات الاجنبية لدى خريجى المدارس الثانوية واصبح عالمنا لايكتفى من مواطن مثقف أن يقف عند لغته الوطنية .

وهناك تجربة أخرى يعنينى أن أنوه بها ، وتتلخص فى أنى حظيت فى بعض فصول قسم الفلسفة بفصل يجمع بين الشباب والشابات فى قسمة عادلة ، وأشهد أن هذا الفصل كان من أنجح الفصول فى مراحل التعليم الجامعى التى مررت بها ، فقد كان التنافس بين الفتىّ والفتاة على أشده ، ولكنه تنافس جاد صادق يعتمد على الاخاء والمحبة ، والأخذ والعطاء ، وكان هذا الفصل نموذجا للسلوك الاجتماعى القويم ، والتعاون الفكرى الصادق ، وعلاقة طلابه بعضهم ببعض ، تلاقوا فى الدرس وتلاقوا خارج الدرس واشتركت معهم فى بعض الرحلات ، فكانت مثالا للكمال والنقاء والتعاون الصادق ، وفى هذا مايوضح أن اختلاط الشبان والشابات ، إن وفق لقيادة حكيمة ، أدى الى نتائج نطمئن اليها .

وقد استحدثت كلية الآداب نهجا فى البحث والدرس يعد المنهج الجامعى المنشود ، ذلك لأنها تعول على أساتذة متخصصين ، يعنيهم أن يعرفوا الحقيقة العلمية على وجهها بعد بحث شامل وتمحيص دقيق ، ويحرصون كل الحرص على أن يوضحوا لتلاميذهم منهج البحث العلمى السليم ، ويرشدوهم الى المراجع الاصلية التى ينبغى الرجوع اليها والأخذ عنها ، واشعروهم بأن البحث العلمى المستكمل لايقنع باللغة الوطنية وحدها ، بل يلزم أن تضاف اليها لغة أجنبية أو أكثر ، لكى تعالج الحقيقة العلمية فى ضوء كل مايتصل بها من فكر ودرس ، ولايفوتنى أن أنوه بأن الدرس الجامعى ، الذى كنت أضطلع به وأدعو اليه ، لم يعول قط على مذكرة او كتاب معين ، بل كان يحث على قراءة أوسع ، ودرس اشمل ، بحيث يكون لكل موضوع مراجع خاصة ، ان فى العربية أو اللغات الاجنبية ، واسعدنى ان اتجه شباب الأمس نحو هذا الهدف ،

وان استمسكوا بهذا المنهج وطبقوه بدورهم ، ولم يكن الدرس والمحاضرة موقوفين على الاستاذ ، بل كان لطلابه نصيب فيهما ، فكلفت عددا غير قليل منهم ، كل بموضوع خاص ، وقدر له الزمن الذى يلائمه ، ويوم أن يكتمل بحثه يسعده ان يعرضه على زملائه ، وعلى هذا لم يكن الاستاذ هو الباحث والدارس وحده ، بل كان الطلاب يشاركونه فى درسه وبحثه .

وأستطيع أن أقرر أن هذا المنهج قد ربى روح البحث لدى الناشئين ، وقد أثمر ثمارا طيبة فيمن مروا بهذه التجربة وافادوا منها ، ونظرة الى التأليف الجامعي فى الثلاثينيات والأربعينيات ، مقرونا بما ظهر بعد ذلك فى الستينيات والسبعينيات ، نلاحظ ان بحوث المرحلة الأولى كانت أنضج وأكمل وأعمق وأدق .

عشت بضع سنوات قريبا كل القرب من كلية الآداب ، أتابع درسها ، وأشرف على امتحاناتها ، وأتعهد خريجيها ، ممن يعدون للماجستير أو الدكتوراه ، ولكن الحياة النيابية اجتذبتنى فى سن مبكرة ، فحرمتنى من جو ألفته ، ومن حياة أعددت نفسى لها ، وبعدت عن كلية الآداب زمنا ، ثم فتح بابها لي فى الثلاثين سنة الأخيرة ، عن طريق الاستاذ « غير المتفرغ » وكم كان يروح عن نفسى أن أخرج من جو المشاكل السياسية الى حياة البحث الحر الطليق ، واشتركت فى الدراسات التمهيدية لما بعد الليسانس بضع سنين ، وأحسست مع الأسف الشديد ـ أن طلاب هذه الدراسات يهبطون عاما بعد عام ، إلى درجة انه كان من بينهم من ينزل من مستوى طلاب السنة الثانية قبل الليسانس ، وانتهى بى تقدم السن ، وضعف مستوى الطلاب المستمر ، الى أن اعتذر عن واجب ما كان أحبه الى نفسى .

ولن أنسى قط أياما قضيتها الى جانب زملاء ، أمثال أحمد أمين ، وعبد الوهاب عزام ، وأمين الخولى ، ونعمت فيها بصحبة مصطفى عبد الرازق تلك النفس الزكية التى كان يأنس اليها الجميع ، والحق ان كلية الآداب حققت فى الثلاثين سنة الأولى فى حياتها نهضة ، لا أظن أنها جارتها فيها كليات حديثة أخرى ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن هيئة التدريس كانت فعلاً من صفوة الذين لم يعرفوا الا الصدق فى القول والاخلاص فى العمل ، وما كانوا يترددون فى ان يضطلعوا بعبء يعين على اداء رسالتهم ، ولاأزال اذكر أنه أريد بى يوما أن أشترك فى مسرحية تعتمد على فلسفة ابن المقفع فى كتاب كليلة ودمنة ، وكان من بين ابطالها عبد الوهاب عزام وامين الخولى ، وقد رحبوا جميعا بالفكرة وتهيئوا لتنفيذها وتحقيقها ، ولم يمنعهم من ذلك إلا عدوان على استقلال الجامعة فى شخص عميد كلية الآداب ومدير الجامعة نفسه وأساتذها ، ومربون هذه هى روحهم وصلاتهم ، جديرون بأن يخلقوا بناة المستقبل ، ودعاة النهوض والتجديد الصحيح ، وما أجدرنا أن نفكر جديا - وبخاصة الآن - فى سن المعاش بالنسبة للاستاذ الجامعى ، لكى نعيد الى الحياة الجامعية وقارها وقدوتها الصالحة .

هذه هى ذكريات كلية الآداب بجامعة القاهرة طوال خمسين عاما ، وهى تملى علينا دروسا أخصها : انه ينبغى أن نعود بالدرس الجامعى الى وضعه القديم الذى يقوم على القراءة المستوعبة والفهم الدقيق ، ولاسبيل إلى ذلك إلا لمن أعدوا فى مرحلة التعليم العام إعدادا يؤهلهم لهذه المهمة .

ونحس بأنا افتقدنا التقاليد الجامعية السليمة تحت ضغط

الأعداد الكثيرة التى ملئت بها مدرجات الكليات ، وضعف التعليم العام فى أداء رسالته ، ونقص هيئات التدريس نقصا يكاد يؤدى الى الفراغ المطلق .

والدرس الجامعى هو السبيل الأقوم لإعداد شباب المستقبل وقياداته ، وإذا لم تتوافر له أسبابه فلا سبيل الى اعداد هذه القيادات ، وطغت فكرة الكم على فكرة الكيف فى التعليم العالى والجامعى ، كما طغت على التعليم العام فى مراحله المختلفة ، ونحن نعيش فى عصر التجويد والتعمق والابتكار ، ولابد لنا أن نهيىء شبابنا لأداء هذه الرسالة .

الفصل الثالث :

الكليات الأزهرية

قام الدرس الأزهرى ـ حتى أوائل القرن الحالى ـ على الحرية المطلقة والاختيار التام ، حرية الشيخ فى تحديد موضوعه ، ومكان درسه وزمانه ، وتعددت الكراسى والحلقات تبعا لتعدد الشيوخ ، أما الاختيار فكان تاما بالنسبة لطلاب العلم ، يتجهون نحو الحلقة التى يريدونها دون فرض او توجيه ، ودون حساب على غياب او حضور ، فكانت الرغبة هى الباعث الحقيقى لمتابعة الدرس والافادة منه وبقدر ما اتسعت حلقات ، ضاقت حلقات اخرى ، والتاريخ يذكر حلقة الاستاذ الامام ، أو الشيخ محمد بخيت فى الرواق العباسى ، ولم يكن ثمة امتحان نقل ولا امتحان شهادة ، اللهم الا الشهادة العالمية التى ماكان يجرؤ طالب على ان يتقدم لها الا بعد مضى نحو خمس عشرة سنة ، وبين الطلاب الاجانب والمصريين عدد غير قليل كان يكفيه ان يحصل على قدر من الدرس والتعلم ، دون ان يطمع فى الحصول على الشهادة النهائية ، ولم يحرمه هذا من ان يباهى بانه من طلاب الازهر وعلمائه .

وقد قام هذا الدرس اساسا علي النصوص وتحليلها

ومناقشتها ، مختصرة تارة فى صورة متون ، او مفصلة تارة اخرى فى صورة شروح ، او حواشى ، او تقارير ، وكثيرا ماتعددت هذه الشروح وتلك الحواشى على النص الواحد ، ومن بين الشيوخ من اشتهر بحواشيه او بتقاريره ، ولقد برز الشيوخ حقا فى هذا التحليل اللفظى ، وبيان الدلالات المختلفة للفظ او جملة او تعبير ، وهذا ما اصطلحوا على ان يسموه « تشقيق الكلام ».

وفى دراسة النص هداية وتوجيه ، ولكنه ارتباط بالماضى ، وبعد عن الحاضر ، وحبس للفكر فى دوائر معينة ، حتى الاعتراض والاستفسار انما كان مجرد اعادة لاعتراضات واستفسارات سابقة وأجوبة عنها ، وقد عبر عن هذا كله بالعبارتين التقليديتين : « فإن قلت قلت » وفى كل هذا ماجعل الدرس مجرد تحصيل وجمع ، دون افساح المجال للتفكير الخاص ، ووصل التمسك باللفظ الى حد ان الشيخ ان لم يستقم له النص الذى يعالجه ، أجل درسه الى فرصة اخرى ، ويحكون فى هذا حادثة عن المرحوم الشيخ الامبابى المشهور بتقاريره ، لا ادرى مدى صحتها وملخصها : انه كان بصدد تفسير الاية الكريمة : « لقد رضى الله عن المؤمنين » وفى الدرس التالى بدأ بالجملة التالية إذ يبايعونك تحت الشجرة » ، وأخذ يحللها على النحو التالى : « أَذِيباً يَعُونَك » واعرب « أذيبا » مفعولا لفعل محذوف ، فوجه نظره احد الطلاب الى صحة القراءة ، فلم يكن منه الا ان اغلق ملزمته واجل درسه .

ولم يكن بد من ان نعيش فى القرن العشرين ، وان نعالج الامور فى تفتح وادراك ادق واعمق ، وبدا انه لابد من إعادة

النظر فى شئون التعليم بذلك المعهد العتيق ذى التاريخ الطويل ، والذى خرج رجالا كان لهم بصمات فى حياتنا الفكرية والثقافية ، وان فاته ان يعد جماهير المتعلمين لحياة العصر الحديث ، ويظهر ان الامام محمد عبده كان يرى معالجة الموقف من طريق محاذ للطريق المألوف ، واراد به ان يغذى من طلاب الازهر على ان يعرض عليهم الدرس والبحث فى صورة اكثر طلاقة وادق واوسع افقا ، فناصر فكرة انشاء مدرسة دار العلوم فى اخريات القرن الماضى ، واتجه فى اوائل هذا القرن نحو فكرة « مدرسة القضاء الشرعى » وما هاتان المدرستان الا امتداد للتعليم الازهرى على ان ينقح ويهذب ، ويعرض بلغة العصر وروحه ، وعلى ان تضاف اليه مستحدثات العلم الحديث ، ويعزى الى الاستاذ الامام انه قال يوما : « بقيت فى الأزهر عشر سنوات ثم قضيت بعدها حياتى فى فك القيود القديمة التى غلبت على تفكيرى »

وسارت المدرستان فى طريقهما ، وقدر لدار العلوم حياة طويلة مستمرة ، واحتفل بعيدها المئوى منذ سنتين ، وعدلت مناهجها وموادها غير مرة ، وهى اليوم كلية من كليات جامعة القاهرة ، اما مدرسة القضاء فلم تعمر الا نحو عشرين عاما ، وقد اشرنا من قبل الى شىء من تاريخها .

وحاول اخرون ان يواجهوا الموقف من داخل الازهر نفسه ، وفى مقدمتهم المرحوم الشيخ محمد شاكر الذى يرجع اليه الفضل فى انشاء الاقسام النظامية بالازهر : لم يغلق باب الدرس الحر الطليق فى داخل الازهر ، ولكنه انشأ الى جانبه درسا منظما فى المعاهد الدينية يختار طلابه ويحاسبون على حضورهم وغيابهم ، ويمتحنون فى آخر العام ، رجاء ان ينقلوا

الى السنة التالية ، وكان لهذه المعاهد مراحل ابتدائية ، وثانوية ، وعالية لكل مرحلة شهادتها فالابتدائية الازهرية تقابل الابتدائية المدرسية ، والثانوية الازهرية تقابل شهادة التعليم الثانوى ، والشهادة العالية فى نهاية القسم العالى .

وسارت المعاهد الدينية فى طريقها ، واضافت بعض العلوم الحديثة الى المواد التقليدية من علوم نقلية : كالفقه والتفسير والحديث ، او علوم لغوية : كالنحو والصرف والبلاغة ، او علوم عقلية : كالتوحيد والمنطق ، وانصبت العلوم الحديثة على التاريخ والجغرافيا والكيمياء والحساب والجبر والهندسة .. ونمت المعاهد الدينية ، وامتدت الى كثير من مدننا الكبرى .. ولم يبق مجال فسيح للدرس الازهرى الحر القديم الذى انصرف عنه طلابه الى المعاهد النظامية .

واحس المرحوم الاستاذ المراغى أنّا بعدنا عن الثقافة القديمة المتعمقة ، ورأى ان يعالج هذا عن طريق تخصصات فى كليات تغذى من المعاهد الدينية ، وبدأ فيها بكلية الشريعة التى تعنى بدراسة الفقه والتفسير والحديث .. وكانت معهدا لتخريج القضاة الشرعيين والمحدثين والمفسرين ، والتحق بها من حصلوا على الشهادة الثانوية من المعاهد الدينية ، ليكملوا دراستهم اربع سنوات ، ويحصلوا بها على شهادة العالمية ، وقد عنيت هذه الكلية بعلوم المنقول .

واسست كلية اخرى تعالج علوم المعقول ، وهى كلية « اصول الدين » فكان فيها توحيد وفلسفة ومنطق ، واختير لرياستها شيخ جليل ، هو المرحوم الاستاذ عبد المجيد اللبان .وقد كان للبان رحمه الله بسمته الرقيقة ، وعباراته المحببة ، التى كثيرا ماحملت محدثيه على الاستجابة لمطالبه ، وشاء ان

اسهم في بعض تخصصات كلية « اصول الدين » ولم اتردد في ان ألبي رغبته ، وقدر لى ان اقضى عدة سنوات فى قسم الفلسفة والتوحيد ، مما كان يسمى « تخصص المادة » والصلة بين التوحيد والفلسفة وثيقة وان حاول المتأخرون ان يقطعوها ، وان يقصروا الدرس النظرى على ماسجلوا من متون وشروح وحواش فى علم الكلام .

واعجبت فعلا بربط التوحيد بالفلسفة ، وعددت ذلك تجربة كنت ارجو لها ان تصل القديم بالحديث ، وان يستعيد بها الدرس الفلسفى مكانته فى الازهر ، بعد ان حرم منها عدة قرون ، ومما حببنى فى هذه التجربة انها وقفت على رجال استكملوا درسهم للتراث الاسلامى طوال اثنى عشر عاما ، ثم اخذوا يتعمقون هذا الدرس في تخصصهم ويوضحون فى ضوئه ثمار الفكر الانسانى : قديمه ومتوسطه وحديثه . وحاولت ما استطعت ان ابين لهؤلاء الرجال المتخصصين ـ وعددهم غير كبير ـ ان الفلسفة اليونانية ليست غريبة على الفكر الاسلامى ، وان ارسطو عده العرب بحق « المعلم الاول » واخذوا عنه منطقه وطبيعياته وآلهياته .. اخذوا عنه دون ان يتعبدوا به ، فأيدوا من آرائه ما ايدوا ، ورفضوا ما رفضوا .. ومايقال عن ارسطو فى التاريخ القديم يمكن ان يقال عن مفكرى القرون الوسطى والتاريخ الحديث ، فلنا ـ بل علينا ـ ان نقف على آرائهم ونظرياتهم ، لكى نتابع تطور الفكر الانسانى فى مراحله المختلفة ، ولكى نوازن بين القديم والجديد .

وكم وددت ان يلم طلاب قسم التوحيد والفلسفة بلغة اجنبية ، كى تفتح امامهم الآفاق فيستطيعوا ان يقفوا على آراء مفكرى الغرب مباشرة ودون واسطة .

وإذا كانت كلية أصول الدين لم تفسح صدرها للغة أجنبية ، فانها عالجت هذا النقص من جوانب اخرى ، وحرص المرحوم المراغي على ان يربط القديم بالحديث ، فبعث بعوثا إلى اوربا لكي يستكملوا الدرس الفلسفي ، كان من بينهم رجال اسهموا فى هذا التطوير الجديد ، ووضعوا لبنات فى تاريخ الفكر المصرى المعاصر : امثال الدكتور حب الله ، والدكتور محمد البهي ، والدكتور محمد ماضى ، والدكتور على عبد القادر ، ولايفوتنى ان اذكر اسمين آخرين ، هما المرحوم غرابة الذى عجل بالرحيل عن دنيانا ، وكنت ألمح فيه ذهنا وقادا ، وفكرا متعمقا ، وابنى عليه آمالا كبيرة فى عرض الفكر الاسلامي عرضا منطقيا سهلا يستعيد مجده ، ومنزلته ، واما الآخر فهو المرحوم الدكتور بيصار الذى اتجه نحو فلسفة إبن رشد واثبت ان الفيلسوف القرطبي مفترى عليه ، وان فلسفته لاتتعارض مع تعاليم دينه ، وتشاء الظروف ـ بعد محاربة الفلسفة في معاهدنا الكبرى القديمة ـ ان يصبح الدكتور بيصار الفيلسوف شيخا للازهر ، واسعدنى ان زاملت بعض هؤلاء الشيوخ الاعلام ، وكنت اعتقد ان فى وسع كلية اصول الدين ان تمد العالم الاسلامى بعلماء ومفكرين يستطيعون ان يواجهوا متطلبات العصر وحاجاته .

وعرفت الاستاذ ابراهيم حمروش فى كلية اللغة العربية ، قبل ان ازامله فى مجمع اللغة العربية فقد طلب إلىّ هو الآخر أن القى بعض دروس فى الأخلاق للمتخصصين من طلبة كليته ـ وكان اغلبهم اسن منى ـ ومع اسفى الشديد لم استمتع بهذه الصحبة زمنا طويلا ، وقد ذكرنى بها اخيرا المفتي الاسبق الشيخ محمد خاطر الذى كان يباهى بانه كان احد تلاميذى ، واعجبنى من الشيخ حمروش صراحته ونقده

اللاذع وعلمه الوثيق باصول العربية وقواعدها ، ومن حسن حظي اني زاملته في مجمع اللغة العربية منذ عام ستة واربعين الى ان لقى ربه ، وكان احد شيوخ ثلاثة من مؤسسى هذا المجمع ، وزميلاه هما : الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ حسين والي وللشيخ حمروش تاريخ حافل فى مجمع اللغة العربية ويكفيه انه تعهد معجم الفاظ القرآن عدة سنين ، واشرف على اجزائه الثلاثة الاولى .

واشتركت زمنا فى كلية اللغة العربية وعنيت فيها بجانب المعقول ، فعرضت لبعض الدراسات الاخلاقية وتنويها بكبار الاخلاقيين من المسلمين ، وكبار الاخلاقيين فى الفكر الانسانى قديمه ومتوسطه وحديثه ، وحرصت فى صلتى بهؤلاء الطلاب الرجال على ان افتح امامهم ابواب البحث ، وأن أدع لهم ان يسلكوا الطريق ، وناشدتهم أن يقرءوا ، وان يناقشوا وان يعلقوا ويحكموا على ما انتهى اليه درسهم وبحثهم ، لم افكر قط فى ان اقدم لهم مذكرة معينة ، وانما كنت اشرح الدرس واحيل على مراجعه الميسرة لهم ـ وماكان اقلها ـ وكم وددت ان لو عرفوا لغة اجنبية تكمل درسهم وبحثهم العربى ، ومن بينهم من اتيحت له فرصة بعثة الى العالم الخارجي ، فتمكن من الانجليزية او الفرنسية ، واكتسب منهجا ونظرة جديدة .

ولسوء الحظ انه لم يقدر لهذه الكليات الثلاث ان تعمر طويلا فى وضعها الخاص ، وكما قال ارسطو : « يجب ان نعيش قبل ان نتفلسف » ، ولو فتحت ابواب الحياة فى يسر امام خريجيها مافكر احد فى تحويل التعليم الازهرى العالى

الى الشكل الجامعى ، وللفظ الجامعة بريق ، وفى شهاداتها مايبسر سبل العيش ، ويفى بمقتضيات الحياة ، فتحولت الكليات الازهرية الى « الجامعة الازهرية » التى تنمو وتتسع على مر الزمن ، وتحاول ان تستكمل التخصصات العلمية جميعها ، وهى ثمرة من ثمار العهد الحاضر ، ففيها المسميات القديمة التى تغير مدلولها : ككلية اللغة العربية ، وكلية الشريعة ، وفيها كليات حديثة : ككلية الطب ، وكلية العلوم ، وكما حدث بالنسبة للمعاهد الدينية ، لم تقف الجامعة الازهرية عند العاصمة الكبرى ، بل بدأت تنشىء فروعا لها فى المدن الاخرى ، وفى تعدد سبل العلم خير وبركة ، ولكنى اتساءل : هل لاحظنا فى الجامعة الازهرية الحديثة الربط الوثيق بين القديم والحديث ، على النحو الذى قامت عليه فكرة تطوير التعليم الازهرى فى الستين سنة الاولى من هذا القرن ؟ واظننا نتفق جميعا على ضرورة هذا الربط ، وفى وسعنا ان نحققه وبخاصة فى الكليات التى تتصل اتصالا وثيقا بالثقافة الاسلامية .

الفصل الرابع :

جامعة الأزهر

خاتمة مطاف طويل لتطوير التعليم الازهرى ، بدأ فى اوائل هذا القرن ، ومر بعدة مراحل ، اولها انشاء المعاهد الدينية التى تقوم على ثلاث مراحل : ابتدائية وثانوية ، وعالية ومدة كل واحدة منها اربع سنوات ، وتختم بعد ثلاث عشرة سنة بالشهادة العالية ، ثم تلتها فى الثلاثينيات مرحلة ثانية ، اشتملت على ثلاث كليات متخصصة : هى اصول الدين والشريعة ، واللغة العربية ، ويلحق بها الحاصلون على الثانوية الازهرية ، ومدة الدراسة فى كل كلية اربع سنوات ، يحصل الطالب بعدها على الشهادة العالمية ، وله ان يتابع الدرس بعد هذا لكى يحصل على درجة الدكتوراه .

ومن خريجى هذه الكليات من اوفد الى الخارج ، لاستكمال درسه وبحثه ، ودراسة لغة اجنبية تفتح امامه آفاق البحث العالمى .

ثم استمر الامر على هذا الشأن زمنا ، وعدت الكليات الثلاث ممثلة للتعليم الازهرى التقليدى فى ارقى صوره ، وكان يمكن ان تسمى جامعة ، وفى الستينيات اثير الموضوع مرة اخرى ، واريد بالجامعة مدلولها الحديث ، فشملت الدراسات

الطبية ، والهندسية ، والزراعية ، والتجارية ، والاقتصادية ، وانشئت جامعة الازهر على اساس اوسع كثيرا مما اريد فى النصف الاول من هذا القرن ، وضمت جامعة رابعة الى جامعات القاهرة الثلاث ، وقصد بها اساسا ان تتغذى بخريجى المعاهد الدينية ، وهم فى كثرة متزايدة عاما بعد عام ، نظرا للتوسع المطرد فى انشاء هذه المعاهد ، وفى هذا مايزيد مشكلة الثنائية فى التعليم العام تعقيدا ، ولابد لنا ان نتخلص منها ، لاسيما وان المعاهد الدينية اخذت تدنو ما استطاعت من نظم التعليم في المدارس الاميرية والاهلية ، او الخاصة كما تسمى الآن .

ولاننكر مطلقا ان يدرس الطب فى جامعة الازهر ، كما يدرس فى جامعة القاهرة ، ان توافرت له معامله ومستشفياته ، وكل جوانبه التطبيقية والعملية ، ولكن نتساءل حقا : هل تكفى اللغة الوطنية وحدها فى الدرس المتخصص فى عالمنا الحاضر ؟ والبحث فيه على قدم وساق شرقا وغربا ، والابتكار والاختراع متلاحق ولانريد لشبابنا مطلقا ان يكون فيهم أطباء من الدرجة الثانية وآخرون من الدرجة الاولى ، وفى قيام جامعة الازهر مايلح على ضرورة الفصل فى سياسة توحيد التعليم العام ، ولابد للناشىء المصرى أن يربط حاضره بماضيه ، وان يعد إعدادا كاملا للعيش فى عصره .

وقد لوحظ اخيرا ان عددا غير قليل ، من طلاب بعض الكليات النظرية وطالباتها فى الجامعة الازهرية ، يتسابقون الى كلية دار العلوم التى فتحت ابوابها لعدد منهم .

ولو أتيح هذا التحويل لكليات اخرى لتسابق عليها كثيرون ، ولو وحد التعليم العام منذ البداية ، لسلك كل شاب وشابة

الطريق الذى يلائمه ، وباختصار فى نظمنا التعليمية ثغرات نغفلها او نتغافلها وندعها تكبر وتتسع ، بحيث تصبح وقد اتسع فيها الخرق على الراقع ، والادارة القوية والرأى الواضح كفيلان بان يعالجا كل نقص .

ويزيد الامر دقة ان جامعة الازهر تتوسع فى انشاء كلياتها فى العواصم والمدن الكبرى ولم تقف عند القاهرة ، وتزداد هذه الكليات عاما بعد عام واظن انها وصلت اليوم الى مايزيد عن سبعين كلية ، وهنا نتساءل : هل يراد لكل مجموعة من هذه الكليات ان تكون نواة لجامعة ازهرية الى جانب جامعة اسيوط او الزقازيق ؟ وكأنا بهذا نمد مشكلة الثنائية فى التعليم العام الى التعليم العالى ، واخشى ما اخشاه ان ينتهى بنا هذا الى طائفية ثقافية ونحن نعيش فى عصر يمقت الطائفية على اختلاف صورها .

ومن اغرب مايلاحظ ان جامعاتنا الاميرية كلها تخضع للدولة ، وتتغذى من ميزانيتها العامة ، وجامعة الازهر فى مقرها الرئيسى وفى فروعها المنتشرة فى الاقاليم تتغذى هى الاخرى من المنبع نفسه ، وكم شكونا فى الربع الاول من هذا القرن ، من طائفية لوحظت بين ابناء دار العلوم وخريجى مدرسة المعلمين العليا ، وفى هذا الماضى القريب مايدعونا لأن نقف وقفة حاسمة ازاء ثنائية التعليم فى مراحله المختلفة .

الفصل الخامس :

الجامعة الأمريكية

ثمرة من ثمار ماض بعيد ، يتلخص فى ان يكون لبعض الجاليات الاجنبية مدارس تنشر لغتها ، وترفع راية ثقافتها ، فأسست مدارس فرنسية ، وثانية انجليزية او امريكية وثالثة المانية ، وقد وقفت هذه المدارس عند التعليم العام فى رياض الاطفال والمرحلة الابتدائية والثانوية وكانت الجانب المهم فى التعليم الخاص ، ولم تقتصر على الاجانب بل فتحت الباب للمصريين ، واسهمت اسهاما واضحا فى تكوين شباب يجيدون لغة اجنبية او اكثر ، ولم يجاوز نطاق التعليم العام الا مدرسة الحقوق الفرنسية التى تخرج فيها بعض شباب القانونيين ، وعاشت الى جانب مدرسة الحقوق الملكية ، ولكن لم يلبث التعليم الجامعى المصرى ان طغى عليها ففقدت اهدافها وبخاصة بعد الغاء المحاكم المختلطة ، ومن بين هذه المدارس ماتشرف عليه هيئات دينية كمدارس القلب المقدس او مدارس العائلة المقدسة ، وفى عام ١٩٥٣ رأت وزارة التربية والتعليم ان تتوسع فى مراقبتها واشرافها على هذه المدارس ، ولم تخل هذه الرقابة من تضييق وتحكم احيانا كان له اثره فى اداء الرسالة التى اضطلعت بها مدارس اللغات جميعها ، واذكر ان حروب عام ١٩٥٦ افضت الى اغلاق مدارس الليسيه وكان الفرنسيون يعتقدون ان لهم فى مصر

رسالة ثقافية يضعونها فوق كل اعتبار ، ولا أزال اذكر حديثا دار بينى وبين المسيو « فور » المسئول عن المعاهد التعليمية الفرنسية فى البلاد العربية حينذاك فقد قرر لى فى وضوح ان الحكومة الفرنسية مستعدة ان تتنازل عن كل شىء اللهم الا عن رسالتها التعليمية ، وكان من نتاج هذا التضييق انه ابقى على مدرسة واحدة لليسيه فى القاهرة ، ولم يسمح لفترة لقيام المدرسة الثانية التى كانت موجودة من قبل فى مصر الجديدة .

وكان من نتائج هذا ان تعليم اللغات الاجنبية وبخاصة العالمية منها كالفرنسية والانجليزية والالمانية ، ابتلى بضعف ملحوظ فى الثلاثين سنة الاخيرة ، ان فى المدارس الاميرية او فى المدارس الاهلية .

ومما يبعث على الامل ان قامت اخيرا مدارس خاصة لتعليم اللغات الاجنبية ، وكلى رجاء ان تؤدى رسالتها على وجهها وان تحظى باشراف من وزارة التعليم .

وكانت الجامعة الامريكية فى نشأتها واحدة من هذه المدارس الثانوية ، وعنيت خاصة ببعض الاجانب المقيمين فى مصر ، او الوافد اليها من بعض البلاد العربية ، او الافريقية ، وحامت حولها شبهة دعايات تبشيرية لم يقم اى دليل عليها ، ومن حسن حظها انه قام على امرها مديرون ورؤساء طال مكثهم وتمكنوا من ان يحظوا بثقة الاباء وزملائهم من المربين الآخرين ، وثقة المسئولين فى وزارة التربية والتعليم بوجه خاص ، ومن بين هؤلاء الروءساء من عاد الى مصر سفيرا بعد ان كان مربيا ومسئولا عن الجامعة الامريكية

، وحاولت هذه الجامعة ان تسمو شيئا فشيئا الى مرحلة التعليم العالى .

وترجع صلتى بهذه الجامعة الى نحو اربعين سنة او يزيد ، وعنيت بقسم خاص من اقسامها وهو قسم الخدمة العامة الذى كان ينظم سلسلة محاضرات سنوية اسهمت اسهاما كبيرا فى معالجة كثير من مشاكلنا الاجتماعية والثقافية ، ومن حسن حظ هذا القسم ان قام على امره جامعى ومواطن صادق هو الدكتور حنا رزق الذى انتهى به المطاف ان اصبح اخيرا مديرا للجامعة . وقد نشر بعض هذه المحاضرات ، وما اجدرها ان تجمع وتقدم لشباب اليوم الذى لايكاد يعرف عنها شيئا .

ولست ادرى هل يستطيع .. ومن حسن الحظ ان قسم الخدمة العامة بالجامعة الامريكية قد استعاد نشاطه بعض الشىء ، وما اجدره ان يتوسع فيه ويعززه .

ومما يبعث على الامل ان الجامعات الاقليمية بدأت تتنافس فى نشاط ثقافى ، فعقدت ندوات ومؤتمرات متلاحقة عاما بعد عام ، وتعد هذه اللقاءات منارة هداية وارشاد فى البلاد كلها ، ولاشك فى ان وزارة الثقافة تعاون هذا وتعززه ما وسعها .

والانجليزية هى لغة التعليم الاساسية فى الجامعة الامريكية ، بها تدرس العلوم النظرية من أدب ونقد او اقتصاد وسياسة ، ففتحت صدرها ـ اخيرا ـ لكثير من شبابنا الذى ربى فى معاهد اجنبية بالخارج ، وعز عليه ان يلتحق بالجامعات المصرية ، هذا الى ان الحياة الاقتصادية وظروف الانفتاح قامت فى أحوال كثيرة على تعاون بين مصريين

واجانب ، واحتاجت الشركات الاستثمارية التى تقوم على رأس مال مشترك الى من يسهمون فى نشاطها من شباب وشابات مر أغلبهم بالجامعة الامريكية ، وبذا زادت نسبة المصريين فى هذه الجامعة زيادة ملحوظة واتضح دورها فى النشاط الثقافى والتعليمى ، مما ادى الى الاعتراف بشهاداتها ، وتحقيق تعاون بينها وبين الجامعات المصرية .

وتتم اليوم دراسات متخصصة للماجستير والدكتوراه بالتعاون بين الجامعة الامريكية والجامعات المصرية ، واعتقد انها احسنت فى بعدها عن الدراسات العلمية من طب وهندسة ، وتكفيها رسالتها التى تضطلع بها اليوم ، وتسد بابا ملحوظا فى الدراسات الانسانية ، ومتطلبات الحياة الاقتصادية بوجه عام .

الأجيال الجامعية المتعاقبة

الدرس الجامعى حب وتعلق ، تخصص وتعمق ، ويقوم خاصة على صلة وثيقة بين الاستاذ وتلاميذه ، وكانت هذه الصلة فى التعليم الازهرى طويلة ووثيقة ، وخرجت من خرجت من تلاميذ ، هم امتداد صادق لاساتذتهم . ولامر ما رفعت فرنسا من المعاش للاستاذ الجامعى لكى تطول مدة عطائه ، وتتوثق الصلة بينه وبين من يعدهم خلفا له ، ولم يكن لشيوخ الازهر قديما سن معاش مخدد ، وليس معنى التلمذة والاستاذية مجرد المحاكاة والتقليد ، بل القصد الاول فى هذا المضمار هو اعداد جيل من الباحثين والدارسين الجامعيين ، لهم شخصيتهم وقدرتهم على العطاء والابتكار . واذكر انى قرأت يوما تصديرا لاستاذ فرنسى جليل يقدم به بحثا لاحد تلاميذه ، ويقرر فيه انه اسعده ان يخالفه تلميذه فى بعض ما انتهى اليه من آراء ، وانه أحسن التدليل على وجهة نظره ، وهكذا يكون الاستاذ الكبير ، والتلميذ صاحب الرأى المستقل .

ولابد للصلة العلمية من دعامة روحية ، تقرب التلميذ من استاذه ، فيستودعه سره ، ويشكو اليه بعض آلامه ، ويفيد منه في الدرس وخارجه ، ولا أزال اذكر كلمة لعاطف بركات ،

قالها يوما لجمع من ابناء مدرسة القضاء الشرعى ، معلنا انه كان يأمل ان يكون منهم بمثابة شيخ الطريقة من مريديه ، وهكذا كان عاطف بين عدد ممن اقتربوا منه برغم ماكان يبدو عليه من شدة احيانا .

وفى بدء حياتنا الجامعية المعاصرة ، حظينا باساتذة من هذا الطراز ، امثال طه حسين ، وعلى مشرفة ومصطفى عبد الرازق ، منهم من كان يقسو احيانا ، ولكن صدورهم جميعا كانت فسيحة للاخذ والرد ، والسؤال والاستفسار ، وبيوتهم كانت مفتوحة لتلاميذهم الذين كانوا يترددون عليهم دون انقطاع ، وكانوا يؤمنون بان رسالتهم لاتقف عند اعطاء الدرس ، او شرح النص ، او القاء المحاضرة ، بل كان همهم الاكبر ان يكونوا ورثة وخلفاء ، ورحم الله مصطفى عبد الرازق الذى كان نموذجا يحتذى به فى هذا المجال ، لقد كان حقا شيخ مدرسة ، وكبير اسرة متشعبة ، احبه تلاميذه ، وسعدوا دائما بلقائه ، وافادوا من نصحه وتوجيهه ،،وكم وكل اليهم اعمالا كان يحب ان يتولاها ، فاعطاهم نصوصا مخطوطة لكى يقوموا بتحقيقها ونشرها ، وفتح امامهم ابواب دراسات اضطلعوا بها ، ولقد خلف فعلا مدرسة غزيرة العطاء متنوعة الانتاج

والسلك الجامعى نفسه يدعو الى الارتباط والاتصال ، فيبدأ الجامعى حياته طالبا ، واذا ما شاء ان يقف نفسه على الدرس والبحث ، كان لابد له ان يمر بمراحل مختلفة ، هى اعداد للماجستير تحت اشراف استاذ يطمئن اليه فيوجهه فى عمله بعناية ، دون ان يقوم مقامه فى البحث والتأليف ، واذا ما حصل على درجة الماجستير بدأ يعد دراسة للدكتوراه تحت

اشراف استاذه السابق ، او يضطر الى الالتجاء الى استاذ آخر ، ومتوسط كل واحدة من هذه الدراسات لايقل عن اربع سنوات ، فقد تمتد الى ثمان او اكثر ، وترجع الرغبة فى قصر مدتها عادة الى انها ذات صلة بالدرجات المالية ، وليتنا نفصل بين هذين الجانبين ، لكى نوفر للبحث الزمن الملائم والكافى ، وكثيرا ما حال سن المعاش دون استمرار الاستاذ فى اداء واجبه ومتابعة عطائه ، وقد فكرنا من قبل فى رفع هذه السن دون جدوى ، واكتفينا اخيرا بما استحدثناه من نظام « الاستاذ غير المتفرغ » وليتنا افدنا من هذا الافادة المرجوة ، لان العمل فى الخارج حرمنا من كثيرين من شيوخنا الذين كنا نعول عليهم فى استكمال صرح البنيان الجامعى .

ونتساءل الآن : هل اعددنا فى الثلاثين سنة الاخيرة الاجيال الجامعية التى ننشدها ؟ وهل هرم الكادر الجامعى مستكمل كل عناصره فى كلياتنا ومعاهدنا ؟ اظننا لانتردد فى ان نجيب بالسلب ، فهناك اقسام ، فى كلياتنا النظرية على الأقل تفتقد الاستاذ ، وان وجدته ، خلا الصف من بعده ولم يبق الى جانبه الا بعض معيدين او مدرسين مساعدين ، وهل نستطيع حقا ان نتحدث عن تعليم جامعى يعتمد اساسا على المعيدين ؟ ومن المقارنات مايؤلم ويحزن ، فهناك اقسام وكليات فى الجامعات العربية عامرة بصفوة من الاساتذة المصريين ، الذين كنا نود ان يستمر عطاؤهم فى بلدهم ، وان يكملوا رسالتهم باعداد من يصلحوا ان يكونوا خلفا لهم . ولاسبيل الى تعليم جامعى صحيح الا ان استكمل كل وسائله ومقوماته .

الفصل السابع :

جامعيون نعمت بصحبتهم

وهم كثيرون ، واحرص على ان اقف قليلا عند اربعة منهم .

وأولهم : لطفى السيد الذى عد بحق استاذ الجيل ، وقد استحق هذه الاستاذية منذ اوائل هذا القرن بآرائه وأفعاله .. بدعواته ومشروعاته ، فوجه الرأى العام نحو التعليم الحديث فى صحيفة « الجريدة » وكان على صلة وثيقة بالجامعة المصرية القديمة ، ويوم ان قامت الحرب العالمية الاولى حرص المستعمر على ان يضعه تحت الرقابة المباشرة ، فوكل اليه الاشراف على « دار الكتب » وهنا ايضا بدا لطفى السيد استاذا ومعلما ، اتجه نحو المعلم الاول او « مولاه ارسطو » كما كان يسميه ، وترجم له بعض كتبه عن اللغة الفرنسية ، فوجه النظر الى علاقات ثقافية اغفلناها ، ولم يغفلها العرب والمسلمون من قبل ، وكان يرى بحق ان الثقافة عالمية ، وعلى كل حضارة ان تفيد من تجارب الآخرين ، وان تضيف اليها ماتضيف ، ولاشك فى ان تفاؤله الشديد قد شجعه على مواجهة امور ربما كان من الصعب التعرض لها .. ولاغرابة فهو صاحب فكرة « الاجيال الثلاثة » اذ كان يرى ان امة ناهضة لو اتجهت نحو النهوض فى صدق لكفتها ثلاثة اجيال

متلاحقة لتحقيق كل ما تنشده ، ولطفى السيد صاحب « الجريدة » وتلميذ ارسطو والمشرف على الجامعة المصرية القديمة كان لابد له ان يضطلع برسالته فى الجامعة المصرية الحديثة ، فتولى أمر جامعة « فؤاد الاول » وحرص على أن يقيم دعائمها على اسس ثلاثة رئيسية .

اولها : حرية البحث الكاملة المعتمدة على العقل والمنطق ، وثانيها : استقلال تام للجامعة حماية لهذه الحرية ، وتمكينا للباحثين من متابعة السير الى النهاية . وثالثها : التعاون الثقافى بين الجامعة المصرية الشابة والجامعات العالمية الكبرى ، فافسح السبيل لكثير من كبار الاساتذة الغربيين لكى يسهموا فى ميدان البحث والدرس فى الكليات الجامعية الاولى التى قامت عليها جامعة فؤاد ، وهى : كلية الآداب ، وكلية الحقوق ، وكلية الطب ، وكلية العلوم ولاقى فى سبيل استقلال الجامعة ما لاقى ، وقاوم الاعتداءات التى لم يتردد ازاءها فى ان يستقيل من وظيفته كمدير للجامعة . وعاش كبار الجامعيين تحت كنفه داخل الجامعة وخارجها .

وسبق لى ان اشرت الى اول لقاء بينى وبينه عام خمسة وثلاثين ، يوم ان عدت من بعثتى ، ووكل الى التدريس فى كلية الآداب ، ومنذ هذا اللقاء توثقت علاقاتنا عاما بعد عام ، وشاء القدر ان اصحبه فى رحلة بحرية عام ستة وثلاثين على ظهر الباخرة « الكوثر » من الاسكندرية الى « مارسيليا » وكانت رحلة ما امتعها ، ومن اغلى ذكرياتى التى مررت بها ، فقد جمعت هذه الباخرة بينى وبين لطفى السيد وعلى ماهر وطلعت حرب ، وكنا نتناول غداءنا وعشاءنا سويا ، ونتذاكر فى شئون وطننا ، وكم افدت من ملاحظات هؤلاء الشيوخ وتجربتهم ،

وقدر للباخرة ان تتوقف فى الطريق للاصلاح فافسحت لى مجال الحديث والاخذ والرد عن هؤلاء الشيوخ الاقطاب ، ويوم ان وصلنا الى « مرسيليا » كنت اتوقع ان اسعد بصحبة لطفى السيد في رحلته الى باريس ، ولكنه قرر ان تنتهى هذه الرحلة عند « مرسيليا » وبقى بضعة ايام فى انتظار عودة السفينة التى حضر عليها ، ورأيت من اللائق ان ابقى معه طوال هذه المدة فزرت معه مازرنا من كنائس واماكن اثرية فى عاصمة فرنسا الجنوبية ، واكدت هذه الرحلة العابرة علاقتنا ، وكنا نلتقى فى القاهرة فى مبنى الجامعة او فى نادى محمد على الذى كان يعتبر زعيمه الاول ، كما نلتقى فى الاسكندرية فى فندق « سيسل » الذى كان يقضى فيه شهرين فى كل صيف ، وكم كانت جلساته فى هذا الفندق عامرة بالشباب والشيوخ .

وللطفى السيد اياد كثيرة على جامعة القاهرة واخص بالذكر منها فتحه الباب للفتاة المصرية التى اصبحت اليوم تدرس فى الكليات العملية كما تدرس فى الكليات النظرية ، واصبح لدينا طبيبات ومهندسات الى جانب الاطباء والمهندسين ، وكنت اتردد بعض الشيء فى ان تلتحق ابنتى الكبرى بكلية الطب التى اتجهت اليها ، ورغبت فيها ، لاسدا للباب عليها ، ولكن محاولة لتخفيف اعبائها ، لانى اعرف مسئوليات الطبيب ودقة رسالته ، وكان لطفى السيد بين آخرين من مؤيديها فيما اتجهت اليه ، ولى معه رحمه الله مواقف مختلفة فى شئوننا العامة والسياسية . وكم عولت على رأيه واعتددت بمشورته . واكتفى بان اشير الى موقف واحد رأى ان يأخذ رأيى فيه كما عودته ان استشيره فى كل مايقع لى ، وهذا الموقف هو انه عرضت عليه رياسة الجمهورية بعد استقالة محمد نجيب

وايمانا منه بأنى كنت حينذاك قريبا كل القرب ممن بيدهم السلطة شاء إن يستأنس برأيي ، ولم اتردد فى ان اصارحه بان من الخير أن يترك لرجال الثورة ميادينهم مفتوحة لكى يملئوها كما يشاءون .

وقد اخذ برأيي واعتذر دون تردد ، ولا اتحدث عن لطفى السيد المجمعى فتلك ناحية جديرة بشرح وتفصيل .

وثانيهم : مصطفى عبد الرازق الذى لقيته لاول مرة عام اثنين وثلاثين وتسعمائة والف بباريس ، فقد شاء ان يدعو ابناءه من مبعوثى كلية الآداب الى غداء ، دفعه كرمه الى ان يضمنى اليه وتلك يد جديرة بامثال مصطفى عبد الرازق وبعد اتمام بعثتى قمت بالتدريس فى كلية الآداب وفى قسم الفلسفة الذى كان يرأسه مصطفى عبد الرازق وهنا قامت علاقة وثيقة بيننا لم تغيرها احداث الدهر فى شىء ، فقد كنت عضوا وفديا فى مجلس الشيوخ ، وكانت له صلاته الوثيقة بحزب الاحرار الدستوريين ، واشهد بانه لم يكن لذلك اى اثر على زمالتنا ومودتنا ، وتعاونا بصدق فى خدمة الدرس الفلسفى وبخاصة الفكر الاسلامى ، ويعد مصطفى عبد الرازق بحق الاستاذ الاول لهذه الفلسفة فى تاريخنا المعاصر .

كان رئيس مدرسة كما اشرت من قبل ، وكون جيلا من باحثين ودارسين عمرت بهم كلياتنا الجامعية ، وافادت منهم الجامعات العربية الناشئة فى الاقطار الاخرى حرص على ان يعود ابناؤه - ومنهم من لم يمر بالدرس الازهرى - على دراسة المتون والنصوص وفى ذلك مافيه من صقل ، ومحاولة استخلاص فى مدلولاتها الصحيحة ، واستطاع كثير من

تلاميذه ـ فى ضوء هذا ـ ان يكون له اسلوب عربى سليم بجانب تمكنه من لغة اجنبية ، وماكان احبه الى تلاميذه ، وكانوا يعدونه جميعا اباهم الروحى ، ولا اشك فى انه كان يعاونهم مادعت الى ذلك حاجة ، وكل اصدقائه يعرفون ان شئون الدنيا كانت هينة عليه ، واذكر انه المت باحد زملائنا ملمة ، وفكرت هيئة التدريس بكلية الآداب فى ان تقف الى جانبه ، وبدأنا نتذاكر سويا فيما ينبغى ان نقدمه ؛ واتفقنا على نسبة مئوية من مرتبنا الشهرى ولم يدهشنى ان يهمس مصطفى عبد الرازق فى اذنى قائلا : هل تعرف كم مرتبى ؟ وكنت على يقين من انه لايعنى بهذه الامور ، وواضح انه كان يسأل عن مرتبه لكى يقول بنسبة محترمة .

اشتركنا فى الدرس ، وفى مناقشة الرسائل الجامعية ، وكنا دائما على اتفاق تام ، واريد به فى اخريات حياته ان يرشح لمشيخة الجامع الازهر ، وكان القانون ينص بان الترشيح مقصور على هيئة كبار العلماء ، ولم يكن مصطفى عبد الرازق واحدا منهم ، وقصد الى تعديل القانون لكى يفتح له الباب ، وكنت عضوا فى لجنة مجلس الشيوخ التى عرض عليها هذا التعديل ، وطوال حياتى البرلمانية كنت ارفض التعديلات القانونية المصنوعة التى تدفع اليها غاية خاصة ، فلم اقر التعديل المقترح ، برغم اقرار اغلبية اللجنة له ، واعترف بان هذا لم يؤثر بشىء فى صلتى بمصطفى عبد الرازق ، بل لقد كنت على موعد للغداء معه فى بيته فى هذا اليوم نفسه ، ولم يعرض الصديق الكريم لهذا الموضوع بحال ، ولعله قال لنفسه فيما بعد : ليت اللجنة لم تقر التعديل بعد ان عانى فى مشيخة الازهر ما عانى .

هذا هو « مصطفى عبد الرازق » الكريم والوفى .

وثالثهم : طه حسين الذى عشت معه فى معركة الشعر الجاهلى قبل سفرى الى اوربا دون ان اتصل به او القاه ، وكنت اشعر منذ ذلك التاريخ انه قصد بحديثه عن الشعر الجاهلى ان يوجه الانظار الى النقد والتمحيص ، وان يطبق فى ميدان الادب الشك الذى طبقه ديكارت فى ميدان الفكر والنظر .

وجاء لقاؤنا لاول مرة فى « هولندا » حيث عقد مؤتمر للمستشرقين عام اثنين وثلاثين ، وحرصت على ان اشترك فيه . وعلى مائدة الغداء فى اول يوم من ايام هذا المؤتمر جلست الى جانب طه حسين ، وبدأ يحدثنى باللغة الفرنسية ، واحسست بأنه قصد الى اختبار درجة معرفتى بهذه اللغة ، وقد عشت معها من قبل نحو ثلاث سنوات ، واحسست بانه اطمأن الى ما رغب فى معرفته ، وبعد اعوام ثلاثة التقينا فى كلية الآداب ، وكان عميدها الذى رسم لنفسه صورة من الدرس الجامعى ما احوجنا ان نستعيدها كاملة ، وان نأخذ انفسنا بها ، درس يقوم على الطالب والاستاذ معا ، وقد كان طه حسين يرى بان طلاب الدرس الجامعى ينبغى ان يثقفوا تثقيفا وافيا فى مرحلة التعليم العام ، وقد وجه النظر الى هذا كما اشرت من قبل فى « اصلاح التعليم الثانوى » وبقدر حبه لتلاميذه كان جادا كل الجد فى محاسبتهم على اعمالهم ، ولم يتردد قط فى مكافأة المحسن منهم ، وبهذا حقق الطرف الثانى من قضية التعليم الجامعى وهو طرف الاستاذ الذى يعطى ويناقش .. ويعترض ويحلل .. ويطلب الى طلابه وتلاميذه ان يناقشوه ويجادلوه . وكون بهذا جيلا من الجامعيين الذين كانت لهم اقدارهم فى تاريخ حياتنا الجامعية طوال نصف القرن الماضى ، كان استاذ الادب العربى الذى

اراد به ان يكون ادبا سهلا صافيا واضحا .معبرا رسم لذلك النموذج الحي فيما كتب والف .. او فيما درس وحاضر ، وكانت محاضراته العامة حدثا علميا تشد اليه الرحال من مختلف المدن المصرية ، بل من بعض البلاد العربية .. ولم تزخر قاعة « ايورت » بالجامعة الامريكية بجمهورها يوما مثلما زخرت بعشاق طه حسين ، تخير من اعوانه فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، من اطمأنت نفسه اليه ، وجمع اسرة وقيادة كانت من احسن القيادات ، والى جانب هذا الجهد الجامعي الذى اقامه على دعائم من الماضى والحاضر حاول ان يربط الجامعة المصرية بالهيئات العلمية فى العالم شرقا وغربا ، فحرص على ان يشترك في مؤتمرات المستشرقين ، وان يشترك بعض زملائه من كبار الاساتذة والباحثين ، وقد اراد بى يوما ان اشترك فى مؤتمر نظمه اليونسكو فى الهند عام واحد وخمسين لبحث القضية التالية « الثقافة بين الشرق والغرب » وقد افدت من هذه التجربة فائدة عظمى ربطتنى باوساط ثقافية مختلفة في اوربا وفى شرق اسيا ، والى جانب عنايته بالحاضر ومشاكله لم يغفل عن الماضى فكان من العاملين على احياء التراث ادبا وعلما وفلسفة ، فقاد حركة احياء لادب المعرى بمناسبة ذكراه .. واشترك معى فى اخراج موسوعة ابن سينا الكبرى ، وهى كتاب الشفاء ليكون اسهاما من جانب مصر فى الذكرى الالفية للفيلسوف الكبير ولم يفته ان يقدم للجزء الاول من هذا الكتاب وعنوانه « المدخل » الذى طبع فى المطابع الاميرية ، وعرض فى مهرجان بغداد فى العام التالى بمناسبة هذه الذكرى .. ويوم ان كان وزيرا للمعارف وجه بعض البعوث للبحث عن تراثنا المنسى فى مدن الخليج ، واهتدينا فى اليمن الى مخطوط له

شأنه فى تاريخ الفكر المعتزلى وهو اجراء من كتاب « المغنى » للقاضى عبد الجبار امام المعتزلة المتأخرين .. واراد بى مرة اخرى أن اقود حركة هذا الاحياء .. ويوم ان قصرت وزارة المعارف عن القيام بواجبها فى هذا المضمار استطاع ان يستعين بزميل كريم آخر هو المرحوم « احمد حسن الباقورى » الذى كان وزيرا للاوقاف حينذاك .. ولم يتردد فى ان يقف من خبراتها مبلغا لهذا الاحياء .. ونأسف انا لم نضع يدنا على كتاب « المغنى » كاملا ، ولم نحصل فيه على اصول متعددة ومع ذلك حرصنا على اخراجه لانه يلقى اضواء كثيرة على الفكر المعتزلى ، ولانزال نأمل فى ان نجد بقايا لهذا التراث المعتزلى العظيم ، ومن حسن الحظ ان اخواننا فى اليمن السعيد يحاولون اليوم بالتعاون مع مصر اخراج الكتاب القيم فى صورته الكاملة .

هذا هو « طه حسين » الجامعى ، اما طه حسين المجمعى فذلك موضوع آخر جدير بأن يعالج فى استقلال .

ورابعهم : احمد امين ، وصلتى به اسبق واقدم ، تتلمذت له فى اخريات العقد الثانى من هذا القرن بمدرسة القضاء الشرعى ، وما كان اجداها من تلمذة ، افدت منها ما افدت علما وسلوكا وكان للسلوك فى رأى احمد امين شأن خاص لايقل عن شأن العلم والمعرفة ، ولا غرابة فقد كان استاذا للاخلاق . تتلمذ لعاطف بركات وكلنا يعرف ما كان عليه عاطف بركات من حزم وقيادة جادة حكيمة وبدا لنا جميعا ان احمد امين من اقرب تلاميذه اليه ، وقد حببه فى الثقافة الغربية بقدر تعمقه فى الثقافة الاسلامية ، ودفعه لان يتعلم الانجليزية فى سن متقدمة ، وكان احمد امين باختصار خلال السنوات

التى قضيتها فى مدرسة القضاء المثل الذى حاولت استطعت ان احتذيه ، ولازلت اذكر مقالا له نشر فى احدى المجلات بعنوان « سياحتان فى مكتبتين » ووجه النظر فيه بخاصة الى حرص الغربيين على الدقة وحسن الترتيب وسلامة العرض ، فى حين ان المكتبة العربية اشبه ماتكون بمخزن لكتب منها الى اى شىء آخر ، وماكان يتردد احمد امين فى ان يوجه انظارنا نحو المأكل والملبس ، وآداب اللياقة فى التعامل مع الناس ، ولم اره ثانية الا عام اثنين وثلاثين وتسعمائة والف فى باريس هذه المرة .. واسعدنى انه دعوتى الى طعام غداء فى المنزل الذى كنت اقيم فيه . وكم اسعده ما احس به فى هذا المنزل من هدوء وسكينة ، ملاحظا ان فى هذا مايعيننى على درسى وبحثى . ويوم ان قمت بالتدريس فى كلية الاداب عام خمس وثلاثين تجددت صلتنا مرة اخرى ، واصبحت زميلا لاحمد امين وان لم انس استاذيته بحال ، ورافقنى مشروعه فى سبيل خدمة الحياة الاسلامية الفكرية والادبية والسياسية بالتعاون مع زميلين كريمين هما طه حسين وعبد الحميد العبادى .

وكان اساس هذا المشروع ان يقوم احمد امين بالتأريخ للفكر الاسلامي ، ويتولى طه حسين التأريخ للادب العربى ويضطلع عبد الحميد العبادى بالجانب السياسى ، وليت هؤلاء الثلاثة تابعوا الشوط خطوة بخطوة ولكن « تقدرون وتضحك الاقدار » ، فحالت اعباء عمادة الكلية دون طه ومتابعة السير وعجلت المنية بعبد الحميد العبادى فلم تتح له فرصة العمل المتصل ، اما احمد امين فقد اخرج للطلاب والباحثين سلسلة من كتب فى فجر الاسلام وضحاه وظهره لاتزال مرجعا يعول

عليه ، وكم قدرت الجهد الذى بذله فى هذا المضمار وانا وثيق الصلة بكثير مما وقف عليه من مصادر ، وما اعتمد عليه من مؤلفات ، قضت عليه بأن يلزم داره فى ساعات طويلة ، وان ينكب على القراءة والكتابة بانتظام ، وكان لذلك اثره على نظره وصحته .

وابت الحياة النيابية الا ان تبعدنى عن كلية الآداب ، ولكنها لم تحرمنى من زمالة اخرى لاحمد امين فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهذا عمل جليل آخر كان احمد امين رائده ومغذيه بانتظام ، وما كان اشبه هذه اللجنة بوزارة اهلية للثقافة جمعت بين خيار المثقفين الذين حرصوا على ان يعطوا تأليفا وترجمة ، وان يغذوا الفكر المعاصر بغذاء متصل فى كتبهم ومؤلفاتهم وضموا اليها صحفا اسبوعية او نصف شهرية كمجلة « الرسالة » ومجلة « الثقافة » وسيكون لنا حديث اطول واوسع عن هذه اللجنة .

ومن حسن حظى انى نعمت عام ستة واربعين بزمالة اخرى لاحمد امين فى « مجمع اللغة العربية » وهو الذى استقبلنى فيه مع تسعة آخرين من الاعضاء الجدد سماهم جميعا « العشرة الطيبة » وترجع هذه التسمية اليه فلم يقل بها احد من قبل فى استقبال مجمعيين آخرين ، والحديث عن « احمد امين » المجمعى افسح واوسع من ان تفى به سطور قليلة فى هذه المناسبة .

دروس

١ ـ فكرت « كلية الآداب » بجامعة فؤاد الاول فى العشرينيات من هذا القرن فى ان تنشىء مدرسة ثانوية خاصة لاعداد الطالب الجامعى ، وماذاك الا لانها شعرت بان خريجى المدارس الثانوية لم يعدوا الاعداد اللائق لبحث ودراسة جامعية ، ومن حسن الحظ انه لم يؤخذ بهذه الفكرة ، وقد كنت ولا أزال ارفض المدارس الطائفية ، غير ان هذه الفكرة نفسها هى التى دفعت قطعا الى اصلاح التعليم الثانوى الذى تولاه المرحوم « نجيب الهلالى » وخطا فيه خطوة لا بأس بها ، فزاد عاما دراسيا فى المرحلة الثانوية ، وادخل تغييرا كاملا على مناهجها وموادها ، وكان لهذا اثره فى الطالب الجامعى فى الاربعينيات والخمسينيات ثم ضاع هذا الاثر واخذ اعداد الطالب الجامعى يضعف ويتضاءل عاما بعد عام ، وما احوجنا ان نرد اليه اعتباره وان نعده لدراسة جامعية يستطيع ان يضطلع بها .

وكنا بالامس نختار لكل معهد عال من بين المتقدمين من نرى فيهم كفاية واستعدادا لما هم مقبلون عليه ، وجاءت آلية مكتبة التنسيق فقضت على كل هذا الاختيار ، وظروفنا كلها تدعونا الى ان نواجه هذه المشكلة فى حسم وحزم والا اتسع الخرق على الراقع ، وخرجنا حملة شهادات عالية من الظلم ان نسميهم مثقفين ثقافة جامعية حقة .

٢ ـ وقفنا زمنا موقف الاستنكار مما كان يسمى « الجامعة الامريكية » ولاحظ كثيرون ان لها اهدافا تبشيرية او استعمارية ، وقد كانت فى بدايتها اقرب الى المرحلة الثانوية .

ولكنها نمت على مر الزمن ، واصبحت فعلا صورة من صور التعليم الجامعى الذى وقف نفسه على اقسام ودراسات خاصة كالادب واللغة او الاقتصاد والسياسة ، وادت ذلك كله اداء استلفت النظر واقبل عليها الشباب والشابات من المصريين بحيث اصبحوا يكونون اغلبية طلابها وقد كانت من قبل معهدا للوافدين او النزلاء ، وعزز من مركزها انها تعد خريجيها اعدادا صحيحا فى اللغة الانجليزية ولهذا لم يكن غريبا ان اعدها حلقة من حلقات تعليمنا الجامعى وبدأنا فعلا نعقد اتفاقات وصلات بينها وبين معاهدنا وكلياتنا الجامعية .. واصبحنا فى عصر لايمكن لمثقف ثقافة كاملة ان يصل الى مايرغب فى تعلمه الا اذا اجاد لغة اجنبية على الأقل ، واذا كانت الجامعة الامريكية تخرج المصرى الذى يجيد العربية والانجليزية معا فانى ادعو ان تكون هذه الجامعة اسوة حسنة لكلياتنا الانسانية والعلمية .

٣ ـ مضى على تعليمنا الجامعى نحو سبعين عاما ـ اذا ماتركنا جانبا الجامعة المصرية القديمة التى لم تعمر طويلا ـ وسرنا فى بداية الشوط سيرا متئدا فوقفنا زمنا عند « جامعة فؤاد الاول » ثم افرخت بعد عشرين عاما تقريبا « جامعة الاسكندرية » وتلتها « جامعة اسيوط » . وحين ضاقت جامعة القاهرة بمن فيها انشئت الى جانبها « جامعة عين شمس » وتم هذا التطور على مراحل ، وليتنا اخذنا انفسنا بذلك ولكن

مع الاسف قفزنا قفزة كبيرة فى الستينيات ، وصعد عدد الجامعات المصرية الى نحو ثلاث عشرة جامعة ، وادع جانبا الجامعة الازهرية وفروعها المختلفة ، وكأنا لانفكر فى جد بما يتطلبه التعليم الجامعى من استاذ وكتاب وطالب وجو وحياة ، ويظهر ان التنافس الاقليمى كان له دخل فى هذه الطفرة الزائدة عن الحاجة ، وفى الأمم الراقية جامعات متعذدة فعلا ، ولكنها لم تنم هذا النمو السريع الذى نلحظه بيننا ، والذى لايبدو أنا قانعون به ونعد العدة لكى تكون فى كل عاصمة اقليم جامعة ، وما احوج هذه الاقاليم الى مدارس فنية من صناعية وزراعية وتجارية تغنيها عن هذا التعليم الجامعى . واصبح ناقوس الخطر يهددنا ببطالة نامية على مر السنين بين حملة الشهادات العالية ، وقد هددنا فعلا وبدأنا نشكو من بطالة الجامعيين ومن قضوا زهرة حياتهم فى الدرس والبحث دون ان يحظوا بثمرة لذلك ، ويسعدني انا بدأنا نحس بالحاجة الماسة الى التعليم الفنى من صناعى وزراعى في مستوياته المختلفة وفى التكنولوجيا الحديثة ارجو ان نعد له اعدادا لائقا قائما على احدث الاجهزة واقدر الفنيين والصناعيين

الباب الثالث :

حياتنا النيابية

الفصل الأول :

حياتنا النيابية

ترجع الى آخريات القرن الماضى الذى عرف ماكان يسمى « مجلس شورى النواب القوانين » وقد كان محدود العدد ، محدود السلطة والاختصاص ، ثم توقف نشاطه زمنا ، وفى العقد الثانى من القرن العشرين اتجهنا نحو مايسمى « الجمعية التشريعية » ، وكانت اكبر عددا ولكنها لم تكن اوسع اختصاصا ، وصاحبها تمثيل اقليمى اعتقد انه جدير بان ينوه به وهو ماكان يسمى « بمجالس المديريات » ، فكان لكل مديرية ممثلون اقليميون يعنون خاصة بشئون التعليم والصحة وإنشاء الطرق ، وقد اسهموا فى ذلك اسهاما ملحوظا .

وقضت الحرب العالمية الاولى بان توقف الجمعية التشريعية نشاطها فى حين استمرت مجالس المديريات فى اداء رسالتها ، ومن آثارها الباقية مدارس اسست للنهوض بالتعليم الاولى والابتدائى بل الثانوى ، ولم تغفل الفتاة فأسست لها مدارسها الخاصة ووضعت دعائم معاهد للتعليم فسيحة ولائقة كثيرا ماعز علينا اليوم ان نحققها .

والى جانب رسالتها التعليمية كانت لها رسالة اخرى

صحية عنيت فيها ايضا بانشاء الملائم من المستشفيات والمستوصفات ولم يفتها امر الطرق ، وان كان اثرها فى هذا الميدان اقل وضوحا ، ولو قدر لها ان تتابع السير لغذت الاقاليم بغذاء ماكان احوجها اليه لاسيما والعواصم الكبرى طغت عليها باضطراد .. وما ان جاء الدستور ، دستورنا الاول حتى نادى بانشاء مجلسين احدهما مجلس النواب والاخر مجلس الشيوخ ولم يدع هذان المجلسان محلا للمجالس الاقليمية .

وقد اتصلت بحياتنا النيابية هذه منذ عهد مبكر ، فتتبعت انتخابات مجالس المديريات والجمعية التشريعية وكان لى نشاط فى انتخابات مجلس الشيوخ ، ذلك لان والدى تقدم لعضويته ومن مآسى مجالسنا النيابية فى العقدين الثالث والرابع من هذا القرن العدوان عليها وحل البرلمان من حين لآخر ، وادى ذلك الى جهود ضائعة وتوقف نشاط ماكان احوجنا الى متابعته .. ولم يقف الامر على العدوان على المجالس النيابية بل امتد الى الدستور نفسه واحل دستور محل آخر ، وعشنا مع ماكان يسمى دستور سنة ٣٠ زمنا الى ان عدنا مرة اخرى عام خمسة وثلاثين الى الدستور الاول ، بلبلة كنا نأمل الا نبتلى بها لاسيما وقد جاءت الحياة النيابية وليدة ثورة ١٩١٩ التى احدثت يقظة شعبية كاملة وحققت صحوة كان ينبغى ان نغذيها باضطراد ، لكن دار المندوب السامى من ناحية وقصر عابدين من ناحية اخرى ماكانا يرحبان بالتمثيل الشعبى وامتداد نفوذه .

وبلغ ايمان سعد زغلول بالحياة النيابية واثرها فى تربية الشعوب والنهوض بها انه لم يقنع بالنضال السياسى الذى

بدأ به ثورة سنة ١٩ بل شاء ان يكون معلما برلمانيا يرأس مجلس النواب ويدير مناقشاته ويوجهها الوجهه السليمة ، لكن الاجل وافاه عام سبعة وعشرين فحرم الحياة النيابية من قدوة وتوجيه لم توفق لهما دائما ، واذا كانت دار المندوب السامى والسراى قد أساءتا الى حياتنا النيابية فإن الحزبية التى سنعرض لها فى حديث خاص يقع عليها شيء من وزر توقف هذه الحياة واهتزازها لخلافات شخصية او سعى وراء شهوة الحكم والسلطان ، وقد عرضت مع صديقى الاستاذ ميريت غالى لهذا الموضوع وما صادف حياتنا النيابية من قصور حتى عام تسعة واربعين فى كتاب سميناه « الاداة الحكومية » وقد سبقنا به الاعتراف بنواحى النقص فى تمثيلنا البرلمانى ترشيحا وانتخابا واداء للرسالة البرلمانية قبل ان تجيء ثورة سنة ٥٢ ، واعترف بان هذه الثورة كانت شبه اعتراض على التمثيل النيابى والاداء الحزبى ، وفيها شيء من اعلان افلاس المدنيين فى اداء رسالتهم البرلمانية ، واقرر هنا فى صدق واخلاص انى فى حديث طويل لى مع المرحوم « على ماهر » قبل ان اشترك فى وزارته التى تلت الثورة لاحظت هذا الافلاس المدنى ورغبت الى رئيس الحكومة ان يحاول المدنيون رد اعتبارهم ، ولاسبيل الى ذلك الا بحسن اختيار رجال صحائفهم بيضاء ، وعزائمهم قوية ، وكنت اعتقد انا لو وفقنا لهذا لاعفينا رجال الثورة من مسئولية الحكم واعبائه . وبديهى انه لم يكن مجديا بحال ان نعول على سياسيين قدماء دار حولهم مادار من نقد وتعليق .. امل كنت اعلل النفس به وان شعرت بصعوبة تحقيقه ، ولعل هذا الأمل هو الذى قضى على وزارة « على ماهر » الثانية ان يتأخر تشكيلها نحو اسبوعين او يزيد ، ويظهر ان رجال الثورة ـ برغم انهم رشحوا

اشخاصا للاشتراك فى هذه الوزارة واظن انى كنت واحدا منهم ـ فانهم لم يكونوا متحمسين لها كل التحمس ، ولعلهم كانوا يشعرون فى ضمائرهم بانهم اولى بان يديروا دفة الامور ، ولا ادل على هذا من ان وزارة « على ماهر » الثانية لم تعمر الا يوما او يومين ، وانتقل الحكم من المدنيين الى العسكريين ، واضطلع به المرحوم « محمد نجيب » تحت اشراف مجلس الوصاية واريد بى وببعض زملائى القريبين منى ان نشترك فى وزارة « محمد نجيب » الاولى ، وكنا ثلاثة رغبوا ان نتحمل العبء معهم وهم « محمود محمد » و« ميريت غالى » و« ابراهيم مدكور » ولكن الثلاثة ادركوا فى يقين ان عمر المدنيين فى وزارة عسكرية لن يكون طويلا ، وان قادة الثورة من حقهم ان يرسموا اهدافهم ، وان يحققوها على ايديهم . وشرفت بجلسة طويلة مع المرحوم « محمد نجيب » عارضا علىّ الأشتراك فى وزارته ، وكان عذرى واضحا وصريحا .. وملخصه اني مستعد لان اقدم خبرتي ومشورتي دون ان اتولي مسئولية تنفيذية لا احس بان طريقي اليها معبد . كان من نتائج هذا انى رفضت الاشتراك فى الوزارة وقبلت الانضمام الى عضوية « مجلس الانتاج » وقبول رياسة « مجلس الخدمات » وماكنت يوما من مناهض ثورة ٥٢ ، بل كنت ارى من واجبى ان ادعمها.واعتقد انى كنت ممن مهدوا لها بكتاب « الاداة الحكومية » الذي اشرت اليه من قبل ، ومواقفى البرلمانية المختلفة وعلى راسها « استجواب الاسلحة الفاسدة » ولكن رجال الثورة كانوا اميل الى حكم الفرد ويريدون سلطة مطلقة ، ويرغبون فى التحرر من قيود المجالس النيابية وعلى ذلك حلوا مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وقضينا عشر سنوات لم نعرف فيها الا المجالس

الاستشارية » اما الهيئات البرلمانية » التى تسأل وتستجوب فلم يكن ثمة استعداد لها . وحتى المجالس الاستشارية لم تعمر طويلا فقد عشت مع « مجلس الانتاج » نحو عامين ومع « مجلس الخدمات » نحو عام ونصف وحلت محلها هيئات اخرى استشارية لم احس بان هناك جدوى كبيرة فى الاشتراك فيها ، وحتى « مجلس قيادة الثورة » نفسه ، وهو قائم على العسكريين وحدهم اريد التخلص منه .. ونحونا نحو « حكم الفرد » الذى كان يستريح الى هذا اللون من الحكم وكان صريحا مع نفسه ومع زملائه وقد اعلن انه يريد ان يسير الامور بنفسه ، وان كان لم يسلم من شد ومد بين اقرب الناس اليه وهو وزير الدفاع حينذاك .

ورؤى ان نعود مرة اخرى الى مايمكن ان يسمى « حياة نيابية » بانشاء « مجلس الامة » الذى يقوم على نظام « الحزب الواحد » ويعتبر شبه بطانة للسلطة الحاكمة ، وعرض علىّ مرة آخرى ان اسهم فى هذا المضمار لصلتى الطويلة بحياتنا النيابية التى عشت فيها خمسة عشر عاما . ولم يكن ثمة سبيل لان انخرط فى هذا السلك .

وسارت حياتنا النيابية على اساس نظام حكم الفرد . وهو دون نزاع لايحقق الديمقراطية المنشودة ، ولايسلك مسلك الرقابة البرلمانية السليمة . وانتقلنا من « مجلس النواب » الى « مجلس الشعب » واخيرا آمنا بان الحياة النيابية لا تلتئم مع قاعدة الحزب الواحد ، فأخذنا نفتح الابواب فى حيطة لتعدد الاحزاب لغرس نواة المعارضة .. والامل كبير فى ان حياتنا النيابية الحالية جديرة بأن تقوّم نفسها بنفسها ، وان تمكن للحرية والديمقراطية بحيث تضرب المثل لمن حولنا فى تكوين

حياة نيابية قوية وسليمة ، وتأخذ مكانها بين النظم النيابية الحقيقية فى البلاد الديمقراطية . واشهد ان ماخطونا فى هذا السبيل حتى الآن يبعث على الامل . وستستكمل الحياة النيابية نشاطها وقوتها يوم ان نحسن اختيار المرشحين ونفتح الباب للكفايات الجادة المخلصة . وحياة كل حزب فى قوة افراده وسلامة اختياره وحرصه على قيمه ومبادئه .

الفصل الثاني :

الحزبية

حجر الزاوية فى البنيان البرلمانى ، وعلى اساسه تتضح المعالم ، ويخلق جو للتأييد والمعارضة ، والحقيقة دائما بنت البحث ، وقيمة التأييد فى ان يصدر عن اناس اتضحت امامهم الاهداف السياسية وعدوها قواما لرسالتهم البرلمانية ، وليس التأييد مجرد مناصرة وتبعية ، بل هو جهاد ونضال باسم الحق والمصلحة العامة ، ولا قيمة لحياة برلمانية بدون معارضة تكشف مايخفى وتتدارك مايفوت وتحاول ان تقوم المعوج والمعارضة النزيهة خير عون للحكم السليم .

وقد عرفنا الحزبية قبل ان نستكمل استقلالنا فشق الحزب الوطنى على ايدى « مصطفى كامل » الطريق السياسى فى اوائل هذا القرن ، وحاول الخديوى ان يستعين به ويؤيده ولكنه كان احرص على مركزه من الدفاع عن حقوق الوطن ، وفتحت ثورة سنة ١٩ باب الحزبية الشعبية الحقيقية ، وترتب عليها « حزب الوفد » الذى كان يرى ان رسالته الاولى هى التخلص من الحماية وتحقيق الاستقلال المنشود ، وكسب اسمه عن طريق المنهج الذى سلكه حين اوفد بعض رجاله الى اوربا وامريكا للمطالبة بهذا الاستقلال امام اكبر هيئة دولية فى العشرينيات وهى « عصبة الامم » وقد حققت مساعى

الوفد وجهوده المتواصلة قدرا من الاستقلال وماكان يمكن ان يحقق كل ماينشده دون قوة او سلاح .

وانتهينا الى معاهدة سنة ٣٦ ، وتعد نهاية مرحلة طويلة فى سبيل الحصول على الاستقلال ولم تخل هذه المعاهدة من عيوب ونواحى نقص كان لابد من تداركها ، ولكننا فى ضوء معاهدة سنة ٣٦ وصلنا الى مرحلة يجب ان نفسح المجال فيها للسياسة فنرسم برامجنا الحزبية التى تقوم على اتجاهات ودعائم شعبية .

وقدر لى ان اضطلع بشىء من عبء الحياة البرلمانية عام سبعة وثلاثين ، واريد لى ان اخلف والدى فى مجلس الشيوخ وقد كان وفديا منذ بدء ثورة سنة ١٩ ، وسرت على نهجه مؤمنا بأن للوفد قواما وتكوينا يمكنان من الوقوف فى وجه السراى ودار المندوب السامى ، وقد اضطلع بذلك زمنا ، وارتفعت رايته باسم المعارضة التى كانت تهدف الى صالح الوطن وحمايته ، وبعد بضع سنوات من الحياة البرلمانية احسست بان الوفد ـ وانا احد افراد حزبه ـ قد آن له الاوان لان يرسم برنامجا شاملا يواجه به جوانب الاصلاح المختلفة ، وكثيرا مارفعت الصوت بهذا فى الهيئة البرلمانية الوفدية ، وربما مثلت لونا من الوان المعارضة الداخلية فى قلب الحزب الواحد . وكم وددت لو استجاب القائمون على امر الوفد حينذاك الى وضع هذا البرنامج وتحديد خطواته ومعالمه ، وشاركنى فى هذا الاتجاه بعض رجال الهيئة الوفدية وعلى رأسهم المرحوم « يوسف الجندى » واتفق معى وفدى كبير آخر انتقل الى رحمة الله هو المرحوم « محمد محمد الوكيل » ولما يئست من نجاح دعوتى بدأت تضعف نزعتى الحزبية ، وبدوت فى

مواقفى البرلمانية اقرب الى المستقلين منى الى الحزبيين ، ويوم ان انتهت مدة عضويتى تقدمت للانتخابات مرة اخرى مستقلا وامام منافس من حزب الوفد ، وشاء الله ان ابقى بين المستقلين فى مجلس الشيوخ الى ان حل عام ١٩٥٢ .

ولم تقف حزبيتنا فى العقود الثلاثة السابقة على ثورة سنة ٥٢ عند حزب الوفد بل احتفظ « الحزب الوطنى » بحياته ونظرياته وان تضاءل عدد من انتموا اليه . وعاصر حزب « الاحرار الدستوريين » تكوين الوفد فى العشرينيات بخلاف فى الطريقة ومعالجة الامور وبقى حزب الاحرار الدستوريين « الوجهة الثانية » فى حياتنا النيابية والسياسية لكنه لم يصل يوما الى قوة الوفد ووفرة انصاره ومؤيديه .

ولم يسلم الوفد نفسه من خلافات فى قياداته والمشرفين عليه ، وترتب على ذلك ظهور احزاب سياسية فى الاربعينيات تفاوتت قوة وضعفا لكنها كانت على كل حال شعبا من الوفد انفصلت عنه « كحزب الكتلة » وعلى رأسه « مكرم عبيد » والحزب السعدى وعلى رأسه « احمد ماهر » .

ومنذ اتصالى بالوفد وانا اقدر « احمد ماهر » وزميله « النقراشى » واؤيد كثيرا مما اتجها اليه ، ولكنى لم اكن اسلم باضعاف الوفد وخروج بعض العناصر القوية منه ، لذلك اعتذرت آسفا عن دعوة كريمة وجهها إلىَّ الحزب السعدى على لسان احد اقطابه « الدكتور السنهورى » لكى اشترك فى وزارته الاولى ، وكأنما رأيت فى مسلك المستقلين درعا اتقى به التبعية الحزبية على غير هدى ، واستطيع ان اؤيد ما اومن به وارفض ما اراه يتعارض مع المصلحة العامة حتى ولو كانت السراى وراءه ، وقضيت خمس عشرة سنة فى مجلس

الشيوخ ، لم تخل من نقد ومعارضة ومحاولة لتقويم مايمكن تقويمه .

وفى الستينيات رأى رجال الثورة انه لامانع من العودة الى فكرة الحزبية ، ولكنها كانت عودة مترددة وغير صريحة ، فأنشىء « حزب الامة » وكأنما كان اسما على غير مسمى او على الاقل ، كانت الكلمة الاولى والاخيرة فيه للحاكم وليس للمحكومين الا التأييد والتنويه بالحسنات والمنجزات ، وبدأ الحكم الفردى يتضاءل شيئا فشيئا فى السبعينيات ، وانتهى به الامر الى ان يسلم بان الحياة النيابية تستلزم تعدد الاحزاب .. وانا من انصار هذا التعدد لكن لا احب التوسع فيه فالحياة النيابية الرشيدة هى تلك التى تقوم على حزبين قويين لكل منهما اتجاهاته الواضحة ومبادئه المقررة ، والنظام النيابى الامريكى او الانجليزى او الالمانى يصور هذا احسن تصوير . ويظهر ان غياب الحزبية نحو عشرين عاما دفعنا ـ يوم ان فتح الباب لها ـ الى تكوين هيئات متعددة وفى حركة الانتخابات الاخيرة لمجلس الشعب مايؤذن بان الرأى العام اميل الى ان يقف امام صورتين متقابلتين لكل واحدة منهما لونها ومعالمها .. اما الصور القاتمة او غير الواضحة المعالم فمن العسير عليها ان تعمر طويلا .. وتحت قبة البرلمان فى « مجلس الشعب » الان عدة احزاب اوضحها « الحزب الوطنى الديمقراطى » و« حزب الوفد » الذى جدد حياته مرة اخرى .

واساس الحزبية الحقيقية رسم المنهج والالتزام به ، وهى تتطلب دون نزاع ضربا من التربية البرلمانية والسياسية ، وكلى رجاء ان تضطلع احزابنا بهذه المهمة كى تعد الدعائم الصحيحة لحزبية حقة وحياة نيابية مفيدة .

الفصل الثالث :

جماعة النهضة القومية

جماعة عشت معها عدة سنين فى الاربعينيات ، واسهمت فى تأسيسها مع زميلين كريمين هما الاستاذ ميريت غالى والمرحوم محمد زكى عبد القادر ، ودفعنا اليها ذلك القلق الذى كنا نحس به جميعا ابان الحرب العالمية الثانية ، وكان لابد لنا ان نحاول الخروج من هذا القلق وان نعد للمستقبل ، ووصل بنا الاعداد لهذا المستقبل انا تساءلنا : هل من الخير ان نسهم فى تلك الحرب او ان نقف بمعزل عنها ؟ وكان لدى المرحوم احمد ماهر الشجاعة التى دفعته الى ان يدعو الى الاشتراك فيها لكى يحفظ لمصر حقها فى عهد السلام وكنت شخصيا من هذا الرأى ولكن السراى كانت تعارضه تمام المعارضة .

هذا الى ان الرسالة الاصلاحية ومتطلبات النهوض والتقدم كانت تستلزم درسا وبحثا لم تشأ الاحزاب الكبرى ان تسهم فيه الاسهام الكافى ، ولا ان تعد له البرامج التنفيذية المدروسة برغم ماوجه اليها من ملاحظات فى هذا الميدان .

وخيل الينا انه فى وسع بعض المفكرين ان يضطلعوا بهذا العبء . وان يكونوا هيئة لهذا الاعداد ، وكانوا مخلصين كل

الاخلاص فيما ذهبوا اليه دون هدف او غاية اللهم الا رسم سبل الاصلاح ، واعداد وسائل النهضة الحقة ، واحياء الشعور الوطنى وتكوين رأى عام مستنير .

وقد اسست الجماعة فعلا من ثمانية اعضاء انتقل اغلبهم الى رحمة الله واذكر من بينهم « محمد سلطان » الذى عقد اول لقاء لهذه الجماعة فى مكتبه وقد تحمس لها تحمسا ملحوظا . واذكر ايضا « محمد على رشدى » رجل بنك مصر الذى لم تمنعه اعماله ومسئولياته من ان ينضم الى هذه الجماعة ، وممن رحلوا ايضا الدكتور « يحيى العلايلى » صاحب الخبرة الطويلة فى الانتاج الزراعى والدكتور « وديع فرج » استاذ القانون بجامعة القاهرة والاستاذ « عبد الملك حمزة » رجل السلك الديبلوماسى المعروف ومن الاحياء الاستاذ « محمد على الغتيت » . ولست فى حاجة ان اشير الى ان هؤلاء جميعا انما التقوا باسم المصلحة العامة ، وكانوا سواسية فى الميدان لم يفرق بينهم جاه ولا مال ، ودفعهم تمسكهم بالاصلاح - وبينهم بعض كبار الملاك الزراعيين - ان ينادوا بتحديد الملكية قبل ثورة سنة ٥٢ ببضع سنين .

التقت الجماعة على اهداف واضحة اولها : تدارك النقص فى اجهزتنا الادارية ، ومحاولة ادعام السلطة التنفيذية ادعاما يمكنها من ان تؤدى رسالتها على الوجه الاكمل ، وقد لوحظت عليها جوانب نقص كثيرة اخصها مركزية شكونا منها مر الشكوى ولانزال نعانى بعض مظاهرها ، وان كنا قد خطونا فى الثلاثين سنة الاخيرة خطوات كبيرة للخروج منها .. وامر آخر لايزال محل تعميق وملاحظة برغم المسابقات والاختبارات لاختيار عمال الدولة وموظفيها وهو المحاباة والمحسوبية ..

المحاباة فى التعيين فيهمل الاصلح ويؤخذ من دونه ، والمحاباة فى المعاملة فيدلل المهمل ويكافأ احيانا وينسى المجد والمجتهد ، وليس شيء اضر بالحاكم من ان ينتهز اقاربه ومن ينتسبون اليه فرصة حكمه ، واضر من هذا ان يكون الحاكم نفسه مستغلا وتتكون له ثروة لم تعرف قبل حكمه ، واضر من هذا كله ان نتسامح مع المنتفعين والمستغلين والمنحرفين .. والاداة الحكومية كل متصل الاجزاء ، واذا ما وفقت هذه الاداة الى وعى ورقابة تامة فى مختلف درجاتها استطاعت ان تواجه أعباءها وان تؤدى رسالتها على اكمل وجه ، ورئيس القلم مسئول في ميدانه مسئولية رئيس الادارة والمصلحة وقد نادت الجماعة بتوحيد القضاء ، ومن حسن الحظ انه قد اخذ بندائها ، وقطعنا في ذلك شوطا كبيرا ، وامنا بان استقلال القضاء اضمن وسيلة لتحقيق العدالة ، ومرت بنا ظروف حورب فيها هذا الاستقلال وامتهن ، واحسسنا فيها بان ليست لدينا سلطة قضائية يمكن التعويل عليها .

والى جانب اصلاح الاداة الحكومية اتجهت الجماعة نحو الحياة الاقتصادية ، ولاحظت ان الثروة الزراعية دعامة اولى من دعائم اقتصادنا ، ودعت الى تعزيزها بخلق ملكيات صغيرة والتخلص من الملكيات الكبيرة فى تدرج لايحدث بلبلة ولا اضطرابات ، قالت الجماعة بذلك قبل ثورة سنة ٥٢ بعدة سنين وقد اخذت الثورة بهذه الفكرة ولكنها طبقتها تطبيقا ثوريا ، ومهما يكن من امر فالاصلاح الزراعى اصبح امراً مألوفا ، وكل ماينبغى معالجته هو « العلاقة بين المالك والمستأجر » وظروفنا الاقتصادية تقضى باعادة النظر فى هذه العلاقة بحيث تتوزع المسئوليات على ابناء الشعب جميعا بدرجة مقبولة سواء كانوا ملاكا ام مستأجرين .

نسلك اليوم فى سبيل تنمية الانتاج الزراعى طرقا ماكان أحوجنا اليها منذ اربعين سنة مضت ، فننوع فى زراعاتنا ، ونختار احسن البذور ، ونحاول بوجه عام السمو بهذا الانتاج ، ويشكو انتاجنا الزراعى اليوم من نقص الايدى العاملة ، وكان من الضرورى ان نتجه نحو الميكنة وهى تجربة ما احوجنا ان نعد لها فى صبر وجلد ، وما اجدرنا ان نتوسع فى الملكيات المتوسطة ، ونمكن خريجى المعاهد الزراعية منها ، ونعاونهم على تعهدها ، ذلك لان الانتاج الزراعى دخلت فيه التكنولوجيا والعلم الحديث ، بحيث لايقوى عليه المزارع العادى ، ومن حسن الحظ انا اخذنا بهذا اخيرا وبدأنا نوزع على شباب الجامعيين مساحات من الارض الجديدة التى تتطلب رعاية وتعهدا طويلا ونأمل ان تراقب هذه التجربة بجد بحيث يقوم مايمسها من نقص او اهمال ، ودعت الجماعة الى استصلاح الاراضى البور ، وخلق مناطق زراعية باستمرار ، ولكنا اهملنا هذا اهمالا يكاد يكون تاما او اتجهنا نحوه فى بدء عهد ثورة سنة ٥٢ ولكنا لم نسلك فيه السبيل القويم ، وتجربة مديرية التحرير من الامثلة المحزنة لهذا الميدان ، وها نحن اولاء نحاول تدارك ذلك فى السنوات الاخيرة ، ونرجو ان نتعهده باضطراد .

ولم تغفل الجماعة ثروتنا الصناعية ، ونشاطنا التجارى ، ووضعت لذلك خططا وبرامج لم يقدر لها ان توضع موضع التنفيذ الا اخيرا . ووقفت الجماعة عند سياستنا الخارجية ولاحظت انها طغت منذ ثورة سنة ١٩ على الاصلاح الداخلى ولذلك رأت ان تقف بها عند حدودها الحقيقية ، ووجهت النظر نحو الخدمات الصحية والاجتماعية ولها فى ذلك برنامج طويل .

واتجهت الجماعة بهذا كله الى الدرس والبحث ، وتبادل الرأى مع المختصين والفنيين ، فاخذت نفسها باجتماع اسبوعى تعرض فيه مشاكل معينة او تحاول ان تستوفيها بحثا وان تقترح لها الحلول المطلوبة ، وحرصت على ان تتصل بجماهير المثقفين فنظمت سلسلة من المحاضرات وعالجت طائفة من مشاكلهم الكبرى فى الاربعينيات ، ووضعت فى بعضها بحوثا مستقلة ، فكان لها دراسة فى « الاصلاح الزراعى » واخرى فى « الارصدة الاسترلينية » وما اشبهها فى ذلك بصنيع حزب العمال الانجليزى الذى درج بعد الحرب العالمية الثانية على اخراج كراسات صغيرة تعالج بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية فى انجلترا .

واستطاعت الجماعة بعد درس طويل ان تتجه نحو الرأى العام ببيان سمته « صوت مصر » احرص على ان اسجل منه هنا مايلى :

يابنى الوطن :

هذا هو البرنامج ، وقد شئنا به ان ننسق نواحى الاصلاح ، ونجمل الاهداف والمقاصد ، ونجمع معالم النهوض الحقة ، على انا لانقنع بهذا العموم والشمول ونرى ان وراء كل نقطة من نقط البرنامج مشروعات يجب ان توضح وتفصل ، وان يتضافر على اعدادها الفنيون والسياسيون ، ونأمل ان نساهم فى اعدادها بنصيب بما تقدم من دراسات وبحوث ولا قيمة لهذه المشروعات ان لم تكن عملية تتمشى مع ظروفنا وتلائم بيئتنا ، وقومية نسلم بها جميعا ونواصل تنفيذها مهما تباينت الميول السياسية و الاتجاهات الحزبية ، ومحدودة الاجل كى

يحاسب منفذوها على خطواتهم ويقاس فى دقة مدى نجاحهم .

هذه المشروعات هى طريق النجاة وسلم الوصول ، استطاعت ان تخطو ببعض الامم خطوات فسيحة فى سبيل النهوض والتقدم ، واضحى العالم اليوم وكله مشروعات دقيقة محكمة ، فلنحذ حذوه ، ولنسلك مسلكه ، كى نسير على هدى وبينه ، ونعمل دون تردد او تراجع

محاولة كان فى وسعها ان تنتهى بنا الى تكوين حزب او هيئة سياسية ذات مبادىء وبرامج واضحة ، ولكنها لم تسلم من بعض المنافسات وشاء المرحوم « على ماهر » ان ينحو النحو نفسه ، بل حرص على ان يطلق على نشاطه اسم « جماعة نهضة مصر » والمؤمنون بالنهضة القومية لايستريحون الى هذه المنافسات ، ولا يرغبون فى اندماج لايقوم على اساس واضح سليم ، ولم تتردد جماعة نهضة مصر فى ان تتصل بالمعنيين بجماعة النهضة القومية ومع هذا احتفظ كل باستقلاله ، وكم وددت لو خطت جماعة النهضة القومية خطوة حاسمة قبل نهاية الاربعينيات لاسيما والجو العسكرى كان يتحرك من جانبه وفى داخله ، ولو استطاعت حركة مدنية قوية ان تطفو على السطح لانتهت الى تضامن مدنى عسكرى يتكلم باسم المصريين جميعا ، ومهما يكن من امر فانى اعتقد ان جماعة النهضة القومية كانت من العوامل التى دفعت الى ثورة سنة ٥٢ .

الترشيح والانتخاب

عمليتان برلمانيتان هما اساس الحياة النيابية وروحها .. ومسئولية الترشيح اساسا تقع على عاتق الحزب الذى يختار ممثليه فى المجالس النيابية ، وكلما كان هذا الترشيح سليما ودقيقا استطاع ان يبعث الى المجالس النيابية من هم جديرون بها ، ولا افكر ان احزابنا السياسية الكبرى كانت تعنى بهذا الجانب ولكنها لم تسلم بدورها من مجاملات ، بل متناقضات . واوضح صور هذا التناقض ان يرشح الحزب الواحد ممثلين له فى دائرة واحدة .

وقد تقدمت للحياة النيابية تحت راية حزب الوفد ، وكانت الراية القومية المحببة ، واضطررت بعد بضع سنين ان اتقدم مرة اخرى مستقلا ، وفى حياة حزبية حقه لا محل لترشيح المستقلين ، ومن واجب الحزب ان يبنى ترشيحه على اساس البرنامج الذى اقره واقتنع به ، ولاتقصر الترشيحات على طائفة معينة من ملاك او مثقفين او علماء او عمال بل الحياة النيابية الكاملة تستلزم وجود هؤلاء جميعا وقد كان فى مجلس النواب والشيوخ قديما اعضاء من وحدات المجتمع المختلفة ، كان فيه الملاك والفلاحون وبعض ممثلين للاتجاهات العمالية ، وان كانت الحركة العمالية حتى سنة ٥٢ لم تمثل تمثيلا

واضحا ، وشاءت ثورة سنة ٥٢ ان تقف على العمال والفلاحين نصف الدوائر الانتخابية ، وفى هذا الاتجاه باعث يقظة للعمال والفلاحين ، ولعل التجربة حققت اهدافها اليوم ، وما اجدرنا ان نفتح الباب للعمال والفلاحين لدى الاحزاب جميعا وحينذاك نحقق الغرض المنشود من التمثيل الكامل لوحدات الامة فى حياتنا النيابية دون ان تقف عند نصيب الزامى لطائفة من طوائف الشعب ومن يدرى فقد يصل حزب العمال المصرى الى درجة تقربه من حزب العمال البريطانى ، لاسيما وقد وصلنا الى صورة الترشيح اظن انا تعجلنا فيها بعض الشىء وهى « الترشيح بالقائمة » وفى ذلك ولاشك ربط للمرشح بحزبه ، وتخلص من العلاقات الفردية والصلات الاسرية ، وكلما كان برنامج الحزب واضحا سار الناخبون وراءه ، وان بدا فى قائمة عيب فالمسئول عنه الحزب لا المرشح ، وفى القائمة مايغنينا عن ان نقصر نصفها على فريق معين من ابناء الشعب فكل افراد القائمة سواء فى انتمائهم الى الحزب الذى رشحهم .

اما الانتخاب فهو مدرسة شعبية لم نستغلها بعد استغلالا كافيا ، ذلك لانا عولنا فيها اساسا على العلاقات الاسرية ، والصداقات الفردية ، وربما كان فى الثلاثينيات والاربعينيات شيوخ لكل قرية يستطيعون ان يوجهوا الرأى فيها ، واظن ان هذا العهد قد انقضى واصبح كل فرد يحاول ان يثبت وجوده وان يبدى رأيه على نحو مايحكم ويقدر ، وما اجدر المرشحين ان يؤدوا رسالتهم على وجهها ، وان يوضحوا مهمتهم التى تقوم على خدمة الصالح العام لا على اساس مصالح فردية .

وبدأنا فى دعايتنا الانتخابية نتجه بعض الشىء نحو

لقاءات منظمة تجمع بين الشباب والشيوخ ، وتعقد فى نواحى الدائرة الانتخابية المختلفة ، وهذا هو المسلك الذى دعوت اليه وطبقته فى الثلاثينيات ، وقد كان من حسن حظى ان اشتملت دائرتى الانتخابية على مراكز عمالية لها شأنها ومن بينها « مصنع السكر بالحوامدية »وفيه عشرات المئات من العمال الوافدين من القرى المجاورة والتزمت فى دعوتى الانتخابية ان التقى بهم مساء كل يوم عند انصرافهم من عملهم ، وان اتحدث معهم عن الخدمات الاجتماعية والمصالح العامة التى تنصب على مقر الدائرة او تمتد الى القطر جميعا ، وفى وسعى ان اقرر ان هذه اللقاءات العمالية كانت سر نجاحى فى انتخابات عام سبعة وثلاثين برغم المنافسة المحلية القوية ، لا انكر ان الوعى الانتخابى فى الثلاثينيات كان ادنى مما هو عليه الان فحركة التعليم فى الخمسين سنة الاخيرة قد خطت خطوات فسيحة ، ووسائل الاعلام قد وجهت الاميين وانصاف المثقفين وجهات تمكنهم من الحكم وابداء الرأى .

ومع الاسف الشديد شاب بعض انتخاباتنا النيابية فى العقود الثلاثة الاخيرة ، وهى عقد الخمسينيات والستينيات والسبعينيات تدخل السلطة التنفيذية فنفرت كثيرين من الانتخاب واداء هذا الواجب الوطنى ، وزاد الامر ازدراء تلك النسب المئوية الوهمية التى اعلن عنها من ان الحضور وصل الى تسعين او خمس وتسعين فى المائة ، وهانحن اولاء نحاول تصحيح ذلك ولابد ان نعنى بهذا التصحيح عناية كافية ان كنا نريد لانفسنا حياة نيابية قوية وسليمة ، والمستقبل على كل حال يبعث على الامل فى انا سنصل الى ناخبين يفهمون مايصنعون ويقدرون مايختارون .

الفصل الخامس :

الحياة السياسية

قدر لى ان اتصل بها منذ عهد مبكر ، وقد ربيت عليها فى جو الثورة المصرية عام تسعة عشر وتسعمائة والف ، فاشتركت فى المظاهرة برغم سعيرها وجام الغضب الذى صبه الجندى البريطانى عليها ، واسهمت ايضا فى لجان الطلبة وفى شىء من الحركات القيادية للشباب ، ونلت شرف الاعتقال لبضعة ايام ، وليس السجن مرا دائما بل منه مايعد مبعث فخر واعتزاز طول الحياة ، وتقدم والدى لعضوية مجلس الشيوخ ،.وكان لابد لى ان اسهم معه فى الحركة الانتخابية وكنا نحمل جميعا راية الوفد ، وما كان اعزها من راية ، ولم يكد ينتهى العقد الثالث من هذا القرن حتى سافرت الى اوربا ، فبعدت عن السياسة والسياسيين ، وفى عام خمسة وثلاثين وتسعمائة والف ، كنت آمل ـ كما اشرت من قبل ـ ان اعيش مع العلم والدرس ولكن واجب حمل الامانة قضى على بان اتقدم عام سبعة وثلاثين لانتخابات مجلس الشيوخ فى وقت لم استكمل فيه السن القانونى ، ولم يفتنى ان اخطر اعضاء الوفد الذين رشحونى لذلك وكان ردهم ان هذه ليست مسألتى ، ولم يفت الخصوم السياسيين ان يطعنوا فى سنى وبرغم ذلك سارت المعركة الانتخابية فى طريقها وقدر لى

نجاح ماكنت احلم به ، ولعل من اهم اسباب هذا النجاح ان الناخبين رأوا فيّ شابا شاءوا ان يقدموه الى مجلس الشيوخ والمسنين ، وفي بدء عضويتي في هذا المجلس لم اتردد مرة اخرى في ان اعلن انى لبيت دعوة الأسرة وانى لا احب ان احمل اعضاء لجنة الطعون وزر عمل لايد لهم فيه ، وكان ردهم كريما حين قالوا : قد دخلت دارنا وكان في وسعك الا تدخل ، اما وقد دخلت فنحن الذين نملك التصرف فى شأن خروجك او بقائك . وبقى طعن السن الذى وجه اليّ معلقا عدة سنوات رأت اللجنة بعدها ان تعتمد هذه العضوية .

ولم يكن حقي البرلماني طوال مدة الطعن هذه اقل من حق اى عضو آخر في الاشتراك في لجان المجلس وجلساته ، وآمل ان اعقد فصلا خاصا لهذا الجانب من حياتنا النيابية .

جذبتني السياسة كما اشرت على الرغم مني ، وكنت احس بما فى حياتنا السياسية من نقص رجوت ان اسهم فى تدارك شيء منه ، والحياة السياسية فى بلد ما تقوم على دعائم أربع :

أولها : حركات عامة وثورات شعبية او حروب ومحن ، وتكاد ترجع حياتنا السياسية المعاصرة الى بدء الاستعمار البريطاني وما تلاه من ثورة عرابى وقيام الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل ثم محمد فريد ولا نبعد عن الصواب ان قررنا ان ثورة سنة ١٩١٩ كانت البدء الحقيقي لحياة سياسية قوية وواعية ، فقد كانت هذه الثورة دون نزاع شعبية انبعثت من اطراف البلاد شمالا وجنوبا وحدثت فيها مقاومات يسجلها التاريخ ان فى كفر الزيات وما حولها من اعمال محافظة الغربية او فى الشويك الغربى من اعمال محافظة الجيزة او

فى المنيا ، وكان لهذه الثورة صدى عمر نحو ثلاثين عاما ، ثم تلتها ثورة عام ٥٢ ، وكانت اساسا حركة عسكرية لكنها صادفت هوى لدى كثير من المثقفين ، لانها قامت فى مرحلة من تاريخنا السياسى لم يكن من اليسير على الحكم الملكى ان يعمر طويلا ولا احاول هنا ان اؤرخ لهذه الثورات لكنى اريد ان اشير فقط الى امرين هامين : اولهما انا لم نفد كثيرا من تجارب الماضى ، وكان ينبغى ان تكون ثورة عرابى درسا لمن قاموا على امر ثورة ١٩ وان تكون هذه بدورها درسا لثورة ٥٢ ، وامر آخر هو ان الجانب الشخصى كان له شأنه فى توجيه هذه الثورات والافادة منها او القضاء عليها

وفى هذا مايقودنى الى الدعامة الثانية من دعائم الحياة السياسية وهى قيادة حكيمة وبطولة تبعث فى النفوس ما تبعث من احترام وتقدير ، وكان فى وسع عرابى ان يحقق شيئا من هذه القيادة ، ولكن السلطة البريطانية كتمت انفاسه بابعاده عن الوطن ، وحاول النديم طوال بضع سنوات ان يوقد الشعلة ، لكنه كان يعمل فى الخفاء ، واصبحت ثورة عرابى جزءا من التاريخ الذى لم نتنبه الى احيائه احياء حقا الا فى العقدين الاخيرين من هذا القرن ، وكان سعد زغلول بعد ثورة سنة ١٩ قيادة لها وزنها وتقديرها ، وفى وسعنا ان نقول انها كانت قيادة الامة ، وكان حزب الوفد هو الحزب الحى المتحرك الذى مثل الامة بحق ، وحاول ان يقف فى وجه الاستعمار وفى وجه السراى على حد سواء ، لم يعمر سعد زغلول طويلا وحدثت انقسامات فى حزب الوفد بعد وفاته ، فكانت الفرقة التى قضت على كثير من نفوذه وسلطاته على ان هذا النفوذ ظل يحسب له حسابه لا من جانب المستعمر البريطانى فحسب بل من جانب السراى ايضا . وتأرجحت الكفة نحو عشرين عاما

بين دار المندوب السامي وقصر عابدين ، ويخيل اليّ ان قيادة حزب الوفد في اخريات العقد الرابع من هذا القرن آثرت السلام ، وضعفت مقاومتها لسلطات السراى وقد مهد هذا دون نزاع لثورة سنة ٥٢ ، وسبق لى ان اشرت انى كنت جنديا وفديا فى ثورة سنة ١٩ ودخلت مجلس الشيوخ تحت راية حزب الوفد ، وبقيت على ذلك بضع سنين ، وكان كل املى ان ينتهى هذا الحزب الكبير الى برنامج شامل ترسم اهدافه ، وتحدد خططه ، وتوضح وسائله ، ويلتزم به الحزب الذى تبناه ، وحاولت عرض ذلك غير مرة فى اجتماعات الهيئة الوفدية لكن قيادات الحزب لم تكن تستسيغ فيما يظهر ان تقيد نفسها بقيود تعلنها امام الناس .

وجاءت ثورة ٥٢ ، وكان هدفها التخلص من سلطان السراى واستكمال استقلال البلاد باخراج مابقى من جيوش الاستعمار ، وعقد معاهدة استقلال تام ، وعد ذلك كله وسيلة لهدف اسمى هو الاصلاح الاجتماعى او العدالة الاجتماعية ، كما كانت تسمى وقد نجحت هذه الثورة فعلا فى التخلص من السراى وطغيانها ، كما قضت على كل ذيول الاستعمار البريطانى ، وهمت نحو هدفها الاكبر وهو الاصلاح الاجتماعى ، ولكنها مع الأسف بليت بما بليت به قيادات سابقة ، من خلافات داخلية وتطاحن على السلطة ، وكان فى هذا التطاحن تشتيت ومضيعة لجهود كبيرة ، وبلغ بهذه القيادات الامر ان دخلت فى حروب ماكان اغنانا عنها كحرب اليمن لكى تخفى عوامل الفرقة الداخلية ، واخشى ما اخشاه ان يكون من بين اهداف حرب عام ٦٧ هى الاخرى شىء من صرف الاذهان عن الخصومات الداخلية بين القيادات السياسية الكبرى ، ولست فى حاجة ان اشير الى ان هذا

الجو نفسه افسح السبيل للتجسس واعمال المخابرات والمباحث واخفت صوت النقد وحرية الراى ، وهذا الصوت نفسه دعامة ثالثة قوية فى تكوين حياتنا السياسية السليمة ويوم ان كان حزب الوفد قويا كانت صحافته توجه الرأى العام وتكشف المستور وتنقد وتلوم ، وامتد نقدها الى السراى نفسها فضلا عن نقد التصرفات البريطانية غير السليمة وقد امتد هذا النقد الى الحياة البرلمانية فاستطاع نواب وشيوخ ان يسألوا ويستجوبوا عن بعض تصرفات السراى وما كان فيها من عدوان على حقوق الافراد وحقوق الامة والوطن ولم تكن السراى ترحب مطلقا بالرأى الواضح الصريح ولكنها كانت تخضع لقوات الشعب الممثلة فى حزب الوفد القوى وتسجيلا للتاريخ احب ان اشير الى انه بعد وفاة المرحوم انطون الجميل رئيس تحرير صحيفة الاهرام عرض علىّ القائمون على امر هذه الصحيفة ان أخلفه فيما كان يضطلع به من رياسة تحريرها ، واحسست بان هذا الاختيار ربما جر عليهم بعض المتاعب ، ونبهتهم الى ذلك ، والحوا ولم ار بدا من ان انزل عند رغبتهم وما ان علمت السراى بذلك حتى وجهت اليهم ما وجهت من اعتراض ورفض ، وحرصا على مصلحة ورثة لاذنب لهم سارعت الى الاعتذار عن هذه المهمة ، هذه حادثة صغيرة لكنها تبين الى اى مدى كانت السراى تخشى الرأى العام الحر الطليق ، وقد كان لى فى هذا الشأن حديث طويل مع المرحوم ابراهيم عبد الهادى الذى كان رئيسا للديوان حينذاك ، وابراهيم عبد الهادى وفدى قديم ، تلاقينا اولا فى ساحة لجان الطلبة وقيادات الشباب ، ثم تلاقينا ثانية عند تقدمى الى انتخابات مجلس الشيوخ لاول مرة ، وكان المحامى الذى كلفه الوفد بان يدافع عنى ضد الطعن الذى وجه الى سنى ، ولم يطرأ على صداقتنا وعلاقتنا

هذه اى تغيير برغم معارضتى فى مجلس الشيوخ ، ويوم ان كون مع اصدقاء له على رأسهم النقراشى حزبا جديدا عرض علىّ ان اشترك معه ، ولم اتردد فى الاعتذار لانى كنت اريد للوفد ان يقوى لا ان يضعف وينفك شمله ، ولعله لو كان محدثى فى شأن رياسة تحرير الاهرام شخصا اخر غير ابراهيم عبد الهادى لوقفت موقف المعارضة .

ونحس جميعا بان صحافتنا بعد ثورة ١٩٥٢ كانت صحافة رسمية ، وان تعددت الوانها ، واصبحت قطاعا عاما ، وماكان لها فى ظروف كهذه أن تقوم برسالتها على وجهها ، وانصرف كثير من الكتاب والنقاد عن ان يكتبوا او ينشروا شيئا فى الصحافة اليومية او الاسبوعية ، وفى السبعينيات هبت على الصحافة نسمة حقيقية من الطلاقة والحرية واخذت تنمو شيئا فشيئا ، ولكنا نخطىء كل الخطأ ان زعمنا ان وسائل الاعلام من صحافة واذاعة ومسرح وسينما اصبحت بمعزل عن كل تدخل او رقابة ومع هذا فهى تحظى بحرية وطلاقة ملحوظة وان فاتها شىء فهو الصدق فى القول والبعد عن مطامع الحزبية الهدامة والتشكيك الذى يتعارض مع الصالح العام .

والدعامة الرابعة والاخيرة هى الرأى العام المستنير ، وأسارع فاقرر ان هذا الرأى العام برغم ما صادف من صعوبات وعثرات فى نصف القرن الاخير فانه ينمو وينمو باطراد ، وعلينا ان نيسر له وسائل النمو السليم ، نيسرها فى تربية النشء على صدق القول ، وتحرى الحقيقة ، وانكار الذات واحترام الصالح العام ، ونيسرها ايضا فيما نقدم لهذا النشء من قراءات رائدة تحيى امامه صورا من الماضى يستطيع ان يحاكيها وان يفيد منها ، ونيسرها ايضا بان نفسح

لهذا النشء المجال فى ان يعبر عما يجول بخاطره فنعد من ابناء اليوم قادة المستقبل ، وقد شغلنى مع جماعة من الاصدقاء امر هذا الرأى العام فحاولنا ان نكون نواة صغيرة من بعض المعنيين بالشئون العامة سميناها « جماعة النهضة القومية » وقد سبق ان عرضنا لها من قبل .

هذه هى حياتنا السياسية خلال الستين عاما الماضية بما لها وما عليها ، وقد ذقت حلوها ومرها ، ولم اكن فى يوم ما يائسا من امرها ، حتى فى ساعات الشدة ، وتحطيم الاقلام ، وركود الاذهان ، واملى كبير فى ان يؤدى القائمون على صحفنا ووسائل اعلامنا واجبهم فى النقد البناء والتوجيه السديد ، واحمد الله انا بدأنا نتعفف عن السباب والمهاترات ، وآمل ان تستعيد صحافتنا منزلتها بين الصحف العالمية الكبرى .

مجلس الشيوخ

الهيئة البرلمانية الثانية التي تقابل « مجلس النواب » وقد قضى بهما معا دستور سنة ٢٧ وسلطاتهما التشريعية واحدة ، ورقابة كل واحد منهما البرلمانية كاملة ، والفرق الوحيد ان مجلس الشيوخ لم يكن من حقه ان يقترع على الثقة بالوزارة ، وقصر هذا على « مجلس النواب » هذا الى ان اعضاءه كانوا اقل عددا من اعضاء « مجلس النواب » لان المنتخبين منهم كانوا ثلث اعضاء المجلس الاخر ، وبذلك شملت دائرة عضو « مجلس الشيوخ » ثلاث دوائر انتخابية لمجلس النواب ويضاف الى الاعضاء المنتخبين عدد معين استكمالا لتمثيل الطوائف التي لم تجد سبيلها الى الانتخاب .

قدر لى ان اخوض مضمار الحياة النيابية فى سن مبكرة ، فتقدمت لانتخابات « مجلس الشيوخ » عام سبعة وثلاثين ولما يمض على عودتى من اوربا عامان ، وربما كان فى صغر سنى ما ادخل لونا جديدا على هذه العضوية واحسست بان الناخبين انفسهم كانوا يرحبون بان يدخلوا بين الشيوخ شابا يفيد من حكمتهم وتجربتهم ، ولكن هذا الحماس الجماهيرى لم يحل دون ان يطعن فى ترشيحى وفى انتخابى ، وسارت الانتخابات فى طريقها برغم هذا الطعن ، وفزت بالعضوية ،

وحين تقدمت الى لجنة الطعن صارحتها بسنى الحقيقى واعلنت رغبتى فى ان استقيل من عضوية لم استكمل شروطها . وكان رد اللجنة : « لك ان تدخل دارنا كما تشاء فان دخلت فلا تملك الخروج منها الا بموافقتنا » واستمسكت بى اللجنة ولم تفصل فى الطعن الذى قدم ضدى الا بعد ان بلغت السن القانونية .

ولم يمنعنى هذا من ان اقوم بواجبى فى « مجلس الشيوخ » سواء فى لجانه او فى جلساته وقد اتصلت باكثر من لجنة ، ووقفت جهودى بخاصة على اللجنة المالية وعنيت بلجنة الاوقاف والمعاهد الدينية زمنا ، اما جلسات المجلس فكنت حريصا عليها الحرص كله ، ولم اتخلف عن واحدة منها الا لضرورة قاهرة وكثيرا ما كان علىَّ فيها واجب اؤديه بصفتى مقررا للجنة من اللجان التى انضمت اليها ، واذكر ان اول كلمة لى فى مجلس الشيوخ دارت حول « تعليم الفتاة »

وكنت ولا ازال من انصاره ، وقد يكون بين السادة الشيوخ من لايقرنى على هذا الرأى ولكن هذه الكلمة كان فيها شىء من الاعلان عن ميولى واتجاهاتى ، واشهد انى افدت كثيرا من معاشرة الشيوخ الحكماء ، ونعمت بصحبة قدر غير قليل منهم ممن اكتملت خبرتهم واتسعت افاقهم وكانوا قيادات فى ميادينهم سواء كانوا وزراء او رؤساء حكومات سابقين او قانونيين واطباء ومهندسين وعلماء ووجهاء بمختلف بلاد القطر .

ومرت بى فترة فى اول حياتى النيابية كنت اعدها نموذجا للمعارضة البرلمانية الجادة والموضوعية وقد قضيت ثلاث سنوات او يزيد مع هيئة برلمانية وفدية فى مجلس الشيوخ

تمثل المعارضة وعلى رأسها المرحوم « يوسف الجندى » واستطيع ان اقرر ان هذه الفترة كانت من ازهى الفترات فى حياتنا النيابية التى عشتها بوجه عام ، فقد كانت المعارضة وفدية من الناحية الحزبية لكنها كانت مصرية قبل كل شىء .. تعارض عن بينة .. وتناقش بعد درس وبحث .. وتحلل وتحكم دون تحيز او مجاملة . وكم كان لهذه المعارضة من مواقف سجلتها مضابط مجلس الشيوخ ، ويكفى ان اشير الى مثل واحد كانت المعارضة فيه تدافع عن وجهة نظر معينة ، ولم يشأ ممثل الحكومة ان يأخذ برأيها ، ومن محاسن الصدف ان رئيس الحكومة شهد هذا الحوار بين احد وزرائه وبين رجال المعارضة فلم يتردد فى ان يأخذ الكلمة .. وان يؤيد المعارضة فيما ذهبت اليه ورئيس الحكومة هذا هو « على ماهر » وله مواقف لايمكن انكارها .

وفى مجلس الشيوخ الى جانب التحليل والمناقشة ، والتوجيه والمعارضة .. كانت هناك تشريعات تصحح بعض اخطاء الماضى او ترسم سبلا لمواجهة المستقبل .

كنا نقيس هذه المشروعات بمقياسها الصحيح سواء اكانت صادرة عن بعض اعضاء المجلس ام من الحكومة . وكان لى مشروع قانون تقدمت به عام خمسين الى مجلس الشيوخ لتحديد الملكية ، واحيل على اللجنة المختصة وليته نظر فى حينه واتخذ فيه قرار ما ، ولكن ابى القدر الا ان يبقى فى ملفات اللجان الى ان جاءت ثورة سنة ٥٢ فحملت راية الاصلاح الزراعى ووجهته الوجهة التى ارتأتها . ومن المشروعات التى تحمست لها وايدتها فى اللجان المختصة وفى الجلسات العامة قانون « الغاء الوقف الاهلى » ومكنتنى

صلتى بلجنة الاوقاف والمعاهد الدينية من ان اقف على سيئات « الوقف الاهلى » ونواحى النقص فيه ، وامنت بانه كان وسيلة من وسائل حماية الملكية لم تحقق اغراضها بل ادت عكس مايراد بها . وقد اخذ المجلس بهذا الاصلاح برغم ماصادفه من معارضه .

ولمجلس الشيوخ الحق فى ان يسأل ويستجوب كمجلس النواب سواء بسواء .. ولم اتجه كثيرا نحو الاسئلة البرلمانية لانى كنت احقق ما اريد منها عن طريق اللجان ، ولاشك ان صلة السلطة التشريعية بالسلطة التنفيذية عن طريق اللجان ايسر وابين

والبيان فى اللجنة اكمل وايسر منه فى جلسة علنية للمجلس ، ولم اسهم الا فى استجواب واحد هو ماسمى « استجواب الاسلحة الفاسدة » ولهذا الاستجواب قصة احرص على ان اسجلها لكى يعرف لكل ذى فضل فضله ، فقد بدأت قصة « الاسلحة الفاسدة » فى « ديوان المحاسبة » وكان على رأسه زميل وصديق كريم هو الاستاذ محمود محمد محمود ، ورئيس الديوان هذا هوالبطل الحقيقى لموضوع الاسلحة الفاسدة فهو الذى كشف عنها ، استوقفه ما شابها من تصرفات غير سليمة ، ولم يتردد فى ان يفاتحنى بما لاحظة واحس به ، وفاتح ايضا زميلا لى كان عضوا فى مجلس الشيوخ حينذاك هو المرحوم الاستاذ مصطفى مرعى ورغب رئيس الديوان فى ان يعد مذكرة فى هذا الموضوع ويبعث بها الى مجلس الشيوخ ولكن مصطفى مرعى وانا اثرنا ان نضطلع بهذا العبء ، وتركت لزميلى الاستاذ مصطفى مرعى ان يتقدم هو بالاستجواب فى ضوء البيانات التى حصلنا عليها من رئيس الديوان ، وحدد للاستجواب جلسة

خاصة ، ولكن لسوء الحظ لم يحضر مقدم الاستجواب فى هذه الجلسة فلم اتردد في ان اتبناه وتلك سنة معروفة فى التقاليد البرلمانية تبنيته وانا اعلم انه يمس السراى التى لاترحب بمثل هذه الاستجوابات .

ويظهر انى حظيت بالغضب السامى منذ زمن بعيد ، وكان بينى وبين الملك فاروق رحمه الله مواقف اعتقد انه لم ينسها ، ومن اوائلها صدام ما كان متوقعا مع سيارته التى كان يقودها بنفسه في كورنيش الاسكندرية حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وانا انعطف الى شارع جانبي وهو بزى البحر ، وحمدا لله ان اتقى الخطر ، والقى نظرة علىّ دون اشارة او محادثة ، وسبق هذا ما كان لى من ملاحظات وتعليق على موقف السراى فى كتابى « الاداة الحكومية » ولم تخل اعمالى فى « مجلس الشيوخ » من ان الفت نظر السراى ، ووقفت موقف المعارضة من نفقات استبدال بين املاك الخاصة الملكية والاوقاف الخيرية وبخاصة وقف « المطاعنة » ، وقدم يوما اقتراح بمشروع لحماية الاسرة المالكة ولعله كان يقصد حماية الملكة الوالدة وعارضت هذا المشروع لانى رأيت فيه مايتنافى مع الغرض المقصود منه ، وكان لى فى موضوع الاسلحة الفاسدة ما كان ، فعرضت لصفقاتها وماشابها من نقص واستغلال ، والكل يعلم انها لم تتم الا بعلم من السراى ، وبلغ الامر بالسراى ان طلبت الى المشرفين على اعمال جلسات المجلس ان يوافوها بكل ملاحظة تصدر منى ، وقال لى يوما المرحوم « على ماهر » انه اقترح اسمى فى وزارة من وزاراته ولم تقره السراى وقتها ، ورحم الله فاروق مرة اخرى ، فهو الذى عجل باخرة ملكه ولم يفته ان يصرح بذلك احيانا ، وجاء موضوع الاسلحة الفاسدة « ضغثا على إباله » فقد سبق ثورة سنة ٥٢ بنحو عام او يزيد قليلا .

الفصـــل الســـــابع :

اللجنة المالية

دعامة هامة من دعائم الرقابة البرلمانية فى مجلسى "النواب والشيوخ" . وأشهد أنه كان للجنة المالية بمجلس الشيوخ هيبة وتقدير من جانب ممثلى السلطة التنفيذية الذين كانوا يعرضون عليها مشروع الميزانية والمشروعات الأخرى التى تتعلق بالمال العام ، وقد اشترك فيها رجال لهم ماضيهم وخبرتهم ومن بينهم من عاش مع الأجهزة الحكومية زمنا طويلا قدر لى أن أنضم إلى عضويتها ولمّا يمض علىَّ فى مجلس الشيوخ إلا ثلاث سنوات ، وحظيت فيها بصحبة عدد غير قليل من رجال الرعيل الأول أمثال عبد الحميد سليمان ، ومحمود شكرى ، ومحمد زكى الابراشى ، وعبد القوى أحمد ، وانطون الجميل ، وحسن صادق ، وقد أفدت من خبرة هؤلاء الرجال ونضج آرائهم الشىء الكثير ، وأولعت بأعمال هذه اللجنة فتابعتها متابعة صادقة إلى حد أن انتهى بها الأمر أن اختارتنى مقررا لها ، وبقيت أضطلع بهذا العبء نحو عشر سنوات ، وكُلفت بعرض عدد غير قليل من المشروعات والقرارات التى انتهت اليها ، ولم يخرج المجلس يوما على رأيها ، ولم يرفض أى اقتراح ذهبت إليه . ولها مواقف إزاء بعض المشروعات التى مرت بمجلس النواب واعتمدها ولكن

اللجنة المالية فى مجلس الشيوخ لم تتردد فى رفضها . وأذكر من ذلك مثلين مهمين .

أولهما : يتصل بشركة طيران أسسها بعض من لهم صلة بالسراى ، واقاموها على عدد من الطائرات القديمة التى خلفتها الحرب العالمية الثانية وأظنها كانت مهداة من الحكومة الايطالية إلى السراى وهى شركة « سعيدة » وأريد أن تعينها الدولة فى الوقت الذى كانت فيه شركة مصر للطيران أحوج ماتكون إلى أية إعانة وهى ولاشك أجدر بها وأوْلى ، وعرض موضوع هذه الاعانة على المجلسين فأقره مجلس النواب ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مجلس الشيوخ فحللته اللجنة المالية تحليلا دقيقا ، وانتهت إلى أن هذه الشركة فى أوضاعها ومعداتها ليست جديرة بأى إعانة ، ورُفض الاعتماد المقترح رفضا باتا برغم أن السراى أوفدت "طاهر باشا" للدفاع عن وجهة نظرها .

ومثل آخر ليس أقل شأنا من موضوع شركة الطيران هذه ، ذلك أن شركة "الانجلو أيجيبشان أويل فيل" أوشك امتيازها على انتهاء مدته ، فرغبت فى أن تمنح مدة جديدة ، وعُرض الأمر كالمعتاد على مجلسى "النواب والشيوخ" ولم ير مجلس النواب بأسا فى الموافقة على هذا المد ، أما اللجنة المالية فى مجلس الشيوخ فقد وقفت إزاءه موقفا حاسما ورفضت اقتراح المد رفضا باتا . وباسم التاريخ أحب أن أنوه هنا باسم زميل كان رئيسا للجنة المالية فى ذلك التاريخ وهو المرحوم المهندس حسن باشا صادق وقد كان على صلة "بالأنجلو ايجبشيان أويل فيل" ، ولكنه امتنع عن أن يحضر

اللجنة أثناء نظر هذا الموضوع . ولم يوص بشيء مطلقا ، ولم يحرك ساكنا .

ويطول بي الحديث إن عرضت لقضايا وأمور أثيرت في هذه اللجنة طوال عشر سنوات ، ولم تتأثر بعامل حزبي ولا بمصلحة شخصية ، وكانت تتحرز ما استطاعت من الاعتمادات الخاصة بالمصروفات السريعة ، وأذكر أن رئيسا كبيرا للحكومة هو المرحوم حسين باشا سري شهد اللجنة مرة راغبا في أن تُقر اقتراحا باعتماد إضافي بمبلغ عشرة آلاف جنيه للمصروفات السرية . وبرغم سرية هذا الموضوع لم تقره اللجنة إلا حين عرفت انه لايتعارض مع الصالح العام في شيء ، وفي اعتمادات الميزانية والاعتمادات الاضافية مجال للترقيات والعلاوات الاستثنائية أو للمحاباة والمحسوبية ومتى احست اللجنة بأن وراء أي اعتماد دافعا شخصيا أبت أن تُقره ولو كان محركه رئيس الوزراء .

★ ★ ★

هذه هي اللجنة المالية ، التي عشت معها أطول زمن عاشه عضو من أعضاء مجلس الشيوخ وقد وقفتني على الأجهزة الحكومية المختلفة وأعانتني على تلك الدراسات التي قدمتها في كتاب "الأداة الحكومية" .

واتصلت بلجنة أخرى من لجان مجلس الشيوخ هي "لجنة الأوقاف والمعاهد الدينية" وأنوه بها هنا فقط لحادثة تدل على قيم الرجال ، وتقدم مثلا للقدوة الصالحة وذلك أنه أريد في وقت ادخال تعديل على قانون "هيئة كبار العلماء" يفتح الباب لزميل وصديق كنت أعزه وأقدره لكي يُضم إلى هذه الهيئة وهو

المرحوم "مصطفى عبد الرازق" ذلك لأن هذه الهيئة كانت الطريق الذى يوصله الى "مشيخة الأزهر" وتشاء الصدف أن يُعرض هذا التعديل فى يوم كنت فيه على موعد مع مصطفى عبد الرازق لتناول طعام الغذاء ، وأنا بوجه عام ـ أمقت الباب الخلفى الذى يُقصد به أن يوصل إلى غرض معين ، ولما عرض هذا عارضت فى التعديل لكن أغلبية اللجنة وافقت عليه ولم تحل معارضتى دون لقاء زميلى وصديقى ، وأنا أعلم أنه قد عرف موقفى ، ولكنه كان أكرم من أن يكون لهذا الموقف أثر فى نفسه .'

ذكريات من الخير أن نسجلها لكى نوفى بعض رجالنا حقهم .

الفصــــل الثامــن :

الأداة الحكوميــة

عشت معها طويلا عن طريق اللجنة المالية لمجلس الشيوخ ، وقد أفسحت لى المجال لكى أقف على جوانبها المختلفة ، إنْ من ناحية السلطة التشريعية أو من ناحية السلطة التنفيذية أو من ناحية السلطة القضائية ، وقد علمتنى اللجنة المالية لمجلس الشيوخ أشياء كثيرة عن هذه النواحى ، والميزانية العامة للدولة تنصب عليها جميعها ، وفى مناقشاتها فرصة للاتصال بكبار المسئولين والقائمين على أمر هذه السلطات على اختلافها وفى السلطة التنفيذية بوجه خاص جوانب كثيرة من إدارات ومصالح وعهد ومخازن ، ومشتريات ومبيعات ، وعاملين على هذه النواحى من أدنى درجات السلم الوظيفى الى أعلاه ، ودفعنى هذا لأن أتعمق هذا البحث وأجمع عنه ما وجدت إليه السبيل من إحصاءات وبيانات ، وعاوننى فى ذلك أخ عزيز وزميل قديم هو الاستاذ (ميريت غالى) وقضينا ثلاث سنوات أو يزيد نبحث ونتناقش ونحلل ونعلل واستقر رأينا على أن نُخرج ما انتهينا إليه من دراسات فى كتاب خاص ، ويوم أن أكتمل إعداده رأيت من الواجب أن أعرضه على السكرتير العام لحزب الوفد وهو المرحوم "محمد صبرى أبو علم" وكنت عضوا فيه ليدلى فيه

برأيه ، وقد تفضل بقراءته ورده إلى قائلا إنه لو فكر يوما أن يكتب فى هذا الموضوع ما صنع شيئا خيرا مما كتبنا ، وفى هذا ماشجعنا على أن نتقدم لطبع الكتاب ونشره برغم ظروف الحرب وجو الرقابة السائد ، ولعل ظروف الحرب نفسها كانت من الأسباب التى دفعتنا الى هذا التفكير ذلك لأنا كنا نحاول دائما أن نعد للمستقبل وكنا نتوقع أنه ستواجهنا أمور لانحب أن نفاجأ بها ، وأرسل المخطوط الى الرقيب العام ، وكان صديقا وزميلا قديما فتركت له الوقت الكافى للنظر فى الموضوع ؛ وطال انتظارى فلم أر بُدًّا من أن استفسر عن الموقف ، وكان الرد سلبيا ، وعز علينا الا يرى النور ما اعددناه من بحث ودرس ، فحاولنا نشره عام ثلاثة وأربعين وتسعمائة وألف فى حدود ضيقة بمبلغ نحو مائة وخمسين نسخة منه على الآلة الكاتبة ، وهى مخالفة ولاشك ، ولكن هدفنا منها كان استطلاع رأى الآخرين فى مشاكلنا الادارية المختلفة ، ورأينا فيما كتبنا شهادة تبرر النشر الذى لجأنا اليه . وكان للكتاب صدى لدى كثير من المعنيين بالشئون العامة من رؤساء حكومات ووزراء حاليين وسابقين وأعضاء فى مجلسى النواب والشيوخ . ولم تَخْفَ المخالفة على وزارة الداخلية التى بعثت برسالة تليفونية إلى المدن والقرى فى القطر جميعه قالت فيها : "ظهر كتاب فى حجم دفتر التليفون بعنوان" الأداة الحكومية" وعلى كل من وقع فى يده أن يقدمه الى عمدة الناحية أو إلى قسم البوليس ، وقامت بالفعل بتفتيش منازل المؤلفين وجاء هذا الاجراء دعاية للكتاب نفسه ؛ وباعثا على التفكير فى نشره على صورة أوسع ولم يمض عام أو يزيد إلا وطبع الكتاب طبعة واسعة وظهر فى مكتبات مصر وبعض البلاد العربية وتواردت علينا تعليقات كثيرة تدور حوله .

ونعتقد أن هذا الكتاب وضع برغبة صادقة في الاصلاح ، وروح هادئة فى معالجة مشاكلنا السياسية والادارية والقضائية ، فوجه النظر الى ضرورة سياسة رشيدة ، تخطط وترسم البرامج ، وتلتزم بما تخططه وترسمه . وقيمة الحياة النيابية فيما يتوفر لها من حرية الكلمة ووضوح الرؤية والبعد عن الهدم والمهاترة ، وقد لاحظنا على تجربتنا النيابية فى العقدين الثالث والرابع من هذا القرن انها بُليت بعدوان السراى تارة ، أو عدوان المندوب السامى تارة أخرى ، ولا سبيل لحياة نيابية سليمة الا إنْ توفر لها جو الحرية والاستقرار والعمل الدائب والتوجيه الرشيد .

وزاد الطين بلة أن حق السلطة التنفيذية فى حل مجلس النواب قد أسىء استعماله وكان عاملا من عوامل البلبلة وعائقا عن السير فى طريق البناء سيرا مطردا .

أما السلطة التنفيذية فقد استوقفنا فيها بخاصة أمران :
أولهما : المركزية الطاغية التى جمعت كل شىء فى العاصمة الكبرى وفى دواوين الوزارات ، ولم تدع شيئا يذكر لحكام الاقاليم . وفى الدواوين الكبرى نفسها والمصالح الكبرى يكاد يرجع البت في الأمور صغيرها وكبيرها إلى الرئيس الأعلي ، وقد يصعد ذلك إلى الوزير المختص ، وفى هذا ما فيه من الشلل والبطء ، وتعطيل كفايات كان يمكن الافادة منها ، واعدادها لتولى مسئوليات تضطلع بها وتحسن اداءها . ودعونا الى الحكم الاقليمى أو المحلى ، وتكوين هيئات ادارية فى كل اقليم توجه مصالحه ، وتتتبع شئونه عن قرب ، وتملك البت فيما يعرض عليها . ويسعدنا أنا آمنا بهذا أخيرا ، وأصبحت كل محافظة شبه إقليم مستقل فى حدود

معينة ، ولرئيسها الأعلى أن يعالج أمورها فى استقلال وفى حدود ماتقضى به القوانين واللوائح العامة ، والانتقال من الحكم المركزى الى الحكم المحلى يتطلب إعدادا وتدريبا خاصا أرجو أن نضعه دائما موضوع الاعتبار ، وأن نفسح له المجال لكي يحقق غايته ، ولاشك فى أن الحكم المحلى يُلقى اليوم أعباء كثيرة على الرؤساء المحليين ، وقد لايخلو من محسوبيات أو انحرافات ولكنه برغم هذا جدير بأن نعززه وألا نتراجع عنه بحال .

والأمر الآخر الذى استوقفنا أيضا فى أجهزتنا الحكومية هو : الرقابة والمتابعة وبقدر مايتوفر للقلم أو الفرع أو الادارة أو المصلحة رئيس يقظ يتتبع أمورها يمكن أن نرجو استقامة فى العمل وانتاجا مطردا ، ولدينا الآن أجهزة كبرى لهذه الرقابة والمتابعة كالجهاز المركزى للمحاسبات والجهاز المركزى للتنظيم والادارة ولكنها لاتستطيع بحال أن تحل محل المراقبة المباشرة ، وفى الأربعينيات كانت إداراتنا ومصالحنا فى حدود أضيق كثيرا مما أصبحت عليه اليوم ، واستطاعت بهذا أن تحقق شيئا من الرقابة والمتابعة ، وإن لم تسلم من البطء فى البت واتخاذ القرارات ، وليس بغريب ان يزداد هذا الخلل وذلك البطء فى الستينيات والسبعينيات بعد أن تضخمت اجهزتنا الادارية تضخما كبيرا وتنوعت وتعددت ، ومن التوفيق ان يختار الرجل المناسب للمكان المناسب ، وتطغى أحيانا الحزبية أو الصداقة أو القرابة على الصالح العام فتكل الامور إلى مَنْ لايُحسن إدارتها والاشراف عليها ، وأذكر حديثا دار بينى وبين المرحوم اسماعيل صدقى قبل اخراج كتابنا الذى نتحدث عنه ، وكان ذلك رغبة فى الافادة

من تجربته الطويلة فيما يتعلق بأثر الرئيس في مرؤوسيه وقدوته لمن يعلمون معه . وقد قال لي : "اضطلعت بعدة وزارات وتوليت رياسة الحكومة وكنت أشعر دائما أنه إن توفر لكل وزارة وكيل يعرف شئونها ويرعى مصلحة وطنه ، استقامت الأمور وتفرغ الوزراء ورئيس الحكومة لرسم السياسة الكبرى وهذا ما يجب أن يقف عنده الوزير دائما" . وما يقال عن وكيل الوزارة - وهو الرئيس الأعلى للسلطة الادارية في وزارته - يقال أيضا عن رئيس المصلحة أو الادارة أو القسم أو القلم ، وما أحوجنا أن نعد هؤلاء إعدادا سليما دون محاباة أو عدوان على المجدين والمجتهدين .

ووقفنا قليلا عند السلطة القضائية ، وسعدنا بتعزيز استقلالها ، وإن لم يسلم من عدوان فيما بعد . ولم نسترح الى تعدد أنواع القضاء ، وتنوع المحاكم بين مختلطة وشرعية وأهلية ، ورأينا أنه قد آن الأوان لتوحيد القضاء . ومن حسن الحظ أنا تخلصنا من المحاكم المختلطة في الوقت المناسب ، ولم ننته إلى التوحيد المنشود بالسرعة نفسها ، وقدر له أن يجد سبيله إلى التطبيق في الستينيات . ولاحظنا أيضا أن ادارة قضايا الحكومة إن لاءمت العهد الماضي وعاشت مع سلطة المستشار البريطاني فانه قد آن الأوان لأن يحل محلها هيئة أشمل وأعلى تقوم على واجبين مهمين ، أولهما تشريعي يعنى بصياغة مشروعات القوانين الجديدة وملاءمة بعضها البعض الآخر ، والآخر : قضاء إداري يختص بالفصل فيما يرفع ضد الحكومة من قضايا ومطالبات ، وأصبح مجلس الدولة يؤدى هذين الواجبين وإن اتخم بالتشريعات المتلاحقة التي يتعذر عليه أن يتابعها في حرص ودقة .

هذه هى الصورة التى بدت أمامنا عن الأداة الحكومية فى الأربعينيات ، وهى صورة كنا نحاول فى معالجتها أحيانا أن نضع أمامنا نماذج من ادارات القطاع الخاص والشركات الكبرى وكنا نتمنى أن تحظى الادارات الحكومية بما تحظى به أجهزة القطاع الخاص من إشراف وضبط ودقة واتقان . وتأبى الظروف إلا أن تؤمم هذه الشركات وأن يمتد إليها مابليت به الادارات الحكومية من الفوضى وضعف الرقابة والتهاون والاهمال .

وسئلنا غير مرة فى الثلاثين سنة الأخيرة هل من سبيل الى أن نعاود النظر فى أمر الاداة الحكومية اليوم ؟ ولم نتردد فى أن نعلن عجزنا وضعفنا عن الاضطلاع بهذا العبء ، وفى وسع الجهاز المركزى للتنظيم والادارة ان يضطلع به ويتولى اقتراح وسائل معالجة النقص فى أجهزتنا الادارية المختلفة . ومعوقات العمل الادارى كثيرة أخصها لوائح بالية ، وتعليمات لاتلائم العصر ومتطلباته ، وتَكَدُّس أعداد من الموظفين فى حيز لايسمح لهم بالعمل والانتاج ، الحق أن أداتنا الحكومية فى حاجة ماسة إلى نظرة متأنية وشاملة نتدارك ، فيها من نقص ، ونأمل على الأقل أن نسلك فى ادارتنا الجديدة النظم والوسائل التى يقتضيها القرن العشرون .

الفصـــل التاســـع :

ديـــوان المحاسبـــة

كنت من المؤمنين بهذا الديوان ، ومن الداعين إليه ، وهو لاشك عين البرلمانيين على ماتقوم به السلطة التنفيذية من أعمال ، وكنت من دعاة إنشاء هذا الديوان ، ويوم أن أنشىء كان من حسن حظ البرلمانيين أن تولى رياسته رجل عُرف بالدقة والنزاهة وأصالة الرأى وسلامة التقدير وهو المرحوم بهى الدين بركات وقد وضع للديوان قواعده وأصوله ، وبدأ فعلا فى رقابته ، ووافى البرلمانيين بتقريره السنوى ، وحرص مجلس الشيوخ على أن يعنى بهذا التقدير العناية الكافية ، لكى يعزز سلطة هذه الرقابة البرلمانية . وقد تولى بهى الدين هذه الرقابة زمنا . وجاء بعده رؤساء للديوان متلاحقون كان من آخرهم اثناء حياتى النيابية زميل وصديق كريم هو الاستاذ محمود محمد محمود .

وقد كشفت تقارير الديوان عن مخالفات وقصور يستلزم اعادة النظر فى وضع الادارات المالية والحسابية أو فى الأجهزة الحكومية فى جملتها . ومن محاسن الصدف أن رئيس الديوان الأول كان يترفع عن صغائر الأمور ، ويضع النقط على الحروف فيما يتصل بالمخالفات الكبيرة ، والتلاعب أو الاهمال الواضح . ونهج رؤساء الديوان اللاحقون هذا

النهج ماوسعهم ، ولكنى أعترف بأن البرلمانيين وبخاصة فى مجلس النواب لم يعيروا هذه التقارير ماتستحقه من تعهد ورعاية ، وأن يرتبوا عليها ما يمكن أن يقترحوه من نظم أو قوانين ولوائح تعين على الضبط والربط ، واستوقفهم بوجه خاص موضوع "الأسلحة الفاسدة" .

على أننا بعد أن نمت الأداة الحكومية وتعددت أعباؤها ، وزادت الرغبة فى أن تضطلع الدولة بكل شىء تقريبا فى الثلاثين الأخيرة ، أحسسنا بأن هذه الأعباء وهذه المسئوليات تستلزم رقابة أشمل وأوسع ، وانتهى بنا الأمر إلى أن حوّلنا "ديوان المحاسبة" إلى ماسميناه "الجهاز المركزى للمحاسبة" وترتب على ذلك أن نشر الديوان رقابته فى الادارات والمصالح المختلفة ، وحاول أن يقف على كل ادارة أو مصلحة هيئة خاصة بهذه الرقابة ، ولا أستطيع أن أعرض للحكم على هذه التجربة ولكن آمل إن كَشَف مراقب او محاسب من رجال الجهاز عن خطأ عام أن يوجهنا ذلك الى وضع النظم واللوائح أو القوانين إن اقتضى الأمر لمعالجة النقص بصورة حاسمة .

والحق أن الشكوى عامة من بطء الأداة الحكومية ، ومن وجود مخالفات فى بعض اقسامها واداراتها وكم أود أن نقف وقفة جريئة ازاء الجهاز الادارى فى جملته ونعالجه معالجة شاملة فنتخلص من بعض اللوائح والتعليمات البالية ، ونوزع السلطات توزيعا دقيقا على المسئولين المباشرين لأن هؤلاء إن أدوا الأمانة على وجهها أعفوا الجهاز المركزى مما يحاول البحث عنه .

دروس

وقفت نفسي على الحياة النيابية نحو خمس عشرة سنة ، وقليل من البرلمانيين من قدر له أن يمر بهذه التجربة الطويلة . وقد أملت عليَّ هذه التجربة دروسا أحب أن أقف عند بعضها .

١ - سبق أن قررت أن الانتخابات النيابية سواء في المجالس المحلية أو في الحياة البرلمانية الواسعة فرصة سانحة لتكوين شعبي ونهوض فكرى إن حاول المرشحون أن يتخذوا من الترشيح فرصة للأخذ والرد .. للحوار والمناقشة . وسبق لي أن أفدت من هذه الفرصة في وقت قل فيه عدد المثقفين والمستنيرين في قرانا ومدننا ، وما أحوجنا اليوم أن نأخذ بهذا وأن نعقد ندوات متلاحقة في حملاتنا الانتخابية .

ومضى الزمن الذى كان يُعَوَّل فيه على الصداقة أو القرابة أو النسب ، وما أحوج مرشحينا عمالا كانوا أو فنيين أن يتصلوا بالجماهير وأن يعقدوا ندوات متلاحقة يوضحون فيها مهمتهم ويهيئون الشعب لمتابعتهم في أعمالهم ، وسبق أن أشرت أن هذه التجربة التي تمت منذ خمسين عاما أو يزيد في مصنع السكر بالحوامدية كان لها أثر واضح .

٢ - لاشك في أن الحزبية دعامة قوية للحياة النيابية على شريطة أن يكون لكل حزب برنامجه الواضح ورسالته الكاملة ،

وما أجدر هذا البرنامج بأن يكتب وأن يسجل لكى يرجع إليه المُرشحون والناخبون على السواء ، وفى وضع هذه البرامج مايحدد مهمة كل حزب ومايعين على ضبط العدد وتحديده ، والبلاد القديمة العهد بالحياة النيابية تقنع كل القناعة بحزبين أو ثلاثة على الأكثر ولاتتسع أبواب الاصلاح والتجديد لأكثر من ذلك .

أنا أومن بحرية التحزب ولكنى لا أوافق على تعدد الأحزاب فى غير ماداعٍ .

٣ ـ تقوم الحياة البرلمانية على أخذ ورد بين الأعضاء والسلطات التنفيذية ، واللجان البرلمانية ميدان فسيح للتقويم والتهذيب وسبيل واضح للربط بين الرقابة البرلمانية والعمل التنفيذى وأخشى ما أخشاه أن تطغى الحزبية العمياء على الحوار والمساءلة وسبيل هذا الحوار هو اللجان البرلمانية وقد عشت فيها زمنا يسمح لى بأن أقرر بأنه يمكن أن يُحل فى اللجنة البرلمانية مالم يحله وزير فى مكتبه ولا رئيس حكومة فى مجلس الوزراء وأحسن الحلول ما جاء وليد تعاون وتبادل وفهم وتحقيق ، وأتساءل حقا هل تؤدى لجاننا البرلمانية رسالتها حق الأداء ؟

٤ ـ من الخير أن تقترب المسافة دائما بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية وأن يكون هناك تعاون صادق بين الطرفين ، وهذا التعاون الصادق لايحول دون المعارضة التى قد تكشف عن أمور لم تعرف من قبل وهدفنا جميعا أن نصل إلى الطريق المستقيم . والمعارضة لمجرد المعارضة لاتحترم الحياة النيابية فى شىء .

٥ ـ وأختم هذه الدروس بتوجيه النظر إلى الجهاز المركزى للمحاسبة والذى كان يسمى قديما ديوان المحاسبة وهو دون نزاع فرع مهم من فروع الرقابة البرلمانية وما أجدر البرلمانيين أن يؤمنوا به وأن يتعاونوا معه وأخشى ما أخشاه ان تصبح رقابته شكلية وصورية دون أن تمهد لتجديد واصلاح فى حياتنا العامة ، وسبق لى أن أشرت أن كتابا اخرجته مع زميل لى وهو الأداة الحكومية انما جاء ثمرة الأخذ والرد في اللجنة المالية وغيرها من لجاننا البرلمانية لنعلن عن الجهاز المركزى للمحاسبات إعلانا جليا واضحا كى يحس الناس بمهمته ووظيفته .

البـــاب الـــرابـــع :

حياتنـــا الثقافيـــة

الفصـــل الأول :

ثقافــة القــرن العشــرين

بدأت هزيلة ، محدودة النطاق ، ضيقة الأفق ، ومقصورة على نسبة مئوية صغيرة من جملة السكان ، ولاسبيل لأن نتحدث عن ثقافة شعبية أو جماهيرية فى العقدين الأول والثاني من هذا القرن ، وأدع جانبا القرن التاسع عشر وقد نعمنا فى البداية بوعى ويقظة كنا نود أن يتابعا السير فى اضطراد لكنهما لم يقدر لهما ـ مع الأسف الشديد ـ أن يؤتيا أكلهما على وجه مقبول بعد النصف الأول من هذا القرن ، ولم يتابع أبناء محمد على نهضته الثقافية والعلمية متابعة صادقة ، وجاء الاستعمار البريطانى فشتت الشمل ، ولم يكن حريصًا على الحياة الثقافية ، شأنه فى ذلك شأن ألوان الاستعمار ـ بوجه عام ـ التى عرفها التاريخ .

وكان القوامون على هذه الثقافة فى أغلبهم ممن رُبُّوا تربية شرقية فى كتاتيبنا وفى المعاهد الأزهرية ، فلم تتسع آفاقهم لمستحدثات العلم والثقافة العالمية فى الدول الكبرى ، اللهم إلا نفر أتيحت لهم فرصة الاتصال بالغرب ، وحاولوا أن يأخذوا عنه ، وأن ينشروا بعض أفكاره . وفى العواصم الكبرى ـ وبخاصة القاهرة والإسكندرية وأسيوط ـ أنشئت

بعض المدارس الأجنبية ففتحت آفاقا نحو علم وثقافة جديدة . وانشئت بعض المدارس الابتدائية والثانوية الاميرية ، وكان التدريس فيها باللغة الانجليزية ، وهذا هو الذى دفع سعد زغلول يوم أن كان وزيرا للمعارف إلى أن يُعَرِّب التعليم . وبدا في وضوح أن كتاتيبنا ومعاهدنا الدينية لاتكفى وحدها فى خلق جو ثقافى يلائم العصر ، ويتمشى مع متطلباته . واتجهنا نحو ماسميناه "الجامعة المصرية القديمة" التى لو قدر لها أن تعمر طويلا لكانت دعامة وطنية دائمة لحياتنا الثقافية فى القرن الحالي ، ومع هذا انبعثت منها أشعة وأضواء كان لها اثرها فيما تلا العقدين الأولين من هذا القرن .

كانت ثقافتنا العامة إذن في البداية دينية ولغوية أساسا ، تعنى بالأخذ عن السابقين أكثر مما تعنى بالتجديد والابتكار ، وتردد القولة الشائعة : "ماترك الأول للآخر شيئا" ونزولا عند قانون التطور العام ، وبعد الوقوف على مستحدثات الفكر المعاصر تبينا أن هناك أشياء كثيرة نستطيع أن نستحدثها ، وأن نضيفها الى معلوماتنا السابقة ، وبدأنا نخرج من جمود بُلينا به ، وارتفعت فى الثلاثينيات والأربعينيات راية التحرر والتجديد ، بل وصلنا الى درجة النقد والشك فيما قيل من قبل ، وانتشرت موجة نشيطة تؤيد المنهج "الديكارتى" الذى ينادى بأن الانسان موجود لأنه يفكر ، ومن حقه ان يفكر فى كل شىء ، ونزولا عند هذا التطور اتسعت آفاقنا الثقافية ، وأدركنا أن هناك علوما ومعارف كنا بعيدين عنها ، لاننكر تراثنا ، ولانهمله ، ولكنا نمحصه ونحلله ، ونوازن فيه بين الغث والسمين ، ونعتد كل الاعتداد بقيمه ومقرراته ، واذا كان القدامى قد جادلوا ، ورددوا القولة المشهورة لمالك فى درسه بالحرم المدنى وهى : "مامنا الا رَدٌّ وَرُدَّ عليه إلا صاحبُ القبر

هذا" ونعمنا بثقافة خلاقة لاتنكر ما استقر من معارف الماضى ، ولاتتردد فى ان تضيف إليها ماتضيف ، ووصلنا إلى درجة نستطيع معها ان نقول : انه توفر لدينا ثقافة مصرية معاصرة ، متفتحة ومجددة ، وهى إلى جانب هذا مشعة ، ترسل أضواءها إلى العالم العربى والعالم الاسلامى . لكنا فى الستينيات والسبعينيات أحسسنا بنكسة تأبى إلا أن ترجع بنا إلى الوراء ، وترفض كل جديد ومستحدث ، وتصور القديم بصورة عفًا عليها الدهر ، لاتتلاءم مع متطلبات العصر فى شىء .

جمود فى التفكير ، ولدته فى الغالب قيادات ضعيفة ، ودعاة لم يكتمل نضجهم وتفكيرهم ، وامتد شيطان السياسة إلى ميدان الثقافة ، بصبغة رجعية هدامة ، والدعوات السرية التى ظهرت فى العقدين الأخيرين إنما جاءت صدى لذلك كله . ونشك كل الشك فى أن غايتها كانت خالصة لله وللوطن ، ولم تسلم من مؤثرات وسياسات خارجية .

ولا حياة لثقافة حرة سليمة إلا إذا عاشت فى ضوء النهار . وفى جو الحرية الكامل ، وبقدر ما يتوفر لمجتمع ماحظ من هذا الضوء ، ومن تلك الحرية ، تتضح معالم ثقافته ، ويلتف حولها مفكروه وباحثوه ، وللثقافة مقومات وعوامل شتى سنحاول أن نعرض لها تباعا .

الفصـــل الثاني :

بين العاميـة والفصحى

لا حياة لعلم وثقافة بدون لغة تؤديهما ، وتحقق نشرهما على وجه كامل بين الأفراد والجماعات ، والازدهار الثقافى والحضارى يقترنان دائما بالازدهار اللغوى ، وقد استطاعت عربية البادية والصحراء فى الجاهلية أن تواجه متطلبات صدر الاسلام والدولة الأموية ، ولاشك فى أن لغة القرآن والحديث قد كستها بكساء أعذب وأرق ، وسارت فى طريق اليسر والوضوح والدقة فى القرون التالية .

أخذت العربية عن الثقافات القديمة شرقية كانت أو غربية ما أخذت ، فأفادت من الثقافة الهندية والفارسية ، كما أفادت من الثقافة اليونانية واللاتينية ، واستمر أخذها طوال ثلاثة قرون ، من القرن السابع الميلادى إلى القرن التاسع ، وقامت فى الاسلام حركة ترجمة نشيطة قوية شاملة لاتكاد تجاريها حركة أخرى فى العصور القديمة والقرون الوسطى ، واتسع لها صدر اللغة العربية اتساعا تاما ، وبقدر ما أخذت العربية عن غيرها أعطت ، وربما كان عطاؤها أوسع ، ونستطيع أن نقرر أن العربية كانت لغة العلم الأولى فى العالم طوال أربعة قرون من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر الميلادى ،

واتجه الغرب نحوها باحثا عن كنوزها ونفائسها ، وأخذ هو بدوره يترجم من العربية الى العبرية أو اللاتينية ، وفى ضوء هذه الترجمات نشطت الحركة الفكرية فى الغرب من القرن الثالث عشر ، ومهدت لعصر النهضة والتاريخ الحديث ، وتابع العرب والمسلمون درسهم وبحثهم فى علوم الدين واللغة والرياضيات والطبيعيات ، وكان بينهم فلكيون ورياضيون وأطباء لهم منزلتهم بين كبار العلماء والأطباء العالميين فى التاريخ القديم والحديث .

ولم تقف الثقافة الاسلامية عند العربية وحدها ، بل امتدت إلى لغات شرقية أخرى ، وبقيت الثقافة الاسلامية مزدهرة حتى أوائل القرن السابع الهجرى . ثم أخذت تهبط وتتداعى فى القرون التالية ، وقنع الباحثون والدارسون بأن يرددوا أفكار من سبقوهم وأصبحوا تقليديين أكثر منهم مجددين ومبتكرين ، ومالت الثقافة العربية الى الجمود والمحافظة ، ولم تقو على التجديد والابتكار فى الوقت الذى أخذت فيه الثقافة الغربية تسلك سبلا جديدة ، وتضيف الى ماضيها اضافات لها وزنها وفى فجر القرن الماضى بدأنا نشعر بهذا التخلف ، وتولى محمد على حركة نهضة ثقافية وعلمية ، أخذ فيها عن فرنسا ماوسعه ، وكانت بداية وعى ويقظة ، وبذرت بذورا صالحة أضحت مشاعل على الطريق ، وإن توقفت هذه النهضة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وفى فجر القرن العشرين أحسسنا بأن عربيتنا دارجة كانت أو لغة خاصة قد هبطت إلى مستوى لايعزز الثقافة ، ولايعين على النهوض بها ، فدخلت فى الدراجة ألفاظ أجنبية من تركية وفارسية ، أو يونانية وإيطالية وفرنسية وانجليزية .

وفى الأمية السائدة فى العقدين الأول والثانى من هذا القرن لم يكن ثمة سبيل هين لتدارك هذا النقص ، اللهم إلا أن يُنشر التعليم نشرا صحيحا وشاملا ، وأن تُيسر سبل القراءة والسماع بلغة أكثر صفاء ونقاء . وعشنا مع الاتراك مددا طويلة ، واختلطنا بهم نسبا ومصاهرة ، وكان لألفاظهم واستعمالاتهم حياة واضحة ، ولاتزال منها بقايا نتندر بها فى مسارحنا واذاعاتنا المسموعة والمرئية .

والذى لاشك فيه ان دارجة اليوم أنقى وأصفى من الدارجة التى عشنا معها فى العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن ، وتقترب العامية باضطراد من لغتنا الفصحى الحديثة ، ولم نحقق بعد كل ما كنا ننشد من محاربة الأمية ، ولكنا نعتقد أن وسائل الاعلام ساعدت على تهذيب اللغة الدارجة وتطويرها ، ومن مستحدثاتنا الأخيرة "الجامعة العمالية" وستصبح الثقافة متاعا شائعا لكل المواطنين . ومهما يكن من أمر رقى العامية وتقدمها ، فإن تلك الدعوة التى رددت زمنا بأن نجعلها لغة الحديث والكتابة معا أصبحت لامحل لها . ولكل مجتمع لغته الدارجة ، والمهم هو ألا تبعد المسافة بين لغة الحديث والكتابة بُعدا يجعل منهما لغتين منفصلتين .

عشت مع لغتنا الدارجة منذ فجر هذا القرن ، وتابعت نموها وتطورها ابتداء من العقد الثالث ، ونحن اليوم نحس بأن الفلاح فى حقله والعامل فى مصنعه يتحدثان بلغة تتلاقى وتتقارب وإن اختلفت فى بعض لهجاتها أو صور نطقها ، إلا أن هذا كله لايسمو بها إلى أن تصبح لغة قومية .

وقد رُمى لطفى السيد ظا - -ـ، كان من أنصار العامية ،

والحقيقة أنه كان ينشد تهذيبها وتصفيتها وتقريبها من الفصحى ، وصاحب "الجريدة" فى أوائل هذا القرن حرص الحرص كله على ان تقوم صحيفته على اللغة الفصحى ، وأراد بها أن تكون الفصحى الحديثة الخالية من التعقيد والتركيب والسجع والصور البلاغية الثقيلة ، وأخذت هذه الفصحى الحديثة تنمو وتقوى على أيدى كتاب وأدباء قدموا منها صورا جذابة شيقة ، وهذه الفصحى الحديثة دفعت مستشرقا ألمانيا إلى أن يُخرج معجما فى اللغة العربية المعاصرة هو الاستاذ "قير" وقد عوَّل فيه بخاصة على أقلام لطفى السيد ، وطه حسين ، ومحمد هيكل ، وعباس العقاد ، وأحمد أمين ، ومَن عاصروهم .

هذه الفصحى هى لغة الخاصة ، أو لغة الكتابة التى تقابل لغة الحديث ، وهى بدورها قد حظيت بعناية ودقة وتجديد ، وانتشرت فى البلاد العربية على اختلافها ، وما أجدرها أن تكون لغتنا القومية ، وأصبحنا نمقت الجناس والتشبيه وغريب الألفاظ وثقيل التراكيب ، ونريد لها أن تكون لغة الدارس فى درسه ، ولغة المذيع فى اذاعته ، ولغة الكاتب فيما يقدم من بحوث ومقالات . ونأسف أن موجة جديدة ظهرت فى العشرينيات الأخيرة ، تحاول أن تفسح الطريق للعامية مرة أخرى وبخاصة فى لغة المسرح والاذاعة ، وعذر شباب هذا الجيل الذى يميل الى الدارجة أنه لم ينل حظه من العناية اللغوية الصحيحة فى مراحل تعليمه المختلفة إنَّ فى التعليم العام أو فى التعليم العالى والجامعى .

★ ★ ★

هذه هى لغتنا الدارجة ، ولغتنا الفصحى ، وصلتهما معا

بحياتنا الثقافية وثيقة ، ورسالتنا أن نقرب بينهما ما استطعنا ، وان نهذب الدارجة ماوسعنا ، ونيسر الفصحى ما أمكننا ، وأن نتخذها أداة للتبادل والتعامل فى شئوننا العامة والخاصة ، وأن نعد لها فى البيت والمدرسة وفى النادى والمجتمع الكبير ، وعلينا أن نتقى بخاصة عدوان القوى المستعمرة ، والاستعمار منه سياسى ومنه حضارى وثقافى . وكثيرا ما تتسرب ألفاظ أمريكية إلى لغة السوق والبيت ، وقد نجرها الى لغة الاذاعة والصحافة ، ولست من خصوم التعريب ، ولكنى لا أسلم به الا لضرورة ، ومادام فى العربية لفظ يمكن ان يؤدى المعنى الذى نريده ، فلا يصح ان نتشدق بألفاظ أجنبية .

وسبق لى أن قلت إن الاذاعة المسموعة والمرئية هى مدرسة الشعب ، وفى وسعها أن تُقَوِّمَ لغته لفظا ونطقا ، ولاحظنا فى الأشهر الأخيرة انها خصصت فقرة لاصلاح بعض الأخطاء الشائعة فى الاستعمال أو النطق ، واختارت لهذه الفقرة عنوانا سبقها اليه بعض اللغويين هو اصطلاح "قل ولاتقل" . وليتها إلى جانب هذا تحارب اللفظ الأجنبى الذى كثيرا ما ولده التقليد الأعمى ، وولوع المغلوب بمحاكاة الغالب . ونحمد الله أنا لسنا مغلوبين ولكنا ـ وشبابنا بوجه خاص ـ متعجلون ، وفى السوق والمتجر والحياة العامة نزعة إلى "الامركة" لايليق بنا أن نسير وراءها ، وعلى المدرسة والمعهد والجامعة أن تحارب الدخيل من الألفاظ الأجنبية ، امريكية كانت أو غير امريكية ، وأن تأخذ الطفل والشاب بالعربية السهلة الواضحة .

الفصـــل الثالث :

مكافحة الأمية

عمل طويل النفَس ، وجهد متصل يتطلب صبرا وأناة ومتابعة ، وهدف لايتحقق إلا إذا نظمت وسائله وأحكمت سبله ، وقد قطعت فيه الأمم الناهضة أشواطا انتهت بها الى أن تخلصت من هذه المشكلة ، وأصبحت ولاوجود لها فى الدول الكبرى فى أوربا وأمريكا .

وفى العقد الأول من القرن التاسع عشر ، لم نكن نحس تماما بهذه المشكلة ، ووجدنا فى الكتاتيب ما يُمَكِّن نفرا من أبناء القرية أو المدينة من تعلم القراءة والكتابة ، وبقدر محدود ولم تلبث أعباء الحياة المعاصرة أن وجهت نظرنا الى أن القراءة والكتابة ضرورتان من ضرورات هذه الحياة وقديما قال الانجليز : "إن المواطن ـ أى مواطن ـ لابد أن يعرف الراءات الثلاثة" التى تترجم فى لغتهم عن القراءة والكتابة والحساب .

وفى أوائل العقد الثانى قلنا بإلزامية التعليم ، وآمنا بأنه لابد لنا أن ننشىء مدارس ومعاهد تمكن الشباب والناشئة من تعلم القراءة والكتابة ، وقدر من المعلومات العامة فى العلوم الانسانية أو الطبيعية أو الرياضية ، ولكنا لم نوفر وسائل هذا

التعليم فى كل نجع أو قرية ، وأخذ التعليم الالزامى ينمو على مر الزمن ، وإن لم يستوعب قط من هم فى سنه من الأطفال والشباب . ونخطىء إن زعمنا أن مكافحة الأمية يراد بها تعليم الشيوخ والمسنين ممن فاتهم التعليم فى الماضى ، فتلك نافلة يحسن أن نؤديها ، ولكن الواجب الحق هو أن نتعهد الأجيال الصاعدة لكى تتسلح بسلاح العلم والمعرفة .

وبذلت محاولات متلاحقة نحو تعليم القراءة والكتابة لمن فاتهم ذلك فى سن مبكرة ، ولكن هذه الجهود على اختلافها لم تخط بنا خطوة يُعْتَدُّ بها ، ويقينا عندنا أمية تصعد إلى نحو ستين فى المئة أو يزيد من السكان ، وليست هذه الأمية مقصورة على الكهول والشيوخ ، ولكن المؤلم فيها أنها تشمل أيضا عددا من الشباب . ولو أحسنا التدبير لاستطعنا خلال جيل أو جيلين أن نقضى على الأمية فى من هم بين الخامسة والثلاثين من العمر ، وهذا هو الفشل الذريع الذى أبتليت به مدارسنا الالزامية والابتدائية ، فقد خرَّجت شبه أميين تعلموا القراءة والكتابة بقدر محدود ، ثم شغلتهم الحياة عن ذلك ، وانضموا إلى صفوف الأميين .

ونقطة البدء فى المكافحة إذن هى مرحلة التعليم الابتدائى والاعدادى أو بعبارة أخرى مرحلة التعليم الأساسى ، ومدتها ثمان سنوات ، ولو قامت المدرسة بواجبها خلال هذه الفترة ولو وفت بحاجة الناشئين جميعا ، لاستطعنا خلال ربع قرن أن نقضى على الأمية البغيضة فى تلك المرحلة من العمر ، وأتساءل حقا : هل استكملت قرانا ونجوعنا وسائل تعليمها بحيث تحقق هذا الهدف المنشود ؟ وهل لى أن آمل فى نهاية القرن العشرين ، وبيننا وبينها نحو عشر سنوات وقد اتخذ

قرار سياسى فى هذا الشأن ، وأملى كبير فى ان يوضع موضع التنفيذ فى وجود ناشئة تجيد القراءة والكتابة دون أن يحرم من ذلك فتى أو فتاة فى البلاد جميعها ، وما أحوجنا أن نرسم سياسة شاملة لتحقيق هذا الهدف ، أما مَن هم فى سن الأربعين ومابعدها فنترك أمرهم لميولهم ورغباتهم الخاصة إن شاءوا ... فالمسألة بالنسبة لهم مسألة زمن سيسوى الحساب على كل حال ، وليس معنى هذا أنى ادعو إلى سد الطريق فى وجه من يريدون أن يتعلموا القراءة من العمال الزراعيين أو الصناعيين ، لكنى أريد فقط أن أواجه المشكلة الحقيقية لما نسميه أمية أبناء الوطن ، ولا سبيل لمحاربة هذه الأمية إلا إذا استأصلناها فى المنبع ... وأملى كبير فى أن نوفق لذلك .

وأميل إلى التفاؤل لأن عامة الشعب أصبحوا يقدرون التعليم حق قدره ، ويبذلون فى سبيله كل مايستطيعون بذله . ومضى الزمن الذى كانت تكتفى فيه أسرة بأن تقف أحد أبنائها على التعليم ... أما اليوم فأبناء الأسرة الواحدة بنين وبنات يتنافسون فيما بينهم لتحصيل قدر من التعليم ، يعدونه السلاح الأمثل لحياة ناهضة مستنيرة .

ومشكلة ابناء القرن العشرين فى حقيقتها ليست مكافحة الأمية ، وإنما الذى يجب ان نعد له العدة ، وأن نتهيأ له بالنسبة للأجيال الصاعدة ، هو ما اصطلحنا على تسميته بالتعليم الأساسى الذى يحقق قدرا من المعرفة لمن يعيشون فى هذا القرن . وكلى رجاء أن تحل مشكلة التعليم الأساسى محل مشكلة مكافحة الأمية ، وأن نعد العدة الكاملة لتهيئة أبناء اليوم فيما بين الخامسة والثالثة عشرة لكى يعيشوا عصرهم ، ويتسلحوا بأسلحته الضرورية .

الفصـــل الرابـــع :

وسائـــل الاعـــلام

نمت فى قرننا هذا نموا عظيما وتطورت تطورا كبيرا . ففى ثلثه الأول كانت موقوفة على الصحافة اليومية أو الاسبوعية أو الشهرية . ثم أخذت الاذاعة طريقها إلى الظهور ... ونمت وتنوعت فى الثلثين الأخيرين فبدأت مسموعة ثم انضمت إليها الاذاعة المرئية ، وتربطنا وسائل الاعلام جميعها بوطننا وعصرنا وعالمنا ، وجاءت الأقمار الصناعية أخيرا فمكنتنا من الوقوف على أحداث الدنيا شرقا وغربا بعد وقوعها بساعات ، وبدا العالم صغيرا متصلا اتصالا وثيقا ، ففى الصحافة والاذاعة معا ثقافة وعلم ومعرفة الى جانب الخبر والحدث والاختراع والابتكار . وبفضلها يعيش ابن القرن العشرين فى عصره تمام العيش ، ويتابع أحداثه كل المتابعة .

وللصحافة فى بلدنا تاريخ طويل يرجع الى أخريات القرن الثامن عشر حين بدأ نابليون بونابرت يوزع منشوراته التى كانت أشبه ما تكون بالصحافة اليومية ، وتعهدها محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر ، وإن تلكأت حركتها على أيدى من جاءوا بعده من أبنائه ، وقد بدأت بَدْءاً حقيقيا فى أخريات القرن الماضى ، وعلى أيدى القطاع الخاص ، ثم سارت

الهوينى فى العقدين الأولين من هذا القرن ، وجاءت الحركات السياسية والحزبية فغذتها ونوعتها . ويعنينا من الصحافة فى بحثنا هذا جانبها الثقافى ، ولاشك فى أن الأقلام التى تواردت عليها كان لها أثرها فى حركتنا الأدبية والفكرية ، وإذا كان قراء الأمس محدودين ومعدودين فقد أصبحوا اليوم آلافا مؤلفة ، ومن صحفنا اليومية ما ناهز توزيعه مليون نسخة وقد يجاوزه أحيانا ولها قراؤها فى مصر وخارجها . وإذا تركنا جانبا القضايا السياسية ومشكلاتها فإنا نعتقد أن من بين صحفنا مايرتبط ارتباطا وثيقا بحياتنا الفكرية والثقافية . وللأهرام فى هذا الميدان شأن وفى أعدادها صفحات تصور الواقع تصويرا صادقا دقيقا ، ومن عصورها الذهبية الفترة التى تولى فيها المرحوم "أنطون الجميل" إدارتها ، وقد كان صديقا وزميلا فى مجلس الشيوخ ومجمع اللغة العربية ، وكم كانت تروقنى كلماته القصيرة الدالة ، فقد كان يؤمن أن القارىء اليوم يكاد يزدحم بقراءات كثيرة . ومن العون له أن يحدد الهدف ، وأن تؤدَّى المعلومات بلغة واضحة ناطقة . وبرغم أن صحيفته كانت ملكا لأسرة خاصة فإنها اكتست بطابع قومى واضح ، ولعل صلتى بأنطون الجميل هى التى وجهت الأنظار نحوى بعد وفاته لكى أقود صحيفته الخالدة ، وعُرضت علىَّ رياسة تحريرها . ولم أتردد فى قبولها إيمانا بأنها تؤدى خدمة ثقافية وإعلامية لها شأنها فيما نرجو ومانـدعو إليه من نهوض واصلاح ، ولكن أبت "السراى" إلا أن تدخل إصبعها حتى فى هذه الشئون الفرعية وكأنما ظنت أنه سيُتخذ من الأهرام سلاح للهجوم والنقد لما يمكن ان يحدث من تصرفات غير سليمة ، ومهما يكن من أمر فإن حرصى على مصلحة أصدا هذه الصحيفة دفعنى إلى أن

أحميهم من خصومة ما كان أغناهم عنها . وللسراى معى مواقف أخرى مشابهة .

وإذا كنت قد نوهت بالأهرام فماذاك إلا لأنها ترتبط ارتباطا طويلا بحركاتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهناك صحف أخرى لم يقدر لها أن تعمر طويلا ، كالسياسة اليومية والاسبوعية وللسياسة الاسبوعية بوجه خاص قَدَمُ صدق فى نهضتنا الفكرية والأدبية .

وقد قامت هذه الصحيفة الى جانب الهلال والمقتطف ، وصحيفتين أخريين كانت لى بهما صلات أوثق وأدوم وهما الرسالة والثقافة ، وكم راقنى من الرسالة أنها كانت تحمل حقا مدلولها فكانت لسان إصلاح ونهوض ينشد الاصلاح لذاته ، ويرى كل مفكر أن يسهم فيه وأن يضع لبنة فى بنيانه دون نظر الى مطمع أو مغنم ، وقدر لهذه الصحيفة نجاح كبير ، بدأت تحت كنف "لجنة التأليف والترجمة والنشر" ثم استقل بها المرحوم "أحمد حسن الزيات" . وكم كان مؤمنا بها ومخلصا لها . وقد تابعتُها منذ عام خمسة وثلاثين بعد عودتى من بعثتى ، وأسهمت فيها ما استطعت حتى عام واحد وخمسين ، وفى عام اثنين وخمسين قدر لها أن تتوقف عن الظهور لأسباب مالية . وكم أسف القراء والمثقفون لهذا التوقف . وأذكر أنى زرت الخرطوم عام ثلاثة وخمسين ، وكان من بين الأسئلة البارزة التى وُجهت الىَّ : أين صحيفة الرسالة ؟ .

ولم يختلف شأن مجلة الثقافة عن الرسالة كثيرا فقد عُمرت زمنا ، وقامت إلى جانب الرسالة تحت إشراف "لجنة التأليف

والترجمة والنشر" ولكنها بدورها عدت عليها العوادى . وأريد أخيرا أن تَبعث من مرقدها ، ولكنها مالبثت أن اختفت بعد أن ظهرت زمنا .

والواقع أن صحافتنا الأدبية والثقافية أسبوعية كانت أو شهرية لم يقدر لها نجاح كبير فى ربع القرن الأخير ، ونافستها صحف أخرى شهرية أو نصف شهرية فى المشرق والمغرب تغذت بكثير من الأقلام المصرية ، وظهرت فى أثواب جديدة أخاذة ، وطغت على صحافتنا الاسبوعية والشهرية ، وما أحوجنا أن نعيد النظر فى هذا ، ونستعيد قيادتنا الصحفية لقراء العربية جميعا . ويخيل إلىّ أن الأمر يتطلب هواية ورغبة لا سبيل لنجاح صحيفة بدونهما .

ثم جاءت الاذاعة المسموعة فى أوائل الثلاثينيات ، فصادفت هوى ، وخاطبت جمهورا أوسع وأشمل ، واجتمع على مائدتها الجاهل والمتعلم ، القارىء والأمى . وقد عددتها بحق مدرسة الشعب المفتوحة للجميع . ولها دون نزاع أثر فى تقويم لغة التخاطب ، وفى تزويد العامة بمعلومات ماكانوا يستطيعون الوصول إليها . وقد خضعت فى البداية لسلطان السياسة والحاكم بخاصة ، ولكنها تحررت فى العقود الثلاثة الأخيرة ، وأفسح مجال الحديث فيها لمن لهم رأى سواء أكانوا مؤيدين أم معارضين . بل راقنى منها أنها اتخذت من تسجيلاتها سبيلا للتظلم والشكوى .. وهى شكوى فى الغالب موجهة نحو المسئولين والمقصرين ممن يتولون أمر شئون العامة إنْ فى الادارة الحكومية أو فى القطاع العام . ومن المطمئن حقا أن تجىء ردود هذه الشكاوى مقنعة ومطمئنة ، وفيها اعتراف بالخطأ أو بالقصور أحيانا وفيها أساسا تسليم

بالحق متى بدا واضحا . وكم يذكرنى هذا بموقف قديم فى العهد الملكى فقد كان لى حديث إصلاحى واجتماعى خالص شئت أن أذيعه ، ولكن احد رجال السراى وهو كريم ثابت رغب فى أن يطلع على الحديث قبل إلقائه ، وكان طبيعيا ان أرفض ذلك ، وأن أمتنع عن التحدث إلى الجماهير .

وفى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية جوانب فى وسع المثقفين والمفكرين أن يواجهوها ، وأن يدلوا برأيهم فيها . ويسعدنى اليوم أن الحديث فى اذاعاتنا لايقف عند من له صلة وثيقة بالأدب وصناعة الكلام ، وقد أسهم فى ذلك الاطباء والمهندسون والعلماء والفنانون ، وأدلى كل منهم بدلوه وأشهد أن إذاعاتنا وسّعت برامجها ونوعتها وعودت الجماهير عليها بحيث لاتستطيع أن تضغطها أو تقف إرسالها على أوقات معينة وهذه نقطة كثيرا ما طال فيها الأخذ والرد . وأشير إلى الوقت الضائع وبخاصة من الشباب الذين يجلسون إلى الاذاعة ساعات وساعات ، وأشير أيضا إلى أن الاذاعة صرفتنا عن القراءة نوعا ما . وكل تلك ملاحظات لاتخلو من صدق وصحة ، وسبق لى أن تناولت هذا الموضوع فى حديث خاص مع بعض السادة وزراء الاعلام ، وكنت أميل إلى أن تحدد أوقات إذاعتنا أسوة بما يجرى فى بعض البلاد الراقية ، وكانت معارضته الأساسية مبنية على العادة ، عادة الجماهير ، وكيف نتخلص منها ؟ وكم من عادات سيئة يدفعنا الواجب إلى أن نبرىء الناس منها . وأسعد مجمع اللغة العربية ـ مع هذا ـ أن أسهم فى الاحتفال بالعيد الخمسينى لاذاعتنا المسموعة ، وأفسح لها داره وشهدنا مع الشاهدين ماأدت من خدمات .

واستمتعنا أيضا بالاذاعة المرئية . وهى ولاشك أشد وضوحا وأكثر حيوية تمثل الواقع وتقدمه للنظارة حيا ملموسا ، وأضافت الى الاذاعة المسموعة ما أضافت من توجيه وإصلاح أو نقد وتعليق ، وأشادت بذكر بعض كبار القادة والمصلحين ممن أدوا رسالتهم ولاقوا ربهم ، ونظمت ضروبا من الحوار والمحادثة واجهت بها بعض عيوب الماضى ، ودعت إلى تداركها وإصلاحها .

ومن حسن الحظ أنها محدودة الزمن ، وأرجو ألا تزيد فى وقتها المقرر خشية أن يختلط فيها الغث بالسمين ، وتلك مشكلة الاذاعة بوجه عام مسموعة كانت أو مرئية ، فقد يطغى فيها الكم على الكيف ، وما أحوجنا الى اختيار دقيق يبعد بنا عن العبث والاسفاف ، فيقوّم ويصلح ، متحاشيا أن يهدم ويفسد .

الفصــــل الخامس :

التأليـــف

لاشك أن الثقافة فى حاجة إلى غذاء مستمر ، يواجه متطلبات العصر ، ويعرض الآراء الجديدة ، وسبيل هذا الغذاء إنشاء وابتكار من المثقفين والقيادات العلمية والفكرية ، فتجيء مؤلفاتهم خطوة إلى الأمام ، ودليلا على النهوض والتقدم . وجرت الثقافات جميعها على أن يأخذ بعضها عن بعض فى الماضى والحاضر على السواء ، ومن الخطأ أن نقف بالثقافة عند حدود ضيقة ، واعتبارات سياسية ، وهذه هى مهمة المترجمين ، وبقدر ما تقوم الثقافة فى أمة على مايتصل بالحاضر من تأليف وترجمة فإنها تقضى أيضا بأن نرجع إلى الماضى فنحييه ، ونكشف عن كنوزه ، ونفيد مما جاء فيه ، ومن لا ماضى له لا حاضر له ، وهذا مانسميه "إحياء التراث" .

ويعنينا أن نقول كلمة عن التأليف المصرى فى وقتنا الحاضر ، ونلحظ أن ماقمنا به فى العقدين الأولين من هذا القرن كان فى أغلبه نقلا عن الماضى ، ووقوفا عنده ، اللهم الا دعوات صادقة إلى التجديد ومجاراة العصر على نحو ما صنع محمد عبده وبعض تلاميذه ، ولانزاع فى أنه كان لدعوته وحركته أثرها فى نهضتنا الثقافية المعاصرة برغم معارضة المحافظين .

ويطبع كل عصر بطابع خاص على النحو الذى تأخذ به الأقلام وترتفع به الأصوات ، ففى الثقافة الفرنسية مثلا نلاحظ أن القرن السابع عشر الميلادى طبع فى فرنسا بدعوة "ديكارت" ومن تأثر به من الديكارتيين اللاحقين ... ومما يقال عن "ديكارت" بفرنسا فى الناحية الفكرية يمكن أن يقال عن "شكسبير" بانجلترا فى الناحية الأدبية ، وعلى غرار هذا نلاحظ أن فى العقود الثلاثة من العشرينيات إلى الأربعينيات قد طبعت حركتنا الثقافية بأقلام ومؤلفات كان لها صداها وتوجيهها أمثال مؤلفات طه حسين وهيكل وأحمد أمين وعباس العقاد ، وفضل هؤلاء جميعا يتلخص فى أنهم لم يكتبوا فقط لظاهرة عابرة ، أو لحدث خاص أو لفكرة طارئة ، وإنما كانوا يكتبون للعصر كله .. وقفوا أنفسهم على نشر دعوات واتجاهات ومبادىء وضحوها وسجلوا فيها آراءهم ، فبقيت مرجعا لأبناء القرن العشرين ، ولمن يجيئون بعدهم ، وهذه هى حقيقة التأليف الذى تتميز به ثقافة عن أخرى ... ولانزاع فى أن المقالات الصحفية ، والمحاضرات الجماهيرية إسهام فى الغذاء الفكرى والثقافى ، ولكن أثرها يزول بزوال ظروفها ومناسباتها ، ولاحياة لها إلا إن سجلت فى بحث مدعم ودرس كامل .

وللحياة الجامعية شأن كبير فى الغذاء الثقافى إن وقف الجامعيون أنفسهم عليه ، وإن عنوا به ، وإن اتسعت أوقاتهم للتعمق والدرس . وكان لنا من هذا الطراز جيل أو جيلان ، حملوا الرسالة وأدوا الأمانة ، ثم جاءت الاعارات الخارجية والاسهام فى الحركات التعليمية فى البلاد العربية شرقا وغربا ، فحالت دون المتابعة والتواصل ، وحرمت البحث العميق من اساتذة يعز عليهم فى غربتهم أن يعطوا العطاء

الذى ينشد منهم .. ولاشك فى أن الاعارة الخارجية رسالة ما كان ألزم مصر أن تؤديها ، ولكنها باعدت بين بعض الشيوخ وكتبهم ومكتباتهم ، فلم يواصلوا الانتاج ، ولم يتابعوا العطاء .

والدراسات الجامعية فى الماجستير والدكتوراه باب مهم من أبواب الغذاء الثقافى ، والتقدم الفكرى ... وهناك رسائل تعد فاتحة لدعوة جديدة ، وتوجيهها إلى ميادين يجب متابعتها واستكمالها ... وكثير من كبار الاساتذة الجامعيين فى اوربا وأمريكا وفى فرنسا بخاصة إنما بدأوا حياتهم الفكرية والنظرية بتلك اللبنة التى قدموها فى رسالتهم للماجستير أو الدكتوراه ، ثم تابعوا ذلك فيما بعد ... وكان لهم خط سير متصل ومتكامل .

ويسوؤنى أن أقرر أن دراساتنا الجامعية فى ثلث القرن الأخير تعمر بها المكتبات الخاصة ، أو ركن من أركان المكتبات العامة ، فى نسختها الأصيلة ، أو فى طبعة لايكاد يعرفها الناس .. وقليل من الرسائل الجامعية ماينشر ويوزع ويكون له سوق بين الباحثين والدارسين ، وطغت المذكرات بدورها على التأليف الجامعى ، وكثيرا ما تذهب هذه المذكرات مع الريح .. ولايعنى واضعوها بتعميقها بإخراج مؤلف يعد حجة ، ويمكن الرجوع إليه ، وهذا نقص كبير واضح فى درسنا الجامعى فى ربع القرن الأخير . وأعترف بأن مؤلفين لى فى الفلسفة الاسلامية إنما جاء اصدى لدرس تابعته طوال بضع سنوات فى الدراسات المتخصصة بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وإذا كان الكتاب العلمى أو الفلسفى غير واضح المعالم

فيما أخرجناه منذ الخمسينيات حتى اليوم ، فإن الكتاب القصصى والروائى من حسن الحظ أصدق تعبيرا ، وأوضح دلالة ، وأغنى مادة ... ورحم الله محمود تيمور وعزيز أباظة ومحمد فريد أبو حديد وأقرانهم الذين غذوا الفن القصصى والروائى بغذاء كانت له ثماره الطيبة على أيدى نجيب محفوظ ورفاقه .

وهناك باب خاص من التأليف ما أحوج المكتبة العربية إليه وهو الموسوعات ودوائر المعارف وقد فكرنا فيه منذ ثلث قرن أو يزيد ، ونعاود هذا التفكير حينا بعد حين ، يفوتنا فى الغالب أننا لانقدر أن هذا اللون من التأليف يتطلب جهازا متخصصا ومستقرا . فيزوَّد بالمراجع والمصادر المختلفة ، ويقوم عليه عدد من الباحثين والمشرفين يفرغون له ، ويرسمون خططه ، ويدعون اليه من هو جدير بالاسهام فيه . ومن الخطأ أن نظن أن موسوعة عربية يمكن أن تعد خلال بضع سنين . وقد زرت يوما عن قصد مؤسسة "لاروس" الفرنسية ، ووقفت على الجهد والزمن والرجال الذين يحملون هذه الرسالة ويتابعونها فى حرص وعناية . ومرت بنا تجربة صغيرة من هذا اللون من التأليف كان من حظى أن أسهمت فيها وهى "الموسوعة الميسرة" ولا أذيع سرا إن قلت إن فكرة هذه الموسوعة بدأت فيما كان يسمى (كولومبيا ديسك) ولكن القائمين عليها استطاعوا أن يتخلصوا من الصورة الأصلية التى وضعت أمامهم ، وأن يُخرجوا موسوعة صغيرة وميسرة على نحو ما يوحى به اسمها ، وقد قضوا فى ذلك بضع سنوات وما ان ظهرت هذه الموسوعة حتى نفدت فى سوق الكتب بعد بضعة أشهر ، وكنا نرجو أن نتوسع فى هذه التجربة فى طبعة ثانية ، ونتخذ منها نواة لموسوعة أكبر

واتسـع ، وفكرت الادارة الثقافية بالجامعة العربية فى أن تضطلع بهذا العبء ، ولكن طغى عليها الطابع الاقليمى والنزعة الوطنية ... وبدل أن يجتمع العالم العربى على موسوعة عربية شاملة تنافست الدول العربية فى أن تضطلع كل واحدة منها بالعبء ذاته ، وكانت النتيجة أنه لم يخرج حتى الآن شىء يُعتز به . والعمل الجماعى إن لم يقم على فهم وتعاون صادق لايمكن ان يوصل الى نتيجة يُطمأن إليها .

وأسعدني أن اتجهت الأنظار أخيرا نحو مكتبة الطفل ، فحاولت أن تتدارك ماسبق للهراوى وكامل الكيلانى أن وجها النظر اليه ، وسارت فيه "دار المعارف" شوطا بعيدا ، فاخرجت للأطفال مكتبة قيمة اشتملت على عدة سلاسل بين مؤلَّف ومترجمٍ ، ثم لم يلبث أن توقف السير فى هذا الطريق ومعلوم أن لكلٍّ قراءته التى تلائمه وقدرٌ من الثقافة التى ينبغى أن يعنى بها ، وما أحوجنا إلى مكتبة الطفل فى البيت والمدرسة ، والمكتبات العامة والفرعية فى المدن والأحياء .

وسلكت بعض المدارس الأجنبية مسلكا نموذجيا ما أجدرنا أن نأخذ به فأنشأت ماسمته "مكتبة الفصل" وقدمت لكل فصل ولكل سن ما يلائمه من القراءات الحرة ، وفى هذا تعويد على القراءة أولا ، وتوجيه نحو ألوان الثقافة المختلفة آخرا ، وأستطيع أن أقرر أن لمكتبة الفصل هذه الفضل فى أن حببت أبنائي فى القراءة ، وأن وجهتهم إليها ، حتى فى أثناء الاجازة الصيفية .

وليتنا نوفق لهيئة مستقلة تقوم على هذا اللون من التأليف على نحو ما يصنع "لاروس" مثلا فى مجموعاته المختلفة . ونحن ندعو إلى تغذية التأليف ، ومتابعته فى ميادينه

المختلفة ، لكى نقدم للقراء ألوانا من الغذاء الثقافى يختارون منه مايغريهم أو يلائمهم ...

والدعوة الى التوسع فى التأليف تقترن بدعوة أخرى إلى تعويد النشء على القراءة ، وتحبيبهم فيها وهذه ناحية كثيرا ما فاتتنا فى مراحل التعليم المختلفة من رياض الأطفال إلى التعليم الجامعى .

ومما يحزن ويزعج فى آن واحد أنْ يَقنع الطالب الجامعى بالمذكرات التى تقع تحت يده سواء كانت قديمة أم حديثة ، وتبدو غريبة عن موضوعه ، فلايكاد يعرف له مراجع فى العربية أو فى بعض اللغات الأجنبية . نريد أن نؤلف لكى يقرأ الناس فى مختلف أعمارهم ، أما أن تزين المكتبات الخاصة ببعض المؤلفات فذلك ركود وفقر ثقافى .

الفصـــل السادس :

الترجمــــة

لم يبق اليوم شك فى عالمية الثقافة ، وما أشبهها بالماء والهواء ، فهى تسير وتنتشر حيث تشاء ؛ وتفك القيود وتجاوز الحدود ، ويبحث عنها طلابها ما أمكنهم البحث ، وما تهيأت لهم الأسباب ، وفى التنافس المدنى والعسكرى الحضارى والعلمى مايدفع طلاب ذلك التنافس إلى كشف الأسرار ، والوقوف على غريب المبتكرات والمستحدثات ، والثقافة الحية هى التى تأخذ وتعطى ، تقوم على ماضيها ولاتنسى ماضى الآخرين ، وتغذى حاضرها بحيث يصبح هدفا لها وهدفا لطلاب العلم والمعرفة . وفى تاريخ الحضارات الانسانية مايبرهن على أنه قد أخذ لاحقها عن سابقها ، واستعان طلاب النهوض والتجديد بكل ما يحقق أغراضهم من معطيات الماضى والحاضر على السواء .

ويكفى أن نشير إلى حضارتنا الاسلامية ، فقد قام فيها البحث والدرس على أساس حركة ترجمة لانكاد نجد لها نظيرا فى التاريخ القديم والمتوسط ، وقضى المسلمون نحو قرنين ونصف من القرن الثامن الميلادى الى منتصف القرن العاشر يبحثون عن معطيات الحضارات السابقة شرقية كانت أو

غربية ، من يونانية ورومانية أو هندية وفارسية ، وبعثوا البعوث شرقا وغربا فى جمع ذلك التراث ، وأعدوا العدة لنقله الى العربية ، وكونوا لذلك مدارس متخصصة للترجمة والتعريب ، وأخصها مدرسة حنين بن اسحق فترجموا عن اليونانية كما ترجموا عن السريانية والفارسية ، وترجموا كل مااستطاعوا الوصول إليه فى الأدب والفن ، وفى العلم والفلسفة ، ويوم أن اكتمل لهم زاد وفير من المعرفة بدأوا يبحثون ويفكرون بأنفسهم وعلى طريقتهم ، وأنشأوا مايسمى بحق العلم والفلسفة العربيين . وجاء دور الغرب بعد هذا ، فأخذ عن الحضارة والعلم الاسلامى ماأخذ ، وأصبح من المسلم به الآن أن النهضة الأوربية الحديثة مدينة للحضارة الاسلامية السابقة ، وإذا انتقلنا للتاريخ الحديث والمعاصر وجدنا أن النهضة المصرية المعاصرة بدأت بإرسال البعوث الى فرنسا ، وترجمة كل ما يمكن ترجمته إلى اللغة العربية ، وبدا ذلك واضحا فى أوائل القرن التاسع عشر على أيدى أمثال رفاعة الطهطاوى و نصر الهورينى .

وبذلت محاولات تالية فى الترجمة عن الفرنسية أو الانجليزية ولكنها فى أخريات هذا القرن وأوائل القرن العشرين وقفت فى الأغلب عند جهود فردية ربما فاتها التجويد والتنقيح .

وتستلزم الترجمة السليمة تمكناً من اللغة المنقول عنها واللغة المنقول اليها وتمكناً ايضا من الموضوع الذى تنصب عليه الترجمة ، ومن هنا كان ينقصنا قيام هيئة متخصصة تقوم على أمر هذه الترجمة وتؤديها أداء صحيحا ، ولعل لجنة التأليف والترجمة والنشر قد تنبهت الى هذه المهمة فى

الثلاثينيات وإن تركت أمرها لحرية الباحث واختياره ، وشاعت الادارة الثقافية بالجامعة العربية فى الأربعينيات أن تتجه نحو بعض أمهات الكتب فى الأدب الأجنبى محاولة أن تنقلها إلى العربية ، ولكن هذا التخطيط لم يؤد مع الأسف إلى الغاية التى كنا ننشدها ، ولايفوتنا أن نشير إلى محاولة سابقة قام بها لطفى السيد فى العقد الثانى من القرن العشرين بتوجيهه النظر إلى بعض مؤلفات "أرسطو" وضرورة ترجمتها إلى العربية .

ولنا تجربة أخرى فى هذا الباب ، وهى تجربة "الألف كتاب" وقد بدأت فكرتها فى وزارة المعارف القديمة ، وفى ادارتها الثقافية بوجه خاص د ثم انقطع سير الزمن ، وفكرنا فى ان نعود إليها اخيرا ...

وكنا نأمل أن يكون لحياتنا الجامعية أثر واضح فى هذا الميدان سواء باضطلاع فريق من الجامعيين بنقل بعض أمهات الكتب فى الأدب واللغة ، أو فى العلم والفلسفة ، من الانتاج الفرنسى أو الانجليزى أو الألمانى ، وأخشى ما أخشاه أنا كنا نؤثر التأليف على الترجمة ، ونعد الأول إنتاجا شخصيا فى حين أن الترجمة إن أديت على وجهها نقلت إلينا ثمارا يعز على كثيرين الوقوف عليها فى لغتها الأصلية . ولا أظن أن جامعيا شابا فكر فى أن يترجم نصا من النصوص الأجنبية للعربية مستعينا به للحصول على الماجستير أو الدكتوراه . وما أجدرنا أن ندخل الترجمة فى ميدان الجهود الجامعية والبحوث الأكاديمية . وقد قضيت زمنا لكى أوجه النظر أيضا إلى اعتبار إحياء التراث عملا أكاديميا ينبغى أن

يدخل في قائمة الدراسات التي يضطلع بها شباب الجامعيين . وحياة الترجمة تتوقف على التمكن من اللغة الوطنية ولغة أو أكثر أجنبية ، وهنا نلحظ مع الأسف الشديد أن مجيدي اللغة قليلون ، وأكثرهم لايعزف لغة أجنبية، أما مجيد واللغات الأجنبية فأخشى أن أقول إنهم أصبحوا يعدون على الأصابع وقد كانت لدينا وفرة منهم في الثلاثينيات والأربعينيات ، والعناية باللغات بوجه عام في تدهور وتراجع ملحوظ ، ويكفي أن نشير إلى أنا نشكو مر الشكوى من عدم اقبال الشباب على لغتهم الوطنية ، وولوعهم بها ، ورغبتهم في التمكن منها . وقد أضحت قراءاتهم قليلة ، وإذا بدا لهم أن يقرأوا اتجهوا نحو الخفيف من المكتوب والمنشور ، وكثيرا ما تعجز أقلامهم عن أداء المعنى الذي يريدون توضيحه بلغتهم الوطنية ، ولا سبيل لأن نتحدث عن اللغات الأجنبية ، كالفرنسية والانجليزية والألمانية ، فانها لاتنال العناية التي تستحقها في مدارسنا الاميرية ، ولم يبق بيننا من مدارس اللغات مايُعوَّل عليه التعويل الكافي الا "الجامعة الامريكية" وبعض المدارس الألمانية ، وحصيلة هذه جميعها دون ماينبغي ، وهي في الغالب إنما تغذي رجال المال والتجارة .

ومشكلة الترجمة باختصار هي مشكلة اللغات والتمكن منها ، ونهضتنا الثقافية والحضارية والاجتماعية متوقفة على ما يمكن عقده من صلات بيننا وبين شعوب العالم . وقد بدأت في الكويت منذ بضع سنوات حركة ترجمة تتخير الطريف من العلم والأدب لتنقله إلى اللغة العربية ، وهي تتابع السير وتختار النص الذي يراد ترجمته ، وتكله إلى مترجم متخصص

، ومراجع محقق ، وكأنما شاءت أن تسد فراغا كان على المنظمة العربية للتربية والثقافة أن تضطلع به . ولسنا بهذا نرفض الجهود الاقليمية والمحلية متى أحسنت الاختيار ، وأجادت الترجمة ، وكل جهد نافع فى هذا الميدان يضيف ثروة إلى الثقافة العربية .

الفصل السابع

إحياء التراث

لكل ثقافة تراثها ، ومن لاماضى له لا حاضر له ، وتراثنا المصرى القديم يجتذب الباحثين والدارسين فى أوربا وأمريكا ، وقد بذلت فيه جهود ناجحة للكشف عن مختلف آثارنا المصرية ، ونضطلع نحن بعبء كبير فى هذا المضمار ، ولم يصرفنا ذلك عن العناية بالآثار الرومانية والقبطية والاسلامية .

ويعنينا هنا أن نقف عند تراثنا العربى ، وقد اتجهت مصر نحوه فى أخريات القرن الثامن عشر ... يوم أن عرفت فن الطباعة الحديث ، وتابعت السير فى القرن التاسع عشر جادة أحيانا أو متأنية أحيانا أخرى . واضطلعت بهذا الاحياء مطبعة بولاق "المطبعة الاميرية الآن" ثم جاءت "الكتبخانة المصرية" أو "دار الكتب" فعدَّت هذا الاحياء واجبا من واجباتها ، ووقفت عليه باحثين متخصصين أخرجوا كتبا مثل "الأغانى" و"العقد الفريد" و"صبح الأعشى" وكم كنا نود أن تستمر هذه الدار فى حمل هذه الأمانة وأداء هذه الرسالة ، ولكنها توقفت فى الأربعينيات وحُرمت من المحققين المجيدين .

ويظهر أن وزارة المعارف أحست بهذا النقص ، وفكرت فى

تداركه ، ولكنها لم تخط فى هذا السبيل خطوات ملحوظة ، وشاءت وزارة الثقافة بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما تقريبا أن تعود إلى الفكرة فى "دار الكتب" نفسها . وأن تعد شبابا يضطلع بالتحقيق وإخراج النصوص القديمة وكم كنا نتمنى لهذه التجربة النجاح والتوفيق ، ولكنها مالبثت أن توارت كغيرها من مشروعات أخرى ولانزال مع هذا نعول على الهيئة المصرية العامة للكتاب ومركز تحقيق التراث بها ولها إسهام سابق فى إحياء تراثنا القديم ، وما أجدرها أن تستعيد مجد "دار الكتب المصرية" ولاننسى بعض دور النشر الخاصة "كدار المعارف" أو "مطابع الحلبى" التى حاولت أن تحيى شيئًا من تراثنا القديم . والحقيقة أن المحقق المُعَدَّ لاحياء النصوص القديمة والمستكمِل لأسباب ذلك أصبح غير متوافر برغم أنا انشأنا أقساما لدراسات متخصصة فى هذه الناحية بكليات الآداب . ولعل ذلك راجع إلى أن إحياء التراث لايضمن لصاحبه حياة منتظمة مستقرة ، ومن هنا كانت الجهود الفردية التى يقوم بها أصحابها إلى جانب عملهم الأصلى بواجب إحياء التراث أكثر وضوحا فى ميدان هذا الإحياء .

وأحرص على أن أشير إلى أن المرحوم طه حسين يوم أن كان وزيرا للمعارف رغب فى أن يوجه النظر الى هذا التراث ، فبعث بعثة الى اليمن فى طلب بعض النصوص القديمة وكان لهده البعثة آثارها فيما كشفته من مخطوطات ، وليس بغريب على "عميد الأدب العربى" أن يوجه النظر الى التراث واحيائه وهو الذى سلك فى إحياء ذكرى ابى العلاء مسلكا عمليا بأن تُخْرَجَ مؤلفاته مرة أخرى إخراجا علميا محققا .

وفى ربع القرن الأخير أتجهت أقطار شقيقة نحو تراثنا العربى ، وأخرجت منه ما أخرجت ، وما أحوجنا إلى تنظيم هذا الجهد وتنسيقه منعا للتكرار وتعارض بعض التحقيقات . وهنا أشير مرة أخرى إلى أن فى وسع المنظمة العربية للتربية والثقافة أن تدلى فى هذا الميدان بدلوها فى دور منسق ومنظم ، وقد سبق لها أن اتجهت نحو جمع النصوص العربية المتناثرة فى العالم العربى والاسلامى - وبذلت فى ذلك جهودا لها وزنها - جُمعت فيما سُمِّى "معهد المخطوطات العربية" وكم نود أن يستعيد هذا المعهد نشاطه مرة أخرى ، وأن تُنشأ فيه هيئة تحقيق إلى جانب الجمع واقتناء مختلف المخطوطات . وهناك مظان للمخطوطات العربية القديمة موزعة فى العالم شرقا وغربا ، وفى وسعنا أن نحصل منها على ماننشده عن طريق التبادل والتعاون الثقافى ، وفى مكتبات اسطنبول ثروات أخشى أن قدرا منها لايزال خافيا على الباحثين والدارسين .

ويمكن أن نلاحظ بوجه عام أن جهود القرن الماضى وهذا القرن فى إحياء التراث تكاد تدور بوجه خاص حول الأدب واللغة أو الحديث والتفسير أو التاريخ ، وفى الحضارة الاسلامية ابواب أخرى لم تعالج العلاج الكافى ، ولم يكشف عنها بعد بصورة مرضية . وكان المستشرقون أسبق منا فى توجيه النظر نحو الدراسات العلمية والفلسفية الاسلامية . ومنذ خمسين عاما اتجهت نحو مفكر اسلامى كبير هو ابو نصر الفارابى وكان موضوع رسالتى الصغرى للحصول على الدكتوراه ولاحظت أن مؤلفاته لايزال قدر منها مخطوطا ، وما أخرج ليس على الصورة المرضية ، وصادفنى فى الوقت

نفسه جزء مهم من كتاب "الشفاء" لابن سينا لم ينشر بعد ، وهو الجزء المنصب على المنطق ، وبحثت عن أصوله في مكتبات انجلترا ، وبنيت علي المخطوط دراستي . ودفعني كل ذلك إلى أن ألقى نظرة على الجهود التي بذلت لاحياء ذكرى كبار المفكرين في الفرنسية أو الانجليزية ، ووقفت بخاصة عند اعلام القرون الوسطى من المسيحيين أمثال القديس "توما الاكويني" و"البير الكبير" فوجدت أن مؤلفاتهم جميعا قد أخرجت إخراجا دقيقا محكما ، وزينت بها المكتبات العامة والخاصة ، وقد دعوت في دراستي الـ تي اشرت اليها من قبل إلى أننا في حاجة ماسة إلى تدارك هذا النقص ، لاسيما والمدرسة الاسلامية في الفلسفة مجهولة من كثيرين . وليس علماء الاسلام بأحسن حظا من فلاسفته فيما يتعلق بنشر مخطوطاتهم . وهنا أيضا سبقنا المستشرقون إلى هذا الميدان ، وعرفوا لهم قدرهم . واتجه المرحوم الدكتور كامل حسين نحو ابى بكر الرازى الطبيب وحاول ان يحيى شيئا من مؤلفاته ، وما أحوج قراء العربية أن يعرفوا هذا الرازى في نصه العربى كما عرفه الغربيون في ترجماته اللاتينية .

وأسعدني أن الذكرى الألفية لابن سينا دفعتنا إلى إخراج موسوعته الفلسفية وهى كتاب "الشفاء" الذى يشتمل على اثنين وعشرين جزءا قضينا في إخراجها نحو ربع قرن تقريبا ، وحرصت على أن يفتح في هذا الاسهام الباب للباحثين في العالم العربى جميعه ، واشترك فيه بعض المختصين من المشرق والمغرب . والتزم في التحقيق المنهج العلمي الدقيق ، وعول فيه على أكثر من نص ، واستعين احيانا ببعض الترجمات اللاتينية ، وقد ترجم كتاب

"الإلهيات" فى نصه المحقق الى اللغة الفرنسية ، ولايبعد أن تترجم اجزاء اخرى الى لغات اجنبية

ووضعت بعثة اليمن تحت نظرنا مؤلفا فريدا ، وهو كتاب "المغنى" للقاضى عبد الجبار شيخ المعتزلة المتأخرين ، ومما يؤسف له أنا لم نحصل على اجزاء هذا الكتاب كاملة برغم الحاحنا فى طلبها ، ونعتقد أن لدى بعض الشيوخ اليمنيين من جماعة الزيدية أصولا لهذا الكتاب القيم . وبرغم الصعوبات التى صادفتنا ، لم نتردد فى أن ننشر ما وقفنا عليه من أجزاء اعتمادا على مخطوط واحد ، آملين أن يكون فى ذلك مايعين على استكمال الاجزاء الباقية ، هذا الى ان الفكر المعتزلى فى حاجة الى مزيد من البحث والدرس ، وفى المغنى مادة غزيرة منه ومن حسن الحظ أن جامعة صنعاء باسم التعاون الثقافى قد اعلنت استعدادها للإسهام فى اخراج هذا الكتاب مرة أخرى اعتمادا على أصول واضحة قيمة . واذا كنا قد وقفنا عند عَلَمٍ من اعلام المعتزلة فانا اتجهنا ايضا نحو صوفى كبير هو زعيم المتصوفة ذوى النزعة الفلسفية ، وأعنى به ابن عربى وموسوعته "الفتوحات المكية" أكبر وأغزر من موسوعة "الشفاء" . وقد أخرجنا منها حتى الآن أحد عشر جزءا ، وبين أيدينا أجزاء أخرى محققة لاتزال تحت الطبع ، ونحرص كل الحرص على أن تستكمل اجزاؤه فى تحقيق أَخَذَ بمنهج قويم ودراسة مقارنة شاملة . والطلب على هذا الكتاب شديد فى العالم الاسلامى جميعه ، واذكر انى زرت فى "ماليزيا" صديقا وجدت فى مكتبته الاجزاء الأولى من هذا التحقيق ، وسألته هل ترجع اليها ؟ فاجاب يكفينى أن أشاهدها . ولاأدل على هذا الاقبال من ان الأجزاء الأولى نفدت وأعيد طبعها مرة أخرى .

يواجه اليوم عبئا اشد واقسى وهو احياء تراث "ابن رشد" العربى الذى شغلت به هيئات علمية فى اوربا وامريكا . وعنيت به زمنا جامعة "هافرد" محاولة ان تخرج مؤلفاته فى نصفها العربى ، وترجماتها اللاتينية والعربية تحت رعاية "الاكاديمية اللاتينية" ، وقد توقف العمل فى هذه الاكاديمية اخيرا بوفاة المشرف عليه . وشاء الاتحاد الدولى للاكاديميات أن يضطلع بهذا العبء ، فعهد الى معهد القديس توما بكولونيا امر النصوص اللاتينية ، ووكل النصوص العربية الى فرنسا واسرائيل ، ثم شاء بعض الباحثين فى اسبانيا ان يضطلع بالنصوص العربية ، وما إن انضم "مجمع القاهرة" الى الاتحاد الدولى للاكاديميات حتى حاول تصحيح هذا الموقف . ورأى الاتحاد ان يوكل الى مصر امر النص العربى ، وقد بدأنا بالفعل فى اخراج رسائل ابن رشد الطبية حول "جالينوس وكتابىّ "الكليات" و"الكون والفساد" وتحت ايدينا نصوص اخرى استكمل تحقيقها . وهنا ايضا نرحب بكل مساهمة فى هذا المضمار ان من مصر او من خارجها فى العالم العربى والاسلامى ، او فى اوربا وامريكا ، واذا كان الدرس الفلسفى قد بدأت فيه خطوات فان المؤلفات العلمية القديمة لاتزال مهملة ، وقد عرف بها بعض المستشرقين عن طريق ما ترجم منها الى اللاتينية ، وما اجدر كلياتنا العلمية واكاديميات البحث العلمى ان تتجة نحو هذا الميدان وهو جدير بالنشر والاحياء . ولطبيب مصرى كبير انتقل الى رحمة الله اخيرا اسهام ملحوظ فى تاريخ العلم العربى واعنى به الدكتور بول غليونجى وقد سبق له ان كشف عن ابن النفيس واشار الى انه اهتدى الى الدورة الدموية الصغرى قبل "هارفى" . واستطاع اخيرا ان يحقق مع زميل له سورى هو

الدكتور سلمان قطاية شرح ابن النفيس لكتاب "التشريح" من تأليف ابن سينا وقد اخرج هذا الكتاب اخيرا وشاء القدر ان ينتزع مراجعه قبل ان يرى بنفسه ثمرة جهوده .

وقد صدر مؤخرا كتاب "المناظر" لابن الهيثم بتحقيق الاستاذ الدكتور عبدالحميد صبره ، هذه صورة مجملة عن جهودنا فى احياء التراث العربى ، وهى جهود تدعو الى متابعة وعناية وبخاصة فى ميدان الدراسات العلمية طبيعية كانت او رياضية .

الفصـــل الثامـــن :

بين الأصالة والتجديد

مشكلة دار حولها جدل طويل فى العقود الثلاثة الأخيرة ، هى مشكلة التجديد والأصالة وأولع بها بوجه خاص بعض الكتاب والمفكرين من إخواننا اللبنانيين ، وأتساءل بحق : هل التجديد والأصالة مشكلتنا فى العصر الحاضر فقط ؟ أو هى الانسانية فى تطورها على مر الزمن ؟

ولن أعرض للثقافات القديمة بل اكتفى بأن أقف قليلا عند الثقافة العربية . ولايستطيع أحد أن ينكر أنها ـ إبان ازدهارها ـ اتسع صدرها للتجديد ، وأفادت منه ما أفادت ، أخذت عن المشرق والمغرب ، فلم تتنكر للثقافة اليونانية الرومانية ، وسعت فى طلب الثقافة الفارسية والهندية ، واستمسكت مع هذا كله بأصولها المجيدة ، وعرفت كيف تلائم بين الحضارة الاسلامية وما اتصل بها من حضارات أخرى ، والمجتمع الذى ينكر التجديد يسعى نحو الفناء ، ولكن أن يصبح التجديد مجرد بريق لماع لا وزن له ولا ثقل فهذه محاكاة ظاهرية لا أثر لها فى تكوين الأمم . ومما يُلحظ أن كثيرين من دعاة التجديد لم يتوفر لهم زاد كاف من تراثنا القديم ، فلم يتعمقوا فيه ، ولم يفهموه على حقيقته ، ومن هنا

تتجه اقتراحاتهم نحو الانتهاء إلى مسخ أشبه مايكون (بالموضات) فى الزى وغيره التى لاتعمر طويلا .

وإذا كان الحوار يدور حول التجديد والأصالة ، فلابد لنا أن نعرف أولا قيمنا التى نعتد بها ، وأن نضعها فى كفة الميزان ، ثم نقابل بها مايمكن أن ندخله عليها من تجديد ، ولاشك فى أن الحضارة الغربية تعانى اليوم من ذلك السير السريع الذى يكاد يقلب الأوضاع رأسا على عقب ، وفى هذا درس يدعونا الى التأمل والتريث ، وجدير بنا أن تكون حضارتنا لنا ، ومن صنعنا ، نكيفها على حسب ظروفنا ومقدساتنا ، وأصالتنا فيما نعتد به من قيم إن أغفلناها لم يبق لهذه الأصالة أى وزن .

وينبغى أيضا أن تُفهم الأصالة على وجهها ، فليس المراد منها الاستمساك بالقديم لا لشىء إلا لأنه قديم ، ومن القديم ما هو بال ، ومن العبث العودة إليه ، ولو عرفنا قيمنا الاسلامية على حقيقتها لقسنا فى ضوئها كل تجديد بمقياسه السليم .

وأخشى ما أخشاه أنا لانفهم التجديد على حقيقته ، فنريد به كل تقليد أعمى ، وكل محاكاة خداعة ، على أن المجتمع النشيط والنامى لابد له أن يجدد لكى يجارى متطلبات العصر ، ويحقق ماينشده من نهوض وتقدم . وليس بلازم أن يكون التجديد مجرد أخذ عن الغير بل فى وسعنا أن نجدد فى دائرة تقاليدنا ونظمنا ، نجدد فيها تجديدا ينبعث منا ومن إدراكنا فنقوّم المعوج .. ونرفض البالى . أخشى ما أخشاه أن يُفهم التجديد على أنه مجرد الأخذ عن غيرنا وهذا صنيع الضعفاء الذين لاينعمون بتفكير مستقل وارادة قوية ... علينا

ان نجدد إن كنا حريصين على أن نساير الزمن . نجدد فيما يتلاءم مع قيمنا ومبادئنا . نجدد فيما يدعو إليه الاصلاح والنهوض بصرف النظر عن مشابهته لعادات أو تقاليد في بلد آخر . إنا نقبل من التجديد كل مافيه اصلاح . اما أن يكون التجديد مجرد "موضات" تطرأ فنحاكيها فهذا ليس من التجديد السليم في شيء . وبالاختصار لابد أن يكون لنا رأى فيما ندعو اليه ونداول بثه ونشره من آراء وأفكار .

وايت كلمة الأصالة تفهم على وجهها .. ويخيل إلى أن هناك فريقا يرى فيها مجرد القديم وإن كان باليا ... وإن كان لايلائم العصر في شيء ... الأصالة قيمة ... وكل ماله قيمة علينا أن نستمسك به سواء أكان قديما أم حديثا ... وإذا كانت للسابقين أصالتهم فعلى الحاضرين أن يحققوا هذه الأصالة بأنفسهم وأن يستمسكوا بما له قيمة ... وأن يأخذوا بما له وزن ... وحينذاك نستطيع أن نعدهم بين الأصلاء .

الفصـــل التـــاسع :

الهيئات الثقافية الكبرى

تنوعت هذه الهيئات وتعددت على مر القرن العشرين ، وتخصصت فى بعض الجوانب ، أو فتحت باب الثقافة على مصراعيه ، فمنها ما عنى بالأدب والفن ، ومنها ماوقف نفسه على الاقتصاد والقانون أو العلم والفلسفة ، وسميت بأسماء مختلفة من لجان وجمعيات ، أو أندية ومجالس ، أو مجامع واتحادات . قُدر لبعضها أن يعمر ، وأن يتابع السير ، وتوقف بعض آخر فى الطريق أو سمى بأسماء جديدة ، وليس من بينها مايرجع إلى القرن الماضى إلا هيئة واحدة ، ويعنينى أن أقف عند عدد منها كانت لى به صلة ، وحاولت أن أسهم فيه ما استطعت وسأعرض لها على حسب تاريخها الزمنى وأقدمها :

★ المجمع المصــــرى :

ثمرة من ثمار الحملة الفرنسية ، وكأنما شاء "نابليون" أن ينحو بحملته منحى ثقافيا ودراسيا الى جانب أهدافه العسكرية والسياسية ، فأحضر معه أربعين عالما من كبار العلماء الفرنسيين المعاصرين ، وأسس باسمهم هذا المجمع

الذى حرص على أن يكون هو نفسه رئيسا له ، وطلب إلى هؤلاء العلماء أن يدرسوا مصر فى سهلها وجبلها ، فى معادنها وكنوزها ، فى حيوانها وطيورها ، فى نباتها وزرعها . وأخرجت هذه الهيئة المختارة كتابها المشهور "Description de l'egypte" ولاشك فى أن هذا الكتاب يعد أثرا ثقافيا ربما كان من أهم الآثار التى خلفتها الحملة الفرنسية إلى جانب حل رموز "حجر رشيد" .

وقد بقى هذا المجمع يتابع عمله إلى اليوم وإن عاش فى الظل ما استطاع ، وعنى بخاصة فى الخمسين سنة الأخيرة بالناحية الأثرية . ومن مميزاته الواضحة أنه كان صورة من صور التعاون بين المصريين والأجانب فى ميدان البحث والدرس ، ومما يؤسف له أن هذه الصورة أخذت فى التضاؤل عاما بعد عام ، وليت هذا المجمع يستعيد سيرته الأولى ، ولو على صورة لقاءات دورية ، أو بحوث موزعة بين أطراف مختلفة وتعقد من أجلها ندوات سنوية ، واجتماع دورى كل عام.

وقد اتصلت بهذا المجمع منذ عشرين سنة مضت ، وآسف أن ظروفى لم تسمح لى بالإسهام فى نشاطه فى جد وعناية أتم ، وفيه مكتبة تشتمل على قدر من الدوريات القديمة التى قد لانجدها فى مكتبة مصرية أخرى ، ومجموعة جديرة بالحفظ والصيانة ، ولعلنا باسم التاريخ وتقديس الماضى نستطيع أن ننشىء لهذا المجمع قسما خاصا مجددا فى المنطقة التى نشأ فيها ، ويسعدنى أن بين اعضائه من يضطلع بالعبء ويؤدى الأمانة ، وهو جدير بأن يحتفظ بالشعلة ويغذيها الغذاء الدائم .

★ **الجمعية المصرية للاقتصاد والقانون :**

ويلى المجمع السابق تاريخيا "الجمعية المصرية للاقتصاد والقانون" وأظنها بلغت الثمانين من عمرها أو كادت . وأذكر أنى أسهمت فى عيدها الذهبى منذ ثلاثين عاما تقريبا ، وقد أحتفل به على صورة لائقة . وهى واحدة من تلك الهيئات المشتركة التى جمعت بين المصريين والأجانب ، وكان للفرنسيين بوجه خاص فيها إسهام واضح ، ولها صحيفة تحرص على أن تظهر بالعربية ولغة أجنبية ، ويشترك فى تحريرها علماء مصريون وأجانب ، وكان لبعض الأساتذة الأجانب الذين قاموا بالتدريس فى كلياتنا الجامعية شأن فى هذا التعاون ، إلا أنه ـ بدوره ـ فى تضاؤل مستمر ، وبرغم أن صلتى بهذه الجمعية قد انقطعت منذ بضع سنين فانى أرجو لها أن تستعيد شيئا من تقاليدها السابقة ، وما أحوجنا فى ميدان العلم والثقافة أن نتعاون ونتبادل البحث والدرس مع الهيئات العلمية المختلفة . وأذكر أنه تولى رياستها فى وقت ما بعض شيوخنا فى القانون والاقتصاد ، وفى مقدمتهم المرحوم "عبد الحميد بدوى" الذى أبى إلا أن يكل إلى أمر سكرتاريتها الدائمة زمنا ، وفى هذه الفترة أقيم العيد الخمسينى الذى أشرت إليه . وكان لهذه الجمعية أنشطة متنوعة أخصها محاضرات متخصصة للباحثين والدارسين باللغة العربية أو بلغات أجنبية . وفيها قاعة للمحاضرات تلائم هذا النوع من الدرس ، ولها مجلة خاصة بها ، وهى من أقدم المجلات الاقتصادية والقانونية . وتجمع بين العربية ولغة أخرى أجنبية كالفرنسية والانجليزية .

هذا ماض عزيز ، وله وزنه . .. دار خاصة به ، والفقهاء

والاقتصاديون أولى الناس بتعهد هذه الدار التى أريد انتزاعها يوما لعمل آخر ، واستطعت أن أقنع المسئولين بأنها تؤدى رسالة يجب تقديسها .

★ لجنة التأليف والترجمة والنشر :

قُدر لى فى الثلاثينيات أن أشترك فى لجنة مصرية خالصة أعدها لبنه فى بنياننا الثقافى المعاصر ، وهى "لجنة التأليف والترجمة والنشر" وما كان أجمل ما اشتملت عليه من زمرة ، جمعت بين العلم والعمل واتسمت بحسن التخطيط وصدق العزيمة ، حمل رايتها المرحوم أحمد أمين وضم إليه كل من اطمأن إليهم من الزملاء والأصدقاء ، ووهبها من وقته وجهده ما استطاع ، وقضت نحو ربع قرن فى درس متصل ونشر متلاحق ، جمعت بين العلم والأدب والفن والفلسفة ، تعاون حر طليق ، وانتاج مبعثه ايمان بالرسالة الثقافية وتدعيم لها بشتى الوسائل ، فألفت هذه اللجنة ، وترجمت ، وحققت ونشرت لطلاب العلم عامة ولبعض المتخصصين ، وكان يعنيها أن تغذى شباب الدارسين بغذاء سليم وجذاب . وقدر لى أن أسهم مع زميل لى هو الاستاذ يوسف كرم فى إخراج كتاب مدرسى فى تاريخ الفلسفة لتلاميذ المرحلة الثانوية ، وكان ذلك أول خطوة لادخال تاريخ الفلسفة فى منهج التعليم العام ، وضمت الجمعية إلى التأليف والترجمة صحيفة تحمل اسمها وهى صحيفة "الرسالة" التى كان لها من اسمها نصيب كبير ، وأسعدنى أن أسهمت فى أعداد كثيرة من هذه المجلة التى توقفت عن الظهور عام اثنين وخمسين ، وقدر لى أن أزور الخرطوم فى ذلك التاريخ وكان

أول سؤال وجهه الى المثقفون السودانيون : هو أين الرسالة ؟ وقد بقيت هذه الصحيفة زمنا فى أيدى لجنة التأليف ثم اختص بها المرحوم أحمد حسن الزيات الذى قواها وعززها ، ومع هذا لم تستطع أن تقاوم عدوان الزمن . وأخرجت اللجنة صحيفة أخرى هى "الثقافة" ، وعنوانها هى الأخرى دليل عليها . وقد عُمِّرت ما استطاع خدام الثقافة وعشاقها أن يغذوها ثم توقفت بدورها . ويسوؤنى أن هذه اللجنة أصبحت اليوم أثرا بعد عين ، وتمت تصفيتها النهائية فعلا ، والأمثلة التى قدمتها ثمار واضحة لجهود الأفراد ، وإسهام الدولة فيها محدود . وأعتقد أن "لجنة التأليف والترجمة والنشر" لم تحظ باعانة مالية من هيئة عامة أو خاصة ، وقامت جهودها كلها على سواعد من اضطلعوا بها . وما أشبه هذه اللجنة بوزارة ثقافة أهلية ، أحس أعضاؤها بالحاجة إلى غذاء وأضواء كاشفة فى ميدان العلم والمعرفة ، وقد آمنوا بهذا الميدان الايمان كله ، ولا أظن أن واحدا منهم سعى إلى رزق عن طريق انضمامه إلى هذه اللجنة . ومن محاسن الصدف أنها انتهت إلى تحقيق ربح سنوى كان يوزع على الأعضاء المؤسسين والمساهمين ، وكانت عملية وواقعية فى بدئها ، فاختارت مكانا متواضعا فى شارع "الكرداسى" بحى "عابدين" لم تكن تكاليفه مرهقة ، واتخذت لنفسها مطبعة خاصة لم تكن على المستوى الحديث ولكنها أعانت اللجنة كثيرا على أداء رسالتها بأقل التكاليف ، ويخيل الىّ أن فكرة التأميم ، ومحاولة الدولة ابتداء من عام ١٩٥٢ أن تضع يدها على كل شىء قد سدت الطريق أمام هذه الأعمال العامة وما أشبهها من هيئات لم يكن قصدها الأول تحقيق ربح أو ... إنما كان هدفها خدمة الوطن وأداء الواجب ومن العبث أن يظن أن الدولة كفيلة بأن تتحمل كل العبء . ومن حسن

الحظ أنا بدأنا نحس بالحاجة الماسة إلى الجهود الفردية والجماعية التى تتجه نحو الصالح العام برغبة صادقة ، وعزيمة قوية ، فهل من سبيل لأن نستعيد أمثال هذه الهيئات ؟ وأن تتكون جمعيات ثقافية وعلمية إلى جانب الأجهزة الحكومية ؟ وواجب الدولة أن تعزز هذه الهيئات ، وأن تأخذ بيدها .

★ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب :

فى الخمسينيات بدأت الدولة تفكر فى إنشاء هيئات حكومية تضطلع بأعباء الثقافة ورسالتها وفى مقدمتها مجلسان هما "المجلس الأعلى للعلوم" و"المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية" وكانت صلتى بالمجلس الثانى وثيقة ، حظيت بعضويته منذ إنشائه ، وبقيت فيه إلى أن حل محله مايسمى "المجلس الأعلى للثقافة" ولمجلس رعاية الفنون والآداب تاريخ ما أحوجه أن يسجل على حقيقته ، فقد أختير لعضويته رجال يعد كل واحد منهم رئيس مدرسة فى ميدانه ، رأوا جميعا أن عملهم الأول هو الاسهام فى لجان المجلس إسهاما حقيقيا ، وتغذيتها تغذية كاملة ، وعلى أيدى هذه اللجان أنتج وأثمر ، ومما يؤسف له أن من بين هذا الانتاج مالم يجد سبيله الى النور لقصور فى الميزانية أو الاهمال من جانب المشرفين على التنفيذ ، وأحب أن أقف قليلا عند لجنة كانت لى بها صلة طويلة ووثيقة وهى لجنة "الفلسفة والاجتماع وعلم النفس" . وقد رأت هذه اللجنة فى البداية أن اللغة الفلسفية فى حاجة إلى معجم جديد يحصر مصطلحاتها ، وأخرجت لذلك مشروعا مبدئيا كان

نقطة بدء للمعجم الفلسفى الذى أخرجه "مجمع اللغة العربية" فى الستينيات والى جانب هذا اتجهت هذه اللجنة نحو إحياء التراث الفلسفى فعمدت إلى بعض كبار رجاله لتحيي ذكراهم ، وتنشر ما ينبغى نشره من مؤلفاتهم ، وقد سبقت الادارة الثقافية بالجامعة العربية وعلى رأسها المرحوم "أحمد أمين" إلى إحياء ذكرى ابن سينا ، وأقيم لهذه الذكرى مهرجانات في بغداد وطهران وباريس ، وهى الذكرى الألفية لفيلسوف إسلامى كبير ، حاولت أن تسهم فيها بلاد أخرى ومن بينها إيران وتركيا ، وقد عنيت مصر بخاصة ـ إلى جانب المهرجان ـ بأن تخرج أكبر موسوعة فلسفية عربية وهى "كتاب الشفاء" لابن سينا . وقد تابعت لجنة الفلسفة والاجتماع وعلم النفس بالمجلس الأعلى هذه المهمة ، وأخرجت أجزاء "الشفاء" جزءا جزءا ، وأسهم فى تحقيقها باحثون مصريون وعرب ، وتقع فى نحو اثنين وعشرين مجلدا ، وكان آخرها كتاب "السماع الطبيعى" الذى ظهر منذ عامين . ولم تقف اللجنة عند ابن سينا بل تابعت مفكرين إسلاميين آخرين على رأسهم الغزالى الذى أقيم له مهرجان كبير فى دمشق ، ووضع فيه كتاب شامل لمؤلفاته ، وأخرجت بعض رسائله . وكم وددنا أن نكون مجموعات كاملة لكل مفكر من هؤلاء المفكرين ، وبدأت اللجنة عملا آخر بمناسبة ذكرى مئوية لصوفى كبير هو ابن عربى صاحب "الفتوحات المكية" . ويقع كتابه هذا فى نحو عشرين جزءا . وقد أخرج منها أحد عشر جزءا نفد بعضها بعد ظهوره بسنوات ، ولم تكن صلتى "بالفتوحات المكية" أقل من صلتى بكتاب الشفاء ، وسعدت بأن أنجز كتاب الشفاء فى جملته ، وما أحوجه أن يعاد طبعه مرة أخرى ، أما كتاب الفتوحات

المكية فحبل العبادة فيه طويل ، ويُطَمْئنني أن منهج نشره قد وُضع وَطُبِق ، وما على الباحثين إلا أن يتابعوا السير .

وكان للجنة الفلسفة حظ أنها رشحت أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد- لأول جائزة من جوائز الدولة التقديرية التى منحها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب . وتم هذا الترشيح فى فترة الوحدة بين مصر وسوريا ، ولم يتردد إخواننا السوريون فى إقراره وإن أبدوا ملاحظات على نزعته المصرية القوية ، ولست فى حاجة إن اقول أن حب الوطن لايتعارض بحال مع الدعوات القومية . والقوميات الناجحة هى تلك التى تقوم على وحدات اجتماعية لكل منها شأنه وكيانه .

واستننت هذه اللجنة أيضا سنة إحياء ذكرى كبار المفكرين والباحثين وما أجدرنا أن نتابع هذه السنة لكى نربط فيها الماضى بالحاضر والقديم بالمعاصر وإذا لم نُحْى نحن أعلامنا فمن ذا الذى يقوم بهذا الاحياء ؟ وهذا مثل من أمثلة ثمار "المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب" وله ثمار أخرى فى لجانه المختلفة .

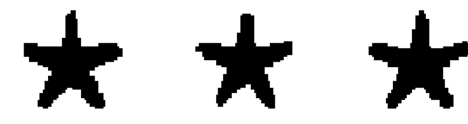
★ المجلس الأعلي للثقافة :

أريد أخيرا أن يحمل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب اسم "المجلس الأعلى للثقافة" . ولم يكن بد من أن أشترك فى هذه الهيئة الجديدة ، وهى وريثة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ولكنها حتى الآن لم تأخذ تماما بتقاليد المجلس السابق ، ولم تتابع السير على

نهجه ، حقا إن لكل شعبة من شعب هذا المجلس لجانا متخصصة ولكنها ـ مع الأسف ـ لاتعمل بالقدر الذى ننشده ، وحياة الهيئات العلمية إنما تتركز فى أعمال هذه اللجان ، ووظائف المجلس الأعلى للثقافة متعددة ومتنوعة ، وأهدافه هى أهداف المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ففيه شعبة للفنون ، ولها لجانها المختلفة ، وشعبة ثانية للغة والأدب ، وثالثة للعلوم الاجتماعية ويكاد ينحصر عمل المجلس الأعلى للثقافة الآن فيما يمنح من جوائز تشجيعية كانت أو تقديرية ، وليست فكرة الجوائز مستحدثة فى هذا المجلس فقد سبقه اليها "المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب" وكانت تعد مهمة لها شأنها إلى جانب رسالة المجلس الأصلية . وكم أود أن يستعيد المجلس الأعلى للثقافة تقاليد لجان البحث والترجمة والتأليف والنشر والتحقيق ، وبذلك تستطيع هذه الهيئات العامة أن تضطلع بما لايقوى الأفراد على أدائه ، وأخشى ما أخشاه أن يحول نقص الاعتمادات المالية دون أداء هذا المجلس لرسالته العلمية والثقافية ، وفيه رجال جديرون برفع راية العلم والمعرفة ، وتحقيق قيادة فكرية لها وز.نها

وكثيرا ما تحدثنا عن موسوعة عربية ، وشكلنا لذلك لجانا ، لكنا لم نضع الفكرة حتى الآن موضع التنفيذ الجاد ، وكان فى وسع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب متعاونا مع المجلس الأعلى للعلوم أن يرسم خطة هذه الموسوعة ، وأن يخطو فى سبيلها الخطوات الأولى ، ولايزال الأمر صادقا بالنسبة للمجلس الأعلى للثقافة وأكاديمية البحث العلمى ، وقد حاولت لجنة "الفلسفة والاجتماع وعلم النفس" أن تضرب فى هذا الميدان مثلا ، فاتجهت نحو إخراج "معجم اعلام الفكر

الانسانى " بصرف النظر عن أوطانهم وجنسياتهم ، وقد أُخرج من هذا المعجم جزؤه الأول ، وكنت حريصا على إخراجه لكى يمهد الطريق للأجزاء التالية ، ولست أدرى مامصيره اليوم . ومن حسن الحظ أننا عدنا أخيرا إلى فكرة الموسوعة العربية ، وعسانا نخطو فيها خطوات سريعة وإيجابية .



هذه هى هيئاتنا العلمية ، التى كانت لى بها صلة ، والتى اسهمت دون نزاع فى حياتنا الثقافية طوال القرن العشرين ، وانضمت إليها هيئة أخرى أكبر وأوسع وهى " المجالس القومية المتخصصة" كالمجلس الأعلى للانتاج ، والمجلس الأعلى للخدمات ، والمجلس الأعلى للتعليم ، والمجلس الأعلى للثقافة ، وهدفها جميعا أن ترسم الخطوط الكبرى لسياستنا الاقتصادية والتعليمية والثقافية ، وهى باختصار هيئات استشارية لرسم سياسة الدولة ، وجمعت هذه المجالس زمرةً من كبار القادة والمفكرين ، وفى وسع الأجهزة التنفيذية أن تفيد من بحثها ودرسها ، ولكن الصلة بين الطرفين لم تتضح بعد ، وما أجدرها أن توثق وتؤكد .

الفصــل العاشــر :

مجمع اللغة العربيــة

من أهم هيئاتنا الثقافية والعلمية ، وهو جدير بأن يُوقَف عليه فصل خاص ، وقد فُكر فيه منذ منتصف القرن الماضى ، وحاول الأستاذ الإمام محمد عبده فى أخريات ذلك القرن ان يُكَوِّن نواة أهلية لمجمع لغوى ، لاسيما وقد كان مؤمنا الايمان كله بأنه وسيلة مهمة من وسائل النهوض باللغة العربية ، ولم يقدر لهذه النواة أن تعمر طويلا ، ثم حاول لطفى السيد فى العقد الثانى من القرن العشرين أن يعيد فكرة هذه الهيئة الأهلية مرة أخرى ، وحرص على أن يكوِّنها من العرب والمصريين ، عقدت عدة اجتماعات فى دار الكتب التى كان مديرا لها ، ثم اعترضت الحرب العالمية الأولى سير العمل ، وأريد بعد انتهاء هذه الحرب إحياء الفكرة ، ولكنها بدورها لم تعمر طويلا . وكان لابد أن ننتظر إلى أول الثلاثينيات من هذا القرن لكى يصدر المرسوم الملكى بإنشاء هذا المجمع .

ولاشك فى أننا متأثرون فى كل هذا بفكرة "الأكاديمية الفرنسية" ولكنا اختلفنا عنها فيما يتعلق بتكوين هذه الهيئة ، فقد أردنا بها أن تقوم على أيدى علماء اللغة سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين ، فقام تكوينها على أساس موضوعى دون أن تطغى الا[illegible] السياسية والاقليمية على

هذا الأساس ، ويختلف مجمع القاهرة بهذا عن كل المجامع اللغوية التي انشئت قبله أو بعده . وجاء الرعيل الأول من هذا المجمع مكونا من عشرين عضوا . نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر من غير المصريين . وقسم النصف الأخير قسمة عادلة بين العرب والمستعمرين ، فكان فيه شيخ عراقى هو الاب "انستاس الكرملى" ، وشيخان سوريان هما عبد القادر المغربى ومحمد كرد على وشيخ لبنانى هو عيسى اسكندر المعلوف وخامس تونسى هو حسن حسنى عبد الوهاب . وكانوا جميعا فى مقدمة أعلام الأدب واللغة فى ذلك التاريخ . أما المستعمريون فكان منهم اثنان من ألمانيا وهما "ليتمان" و"فيشر" وثالث فرنسى هو "لويس ماسينيون" ورابع انجليزى هو "جيب" وخامس إيطالى هو "نللينو" ، وكم كنا موفقين فى هذا الاختيار لأن هؤلاء الخمسة كانوا أئمة الاستشراق فى النصف الأول من هذا القرن . وقد تعاونوا مع زملائهم العرب والمصريين فى رسم خطة العمل ، وَوَضْع لائحته الداخلية التى قامت أساسا على تكوين لجان متخصصة ، كلجنة الأصول ولجنة الأدب ، وتكونت على غرارهما لجان أخرى . وسار عمل هذا المجمع الناشىء فى هدوء طوال خمس سنوات ابتداء من عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٣٩ ، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فحرمت المصريين من زملائهم العرب والمستعمرين ، والأمر الذى دعا عام ١٩٤٠ إلى تغذية المجمع برعيل ثان قام على عشرة أعضاء مصريين دفعوا العمل المجمعى دفعة قوية ، فتوسعوا فى تكوين لجانه . وهنا بدأ على باشا ابراهيم ـ عضو المجمع ـ فى تكوين لجنة للمصطلح الطبى ، وحرص على أن يكون فيها تعاون وتبادل رأى بين المختصين من أطباء العرب جميعا ، واتجه المجمع على أيدى هذا الرعيل الثانى إلى

وضع حجر الأساس لمشروعين كان لهما شأنهما فى العمل المجمعى والنهوض اللغوى ، وهما "معجم ألفاظ القرآن الكريم" و"المعجم الوسيط" وسار العمل فى هذين المعجمين الى جانب أعمال أخرى لغوية وعلمية .

ومما يؤسف له أن باب النشر لم يكن مفتوحا أمام المجمع فى يسر ، فوقفت مجلته عند أعدادها الخمسة الأولى طوال الحرب العالمية الثانية ولعدة سنوات بعدها ، وتوقفت تبعا لها محاضر جلساته ، ولايزال المجمع يعانى من مشكلة الطبع والنشر هذه حتى اليوم ، ذلك لأنه لم يُقدر له أن تكون له مطبعته الخاصة ، الأمر الذى فكر فيه طه حسين ولكنه لم يوضع مع الأسف موضع التنفيذ . وفى ربع القرن الأخير نشطت حركة النشر المجمعى ، فتوالى إخراج مجلته بحيث وصلْنا فيها ألى مايزيد على العدد الرابع والخمسين ، وكان ينبغى أن يصعد العدد إلى أكثر من ذلك بعد أن أتُّفق على أن يصدر منها عددان كل عام ، والطاقة الطباعية فى مصر فى حاجة إلي مدد وعون كبيرين .

وانتهى الأمر إلى أن استعان بثلاث هيئات للنشر هى "المطبعة الاميرية" و"دار المعارف" و"الهيئة المصرية العامة للكتاب" وأصبحت مطبوعاته تكون مكتبة متعددة الألوان ، فيها أدب ولغة ، وفيها إحياء لتراث قديم ، وفيها إخراج بعبء لمعجمات لغوية وعلمية . ويكفى أن نشير فى باب إحياء التراث إلى أن المجمع حرص على أن يضطلع بالمعجمات اللغوية ، فأخرج منها كتاب "الجيم" للشيبانى وكتاب "الأدب" للفارابى وكتاب "التكملة والذيل والصلة" للصاغانى و«الأفعال» للسرقسطى ، وكلها كتب لغوية مطلوبة

فى الخارج بدرجة أقوى وأشد من طلبها فى الداخل . ومن المعجمات اللغوية أخرج المجمع معجمه الوسيط الذى ظهر لأول مرة عام واحد وستين ، وأعيد طبعه حتى الآن للمرة الثانية ، وكل ذلك إلى جانب طبعات غير شرعية تظهر فى لبنان عاما بعد عام . وأخرج جزئين من معجمه الكبير ، كما أخرج معجما وجيزا لمرحلة التعليم العام ، وتعددت معجماته العلمية فى الفلسفة والجغرافيا والفيزيقا النووية والفيزيقا العامة والكيمياء والصيدلة .

وأمر آخر يعنينى أن أنوه به ، وهو أن المجمع فى لجانه ومجلسه عول دائما على كبار المختصين من الخبراء الذين كان لهم شأن كبير فى نشاطه وانتاجه ، فهم الذين يربطونه بالحياة العلمية والثقافية الحاضرة ، وهم الذين يغذونه باللغة العلمية والفنية ، وهنا أحب أن أشير إلى أن المجمع فى معالجته للغة العلم لم يقف عند المصطلحات التقليدية قديمة كانت أو حديثة بل عرض لبعض مظاهر النشاط الفنى فى المسرح والسينما ، بل والنشاط الرياضى أيضا ، فعالج مصطلحات الموسيقى ومصطلحات كرة القدم ، وبرهن على أنه يعيش فى عصره ويواجه متطلباته ، وإذا كان بعض الألفاظ الأجنبية قد وجدت سبيلا إلى لغة الحديث ، فان فى إحياء اللفظ العربى وتيسيره على العلميين والفنيين ما يكوِّن لغة جديدة عربية سهلة . ولم يقفل المجمع الباب على شىء من التعريب ، ولكنه رسم لذلك حدودا وقيودا معينة .

وللمجمع نشاط آخر حاوله من قديم ، لكى يحبب الشباب والناشئة فى العربية كتابةً وانشاءً وحديثاً ، بدأ منذ أربعين عاما فى وضع جائزة متواضعة لشباب الناشئين ترجمة أو

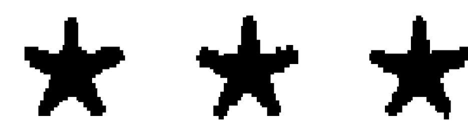
تأليفا ، وعرض موضوعاتٍ للبحث ولم يقف بها عند المصريين بل فتح الباب للعرب جميعا . وإذا كانت ميزانيته لم تسمح بمبالغ كبيرة ، فانها قد وصلت حتى الآن إلى ثلاثة آلاف جنيه للجائزة الأدبية ولاشك أن من أحرزوا هذه الجائزة يوم أن كانت متواضعة ، كانوا سعداء بها كل السعادة وهنا أحب أن أنوه بقصاصنا الأول نجيب محفوظ الذى كنت سعيدا بأن اقترح إجازته منذ أربعين سنة تقريبا . وعلى غرار الجوائز الأدبية قَررت جائزة أخرى لاحياء التراث ، وهى بدورها متواضعة ومقصورة على شباب الباحثين والدارسين ، ومن يدرى فقد يجىء يوم يستطيع المجمع فيه أن يمنح جائزة على غرار بعض الجوائز العالمية .

أما صلة المجمع بالهيئات الأدبية واللغوية والعلمية فى العالم العربى وخارجه فوثيقة ، وتتأكد عاما بعد عام . ويكفى أن أشير إلى أن فيه عشرين كرسيا لعشرين عضوا من غير المصريين ، ويشترك هؤلاء فى مؤتمره السنوى كل عام . وقد وفق أخيرا إلى أن يكوِّن اتحادا للمجامع اللغوية والعلمية العربية مقره فى القاهرة ، وهذا الاتحاد همزة وصل بين الأدباء واللغويين فى العالم العربى جميعه . وللمجمع مع هذا صلات بهيئات علمية فى أوربا وأمريكا وآسيا فضلا عن صلاته بأفريقيا واستراليا ، ويسعده أن يهدى مطبوعاته الى الهيئات العلمية التى يرجى أن تفيد منها ، ويتبادل مطبوعاته مع كثير من هذه الهيئات .

ولايفوتنى أن أشير إلى أن سر نجاح العمل المجمعى وتواصل انتاجه عاما بعد عام يرجع بخاصة الى لجانه التى

نمت على مر الزمن ، وأصبحت نحو عشرين لجنة أو يزيد وهى موزعة على أبواب الثقافة المختلفة الى جانب عنايتها بأصول اللغة ومعجماتها ، ففيها لجان للدراسات الانسانية كالتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والقانون ولجان أخرى للعلوم الطبيعية كالفيزيقا والكيمياء والصيدلة والجيولوجيا والأحياء ، وقد أشرت من قبل إلى لجنة الطب التى كانت من أقدم اللجان العلمية تكوينا وإلى جانبها لجان فى الرياضيات من حساب وهندسة وفلك .

وهذا إلى أن مظاهر الحياة الحضارية من أثاث وفراش وزى وملبس ومسرح وسينما قامت على أمرها لجنة ألفاظ الحضارة ، وفى عطاء هذه اللجان مايغذى المجمع بانتظام فى جلساته الأسبوعية التى تعقد طوال ثمانية أشهر من العام ، أما اللجان اللغوية فهى تعمل فى صمت ودقة وطول نَفَس ، ومنها لجان وقفت نفسها على المعجمات من وجيز ووسيط وكبير ، وأخرى عنيت بأصول اللغة وقواعدها ، وتيسير كتابتها ، ولهجاتها ، ومايستجد فيها من ألفاظ وأساليب .



قدر لى أن أحظى بعضوية المجمع مع الرعيل الثالث عام ١٩٤٦ ، وكان مكونا من عشرة أعضاء سماهم أحمد أمين فى استقبالهم "العشرة الطيبة" وقد خوطبت فى أمر هذه العضوية قبل صدور قرارها ، ولاحظت أنها مبكرة بعض الشىء بالنسبة لى ، ولكن أبى كرام الخالدين الا أن يضمونى إلى صفوفهم فى وقت كانت الحياة النيابية فى مجلس الشيوخ تشغلنى كثيرا ، واستطعت بعد عام ١٩٥٢ أن أؤدى الضريبة التى قصرت بعض الشىء فى أدائها طوال ست سنوات ، وكم

أسعدنى أن أشترك فى بعض اللجان المختصة ، كلجنة الفلسفة ، ولجنة المعجم الكبير ، الذى أسهمت مع طه حسين فى رسم منهجه ووضع الخطوط الأولى لبدء العمل فيه ، وأفدت كثيرا من زملاء كرام عشت معهم ، وعاشوا معى طوال أربعين سنة أو يزيد ، وأسعدنى خاصة أنا انتهينا إلى انشاء دار خاصة لمجمعنا بعد أن كان من الرحالة الذين ينتقلون من نجع إلى آخر ، وحبل العمل فى خدمة اللغة طويل وعُدّته الأولى متخصصون منذ النشأة من الشباب والكهول والشيوخ ، وهذه ناحية آمل أن يستعيد فيها تعليمنا العام والعالى نشاطه القديم ، بحيث يستطيع المجمع أن يجد فى يسر من يُعَوِّل عليه من خبراء ومحررين .

الفصـــل الحادى عشــر :

تراثنا الفلسفى الاسلامى

ثمرة من ثمار الحياة الفكرية والثقافية فى العالم الاسلامى ، وقد بدأت هذه الحياة منذ الدعوة الاسلامية فى القرن الأول للهجرة (السابع الميلادى) ، ونمت وازدهرت على مر الزمن ، وبلغت أوجها فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . وتفتحت على الثقافات العالمية الكبرى كاليونانية واللاتينية والهندية والفارسية ، فأخذت وأعطت . وعالجت أبواب المعرفة المختلفة من أدب ولغة وفقه وتشريع وتوحيد وأصول وتاريخ وسياسة . وضمت إلى العلوم الانسانية الطبيعيات والرياضيات .

واستطاع إبن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى أن يسجل فى مقدمته المشهورة صورة كاملة لهذه الحياة وبقيت هذه المقدمة سندا مهما للباحثين عن الحياة الثقافية فى الاسلام الى اليوم ، ثم جاء أحمد أمين أخيرا فى سلسلة كتبه المتعاقبة من "فجر الاسلام" الى "ضحاه و"ظهره" فأخرج صورة أخرى حية عن هذه الحياة يحس قارئها كأنه يعيش فيها .

وتراث هذه الحياة غزير ومتنوع وموزع بين أركان الدنيا

الأربعة ، كُتب بالعربية والفارسية والأردية والتركية ، وتسابق عليه الهواة فى أوربا وأمريكا فحصلوا على قدر منه ، واستودعوه خزائنهم ومكتباتهم . جاء كله مخطوطا ولم تجد المطبعة سبيلها اليه الا فى أخريات القرن الثامن عشر . وان كانت أوربا قد سبق لها أن طبعت بعض نصوصه العربية ككتاب "القانون" لابن سينا مثلا على أثر ظهور فن الطباعة الحديثة ، ويعنينا منه التراث الفلسفى وهو بدوره غزير ومتنوع ، لايقف عند المدرسة المشائية وحدها بل يجاوزها إلى مدارس عنيت بالفكر وقضايا الفلسفة الكبرى وهى مشكلة الألوهية ومشكلة العالم ومشكلة الانسان .

وقد وجه الاسلام النظر الى هذه المشاكل على اختلافها ، فدعا إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض والبحث عن أسرار الكون وعرض للانسان فى نشأته وسلوكه وبين حقوقه وواجباته ، وتوسعت فى هذا هيئات ومدارس مختلفة يمكن أن ترد إلى جماعة المترجمين ، والفرق الكلامية كالمعتزلة وجماعة المتصوفة والمدرسة المشائية وسنعرض لكل واحدة منها تباعا .

● حركة الترجمة فى الاسلام :

بدأت هذه الحركة فى أخريات القرن الأول للهجرة وعلى أيدى بعض خلفاء الدولة الأموية ولكنها نشطت وأتسع مجالها فى صدر الدولة العباسية وقد عُمِّرت نحو ثلاثة قرون ، وعرضت للثقافات القديمة على اختلافها فنقلت عن الفارسية والهندية ، كما نقلت عن السريانية والعبرية وعن اليونانية واللاتينية ، وبعث المسلمون بعوثا الى المشرق والمغرب سعيا

وراء أصول تلك الثقافات الأجنبية ، واضطلع بالترجمة رجال وقفوا أنفسهم عليها ، وأفسح الخلفاء العباسيون لهم الصدر فعاش المسيحيون إلى جانب المسلمين محاولين ترجمة ماينبغي ترجمته من نصوص وأصول قديمة ، وكان لجماعة النساطرة واليعاقبة والحرانيين شأن فى هذه الحركة النشيطة .

ومدرسة حنين ابن اسحاق تعد العنوان الأول لهذه الحركة وقد اتخذت من دار الحكمة التى أسسها الرشيد مقرا لها ، وكوّنت جيلا من المترجمين كاسحاق بن حنين وحبيش ابن الأعصم وإلى جانب هذه المدرسة يجىء بنو بختيشره الذين ضموا إلى المجد السياسى مجدا ثقافيا وعلميا ، أما الحرانيون فيمثلهم بخاصة ثابت بن قره وبنوه .

اشتغل هؤلاء جميعا بالكتب العلمية والفلسفية ، فترجموا لأفلاطون بعض محاوراته "كالجمهورية" و"طيماوس" و"دفاع سقراط" وترجموا لأرسطو كتبه المنطقية والطبيعية والميتافيزيقية واحتفظ لنا الزمن بترجمة كتبه المنطقية فى مخطوط سمى "الدستور" وحرصت عليه المكتبة الأهلية بباريس ونشر فى مصر أخيرا ، ولتلاميذ أرسطو وأتباعه مؤلفات متلاحقة من مشائى أثينا كالاسكندر الافروديزى أو مشائى الاسكندرية مثل فورفوريوس ، ثاميسطيوس ويحيى النحوى .

ولم يقف مترجمو الاسلام عند الترجمة وحدها بل كانت لهم مؤلفات فلسفية وعلمية تعد الحجر الأساسى فى النهضة الاسلامية . وقد عثرنا على بعض هذه المخلفات وربما هدانا البحث الى مؤلفات أخرى لها شأنها .

وحركة الترجمة فى الاسلام مَثَلٌ حَىٌّ لانجد له النظير فى تاريخ الثقافات القديمة على اختلافها ، عنى به بعض المستشرقين ولم ينل بعد مايستحق من عناية ، وصلته بالنهضة العلمية الاسلامية لاتقل عن صلته بالبحوث الفلسفية .

● المعتــــزلــة :

يمثلون دون نزاع المدرسة العقلانية الأولى فى الاسلام ، أفسحوا المجال للعقل وحكمُّوه فيما عرضوا له من مشكلات وأخذوا به فى قدر غير قليل مما انتهوا اليه من آراء ونظريات ، وقد سموا بحق المفكرين الأحرار .

نشأت جماعتهم في أوائل القرن الثانى للهجرة وعُمِّرت أربعة قرون ، ثم تلاشت أو كادت ، ولم يبق لها ذكر الا عند معارضيها من الاشاعرة والماتوريدية ، أو بعض لمحات لدى زيدية اليمن . وكانت نشأتهم بالبصرة ، حيث تتلمذ شيخهم واصل بن عطاء (١٣٠هـ) لأبى الحسن البصرى (١١٠هـ) ، وان كان قد اعتزل عنه آخر الأمر . وعاصره عمرو بن عبيد الذى يعد معه من مؤسسى هذه الجماعة ، وتلاحق مفكرون بصريون آخرون على رأسهم أبو الهزيل العلاف (٢٢٨هـ) الذى يعد المؤسس الحقيقى لهذه الجماعة ، عُمِّر طويلا وبحث وجاور وانضم اليه "النظام" (٢٣١هـ) الذى لم يقل عنه ابداعا وابتكارا ، ومن بين معتزلة البصرة نشير أيضا إلى أبى على الجبائى (٣٠٣هـ) وابنه ابى هاشم (٣٢٠هـ) الذى قضى المرحلة الأخيرة من حياته فى بغداد ، وينضم إلى هؤلاء الجاحظ (٢٥٥هـ) وبشر بن المعتمر (٢٢٦هـ) الذى

أسس فرع المعتزلة فى بغداد ونكتفى بذكر علمين من أعلام الفرع هما أبو الحسين الخياط (٣١٨هـ) والقاضى عبد الجبار (٤١٤هـ) .

ودرجنا على أن نسمى هؤلاء جميعا متكملين ، وعلم الكلام ينصب أساسا على العقيدة الاسلامية ، والبحث فى العقائد ضرب من الدراسات الميتافيزيقية واسهام فى ميدان الالٰهيات لايمكن أن ننكر طابعه الفلسفى ، على أن جماعة المعتزلة لم يقفوا عند البارىء وصفاته بل عرضوا للوجود والخلق وحاولوا مثلا أن يفسروهما فى ضوء نظرية الجوهر الفرد ، وألمحو الى أفكار لم تخل من طرافة كالتولد والطفرة . ولم يَفُتْهم الانسان فعنوا بحرية الارادة ووقفوا عند الثواب والعقاب والخير والشر والقضاء والقدر وكل تلك قضايا تَمُتُّ إلى الفلسفة بنسب .

أما تراثهم فقد كان غزيرا ويحكِى مؤرخوهم وأصحاب التراجم شيئا كثيرا عن انتاجهم ، فعدوا بعضه بمئات الورقات وبعضه الآخر بالآلاف . وقفوا كتبا خاصة على مشاكل بعينها ، وكان ابن النديم من أول من وجه النظر إلى هذا الانتاج الغزير فى كتابه "الفهرست" وتابعه من جاءوا بعده كابن خلكان صاحب كتاب "وفَيات الأعيان" وباستثناء ثلاثة منهم هم بالتحديد الجاحظ وأبو الحسن الخياط والقاضى عبد الجبار . نلاحظ أن هذا التراث العظيم لم يصلنا منه شىء يذكر .

وربما كان للخصومة المذهبية شأن فى ذلك ، على أن خصومهم لم يترددوا فى أن يسجلوا آراءهم فى أمانة ونزاهة

نلحظها بخاصة لدى الأشعرى فى "مقالات الاسلاميين" ولدى الشهرستانى في "الملل والنحل" .

ومما يلفت النظر أن واصل بن عطاء وله عدة مؤلفات لم يصلنا منه الا خطبته المشهورة التى اسْتَبْعَدَ فيها حرف الراء ، فاحتُفظ بأدبه وأغفلت دراساته الأخرى .

وبذلت جهود منذ أخريات القرن الماضى وفى النصف الأول من هذا القرن للبحث عن هذا التراث الزاخر ، ولم نهتد إلا لكتاب "الانتصار" للخياط الذى ظهر فى مصر وكتاب "المغنى" للقاضى عبد الجبار وهو يمثل متأخرى المعتزلة بوجه خاص .

وبعثت مصر إلي اليمن بعوثا خاصة للبحث عن هذا التراث ولم تهتد إلا إلى "المغنى" الذى لم يصلنا منه إلا أصول منقوصة وغير واضحة أحيانا ، ومع هذا لم نتردد فى نشره آملين أن يوجه ذلك نظر عشاق الكتب القديمة وجُمَّاعها الى امدادنا ببقية هذا الكتاب أو بمراجع معتزلية أخرى . ولانزال نأمل الكشف عن جديد فى هذا الميدان .

● الأشاعرة :

سبق لنا أن لاحظنا أنه حدث فى فجر القرن الثانى للهجرة اختلاف وجهتى نظر بين أستاذ وتلميذه نشأت عنه جماعة المعتزلة ، ذلك أن الأستاذ الحسن البصرى السلفى الكبير كان يُعوِّل أساسا على المنقول فى حين أن تلميذه واصل بن عطاء بدأ يفسح المجال للمعقول . وأصبح التعويل على العقل

شارة حركة الاعتزال باطراد ، ويأبى التاريخ إلا أن يعيد نفسه ، فنلحظ في فجر القرن الرابع للهجرة اختلافا آخر بين أستاذ وتلميذه على صورة عكسية ترتب عليها قيام المذهب الأشعرى ، ذلك أن أبا الحسن الأشعرى تتلمذ نحو أربعين عاما لأبى على الجبائى إمام المعتزلة فى عصره الى جانب ابنه ابى هاشم ، وأخذ عنه الاعتزال وتعمق فيه ولكنه عدل عنه أخيرا إلى السماع والنقل ورفض قضايا المعتزلة الكبرى حول العدل والتوحيد ، وشارة الاشاعرة الأساسية هى البحث عن السماع والنقل من كتاب أو سنة أو اثر محفوظ وطبقوا ذلك على دراستهم الكلامية طوال سبعة قرون .

وأصبح مذهب الأشاعرة هو مذهب أهل السنة والجماعة . قال به الأشعرى أولا ووضع دعائمه المختلفة ثم أيده من بعده اتباعه على التوالى وفى مقدمتهم أبو بكر الباقلانى (٤٠٣ هـ) وعبد القاهر البغدادى (٤٢٩ هـ) وامام الحرمين (٤٧٨ هـ) وتوالى بعدهم متكلمون آخرون لايسلمون إلا بالنظرية الأشعرية بعد ما أدخل عليها من تمحيص وتعديل أمثال النسفى (٥٠٨ هـ) وابراهيم اللاقانى (١٠٤٠ هـ) واحمد الدردير (١١٩٠ هـ) والباجورى (١١٩٨ هـ) بين المعاصرين .

ويؤمن الأشاعرة بوجود صفات للبارىء متميزة عن الذات ويحاولون رد الأفعال كلها إلى الله ولم يتركوا للعبد إلا ماسموه الكسب وهو ربط صورى لايصلح دعامة كاملة للحساب والمسئولية .

وحرصوا دائما على أن يستشهدوا بأدلة سمعية من كتاب

أو سنة ، وقد استن لهم الأشعري نفسه هذه السنة وبذلوا جهدا كبيرا في معارضة خصومهم من معتزلة وغيرهم ، ولهم في ذلك ردود ومناقضات كبيرة بدأها الاشعرى برده على أستاذه أبي على الجبائي ، وكأنما تجاهل الحركة الفلسفية المعاصرة له فلم يقف عند الكندي والفارابي برغم معاصرته لهما ، ويظهر أنه وقف على بعض آراء أرسطو ومؤلفاته وحاول الرد عليها ولكنه لم يُعن بها عنايته بآراء المعتزلة وحاول ثلاثة من كبار الأشاعرة أن يتداركوا هذا النقص وفي مقدمتهم الغزالي الذي وضع كتابه "تهافت الفلاسفة" ناقضا للقدامى منهم والمعاصرين ، وعني بنقض الفارابي وابن سينا بوجه خاص ، فأكمل حلقة فاتت الأشاعرة السابقين وهو على سعة آفاقه ونظرته العقلية الفسيحة يعد سندا كبيرا للمذهب الأشعري ، ويليه في هذا الشهرستاني الذي يمكن أن يعد فيلسوفا بقدر ما هو محسوب بين أئمة الأشاعرة ، وثالثهم فخر الدين الرازي الذي أفسح المجال للفلسفة في البحوث الكلامية .

وباختصار يمكن أن يُقال إن البحث النظرى والدراسات الكلامية الاسلامية كلها بعد القرن السادس للهجرة دارت حول ما قال به الأشاعرة الأول دون إضافة تذكر ، اللهم الا يوم أن جاء الإمام محمد عبده (١٣٢٢ هـ) في أخريات القرن الماضي ووضع "رسالة التوحيد" ، التي صبغت بصبغة عقلية واضحة وصوَّر الدراسات الكلامية بصورة جديدة .

وشيوخ الأشاعرة غزيرو الانتاج وفي مقدمتهم إمامهم أبو الحسن (٣٣٠ هـ) وسار أتباعه من بعده على نهجه فعرضوا للمشاكل الكلامية على اختلافها . كتبوا عنها جملة أو وقفوا

عند بعض قضاياها وقفة خاصة ، واحتفظ لنا الزمن بقدر كبير من تراثهم . ولاتزال المكتبات العربية والأسلامية تحتفظ بقسط وافر من مؤلفات لها وزنها نذكر من بينها "مقالات الإسلاميين" و"اللمع" للأشعرى وكتاب "التمهيد" للباقلانى و"الفرق بين الفرق" للبغدادى و"الارشاد" للجوينى و"الملل والنحل" و"نهاية الإقدام فى علم الكلام" للشهرستانى ، وربما قست حملتهم على خصومهم فرموهم بالكفر أو الزندقة ووضعوا كتبا فى فضائح المعتزلة والباطنية ، ولايفوتنا أن ننوه بأن الدرس الأزهرى أعان كثيرا على نشر المذهب الأشعرى وتأييده ، ويكفى أن نذكر "جوهرة التوحيد" للاقانى" أو "الخليدة" للدردير وهما مؤلفان مقصوران على المشاكل الكلامية بلغة الشعر التى يسهل حفظها والتى تفسح المجال لشرح وتعليق عليها . وبقيت هاتان القصيدتان دعامتين للبحث الكلامى فى القرنين الأخيرين .

ولاشك فى أن ماوصلنا من تراث الأشاعرة أغزر بكثير مما إهتدينا إليه من مؤلفات المعتزلة ومع هذا لايزال فى التراث الأشعرى بقايا ينبغى البحث عنها .

● المتصوفة :

تخاطب رسالة السماء القلب والعقل معا ، وتدعو إلى تطهير النفس والبدن ، وفى الكتاب والسنة دعامة قوية لنزعة صوفية قامت فى البدء على النسك والزهادة ، ثم جاوزتهما فى مرحلة تالية الى دراسة أحوال النفس ووجداناتها ، وانتهت بعد ذلك كله الى فلسفة لاتسلم إلا بوجود البارىء جل شأنه وترد إليه وحده كل ما فى الكون من عندا ـــ ومخلوقات .

فمر التصوف الاسلامى فى مراحل ثلاثة نلخصها فيما يلى :

قامت المرحلة الأولى على الزهد والتخلص من ملذات الحياة . فيهجر المرء الدنيا ، ويتجه نحو الآخرة ، ويستمسك بالطاعات والقربات ، وقضى متصوفوا الاسلام على هذا النحو قرنين ، وزُهّاد الصدر الأول كثيرون ، نذكر من بينهم الحسن البصرى (١١٠ هـ) على رأس زهاد البصرة ، وابراهيم بن أدهم (١٥٩ هـ) على رأس زهاد بلخ ، ورابعة العدوية (١٨٥ هـ) على رأس زاهدات النساء ، وحاول هؤلاء العُبّاد أن يتزيوا بزى خاص ، فلبسوا الصوف ، وأتخذوا للعبادة أماكن منعزلة عن الناس ، على غرار الأديرة والصوامع ، ولايكاد يخرج التصوف فى هذه المرحلة عن ضرب من السلوك والقدوة العملية ، التى ترمى الى طهارة الروح والجسد . فهولايعنى كثيرا بدرس أو بحث ، ولايحاول وضع نظرية ولانشر فكرة .

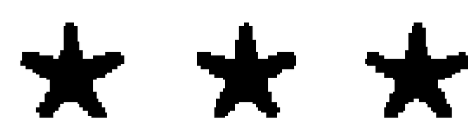
ثم أخذ المتصوفة فى مرحلة تالية يدرسون ويبحثون ، فاتجهوا أولا نحو النفس يكشفون عن أسرارها ، ويبينون أحوالها ومقاماتها ، فتحدثوا عن العشق والشوق ، والخوف والرجاء ، والحب والوَجْد ، والغيبة والحضور ، والفناء والبقاء ، وتعلقوا بالحب الإلهى أيما تعلق وعالجوا أشياء شبيهة بالدراسات السيكلوجية ، وظهرت ثمار ذلك فى القرن الثالث الهجرى على أيدى المحاسبى (٢٤٢ هـ) وذى النون المصرى (٢٤٤ هـ) وانضم اليهما أبو اليزيد البسطامى (٢٦٠ هـ) الذى عنى بحال الفناء وهى أسمى مرتبة يصل إليها المريد ، فتنكشف له الحُجُب ، ويسمو الى مرتبة الفيض والالهام ، ووضع بذلك دعائم نظرية الاتحاد التى تعد قمة التصوف الاسلامى وغاية الوصول الى الله .

وقد قام على هذه النظرية رجلان ، شُغلا بها ولما ينقض القرن الثالث الهجرى وهما الجنيد والحلاج ، فيذهب الجنيد (٢٩٨ هـ) إلى أن المتصوف قد يصل إلى درجة يتحد فيها بخالقه وتفنى شخصيته فى الذات الالٰهية . فيصعد الى عالم النور ، وتتكشف أمامه المغيبات ويخيل الى جلسائه أنه حاضر وهو غائب ، وأنه قريب وهو بعيد ، وغالى الحلاج (٣٠٩ هـ) فى هذه النظرية واتخذ من نفسه وسيلة لاثباتها . فنادى بحلول اللاهوت فى الناسوت ، وزعم أن الولى أصبح الدليل الحى على الله ، بحيث يصبح "هو هو" وانتهى به الأمر أن قال : "أنا الحق" ، تلك القولة التى أدت إلى سجنه وأودت بحياته ، وباختصار يمثل القرن الثالث والرابع الهجريان العصر الذهبى للتصوف الاسلامى .

وفى إثارة هذه المسائل الدقيقة مازاد الصوفية عناية بالابحاث العقلية ، وماوجههم لأن يكوِّنوا فلسفة خاصة بهم ، وظهر بينهم فى الدور الثالث رجال أشبه ما يكونون بالفلاسفة ، وعلى رأسهم السُّهْرَوَرْدِى المقتول (٥٨٦ هـ) ومحيى الدين بن عربى (٦٣٧ هـ) صاحب مذهب وحدة الوجود ، وابن سبعين (٦٦٨ هـ) القائل بالوحدة المطلقة . وتابعهم جماعة من شعراء الفرس ، أمثال فريد الدين العطار (٦٢٧ هـ) وجلال الدين الرومى (٦٧١ هـ) وكلهم يرمى الى أن يقيم التصوف على دعائم فلسفية ، فكانت لهم نظريات فى الوجود والمعرفة تقترب كل القرب من نظريات الفلاسفة ، واختلط التصوف بالفلسفة اختلاطا كبيرا ففى القرنين السادس والسابع اكتمل التصوف الفلسفى .

لم يكن القول بالاتحاد الذى ذهب اليه الجنيد ليُرْضِى أهل السنة ، لأنه يؤدى الى الاشتراك فى ذات البارىء جل شأنه ، ولم يرضهم أيضا القول "بالحلول" الذى نادى به الحلاج لأنه يلحق المكانية والجسمية به تعالى ، وقد أشار الأشعرى إلى هذه الآراء الغريبة ، ولم يتردد الأشاعرة فى رفض الاتحاد والحلول معا ولم يقبلوا من التصوف إلا ما اتصل بالزهد والتنسك ورياضة النفس ، وعلى رأسهم أشعرى صوفى كبير هو القشيرى (٤٣٧ هـ) وأيدهم الغزالى فى ذلك كل التأييد ، وبخاصة فى كتابيه "الإحياء" ، و"المنقذ من الضلال" ، فلم ينكر التصوف فى أساسه بل قرر أن هناك عالمين : عالم الظاهر ، وعالم الباطن . واذا كانت الحواس وسيلة ادراك الأول ، فان الفيض والالهام وسيلة إدراك الثانى ، غير أن هذا الفيض لايتم عن طريق اتحادٍ أو حلولٍ وانما هو ضرب من الكشف والمشاهدة ، ولون من المعرفة الذوقية ، يحدث فى حال النوم أو اليقظة لكل مِن أعرضوا عن الدنيا ، وتحلَّوْا بأسمى الفضائل ، وقد انقسم المتصوفة تبعا لهذا قسمين : معتدلين متطرفين ، سُنِّيين ومبتدعين ، فتصوُّف الحلاج ومَن جاراه يجاوز دائرة الكتاب والسنة ، فى حين أن تصوف القشيرى والغزالى يتفق مع تعاليم الدين . وكأنما قُدر لأهل السنة من النجاح فى ميدان التصوف ماقدر لهم فى ميدان علم الكلام ، وما إن بدأ القرن السادس الهجرى حتى أخذ التصوف السنى يعدو على التصوف الفلسفي ؛ وظهر فى هذا القرن علمان من أعلام التصوف السنى قدر لطريقتيهما نجاح كبير فيما بعد ، وهما عبد القادر الجيلانى (٥٦٢ هـ) وأحمد الرفاعى (٥٧٨ هـ) ، ولم يقف أثر الغزالى عند القرن السادس ، بل امتد الى القرون التالية ، واستمر التصوف

السني يغالب شعبة الصوفية الفلاسفة حتى غلبها ، وأصبحت له السيادة فى أوائل القرن الثامن . ويتفق الصوفية المتأخرون مع الغزالي فى أن التصوف قبل كل شيء دراسة للسلوك ورسم للسيرة الفاضلة ، فلا حاجة به الى نظريات فلسفية دقيقة ولا الى أبحاث نفسية عميقة ، وكل مايعتمد عليه انما هو الطاعة والتقرب إلى الله ، والزهد والإعراض عن الدنيا . وقد يصل الطائع بعبادته الى مالا يصل اليه العالم بعلمه من رضا الله ومحبته ، ولم يكن غريبا أن نرى فى القرون الأخيرة أميين يشرفون على الطريق ويتولون قيادة الاتباع والمريدين ، وفي وسعهم ان يصلوا إلى العلم اللَّدُنّى ، واتجهت عنايتهم إلى الأوْراد يلقوننها وحلقات الذكر يديرونها ، وتعددت طرائقهم فرأينا بينها الشاذلية والنقشبندية إلى جانب القادرية والرفاعية ، واتخذت كل واحدة شعارا يميزها عن الطرق الأخرى ، وكان فى أحاديث كرامتهم الذائعة ماحبب الخاصة فيهم ، ودفع العامة إلى الالتفاف حولهم . وعلى الجملة عاد التصوف فى هذا الدور الأخير الى الصورة التى بدأ بها ، فى شيء من المبالغة والاعتداد بالمظاهر والشكليات ، وولوع بالتحزب والطائفية ، وقلَّ أن نجد فيه بحثا يجاوز آداب السلوك ومكارم الأخلاق ، ويخرج عن سرد بعض القصص والآثار ، هذا إلى جانب شروح وتعليقات على مصنفات المتصوفة السابقين ، كما صنع القاشانى (٧٣٨ هـ) والشعرانى (٩٧٢ هـ) فى شرحهما لابن عربى ، وكان لابد أن ننتظر الى أوائل القرن العشرين لنرى فلسفة صوفية واعية ومجددة على يَدَىْ محمد إقبال (١٩٣٨م) .



وللمتصوفة كالجماعات الأخرى تراث غزير ومتنوع ، وقد

احتفظ التاريخ بمعظمه وتداوله الدارسون والباحثون ، وعنى به المستشرقون حديثا عناية ملحوظة ، ولم يكن جانبه الفلسفى أقل حظا من الجوانب الأخرى ، فدُرس السهروردى ونشرت بعض مؤلفاته كما درس ابن سبعين على أيد مختلفة .

أما ابن عربى فهو بخاصة الشغل الشاغل لمن عالجوا تاريخ التصوف الاسلامى ، مادته غزيرة وكتبه متعددة ، ولاتزال محل تقدير فى البيئات الاسلامية المختلفة وبخاصة فى آسيا .

● المدرسة المشائية :

هى الممثل الأول للفكر الفلسفى الاسلامى ، بدأت فى القرن الثالث للهجرة فى جو حركة الترجمة النشيطة الشاملة التى وضعت أمام الباحث العربى صورا عن الفكر الفلسفى اليونانى لدى السابقين لسقراط ، ولدى سقراط نفسه وأفلاطون وأرسطو ، وألَمَّت بشىء عن الرواقية وعنيت بمدرسة الأسكندرية فكوّنت من ذلك كله مددا لمفكرى القرن الثالث من فلاسفة ومتكلمين ، ويُعد الكندى (٢٥٢ هـ) وهو الفيلسوف الاسلامى الأول واحدا ممن عُنوا بالترجمة ، ويُظَنُّ أنه ألمَّ باللغة السريانية أو اليونانية إلى جانب العربية ، ونُرَجِّحُ أن مهمته اقتصرت على مراجعة بعض النصوص العربية التى نُقلت عن اليونانية أو السريانية . ومن بين المترجمين من كانت له ميول فلسفية واضحة كإسحق بن حنين أو يحيى بن عديً .

وأسهم نشاط آخر له شأنه فى قيام المدرسة الفلسفية

الاسلامية ، وأعنى به نشاط جماعة المعتزلة ، لقد بلغ هذا النشاط أوجه فى القرن الثالث الهجرى واثيرت فيه قضايا ومشاكل حول العالم ووجوده وحول البارىء وصفاته وحول الانسان في قيمه وسلوكه ، وكل تلك أمور تربط الفكر المعتزلى بالفكر الفلسفي ، وكان الكندى نفسه همزة وصل بين الطرفين وفي وسعنا أن نعده متكلما بقدر ما نعده فيلسوفا ، وفى القدر الضئيل من رسائله التى وصلت الينا مايشهد على ذلك ، وسار البحث الفلسفي في طريقه طوال أربعة قرون ، فأيده فى المشرق فيلسوفان كبيران هما الفارابى (٣٣٨ هـ) وابن سينا (٤٢٨ هـ) ثم انتقل هذا البحث الى الأندلس وقادَهُ مفكرون ثلاثة هم ابن باجه (٥٣٤ هـ) وابن طفيل (٥٨٠ هـ) وابن رشد (٥٩٣ هـ) .

وسبق لنا أن أشرنا الى أن هذا البحث الفلسفي ، قد امتد صداه الى بعض الفرق والمدارس الاسلامية الأخرى كجماعة الأشاعرة والمتصوفة ، وبين هؤلاء مَن أسهم فى الحركة الفلسفية الاسلامية إسهاما واضحا ، ولايفوتنا أن نشير إلى جماعة الشيعة الذين لم يقف بحثهم عند الخلافة وشروطها والدفاع عن عليٍّ وأبنائه ، بل توسعوا فى بحثهم وانتهوا إلى أراء فلسفية لها وزنها وبخاصة عند جماعة الإسماعيلية .

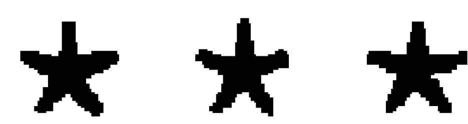
ولم يبق اليوم شك فى أن هناك فلسفة اسلامية لها خصائصها ومميزاتها ، أخذت عن أرسطو ومن أجل ذلك سميِّت المشائية العربية إلحاقا لها باتباع أرسطو من المشائيين السابقين . ولكنها حرصت على أن تلائم بين العقل والنقل وأن تعني بقضايا لم تستوقف الفيلسوف اليونانى طويلا كمشكلة الألوهية . وحارته فى منطقه ودراسته

الطبيعية ، وان أضافت إليها ما أسفر عنه بحث علماء الطبيعة المسلمين وتدارك فلاسفة الاسلام ، وبخاصة ابن سينا ، ما فات أرسطو من الدراسات الرياضية والفلكية ، ولهم فى الموسيقى - ويمثلها الفارابى خاصة - بحوث جاوزت ماعرفناه من التراث اليونانى . وكان لهذه الفلسفة أثرها فى فلسفة القرون الوسطى المسيحية واليهودية ، بل فى مصر فى عصر النهضة الحديث . وعَرفت السوربون بفرنسا وجامعة أوكسفورد بانجلترا ، ابن سينا وابن رشد بقدر ما وقفت عند أرسطو وأتباعه الغربيين .

ازدهر الدرس الفلسفى الاسلامى طوال أربعة قرون أو يزيد ، ثم أخذ يتلاشى بعد حملة الغزالى عليه ، ومنذ القرن السابع الهجرى لانكاد نجد له ذكرا إلا فى حدود ضيقة ولم يُسلِّم بشىء منه الا بالمنطق ، ومن بعض مفكرى هذه القرون المتأخرة من قال بتحريمه . ولم يعد الدرس الفلسفى الاسلامى الى الوجود مرة أخرى فى العالم العربى الا فى القرن العشرين .

ولفلاسفة الاسلام كتب ومؤلفات كثيرة ، منها ما يلخص آراء أرسطو أو يفسرها ، ومنها مايعبر عن آراء هؤلاء الفلاسفة الاسلاميين أنفسهم ، وتراثهم فى هذا غزير ، وان غاب عنا منه حتى الآن قدر غير قليل فللكندى عشرات المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون حصرها ابن النديم فى "الفهرست" حصرا تاما ، ولم نقف حتى الآن إلا على قدر قليل منها ، وحظنا من مؤلفات الفارابى أعظم ، وقد أحيا المستشرق "ديترتصى" منها قدرا منذ فجر القرن الحالى "كآراء أهل المدينة الفاضلة" و"الثمرة المرضية فى الرسائل

الفارابية" وللفارابى مؤلفان أخران أخرجا أخيرا وهما "الموسيقى الكبير" . و"كتاب الحروف" . ولابن سينا مؤلفات كتبت بالعربية والفارسية وفيها رسائل صغيرة وكُتُبٌ مطولة وفى مقدمتها كتاب "النجاة" وكتاب "الاشارات" وانتهزنا فرصة ذكراه الألفية فأخرجنا مؤلفه الكبير "الشفاء" إخراجا علميا دقيقا . ويحتاج فلاسفة المغرب إلى عناية أتم واشمل وبدآنا نحظى بشىء مما خلفه ابن باجه وابن طفيل . أما ابن رشد فقد سبق آن اتجهت إليه آنظار الغربيين لصلته الوثيقة بأرسطو ، شارحا كتبه أو ملخصا فيما سماه "الجوامع" و"التلخيصات" و"التفاسير" وقد ترجم كثير من هذه التعليقات إلى العبرية واللاتينية . وحاولت الآكاديمية اللاتينية بجامعة كامبريدج بالولايات المتحدة أن تمزج قدرا من هذه المؤلفات ، ثم اتجه نحوها أخيرا الاتحاد الدولى للأكاديميات وكوّن شعبا ثلاثا لإحيائها ، فعنى معهد القديس توما بكولونيا فى ألمانيا اللاتينية وعنيت باريس وتل أبيب بالترجمات العبرية واضطلعت مصر بالأصول العربية .



وبعد فما أغزر تراثنا الفلسفي وما أشد تنوعه وما أكثر مَن شُغلوا به في فرق ومدارس ، ومن أسهموا فيه من شيوخ وأئمة ، وتراثه باب من أبواب التراث العربى كله ، وقد وجه النظر الى هذا التراث منذ قرن أو يزيد مستشرق آلمانى كبير هو "بروكلمان" الذى حاول أن يحصر المؤلفات العربية فى ضوء ماوقف عليه من مخطوطات ، وبَذَل في ذلك جهدا يعتد به وإن احتاج إلى شىء من التعديل والتنقيح . وهذا مايضطلع به الآن زميلنا الاستاذ (سيسجين) ، واتجهت الجامعة العربية

منذ زمن الى انشاء "معهد المخطوطات" وخيراً فَعَلَتْ . فبعثت بعوثا إلى المشرق والمغرب باحثة عن أصول الفكر العربي ومراجعه ، وتَوفر لها من ذلك زاد له قيمته ، وقد توقف العمل في هذا المعهد منذ زمن ، وما أجدرنا أن نعيد اليه نشاطه وأن نتابع البحث والحصول على صور لتلك المخطوطات المبعثرة شرقا وغربا ، ورأينا منذ زمن أن خير سبيل لاحياء ذكرى مفكر من مفكرى الاسلام ان نجمع ما يمكن جمعه من أصول مؤلفاته ، وأن نحاول نشرها على أساس منهج علمي دقيق ، وقد طبقنا ذلك منذ أربعين سنة أو يزيد على الذكرى الألفية لابن سينا التي كان من ثمارها موسوعته الفلسفية الكبيرة وهي كتاب "الشفاء" واقتضى هذا الاخراج أن نرسل وفدا من باحثين كريمين هما الأب جورج شحاتة قنواتي والدكتور مختار الوكيل الى اسطنبول حيث قضيا شهرا أو يزيد في جمع أصول هذا الكتاب وكان من ثمار ذلك كتاب "مؤلفات ابن سينا" الذى وضعه الأب قنواتي ، وعدنا الى هذا مرة أخرى في احياء الذكرى المئوية السابعة لابن رشد التي أثمرت كتابا آخر وضعه الأب الكريم وهو "مؤلفات ابن رشد" . وتلك سنة نرجو ان نأخذ أنفسنا بها في احياء ذكرى كبار مفكرى الاسلام وتخليدهم ، ودعونا أيضا إلى ان يُعد التحقيق العلمي ضربا من البحث الجامعي الذى يُمكّن من الحصول على الدرجات الجامعية كالماجستير والدكتوراه ومن حسن الحظ أنه أُخِذ بذلك .

هذا هو السبيل لأحياء هذا التراث وأملنا كبير في أن يسلكه الباحثون والدارسون وأن يمنحوه كل مايستحقه من صبر وجلد ، وحياة العلم مذكراته .

خاتمــــــــة

أحرص على أن أقرر أني إنما حاولت فى هذه الصفحات السابقة أن أسجل بعض تجارب ودراسات مررت بها طوال حياتى وشئت أن أضعها أمام الشباب لكى يستفيدوا من الماضى ويُعدُّوا للحاضر ، ولست فى حاجة أن أقول إن هدفى الحقيقى هو أن نستفيد من هذه الدروس وأن نضعها موضع التنفيذ ، وعبء ذلك منصب على المفكـرين والقادة والمصلحين ، وفى وسعهم أن يضيفوا مايشاءون ، وأنا من المؤمنين بأن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة والمهم أن نخطو إلى الأمام .

لا أقف طويلا عند حياتنا الثقافية ففيها استنارة تبعث على الأمل وحيوية أمل أن تؤتى أكلها على مر الزمن وأكتفى بأن أشير إلى الملحوظتين التاليتين :

١ ـ تحدثنا كثيرا عن مكافحة الأمية ، وحاولت أن أسهم مع آخرين فى هذه الدعوة ، ولكن تجربة خمسين عاما أو يزيد جعلتنى أومن بأن المكافحة الحقيقية إنما تتم فى مرحلة التعليم العام بحيث تستوعب مدارسنا فى هذه المرحلة كل الناشئين وتغذيهم غذاءً صحيحا وكافيا إن فى اللغة والأدب أو فى العلوم الطبيعية والرياضية ، ولنا فى تجربة الجزائر مثل حى فقد أخذوا الناشئة باللغة العربية منذ البداية ، وأصبح أبناء الخامسة عشرة والعشرين يتكلمون عربية ما كنت ألحظها بينهم فى السنين الأولى للاستقلال .

ونعد أنفسنا بحق أنا نجحنا فى مكافحة الأمية إذا وجد كل ناشىء مكانا فى مدرسة خاصة أو عامة ، وإذا رُبِّىَ هذا الناشىء تربية سليمة ومفيدة ، ولست فى حاجة أن أشير إلى أن مِن بين أميينا من مروا بمرحلة التعليم الالزامى بل الابتدائى ، ولكنهم نسوا هذا بعد قليل وانضموا إلى زمرة الأميين .

٢ ـ لوسائل الاعلام شأنها فى كل نهضة ثقافية وحضارية ، ونحن نشهد نهضتها المستمرة ، وأدع جانباً الصحافة الحزبية راجيا أن تكون اليوم موضوعية كما كانت بالأمس ، وأن تسمو بلغتها وصحافتها عن المهاترات والسباب ، أما الاذاعة المسموعة والمرئية فقد سميتهما منذ زمن مدرسة الشعب ، وكان لهما دون نزاع شأن فى تقدم ثقافتنا الجماهيرية . وأسعدنى أن نتوسع فى الإرسال بحيث يشمل القرى والمدن فى القطر جميعه ، وإن كان هذا يدعونا إلى محاسبة وتحرٍّ لما نرسله ، وإلى تحديد زمن للارسال كما تصنع كثير من البلاد الواعية ، وأدع الولايات المتحدة جانبا فى هذا الموضوع لأنها مثل لايحتذى فى الأمم الناهضة .

فهرس

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت · السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ١٩٩٠/٧٤٠٧

I.S.B.N
977 - 07 - 0021 - 5

هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور أستاذ الفلسفة الاسلامية الشهير صاحب العديد من الدراسات الاكاديمية الرائدة ومنها على سبيل المثال لا الحصر "مكانة الفارابى فى المدرسة الفلسفية الاسلامية" و"أورجانون أرسطو فى العالم العربى" و"الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيق" الى جانب عشرات الابحاث الدقيقة فى كافة الدوريات الفلسفية فى العالم أجمع وهو معلم أجيال أصبح بعض نجومها أساتذة بدورهم فى مختلف الجامعات العربية والغربية . وهو رئيس مجمع اللغة العربية الذى ازدهرت دراسة العربية فى عصره ازدهارا هائلا يشهد به هذا الكم الهائل من إنتاج المعاجم والقواميس والدراسات التى يشيد بها كل مهتم بلغتنا . وهو السياسى الذى رفض دائما أساليب المناورة وحرص على التمسك بأصول العلم السياسى فى كافة معاركه السياسية مدعما موقفه وشارحا له بكتابات متعمقة منها على سبيل المثال "الاداة الحكومية" .

أما الكتاب فهو من حيث المضمون شهادة المعلم على تاريخ بلاده المعاصر بكل جوانبه الفكرية والسياسية والاجتماعية . ولأن صاحب الكتاب فيلسوف فهو يستخلص الدروس من هذا التاريخ ، ولأنه مسلم فهو لايكتفى بالجانب التأملى النظرى بل يتجاوزه اما الى التقييم والنقد بهدف التنبيه الى ضرورة الاصلاح ، واما الى إقتراح الحلول . ومن حيث المنهج الكتاب درس جديد من "الشيخ الرئيس" فى مجال الكتابة التاريخية لأن صاحبه لم يبرز سيرته الذاتية على حساب تاريخ بلاده بل قدم تاريخ مصر مشيرا من وقت لآخر لالهاماته فيه لأن الأمة دائما فوق جميع ابنائها .

والهلال يسعده اليوم أن يقدم هذا الكتاب الذى سيسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية .

كتاب
الهلال

حواء
ذات الوجوه الثلاثة

بقلم: أمينة السعيد





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
مدير التحرير : عايد عباد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL العدد ٤٧٩ - ربيع ثان - نوفمبر ١٩٩٠

المكاتبات : ص . ب ٦١٠ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ -
تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 HILAL U.N.
فاكس : FAX 3625469
مكتب الاسكندرية : ٢٥ شارع النبي دانيال - ت : ٤٩١٢٦٩٦ / ٤٩٢٤٧٢٠

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٥٠ قرشا :

لبنان ١٧٥٠ ليرة تونس دينارين الاردن ١ دينار المغرب ٢٠ درهما الكويت ١ دينار البحرين ١٢٠٠ فلس العراق ١ دينار الدوحة ٨ ريالات السعودية ٧ ريالات الامارات ٨ دراهم مسقط ٨٠٠ بيزة غزة والضفة والقدس ١,٥٢ دولار لندن ١,٥٠ جك

الغلاف بريشة الفنانة
سميحـــة حسنيـــــن

حوّاء ذات الوجوه الثلاثة

بقلم

أمينة السعيد

.....•.....

دار الهلال

مقدمة

●● هذه القصة ننقلها الى قرائنا وقارئاتنا من تقرير طبى تقدم به اثنان من قمم التحليل النفسى بامريكا ، وهما دكتور « كوربيت تيجبن » والدكتور « هرفي كليكلى » المختصان فى الأمراض النفسية والعصبية والاستاذان بكلية الطب التابعة لجامعة جورجيا .

ولقد كان هذان الطبيبان دائما زميلين تعلما معا بكلية الطب التابعة لجامعة جورجيا ، وبعد ان تخرجا بامتياز التحقا بسلك التدريس فيها ، ومارسا التحليل النفسى فى عيادة خاصة بهما .. وكانت اعجب حالة مرضية عرضت لهما هى حالة السيدة « ايف هوايت » المصابة بازدواج الشخصية ، وقد استغرق علاجها سبعة اعوام كاملة .

وموطن الاهمية فى هذه المريضة ان ازدواج الشخصية ظل الى حين ظهور « ايف هوايت » على مسرح حياة الطبيبين مجرد مرض يرد ذكره فى المراجع العلمية الخاصة بالطب النفسى ، ولكن لم يسبق ان ظهرت لهذا المرض حالة واحدة تعين على اثبات النظرية عمليا .. لذلك عندما سجل الطبيبان هذه الحالة الاولى من نوعها فى تقرير رسمى ، وارسلاه الى « الجمعية القومية للامراض النفسية الشاذة » رجاء نشرها فى المجلة الدورية لهذه الهيئة العالمية ، رفض مجلس ادارة

الجمعية ان ينشر التقرير الا بعد ان يتقدم الطبيبان اليه بجميع الوثائق والتسجيلات الصوتية والمرئية الخاصة بمريضتهما والمؤكدة لصدق كل صغيرة او كبيرة مما ورد فى تقريرهما .. كما اشترطت الجمعية ايضا ان يتقدم الطبيبان بمريضتهما شخصيا الى لجنة موسعة من كبار اطباء العلاج النفسى لفحصها على الطبيعة ، والتأكد من صحة هذه القضية العلمية .

وقبل الطبيبان « تيجبن » و« كليكلى » هذه الشروط بمنتهى الرضا ، واستأذنا المريضة فى ذلك وحصلا منها على موافقة كتابية بشرط الا يعلن عن اسمها الحقيقى منعا للتشهير ، ثم عرض الموضوع فى اجتماع موسع على « الجمعية القومية للامراض النفسية الشاذة » وكانت المريضة مسز « ايف هوايت » هى بنفسها احدى الوثائق الدامغة لصحة هذه القضية المهمة .

وقامت الجمعية بالبحث على نحو بالغ الدقة ففحصت حالة المريضة على الطبيعة ، ونوقشت فى كل مايتصل بمرضها ، كما درست كافة التسجيلات الصوتية التى اخذت لها خلال جلسات العلاج النفسى مع اشرطة سينمائية لها فى حالاتها المختلفة وبعد ان ثبتت صحة الدعوى بما لايدع مجالا للشك ولو ضئيلا سمح للطبيبين بنشر بحثهما فى مجلة الجمعية لكى يصبح مرجعا ثمينا يثرى المكتبة الطبية النفسية بهذا البحث الاول فى نوعه .

ومما هو جدير بالذكر ان نشر البحث اثار ضجة ضخمة فى جميع الاوساط الطبية ، وبعث كثيرون من كبار المختصين فى جميع انحاء المعمورة يطلبون اشراكهم فى موالاة علاج مسز « ايف هوايت » بل وكتب بعضهم الى رئيس الولايات المتحدة

مباشرة رجاء السماح بالاسهام في العلاج ، كما نشرت الجرائد والمجلات صفحات من عجائب هذه الحالة ، وقامت الشركات السينمائية بتقديم افلام مستوحاة منها ..

●● تبدأ القصة يوم احال احد الاطباء الباطنيين مريضة له الى العيادة النفسية الخاصة بالطبيبين « تيجبن » و« كليكلى » راجيا منهما ان يفحصاها نفسيا لمعرفة اسباب الصداع الرهيب الذى ينتابها ويعذب حياتها ، بعد ان عجزت جميع الوسائل الطبية عن علاجه ، كما اسفرت البحوث والفحوص والتحليلات المختلفة خلو جسدها من اى مرض يمكن ان يؤدى الى هذا الصداع .

وبناء على هذه التوصية تحدد موعد لمقابلة المريضة ، وتولى احد الطبيبين مهمة البحث في امرها ، وحين دخلت غرفة الكشف لم يبد فى مظهرها او حركاتها او تصرفاتها انها حالة شاذة ، او حتى مثيرة للاهتمام .. فلقد كانت عادية فى كل شىء .. عمرها لا يزيد على خمسة وعشرين عاما .. نحيفة القوام بشكل لاينم عن اى مظهر للانوثة الناضجة .. بسيطة الهندام الى حد يوحى بالزهد . فالثوب الرمادى الكالح الذى ترتديه يبدو وكأنه قد حيك دون عناية وباسرع مايكون ليغطى جسدها كله ، ويخفى معالمه تحت طياته الفضفاضة ، هادئة الصوت بطيئة الحركة ، بليدة النظرات ، عديمة اللون كانسانة ليس فيها ما يميزها عن اى مخلوقة دون المتوسط من مئات المخلوقات التى نلقاها فى الطريق كل يوم ..

وبصوت رتيب راحت تصف للطبيب حالات الصداع الشديد التى اخذت تنتابها منذ عدة اشهر ، واخفق الطب فى تخليصها منه .. وعلى عكس معظم المرضى بالصداع ، لم

تستعن فى وصف ألمها بالفاظ قوية او عميقة ، مثل صداع « قاتل » او صداع « جنونى » ، بل اكتفت فى التعبير عنه باسلوب هادىء تخلو نبراته تماما من رنة التأكيد والحماسة ..

كانت فى كل مايبدو منها امرأة وديعة وقورة ، تجلس على المقعد فى مواجهة الطبيب وهى تضم ساقيها وتعقد يديها فى حجرها ، وتتحدث بوضوح ولكن فى نبرات غاية فى الرتابة والهدوء .. شعرها الناعم ذو لون اسود فاحم ، وعيناها الزرقاوان واسعتان ، وانفها صغير دقيق ، وفمها ذو الشفتين ، الرقيقتين يخفى اسنانا منتظمة ناصعة البياض ، وكانت هذه المواصفات التى حبتها الطبيعة كفيلة بتقديم امرأة غاية فى الجمال ، ولكن لامر ما لم تكن المريضة على اى قدر من الجمال ، ومنظرها لا يوحى بأية جاذبية .. أو حتى مجرد الاحساس بوجودها .

وانساقت فى الحديث ، وروت بصوتها الخامل الرتيب كيف خابت حيل الاطباء فى انقاذها من الصداع ، وبعد ان اثبتت الفحوص والتحليلات خلو جسدها تماما من اى علة قد تؤدى الى الصداع ، فنصحها طبيبها الخاص بالسفر من البلدة التى تعيش فيها الى العيادة النفسية فى « جورجيا » وهى تقع على بعد مائة وخمسين كيلو مترا لبحث الموضوع من الناحية النفسية .

وعاد الطبيب النفسى يتأملها بمنتهى التدقيق ، فلم يجد فيها ما ينم عن المرض النفسى او العصبى ، اذ ظلت طول الجلسة هادئة مسيطرة على عواطفها ، متأدبة كأنها تلميذة مطيعة تجلس امام استاذها ، رأسها يتدلى قليلا الى الامام ، وظهرها ينحنى بعض الانحناء .. شكلها عموما يدل على انها

امرأة جادة بكل ما فى الوصف من معنى ، بل ويوحي بانها لم تبتسم مرة فى حياتها ، ولاتعرف الابتسام .. وحاول ان يتصورها ايام طفولتها ، فخيل اليه انها لم تعاكس احدا أو تنفجر باكية مثلما يحدث لجميع الناس وهم صغار .

وسألها الطبيب عن مشكلات حياتها ، فراحت تروي له بلا ادنى حرج من الاحداث ماهو كفيل باثارة القلق فى نفس اى انسان عادى .. فمنذ ست سنوات تزوجت بشاب فى مقتبل الحياة ، يختلف عنها فى مذهبه الدينى ، فهو كاثوليكى وهى

بروتستانتية .. ولفرط تدين هذا الشاب اشترط لاتمام الزواج اجراءه فى الكنيسة الكاثوليكية ، ولم تقبل الكنيسة ان يعقد لاحد رعاياها على بروتستانتية الا بعد ان قبلت « ايف » ان تتعهد امام القساوسة على تنشئة ابنائها المستقبلين على مذهب ابيهم ، وبالفعل اقسمت على الوفاء بهذا الشرط ، وفى نيتها ان تفى بعهدها ، وان تتحمل مسئولياته كاملة .

وفى جلستها الاولى مع الطبيب النفسانى ، اعترفت بانها لم ترزق خلال السنوات السبع التى مضت على زواجها الا بابنة واحدة اسمها « بونى » وانها رغم تعهداتها السابقة وعزمها على الوفاء بها لم تستطع ان ترسل ابنتها لتعمد فى الكنيسة الكاثوليكية ، لعدم اقتناعها بان هذا المذهب هو الطريق السوى الى الحقائق الدينية والخلاص الربانى .

وبناء عليه رفضت « ايف هوايت » ان تعمد ابنتها فى الكنيسة الكاثوليكية ، كما امتنعت عن ارسالها الى مدارس الاحد التابعة لهذه الكنيسة خوفا من ان يحشو رأسها وهى مازالت فى بداية العمر بمعلومات دينية تؤثر على ايمانها وتغريها بسلوك طريق قد لايقبله عقلها عندما تكبر وتبلغ مرحلة

النضـج الفكرى والنفسى .

وتصدى زوجها « رالف هوايت » لهذا التصرف بمنتهى التعصب والتشدد ، واصر على ان تعمد ابنته فى كنيسته وتذهب الى مدارس الاحد التابعة لها ، وفاء بالعهد الذى قطعته على نفسها بمحض ارادتها واختيارها يوم وقفت بجانبه امام القس لاول مرة بعقد قرانهما .. ثم قابل تعنت زوجته بتعنت مثله ، فرفض بعناد ان تلتحق ابنته بالمدارس التابعة للمذهب البروتستانتي ، خوفا من ان تقع من صغرها تحت ضغوط دينية قد تتحكم فى مجرى مشاعرها الى نهاية حياتها .

وراحت السيدة « ايف هوايت » تسرد تفاصيل هذه المشكلة التى نشبت بينها وبين زوجها على اثر مولد ابنتها « بوني » ولكن صوتها اثناء الكلام ظل هادئا رتيبا لا اثر فيه لنبرات الغضب او الحماسة او الانفعال .. وكل ما فى الامر انها كانت بادية الحيرة لاتعرف ما اذا كانت فى تصرفها هذا على خطأ او صواب .. ولم تتحرج عن التصريح بخزيها لعدم وفائها بالعهد الذى قطعته على نفسها يوم تعهدت .. بل واقسمت ، للقس الذى عقد زواجهما بان تجعل جميع الابناء الذين تنجبهم من « رالف » كاثوليكيين مثله ..

ولم تحاول « ايف » خلال حديثها الطويل ان تحمل زوجها تبعة ما اصاب حياتهما الزوجية من تصدع ، او تقصر عليه مسئولية الاحزان التى تعانيها . بالعكس كانت تلوم نفسها معظم الوقت ، وتلتمس له الاعذار فى غضبه عليها لاخلالها بالعهد الذى قطعته على نفسها ، حتى عندما كان غضبه هذا

يخرج عن حدود الوقار ، وينزل بها الاذى النفسى والجسدى ..

وبجهد جهيد امكن للطبيب النفسى ان يستدرجها الى سرد تفاصيل المعارك التى اصبحت جزءا لايتجزأ من حياتهما اليومية ، الامر الذى جعلها خلال الاشهر الاخيرة محرومة تماما من اى قدر من عطف زوجها عليها وصداقته لها . فلقد تحول « رالف » بتأثير خلافهما على المصير الدينى لابنتهما الوحيدة الى رجل ناقم ساخر لايكف عن نقدها واختراع الاسباب لاهانتها والتنكيل بها ، حتى بلغ به الامر ان تطاول عليها بصفعها على وجهها الامر الذى لم يسبق له ان فعله مطلقا طوال السنين السبع التى مضت على زواجهما ..

وعلى الرغم من انها اعترفت بانها كانت صفعة خفيفة لكن اثرها النفسى جاء بالغ الشدة ، خاصة وانه لم يصدر منها اى شىء يستدعى هذه الاهانة الجسدية .

ولم يستطع الطبيب الا ان يصدقها فى كل كلمة قالتها .

فامرأة بهذا التسامح الاصيل والرقة المتناهية لا يمكن للعقل ان يتصورها فى معركة حامية مع زوجها او غير زوجها مهما كانت الظروف .. فلقد جبلت بطبيعتها على الوداعة والتدين وقلة الحيلة ، وهى من النوع الذى لو ضرب على خده الايمن لادار خده الايسر .. ولايمكن لرجل ان يضربها الا اذا كان شاذا بالغ القسوة .

قالت للطبيب فى صوت ينم عن الحيرة والعجب : لست اعرف ما الذى يثيره فى تصرفاتى حتى يصب براكين غضبه على رأسى هكذا ! فأنا لم ارتكب خطأ فى حقه ، وهو كما اعرفه جيدا رجل عاقل غاية فى الاتزان ولابد من سبب قوى يدفعه الى مثل هذا التصرف .

ثم غلبت صوتها رنة الحزن والاسى وقالت : لقد بذلت أقصى جهدى فى اسعاده ، وكنت فى كل لحظة امينة على عرضه وماله ، ولكنى رغم هذا كله فشلت فى رسالتى الزوجية فشلا ذريعا .

وحاول الطبيب ان يطرق موضوع العلاقة الزوجية بينهما ، فتحرجت فى البداية عن الكلام ، ثم لم تلبث ان اعترفت بانها عجزت فى هذه الناحية عن ارضائه ، وانها من جانبها فقدت الرغبة فى اداء واجبها الزوجى ، ولقد اصبحت على ثقة تامة بان زواجهما قد تحطم تماما على صخرة هذه العواصف الهوجاء ، ومع ذلك لايمكن ان تفكر فى الطلاق ، لانها بتدينها الاصيل تأبى ان تخطىء مرتين ، ففى المرة الاولى اقسمت امام المذبح ان تجعل ابناءها المستقبلين على مذهب ابيهم ثم تراجعت بعد مولد «بونى» ولاتريد ان تضاعف الخطأ بالانفصال عن زوجها الذى اقسمت فى الكنيسة على ان تشاركه مر الحياة وحلوها الى ان يفرق الموت بينهما ، ثم كانت هناك ابنتها الطفلة « بونى » التى لابد ان يشقيها طلاق والديها ، وهو المصير الذى تفضل « ايف هوايت » ان تموت دونه .

وانقضت ساعات والمريضة فى حديث مستمر مع الطبيب النفسى .. وخلال هذه الساعات لم يرتفع صوتها مرة .. ولم تذرف عيناها دمعة ، ولم يتحرك فمها بتنهدة او آهة .. ذلك ان شخصيتها الهزيلة الباهتة لم تكن تقوى على التعبير عن احزانها بالحماسة او الغضب او الانفعال ، وكل ما استطاع الطبيب ان يستشفه منها ، انها تخفى وراء مظهرها البليد قدرا كبيرا من اليأس والحيرة والحب الجنونى لابنتها ، بل والرعب من أن تحرم فى يوم من الايام من رعاية هذه الصغيرة الغالية ..

ولم تبق امام الطبيب سوى قضية الصداع الذى يطاردها بقسوة ، ويشتد احيانا حتى تصاب بما عبرت عنه « بالاغماء » او « فقدان الذاكرة » .. ولقد اثرت هذه المحنة التى لم يجد الطب لها مبررا فى حالتها الصحية عموما مما افقدها الرغبة فى الطعام فنحل جسدها وتدهورت قوتها .

وانتهت الجلسة الاولى مع الطبيب النفسانى دون ان يجد في هذه المريضة ما يستوقف النظر او يثير الاهتمام ، فكل ما شكت منه ليس بجديد ولا غريب ، والامر لم يكن يستحق في الحقيقة ان تتكبد هذه المسكينة مشقة السفر الطويل طلبا للعلاج النفسى .

وصرفها الطبيب من عنده الي موعد اخر دون ان يخطر بباله ان « ايف هوايت » هذه المخلوقة الباهتة الضعيفة ، سوف تقدم فى المستقبل الغريب بحالتها المرضية ظواهر تتحدى كل ما اصطلح عليه الطب النفسي من قواعد علمية معترف بها ، وانه بتقريره عن هذه الحالة سوف يهز اركان المجامع العلمية لسنوات قادمة ..

■ ١ ■

مضت اسابيع عدة والمريضة تواظب على رؤية الطبيب بغاية الانتظام وبمرور الايام اخذت صحتها تتحسن تحسنا ملموسا .. حقيقة ان الصداع ظل يتردد عليها ولكن بصورة اخف ، وعلى فترات اكثر تباعدا .. ولم تعد تشكو من غيبة الوعي او فقدان الذاكرة .

وشجع ذلك الطبيب على استدعاء زوجها « رالف هوايت » للتحدث معه فى المشاكل التى تقلق حياتهما الزوجية .

ولبى « رالف هوايت » الدعوة بلا ادنى تردد ، واظهر غاية استعداده للتعاون .

وفى حديثه مع الطبيب اكد صحة جميع المعلومات التى سبق ان ادلت بها زوجته ، واعترف بان « ايف » كانت تبدو احيانا فى حالات غريبة عن طبيعتها التى الفها الناس بها ، وان هذا التغيير كان يثير غضبه عليها رغم يقينه من انها امرأة فاضلة ، وزوجة صبور دءوب ، وام بالغة الحنان والتفانى .

قال : منذ عرفتها قبل زواجنا وهى مثل لا يبارى فى الرقة والهدوء والتسامح ، ولعله السبب فى اننى حين رأيتها فى الفترة الاخيرة تتغير لم استطع الا ان أثور عليها .. ولا انكر اننى ذهبت فى ثورتى الى حد القسوة احيانا ، وعذرى انها

عودتنى على ان تكون دائما فى هدوء النسيم العليل وجماله ، ولم اكن اتوقع انها قادرة على التغير ، فلما تغيرت فقدت السيطرة على نفسى رغم ارادتى .

ولما سأله الطبيب ان يفسر ما قصده بتغير زوجته فى بعض الاحيان ، قال فى حيرة بالغة : لست استطيع على وجه التحديد ان اقدم لك امثلة واضحة على هذا التغير ، لكنها كانت تبدو لى احيانا وكأنها اصيبت بمس من الشيطان .. ولست ممن ينكرون ضرورة تفاهم الزوجين فيما ينشب بينهما من خلاف ، وكانت هذه سياستنا معا خلال الفترة الاولى من حياتنا الزوجية ، غير انها تخلت عن هذه السياسة دون مبرر ، واصبحت ترفض حتى مجرد الحديث فى خلافاتنا .

واحس الطبيب ان الزوج لا يولى اهمية لمعاناة زوجته ، وانه يتذرع بالتهم العائمة لافتقاره الى الادلة الواقعية على صدق ماينسبه اليها من تغير .

ومع ذلك فقد دعا الطبيب الزوجين الى جلسة مشتركة ، وقدم لهما النصيحة الخالصة بضرورة التفاهم معا فى كل مايقوم بينهما من اسباب الخلاف حتى تنتهى المشاكل فى بدايتها ، دون ان تترك رواسب تسىء الى العلاقة الزوجية بتراكمها .

وعاد الزوجان الى بلدتهما فى هدوء ..

ومضت اسابيع متتالية ولا من خبر للطبيب عن مريضته ، فتصور ان « رالف » و« ايف » قد اخذا بنصيحته فخفت وطأة المشاكل بينهما ان لم تكن قد انتهت تماما .. وشجعه على هذا

الاعتقاد انها كانت قبل عودتها الى بلدتها قد احرزت تحسنا ملموسا فى صحتها ، اذ خفت وطأة الصداع كثيرا عن ذى قبل ، وتباعدت فتراته بدرجة تدعو الى الاطمئنان ، كما زالت نوبات غيبة الوعى وفقدان الذاكرة التى كانت فى البداية تشكو منها ..

لكن اطمئنان الطبيب لم يلبث ان انهار فجأة .

كان ذلك عندما تلقى رسالة من « رالف هوايت » ينبئه فيها بعودة الصداع الى زوجته ويرجوه ملحا ان يسرع بتحديد موعد لاستئناف علاجها .

وجاءت « ايف » فى الموعد المحدد وهى غاية فى التوتر ..

وشكت له من عودة الصداع بعنف بالغ مما يسبب لها العذاب ليل نهار ، كما اشارت فوق ذلك الى انها تعانى من الارق المستمر ، ولا تنام فى الليلة الواحدة اكثر من ساعتين او ثلاثة .. وحتى فى خلال هذه الفترات القصيرة تهاجمها الكوابيس التى تأتى دائما على شكل واحد لايتغير . فهى ترى نفسها دائما وكأنها فى غرفة عظيمة الاتساع شكلها غير واضح المعالم ، وفى وسطها بحيرة عميقة مياهها خضراء اسنة تعوم فيها هى وابنتها « بونى » فى حين يقف زوجها « رالف » مع عمها على الشاطىء يرقبانها .. وتحاول « ايف » بكل ما تملك من قدرة على السباحة ان تبتعد عنهما بابنتها « بونى » ولكنها تفشل تماما ، فكل جهد تبذله فى الابتعاد يقربها منهما اكثر حتى تصل رغم انفها الى زوجها على الشاطىء وتسلم له « بونى » التى تريد ان تهرب بها منه .. وعندما يأخذ زوجها ابنته يتقدم عمها الذى تحبه من كل قلبها

، ويضغط بيديه على رأسها ليغرقها فى الماء الاخضر الاسن ..

ويتكرر هذا الحلم كل ليلة بذات الشكل ونفس التفاصيل ..

وحاول الطبيب ان يدفعها الي تفسير هذا الحلم في ضوء احداث حياتها ، لكنها ابدت منتهى العجز فى ايجاد الصلة بين الاثنين .

واقترح الطبيب عليها ان تسمح له بتنويمها مغناطيسيا ، فقبلت بلا ادني تردد ، وحين استغرقت في النوم امرها ان تعيد سرد الحلم بمجرد ان تستيقظ وتربط بين تفاصيله واحداث حياتها ..

ونجحت هذه الطريقة فى اطلاق لسانها .

فبمجرد ان استيقظت من النوم المغناطيسى ، امكنها بمنتهى السهولة ان تربط بين الحلم واحداث حياتها ، ففسرت الغرفة الكبيرة بحياتها الزوجية ، والمياه الخضراء الآسنة بالعقيدة الدينية لزوجها ومحاولاتها للابتعاد بأبنتها عن الشاطىء الذى يقف عليه « رالف » وعمها هى التعبير عن رغبتها فى الحيلولة دون انخراط « بونى » فى المذهب الكاثوليكى الذى تشعر « ايف هوايت » البروتستانتية انه لايمكن ان يحقق لابنتها الحبيبة ما تنشده لها من استقرار روحى ، اما ضغط عمها على رأسها لاغراقها ، فلانه كان الشخص الوحيد فى اسرتها الذى يرى ان تترك ابنتها تسير على مذهب ابيها وفاء بالعهد الذى قطعته على نفسها بمحض ارادتها واختيارها امام القساوسة يوم زواجها .

ولم يكن تفسيرها للحلم ذا اهمية فى حد ذاته ، غير ان الحديث فيه ومناقشته منحاها قدرا من الراحة النفسية نتيجة لتخفيف الضغط العصبى الذى كان على وشك ان يحطمها نهائيا بسبب عدم قدرتها على الافصاح عن الافكار الطاحنة التى تجول بذهنها .

ولدهشتها البالغة توقف الصداع بمجرد ان بدأت الحديث ، وتركت مكتب الطبيب فى نهاية الجلسة وهى منشرحة الصدر هادئة النفس كما لم تكن فى يوم منذ عرفها الطبيب عند بداية حضورها اليه .

ومضى عام كامل والمريضة فى حالة صحية جيدة .

وفى خلال هذا العام لم تر « ايف » ضرورة لزيارة الطبيب سوى مرتين او ثلاث لمناقشته فى امور ليست ذات بال .

ثم تسلم الطبيب منها رسالة تثير غاية الحيرة ، ذكرت فيها ان الخلاف قد احتدم بينها وبين زوجها كما لم يحتدم من قبل ، ولذلك فقد قررت ان تنفصل عنه نهائيا بالطلاق ، ثم مضت تتحدث عن اشخاص ووقائع غريبة تماما عن الطبيب ، ولم يسبق لمريضته أن عرفته بها او حدثته عنها .

ورأى الطبيب ان الخطاب كان مكتوبا فى الأصل لشخص غيره ، وان « ايف هوايت » اخطأت ووضعته فى مظروف باسمه ، لذلك اسرع باعادته اليها بواسطة البريد المستعجل ، لكى يجنبها الاحراج باكتشاف غلطتها .

ولم ترد منها اخبار بعد ذلك حتى جاء زوجها ذات يوم يطلب من الطبيب استئناف علاج زوجته التى ساءت حالتها اخيرا

على اثر خلاف شديد نشب بينها وبينه اثناء زيارتها لابنة عمها « فلورنس » التى تعيش فى بلدة مجاورة لولاية كولومبيا .. وكانت ايف قد كتبت اليها الرسالة التى جاءت الى الطبيب على سبيل الخطأ .. واعترف الرجل ان الخلاف احتدم كما لم يحتدم من قبل ، ووصل الى درجة العنف مما ادى الى اتفاقهما على الانفصال فورا .. وبناء عليه جمع « رالف » حوائجه وجلس بالبيت ينتظر عودتها لتجمع هى الاخرى حوائجها وتغادر المنزل عائدة الى ابنة عمها « فلورنس » الى ان يقوم المحامون باجراءات الطلاق .

ووصف الرجل ما اصابه من دهشة بالغة حين فوجىء بزوجته تعود باسمة الثغر مشرقة الوجه ، ولما رأته جالسا فى انتظارها انحنت عليه تقبله على عادتها عندما تلقاه بعد فراق .. وبمجرد عودتها انصرفت الى واجباتها المنزلية كما لو ان شيئا لم يحدث بينهما .. ورغم دهشته البالغة لم يشأ ان يضيع هذه الفرصة الذهبية متصورا انها راجعت نفسها فيما حدث وندمت على مابدر منها اثناء وجودها بمنزل ابنة عمها « فلورنس » لذلك تقبل تصرفها هذا بغاية الترحيب ، ولم يشأ ان يشير ولو بكلمة الى ما سبق ان حدث بينهما .

ومضت ايام والحياة تسير بالاسرة الصغيرة على مايرام .

ثم عاد من عمله ذات مساء ليفاجأ بزوجته تعد حقيبتها وهى فى منتهى الهدوء والثبات ، ولما سألها : اين تنوى الذهاب ؟ قالت وهى تنظر اليه فى دهشة واستنكار : كيف تسألنى هذا السؤال السخيف وانت تعلم اننى استأذنتك فى قضاء ايام مع « فلورنس » فاذنت لى بذلك مرحبا !

وحاول الزوج ان يفهمها انها قامت بهذه الزيارة ، وعادت منها قبل ايام معدودات ، ولكنها رفضت ان تصدقه ، وحين احتدم الخلاف بينهما ، وارتفع صوتاهما ، ذعرت ابنتهما الصغيرة « بونى » وانفجرت فى البكاء .. وحاولت الام ان تسكتها مرارا فلما لم تستجب ، انقلبت سحنتها ، وهجمت على الصغيرة وفى يدها رباط الستار وهو يشبه الحبل الغليظ ، ولفته حول رقبة « بونى » وراحت تجذبه بمنتهى العنف لتخنقها .. وحاول « رالف » ان ينقذ ابنته ، ولكن يدى زوجته كانتا تطبقان على رقبتها بوحشية ، فاضطر مكرها ان يلطمها على وجهها بكل ما يملك من قوة ، وبهذه الطريقة فقط امكنه ان يخلص « بونى » من موت محقق ..

واستدعيت « ايفا هوايت » لمقابلة الطبيب ، فاذا بها تنفى الواقعتين تماما ، فهى لم تقم بزيارة « فلورنس » لاتذكر شيئا مطلقا من تفاصيل المدة التى يزعم « رالف » انها قضتها هناك .. كما انها انكرت بعنف وغضب واقعة محاولتها خنق ابنتها فهل يعقل ان تفعل ذلك بالانسانة الوحيدة التى تحبها بجنون ولا تجد فى الدنيا سعادة الا بجوارها !

واخذت « ايفا » تظهر مخاوفها من ان زوجها يخترع هذه الامور لكى يتخلص منها بالطلاق ويحرمها حق حضانة ابنتها !

وحار الطبيب بين الاثنين ، لايدرى ايهما يصدق ، ولم يبق امامه لحل هذا الاشكال سوى ان يلجأ مرة اخرى الى التنويم المغناطيسى الذى سبق ان افلح به فى تمكينها من تفسير الحلم الذى ظل يعذب حياتها فترة ليست بالقصيرة .

واذنت « ايفا » باعادة التجربة للوصول الى الحقيقة .

وافلح التنويم فى استعادتها ذكريات الزيارة حتى فى ابسط تفاصيلها .. كيف كانت تخرج الى السوق كل نهار ، وتتفرج على ما فى الحوانيت من بضائع وبعد الظهر تذهب الى المسرح او السينما وفى المساء تجلس مع ابنة عمها « فلورنس » تتسليان بلعب الورق .

لكنها انكرت تماما ان خلافا حدث بينها وبين زوجها فى ختام الزيارة ، واكدت بشدة ان قصة اصرارها على الطلاق مختلقة ، فهى مسيحية متدينة تحترم عهودها الدينية ، ولقد اقسمت امام مذبح الكنيسة يوم الزواج على ان تشاركه ضراء الحياة وسراءها الى أن يفرق الموت بينهما .

كما انكرت ايضا وبغاية العنف واقعة محاولتها خنق ابنتها الحبيبة « بونى »

ولفرط ايمان « ايف » بصدق ماتقول اقترحت ان يستشهد بفلورنس ، فجاءت ابنة العم فى اليوم التالى تؤكد صحة كل ما ذكره « رالف » بشأن المعركة التى نشبت بين الزوجين ، واعلنت « ايف » فى نهايتها عزمها على الطلاق .

اما قصة خنق « بونى » فلم تستطع ان تبدى فيها رأيها لانها لم تكن موجودة معهم ببيتهم فى ذلك اليوم .

وامام تأكيد « فلورنس » بصحة دعوى « رالف » انهارت « ايف » خزيا من نفسها .

وخشى الطبيب ان تصاب مريضته بانتكاس نتيجة

لانفعالها ، فطيب خاطرها واخذ يشرح لها مسألة « فقدان الذاكرة » او غيبة الوعى التى كانت تشكو منها ، وكيف انها ذات صلة وثيقة بالمواقف العصبية التى تكره ان تواجهها ، لذلك يعمد عقلها الباطن الى حجبها تماما عن عقلها الواعي ليجنبها بهذه الطريقة محنة العذاب الذى يصيبها بمواجهة متاعبها .

وبدأ على المريضة هدوء نسبى بعد سماعها هذا التفسير ، فرأى الطبيب ان يقف بها عند هذا الحد ، وانهى لفوره جلسته معها .

وبعد انصرافها تطوعت « فلورنس » بمزيد من المعلومات ، واعترفت للطبيب بان « ايف » كانت خلال اقامتها معها مختلفة تماما عما عهدوه فيها ، فقد تحولت فجأة الى امرأة مرحة لعوب تقضى وقتها كله خارج البيت حتى لم تستطع مضيفتها ان تستمتع بوجودها معها .. لكنها اكدت انها لم تستطع ان تعرف شيئا عن انشطة « ايف » خارج البيت ، وكل ما احست به انها كانت سعيدة للغاية ، وفى هذا الكفاية فى نظر قريبتها .

وازداد الطبيب بهذه المعلومات تأكدا بصحة نوبات « غيبة الوعى » التى تصيب مريضته نظرا لكونها ترفض وهى فى كامل وعيها اى حديث عن الطلاق وتعتبره لونا من الاثم لايرتضيه ضميرها الدينى ، بل وتفريطا فى حق « بونى » الابنة الوحيدة التى تعبدها ولاينبغى ان تسبب لها الشقاء بفراق والديها كما تنكر بمنتهى العنف والحدة تهمة محاولتها خنق هذه الصغيرة الحبيبة .

ومضت ايام على هذه الزيارة ثم تسلم الطبيب من مريضته الرسالة الاتية :

عزيزى الدكتور :

اريد ان اشكرك من صميم قلبى على الراحة النفسية التى اعطيتها لمساعدتى على تذكر زيارتى لابنة عمتى « فلورنس » ولكنى كلما اعدت التفكير فى الاحداث التى مرت هناك ، يتملكنى جزع شديد .. فمن ادرانى ان عقلى الباطن مازال يختزن امورا اخرى ؟ وكيف لى ان اطمئن الى ان هذه الحالة لن تتكرر فى المستقبل مرارا ؟ لقد افقدنى التفكير فى الاحتمالات ثقتى بنفسى ، واخشى ان تكون الاحداث . لكن لا .. دعنا من هذا ، فرأسى يكاد ينفجر بالصداع الذى لم يتركنى لحظة منذ عودتى من عندك .. لعله اختلال فى نظرى ، فانى ارى دائما نقطا حمراء وخضراء تطير امامى كالنجوم ، وجسدى كله مغطى بالطفح ، ولشدة مايأكلنى هذا الطفح لا استطيع ان اكف لحظة عن حكه باظفارى حتى تسيل الدماء من جلدى .

ووجد الطبيب بعد هذا الجانب من الرسالة نبذة اخرى كتبت بخط يختلف تماما عن الخط الاول ، وتقول النبذة : « ياحبيبتى الصغيرة ارجوك ان تهدئى .. ساعدنى يارب واحمها منى .. لا تجعلنى يارب افقد صبرى معها ، لانها مخلوقة حلوة بريئة ، وقدرتى على ضبط اعصابى قد ..»

وانتهت الرسالة عند هذا الحد ..

وجلس الطبيب يحملق فى الورقة دهشا ، لايفهم شيئا مما يراه امامه ..

لم تكن الرسالة موقعة ، ولكن طابع البريد وختم تسجيل منطقة ارساله ، كذلك الخط الذى كتبت به الجانب الاول منها يدل قطعا على انها من « ايف » غير ان النبذة الاضافية كانت ولاشك من فعل طفل صغير عابث وقعت يده على قلم فسود الرسالة بعباراته الركيكة واتماما لنزوته وضعها فى المظروف المعد من قبل ، والقى بها فى صندوق البريد دون ان يعلم احد غيره بذلك .

فالخط كان خط طفل ، والعبارات لا يمكن ان تأتى الا من صغير لايحسن مبادىء القراءة والكتابة فكيف حدث هذا ؟ اتراها « ايف » ارادت ان تلفت بهذه العبارات وتلك الطريقة نظرة الى امر ما ؟ واذا كان ذلك ، فما هو هذا الامر الذى تقصده ؟ وكيف تلجأ الى هذه الوسيلة البدائية الحمقاء امرأة مثلها متزنة بطبعها ، واضحة فى اقوالها وتصرفاتها ؟

وآثر الطبيب فى نهاية الامر ان ينتظر لعل الايام القادمة تأتيه بالحلول الشافية لهذه الالغاز ..

ثم فوجىء بعد اسبوع بزوجها يدخل عليه ، وهو يقول : اغثنى .. ادركنى .. فلقد افلت زمام زوجتى ولم اعد قادرا على دفع شرها !!

■ ٢ ■

جلس « رالف هوايت » امام الطبيب يرتجف في غضب وثورة وراحت الكلمات تنقطع على لسانه وصوته يختنق بالانفعال .

وخاف الطبيب ان يصاب الرجل بنوبة قلبية تقضي عليه ، فأخذه بالحسنى ، وراح يهدىء من ثورته ويطيب من خاطره ، حتى استعاد « رالف » قدرته على التحكم في اعصابه والتعبير عما بنفسه ، وراح يحدثه عما استجد من امر زوجته ، وكيف اصبح احتمال تصرفات هذه المرأة خطرا يهدد بتدمير حياته ..

قال : لقد تطور الموقف يادكتور بما لايحتمل السكوت عليه ، فمنذ يومين تلقيت من المصرف الذى اودعه مدخراتي القليلة كمبيالة بمبلغ ضخم لايصدقه العقل .. سبعمائة دولار مطلوب مني سدادها فورا ثمنا لثياب غالية رائعة اشترتها زوجتي دون استئذاني ، وانا لا املك هذا المبلغ ، وليس في

استطاعتي ان اسدده الا على اقساط تستهلك جزءا مهما من دخلي لسنوات كثيرة قادمة ، فانا وان كنت رجلا دءوبا مخلصا في عملي ، ومرتبي يكفي مطالبنا المتواضعة .. غير ان قدرتي المالية تعجز تماما عن مثل هذا الاسراف الجنوني : فساتين للسهرة كلها حمراء اللون خليعة الشكل عارية الصدر والظهر

.. معاطف من الصوف الغالى قد تلائم الغوانى ، ولكنها لاتليق مطلقا بزوجة فاضلة حتى لو كانت قدرتها المالية تسمح بالاسراف في الملبس .. حقائب واحذية من افخر واندر انواع الجلد .. جلابيب نوم كلها ايضا حمراء شفافة ومحلاة بالدانتيلا المزركشة .. زجاجات من العطور الرخيصة التى لاتستعملها سوى نساء الليل .

قال الطبيب .. وبماذا بررت شراءها هذه الاشياء الغالية الخليعة ؟

قال الرجل وصوته يرتجف كأنه على وشك البكاء : هذه قمة المأساة ، فحين سألتها عن مشترياتها اقسمت باغلظ الايمان انها تهمة لا اساس لها من الصحة ، فهى لم تشتر شيئا على الاطلاق .. وظلت تنكر وتنكر حتى جررتها من ذراعها الى غرفة نومها ، وفتحت امامها الدولاب ، فظهرت المشتريات الفاضحة امامها واضحة جلية .

قال الطبيب : وماذا فعلت حين رأت المشتريات ؟

قال بحقد شديد : ظلت الكاذبة تنكر معرفتها بما فى دولابها ، بل ويمن وضعها فيه ، واتهمتنى باننى افترى عليها لغرض فى نفس يعقوب .

قال الطبيب : وهل من عادتها ان تميل الى شراء الملابس الثمينة ؟

صاح الزوج قائلا : بالعكس .. لقد كانت دائما منذ زواجنا تقدر العسر المالى الذى نعيش فيه ، وترفض ان تكبدنى مالا طاقة لى به ، وفى سبيل ذلك تحرم نفسها من الضروريات ،

ولاتبيح لنفسها اكثر من فستان واحد طول السنة ، وهي تقوم بحياكة ملابسها وملابس ابنتها حتى لاتكلفني ثمن الحياكة .. وفي الاسبوع الماضي فقط كانت قد انتهت من صنع الثوب الوحيد البسيط الذى اشترته طوال العام .

قال الطبيب : وكيف انتهى الموقف ؟

قال الزوج : انتهى بلا شيء .. كل ما في الامر حين فوجئت بالثياب امامها داخل دولابها ، اصفر وجهها ، وبرد جسدها ، وسقطت على الأرض مغمى عليها ، وحين افاقت وعدتنى بان تبحث عن المتاجر التى اشترت منها هذه الاشياء ، وتعيدها اليها وتسترد اثمانها ، وبذلك تنقذنى من الخراب المالي الذى اواجهه بسبب حماقتها ولكنها لم تف مع الاسف بهذا الوعد ، والملابس مازالت ببيتنا والديون تتهددنى بالسجن اذا لم ادبر امرها .. والحل الوحيد ان استدين المبلغ بسرعة .. واسدده على اقساط لمدة عشر سنوات كاملة ، فيالمصيبتى ويالخراب بيتى !!

وكان لابد من استدعاء « ايف هوايت » ليناقشها الطبيب فيما بدر منها .

وجاءت المريضة في الموعد المحدد لها ، وجلست امام الطبيب منكسة الرأس ممتقعة الوجه متخاذلة ، ثم انفجرت في البكاء بحرقة ، فتركها حتى اعادت الدموع لها بعض هدوئها ، واخذت تروى له القصة من جديد .. انها لم تشتر هذه الملابس التى تعرف تماما عجز زوجها عن الوفاء ببعض ثمنها ، وحتى لو كان « رالف » غنيا قادرا ما ارتضت لكرامتها مثل هذه الفساتين الخليعة المبتذلة .

ولقد تصورت في البداية ان زوجها قد بيت في نفسه مكيدة للتخلص منها وحرمانها من رعاية ابنتها الحبيبة « بوني » بعد معركتها العنيفة بسبب زيارتها لابنة عمها « فلورنس » ، لذلك افتعل قصة الثياب كي يستند اليها امام المحاكم عند طلبه الطلاق .

وعادت الدموع تنهمر من عينيها ، وبدأ التردد الشديد عليها ، ثم جمعت شجاعتها وقالت : اذا حدث ان سمع الانسان اصواتا ، فما معنى ذلك ؟ ثم اردفت قبل ان تعطى الطبيب فرصة للاجابة : انى اعرف تماما معنى ذلك .. معناه الجنون ، ومصيره مستشفى الامراض العقلية التى ستكون نتيجتها الحتمية حرمانى من رعاية صغيرتى الحبيبة « بونى » فما من محكمة فى الدنيا تسمح لى بحضانتها وانا مجنونة .

وكان الطبيب يعرف بحكم مهنته ان سماع الاصوات من اخطر عوارض الجنون ، واذا حدث لها ذلك فالقوانين كلها لايمكن ان تأتمنها على حضانة ابنتها الصغيرة الحبيبة .

ولكن كان لابد له ان يعرف المزيد عن الاصوات التى اشارت اليها قبل ان يقرر مدى خطورتها .

قالت : لامفر من ان اعترف لك يادكتور اننى كنت خلال الشهور الاخيرة اسمع اصواتا تتحدث الىّ ، وتأمرنى باشياء لااقرها ولا اقبلها .. وفى البداية كانت الاصوات تأتينى على فترات متباعدة ، ثم ازدادت فى الايام الاخيرة بدرجة مخيفة .

وسألها الطبيب عما اذا كانت الاصوات التى تتحدث اليها معروفة لها ؟

فاجابت : انه صوت امرأة ، ولكنها امرأة ولاشك سوقية ، بدليل الالفاظ والعبارات الرخيصة التي تستعملها في حديثها ، ولكنى لا استطيع ان احدد صاحبته ، وان كان قطعا صوتا مألوفا سبق ان سمعته مرارا فى مكان ما ..

وانزعج الطبيب لما سمعه ، ولكنه لم يفقد الامل فى مريضته تماما .. فمرضى العقول الذين يعانون من علة سماع الاصوات لايستطيعون تمييز جنس الصوت ، ولايقبلون فكرة انها اوهام ولا يصدقون انهم مجانين ، على العكس من « ايف » التى استطاعت ان تحدد الهاتف بصوت امرأة ، وان تعترف بانه وهم تخشى ان يكون جنونا .

وهدأت مخاوف الطبيب ، وتأكد له ان « ايف » ليست فى الحقيقة مجنونة .

وبهذه العقيدة حاول ان يزيل من نفسها جانبا كبيرا من انفعالها بالرغم من عودتها الى الاصرار على انها لم تخطىء مطلقا فى حق زوجها .. فهى لم تشتر الثياب الحمراء الغالية الخليعة ، انما هى حيلة يريد بها « رالف » ان يصمها عن طريقها بالجنون لكى يحصل على الطلاق ويستأثر دونها برعاية « بونى »

لكن متاعب « ايف » لم تنته بانتهاء جلستها هذه مع الطبيب ففي الجلسات التالية بدا واضحا ان حالتها فى تدهور مستمر .. فالصداع قد اشتد عن ذى قبل ، وفترات « غيبة الوعى » كثرت وطال امدها ، حتى لم يعد فى مقدور المريضة ان تحدد بدايتها ونهايتها ، او تعى ما فعلته خلالها .

وتملك المريضة الى جانب ذلك شعور بخطر يقترب منها

حتى ليوشك ان يدهمها . واشتد بها الرعب الذى يشبه رعب المذنب من قرب وضع رأسه تحت المقصلة .. لكن العجيب فى امر هذه السيدة الممتازة انها رغم ازماتها النفسية الرهيبة ظلت على عهدها مهذبة مؤدبة راقية .. صوتها دائما خفيض ، نظراتها مليئة بالخجل والحياء .. تجلس امام الطبيب دائما مثلما جلست فى اول مرة .. يداها معقودتان على حجرها ، ورأسها مطأطأ مثل تلميذة صغيرة مهذبة ، كل ماتغير فى تدهور حالتها ان اصابعها التى كانت دائما تتحرك بتوتر وعصبية سادها الهدوء تماما كما لو كانت الحياة قد هربت منها .

وكان لونا من الهدوء لايبعث على الطمأنينة .

وخشى الطبيب ان يتحول الحديث الى مواضيع جانبية تبعده عن الاصوات التى تثير غاية اهتمامه ، فعاد يسألها عن قصة الملابس التى اشترتها ، فراحت تكمل له الحديث ، قالت : انها ارادت ان تقطع الشك باليقين فى سوء نوايا زوجها بها ، فنزلت الى السوق تبحث عن المتاجر التى اشترت الاشياء منها .. وبعد جهد عثرت عليها ، فاذا بالعاملات جميعا يتعرفن عليها ، ويؤكدن انها هى بنفسها وبذاتها التى اختارت الثياب بمحض ارادتها واختيارها ، وطلبت تحويل فواتيرها الى زوجها .. ولما رجتهن ان يستعدن البضاعة رفضن رفضا قاطعا .. ولعلهن اردن بذلك ان يعاقبنها على التورط فى شراء اشياء دون علم زوجها ، والآن رغم يقينها انها لم تفعل ذلك ، تجد انها امام مأزق بشع لاتدرى كيف تخرج منه لتنقذ نفسها من تهمة الجنون التى قد تكلفها الحرمان من ابنتها .. ثم اذا كانت هى بالفعل التى فعلت ذلك دون ان تدرى ، فاى خراب

تنزله بزوجها المسكين الذى لاتحتمل ميزانيته الهزيلة جانبا ولو ضئيلا من الدين الضخم الذى سيتقيد باغلاله لسنين قادمة .

وعندما وصلت بقصتها الى هذا الحد ، عادت الى الحديث عن الاصوات التى تسمعها ، وبدا عليها كأنها تريد ان تفضى للطبيب بمزيد من المعلومات عن الصوت النسائى الذى يطاردها .

ولما خيل اليه انها على وشك الكلام عادت واحجمت ..

انعقد لسانها عن التصريح لسبب ما .. لعله الخوف او العجز عن اختيار العبارات المناسبة للتعبير .

ولم يشأ ان يتعجلها حتى لايزيدها حيرة على حيرة .

وخيم السكون فجأة على مكتب الطبيب ، ولم يعد يسمع فيه حتى تردد انفاس الجالسين فيه .

وجمدت نظرات « ايف » كانها تحجرت فى مقلتيها .

واهتزت المريضة برهة مثلما يحدث للانسان اذا اصابه دوار خفيف ، واسبلت جفنيها حتى ظن الطبيب انها استسلمت للنوم ، ثم اخذ كل شىء يتغير فيها بشكل مذهل ، اعتدل جسدها فى المقعد بالتدريج واعتدل ظهرها تماما فبدت اطول قامة .

ورفعت رأسها عن نكسته المعهودة التى كانت تكسبها دائما مظهرا من الذلة والهزيمة ، ثم تبدلت تعبيرات وجهها تبدلا كأنه من فعل السحر ، فاذا بالوجه يكتسى بتعبير جديد

لا تكاد تكون له ادنى صلة بالاول ، وحتى خطوط تقاطيعها تحولت بدورها تحولا اكسبها شكلا اخر .

وأسبلت جفنيها ثم رفعت يدها الى جبينها تضغط بها عليه كأنها تريد ان تخفف وطأة الصداع .

وسرت رجفة فى جسدها كله ، وانزلت يدها عن جبينها ، وفتحت عينيها الزرقاوين وغمزت باحداهما للطبيب بشكل خليع اثار غاية دهشته .

ونظر الطبيب الى المرأة التى تجلس امامه فلم يصدق عينيه ، اذ كانت تملك كل اوصاف « ايف هوايت » لكنها بقدرة قادر تحولت الى مخلوقة ساحرة تفيض بسحر الانوثة ورغبات الجنس .

وبهزة من رأسها انحلت عقدة شعرها فسقطت خصلاته الغزيرة الحالكة على كتفيها كانها امواج من الحرير الاسود .. والتمعت عيناها واتسعتا وفاضت منهما نظرات المرح والاغراء .

واعتدل جسمها فى جلستها على المقعد ، وبرز باعتدالها نهداها ، ووضعت ساقا على ساق وهى تهزهما بحركة كلها استهتار .

واخذت تحك ركبتها باظفارها ، ثم قالت بصوت اجش خفيض عميق لا يمت الى صوتها الطبيعى الهادىء بصلة :

اهلا بك ايها العزيز !!

واطلقت ضحكة قصيرة فيها كثير من الاغراء .

وبكل بطء اخذت تشد طرف ثوبها لتكشف عن جزء مناسب من ساقيها اللتين لم يسبق ان لفتتا نظر الطبيب بجمالهما رغم تعدد المرات التى رآها فيها .. وبغاية الخلاعة اخذت تتململ فى مقعدها لتريح نفسها بين الوسائد الموضوعة حولها .

وهكذا ذابت « ايف هوايت » الباهتة الخجول ذات الشكل الذى يبعث على الملل فى هذه المرأة الرائعة التى تفوق فى اغرائها اى غانية .

وماتت الكلمات على شفتى الطبيب بفعل الذهول الذى اصابه للمفاجأة العنيفة .

وظل يحملق فيها وهو لايكاد يصدق عينيه .

قالت بسخرية وعيناها الزرقاوان تلمعان بالشقاوة : ماذا دهاك ايها العزيز ؟ وماذا تريد ان تقول ؟

قال : اردت فقط ان اسألك عن حالك ؟!

قالت : اننى فى اروع حال ، ولكن كيف حالك انت ؟

ورمشت بجفنيها فى بطء مثير ، وعادت تهز رأسها ليتطاير شعرها الاسود الغزير من حولها ، ثم يعود ويهبط على كتفيها كامواج من الحرير الاسود .

وبدت بحركاتها هذه رغم خلاعتها الواضحة مثل طفل صغير يتلذذ بمعاكسة الجالس معه .

وظل الطبيب على صمته وذهوله وقد عاد الى ذهنه ماكان يعرفه فى الصغر عن الشيطان عندما يتقمص جسد انسان .

وقطعت عليه افكاره عندما مدت اليه ذراعها بغاية الاغراء وقالت بذلك الصوت الخفيض الاجش : اتسمح لى ايها العزيز بسيجارة ادخنها ؟

وقدم لها السيجارة واشعلها ، فاخذت تدخنها ثم تنفخ دخانها فى الهواء ليتجمع فى حلقات فوق رأسها بطريقة تدل على طول باعها فى التدخين .. مع انها لم تكن تدخن على الاطلاق وهو على ثقة بانها لم تضع مرة من المرات سيجارة فى فمها .

قالت دون تمهيد : انها تمر بأزمة عصبية وليس فى ذلك من شك وانا اشعر احيانا بالاسف عليها ، ولكنها فى الحقيقة غبية بلهاء ، فما الذى يضطرها الى البقاء مع هذا الحمار ؟ ولماذا ينفطر قلبها على ذلك الحيوان الصغير ، فليذهب الاثنان الى الجحيم وهذا رأيى بكل صراحة !

قال الطبيب : عمن تتحدثين ؟ ومن هى الغبية البلهاء ؟

قالت : ايف هوايت بالطبع .. مريضتك التى يلذ لها ان تلعب دور القديسة الصابرة على عذابها الطويل

قال : ولكن الست ايف هوايت ؟

قالت : وهى تطلق ضحكة عالية : اتنكت ايها العزيز ؟ كيف تسألنى هذا السؤال السخيف ؟ الا ترى بعينيك ؟ ثم كيف تكون طبيبا ماهرا كما يزعمون وانت لاتستطيع التمييز بين شخص واخر ؟ فما بالك اذا كان احد الاثنين مريضك الذى تعرفه منذ زمن طويل ؟

قال لها : من تكونين اذن ؟

قالت : انا ايف بلاك ، وارجو الا تعود الى الخلط بيني وبين هذه الغبية البلهاء !

.

■ ٣ ■

وازدادت دهشة الطبيب واصبح فى حيرة بالغة مما يحدث امامه ، وعاد يسأل مريضته مرة اخرى : تقولين من انت ؟

قالت وقد بدا عليها الضيق لبطء فهمه : ألم تسألنى من اكون ؟

قال : اجل ..

قالت : ألم اجبك باننى « ايف بلاك » فماذا تريد ان تعرف اكثر من ذلك ؟

وكان الطبيب يعرف ان « بلاك » اسم والد « ايف » ولقد عرفت الى حين زواجها باسم « ايف بلاك »

قال : تقصدين انك « ايف هوايت » قبل زواجها ؟!

قالت فى غضب شديد : لم اكن اعرف انك بهذا الغباء ليستعصى عليك فهم ما اقول .. انا لست « ايف هوايت » لا قبل الزواج ولا بعده .. انا « ايف بلاك » فقط .. انا انا ، وهى هى ، ولكل منا آراؤه ومزاجه .. انها متزوجة ، ولم اتزوج من قبل ، وليس فى نيتى ان اتزوج مستقبلا ، والتمتع بالحياة هو هدفى وغايتى ، وعلى فكرة انا افهمك اكثرمنها الف مرة ،

واعتقد انك معجب بى .. وانا بصراحة معجبة بك ايضا ، واراهن انك راقص ماهر ، وبامكاننا معا ان نقضى ليالى سعيدة .

وابتسمت ابتسامة خبيثة تمتزج بالسخرية .

واعتذر لها الطبيب عن خطئها فى تقدير مهارته ، فهو لايرقص بل ولم يتعلم الرقص فى حياته ، وليست لديه الاهلية ليكون رفيقا ممتعا فى السهرات الليلية .

وانتهز الفرصة ليعرف منها مايبدد له الغموض حول قصة الملابس الفاخرة التى تنكر « ايف هوايت » انها اشترتها ويؤكد « رالف » انها اغرقته بالديون بسببها .

قال لها : ألديك ما يوضح قصة الثياب الحمراء والملابس الفاخرة التى اثارت غضب زوجك عليك ؟

قالت وقد انقلبت سحنتها وتطاير شرر الحنق من عينيها : لقد افهمتك مرارا وتكرارا اننى غير متزوجة ، ويجب ان تكون على تفاهم تام فى هذا الموضوع والا لاداعى مطلقا للاستمرار فى الكلام .

قال : وانا اصدقك ولكنى اريد ان اعرف حقيقة قصة الثياب .

قالت وهى تطلق ضحكة خبيثة : وهل كان من المعقول لمثل هذه الغبية البلهاء ان تشترى مثل هذه الاشياء الرائعة ؟! انا التى اشتريتها يوم استطعت « الخروج » فى ذلك اليوم .. ولشدة تعلقى بمتع الحياة شعرت باحتياجى الشديد الى

الملابس التى تبرز جمالى وتناسب ظروفى .. فذهبت الى المتاجر واشتريت اروع ما وجدته فيها ، وقيدتها لحساب زوجها بقصد اغاظته .

ثم عادت واطلقت ضحكة عالية واردفت تقول : اه لو كنت رأيتها هذه البلهاء حين فتح زوجها الدولاب امامها فرأت الثياب الحمراء الرائعة التى لم تشترها .. والله لو رأيت النظرة التى اكتسى بها وجهها ما امكنك ان تمنع نفسك من الضحك باعلى صوتك .. لقد ازدادت بالمفاجأة بلها على بله ، وغباء على غباء ، وكادت تسقط على الأرض مغمى عليها .

قال : ولماذا اخترت الاحمر لونا لكل شيء ؟

فنظرت اليه نظرة خبيثة وقالت : لانه اللون المختار .. اجمل الالوان كلها واكثرها اثارة واغراء .

كان الفارق واضحا بين هذه المرأة التى تجلس امامه وبين « ايف هوايت » المريضة التى يعرفها حق المعرفة ، فبدل الرقة والنعومة والدماثة والتواضع والحياء التى تطغى على زوجة « رالف » المرأة ذات القدرة الفائقة على ضبط النفس والتزام سبيل الادب والكياسة فى كل حركة من حركاتها وكل كلمة من كلماتها .. ذهبت هذه الصفات الرائعة وحل محلها النقيض تماما .. « فايف » الماثلة امامه فى تلك اللحظة كانت غانية سوقية اللفظ والحركات مشاغبة تمتلىء نظراتها الجريئة بالرغبة فى المعاكسة والاثارة والاحراج .. تلجأ فى سعيها الى ابراز محاسنها الى كثرة الحركة والحيويه الجارفة التى تكاد تنطق بنهم مسعور الى المتعة والتسلية .. وكان واضحا ان هذه المرأة الطليقة تتكلم باحتقار وعدم مبالاة عن « ايف

هوايت » ومتاعبها مما يدل دلالة قاطعة على استهانتها البالغة بها .

ولقد عرف الطبيب « ايف هوايت » كما عرفها كل من اتصل بها من اهلها واصدقائها .. انها كتوم صامته ولابد من الالحاح عليها مرارا وتكرارا لانتزاع ابسط الكلمات منها .. على عكس « ايف بلاك » التى لايعرف لسانها ضابطا ولا رابطا .. يتدفق فمها بالحديث وتتبرع برواية تفاصيل اضعاف المطلوب منها ، ولايضيرها مطلقا ان تستعين فى ثرثرتها بالفاظ السوقة وعباراتهم ، بل انها تفضل هذا الاسلوب على اى اسلوب سواه .

وتطوعت هذه الشخصية الجديدة بالافاضة فى الكلام عن الملابس التى اشترتها ، قالت ولقد حاولت هذه الغبية البلهاء ان تعيد المشتريات الى المتاجر لكنهم رفضوا ان يقبلوها منها .. تصوروا انها هى التى اشترتها فقرروا على سبيل التأديب ان يحملوها مسئوليتها عقابا لها على تجاهلها الحصول على اذن زوجها .

ثم اردفت تقول وهى فى غاية الرضا : ولكم اسعدنى انهم فعلوا بها ذلك لاننى فى اشد الاحتياج الى ملابس لائقة ارتديها عندما اخرج ، فملابسها دائما حقيرة رخيصة ، واى امرأة تحترم نفسها تأنف من ان تضعها على بدنها

وسكتت لحظة ثم اشارت الى الثوب الباهت الذى ترتديه وقالت : لايمكنك ان تتصور كم يحرجنى ويضايقنى ان اظهر امام الناس فى مثل فستانها هذا الذى يجعلنى ابدو وكأننى احدى بنات ملجأ الايتام التابع للكنيسة .. انظر الى حقارة ما

ارتديه اليوم ، اليس مخجلا لامرأه فى جمالى وشبابى ان اظهر بهذا الجلباب الذى قد تحتقره جدتى ؟

والتزمت الصمت ثانية ثم عادت تقول وقد اكتسى وجهها بنوع من الكآبة : انها تعانى الامرين فى الفترة الاخيرة ولاشك انها فى غاية التعاسة وانا لا انكر اننى اشعر احيانا ببعض الاسف لحالها ، لكن صدقنى انها حمارة مغفلة تستحق كل مايصيبها ، مادامت مصرة على احتمال هذا الحيوان « رالف » انه مخلوق لايحتمل .

قال الطبيب : وماذا لديك ايضا عن « ايف هوايت » حدثينى بكل ما تعرفينه عنها .

قالت بعدم مبالاة وقد عادت تهز رأسها لتثير اهتمام الرجل بشعرها الاسود الرائع : الواقع اننى لم اكن فى الفترة الاخيرة اوليها اهتماما مذكورا ومع ذلك باستطاعتى ان احدثك بالكثير عنها ، فانا اعرف عنها اشياء كثيرة ولكنها لاتعرف عنى شيئا على الاطلاق .. بل اعرف عنها مالا تعرفه هى عن نفسها ، اعرف مثلا انها فى قرارة نفسها اصبحت تمقت زوجها ولكنها ترفض ان تعترف بذلك تمسكا من هذه الغبية بسلوك سبيل الصواب دائما حتى لو قتلها هذا الصواب ودمرها تماما

قال لها : لعلها تقوم بهذه التضحية اكراما لابنتها « بونى »

قالت فى صبر نافذ واحتقار شديد : اف .. بونى الصغيرة بونى الصغيرة ما هذه الطفلة سوى جرو ملعون ، ومع ذلك فالغبية توشك ان تقود نفسها الى الجنون بالتفكير فيها ليل نهار .. فهل هذا معقول ؟ لست انكر انها طفلة لطيفة ، ولكن

كيف ترضى شابة فى مقتبل الحياة ان تفنى نفسها من اجل بنت لم تبلغ الرابعة من عمرها بعد ؟

قال لها : اذن فانت التى حاولت خنقها واياك ان تنكرى هذه الحقيقة ، قالت باستهزاء : ولماذا انكر وممن اخاف ؟ طبعا انا التى حاولت خنقها ولم اكن اقصد فى الواقع قتلها ، بل أردت فقط ان اؤدبها لتكف عن عوائها ، الذى كاد يفقدنى عقلى ، وحتى لو كانت ماتت ماهمنى !

قال لها مفاجئا : الا تحبين ابنتك

قالت وقد ارتسمت الدهشة الصادقة على وجهها : كيف لى ان احب ابنتى وليس لى ابنة ؟ بل ولست متزوجة وليس فى نيتى ان اتزوج ، وحتى اذا تزوجت فى يوم من الايام فلن انجب اطفالا .. النساء يختلفن فى تقديرهن للامومة . وانا شخصيا افضل ان استمتع بالحياة واعب من مباهجها ، والاطفال يحولون دون هذه الحرية ، ولست اراهم يستحقون هذه التضحية البالغة .. واذا كانت ايف هوايت تصر على التضحية من اجل « بونى » فهى حرة فى نفسها اما انا فلا شان لى بها ولا بابنتها الملعونة

سألها الطبيب : اتعتقدين ان « ايف هوايت » تحمل لابنتها حبا صادقا ؟

قالت بعد تردد وتململ فى مقعدها اجل ايها العزيز ، اعتقد ذلك ، وهذه سخافة اخرى لايقبلها عقل .

وبالحاح الطبيب اضطرت هذه الشخصية الجديدة ان تعترف مكرهة بانها تشترك مع « ايف هوايت » فى جسدها

ومع انها تعرف ان شريكتها قد أنجبت منذ اربع سنوات هذه الطفلة الصغيرة التي يسمونها « بوني » غير انها ظلت على اصرارها بانها لم تلد ولم تتزوج .

قال الطبيب : اذن اين كنت عندما ولدت « ايف هوايت » ابنتها ؟

فالتزمت الصمت برهة ، ثم نفضت الرماد عن سيجارتها بهدوء ، وفجأة اتقد وجهها بالخبث : مثل هذه الاسئلة لايصح لك ان توجهها الي ، فانت المسئول عن اجابتها .. وانا من جانبي اعترف ان هناك اشياء كثيرة مازلت اجهلها ، لكن الامر الوحيد الذي اعرفه عن ثقة هو .. انى لست هى .. وهى ليست انا .. ولايهمنى ماعدا ذلك ، وليس فى نيتى ان اتعب رأسى بالتفكير فيه .. اننى اتفجر رغبة وانوثة ، ولا يهمنى ذلك ، ومن حسن حظي اننى اصبحت فى العهد الاخير استطيع الخروج اكثر من اى وقت مضى ، فدعنى لحياتى ، واذهب باسئلتك اليها ، واترك لها ان تقلق مزاجها بالبحث عن اجاباتها .

قال : وهل يقلقها وجودك معها ؟

قالت : هذا هو الشىء الوحيد الذى لاتعرفه « ايف هوايت » انها لاتعلم بوجودى ، وليس لديها اية فكرة عن ذلك ، ومن ثم كيف تقلق لشىء تجهله ؟

وفجأة انفجرت تقول وشرر التحدى يتطاير من عينيها : واياك ان تذهب وتحدثها عنى ، فانا مرتاحة جدا لجهلها بوجودى ، فهى لاتعرف شيئا عندما اخرج ، وبذلك احظى بكامل حريتى فى ان اذهب حيث اريد وافعل كل ما يحلو لى ، وبحق الشيطان ليس هذا من شأنها

ولم يستطع الطبيب ان يعرف من هذه الشخصية الاخرى لمريضته اين تكون « ايف هوايت » وماذا يحل بها عندما « تخرج » هذه الشيطانة اللعوب وتمارس حياتها الماجنة ، فقد بدا من حديثه معها انها لاتدرى شيئا عما يسأل عنه الطبيب رغم ادعائها بانها تعرف كل صغيرة وكبيرة مما تفعله توأمها ، وذلك بسبب عدم قدرة « ايف بلاك » على التركيز فى « ايف هوايت » نظرا لكونها تستثقل ظل هذه السيدة المهذبة وتحتقر غباءها ، وتعتبرها مخلوقة اتفه من ان تستحق التركيز عليها .

وفى الوقت ذاته ثبت للطبيب ان « ايف هوايت » لاتعرف مطلقا بوجود شخصيتها الاخرى ، ولا ينتابها ادنى شك فى احتمال وجودها .

واراد الطبيب ان يعرف اسباب نوبات الصداع التى اخذت فى العهد الاخير تطارد مريضته ولم يجد الاطباء الباطنيون مبررا مرضيا لها ، وهل لها صلة بعملية خروج « ايف بلاك ».. وكل ما استطاع ان يعرفه من « ايف هوايت » عند بداية مجيئها له ان الصداع اخذ يشتد وتتقارب فتراته بعد اجهاضها .. فقد كانت حاملا للمرة الثانية ، وذات يوم احست بارتباك عصبى شديد ، وانتابتها مخاوف لاتعرف كنهها ، فطلبت من زوجها « رالف » ان يتخلف عن عمله ويبقى بجوارها فى ذاك اليوم ، ولم تستطع ان تعطيه مبررا واضحا معقولا .. ولما رفض ان يجيب طلبها ، تعلقت بكم سترته وابت ان تتركه يذهب وعندئذ انفجر غاضبا ، ودفعها بعنف بعيدا عنه ، فافلت ذراعه واصطدم بوجهها دون قصد ، ثم خرج مسرعا الى حال سبيله .

وتصورت الزوجة المسكينة انه ضربها عن قصد ، فانهارت

لهذه الاهانة وظلت تبكى وتبكى بقية الصباح ، ولم تمض ساعات على ذلك حتى بدأت اعراض الاجهاض تظهر عليها .. واشتدت الام المخاض وتدفقت دماء النزيف وهى وحدها بالبيت لا رفيق لها سوى « بوبى » الصغيرة التى كانت بالكاد تبلغ من العمر اربعة اعوام .. ولم يكن فى قدرة « ايف هوايت » ان تتحرك وتصل الى التليفون تطلب الاغاثة ، وخشيت اذا هى استسلمت للالم ان تزعج ابنتها الصغيرة المسكينة التى كانت طول هذا الوقت تجلس فى الفراش بجانبها وهى تبكى بحرقة .. ولما رأت « بونى » دماء النزيف تغرق الفراش ، اشتد بها الجزع ، وراحت تصرخ باعلى صوتها وتقول : ماما .. ماما لماذا تتعاركان انت وابى بهذا الشكل ؟ هل ستموتين يا ماما ؟ لا تموتى بالله عليك وتتركينى وحدى .

وظلت « ايف هوايت » على هذه الحال معلقة بين الموت والحياة الى ان حضر « رالف » فى اخر النهار وانقذت بعد الاجهاض باعجوبة ، لكن هذا الحادث ترك فى نفسها اثرا عميقا وسع هوة الخلاف بين الزوجين وملأ قلب المرأة الطيبة بنوع من المرارة دفعها الى جمع حوائجها بمجرد تماثلها للشفاء ، وسفرها مع ابنتها « بونى » لقضاء بعض الوقت مع والديها .

وبعد هذه الحادثة مباشرة اخذت نوبات الصداع تتقارب وتشتد ومعها حالات « غيبة الوعى » التى كانت « ايف بلاك » او الشخصية الاخرى لمريضته تستطيع ان تخرج لفترات اطول كثيرا من اى وقت مضى .

قالت « ايف » الجديدة للطبيب نصف ما كان يحدث من

صراع بينها وبين توأمها : كان الصداع ينتابها نتيجة محاولتها المستميتة لمنعي من الخروج .. لم تكن فى الحقيقة تعرف ما يحدث لكن شعورا مبهما يوحى اليها بان حدثا خطيرا على وشك الوقوع ، فتظل تقاوم وتقاوم وكلما زادت مقاومتها يشتد بها الصداع ، واوشك ان يودى بعقلها !

وعندما تهزم « ايف هوايت » فى معركة صداعها وتنتصر « ايف بلاك » فى « الخروج » اى الظهور امام الناس ، تصاب الاولى بنوبات فقدان الوعى ، فلا تعرف اى شىء مما حدث على الاطلاق .

وكثيرا ما كانت الزوجة الطيبة الضعيفة تستيقظ على تبعات تصرفات توأمها الماجنة الحمقاء ونتائجها .. من ذلك مثلا ان « ايف هوايت » لم تكن على الاطلاق تدخن او تشرب الخمر ، او تسهر الليالى او ترقص او تسمح لنفسها بالخروج من البيت بعد الغروب .. لكن عندما تخرج الشخصية الاخرى يحدث العكس تماما « فايف بلاك » لا يهدأ لها بال الا بالخروج طول الليل الى الشوارع ولا تتورع عن مغازلة الرجال الذين تقابلهم فى هذه الاماكن المشبوهة ، وليس احب اليها من ان تصطحبهم الى الخمارات والمنتديات الليلية ، وتظل معهم تدخن بشراهة وترقص بجنون وتشرب الخمر بلا ضابط ولا رابط ، ثم تعود عند مطلع الفجر ، وهى تكاد تسقط لفرط ما يصيبها من ارهاق ودوار خلال لياليها الحمراء ، وعندما تستيقظ فى الصباح تكون « ايف هوايت » الطيبة قد استعادت سيطرتها على نفسها ، فتجد نفسها مخمورة مجهدة مبتذلة ، دون ان تفهم لذلك سببا ، فيكاد عقلها يطير خوفا ورعبا .

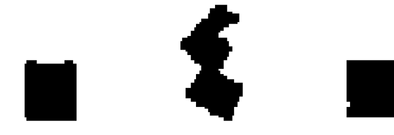
وفجأة اخذت « ايف بلاك » تترنم باغنية مبتذلة كانت قد انتشرت اخيرا فى احياء اللهو ، وانسجمت بالنغم فراحت تهز صدرها ، وردفيها كأنها ترقص ، ثم قالت والخبث يشع من نظراتها منذ اسبوع تمكنت من الخروج ، وقضيت الليل بطوله استمتع بالحياة ، ملأت بطنى بالخمر حتى لم اعد اشعر بما يدور حولى .. اه لو تعرف بما جرى لهذه الحمارة الغبية عندما استيقظت فى الصباح فوجدت نفسها مخمورة .. الدنيا تدور من حولها ورأسها يكاد ينفجر بصداع الخمر .. لم تكن تدرى بما يجرى لها اثناء فترة غيبة الوعى التى مرت بها فكادت تجن لفرط خوفها مما يحتمل ان يكون قد وقع لها وهى فى غيبوبتها

قال لها : وانت الم تشعرى بصداع الخمر او دواره مثلها ؟!

قالت فى دهشة لجهله : انا ؟ طبعا لا .. كيف اشعر به بعد ان « عدت » وبقيت هى فى الخارج تتحمل تبعه اعمالى ! اننى اذكى من ان احاول الخروج مرة اخرى وهى فى مثل هذه الحالة المزرية .. فى مثل هذه المواقف افضل ان ابقى فى الداخل سعيدة ، واتركها فى الخارج تتعذب وحدها !

قال لها : وماذا يفعل « رالف » حين يواجه الموقف ؟!

قالت فى سخرية شديدة : وهل تظننى مجنونة لادعه يعرف ؟ اننى احرص دائما على عدم الخروج فى وجوده .. ان عمله يقتضى منه السفر كثيرا وعندئذ امارس حرياتى واذا فوجئت بعودته احرص على تقليد زوجته حتى يطمئن قلبه ويبتعد عنى .. اننى ممثلة بارعة وباستطاعتى ان اقلد بعض اشياء ، فما بالك بهذه البلهاء الغبية .



جلس الطبيب مشدوها امام هذه المرأة التى تتفجر بالحيوية وتسمي نفسها « أيف بلاك » .

وأخذها الغرور بنفسها فراحت تسرد له قصص الكثير من الأحداث التى تعمدت أن تعكر بها صفو حياة توأمها الطيبة ، ومن ذلك حادث زيارتها لابنة العم « فلورنس » ، فلقد ذهبت اليها بدون « رالف » ، وبذلك أمكنها أن تبقى فى « الخارج » معظم الوقت .. تعُب من المتع الهوجاء عبا .. ولما تأخرت عن موعد رجوعها الى البيت ، واشتد القلق برالف الذى كانت الشيطانة « ايف بلاك » تكرهه بالغ الكراهية وتتمنى تحطيمه ، اتصل بها مستفسرا عما دهاها ، فأنفجرت فيه كالبركان وراحت تسبه وتصرخ فى وجهه بأقبح ، الألفاظ ، ولم تتورع عن مصارحته بنفورها منه واحتقارها لشخصيته وعقليته .. ولقد تلقى المسكين لطمة عنيفة حطمت كبرياءه ، اذ لم يكن يخطر له على بال ان زوجته تُكنّ له هذه الكراهية البشعة ، وهكذا احتدمت بينهما المعركة التى انتهت بأن اعلنت قرارها بالطلاق منه ، وأوضحت له انه قرار نهائى لن تثنيها عنه قوة فى الوجود ..

ولقد اعترفت « ايف بلاك » للطبيب بانها فعلت ذلك تحت تأثير اعتقادها بأنها قضت على « ايف هوايت » نهائيا وتغلبت

عليها ، وأصبح في مقدورها ان تظل دائما فى الخارج تتمتع بحياتها كما تمتعت بها اثناء زيارتها لابنة عمها « فلورنس » .. لكنها كانت مخطئة فى هذا الاعتقاد ، اذ لم تلبث « ايف هوايت » الطيبة الشريفة المخلصة ان انتصرت ، واجبرت توأمها الشريرة على التوارى والاختفاء ، ومن هنا كانت المفارقة الشديدة بعودتها الى البيت باسمة راضية هانئة كأن شيئا لم يحدث على الاطلاق بينها وبين زوجها ، الامر الذى فسره ، رالف بندمها على مابدر منها ، والحقيقة انها كانت تجهل تماما كل ماحدث .

هنا برزت امام الطبيب مشكلة لا يعرف نتائجها : فماذا يحدث ياترى لو عرفت « ايف هوايت » بشخصيتها الاخرى !! لاشك انها ستبذل المستحيل فى سبيل التغلب على غريمتها وستعمل على حبسها داخل نفسها ، فهل ترضى الشيطانة بذلك ؟؟

قال الطبيب : ماذا تفعلين لو عرفت « ايف هوايت » بأمرك وحاولت القضاء عليك ؟

قالت بغاية العنف : اقاتلها دفاعا عن وجودى !

قال : كيف تقاتلينها وبأى وسيلة ؟

قالت : لست ادرى ، ولكنى واثقة تماما بقدرتى على قتالها ، فأنا أزداد كل يوم قوة ، وهى تزداد كل يوم ضعفا ، وفى هذه الحقيقة مايضمن لى النصر النهائى .

قال : وماذا تجنين من تحطيمها .

قالت فى ثقة وتأكيد : سيصبح جسدى هذا لى وحدى ، ولن تشاركنى فيه بلهاء مثلها .

قال : اذا كنت انت التى ذهبت الى « فلورنس » حقيقة ، فكيف لم ينتب ابنة العم الشك فى امرك ؟

قالت : لانها لم تكن تعرف من الاصل بوجودى .. ولقد حرصت امامها على تقليد « ايف هوايت » وهو ما افعله دائما مع كل من يعرفونها على قرب حتى لا أسبب لنفسى المتاعب .

قال الطبيب : والأصوات التى تسمعها « ايف هوايت » ؟

قالت : انه صوتى انا فقط .. فلقد قررت اخيرا ان اتحدث اليها مباشرة لعلى استطيع ان اقنعها برغباتى ..

ولكن ماذا كنت تنتظر من تافهة مثلها ؟

انها لا تستحق الاحترام لانقيادها لرغبات زوجها المستبد وخضوعها لتحكمه فيها .. هذا الحيوان لايهتم بذرة من مشاعرها ورغباتها واحاسيسها .. مخلوق انانى لايعنيه سوى اشباع رغباته منها .

ثم ضحكت فجأة بأعلى صوتها وقالت : منذ ايام انهال عليها هذا الحمار بالتأنيب والنقد والتجريح حتى افلح حقيقة فى ان يتعسها ويشقيها .

عندئذ جن جنونى ، ولم استطع أن اتركها لهذا الظلم الفادح ، فصرخت فى اذنها اهيب بها أن تضربه على أم رأسه ، وتقتل هذه الحشرة الحقيرة .

قال الطبيب وقد أخذ يساوره القلق الشديد لاحتمالات المستقبل : وهل سمعك « رالف » ؟

قالت باحتقار : ما هذا الهذيان يادكتور ؟ طبعا لا ، فهى التى تسمعنى دائما ، هى فقط ولا احد غيرها .

قال : وماذا فعلت « ايف » ؟

قالت : ضاحكة : ماكان ينتظر أن تفعله .

غبية مثلها ، مدت يدها الى شاطور المطبخ وامسكت به ثم تلبث ان تركته وقد تملكها الرعب لدرجة انها ـ ولا مؤاخذة ـ بللت سروالها !! .

وشعر الطبيب برجفة تسرى فى جسده وهو يتصور الجريمة التى تتهدد مصير « ايف هوايت » اذا تغلبت توأمها الشريرة يوما واقنعتها بقتل احد من احبابها .

ومع ذلك لم يجرؤ فى هذه المرحلة على مجاهرة مريضته الطبية بشخصيتها الاخرى التى مازالت لاتعرف شيئا عن وجودها ، لانها اذا عرفت فسوف تحاول القضاء عليها بالحيلولة دون خروجها ، ولكن « ايف بلاك » صارحته بأنه اذا حدث ذلك فسوف تخوض معها معركة .

حياة أو موت ، والأحتمال قوى فى انتصارها .

ولكن يجب أن يفعل لمريضته شيئا لانقاذها من الدمار ، ولم يبق امامه سوى ان يطلع زوجها « رالف » على حقيقة المرض الذى تعانيه زوجته وهو ازدواج الشخصية ، انما المشكلة فى الاسلوب .. فكيف يخبره بذلك ؟

لم تكن لا الدوائر الطبية ولا الأجتماعية تعرف بمرض ازدواج الشخصية الا من خلال القليل الذى ورد فى المراجع الطبية التى لايقرؤها سوى خاصة المتخصصين ، ولم يسبق أن ظهرت حالة واحدة تؤكد النظرية عمليا على الطبيعة .

وبناء عليه فلن يصدق « رالف » كلام الطبيب ، وأغلب الظن انه سيعتبره مخبولا أو مشعوذا ، فيمنع ، « ايف » من الاستمرار فى العلاج عنده ، وبذلك يقضى عليها نهائيا ، ويحرم الدوائر العلمية من ان تستفيد بدراسة هذه الحالة الأولى من نوعها فى الولايات المتحدة ، بل فى اوروبا كلها ايضا .

ومع ذلك صمم الطبيب على المخاطرة .

غير ان المحاولة كانت تتوقف علي قبول « ايف بلاك » مقابلة « ايف هوايت » والتحدث اليه ، فلا يمكن له ان يصدق

الا اذا رآها بعينيه وتبين بنفسه الفوارق الرهيبة بينها وبين زوجته .

فهل تقبل « ايف هوايت » وهي التي تكرهه بكل ما تملك من قوة على الكراهية ؟ !

قال الطبيب يستدرجها : وبماذا تنصحين الآن ؟

قالت ضاحكة : امرك حقيقة عجيب ايها العزيز .. اتسألنى عما ينبغى أن تفعله ؟ ! من منا الطبيب ، أنا أم أنت ؟! .

هذه ليست مهمتى ولكنى على استعداد لمعونتك فيما تريد لاننى بصراحة اصبحت اعجب بك ، وقلبى يميل اليك ، وبودى لو ترضى بتوثيق العلاقة بيننا .

قال : اذا كنت حقيقة جادة فى استعدادك لمعاونتى ، فهل ترضين بمقابلة « رالف هوايت » والتحدث معه ؟

قالت فى اشمئزاز واضح : أقابل هذا الحيوان ؟؟ ماشأنى انا به لألقاه واتحدث اليه .. اننى أمقت مجرد النظر فى وجهه ؟

قال : ولكنى اطلب ذلك خدمة لك ، فأنت بالمقابلة تنقذين « ايف هوايت » من متاعب كثيرة لابد ان تترتب عليها متاعب اشد لك .. فحالتها فى تدهور مستمر ، والضرورة تقتضى الآن بالحاقها بقسم الأمراض النفسية التابع للجامعة لتجرى لها الفحوص الضرورية لعلاجها ، وهذا ما لا يمكن أن يتم الا بأذن مكتوب وموقع عليه منه .. انت ولاشك تعرفين القانون فى هذا البلد ..

قالت : لكن ادخالها المستشفى سيمنعنى من الخروج والاستمتاع بالحياة ، فلماذا بحق الشيطان احبس نفسى فى بيت المجانين الذى تتحدث عنه ؟ ثم اننى قد تواعدت مع رجل لطيف على قضاء عطلة نهاية الاسبوع فى الشرب والرقص

معه ، وهذه فرحتى الوحيدة نظرا لأن « رالف » قرر أن يصطحب « بونى » ويقضى معها هذين اليومين عند اقاربه .. وبصرف النظر عن كل هذا ، ما شأنى انا اذا كانت « ايف هوايت » مجنونة .. افعلوا بها ماتشاءون دون ان تطلبوا منى معاونتكم ..

قال الطبيب : انك بمعاونتك لنا تسدين الى نفسك خدمة جليلة ، فبديلتك حالتها العقلية فى تدهور مستمر ، واذا لم تسرع الآن بانتهاز الفرصة لعلاجها فسوف تفقد عقلها نهائيا ، ونضطر الى ادخالها مستشفى للمجاذيب بقية حياتها ، وانت تعرفين انها فقيرة وزوجها بالكاد يكسب ما يكفى حاجات حياتهما ، ومعنى ذلك أن يستقر بها المقام فى مستشفى حكومى بالمجان حيث يعيش عشرات من فقراء المجانين ، فى عنبر واحد ، وباستطاعتك ان تتصورى نوع الحياة الذى ينتظرك هناك .. افليس من الأكرم لك أن نتعاون على انقاذها لننقذك من هذا المصير الرهيب ؟ !

قالت وقد بدأ عليها الخوف لأول مرة : لا أريد بالطبع أن يحدث لى ذلك .. ولست فى الحقيقة اكره « ايف هوايت » الى الحد الذى يجعلنى ادفعها الى مثل هذه النهاية البشعة .. ولكنى اخشى اذا انتم ادخلتموها المستشفى ان اعجز أنا عن الخروج والاستمتاع بالحياة ، ثم اننى احب ان اطمئن الى امر اخر : هل فى نيتكم ان تعالجوها بما يسمونه الصدمات الكهربائية ؟ اذا كان ذلك فرجائى الملح أن تفعلوا بها ذلك ، وأنا فى الخارج فلست احب أن تفرغوا هذه الشحنات فى رأسى اكراما لها .

وبعد أخذ وعطاء ، ومناقشات كثيرة طويلة ، قبلت « ايف بلاك » ان تكشف عن شخصيتها لرالف هوايت ، وأن تتحدث

معه فى الموقف ، وتتعاون اذا اقتضى الامر فى الحاق بديلتها بالمستشفى الجامعى للعلاج .

وزالت العقبة الأولى ، لكن القلق لم يترك الطبيب ..

فقد بقيت امامه مشكلة لاتقل خطورة عن الأولى ، وهى تأثير رؤية « ايف بلاك » على رالف .. فهذا الرجل المعذب يعيش فى حيرة قاتلة منذ تغيرت أحوال زوجته العاقلة الصبور واصبحت تفاجئه بتصرفات لاتطيح بحياته فقط ، بل تهدد استقرار ابنته الطفلة الوحيدة ، فضلا عن تدمير اقتصادياته المحدودة التى وصلت الى الحضيض منذ اشترت « ايف » الثياب الغالية ، واستهلكت بها جميع مدخراته .. وكبلته فوق ذلك بديون تحتاج الى سنين طويلة لسدادها .

لقد هدت هذه الصدمات العنيفة كيان الزوج المسكين ، فماذا يصيبه بعد ذلك اذا فوجىء برؤية ، « ايف بلاك » وقيل له انها الشخصية الاخرى لزوجته التى عاش معها سبعة اعوام على الأقل فى سعادة ما بعدها سعادة .

لكن الامل الوحيد الباقى لـ « ايف هوايت » يتركز فى دخولها المستشفى ، ودخول المستشفى لايسمح به القانون الا بأذن مكتوب من الزوج ، ومعنى ذلك انه لا مفر من مواجهته بالحقيقة .

واعد الطبيب كل العدة للقاء ، واجلس « ايف بلاك » فى غرفة اخرى غير غرفة المكتب الذى قابل « رالف » فيها .

وادخل الرجل الى حيث تجلس بديلة زوجته ..

ففوجىء بامرأة تجلس امامه تملك جميع المواصفات الجسدية التى تميز زوجته عن غيرها من النساء ، ومع ذلك لم تكن هى « ايف هوايت » فشعرها الاسود الصقيل هو هو ،

لكنه لم يكن فى يوم من الايام بهذه الروعة وهو ينسدل على كتفها العاجى باغراء ..

والعينان الزرقاوان هما هما ، لكنه على طول معرفته بهما لم يسبق أن رأى فيهما هذا البريق الشيطانى ولا النظرات المثيرة الجريئة التى لايمكن أن تصدر الا عن امرأة محنكة مجربة ؟ ! والساقان والذراعان كانت بالتأكيد هى هى ، ولكن كيف تغير تأثيرها عليه الى هذا الحد الذى صور له أنه يقف امام راقصة باليه تملك من كمال الجسم وجماله ما لاتملكه اية امرأة عادية .

ووقف الرجل مذهولا لايقوى على النطق .

وتضاعف ذهوله عندما حيته بصوت اجش عميق لايمت بصلة الى صوت زوجته ، ثم راحت تحادثه بعبارات سوقية ماكانت « ايف هوايت » لتقبل مطلقا ان تتفوه بها .

كانت هى « ايف هوايت » ولكنها لم تكن « ايف هوايت » !!

وبلا ادنى شفقة اخذت « ايف بلاك » تجيب عن اسئلة الطبيب وتكرر ما سبق أن قالته عن « رالف » وكيف انه مخلوق كريه بغيض يثير فى نفسها الاشمئزاز لمجرد رؤيته ، وأن « ايف هوايت » امرأة بلهاء غبية لقبولها المعيشة مع حمار مثله ، ومن واجبها ان تطلقه او تقتله لتتخلص منه ، فمن السخافة ان تتردد فى ذلك من اجل اناني قاس مجرد من الشعور والادراك .

كانت هذه الحقائق الموجعة المرة تنهال على رأس « رالف » وكأنها مطارق حديدية تضرب رأسه ، اذ لم يكن يخطر له على بال ان تحمل زوجته هذا القدر المخيف الهائل من الكراهية والأحتقار . ودارت الجدران من حوله ، وخيل

اليه كأن الأرض تهوى من تحت قدميه ، وحصن الزوجية الحصين ينهار فوق رأسه .

وهجره وقاره فلم يجد امامه سوى أن يتذلل ويستعطف ويستجدى الرضا من زوجته مستعينا فى التأثير عليها بما يعرفه عن ثقة من حبها الجنونى لابنتها الوحيدة « بونى » .

قال لها فى صوت مرتجف والدموع تملأ عينيه : وماذا عن « بونى » ابنتنا الوحيدة الحبيبة ؟ .. الا تشفقين عليها من الحرمان من عطف والديها ورعايتهما ؟ ! كيف استطيع ان اقوم بالواجب نحوها وحدى ودون ان تكونى الى جانبى معها ؟! ماذا افعل بها ؟ !

قالت بلا مبالاة صادقة غير متصنعة :

لماذا تسألنى ؟ افعل بها ماتشاء .

فبونى مشكلتك انت وزوجتك .. وليست مشكلتى انا .. ما هذا الغباء ؟ هل ينبغى ان أعيد عليك الكلام ألف مرة لتفهم أن الطفلة اللعينة من شأنكما وحدكما ولا علاقة لى بها حتى اشارك فى تحمل مسئوليتها ؟ !!

وبدا على وجهها الغضب الشديد ، وراحت تحك ساقيها باظفارها حتى اوشكت ان تدميهما ، وقالت : هذه الجوارب النيلون اللعينة .. انها تصيبنى دائما بحساسية فظيعة . ولست ادرى لماذا تصر هذه الغبية ايف على لبسها .

وكانت هذه مفاجأة اخرى ، فالجوارب النايلون لم تكن تصيب « ايف هوايت » بأى حساسية .

قالت : ألم ننته بعد ؟ والى متى تظل هذه المهزلة مستمرة ؟؟

وانتهى اللقاء المفجع وخرج الزوج وراء الطبيب وهو يجر

قدميه ويتمايل كأنه غير قادر على حفظ توازنه .

قال الزوج المسكين للطبيب : لست ادرى كيف أصف لك الموقف ، فلقد بدت لى عندما وقعت عيناى عليها انها زوجتى بالتأكيد ، ولكن كل دقيقة مضت اخذت تشككنى فى هذه الحقيقة ، واعتقد الآن انها امرأة اخرى لا تمت لمن أعرفها بصلة .

واستقر الرأى بينهما على الحاق المريضة بمستشفى الامراض النفسية .

لكن بقيت أمام الطبيب مشكلة استعادة شخصية « ايف هوايت » ، وحين خابت محاولاته اضطر الى أن يلجأ مرة اخرى الى التنويم المغناطيسى الذى سبق ان نجح بواسطته فى سبر اغوار نفسها .

وافلحت الطريقة .. وبعد ان نامت « ايف بلاك » نادى بديلتها . وحين فتحت المريضة عينيها تغيرت حالها فجأة : خبت النظرات فى عينيها . وماتت الابتسامة على شفتيها ، وانحنى ظهرها تحت وطأة احزانها ، وخفت صوتها وعاد الى رنته الطبيعية المنكسرة الوقور ، وأصبح حديثها مهذب العبارات منتقى الألفاظ .

وما ان عادت « ايف هوايت » الى وعيها .. حتى قالت : ماذا جرى ؟ .

هل كان امرا ذا بال ؟ يخيل الى اننى غبت عن الوعى لحظة ، ولكنى لست متأكدة من ذلك .

ثم بدا عليها الابتهاج فجأة وقالت :

رأسى يادكتور ، لقد شفى من الصداع تماما !!

قال الطبيب : هل تضايقك جوارب النايلون او تسبب لك حساسية ؟؟

قالت وقد اتسعت عيناها دهشة : لماذا هذا السؤال ؟ انني ارتدى الجوارب النايلون طول عمرى ولم تسبب لى متاعب على الإطلاق ..

ثم كشفت عن ساقيها فاذا بالطفح الاحمر قد اختفى تماما ولم يبق له اثر ..

قال لها : الا يساورك الشعور احيانا انك اثناء غيبة الوعي تتحولين الى شخص آخر ؟

قالت وقد شاب القلق نظراتها : انا ؟ لست افهم ماذا تعنى بهذا السؤال !!



كان الطبيبان الزميلان « تيجين » و « كليلكى » يتشاركان فى علاج « ايف هوايت » ويتناوبان الجلوس معها ، ثم يجتمعان كل ليلة ليدرسا ما وصلت إليه حالتها حريصين على الا يكونا معها خلال جلسة التحليل الواحدة الا للضرورة القصوى حتى لاترتبك المريضة ويتبلبل ذهنها فى وجود الأثنين .

ولم يكن الطبيبان قد صادفا من قبل حالة من حالات المرض النفسى المسمى بإزدواج الشخصية ولا وصل إلى علمهما او علم المجامع الطبية المعترف بها حالة من هذا النوع ، وان كانت المراجع العلمية قد اوردت ذكره ، واكدت انه كان يسمى منذ قديم الزمن « لمسة الشيطان » التى استوحى منها بعض كبار الروائيين قصصا مثل « الدكتور جيكل ومستر هايد » لمؤلفها « روبرت ستيفنسن » و « دراكولا » لمؤلفها « برام شتوكر » .. لذلك بات لزاما على الطبيبين وقد اتيحت لهما هذه الفرصة النادرة أن يعكفا على دراسة هذه الحالة الاولى من نوعها دراسة وافية ، ويسجلا كل صغيرة وكبيرة مما يحدث فيها بكل وسائل التسجيل الصوتية والمرئية لتتوافر لهما الاسانيد القوية قبل ان يفكرا فى طرحها على المجامع العلمية .

ولكيلا تتأثر هيئة التمريض والعلاج فى المستشفى بأية فكرة مسبقة ، حرص الطبيبان على اخفاء كل ما يعرفانه من مرض « ايف هوايت » عن المشرفين عليها والمتصلين بها فى قسم الأمراض النفسية الذى اتفق على الحاقها به ، وكل ما طلبه المختصان النفسيان أن تراقب حركات المريضة وسكناتها بمنتهى الدقة والحيطة والحذر حتى لا تشعر بهذه الرقابة ، وأن يوضع تقرير عنها فى نهاية كل يوم يسجل فيه اى تصرف غير مألوف يأتى منها .

ودخلت « ايف هوايت » المستشفى ..

وفى خلال الأيام الأولى كانت مثلا لايبارى فى الرقة والهدوء والحياء والتضحية ، تقضى معظم وقتها فى خدمة المرضى وقضاء حاجاتهم ، واذا ساءت حال احدهم تتطوع « ايف هوايت » بالجلوس معه ومواساته الساعات الطويلة ، حتى اطلق عليها جميع من بالمستشفى لقب الراهبة الطيبة .. وكانت بالفعل كالراهبة فى طيبتها وعفتها وتفانيها ، وفى اوقات الفراغ التى لاتجد خلالها ماتفعله لخدمة الانسانية فى مجتمع عنبر المرضى الذى تعالج فيه ، تنتحى جانبا وتجلس وحدها تقرأ فى احد الكتب الأدبية القيمة التى أتت بها معها الى المستشفى .

وكان الطبيبان « تيجين » و « كليلكى » يواليان الجلوس معها كل صباح بعد ان يصلهما التقرير اليومى من المشرفين عليها بالمستشفى ، لقد اجمعت التقارير كلها على انها اقرب الى القديسة منها الى المريضة ، وأن تصرفاتها دائما طبيعية رصينة ليس فيها ما يلفت النظر بغرابته .

وفى جلساتها مع الطبيبين اخذ لسانها ينطلق بالكلام تدريجيا ، فعرفا منها ان اباها كان مزارعا وسمسارا فى آن

واحد ، ولقد كانت موارده المحدودة تسمح له بتوفير الضرورات لاهل بيته وقليل من الرفاهيات .. واخذت تؤكد فى كل مناسبة انها ظلت دائما محبوبة معززة من والديها ، ولقد حرصا على اسعاد طفولتها بدفء عواطفهما ، ولا تذكر مرة انهما لجأ فى تربيتها الى أى لون من الصرامة او العنف .. والمرات القليلة التى استحقت فيها الزجر والتأنيب لغلطة ارتكبتها ، كانت الأم دون الأب هى التى تتولى مهمة تقويمها .. ولكن بقدر واضح من الحكمة والحنان والعطف .

وسردت عليهما ايضا من ذكريات طفولتها ان امها وضعت بعد مولدها بسنوات قلائل توءما .. بنتين .. اعترفت « ايف هوايت » بأن عناية والديها بالصغيرتين الجديدتين اثارت غيرتها واقلقت نفسها ، لكن شعورها نحوهما لم يتسم مطلقا بالحقد والمرارة ، ثم ان حدة غيرتها خفت بمضى الايام حتى زالت تماما ، واصبحت تحمل لاختيها الصغيرتين حبا صافيا اصيلا لاتشوبه أدنى شائبة .

ومضت الأيام و « ايف هوايت » فى هدوء واستقرار .

ولم تعد تشكو على الاطلاق من الصداع او غيبة الوعى ، ولم ير المشرفون عليها من الممرضات واطباء الامتياز مايثير اهتمامهم فى تصرفاتها وحالتها العامة .

ثم حدث ذات يوم ان فوجئت رئيسة الممرضات وهى تقوم بجولتها المسائية المعتادة بـ « ايف هوايت » امام مريض شاب تقضى حالته بالتنقل دائما على كرسى متحرك لعجزه عن السير وكانت هى ترقص له وتغنى بغاية الخلاعة ، ولفرط مرحها تحاول أن تجذب المريض من على كرسيه لكى يشاركها فى الرقص .

وانقذوا المريض الكسيح من بين يديها بجهد جهيد ،

وقادوها الى حجرتها بزعم ان موعد تعاطيها الدواء قد حان ، وظل الجميع طول الليل يتحدثون بمنتهى الدهشة عما اصاب الراهبة الوقور ، ولم يستطع احد لا من المرضى ولا الممرضات ان يفسر ما دهاها من تغير عجيب !!

وجاء بالتقرير الصباحى الذى اعتادت رئيسة الممرضات ان تقدمه الى الطبيبين يوميا : ان « ايف هوايت » استيقظت فى الصباح التالى وقد عادت الى طبيعتها الهادئة الرائعة ، وقابلتهم جميعا بلا حرج او ارتباك ، واستأنفت خدماتها الانسانية للمرضى وكأن شيئا لم يحدث على الاطلاق فى الليلة السابقة .

وبعد ذلك بأيام اهتز مجتمع قسم الأمراض النفسية لامر آخر ، وهو أن احد اطباء الامتياز الجدد ، وكان صغير السن وسيم الشكل ، تطوع لفرط رغبته فى الاستفادة العلمية بأن يقوم بالرعاية الليلية ، زيادة على عمله اليومى المعتاد .

وكان الطبيب الشاب يعرف « ايف هوايت » على صورتها الملائكية الرائعة ، ولكن الذى حدث فى مساء ذلك اليوم انه جلس بعد العشاء يتسلى امام التليفزيون .. فاذا بها تقبل عليه ، وترجوه بصوت عميق اجش ان يذهب معها الى غرفتها بدعوى أنها فى حاجة لمن تفتح له قلبها وتفضى له بمتاعبها . وانخدع الطبيب بحديثها المعسول فذهب معها الى غرفتها ، ولكنه لم يلبث أن خرج جريا وقد احمر وجهه وتصبب العرق من جبينه .. واتصل فورا برئيسة الممرضات تليفونيا ، وطلب منها أن تأتى فورا لاغاثته . وحين عرفت الرئيسة بتفاصيل ما فعلته « ايف هوايت » بعد أن استدرجته الى غرفتها ، وكيف نجا منها بنفسه فى الوقت المناسب رفعت الأمر الى الطبيبين مع رجاء ملح من الطبيب الشاب بنقله فورا من هذا القسم الى قسم آخر لاتكون به « ايف هوايت » !!

واصبح من الضرورى على الطبيبين ان يستحضرا « ايف بلاك » ويعرفا منها تفاصيل الموضوع ، ولم يكن من سبيل الى ذلك الا بتنويم « ايف هوايت » مغناطيسيا كما حدث فى المرة السابقة حين ارادوا صرف « ايف بلاك » .

ونجحت الفكرة ونامت « ايف » بمنتهى السهولة ، ولما نودى على « ايف بلاك » لبت النداء لفورها ، وفتحت المريضة عينيها ، وقد تبدل شكلها تماما كما حدث فى المرة الأولى ، وقالت بصوتها الاجش العميق لطبيبها المفضل : أهلا بك ايها العزيز ، ماذا لديك من اخبار ؟

قال : بل انا الذى اريد ان اتوجه اليك بهذا السؤال ..

قالت فى ازدراء : هذا المكان الذى ادخلتم « ايف هوايت » فيه غريب للغاية .. وقد قضيت الأيام الأولى فى فحصه ودراسته ، ولكنى ضقت ذرعا بهذه الحياة الخاملة البغيضة ، فتغلبت على « ايف هوايت » وخرجت لانطلق بطريقتى الخاصة .

قال : ولكنك وعدتنا بعدم التدخل فى حياة « ايف هوايت » لتسهلى علينا بذلك مهمة علاجها الذى اذا لم يتم فسيكون مصيرك معها مستشفى الأمراض العقلية مدى الحياة .

قالت فى حنق شديد : انكم تبالغون فى استغلالى ، فلماذا يطلب منى ان اسهم فى تسهيل علاجها-؟ ! وما شأنى أنا بها ، ولماذا تحملوننى مسئولية نحو انسانة غريبة عنى لا تصلنى بها ادنى صلة ؟

ثم ضحكت عاليا وقالت وكأنها تذكرت شيئا : على فكرة هذا الطبيب الشاب افسد على خطتى بما اصابه من خوف وفزع .. انه مازال غرا اخضر العود .. لم ينضج بعد ولم تكتمل رجولته .. وعلى كل حال لم اكن فى الحقيقة ابتغى

سوى مضايقة « ايف هوايت » كما سبق ان فعلت اثناء زيارتى لفلورنس .. حين خرجت ذات مساء والتقطت رجلا من الطريق ، وسكرنا معا ورقصنا واستمتعنا الى مطلع الفجر .

وعادت تضحك مرة اخرى واردفت تقول : « آه لو رأيتها حين استيقظت فى الصباح ووجدت انها ترقد فى فراش مع رجل غريب لم يسبق لها أن رأته طول حياتها .. كاد قلبها يقف لفرط الذعر الذى اصابها ، وظلت ترتجف كأنها اصيبت بقشعريرة شديدة ، ثم جمعت حوائجها وخرجت تجرى من المكان تاركة الرجل المسكين فاغرا فاة دهشة وعجبا .. كنت فى هذه المرة اريد ان ارى وجهها حين تستيقظ وتجد الطبيب الصغير بجوارها ، فتنال الفضيحة التى تستحقها هذه الغبية التى ترتدى مسوح القديسين ، وتعمل دائما على ان تكون فوق مستوى الخطأ !

واسقط فى يد الطبيبين ، ولم يجدا امامهما من سبيل سوى ان تعرف « ايف هوايت » بوجود غريمتها كى تبذل من جانبها جهدا فى التغلب عليها .

غير انهما لم يكونا على ثقة بتأثير ذلك عليها ، فقد تنقذها هذه المعرفة وقد تحطمها تماما ، لكن هناك ايضا الهواجس التى تنتابها نحو مايحتمل ان تكون قد فعلته ، وهى فى نوبات غيبة الوعى ، واستمرار هذه الهواجس لا يستبعد مطلقا ان يدمرها .

وتناقش الطبيبان فى كافة الأحتمالات واخيرا استقر بهما الرأى على مكاشفتها بالحقيقة .

وادخل عليها الطبيبان الخبر بالتدريج خلال جلسات التحليل النفسى التى كانا يعقدانها لها يوميا اثناء اقامتها بالمستشفى .

وبدا بظاهرة السير اثناء النوم وضربا لها أمثلة بذلك ، وانتقلا من هذا الموضوع الى الأصوات التي يسمعها بعض المرضى وقدما لها التفسير العلمي لهذه الحالة .

وبهذا التدرج العلمي المقنع وصلا الى مرضها ، وشرحا لها قضية ازدواج الشخصية ، وحدثاها عن « ايف بلاك » وكيف تتصرف وتتحدث وتسهم بالقسط الأوفر في الايقاع بينها وبين زوجها « رالف » مثلما فعلت حين اشترت الثياب الغالية وخربت بها ميزانيته .. وسردا عليها كافة الأعمال المستهترة التي قامت بها غريمتها مثل شرب الخمر ومضاجعة الرجال الغرباء .. وغيرها من المظاهر الفاضحة التي فوجئت بها « ايف هوايت » حين كانت تستيقظ من حالات غيبة الوعي التي تصيبها .

واستمعت المريضة الى كل هذا بغاية الاهتمام .

وبدأ واضحا انها ارتعبت للحقيقة واهتزت من اعماقها .

وعندما اهتدت من الطبيبين الى مصدر الصوت الذي كانت تسمعه بحثها على ضرب زوجها او قتله ، تضاعف خوفها من ان تتمكن غريمتها في يوم من الأيام من دفعها الى ارتكاب جريمة تقضي عليها عقليا واجتماعيا وماديا .

واكثر ما كان يخيفها ان تكون « ايف بلاك » قد استدرجتها اثناء مغامراتها الجنونية الى ارتكاب الخطيئة ، وهو ما لايمكن لشريفة عفيفة مثلها أن تحتمله وترضى ان تعيش بعاره .. لكن الطبيبين اكدا لها أن « ايف بلاك » كانت تنسحب دائما في آخر لحظة قبل ان يتمكن الرجل الذي تلتقطه من أن ينال وطره منها ، ولقد كانا صادقين فيما ذكراه لها ، اذ انهما من خلال أحاديثهما مع « إيف الشيطانة » تأكد لهما رغم كل ما تفعله من ألوان الاستهتار التي لا تجرؤ عليها سوى نساء الطريق :

مثل السكر والرقص والمغازلة والتقاط الرجال من الطريق ، تحرص دائما على أن تهرب بنفسها فى اللحظة المناسبة ، مما يدل على انها رغم كل استهتارها تحتفظ فى قرارة نفسها بأصول العفة ، وهذه الأصول الدفينة هى التى تحول دونها ودون تخطى الفاصل النهائى بين الحلال والحرام !

وادخل هذا الكلام طمأنينة على نفس المريضة ، وأخذت حالتها تتحسن باطراد واضح ، وقلت نوبات الصداع ، وخفت وطأتها ، كما انقطعت الأصوات التى كانت تسمعها ، وبذلك اصبح وجودها بالمستشفى غير ضرورى ، ولم تعد تحتاج الا لبعض الجلسات الاسبوعية او الشهرية التى يمكن اتمامها من خلال العيادة الخارجية لقسم الأمراض النفسية .

وبهذا الرأى تقرر الأفراج عن « ايف هوايت » .

وذات صباح خرجت من المستشفى برفقة زوجها والدنيا لاتكاد تسعها لفرط سعادتها بالعودة الى بيتها حيث تعيش ابنتها الحبيبة « بونى » التى لم يسمح لها برؤيتها أثناء اقامتها بالمستشفى .

وكان « رالف » هو الآخر سعيدا بذلك بعد ان عرف بحقيقة مرضها وزالت نقمته عليها ، وتأكد له أن كل ما صدر عنها ، أتى وهى مسلوبة الأرادة لا عن قصد وتعمد .. وقبل خروجه بها من المستشفى قطع على نفسه وعدا بأن يكون رفيقا بها ، حنونا عليها ، والا يشتد فى نقدها او توجيهها تلافيا لخدش مشاعرها ، واحتمال مايؤدى ذلك اليه من انتكاس حالتها .

ومضى شهران على خروج « ايف هوايت » من المستشفى وحالتها فى تحسن مطرد .

وكانت تعود الى الطبيبين بين آن وآن لمداومة الجلسات النفسية ، وقد اكدت لهما انها تخلصت تماما من الصداع ،

ولم تعد تصيبها نوبات غيبة الوعى الا فى اضيق الحدود وابسط الأشكال ، ومن ذلك مثلا حين عاد زوجها ذات يوم ظهراً يطلب الغداء .. وكانت تعتقد انها قدمت له الافطار قبلها بدقائق .. كذلك الأصوات الوهمية فقد قلت كثيرا عن ذى قبل ، ولم تعد مسموعة جيدا او مفهومة . ولم يصل ايضا الى علمها ، ولم يلفت أحد نظرها إلى «إيف بلاك » قد انتهزت الفرصة وخرجت تمرح لتحرجها .

فيما عدا حادثا بسيطا اثار قلقها ، فحين كانت تعيد تنظيم دولاب ملابسها الذى تعودت ان تخزن فيه احتياجات المواسم الماضية ، عثرت تحت اكوام البياضات والأغطية على ثوب من الحرير الرخيص لونه احمر فاقع ومعه زجاجة من العطر الحقير الرخيص ، عندئذ عرفت ان غريمتها هى الفاعلة ، وبمراجعة حساباتها الخاصة ، وجدت نقصا فى المبلغ الصغير الذى تدخره لنفسها من مصروفات البيت ، والنقص يساوى ثمن الفستان الذى وجدته .

واختارت « ايف هوايت » ان تكتم امر هذه الحادثة عن زوجها ، ولم تشأ ايضا ان تحرق الثوب الاحمر كما خطر ببالها ان تفعل فى البداية ، خوفا من ان تثير بذلك ثائرة غريمتها وتدفعها الى التمرد والتحدى .

كانت تريد ان تبقى شخصيتها الاخرى هادئة كى يتسنى لها أن تسوسها بقدر الامكان ، وتتلافى الاخطاء والفضائح .

وسارت الأحوال عموما بهدوء فيما عدا حادثا واحدا دفع بايف هوايت الى القلق الشديد .. فبينما كانت تسير فى الطريق ذات يوم ، وجدت نفسها وجها لوجه مع جندى فى مقتبل العمر لم يسبق لها أن عرفته او قابلته فى اى وقت أو مكان .. وما أن رآها الجندى حتى تهلل وجهه بالفرح

الشديد ، واخذ يحييها بحرارة ولهفة ، ويسألها عاتبا اين كانت ولماذا لم تف بالوعد الذى سبق ان اتفقت معه عليه .. ففهمت « ايف » من ذلك أن شخصيتها الاخرى سبقتها اليه ووثقت روابط المودة بينه وبينها .. لكنها رغم الهزة العنيفة التي اصابتها تمالكت نفسها ، وتحدثت اليه بمنتهى الجفاء والبرود مؤكدة له أنها لاتعرفه ولا تحب ان تعرفه .. ولم يقبل الجندى هذا الكلام بسهولة ، لكن اللهجة التى تحدثت بها اليه ، والصوت الذى تكلمت به والملابس الوقورة الحقيرة التي كانت ترتديها ، دفعه هذا كله الى التشكك في تصوره ، فادار لها ظهره وتركها تذهب الى حال سبيلها وهو فى غاية التعاسة والشقاء .

ورغم الاحراج الذى شعرت به احست بنوع من الرضا عن نفسها للشجاعة التى واجهت بها الموقف ، والمهارة فى قدرتها على الخروج من المأزق بسلام .. وازدادت طمأنينة حين وجدت أنه منذ خروجها من المستشفى حتى ذلك اليوم ، لم يحدث ما يمس بكرامة « رالف » ، أو يضعه فى موقف محرج امام نفسه او أمام الناس .

وعندما علم الطبيبان بهذه التفاصيل تملكهما القلق الشديد .. فالوقائع التى حدثتهما بها المريضة متصورة انها أمور بسيطة ، لم تكن تبعث على الاطمئنان ، وتفسيرها الوحيد أن « ايف هوايت » مازالت بعيدة عن مرحلة الشفاء ، وان شخصيتها الأخرى موجودة ولديها القدرة على ارباكها وتعكير صفو حياتها .

■ ٦ ■

كان « رالف هوايت » بعد أن علم بمرض زوجته ، ورأى بعينيه ما يقطع بصحة هذا المرض ، قد راجع نفسه فى سلوكه معها ، وقسوته الدائمة عليها ، وجفائه الشديد فى معاملتها ، فحاول أن يصلح خطأه بتعويضها عن الأحزان التى سببها لها .. ولم يعد يتعالى على اظهار عواطفه ، نحوها ، أو يبخل بالاعتراف بتقديره لها ، واعتزازه بفضائلها الكثيرة التى سبق أن أنكرها فى موجة الغرور التى انجرف معها ..

ورغم سعادة « بونى » الصغيرة بعودة الحياة الطبيعية مع والديها ، ووضوح توافر حسن نية الزوجين ، ورغبتهما المشتركة فى التعاون للوصول بسفينة الزوجية الى بر الأمان ، ظل الزوجان بعيدين عن الغرض المبتغى ، ولم يحققا أى تقدم محسوس فى عملية تقاربهما العاطفى ، وبدت حياتهما فى الظاهر طبيعية ، ولكنها فى الباطن كانت على العكس تماما ... فالواقع أن « أيف » رغم عودتها الى زوجها سعيدة لم تستطع أن تحتمل أى لمسة منه ، ونفرت تماما من تلبية حقوقه الزوجية ، وامتنعت عنه امتناعا كاملا ، ولقد انعكس ذلك على علاقتهما الاجتماعية ، فكانا يقضيان الليالى جالسين جنبا الى جنب دون ان يتبادلا كلمة واحدة ..

ووجد الطبيبان أن استدعاء « إيف بلاك » لم يعد يحتاج الى تنويم « أيف هوايت » مغناطيسيا ، وأصبحت المسألة لاتتطلب سوى أن تنادى البديلة بأسمها فتحضر فورا ، مما يدل على أن الاثنتين عقدتا لونا من الهدنة خففت من وطأة المعركة القائمة بينهما .. وأن ظلت البديلة على احتقارها لايف هوايت واستهانتها بها لاصرارها رغم كل ما أصابها من عنت زوجها واستبداده ، على التمسك به ومراعاة مشاعره واحاسيسه ، والسعى بكل جهدها الى اجابة مطالبه وتوفير اسباب الراحة له . مع أنه مجرد « كبش » لايستحق فى رأيها رعاية أو تقديرا من اية امرأة فى الدنيا ..

وكانت هذه المشاعر التى تحملها الشخصية الثانية هى المشاعر الحقيقية لايف هوايت .. المشاعر الخفية المدفونة بين طيات عقلها الباطن ، والتى يرفض عقلها الواعى ، لفرط طيبتها وتدينها وحرصها على استقرار ابنتها ، أن يوجهها أو يعترف بها ، لهذا كان من الضرورى أن تشغل « ايف هوايت » بشىء ما يملأ وقتها ويبعد ذهنها عن متاعبها الدفينة ، ولكن هل يمكن أن يحدث ذلك دون موافقة الشخصية الاخرى القديرة على التدخل وافساد كل شىء ؟!

ونادى الطبيبان على « ايف بلاك » فحضرت فى الحال .. سألها أحدهما عما اذا كانت هى التى اشترت الثوب الاحمر الخليع والعطر الرخيص من النقود المدخرة من مصروفات البيت ، فاعترفت بذلك دون أدنى تردد ..

قالت : أنا لا أنكر أن هذه النقود خرجت فى الأصل من جيب « رالف » ، ولكنها لم تعد نقوده مادامت مدخرة من مصروف البيت ، فمن حقى ان انفق منها على متطلباتى

الشخصية ، فانا انسانة ، ومن حقى ان استمتع بقدر من الحرية لأحيا حياتى الخاصة .

قال لها : مادمت تريدين أن يكون لك مال خاص تنفقين منه كما تريدين دون أن يحاسبك أحد ، فلماذا لاتشتغلين ، ومن الأجر الذى تحصلين عليه تشترين كل ما تشتهين ؟

قالت بابتسامة السخرية : عجيب أمرك أيها العزيز .. إن عيبك هو أنك تثير دائما موضوعات غريبة .. كيف تقترح علىّ أن اشتغل وأنت تعرف مدى نفورى من الاستقرار فى مكتب أو متجر افنى بالعمل فيه زهرة شبابى ؟! هذه ليست حياة على الاطلاق ، ربما تكون الحياة التى تناسبها هى ، لكنها تثير الملل فى نفسى .

سألها : والجندى الذى اعترض طريق « ايف هوايت » ، متى عرفته ؟ وأين ؟

قالت : أنا لا أعرف هذا الجندى ولا صلة لى به ..

قال : بل أنت تكذبين ولقد اعتدنا منك هذه الرذيلة .. فاعترفى بالحقيقة .

قالت ضاحكة : عيبك الوحيد يا دكتور أنك تصدق كل كلمة تقولها لك هذه الغبية البلهاء ، مع أنها مخادعة ، وكثيرا ما تتظاهر بغير الحقيقة من أجل أن تحتفظ بالصورة الملائكية التى اشتهرت بها بين الناس !

قال لها : أريد الحقيقة فدعيك من المراوغة ..

قالت دون خجل أو حياء من كذبها السابق : طبعا اعرفه .. فقد قابلته ذات ليلة فى أحد مراقص « كولمبيا » أثناء زيارتى لفلورنس .. وجدته مسليا ومهووسا وقضيت معه السهرة أرقص وأغنى ، ولقد كاد يجن اعجابا بى ، فوعدته بالعودة اليه فى الليلة التالية ، ولكننى لم افعل .. كنت أريد أن

اتخلص منه بعد ان فهمت من تلميحاته الوقحة مايبتغيه مني .. ولما تصادف وقابلته في ذاك اليوم ضايقني بسماجته والحاحه فانسحبت بسرعة وتركته لها لتبرد حماسته بجمودها ورجعيتها .. كان يظن أني بلهاء ، وفي استطاعته ان يستدرجني ويضحك علي ، وليس أبغض الى قلبي من الانسان الذي يتصور انه يقدر على استغفالي !

وانتهت الجلسة دون ان تقتنع « ايف بلاك » بضرورة العمل « لأيف هوايت » .. ورأى الطبيبان أن يؤجلا الحديث في هذا الموضوع الى مناسبة أخرى .. وشجعتهما على ذلك فترة التحسن الصحي التي كانت المريضة تمر بها والهدنة التي يبدو أن الشخصيتين عقدتاها معا ..

لكن هذه المرحلة الهادئة السعيدة لم تدم سوى شهور معدودات ، وعادت بعدها المتاعب تعكر صفو الاسرة الصغيرة ..

وكان الجدار الذي اقامته المريضة بينها وبين علاقتها العاطفية بزوجها ، وفشل محاولاته في استرداد قلب امرأته .. قد اصاباه بحالة مؤلمة من الحزن والحيرة والتمزق النفسي ، فأخذ يكثر من قضاء أوقاته خارج البيت ، ويطلب المتعة في أماكن أخرى بعيدة بما يقتضي غيابه أحيانا أياما أو ليالي متتابعة ..

ولقد أحست « ايف » بما يعنيه هذا الغياب ، وما يحتمل ان يقدم عليه خلاله زوج محروم من حقوقه الشرعية ، فازدادت ذبولا ونحولا على مضي الأيام ، وتدهورت حالتها الصحية تدهورا ملحوظا .. والتدهور معناه ضعف المقاومة ، فانتهزت « ايف » الأخرى هذه الفرصة ، وعادت الى ممارسة الاعيبها المعهودة ، ومن ذلك أنها أخذت تستغل أوقات غياب « رالف »

عن البيت ، فتخرج هى أيضا إلى الشوارع تمارس حياة المجون التي تحبها غير مبالية بالطفلة الصغيرة « بونى » ولا عابئة بما تتعرض له من أخطار بتركها وحيدة فى البيت .

وكان الأب قد اتخذ منذ بداية الأمر الحيطة لذلك ..

فبمجرد أن عرف بمرض زوجته واقتنع بحقيقته ، أفهم الصغيرة أن أمها مريضة تصيبها نوبات فجائية تدفعها الى الخروج من البيت ، واذا حدث ووجدت الطفلة نفسها وحيدة ، فعليها ان تلجأ فورا الى اصدقائهم من الجيران .. وتبقى لديهم الى حين عودة أحد الوالدين ..

وعملت « بونى » بمشورة أبيها ، فكانت اذا وجدت أمها تختفى فجأة فى غيبة ابيها تلجأ الى الجيران الاصدقاء بعد ان توصد خلفها باب البيت .

ثم حدث ذات ليلة ان اختفت « ايف » تاركة الطفلة وحدها ، ولما ذهبت « بونى » الى الجيران لم تجد أحدا منهم بالبيت .. كانوا جميعا بالخارج والبيت مغلق مظلم ، فاستبد بها الرعب .. وعادت الى منزلها جريا وهى تصرخ بأعلى صوتها ، فتعثرت فى الطريق ، وسقطت على الأرض ، فأصيبت ساقاها بتسلخات شديدة ..

وأغمى على الطفلة ..

وعاد الأب بعد منتصف الليل فوجدها ملقاة على قارعة الطريق وهى مازالت غائبة عن الوعى ..

وبعد ساعة أو بعض ساعة اذا بزوجته تعود وقد ارتدت الثوب الأحمر الخليع والعطر الرخيص يفوح منها ..

وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير ..

فقد الرجل سيطرته على غضبه ، وانهال على زوجته ضربا

بمنتهى القسوة ، ثم انقطعت اخبار الزوجين عن الطبيبين مدة ، ولم تعد تصلهما معلومات عن أحوال المريضة ..

ثم جاءهما بريد الصباح ذات يوم ، برسالة مكتوبة بخط ردىء وعبارات ركيكة ، وقد جاء فيها : « أيها العزيز .. رأيت من الضرورى أن أبلغك بأن حالة « ايف هوايت » قد ساءت الى حد بعيد ، ولقد حاولت اليوم ان تقتل نفسها ولكنى منعتها حماية لنفسى لا حماية لها .. وهى حريصة على ان يظل مشروع الانتحار سرا لا يعلم به سواها .. ولكنى قررت ان اخبرك خوفا ان تعيد الكرة ، وقد لا أقوى فى المرة القادمة على منعها » ..

ووقعت « ايف بلاك » على الرسالة بالحروف الاولى من اسمها !

واتصل احد الطبيبين بالمريضة تليفونيا ، فوافقت ان تحضر اليه فى الموعد الذى حدده لها ، ولقد اعترفت له بانها كانت فى الفترة الاخيرة غاية فى الشقاء ، لكنها انكرت تماما قصة محاولتها الانتحار ، بل واستنكرت بعنف احتمال حدوث ذلك نظرا لحرصها على سعادة ابنتها ، واحتراما لعقيدتها الدينية التى تحرم الانتحار .

وبعد تردد واضح اعترفت لطبيبها بانها قررت ترك « رالف » نهائيا ..

لن تطلقه ، ولكنها ستنفصل عنه على امل أن يعالج الزمن ما تصدع من علاقتهما الزوجية ، فتعود اليه من أجل رعاية « بونى » التى ترى امها أن وجودها معها وهى فى هذه الحالة المرضية يهددها بالاخطار .. فأمام الحقيقة الدامغة كانت مضطرة لأن تعترف بأنها فى مرضها الخاص لم تعد كفئا لرعايتها ، وقد تصيبها بأضرار خطيرة دون ان تقصد أو تعى

مثلما حدث حين اغمى على الطفلة فى الطريق ، وقبل ذلك عندما حاولت خنقها .

ومع ان « إيف » كانت تتكلم بمنتهى الهدوء عن أملها فى الشفاء والعودة الى ابنتها فان نبرات صوتها المتقطعة والدموع التى تترقرق فى عينيها أوشكت ان تنطق صراحة بيأسها التام من الشفاء ، واقتناعها الدفين بأن حالتها المرضية ستزداد سوءا مع الأيام .. فحماية لابنتها يجب أن تبتعد عنها بسرعة .

وهكذا اعدت الترتيبات لكى تسافر « بونى » الى جديها لأمها ، فلقد كانا على قيد الحياة ، وهما مثلان فى الطيبة والحنان ، وتعلقهما بحفيدتهما واضح لاشك فيه .

ورضى « رالف » بفكرة الانفصال عن زوجته ، لعل بعده عنها يساعدها على الشفاء ويعالج نفورها الشديد منه .. وقرر ان ينتقل الى مدينة اخرى يزاول فيها العمل من جديد ، وكانت هذه تضحية بالغة من ناحيته ، اذ أن عمله الحاضر لايمكن أن يعوض فى مدينة اخرى ، ولسوف يضطر أن يبدأ من أول السلم فى أى مصدر للرزق يعثر عليه .

وتقديرا لتضحيته هذه صممت زوجته المريضة بدافع من نبلها الاصيل ان تتولى هى مسئولية الانفاق على ابنتها ، اذ مادامت هى السبب فى تحميل الاسرة كل هذه المشقات ، فليس اقل من أن تعمل ، ومن دخلها تؤدى الواجب المالى نحو ابنتها ... فضلا عن ان العمل قد يشغل ذهنها عن متاعبها ويساعدها على سرعة الشفاء ..

ونادى الطبيب على الشخصية الأخرى ليعرف وقع قرار « ايف هوايت » عليها .. فحضرت « ايف بلاك » بلا ادنى

تردد ، وتقبلت الفكرة بمزيج من الرضا وعدم المبالاة ، قالت : ربما تكون هذه الغبية مازالت على ذرة من الذكاء لتواتيها هذه الفكرة ، فلعل العمل والبعد عن الآخرين ينقذانها من التهريف الذى يطوف بخاطرها ..

ثم أردفت تقول للطبيب وهى تبتسم ابتسامة ساخرة : اتدرى ايها العزيز انها يوم شرعت فى الانتحار كانت حقيقة جادة ، وعندما رأيتها تمسك باحدى شفرات زوجها وتقربها من رسغها ، تاكد لى انها سوف تنفذ عزمها وتقطع شرايينها .. ولما كانت وحدها بالبيت ، وليس هناك من يسرع الى انقاذها ، فمعناه انها ستموت حقا ، وبموتها اموت انا ايضا .. ولما كنت احب الحياة ولا أريد ان أموت ، اضطررت ان أحول بينها وبين تحقيق الفكرة المخيفة التى استقر عليها فكرها ..

وانفرط عقد الأسرة بعد اسبوع .. سافرت « بونى » الى جدتها ، وذهب « رالف » الى مدينة اخرى يبحث فيها عن رزقه ، والتحقت « ايف هوايت » بعمل تتعيش منه وتتولى الانفاق على ابنتها .. ولم يكن العمل جديدا عليها ، فقبل زواجها كانت تعمل ، وبعد الزواج ايضا استمرت فى العمل بأمر « رالف » مساهمة فى نفقات البيت ، ولم يسمح لها زوجها بترك العمل الا قبل ايام من موعد ولادتها « بونى » .

وكانت تتقن الكتابة على الآلة الكاتبة ، وتعرف كيف تعمل أمام لوحة التليفونات ، واستعانت بهاتين الخبرتين فى البحث عن عمل ، ولكنها لم تجد مع الأسف سوى وظيفة متواضعة جدا ضئيلة الاجر ، ولايساعد دخلها على توفير اسباب الحياة المعقولة ، فكان عليها ان تتقشف لكى تستطيع أن تعيش

وتبعث الى والديها بنفقات « بونى » .. وأخذت من اللحظة الاولى تقتر على نفسها ، فشاركت احدى السيدات فى غرفة حقيرة بفندق شعبى من فنادق الدرجة الثالثة او الرابعة ، لكى تنام الاثنتان فيها وتتقاسما الاجر .. وأصبحت تبخل على نفسها بالضرورات التى تعتبر على ادنى المستويات شيئا مماثلا لفتات مائدة الحياة .

وبالرغم من كل الشقاء والمشقات التى اختارت ان تقاسيها اكراما لابنتها الحبيبة « بونى » لم تجد « ايف هوايت » الراحة النفسية التى تبتغيها ، اذ ظل القلق ينتابها من ان تطاردها شخصيتها الاخرى فى مقر عملها ، فتحرمها الوظيفة التى تكبدها من المشقة اضعاف الاجر التافه الذى تتقاضاه منها ، مما يضطرها الى ان تهبط بطعامها الى ما دون الحد الادنى الذى يحتاج اليه جسدها ..

وبفضل معرفة «ايف هوايت» بشخصيتها الاخرى ، أصبح فى مقدورها ان تروضها اكثر من ذى قبل ، وأن تقصر خروجها على عطلة نهاية الاسبوع بعيدا من رؤسائها وزملائها فى العمل محافظة على سلوكها الوقور الذى يلائم كرامة الوظيفة ..

ومع ذلك لم تنجح فى أن تتحكم فيها نهائيا ، فكانت « ايف بلاك » تستغفلها احيانا ، وتخرج خلال العمل لاوقات قصيرة ، ولم تكن المريضة بعد ذلك تعرف بما حدث الا من خلال الملاحظات الساخرة التى يتبادلها الزملاء عنها ..

وعندما اشتد بها الرعب لم تر بدأ من تقديم استقالتها ، وتركت هذا العمل درءا للفضيحة ..

وتكرر تنقلها من عمل الى آخر ، حتى انها خلال العام

الواحد الذى انصرم منذ انفصالها عن زوجها وابتعادها عن ابنتها ، جربت خمسة أعمال على الاقل .. ولقد كان لكثرة تنقلها هذا اثره السيىء على فرص عملها ، فاصحاب الاعمال الجدية المربحة كانوا يرفضون تشغيلها بمجرد معرفتهم بالمدد القصيرة التى تقضيها خارج العمل ، مما اضطرها تحت ضغط الحاجة الى الرضا باعمال اقل قيمة وأجرا .. ولقد ادى ذلك الى مزيد من تقتيرها على نفسها الى جانب الوحدة القاتلة التى فرضتها على نفسها بهروبها من عقد صداقات مع زميلاتها ، وامتناعها تماما عن اشتراكها في اى لون من الترفيه الاجتماعى .. وكل ما كانت تسمح به لنفسها هو الجلوس امام باب الفندق الحقير الذى تشغل فيه نصف غرفة ، لتشم بعض الهواء ، ثم لا تلبث ان تختفى فى فراشها ..

وكان بين نزلاء هذا الفندق مدرس ثانوى متقاعد يعيش هو وزوجته فى احدى الغرف ، ويجلس امام الباب فى المساء ليشم الهواء .. ولقد استوقف نظر هذين الزوجين المثقفين الحساسين ما يفيض به وجه « ايف » من احزان مكبوتة ، فلما رأياها تقضى عطلة نهاية الاسبوع كلها تقرأ كتاب شعر ، انتهز الرجل الطيب هذه الفرصة ، ووجه اليها بعض عبارات الحديث ، فتجاوبت معه وبدأ عليها المرح لأول مرة حين وجدته شغوفا بالشعر مثلها ، يعرف الكثير عنه مثلما تعرف ..

وقامت صداقة بين الطرفين ، وبقيامها اخذت حياة « ايف هوايت » تتغير الى الأفضل ، واصبح لحياتها المتقشفة الشقية بعض الطعم والمعنى ، لكن شخصيتها الأخرى استكثرت عليها هذه السعادة الجزئية ، فقررت ان تخوض الميدان لتعكر عليها صفو حياتها .

وحدث فى ذات مساء ان خرجت « ايف بلاك » ، وخلعت الثوب الحقير الذى ترتديه توأمها ، وبحثت فى قاع الدولاب حتى عثرت على الفستان الاحمر الخليع ، فارتدته وتعطرت ، ثم خرجت من الغرفة بعد ان صبغت وجهها بالمساحيق ، وأطلقت شعرها الاسود الغزير على كتفيها ..

وسارت الى باب الفندق غير مبالية بشىء ..

وهناك استوقفها صوت المدرس العجوز وهو يلقى عليها تحية المساء ..
ولكن ما أن تبينت عيناه شكلها الجديد وثيابها الخليعة المثيرة ، الا وارتفع حاجباه بغاية الدهشة ، وقال وكأنه لايصدق عينيه : ما هذا ياعزيزتى ؟ .. انت اليوم ولاشك رائعة الجمال حقيقة رائعة ..

غير أن الضحكة الخليعة التى اطلقتها .. والصوت العميق الاجش الذى اجابت به عليه ، دفعه الى التردد ، فتصور له انه ربما اخطأ فى اعتقاده انها زميلتهم الطيبة الوقور .. وعلى سبيل التأكد اسمعها قطعة شعرية كانا يتناقشان فيها اثناء جلستهما فى الليلة السابقة ، فظنت « ايف بلاك » الجاهلة التى لم تكن تعرف شعرا او تفهمه ان العجوز يغازلها ، فاطلقت ضحكة طائشة ، وقالت له وهى تغمز له بعينها : أنت يا قطيطى العزيز خفيف الروح ، وكلامك حلو مسل ، ولكنى فى عجلة من أمرى ، فمساء الخير ، واسمح لى بالانصراف ..
وانطلقت تجرى فى الشارع !!



من هذه الصور المتتالية يمكننا أن نفهم لماذا انتاب الطبيبين خوف شديد على مصير «ايف» .. فالبلدة التى تعيش فيها «ايف هوايت» وتعمل لم تعد بالبلدة الصغيرة كما كانت الحال منذ عهد قريب ، فقد كبرت مع الايام بسرعة ، وساعد على اتساعها قيام معسكر الجيش على اطرافها ، وكان من اثر ذلك ان امتلأت شوارع البلدة كل مساء بالجنود الذين يخرجون بالليل لقضاء أوقات راحتهم ، ويلجئون عادة الى حيث تقوم بيوت اللهو التى يقصدونها ..

وبوجود هذا المعسكر على مقربة من البلدة وخروج الجنود بالمئات في الشوارع كل ليلة تحولت البلدة الى احياء تكتظ بالحانات والمراقص ومسارح العرايا وأوكار الدعارة والمقامرين .. وكانت الصحف تطلع على الناس تباعا بأخبار الجرائم البشعة التى ترتكب فى أحضان هذه المواخير وتذهب ضحيتها فتيات بائسات اجترأن على الخروج وحدهن طلبا للتسلية أو المتعة .

ولم يكن من خطر على «ايف هوايت» المنكسرة الخجول التى لاتلفت الأنظار بشكلها الأقل من العادي ، وثيابها العتيقة

المتقشفة ، فامرأة مثلها تستطيع ان تسير أياما بين الجماهير ولا من عين تنظر اليها ..

انما كان الخطر كل الخطر على « ايف بلاك » اللعوب المرحة .. الجميلة الخليعة .. الأنيقة الضاحكة الطروب .. فالثياب التى تلبسها وان كانت رخيصة لكنها غاية فى الأناقة والاثارة .. والزينة التى تتزينها تظهرها فى أبهى صورة من الجمال .. وشعرها الأسود المصقول يكاد يخطف الأبصار بلمعانه وهو ينسدل على كتفيها .. وعيناها الزرقاوان الواسعتان تفيض منهما أضواء السحر .. وشفتاها المستديرتان تطلقان نداء للجنس لايمكن ان تخطئه اذن سكران أو صائد للمتعة .

وكان الطبيبان فى قلق دائم على هذه المرأة وما قد يتربص بها فى حارات أحياء المتعة وأزقتها التى ترتادها غير مبالية بالنتائج أثناء حالات خروجها الى المجتمع .. لكن الامر الوحيد الذى كان يهدىء من روعهما أحيانا ما يثبت لهما بوضوح بعد خبرة وقت طويل أن هذه اللعوب المغامرة تعرف كيف تهرب من الأخطار فى الوقت المناسب ، وتتقن التخلص من الورطات التى توقع نفسها فيها ومع الرجال الذين تلتقطهم من أحياء اللهو ودور المتعة والتسلية .. والعجيب انها لم ترتكب غلطة واحدة تمس عفتها مما يدل على انها حين تخرج لا تفعل ذلك طلبا للذة الجسدية ، انما سعيا وراء المغامرات التى تثيرها بالحماسة .. والتى تسكرها بالنصر حين تنجح فى الهروب من التورط فيها ، وتطرب مثلما يطرب الطفل حين ينجح فى القفز فوق قناة صغيرة دون ان يسقط ويغرق فيها .

فمن المؤكد ان « ايف بلاك » لم تكن فاسدة ، ولا ذات ميول جنسية شاذة ، بل كانت طفلة شقية عفرية تتعلق بالمغامرة وتحب المشاكسة ، وتطرب بالانتصار فيها ، ولاتريد بعد ذلك شيئا اخر على الاطلاق ..

لكن هذه الصفات الطيبة المنبت ليست كافية لأن تضمن لها دائما السلامة التى حالفتها منذ بداية خروجها الى الآن فالشطار مثلها ليسوا بمنأى من السقوط المدمر فى يوم من الايام ..

ووجد الطبيبان انهما بوصولهما الى هذه المرحلة من مرض « ايف هوايت » وعجزهما عن حل مشكلتها اصبح لزاما عليهما ان يكتبا تقريرهما مفصلا ليتقدما به الى « مجلة الأمراض النفسية الشاذة » التى يحررها اطباء قسم الأمراض النفسية والعصبية التابع لكلية طب جامعة جورجيا .

وعندما تقدم الطبيبان بهذا التقرير أحدث ضجة شديدة فى هذا الوسط العلمى .. ولشدة غرابته وبعده عن المألوف الطبى ، رفض أعضاء مجلس الادارة نشره قبل أن يقره رجال العلم الموثوق بهم .. وطلبوا ان تعرض الحالة اولا على لجنة موسعة من قسم العلاج النفسى مصحوبة بجميع الوثائق الصوتية والمرئية التى سجلت طوال فترة العلاج ، وان يسمح لهم بمناقشة المريضة فى شخصيتيها المختلفتين ، وان يوجها اليها اى اسئلة تتراءى لهم .. ولقد تم كل هذا ، ثم تبعه اجراء اختبارات نفسية واختبارات للذكاء والقدرات الخاصة ، وتحليلات للدم وصور للاشعة .. وقد قام بهذا الجانب الاخير مختصون ومحللون أخفيت عنهم الحقيقة ، وقدمت لكل فريق

منهم المريضة فى شخصيتها الأولى ، ثم قدمت للفريق الآخر فى شخصيتها الثانية ، وقد اتخذت كل هذه الاحتياطات منعا للمؤثرات التى قد تحدثها فيهم هذه الحالة الأولى من نوعها فى العالم ..

وكان مجمل التقرير الاول الذى وضع عن « ايف هوايت » : انها شخصية سمحة تميل الى العزلة ، ومبادئها الدينية والاخلاقية تكاد ترتفع الى مستوى القديسين ... وان وجهها ونظراتها وتعبيراتها توحى بأنها انسانة تطوى جوانحها على احزان بالغة .. وصوتها الخفيض ينم عن وقوعه تحت سيطرة ضبط النفس النسائى المهذب .. ملابسها دائما غاية فى البساطة والتقشف .. وأبرز ظاهرة فيها النظافة وحسن الصنع .. وحركاتها دائما متزنة وتصرفاتها وقورة ومظهرها عموما يوحى بالاحترام .. انسانة حلوة المعشر . كل من عرفوها ابدوا احترامهم لها .. فهى لاتضايق أحدا ، ولا تلجأ مطلقا الى أساليب الغيظ والمشاكسة .. شخصيتها سلبية أكثر منها ايجابية ، وتنقصها الشجاعة على مواجهة المواقف الصعبة ، مسلوبة الارادة لاتعرف كيف ترد العدوان اذا وقع عليها .. لاتحب ان تفتقد احدا ، وتفضل المشاكل التى تتعس حياتها .. ليس فيها قدرة على النفاق اورغبة فى التصنع فى جميع معاملاتها .. محتشمة ولاتحب المزاح مع الآخرين .. تنقصها الحيوية فى حركاتها وافعالها .. تحب ابنتها بجنون ، وتتفانى فى عملها الشاق ، ومستعدة لأن تحتمل مافوق طاقتها من التضحيات حتى بالطعام الضرورى لتدخر مايكفى لأن تعول ابنتها .. يغلبها القلق على مصيرها ومصير علاقتها بابنتها ، ولقد سلبها هذا القلق ثقتها بنفسها وجعلها امرأة مغلوبة على

امرها ، واثقة بان النوائب لن تفارقها حتى تقضى عليها . صحتها عموما ضعيفة ، وضغط الدم يميل بشدة الى الانخفاض ، وهى لا تعانى من اى نوع من الحساسية عندما ترتدى الجوارب أو الملابس النيلون ..

اما « ايف بلاك » فكان مجمل التقرير الذى كتب عنها كالآتى : « فتاة صخب وهرج وضجة .. تميل الى التصرفات الصبيانية .. مغرورة .. انانية لا يهمها سوى نفسها .. وجهها ينطق بالعفرتة وحب المشاكسة .. عيناها تلمعان بالخبث .. تعبيراتها في تغير مستمر ولاتهدأ على حال واحد .. مجنونة باللهو وارتياد المسارح والحانات .. طبعها يدل على انها لا تعرف الهم اوالحزن او القلق ، ولم تمارس شيئا من هذا فى حياتها .. لاتتورع عن الكذب والخداع لتضلل غيرها .. صوتها عميق متهدج ورنته تنطلق بالاغراء .. لغتها سوقية ، وعباراتها بذيئة ، ومعلوماتها بالامور الجدية تكاد تكون معدومة .. جميلة ولكنها خليعة انما بغرض لفت الانظار اليها والحصول على اعجاب الرجال .. احب شىء اليها المغامرات مهما كانت خطيرة ، وطريقتها فى البحث عنها تنطق بالهوس والطيش وانعدام روح المسئولية .. لايهمها ان تؤدى تصرفاتها الى ايذاء الاخرين الا انها لا تؤمن بمبادىء الاخلاق والانسانية .. صلاتها بالناس عابرة قصيرة الاجل ، تقبل على الصداقات بحرارة لكن ما ان تمر فترة وجيزة حتى تفقد اهتمامها بهذه الصداقات ، وتنتهى الى لا شىء .. مندفعة فى تفكيرها وافعالها ، كل مايطرأ على ذهنها الطائش تنفذه فورا دون تقدير للعواقب .. يمكن ان تكون فى لحظة من اللحظات مسلية جدا ، وفى اللحظة التالية تنقلب الى العكس وتصبح بغيضة

جدا .. لاتسمح لأمر من الامور ان يضايقها ، ولا تحمل هما او حزنا مهما كانت الأسباب الداعية لذلك .. اكدت التجارب العلمية التى اجريت عليها انها قوية البنية .. سليمة من الامراض العضوية .. ضغط الدم يميل الى الارتفاع .. تعانى من حساسية الملابس النايلون ، فما ان ترتدى شيئا منها الا وينتشر الطفح الأحمر على جلدها كله » ..

ومن هذين التقريرين تستطيع ان تتصور مدى الاختلاف الجذرى فى الشخصيتين .. « ايف بلاك » و « ايف هوايت » ، وكيف كان وقع هذه الحالة الاولى من نوعها فى ازدواج الشخصية على علماء النفس الذين سبق ان قرأوا فى المراجع الطبية عن هذا المرض الذى كان الناس فى قديم الزمن يخطئون تشخيصه فيسمونه «لمسة الشيطان» ، ولكنهم لم يسبق لهم ولا لزملائهم من العلماء الانجليز والاوربيين ان رأوا منه حالة واحدة تثبت لهم صحة وجوده .. وتمنحهم الفرصة لتطبيق النظريات على الطبيعة .

وبالرغم من التكتم الشديد الذى احاطت به « جمعية الأمراض النفسية الشاذة ، التابعة لقسم الامراض النفسية والعصبية بجامعة جورجيا هذه الحالة .. فقد تسربت الأخبار الى الصحافة ووسائل الاعلام الأخرى ، فطلعت الجرائد والاذاعات على الناس بأحاديث مستفيضة عن إزدواج شخصية « ايف هوايت » ولكن اسمها وحقيقة شخصيتها بقيا سرا خافيا عن الجميع ، ولم يتمكن أحد غير الطبيبين اللذين كانا يعالجانها خلال السنوات الأخيرة من معرفة حقيقتها .

ولقد سعدت « ايف بلاك » كثيرا بالضجة التى اثيرت

حولها فى الصحف والاذاعات ، وأخذت تكثر من الخروج وارتياد الحانات والملاهى الليلية لتسمع مايقوله الناس فى هذا الموضوع ، ولم تكن تتورع عن التلميح لاصدقائها الرجال بانها الشخصية التى تثير اهتمام الرأى العام .. ورغبة فى اخفاء حقيقة وجودها وهى أنها الشخصية الأخرى الشريرة لامرأة مريضة ممزقة النفس ، كانت تكذب عليهم وتزعم لهم أن كلام الصحف مجرد واجهة مضللة يرادُ بها اخفاء حقيقة سياسية خطيرة ، وهى انها تطوعت لتتخفى فى شكل امرأة مغامرة كى يتاح لها التحرك بحرية عساها تصل الى سر يتهدد الامن الوطنى .. وأحيانا تلمح الى انها شخصية على مستوى عظيم ومركز نبيل .. وظروفها الارستقراطية المتزمتة تحرمها من المتعة ، وتلزمها بالظهور فى شكل وقور ، لذلك تتخفى لتنطلق وتنال قسطها من الحرية مثل غيرها من الناس .. مرة تدعى انها ممثلة سينما مشهورة ، وأخرى انها شاعرة معروفة ، وثالثة انها عالمة على وشك الانتهاء من كشف علمى يقلب الدنيا بكاملها .. ولقد بلغ بها التهريف ان ادعت مرة انها مصارعة ثيران كبيرة ، وان بلدها أسبانيا أعطاها أعلى وسام للتفوق فى هذا المجال !!

ولقد حدث ذات يوم ان شعرت «ايف هوايت» بتوعك اثناء ساعات العمل ، فطلبت من رئيسها ان يسمح لها بالراحة بقية النهار .. ولكن بعد انصرافها بساعة واحدة دق جرس التليفون فى مكتب الرئيس ، وتحدثت اليه امرأة ذات صوت عميق أجش تزعم انها مندوبة جريدة « شيكاغو تربيون » وسألته اذا كان بين عاملاته امرأة اسمها « ايف هوايت » ، وانها حضرت خصيصا من مدينة « شيكاغو » لمقابلتها واجراء حديث معها

بمناسبة انها صاحبة الشخصية المزدوجة التى تثير اهتمامات الرأى العام فى هذه الأيام .. وقلبت الحقائق فأوهمته ان ازدواج الشخصية الذى تعانى منه عاملته « ايف هوايت » ليس فى الحقيقة مرضا ، انما هو منحة من الله وموهبة نادرة لاينالها سوى الاخيار والسعداء .

ولكن الاسلوب الدافىء الذى كانت تتحدث به ، والالفاظ السوقية التى كانت تتكلم بها ، اقنعت الرجل بانها امرأة غير جادة تريد ان تضحك منه وتتسلى بتضليله فقطع المكالمة فورا ..

وتكرر من هذه الخبيثة مثل هذه المواقف ، وأصبحت «ايف هوايت» فى حرج شديد ، فاستقالت من العمل الذى كانت قد وجدت فيه السعادة والاستقرار .. وانصرفت هائمة على وجهها تبحث عن مصدر للرزق سواه .. ولقد اعترفت «ايف بلاك» للطبيب انها كثيرا ما كانت تتعمد الخروج اثناء قيام توأمها بالعمل .. وتحل محلها وتشتغل بمنتهى السوء وعدم الاتقان ، مما ادى مرارا الى ان رؤساء «ايف» الحقيقية الذين عهدوا فيها القدرة وحسن الاداء ، لجأوا الى تأنيبها بشدة عن التدهور الذى أصابها والذى لابد ان يؤدى الى فصلها اذا تكرر .

وسأل الطبيب «ايف بلاك» عما تجنيه من تدمير الاخرى بهذه الصورة فقالت فى غير حياء او تردد : لقد كدت اصاب بالجنون للمديح الذى تناله فى عملها واغتظت للمظهر المهذب المتواضع الذى تحتال به لتنال احترام الآخرين ، فقررت ان افسد عليها نبلها على سبيل النكاية ..

قال لها : ولكنك بعملك هذا تتسببين فى طردها من العمل ، فماذا تكون النتيجة ؟

قالت : لاتحمل لها هما .. ستجد عملا آخر .. انها قديرة على ذلك ، ثم لتفرض انها تعطلت نهائيا فهذه مشكلتها لامشكلتى انا .. مالى انا ومايصيبها ؟!

وكان قد مضى عام كامل على افتراق «ايف هوايت» عن زوجها «رالف» .. ولما كان هذا الموقف يسبب للرجل غاية الضيق والحيرة .. فقد قرر ان يسافر الى البلدة التى تعمل فيها امرأته ويحاول ان يتفاهم معها ، املا فى اصلاح ذات البين ، واقناعها بانها لم تحرز فى علاجها خلال هذه المدة تحسنا ملموسا ، ولقد تظل علي حالها لسنين قادمة ، فلماذا لاتترك عملها وتعود معه الى مدينة « جاكسون فيل » التى وفقه الله الى عمل طيب فيها ، حتى يلتئم شمل الاسرة من جديد وتستمتع « بونى » فى حضانتهما بحنان الأبوين الذى حرمته منذ ذهابها الى بيت جدتها ..

وبالفعل سافر «رالف» الى زوجته وحاول جهده ان يقنعها بوجهة نظره ، غير انها اصرت على الرفض بكل عناد ، وافهمته ان مسألة عودتها الىالحياة معا فى هذا الوقت تعد من المستحيلات .

ولم يقتنع « رالف » بهذا الرفض ، وعاد يرجوها ان تمنحه فرصة واحدة اخرى ، وهى ان تقضى معه عطلة نهاية الاسبوع لعلها تجد خلالها ان مشاعرها نحوه قد تحسنت ولو قليلا عن ذى قبل ، ولكنها اكتفت بان ظلت تهز رأسها مصرة على الرفض ، فثارت ثائرته ونشبت بينهما معركة حامية انتهت

بان هددها برفع الامر الى ساحة القضاء واثبات جنونها وللحصول على حق حضانة ابنته دونها ..

وكان هذا اكثر ما يرعب « ايف هوايت » فاصفر وجهها وتهالكت على المقعد منهارة ، وعندئذ تركها « رالف » غاضبا وانصرف الى غرفته بالفندق الذى ينزل به ..

ولعلاج احزانه الشديدة اعد لنفسه كاسا من الخمر وجلس وحده يحتسيها ، وبعد ساعة او ساعتين من التفكير فى محنته ، قرر ان يجمع حوائجه ، ويعود الى بلدته .. وفيما هو يعد حقيبته ، سمع طرقا على بابه ، ففتحه وهو حانق ، لكن حنقه تحول الى دهشة بالغة عندما رأى امامه زوجته التى تركها فى بداية المساء وهو فى غاية الحزن والمرارة ..

ولكنه بعد النظرة الاولى عاد وتردد لحظة ، وسأل نفسه · اهذه حقيقة «ايف» ؟!
كانت المرأة التى تقف امامه تحاول ان تكون «ايف هوايت» بكل ما تملك من قدرة على التقليد ، ولكنها رغم ذلك لم تستطع ان تخدعه ، فقد عرف فيها «ايف بلاك» وكاشفها بذلك لفوره .

قالت ضاحكة : ليكن ، فماذا يهمك ؟ انها ترفض قضاء نهاية الاسبوع معك ، ولكن ربما أقبل أنا .. أنها لاتحبك ، أما أنا فقد بدأت أميل إليك ، وأجدك جذابا للغاية ! ..

واقتربت منه وامسكت بيده ، فتملكته الدهشة لأن «ايف بلاك » التى تقف الآن أمامه كانت فيما مضى تكرهه الى أبعد حدود الكراهية ، ولاتتورع عن مكاشفته باحتقارها له ونفورها

منه ، بل وسخرت منه بأقسى الألفاظ ، وأشدها إيلاما لكبريائه .. ولقد عرفها دائما على هذه الصورة البغيضة القاسية ، ولم تعطه ولو مرة واحدة الفرصة ليرى الجانب الطيب منها .. ذلك الجانب الذى يبدو له الآن وهى تمسك بيده وتلتهب الدماء فى عروقه بنظراتها المثيرة ..

كانت تبدو فى تلك اللحظة فى اروع صور الأنوثة التى كان يتمنى لو راها فى زوجته خلال سنوات زواجهما ليكون هذا نتيجة للتحسن الصحى الذى أحرزته بالعلاج المستمر ؟ .. أتكون «إيف هوايت» بطبيعتها قد اندمجت بـ«ايف بلاك» بحرارتها وجاذبيتها ، وخرجت منهما معا المرأة القديرة على اسعاد حياته من الآن فصاعدا ؟!

وعندما اشترطت لقبول قضاء عطلة الاسبوع معه ان يثبت حسن نواياه لها بشراء ملابس جديدة فاخرة تتزين بها خلال الأيام السعيدة التى سيقضيانها معا ، اجاب طلبها بلا ادنى تردد وفى الصباح اشترى لها الثوب الذى تريده فسافرت برفقته الى بلدته وقضت ليلة معه ولكن ما ان طلع النهار الا وجمعت حوائجها واختفت ثانية من حياته .

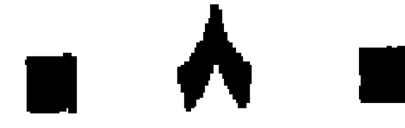
وبعد مضى أسبوع على هذه الواقعة كانت «ايف بلاك» تجلس فى العيادة النفسية امام طبيبها المفضل وروت له وهى ضاحكة كيف خدعت «رالف» وانكرت بشدة انه زوجها ، ومع ذلك اعترفت بقحة ان تجربتها الجنسية معه قد زادتها تأكدا من انه ليس بغيضا فى التعامل اليومى فقط ، بل منفرا ومثيرا للتقزز فى الفراش .

وحين انبها الطبيب على تهاونها فى المبادىء الاخلاقية قالت فى غير مبالاة : لقد حصلت على الثوب الجديد الذى اريده ، وغير ذلك لايهمنى على الاطلاق !!

وبعد أيام علمت «ايف هوايت» بما حدث بين زوجها وتوأمها ، فثأرت ثائرتها واعتبرتها منتهى الحطة من «رالف» أن ينتهز فرصة وجود الشخصية الأخرى وينال وطره منها .. ولقد نظرت الى هذه الواقعة بقسوة واعتبرتها خيانة زوجية ، وخافت ان يتكرر الحادث فى المستقبل ، فتخرج من هذه المصيبة بطفل اخر يضاعف قدرة زوجها على اذلالها اضعاف ما يفعل الآن فى وجود «بونى» وحدها ..

ولأول مرة فى حياتها قررت بحزم قاطع ان تطلب الطلاق من زوجها رغم جميع المشاعر الدينية والأسرية التى كانت تمنعها من قبل ..

وذهبت فورا الى أحد المحامين ، وعرض الأمر على «رالف» فوافق وقد ضاعت اماله فى امكان الصلح بعد ان خدعته «ايف بلاك» وأخذت الملابس ، ثم هربت بها الى غير رجعة ! ..



كان المفروض أن يتحسن حال « ايف هوايت » بعد أن زال ترددها وقررت أن تنفصل عن زوجها بالطلاق ، لكن الموقف تطور إلى أسوأ .. إذ عاد الصداع يعذب حياتها مرة أخرى ، وأشتدت حدته وتقاربت فتراته ، مما أدى إلى إزدياد نوبات غيبة الوعي أو فقدان الذاكرة ..

ولما كانت جلسات التحليل النفسي قد أثبتت أن أزمات الصداع وملابساتها كانت تحدث نتيجة للصراع الشديد بين محاولة « ايف بلاك » الخروج والمقاومة النفسية الشديدة التي تحاول بها المريضة أن تمنعها من ذلك .. غير أنه بمجرد أن عقدت الهدنة بين الشخصيتين ، وحصلت « ايف بلاك » على حرية الخروج وقتما تشاء ، انقطع الصداع بانقطاع الصراع الداخلي بين الاثنتين .

فلماذا يعود الآن بهذا العنف والشدة ؟

اتجهت الشبهات في البداية الى « ايف بلاك » المتخصصة في تعكير صفو حياة توأمها ، ولكنها انكرت بشدة هذه التهمة ، وأكدت الا صلة لها بها على الاطلاق ، بل وأبدت غاية دهشتها لهذه الحالة ، وتساءلت في حيرة عن أسبابها ..

وفى هذه الفترة عثرت السيدة التى كانت تشارك « ايف هوايت » غرفة السكن على زميلتها ملقاة على الأرض وهى غائبة عن الوعى تماما ، وهو ما لم يسبق أن حدث من قبل ، فلقد كانت تصيبها حالات « فقدان ذاكرة » ولكن بدون اغماء .. والمصيبة أن الاغماء الكلى تكرر وأصبح يصيبها فى أوقات مختلفة من النهار ، مما جعل من العسير عليها أن تستمر فى عملها فاستقالت من وظيفتها ولازمتها نتيجة لتعطلها عن العمل رغم احتياجها الشديد للنقود حالة من الاكتئاب النفسى الشديد أفقدتها الثقة بامكان احراز الشفاء .. وبدأ يأسها يزداد وضوحا فى أثناء جلساتها النفسية ، وتضاعف تدهور صحتها العقلية والجسدية ، مما دفع بالطبيبين إلى العودة إلى فكرة إدخالها مرة أخرى إلى مستشفى للأمراض النفسية ، ولكنهما أخفيا عن المريضة هذه الفكرة خوفا عليها من أن تصاب بمضاعفات إذا هى علمت بالنهاية المفجعة التى تنتظرها .

والتغير الآخر الذى ظهر على المريضة فى تلك المرحلة أنها لأول مرة أخذت تستعيد بعض ذكريات الطفولة ، وهو ما لم يكن يحدث من قبل .. ومن خلال أحاديثها عن تلك الحقبة القديمة من حياتها ، أشارت إلى أثر حرق كبير فى جسدها أصابها نتيجة لسقوط مياه ساخنة عليها فى عهد طفولتها .. وعندما ذكرت المريضة هذه الحادثة ، فوجىء المحلل النفسى الجالس معها بها وهى تسبل عينيها بالتدريج حتى أقفلتهما تماما كأنها راحت فى نوم عميق .. وظلت كذلك نحو دقيقتين ، ثم فتحت عينيها مرة أخرى ، وفى حيرة ودهشة نظرت حولها

تتفقد الغرفة كما لو كانت تراها للمرة الأولى .. وأخيرا التقت عيناها بعينى الطبيب ، وتوقفت نظراتها عليه فترة ، ثم قالت ببطء ولكن بصوت قوى ذى شخصية ووقار : من أنت ؟!

ورأى الطبيب بوضوح أن هذه المرأة التي تجلس أمامه ليست « ايف هوايت » ولا هى أيضا « ايف بلاك » فالخصائص التى تميزها كانت تختلف تماما عن خصائص المرأتين ، تلك الخصائص التى حفظها الطبيبان عن ظهر قلب .. وكل مايمكن أن يقال انها في منتصف الطريق بين الاثنتين الأخريين ، فهي أكثر حكمة وتعقلا واتزانا من « ايف بلاك » ، وهى فى الوقت ذاته أكثر حيوية وقدرة وشجاعة وجاذبية من « ايف هوايت » .. ولم يكن من العسير رؤية الفوارق التي تميزها عن كل واحدة منهما فهى ليست ذليلة ومغلوبة على أمرها مثل « ايف » الطيبة ، كما أنها تبدو أيضا بالمقارنة إلى « ايف » الشيطانة أكثر وقارا وثقافة وتحضرا وقدرة على ضبط النفس .

وسألها الطبيب عن اسمها ، فقالت فى حيرة واضحة : لست أدرى :

قال : ولكن يجب أن تعطينا اسما نناديك به !

قالت : جميع الاسماء عندى سواء ، ومادمت تصر فاسم « جين » لا بأس به إذا لم يكن لديك مانع ..

قال : ليس لدى أى مانع يا« جين » .

ولشهور عدة أخذ الطبيبان يتناوبان الجلوس مع الشخصيات الثلاث لمريضتهما . ولقد ثبت من خلال

الجلسات المتتالية أن « جين » على بينة تامة بكل ماتفكر فيه « ايف هوايت » وتفعله ، ولكنها لاتعرف شيئا مطلقا عما يجول بذهن « ايف بلاك » كأن الصلة بينهما منقطعة تماما .

وفى البداية كانت « جين » تشعر بالاستقلال التام عن « ايف هوايت » وكافة مسئولياتها ، ولاتربط نفسها بالزوجة والأم .. ولكنها اثبتت منذ ظهورها قدرة فائقة على اعطاء الحب والعاطفة والاخلاص ، وأبدت استعدادها للتعاون فى هذه المجالات النبيلة .. ولم يمض وقت طويل حتى أحست باحتياج « ايف هوايت » إلى مساعدتها ، فكانت تحل محلها وقت الأزمات ، وتنقذها من المأزق التى تدفعها اليها « ايف » الأخرى .. وأخذت مشاعرها نحو « بونى » الصغيرة تثرى بعطف المرأة الحنون على طفلة ليست من أسرتها ، ولكنها محرومة من الحب والمودة ..

وازدادت « جين » بمرور الايام قوة ، لكنها لم تصل إلى المرتبة التى تمكنها من أن تقضى على « ايف بلاك » قضاء مبرما أو تندمج مع « ايف هوايت » اندماجا كاملا .. غير أن الدراسة النفسية الدقيقة اثبتت أن « جين » هى الوحيدة بين الشخصيات الثلاث التى فى مقدورها أن تحل عقدة المرض النفسى الذى يعذب حياة « ايف هوايت » وأنها لو استطاعت أن تسيطر على شخصيتها ، فالشفاء التام يصبح ميسورا ، وتعود حياة المريضة إلى مستوى افضل بكثير مما كانت عليه طول عمرها ..

ومعنى ذلك أن الحل الوحيد لهذه المشكلة المعقدة هو أن

تنتصر « جين » على الشخصيتين الآخريين ، وتصبح هى الشخصية الوحيدة الباقية « لايف » مدى الحياة .. وإذا شاءت ارادة الله أن يتم هذا الحل ، تكون « جين » هى القادرة على القيام بالاعمال الشاقة . وكسب الدخل المحترم ، الذى يمكنها من إعالة « بونى » الصغيرة .. بل تكون الانسانة السليمة التى تستطيع أن تسترد حضانة ابنتها التى مازالت إلى اليوم فى اعتبار المفقودة نظرا لمرض أمها . ومايعرضها له هذا المرض من أخطار جسيمة .

وظلت « جين » تزداد قوة وتأثيرا ، ويمضى الوقت اصبحت لديها القدرة على أن تشرح أحداث طفولة « ايف » التى لم تتمكن هى من شرحها ، رغم جميع محاولات الطبيبين النفسيين فى دفعها إلى تذكرها ..

وأبدت « جين » منتهى الحكمة فى تقييمها للاثنتين الآخريين .

« فايف هوايت » فى نظرها امرأة ذات صفات انسانية ممتازة ، وهى أم حنون لدرجة قد تدفعها إلى قتل نفسها إذا تأكد لها أنها فقدت ابنتها الصغيرة عاطفيا إلى الأبد بسبب الفترة الطويلة التى تقضيها مع جديها بعيدا عن أمها .

ومن باب التدليل على أمومة « ايف » القوية قصت « جين » للطبيب ماحدث فى اليوم السابق حين رأت « ايف هوايت » وهى فى طريقها إلى بيتها سيدة تقف أمام أحد المتاجر وطفلتها الصغيرة بين ذراعيها ، لاتدرى كيف تدخل بها المتجر لانها لاتستطيع أن تتسوق حاجاتها وهى تحملها

بين ذراعيها .. فتقدمت منها « ايف » بدافع من انسانيتها المعهودة ، وتطوعت أن تحمل لها طفلتها وتنتظرها بها خارج المتجر إلى حين انتهائها من مهمتها .. وفرحت الأم بهذا العرض الكريم وأعطتها الطفلة ، واختفت داخل المتجر ، ولكن ما أن طوقت « ايف » هذه الصغيرة بذراعيها حتى تصورت انها « بوني » فشددت قبضتها عليها ، وراحت تجرى بها بعيدا لتخفيها فى بيتها .

واعترفت « جين » انها قدرت خطورة هذا العمل على « ايف » فالأمر سيصل حتما الى الشرطة ، ولسوف ينتهى الموقف بالقبض عليها ومحاكمتها بتهمة خطف الطفلة ، وهى جريمة لها عقوبتها المشددة فى قانون الولايات المتحدة .. عندئذ قررت أن تنقذ المريضة من المأزق الذى وضعت نفسها فيه ، فخرجت ، وعادت بالطفلة إلى المتجر ، ولما لم تجد الأم سلمتها رسميا إلى مركز الشرطة القريب .

ولقد دللت « جين » بهذا الحادث على أمومة « ايف » الفاضلة ، وما قد يحدث لها من مصائب كبيرة إذا هى حرمت نهائيا من ابنتها ، أو أحست أن هذه الأبنة لطول بعدها عنها قد فقدت القدرة على حبها والاحتياج إليها .

وكانت « جين » فى الوقت ذاته رقيقة فى حكمها على « ايف بلاك » فبعد أن تابعتها مرارا ، قالت ذات يوم للطبيب : اتعلم يادكتور أن هذه الفتاة تملك مواهب معينة ؟ .. ففى كل مكان ترتاده تتفوق على من حولها من النساء الآخريات بقدرتها الفائقة على اسعاد الناس وادخال البهجة على

نفوسهم .. خفيفة الروح ، سريعة الخاطر ، مسلية .. صوتها أبعد مايكون عن الجمال ، ومع ذلك فبمجرد أن تغنى يهلل الناس ويصفقون فى حماسة بالغة ، ويستزيدونها مرارا وتكرارا كأنها أعظم مطربة فى الدنيا ، وهى كفاءة نادرة .. صدقنى يادكتور ، أن هذه الفتاة ليست فى حقيقتها شريرة ، انما هى طفلة عفريتة ، شقية تتسلى بالالاعيب التى تحيط بها الاخرين .

وكانت « ايف هوايت » الى هذه المرحلة تجهل تماما بوجود « جين » ، ولكن الطبيبين قررا أن يعرفاها بها بعد ان اقتنعا تماما برجاحة عقل هذه الشخصية الثالثة ، وحسن تقديرها للأمور .. وبدأ الطبيبان فى طرق الموضوع بوصف كامل لجين لا تنقصه الدقة لكى تشعر المريضة كأنها تقف امامها وتراها بعينيها وقبل أن تزول آخر معالم الدهشة عن وجه « ايف هوايت » لهذه المعلومات الجديدة عن شخصيتها الثالثة ، وقبل أن تنطق بكلمة واحدة ، ماتت الابتسامة على وجهها ، وانقلبت سحنتها ، ثم ظهرت فجأة « ايف بلاك » وهى فى غضب عارم ..

وقفزت من فوق المقعد ، وراحت تطوف بأرجاء الغرفة فى خطوات مضطربة سريعة كأنها اصيبت بمس من الجنون .

قالت للطبيب : بحق الشيطان ماذا تفعل ؟ ومن هذه الدخيلة المتشابهة الجديدة التى تريد أن تقحمها على حياتنا ؟

قال : انها ليست من صنعى ولا انا اقحمتها عليكما ؟

قالت : بل أنت تكذب أيها الماكر ، وهذا جزائى على سابق ثقتى بك ، لقد اطمأننت اليك أكثر مما يجب ، ولو كنت أكثر حكمة لشككت فيما تدخره لى من مكائد .. أنت تريد أن تقضى على ، وأنا أفهم تماما نواياك الخبيثة ، فاللعنة عليك وعليها وعلى كل ما تتظاهر به مريضتكم الغبية الحمقاء من طيبة وملائكية .

ويصقت على الأرض إمعانا فى الاهانة ..

واختار الطبيب أن يلزم الصمت حتى تهدأ ، مطمئنا إلى ان « ايف بلاك » لا تستطيع التركيز طويلا على جملة واحدة فهى دائمة التنقل بين الانفعال والهدوء ، والسرور والغضب ، ولن يطول الوقت حتى تعود الى سابق مرحها .

ولقد صدقت توقعاته ، فبعد قليل لم يلبث غضبها ان هدأ بذات السرعة التى جاء بها .

وعادت الى المقعد وجلست على يده وقالت فى نبرات هادئة : من هى هذه « الجين » ايها العزيز ؟ وما قصتها ؟ من حقى أن أعرف ومن واجبك أن تصدقنى القول ..

ورغم الهدوء الذى تظاهرت به كان واضحا انها غير راضية عن تطور الموضوع بهذا الشكل ، فلقد كانت سعيدة بكونها الوحيدة التى تشارك « ايف هوايت » جسدها ، وهى بهذه الصفة قادرة على أن تفعل بها ماتشاء دون تدخل أو رقابة من أحد .. خصوصا انها وجدت فى « ايف هوايت » الغريمة الضعيفة المغلوبة على أمرها ، مما يسهل عليها مهمة قهرها والتنكيل بها .

وشرح لها الطبيب الحقيقة بكاملها ، وافهمها عدم جدوى معارضتها ، فمثلما فرضت هى على « ايف هوايت » رغم ارادة المريضة المسكينة ، فقد جاءت « جين » بدورها رغم ارادة الاثنتين . وانه ليس من مصلحتها أن تتصدى لها لان « جين » أقوى مما تظن كثيرا ، وليس من السهل قهرها ، او التلاعب بها ..

وأبدت « ايف بلاك » عدم مبالاتها ..
وتقبلت الوضع صامتة هادئة .
ثم مضى عام كامل والشخصيات الثلاث تتقمص جسد المريضة .

ولكن العجيب فى الوضع الجديد أن وجد الطبيبان من السهل عليهما استحضار « جين » فى وجود « ايف هوايت » فى حين انه لم يكن من الميسور على الاطلاق استحضارها من « ايف بلاك » مما يدل على انقطاع الصلة بينهما تماما ..

• وكانت مجلة « دوجاس جورنال كلوب » التى يقوم بتحريرها نحو أربعين من أشهر الأطباء البشريين والنفسيين ، وعلماء الاجتماع والصيادلة قد بلغها أمر الدهشة البالغة التى أصابت أفراد أسرة « مجلة الأمراض النفسية الشاذة » حين طرح الطبيبان « تيجين » و« كليكلى » عليهم حالة ازدواج الشخصية التى تعانى منها مريضتهما .. فلما انتشر فى الأوساط الطبية نبأ الشخصية الثالثة ، وبعث أعضاء هذه المجموعة من العلماء يلحون فى ضرورة عرضها عليهم

ليستفيدوا بهذه الحالة الفريدة في نوعها فى ممارسة مهنتهم المختلفة ..

ولما لم يكن الطبيبان قد توصلا بعد الى علاج هذه الحالة المعقدة ، بل ولم يتمكنا حتى من معرفة الاسباب التى أدت اليها ، لذلك رحبا بهذا الطلب لعلهما يصلان من خلاله إلى معونة علمية تتيح لهما الوصول إلى نتائج حاسمة ..

وكان من الضرورى استئذان الشخصيات الثلاث حتى لاتفسد احداهن الموقف بتخلفها ، فكان من حسن الحظ أن قبلن بلا أدنى معارضة .

وتم اللقاء بين المريضة ومجموعة الأطباء والعلماء القائمين على تحرير مجلة « دوجاس جورنال كلوب » ، وقدمت للحاضرين « ايف هوايت » اولا ، فروت لهم تاريخ مرضها ، وسردت عليهم الاعراض التى كانت تشعر بها ، ثم اجابت عن جميع الاسئلة التى وجهت اليها ..

وجاءت من بعدها « ايف بلاك » بكل ماعرفت به من شطط وخلاعة ورغبة فى المعاكسة ، فلم يستطع العلماء أن يحصلوا منها على أى معلومات جادة أو ذات قيمة .

وأخيرا ظهرت لهم « جين » بعقلها ورزانتها ، بل وحسن قدرتها على تفسير المواقف تفسيرا منطقيا مقبولا ، وكانت باجاباتها عن اسئلتهم غاية فى الحكمة والافادة .

واستغرقت الجلسة ساعتين كاملتين ، ثم خرج العلماء وهم

يضربون كفا على كف ، ويتساءلون عما إذا كان ماراوه حقيقة ، أو هو تضليل من ممثلة ماهرة أوتيت من القدرة ماهو فوق مستوى البشر على التغير والتبدل وتقمص الشخصيات المتناقضة تماما ..

ولكن تساؤلهم هذا لم يلبث أن انتهى تماما عندما أتموا الفحوص والتحاليل التى أجروها للمريضة فى حالاتها الثلاث فتأكد الاختلاف البيولوجى الذى يصيبها مع كل شخصية على حدة .

وبعد هذه المقابلة بوقت قصير ، وقع حادث كان له تأثير كبير على مجريات أمور المريضة ، فقد استطاع محامى « ايف هوايت » أن يحصل على حكم نهائى بالطلاق من « رالف » وساعد على اصدار هذا الحكم ان « رالف » نفسه كان قد يئس تماما من امكان التفاهم مع زوجته بعد ان تأكد له ان نفورها منه عميق الجذور ، وغير قابل للعلاج ، وانه بتجربته مع « ايف بلاك » حين قبلت أن تقضى معه عطلة الاسبوع مقابل فستان أحمر جديد ، ثم ما أن حصلت عليه حتى هربت منه منددة بقواه الجنسية وما آثارته فى نفسها من تقزز واشمئزاز ، بعد كل هذا تأكد له ألا أمل مطلقا فى التئام شمل الاسرة مع اى شخصية من الشخصيتين اللتين تتنازعان جسد زوجته .. لذلك رحب بفكرة الطلاق بعد أن كان يعارض فيها من قبل ، راضيا ان تنتهى محنته بالانفصال النهائى عن زوجته الذى قد يتيح له فرصة بداية تجربة جديدة لعلها تكون اكثر توفيقا من سابقتيها .

وبفضل اتفاق الزوجين على الانفصال النهائى لم تعد عقبة تقف فى طريق الطلاق من الناحية القانونية ، فأصدرت المحكمة حكمها به دون ان تتعرض لحضانة « بونى » ، تاركة مصيرها للاتفاق الودى بين الطرفين ، فتعيش الصغيرة مع جدتها لامها بشرط أن تتولى « ايف هوايت » مسئولية الانفاق عليها ، ولقد تمسكت « ايف هوايت » بهذا الشرط الاخير ، ولم تقبل ان يساهم طليقها « رالف » بأى مبلغ فى اعالة البنت باعتبار ان « ايف » نفسها هى التى تسببت فى هذا الموقف بمرضها .

وفرحت « ايف هوايت » بانقطاع الصلة بينها وبين الرجل الذى افقدها بطول جفائه القدرة على حبه ، بل القدرة على احتمال الوجود معه تحت سقف واحد .. وزال قلقها الشديد على احتمال حرمانها حضانة ابنتها التى كانت بالنسبة لها كل شيء فى الحياة ..

وهللت « ايف بلاك » طربا بزوال « الحمار » من طريقها ، وطريق توأمها الغبية التى كان ينبغى عليها ان تتخذ هذا القرار من البداية لكى تجنب نفسها ماقاسته من عذاب طويل بسبب معتقداتها الدينية « السخيفة » على حد تعبيرها ، وقالت للطبيب فى احدى جلساتها معه لو كانت هذه الغبية على ذرة من العقل لتخلصت من هذا الجلف منذ سنوات .

اما « جين » فقد تقبلت الأمر بالترحيب من أجل تحقيق الراحة النفسية لتوأمها المفضلة ، ووعدت أن تقف مع « ايف

هوايت » وأن تساعدها بكل ما تملك من جهد على العمل لاكتساب مايكفيها ويفى ايضا باحتياجات « بونى » الصغيرة .

وبهدوء العاصفة بدأ التغيير يحدث فى أحوال « ايف هوايت » ..

■ ٩ ■

بعد شهور قليلة من صدور حكم الطلاق بدأت التغييرات تظهر على « ايف هوايت » فقد ازدادت « جين » قوة على الوقوف بجانبها ومعونتها على اتقان أعمالها للاحتفاظ بوظيفتها ، بل وعلى تقوية صلاتها بالناس من خلالها هى باعتبارها النائبة عنها أو الممثلة لها .

ومن ذلك ما حدث ذات ليلة حين خرجت « ايف بلاك » بثوبها الأحمر الخليع لتقضى السهرة فى الرقص والمجون .

وفيما هى واقفة بأحد المنتديات الليلية تراقب الرائحين والغادين ، تقدم منها رجل وسيم انيق يبدو عليه الوقار والتهذيب ، وسألها بمنتهى الأدب ، عما اذا كانت تسمح له بمراقصتها .

ولما كانت « ايف بلاك » تكره هذا النوع من الرجال ، وتفضل عليه السوقة .. فقد بدأ على وجهها الملل وقالت له وهى تشير إلى سيدة من رفيقات سهراتها :

ـ هذه زميلتى فارقص معها ، لاننى لا أعرف الرقص .
أجاب بصوت هادىء عميق : ولكنى أرغب فى الرقص معك

أنت لا مع صديقتك .. ولايهمنى إذا كنت تتقنين الرقص أو لاتتقنينه ..

وبمنتهي الملل تقدمت اليه وفي نيتها أن تسخر منه وتحقره لكي تتخلص من صحبته ، ولكن الذى حدث كان أمرا عجيبا فقد ظهرت ، « جين » فجأة ، وابتسمت فى وجه الرجل بمنتهي الرقة والأدب ، وسارت معه الى حلبة الرقص لترقص لأول مرة في حياتها .. وظلت طول المساء تصغى الي حديثه المهذب الشيق وهى فى غاية السعادة ..

وكان ذلك أول لقاء لها بالشاب « برت لانكستر » الذى شاء القدر أن يضعه فى طريق المريضة لكى يبدد وحدتها ويضىء حياتها بالسعادة بعد أن ظلت من بدايتها تعسة معذبة .

وفى احدى جلسات التحليل النفسى .. قصت « جين » على الطبيب قصة لقائها بالشاب المسمى « برت لانكستر » .. والعلاقة التى نمت بينهما بعده .

قالت له : ووقفت معه فى تلك الليلة أصغى لحديثه الرقيق المهذب عن مقاطعة كنتاكي موطنه الأصلى ومسقط رأسه .. وتأملت وجهه فرأيت فيه ما جعلنى أحس بالرضا التام لأول مرة فى حياتى .. ففى سمات هذا الرجل الوسيم الرقيق رأيت تباشير الحب والهناءة تنبعث بين طيات الاحداث المعقدة التى سيطرت علىّ الى ماقبل تلك اللحظة التاريخية .. وتذكرت ما كنت تؤكده لى و« ايف هوايت » من أنه سيأتى اليوم الذى نرى الدنيا من حولنا من زاوية مختلفة تماما .. وكيف سنشعر عندئذ بالاحتياج الى الحب والزواج الأطفال ، لاننا نختزن بين

جوانحنا قدرا هائلا من المشاعر الجميلة .. ولقد تحقق كل هذا بتوثيق صلتى بهذا الصديق الجديد « برت لانكستر » ، وبلغ بى الاطمئنان اليه والثقة به أن صارحته بحقيقة المرض الذى نعانيه ، ولقد أردت بذلك أن أسبق غيرى فى اطلاعه على سر حياتنا ، قبل أن يعرف به من أحد آخر . فيحتقرنى لاخفاء الحقيقة عنه .. ثم انه لم يكن من العدل أن اخفى عنه كونى احدى الشخصيات الثلاث التى تسكن جسم امرأة واحدة ، واننى لا يصح مطلقا أن أتزوج قبل أن أشفى تماما حتى لايضيع اولادى مستقبلا بين أمهم وشبيهاتها .

قال الطبيب : وكيف كان وقع كلامك عليه ؟

قالت : استمع إلى بكل هدوء ، ولما سألته عما يشعر به بعد أن عرف بمرضنا ، أكد لى أنه مازال على حبه العظيم ، بل ربما أكثر !! ومن هذه الاجابة تستطيع يادكتور معرفة قيمة « برت» وفهم حقيقة أخلاقه !

قال الطبيب : وهل ناقشتما مستقبلكما معا ؟

قالت : أجل ، وكنت صادقة معه فطلبت منه الا يعدنى بشىء حتى نعرف النتيجة .. فمن المحتمل جدا ان ينتهى العلاج بفوز « ايف هوايت » أو « ايف بلاك » واختفى انا تماما من الوجود ، لكنه ابدى استعداده للانتظار إلى النهاية .. فهل ترانى يادكتور مخطئة فى رغبتى فى أن أحب ؟ لقد تعرضت علاقتى مع « برت » لهزات عنيفة بسبب تدخل الشخصيتين الاخريين ، لكن هذه الهزات لم تفلح فى الوقوف بين قلبينا !

ورغم جميع هذه البشائر الطيبة بقى الطبيبان على شكهما السابق فى امكان علاج « ايف هوايت » ، نظرا الى انهما لم يستطيعا طوال الوقت الذى مر منذ بداية مجيئهما الى العيادة النفسية لأول مرة ، ان يصلا الى الاسباب الحقيقية التى أدت إلى تمزق نفسيتها وتعدد شخصيتها .. ولم يكن من شك فى ان هذه الأسباب تكمن فى طفولتها ، ومع ذلك فقد عجز التنويم المغناطيسى والتحليل النفسى وجميع الوسائل العلمية عن أن تدفع بالمريضة الى ان تستعيد ذكرى تفاصيل ايام صغرها .. فلقد كانت تلك التفاصيل ممحوة تماما من ذاكرتها ، وكلما سئلت عنها اخذت تردد المرة بعد الاخرى انها استمتعت بطفولة سعيدة ، وان والديها كانا مثلا لاييارى فى حبهما لها وحنانهما الموجه اليها . اما كيف كان الحب والحنان ، وما هى الشواهد عليهما ، فقد عجزت المريضة تماما عن الشرح والتوضيح .

ولم يشأ الطبيبان أن يستسلما لليأس رغم تعقد الأمور امامهما ، وصمما على الاستمرار فى نبش ذكريات ماضى « ايف هوايت » لعلهما بالمثابرة يصلان الى أسرار طفولتها .. ولقد بدأت هذه الأسرار تنكشف ببطء وتدرج بعد زيارة قامت بها المريضة لابنتها « بونى » حيث تعيش مع والديها بمزرعتهما ، ففى أثناء وجودها هناك خرجت مع ابنتها ذات صباح لتلاعبها بالكرة ، وافلتت الكرة من الطفلة وانزلقت تحت البيت الذى كان يقوم فوق اعمدة .. ترتفع به عن مستوى الأرض التى بنى فوقها بعض الارتفاع .. واضطرت « ايف » أن تزحف على بطنها تحت البيت لتأتى بالكرة ، وما ان توغلت

فى هذا الفراغ بعض التوغل الا وأحست بأن الدنيا تتغير امامها ، وخيل اليها أنها تحولت الى طفلة صغيرة ترتدى ثوبا أحمر جديدا وبصحبتها طفلة أخرى لم تستطع أن تتبين ملامحها لتقرر شخصيتها .. وكانت الاثنتان تلعبان تحت بيت مماثل تماما لهذا البيت ، والفتاة الغامضة الاخرى تحمل فى يدها فنجانا من الطين ، مزركشا على الطريقة القديمة .. ثم اختلطت الأمور فجأة أمام « ايف » واختفى الماضى بسرعة ، وعادت إلى طبيعتها ، فأتت بالكرة وخرجت بها إلى ابنتها .

وعندما قصت المريضة هذه الرؤيا على الطبيب ، حاول جهده أن يستخلص منها قصة الفنجان الخزفى ، ولكن ذاكرتها ظلت على عنادها ، ولم تسعفها .. عندئذ استأذنها فى أن ينومها مغناطيسيا ، ولما نامت أمرها أن تتذكر كل مالديها من قديم المعلومات عن هذه القصة ..

واستيقظت « ايف هوايت » ، وراحت تقص على الطبيب كيف كانت أسرتها تعتز بهذا الفنجان الذى ورثته أمها عن جدتها .. ولفرط خوفها عليه أمرت بألا تلمسه « ايف » أو تلعب به ، ولكن الفنجان تحطم ووجدت اجزاؤه تحت البيت ، ولما لم يكن بالبييت غيرها سوى ابنة عمها فلورنس المعروفة بالوقار والتهذيب فتركز الاتهام على « ايف » وتقرر انها الفاعلة ، وأدبت على ذلك بالجلد المبرح من أبيها .. مع أنها لم تكن قد كسرته، وأقسمت لوالديها ببراءتها من هذه الفعلة ، غير انهما لم يصدقاها ، واتهماها بالكذب ، لعدم وجود احد غيرها فى البيت عندما كسر .. وأنزلا بها العقوبة القاسية ، ولم يكتفيا

بالجلد بل خلعا عنها ثوبها الأحمر الجديد الذى أهدى لها بمناسبة عيد الميلاد . واعطياه لابنة عمها فلورنس ، وحرماها منذ ذاك اليوم من ارتداء الأحمر الذى كانت تحبه أكثر من أى لون آخر .

وبهذه البداية أخذت أحداث الطفولة تنكشف من خلال التنويم المغناطيسى ، فظهرت واقعة أخرى وهى حصول ابنة العم فلورنس على « عروسة » من الصينى فى رأس السنة ، وكانت عروسا رائعة الجمال من حيث الشكل والملبس وكانت ايف قد رجت والديها فى الحصول على دمية مثلها ، ولكنهما رفضا وفضلا فلورنس عليها ، ثم فوجئا بها محطمة على الأرض ذات مساء ، ولم يكن بالبيت سوى « ايف هوايت » فقط ، فوجهت اليها التهمة ، ومع انها اقسمت بأغلظ الايمان انها لم تلمسها أو تقترب منها ، فقد صدر حكم الوالدين عليها بالادانة .. وقررا انها الفاعلة ، وجلدت فى هذه الواقعة مرتين : واحدة لانها حطمت « العروسة » والثانية لانها كذبت واصرت على الكذب بانكارها التكسير .

وحدث بعد ذلك بفترة من الزمن أن وضعت أم « ايف هوايت » توأما بنتين كانت أكثر افراد الاسرة سعادة بهما هى « ايف » رغم انهما استوليا على كل اهتمام الوالدين ، ولم يتركا لها من حبهما ورعايتهما جانبا .. ولقد وكل الى الصغيرة برعاية الرضيعتين اثناء انشغال امها بأداء واجباتها المنزلية . وبينما كانت ذات يوم تقف بجوار مهدهما ، وليس بالغرفة احد سواها ، صرخت الصغيرتان بأعلى صوتهما

وانفجرتا فى بكاء ملح كادت انفاسهما تنقطع بسببه .. وأتت الأم جريا من المطبخ تستطلع الخبر فوجدت « ايف » فى مكانها وسيقان الصغيرتين تدمى بآثار عض شديد .

ووجهت التهمة بطبيعة الحال اليها ، فلم يكن بصحبة الرضيعتين سواها ، مما يقطع بأنها هى التى عضتهما بهذه الوحشية ، ومع انها بكت بحرقة ، وأقسمت أنها لم تفعل ذلك ، ولا يمكن أن تفعله نظرا لانها تحب الصغيرتين حبا لامزيد عليه ، ولس هناك ما يدعوها الى أن تؤذى احباء لها بهذه الصورة ، غير أنها اعتبرت فى هذه المرة كاذبة ايضا ، وعوقبت مرتين ، بالجلد على جريمة العض ، وبالحرق بالابريق الساخن على جريمة الكذب !!

وكانت « ايف » تسرد للطبيب مزيدا من هذه الاحداث فى كل مرة تحضر الى مكتبه بعد أن تنوم تنويما مغناطيسيا وتؤمر بأن تروى أحداث طفولتها .. ولقد استمرت فى نومها ويقظتها تؤكد أنها كانت بريئة تماما من الجرائم التى نسبت اليها وعوقبت عليها بغاية القسوة .

قالت للطبيب ذات مرة ، وهى تبكى فى هدوء كعادتها : لست أدرى إلى يومنا هذا لماذا كان أهلى يلصقون بى هذه التهم الشنيعة رغم انى لم ارتكبها بل ولم أفكر لحظة فى ارتكابها .

قال لها : ولكنك كنت الوحيدة دائما بالبيت عند حدوث هذه الاشياء .

قالت بمنتهى البراءة : أجل ، ولست أنكر ذلك .

قال : اذن كيف تفسرين ماحدث من تحطيم للعروسة والفنجان وعض للرضيعتين البريئتين ، ومن تتهمين بهذه الجرائم التى عوقبت عليها وأنت بريئة ؟

قالت بمنتهى الصراحة : لا أحد ، لم يكن بالبيت غيرى ، ولقد ظلمت أنا دون حق ، فكيف تريد منى أن أظلم غيرى ؟

وكان واضحا انها صادقة فى قولها .. فما هى الحقيقة إذن ؟

وكانت ايف هوايت قد اعترفت أثناء تنويمها مغناطيسيا انها كانت تحلم بالحصول على مثل هذه الدمية ، غير انهم أعطوها لابنة عمها جزاء استمرارها فى الكذب .. لكنها رغم ذلك لم تحطمها ، وبكت وهى مازالت نائمة ، وانسابت الدموع غزيرة من عينيها ، ولقد أيقظها الطبيب عندئذ ، وطلب اليها أن تعود الى بيتها وتحاول هناك مرة أخرى أن تسترجع ذكريات الماضى ، لعلها تصل الى حقيقة تفاصيل الحادث .

وبعد أيام معدودات من الزيارة ، تسلم الطبيب من مريضته رسالة تقول فيها : « لست أدرى لماذا انفعلت وأنا فى مكتبك اتحدث عن دمية فلورنس .. لم يكن يليق بامرأة مثلى أن تبكى كالاطفال مثلما فعلت ، فأرجو أن تقبل اعتذارى ، وتغفر لى هذا الانفعال العاطفى الصبيانى .. لقد طلبت الى ان أنقب فى ذكريات الماضى عن مزيد من المعلومات وهذا مافعلته بكل ما أملك من جهد ، لكنى لم أجد مايستحق الذكر ، فالدمية التى اعطيت لابنة عمى كانت أكثر

من رائعة ، واعجابى بها لم يقبل مزيدا ، وحين كنت ارى فلورنس تحملها بين ذراعيها وتهدهدها كان يخيل إلى أنها تحولت بالفعل الى طفل رائع .. ويعلم الله وحده كم حزنت حين وجدنا الدمية محطمة .. حزنت عليها اضعاف مابكت صاحبتها .. ومع كل ذلك فقد توهموا لأمر ماأننى الجانية ، والصقوا بى التهمة ، وقسوا فى عقابى على فعلة لم أرتكبها ، ومع أن سنين كثيرة مضت منذ وقوع هذه الحادثة ، ومحا الزمن معظم تفاصيلها ، غير أنى مازلت واثقة غاية الثقة ببراءتى ، وهذا كل ما أذكره ، وأرجو ان تجد فيه غايتك » .

والظاهر ان « ايف بلايه » عثرت على هذه الرسالة قبل ان تلقى بها صاحبتها في صندوق البريد ، فأضافت اليها بخطها الردىء وأخطائها الهجانية الفاحشة تقول فيها : « اسمع ايها العزيز .. هذه المرأة يلذ لها ان تتظاهر دائما بالقداسة والكمال .. وهى مغرمة بالالفاظ الجوفاء الكاذبة .. أما أنا فليست هذه طريقتي . وانت لابد تعرف اننى حطمت الدمية .. ولست آسفة إلى اليوم على مافعلت ، ولو أعطيت الفرصة لفعلتها مرة أخرى .. فلقد كانوا يقدرون « فلورنس » أكثر مما تستحق كأنها فتاة مثالية لايوجد لها شبيه فينا جميعا .. هذه المغرورة السخيفة .. لو انك رأيتها وهى تحمل الدمية بين ذراعيها وتهدهدها لعرفت فى الحال انها كانت تتعمد اغاظتى بها ، فحطمتها لكى أرد لها الصاع صاعين ، أنا اعترف لك بهذه الحقيقة لانك شخص لطيف جدا وتعجبنى كثيرا ، ولا أشك فى أنك تعرف حقيقة مشاعرى نحوك ، ولاتنس ذلك مطلقا ..

ملحوظة : آسفة لكتابتى الرديئة ، وللاخطاء الهجائية والنحوية الواردة فيها ، ولكنك تعرف بالطبع اننى لست ممن يتحذلقون فى الكتابة ، ويتظاهرون بالعلم والمعرفة مثل ماتفعل هذه الغبية « ايف هوايت » .

وكانت أول مرة يرى فيها الطبيب ما يدل على وجود ايف بلاك منذ طفولة توأمها فكيف حدث ذلك ؟

وبمعرفة هذه الحقيقة أصبح من الميسور أن يستفسر منها عن بقية التهم التى وجهت إلى « ايف هوايت » فى طفولتها ، وظلت إلى ذاك اليوم تؤكد براءتها منها .

وفى الجلسة التالية للمريضة ، استدعى الطبيب « ايف بلاك » وقد ظهرت عليها علائم الاكتئاب والحزن على غير عادتها المرحة الماضية ..

قال لها : أريد أن أعرف مزيدا من الحقائق عن أحداث طفولة « ايف هوايت » ولقد اعترفت فى الرسالة بمسئوليتك عن تحطيم الدمية ، فهل كانت الأحداث الأخرى من صنعك ؟

قالت فى غيظ واضح : ما هذا الهوس الذى تثيره مريضتك ، وما جدوى النبش فى الماضى ؟

قال : لكن معرفة الحقائق ضرورية فى علاجها .

قالت : وماذا تريد أن تعرف ؟

قال : قصة الفنجان الخزفى الذى اتهمها والداها بتحطيمه .

قالت : أنا الذى كسرته لاغيظ الاسرة ، فالوالدة كانت تثير

ضجة حول هذا الفنجان القبيح ، وتعتبره تحفة ثمينة لانها ورثته عن جدتها .. فانتهزت أول فرصة وخطفته وحطمته وأنا مختبئة تحت البيت .

ثم ضحكت عاليا وعادت إلى مرحها المعهود وقالت : ثم تركت لهم « ايف هوايت » تتلقى وعدها على هذه الفعلة .. وان كنت في الحقيقة قد تضايقت كثيرا عندما استردوا الثوب الاحمر وحرموني من لوني المفضل .. ولكن كل هذا لايهمني فانا الآن ألبس الأحمر دائما في جميع سهراتي الممتعة .

قال لها : والتوأم هل أنت التي عضضتهما ؟

قالت ضاحكة : طبعا ، فلقد شغل الوالدان بهما ، ولم يعد لديهما من هم أعز من هاتين الفأرتين القبيحتين .. الحب كله لهما .. العطف كله عليهما .. الرعاية كلها لهما كأن أحدا غيرهما لايعيش في بيت الأسرة ..

وبلا أدنى مقدمات تبدل حال « ايف بلاك » .. اختفى مرحها وتلاشت خلاعتها .. وبدأ كأنها تهمس لنفسها بذكريات قديمة .. ولم يبق فيها شيء من معالم المرأة اللعوب التي عرفتها العيادة النفسية على مضى السنين الاخيرة .. تحولت الى مايشبه الطفل الصغير الحزين على أيام سعيدة مضت .. وانطفأ بريق التحدى في عينيها ، وحل محله لون من العواطف البريئة الصادقة .. وقالت برنة الأسى : كنت أفكر في أول مرة عرفت فيها عيادتك هذه ولست أعرف أيها العزيز كيف أعبر

عن مشاعرى نحوك ، فلقد بذلت جهودا صادقة وحاولت بكل طاقتك أن تساعدني .. اتذكر ثوبي الاحمر ..

وهنا بدأت ألفاظها تختلط ببعضها بحيث أصبحت غير مفهومة ، ثم أخذت تبكى فألجمت المفاجأة الطبيب .. فلقد عرف « ايف بلاك » سنين متعاقبة لم يحدث خلالها مرة أن تغيرت شخصيتها لا فى الجوهر ولا فى التفاصيل .. ولم تكن الدموع فى يوم من الايام جزءا من حياتها ، لدرجة ان الحيرة أخذت الطبيب فى حقيقة هذه الشخصية ، وأى الثلاث تكون .. وأخذ يحدق النظر فيها متأملا ، فإذا بها « ايف بلاك » فعلا ، وليست احدى الشخصيتين الاخريين فكيف تغيرت بهذه الصورة ، وهى التى كانت لقسوة قلبها تفخر بجميع الالاعيب التى تسببت فى شقاء « ايف هوايت » ولم تبد فى أى مناسبة أدنى ندم على أفعالها ..

وازدادت ألفاظها اختلاطا ، وكان التغيير مفاجئا بحيث اربك الطبيب، ولكن شعوره الداخلى أوحى إليه بأن أمرا غير عادى بدأ يحدث أمامه ، فبقى فى مكانه مذهولا يرقب التعابير الرقيقة التى اكتسى بها وجهها وفاضت بها عيناها ، ثم ابتسمت فى أسى وقالت : « لست أدرى أيها العزيز مادهانى .. فانى أحس بأن الحياة تنساب منى ، وكأننى أتلاشى بالتدريج ، ولكن قبل أن أنتهى نهائيا أريد ان تعرف وصيتى الأخيرة .. أريدك أن تأخذ ثوبى الأحمر وتحتفظ به عندك ليذكرك دائما بى ، فأنت تعرف كم أحب هذا الثوب وأعتز به » .

وعادت ألفاظها تختلط مرة أخرى ، ولم يعد كلامها مفهوما او مسموعا ، ثم أسبلت جفنيها فى هدوء كأنها استسلمت

للنوم ، وعندما فتحت عينيها مرة أخرى كانت الجالسة أمامه هى « جين » بهدوئها ووقارها المحدود ، ولم يكن لدى الطبيب مايناقشها فيه ، فاستأذنها فى أن تسمح له باستدعاء « ايف هوايت » .

وما أن انتهى من طلبه هذا حتى تقلص وجه « جين » وتشنج عنقها ، واختفت بسرعة البرق مظاهر الهدوء النفسى التى كانت معهودة فيها ، واكتسى وجهها بالرعب المخيف ، وصاحت بأعلى صوتها تقول : « أمى ... أمى .. لاتجبرينى على ذلك .. حرام عليك ، فليس فى مقدورى أن أفعل ذلك ! » .

ثم امسكت رأسها بيدها وأطلقت صرخة مخيفة بشعة اهتزت لها جدران الغرفة وظلت تصرخ حتى قام جريا إلى الغرفة المجاورة ، وعاد بزميله الذى يشاركه علاج المريضة لكى يرى بعينيه هذه الظاهرة العجيبة .

■ ١٠ ■

فوجىء الطبيب بالصرخة التى أطلقتها « ايف هوايت » وهى متقمصة شخصية « جين » ثم صياحها قائلة برعب واستعطاف يوجعان القلب : أمى أمى .. لاتجبرينى على ذلك . فأنا لا استطيع .. حرام عليك ياأمى أتركينى أرجوك . أرجوك ..

كانت الصرخة شيئا لايصدقه العقل .. شيئا رهيبا كأنه صوت يأتى من العالم الآخر ولا صلة له بدنيانا .. صوت بدائى فوضوى ليس فيه نبرة انسانية كأنه نحيب آلة بخارية ينطلق فى هدوء الليل ليهز ماحوله .

ورغم طول خبرة الطبيب فقد كان من المؤكد أنه لم يسمع مثل هذه الصرخة من أى واحد من مئات المرضى النفسيين الذين تعامل معهم منذ بداية ممارسته لمهنته إلى يومه هذا ..

وأسرع الطبيب إلى مكتب زميله يستنجد به ..

وبعودتهما إلى حيث تجلس المريضة كانت الصرخة قد أخذت تتلاشى تاركة وراءها مظاهر الانفعال الجنونى مرتسمة على وجهها .

وتسمرا فى مكانهما يتطلعان اليها فى ذهول وحيرة .

وتبادلا النظرات فى تساؤل واضح كأنهما يقولان : ترى من هذه المرأة الجديدة علينا .. انها ليست « ايف هوايت » ولا هى أيضا « ايف بلاك » ، كما أنها قطعا ليست « جين » ؟

ولم يجدا الاجابة على تساؤلهما فى الدقائق التالية ، فلم يبق مفر من أن يتوجها اليها بالسؤال مباشرة ولكن بعد أن تهدأ ثورتها .

وتركاها فى صبر إلى أن أخذت تستعيد هدوءها وتسترد سيطرتها على نفسها وتنفك عقدة لسانها ..

وعندما حانت اللحظة المناسبة ، تقدم اليها طبيبها المعالج بالسؤال ، فخبرته الطويلة مع المريضة فى شخصياتها المتعددة ، وأحاديثها الطويلة التى قام بتسجيل كل كلمة منها ، تؤكدان هذه الشخصية التى انفجرت فجأة مع الصرخة الممتزجة بالألم والعذاب والاحتجاج والرجاء ، ذات صلة وثيقة بجوهر الموضوع .. ببيت الداء الحقيقى الذى أصاب « ايف هوايت » بمرض ازدواج الشخصية :

قال لها : أأنت الآن على استعداد للكلام ؟

قالت : أجل ..

قال لها : من أنت ؟

قالت بعد تردد ممتزج بالأسى : لست أدرى !

قال لها : لماذا صرخت ؟

قالت : لما تبينته فجأة ؟

قال : وماذا تبينت ؟

قالت : عندما طلبت منى أن اسمح لك باستدعاء « ايف

هوايت » تبينت فجأة اننى هى بذاتها .. عرفت اننى لست « جين » بل « ايف هوايت » بلحمها ودمها !

ثم عاودها الانفعال ، فقالت وهى تبكى بحرقة : اين « جين » .. أين « ايف بلاك » .. لماذا ذهبتا ، وماذا حل بهما ؟ هل ماتتا ؟؟ أجل لقد ماتتا وانتهى أمرهما إلى الأبد !

وكان التفسير العلمى الصحيح للصرخة وما تلاها من حديث انها يقظة المريضة إلى حقيقة شخصيتها ، وتعرفها المفاجىء على نفسها وادراكها دون سابق تمهيد أو انذار من هى وما هى ؟

وأدرك الطبيبان أن معركة اكتشاف النفس ورؤية الحقيقة هو الذى أوجد هذه المرأة الجديدة أمامهما ، ورغم الاختلافات بين هذه الشخصية وسابقاتها ، وجدا انها أقرب إلى « جين » منها إلى الآخريين ..

ولابد أن تكون هذه المعرفة المفاجئة قد أصابتها بضيق نفسى بالغ ، وأطاحت للوهلة الأولى بشعورها بالاستقرار، فاهتزت فى داخلها اهتزازا يشبه انفجار البركان ، ثم تبعه شعور كأنه الحمم التى تسيل فى هدوء بعد الانفجار من فوهة البركان .

وسيطرت عليها بعد ذلك فكرة الموت ، وبسيطرتها صفا ذهنها أمام الاحداث التى مرت بطفولتها ، واستعادت ذكريات كان عقلها الباطن فى الماضى قد اخفاها تماما عنها .

قال لها طبيبها المعالج : ما اسمك ؟

قالت : لست أدرى تماما ..

قال : ولكن لابد أن نناديك باسم ما والا عجزنا عن استدعائك فى وقت الحاجة ، فأختارى اسما لك .

قالت بمنتهى الهدوء : « ايف هوايت » انه الاسم الذى يناسبنى تماما ..

قال : هل فى مقدورك الآن أن تحدثينى عن السبب فى صرختك والسبب فى ضراعتك لامك أن ترحمك ؟

قالت : حدث ذلك فى صباح يوم من أيام طفولتى ، وكانت فى زيارتنا ابنة عمى فلورنس فخرجنا معا نلعب فى مخبئنا المفضل وهو فجوة تحت البيت ، فاذا بأمى تنادينى ، وتأمرنى أن أعود إلى البيت لاغير ثيابى تمهيدا لحضور جناز جدتى لأبى .

قال الطبيب : وأين كان الجناز ؟

قالت : عندنا ، فجدتى كانت تعيش معنا دائما ثم مرضت وتوفيت وتقرر دفنها فى ذاك اليوم .

وتهدج صوت المريضة وهى تستعيد ذكريات ماحدث عندئذ .

قالت : دخلت البيت فرأيت مجموعة كبيرة من النساء والرجال جميعهم يرتدون ثياب الحداد ، وينتحبون بصوت مرتفع اثار الذعر فى قلبى .. ثم حانت لحظة الوداع فهدأ النحيب وخيم على البيت صمت رهيب ، وامتلأ الجو بعبير الزهور المخصصة للمآتم والجنازات .. أتصدق يادكتور اننى مازلت اشم هذا العبير حتى هذه اللحظة ؟

قال استمرى .

قالت : وأمرتنى أمى أن أدخل إلى حيث أرقدوا جثة جدتى فأقبلها وامسح بيدى على جبينها ، فأصابنى رعب رهيب كاد يفقدنى عقلى .

قال : ولماذا امرتك بذلك ؟

قالت : لاعتقاد شائع بين أهلنا وجيراننا بأن رحلة الميت الى القبر لا تسهل وأن شموره لايهدأ إلا اذا قبّله ولمس وجهه الاحياء والاقارب جميعا الصغار والكبار..

وتدفقت الذكريات وتتابعت ، فقصت المريضة كيف قاومت رغبة أمها وبكت راجية مستعطفة ، لكن الأم صممت على تنفيذ رغبتها متأثرة بتلك الخرافة الشائعة ، ولكى تجبر الصغيرة على الطاعة طوقتها بذراعيها القويتين ، وحملتها عنوة الى فراش الميتة ، وجعلتها تقبلها وتلمسها رغم حالة الفزع القاتل التى كانت قد استولت عليها .. فالموت كان فى ذهنها الغرير شيئا رهيبا لا تملك عقليتها الساذجة أن تفهم حقيقته او تستوعب فلسفته . خاصة وأنه حدث قبل الجناز بوقت قصير أن ضل متسول عجوز طريقه الى بيته ذات ليلة فسقط فى المستنقع الواقع تحت « الكوبرى » القريب من بيتهم ، وكانت أمها تحذرها وتخيفها دائما من الاقتراب من المستنقع بدعوى أن وحشا يختبىء فى مائه لافتراس كل من تسول له نفسه الاقتراب من مستنقعه .

ولم تكتشف جثة المتسول العجوز الا بعد أيام ليست بالقليلة ، وعندما انتشلت كانت الصغيرة تقف مع أهل القرية للتفرج ، فشاهدت الجثة المنتفخة المتعفنة التى نهشت الاسماك أجزاء منه فزادتها بشاعة على بشاعة .. وقد جسمت

هذه لرؤية فكرة بشاعة الموت فى ذهنها ، فلما أجبرت على تقبيل جثة جدتها ولمسها تضاعف المصاب وأفلت زمام الضوابط التى تسير نفسيتها .

ولقد كررت الصرخة مرة أخرى فى عيادة الطبيب عندما ارتفع الستار عن ذهنها ، وانتقلت صور الماضى من عقلها الباطن الى عقلها الواعى ، فعادت بها الذكريات الاليمة الى الماضى وجعلتها تعيش التجربة مرة أخرى .

وهكذا اطلقت صرخة اكتشاف الحقيقة زمام ذاكرتها ، وازاحت الضغوط التى ظلت منذ بداية مرضها الى الآن تشيع الضباب فى نفسها .

ومنذ ذلك اليوم أخذت تستعيد توازنها بالتدريج ، وفى كل مرة تزداد قدرتها على الحديث عن الماضى .

وبدا واضحا أن هذه الواقعة قد احدثت - بلا شك - شيئا ما، ولكنه شىء لم يستطع الطبيبان تحديده بالضبط ، فما هو هذا الشىء ؟؟

حاولا الوصول الى الحقيقة فلم يتيسر لهما ، وان كانا قد اقتنعا بأن الصرخة تعتبر علامة واضحة لمولدها الجديد ..

ولقد أخذت مرارا تحاول أن تشرح للطبيب ردود الفعل التى حدثت لها نتيجة لانقشاع الضباب عن عقلها الواعى باكتشافها انها ليست « جين » ولاغيرها ، انما هى « ايف هوايت » بذاتها ، وماتبع ذلك من عودة الاحداث القديمة الى الحياة ، ولكنها لم تستطع أن تزيد على ذلك .

وتبين الطبيب من أحاديثها المختلفة أن واقعة اكتشاف الذات قد احدثت فيها تحولا من الغرابة والعمق ما أعجز لسانها عن التعبير عنه .. ثم لاحظ أيضا أن المريضة بعد زوال فترة الرعب التى انتابتها . والذهول الذى تبع ذلك ، اكتسبت أو أظهرت قدرات وكفاءات ومهارات جديدة ـ منها الثقة بالنفس ـ لم تكن معروفة فيها من قبل ، ولم يسبق للطبيب او الميحطين بها فى حياتها الخاصة رؤيتها .

فهل حدث ذلك حقيقة ؟ وهل حدث فى شخصية المريضة تغيير « جذرى ؟ أو أن هذه الظاهرة .. ظاهرة الاتزان والقدرات ، ليست فى الواقع الا شخصية جديدة للمرض . الذى لم تصلح الحيل الطبية فى علاجه الى الآن ؟

وكان أكثر مايلفت النظر فى التحول الذى حدث لها أن الشخصيات الثلاث اللاتى ظهرت لها كانت كل منها تعتبر نفسها شخصية منفصلة تماما عن الآخريين ، ولكن هذه المرأة الجديدة فى محاولاتها الجادة للعثور على نفسها ، تبدو مرتبطة تماما بزميلاتها .. وقد بدأ هذا الارتباط تلقائيا ، وليس نابعا عن تفكير او اقتناع ، كذلك لم تفعل مافعلته الآخريات من رفض تام لتجارب الماضى وأحداثه ، والاصرار على طمس ذكرياته .

واعترفت المريضة فى شخصيتها الجديدة الغامضة انها تبكى كل ليلة بحرقة بعد عودتها من لدن الطبيب .

قال الطبيب : لماذا تبكين ؟

قالت فى أسى واضح : منذ تبينت من أنا ، واتضح لى

أننى « ايف هوايت » ولست « جين » أو « ايف بلاك » انتابنى فجأة شعور موجع بالوحدة والفراغ .. وكلما تذكرت « ايف بلاك » على وجه التخصيص يغلبنى الحزن الشديد فتنهمر الدموع من عينى مدرارا .

قال : ولماذا تثير ذكراها بالتخصيص هذا الحزن الشديد ؟

قالت : لان مواجهة الحقيقة كانت أصعب من أن استطيع احتمال وجيعتها .. فلقد اختفت الاثنتان فجأة من حياتى ، ولم يعد لهما وجود .. وألمى لفراق « ايف بلاك » طغى على كل ألم سواه لقد أحزننى هذا الفراق كثيرا ، ولسوف افتقدها كثيرا ، وأظن يادكتور أنك سوف تفتقدها أيضا ، أليس كذلك ؟

قال : أليس فى إمكانك أن تعتبرى أن « ايف بلاك » لم تفقد وتنته كما يتصور لك ، بل أنها اندمجت فيك وبعثت من جديد ؟

قالت : لا أظن .. أو انه ليس فى مقدورى أن أتصور ذلك فى الوقت الحاضر .. ربما فيما بعد ، فقد كنت أعيش معها و« جين » مثل اختين لى فى غرفة واحدة لايحجبنى عنهما سوى ستار شفاف اراهما من خلاله فآنس بهما ، ثم اذا بالستار يرتفع فجأة دون توقع أو تمهيد ، واذا بى أجدنى وحيدة بين جدران .الغرفة لا انيس لى ولا جليس .

قال الطبيب : هونى على نفسك ..

قالت : ليتنى ادركت يوم الصرخة وأنا فى عيادتك انها اخر مرة آراها فيها ، ولعلك تذكر كيف انهارت فجأة ، وانخرطت

فى البكاء لأول مرة فى حياتها .. « فايف بلاك » لاتعرف الاسى ولا الدموع .. كان يجب أن أفهم من حديثها لك انها تودعك الوداع الأخير ، وأنها برجائك أن تذكرها دائما بالخير وأن تقبّل ثوبها الأحمر كانت تحرر وصيتها الأخيرة ، لأنها على يقين من أنها لن تراك مرة أخرى .. لم أكن أتوقع أن تنهار هكذا ، وهى التى لاتعرف سوى المرح والابتهاج والمعاكسة ، وليس أبرع منها فى مجابهة المأزق والشدائد ومهارتها فى الهرب منها ..

قال الطبيب : لقد أحسست أنا أيضا كأنها تودعنى ..

قالت : ومن دواعى أسفى أنهم حرموها فى صغرها من الثوب الأحمر الذى كانت تحلم بالحصول عليه .. الثوب الذى كانت تعتزم أن ترتديه في عيد الميلاد وتذهب به إلى السينما.. انها لقسوة بالغة أن يفعلوا بها ذلك .. على كل حال لقد أبلغت أسرتى برغبتها فى أن تعطيك الثوب الأحمر كهدية تذكرها بها ، فرحبوا بهذا الأمر ، وكلفونى بأن أقدمه لك ، ولسوف آتيك به في الزيارة القادمة راجية منك أن تقبله .

قال الطبيب : بل أفضل أن تأخذيه أنت وتعيدى حياكته بالقدر الذى يمكنك من ارتدائه فى بعض المناسبات الخاصة ..

قالت : غير ممكن ، فأنت لم تر الثوب الأحمر ، ولو كنت رأيته ما اقترحت ذلك . أنه مصنوع من الحرير الأحمر الفاقع اللامع ، وهو عارى الصدر والظهر والذراعين ولايصلح الا لنساء الليل فى المنتديات الليلية .. ولن يكون فى مقدورى أن أرتديه فى يوم من الأيام .

قال : لأنه أحمر ؟

قالت : ليس من أجل اللون فقط ، بل العرى وعدم وجود نسيج يمكن أن نغطى به الفتحات .. تأكد يادكتور أنه ثوب غير صالح للتعديل ، ثم أنه لايليق إلا بالراقصات والمغنيات ، وأهل الليل ، ولايمكن لسيدة خارج هذه الدائرة أن ترتديه سوى « ايف بلاك » انها الوحيدة التى تجرؤ على الخروج به .

ومضت الأسابيع التالية ولامن تغير واضح يبدو فى شكل « ايف هوايت » ثم أخذ التغير يأتى ببطء وتدرج نتيجة لما اكتسبته بمرور الوقت من خلال عملية الاندماج من وضوح وتوازن .. وظهر فى « ايف الجديدة » ملامح وصفات واضحة من الاثنتين الآخريين فقد اصبحت من حيث المظهر والحركات ورنة الصوت والمبادىء والذوق والآراء كأنها الأخت التوأم « لجين » دون أن تكون هى بالضبط .. واختفت منها المميزات التى كانت « ايف بلاك » تنفرد بها مثل الصوت الاجش والاستهتار والتعلق باللهو والتلذذ بمعاكسة الناس ومضايقتهم .. ومع ذلك فقد كانت فى بعض اللحظات الخاطفة تبدو مثلها من حيث لمعان العينين وتدفق الحيوية وجاذبية الانوثة والجمال .. واختفى فيها بالمثل جميع الصفات التى كانت متأصلة فيها يوم ذهبت لأول مرة إلى الطبيب تطلب العلاج : الذلة والخنوع والاستكانة والسلبية . لكنها لم تفقد ولو ذرة واحدة من اصرارها على عدم التنازل عن حضانة ابنتها « بونى » ، والانفراد بخدمتها ورعايتها وتربيتها ، وان كانت قد رضيت ببقاء الصغيرة لدى جديها حتى يتم لأمها الشفاء التام .. وظلت تعد العدة وتخطط لهذا اليوم الموعود ، وكلما سألها الطبيب عن مشاعرها نحو « بونى » تقول : كيف

تسألنى مثل هذا السؤال ، اننى احس انها ابنتى ، وانها لى وحدى .. لقد احببتها من قبل ولكن ليس بهذا القدر الذى أحبها به الآن .. انه حب أقوى وأعمق وأكثر أصالة وارتباطا ..

واحتفظت « ايف هوايت » الجديدة باهتمامات « جين » بالشاب « برت لانكستر » .. الرجل المهذب الذى سبق أن عرفها وأحبها فى أسوأ حالاتها وحين كاشفته بمرضها ازداد تمسكا بها ولم يقبل مطلقا أن يتخلى عنها ..

وتزايد الارتباط بينها وبين « برت » عما كان عليه أيام « جين » حيث كان تعلقها به نظريا أكثر منه حقيقة واقعة تنبع من ذهنها وقلبها على السواء .. ولكن دون الاندفاع فى توثيق هذه الصلة قبل الوقت المناسب ، وهو الشفاء التام .

ولقد دلت الاختبارات التى أجراها الطبيبان على المريضة أن « جين » هى شخصيتها الحقيقية أيام كانت طفلة صغيرة ، أو هى الأصل فى « ايف » قبل أن يصيبها المرض ، اى قبل حادث المتسول الغريق وجناز الجدة .. ولكن الأمر الوحيد الذى كان يشغل بالهما عند الوصول إلى هذه الحقيقة ، هو السبب فى أنها اختارت اسم « جين » وكان الواجب أن تسمى نفسها « ايف » .

ومرة أخرى اضطر الطبيبان لاستدعاء والدى ايف وابنة عمها فلورنس ، وبسؤالهم عن مصدر « جين » اعترفت الأم بأنها كانت تدللها بهذا الاسم عندما تطيع الأوامر وتبدو طيبة ،

أما إذا أصابتها حالة الانفصام ، وأخذت تأتى أفعالا شريرة وتقسم بعد ذلك بأنها لم تفعلها ، كانت الأم عندئذ تناديها باسمها الحقيقى « ايف » .

وأكد ذلك ما وصل إليه تفكير الطبيبين من قبل أن « جين » في قصة حياة المريضة هى السابقة و« ايف » هى اللاحقة والمكملة أثناء المراهقة والشباب ..

ومع كل ماتوصل إليه الطبيبان من حقائق بقيت أمامهما فترة تحتاج إلى أن تملأ لتكتمل الصورة ، وهى أن حادثة المتسول الغريق ومن بعدها موت الجدة لاتكفيان مطلقا لاصابتها بالدمار النفسى الذى لحق بها .. ولابد أن يكون هناك شىء آخر يكمل الصورة . أو يبدأ بالمشكلة التى انتهت بتعدد شخصياتها على النحو الذى ظهر ، واثارة المخاوف فى صدرها الغرير البرىء دون أن تستطيع بطفولتها أن تحلل هذه المخاوف وتفهمها .

وعاد الطبيب إلى الوالدين والأهل يستعيد معهم أحداث الفترة الأولى من حياتها ، فظهر أن التوأمين ولدتا قبل قصتى المتسول والجدة بخمسة أشهر تقريبا ، وبمراجعة الأفعال التى كانت ترتكبها « ايف بلاك » معهما من عض وضرب وايذاء تبين ان الطفلة فجئت بإعراض الوالدين عنها وتركيز اهتمامهما وحبهما فى المولودتين الجديدتين ، وهذا ما أحدث التدمير الأول الشديد فى نفسيتها ، وغرس بذور الانفصام ، ثم جاءت الاحداث التالية بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير ، نتيجة لتراكم عبء المشاكل التى لايستطيع ذهنها

القاصر ان يستوعبها ويحللها ، مما أدى الى الاطاحة بتوازنها .

ومما استوقف اهتمام الطبيبين وهما يحاولان تقييم كل مشكلة من مشاكلها ، تبين لهما أن مولد التوأمين وإن كان الأصل في المرض غير أن حادث الجدة هو أشد مشاكل حياتها مدعاة للألم والخوف .. ورغبة فى الوصول إلى الحقيقة بعث فى استدعاء الوالدين مرة ثالثة وطلب إليهما أن يستعيدا أحداث يوم الجناز ، فأكدا كل كلمة مما قالته « ايف » من قبل ، وأضافا إليه انها اصيبت فى ذلك اليوم باغماء شديد ، وطاردت نومها بالليل ابشع الكوابيس ، فكانت تستيقظ صارخة مرارا فى الليلة الواحدة ، وتظل تبكى وترتجف فى ذعر أبشع من أن يوصف .. ثم تلا ذلك سيرها أثناء النوم ، وهى ظاهرة لم يعرفاها فيها مطلقا قبل الجناز ، ولكن هذه الظاهرة أخذت تتلاشى بالتدريج فى مرحلة المراهقة ، وانقطعت تماما عند ترك « ايف » البيت وسفرها إلى بلدة أخرى لاستكمال تعليمها ثم العمل .

وبعد أن تأكد الطبيب المعالج من صدق « ايف » فى روايتها لأحداث يوم الجناز ومتعلقاته ، أراد أن يستكشف نوع العلاقة بينها وبين جدتها لوالدها ، لعل فى معرفة نوع هذه العلاقة ماينير الطريق إلى مزيد من خفايا عقدها ومتاعبها .

سألها الطبيب ذات يوم قائلا : حدثينى عن جدتك :

قالت : وماذا تريد ان تعرف عنها ؟

قال أى نوع من الجدات كانت ؟

قالت : وماذا تعنى بذلك ؟

قال : أكانت جدة لطيفة مرحة تحب الأطفال وتلاعبهم وتعرف كيف تسليهم ؟

قالت : لست واثقة بذلك ، فلقد ماتت جدتى وأنا صغيرة جدا ، وذكراها مطموسة تماما فى ذهنى ؟

وأوضح هذا الكلام ان ذكريات الجدة وان كانت قد انطمست تماما من ذاكرة « ايف » غير ان حادث الجناز وحده ظل حيا بجوهره وتفاصيله .

وفى هذا الاطار وجد الطبيبان لزاما عليهما ان يقودا المريضة بمنتهى الحذر أثناء جلستهما معا ، وان يتجنبا الضغط عليها بالحقائق التى عرفاها من والديها وأقاربها وأصدقائها خشية النتائج ، فيحتمل جدا ان المفاجأة لاتدفعها الى التذكر نظرا لانها امور محزنة موجعة فى نفس « ايف » ولابد أن تكون كذلك بدليل أن العقل الباطن احتواها واخفاها عن العقل الواعى .. فينجم عن ذلك أن تؤدى المواجهة إلى شحذ سنان الألم ومضاعفة محنته بدل ازالتها .

وبناء عليه قرر الطبيبان أن يتناولا الاحداث واحدا بعد واحد بأسلوب غير مباشر يعينها على التذكر من تلقاء نفسها ودون ضغط خارجى .

■ ١١ ■

كان من المؤكد علميا أن حادثا واحدا مهما بلغ شأنه لايستطيع وحده أن يحدث الدمار الشديد مثل الذى أصاب نفسية « ايف » ، ولقد ثبت بعد ذلك من البحوث والأحاديث المختلفة مع الأطراف المعنية أن قصة المتسول الغريق فى المستنقع ، وانتشال جثته المنتفخة المتعفنة المشوهة على مرأى من الطفلة الصغيرة قد أصاباها بصدمة عنيفة ، وقد تلا ذلك ماحدث يوم جناز الجدة ، ولكن الحلقة الأولى لهذه السلسلة المحزنة اتضحت بمعرفة ماترتب على مولد التوأم قبل ذلك من شعور « ايف » بالوحدة والاهمال وأعراض والديها عنها ..

أما لماذا لم يظهر المرض واضحا الا بعد مشاهد الموت التى رأتها ماثلة فى المتسول والجدة ، فمرجعه إلى الصورة البشعة المشوهة التى تغرس بذورها فى نفسية الابناء .. فتقصير الآباء والأمهات فى تلقين الصغار أسس الحياة ، يعطيهم فكرة خاطئة .. فبدل أن يلقنوا أن الموت مجرد حقيقة طبيعية من حقائق الحياة ، وهو أمر واقع يجب أن نواجهه ونتلقاه ونتقبله بهدوء ودون انفعال شديد .. هذا التقصير

التربوى يؤدى بالاطفال الى اعتبار الموت عقوبة ، بل أقصى عقوبة ، وهى فى نظرهم بمثابة حكم الاعدام الذى يصدر على القاتل والخائن والمخرب ، فمثل هؤلاء الاشرار ينالون بالاعدام جزاء شرورهم ، لأن اتيان هذه الشرور يستوجب سرعة استئصالهم .

وهناك أمثلة كثيرة تؤيد هذا الكلام . فالطفل الذى يهمل نصائح والديه بضرورة توخى الهدوء فى قيادة عجلته والابتعاد بها عن الازدحام ، كثيرا مايتعرض لحادث يودى بحياته او يصيبه بأذى جسيم ، عندئذ تضرب به الأمهات مثلا لاطفالهن ، ويرجع موته إلى مخالفته أوامر والدته .. كذلك الشاب الذى يتجاهل قوانين المرور فى قيادة السيارة فتبرير موته فى حادث يأتى دائما كدليل على أنه ارتكب ذنبا فاستحق العقاب اللازم وهو الموت .. وفى معظم العقائد والأديان يقرن الموت للعصاة بالعذاب الابدى فى الآخرة ، ولا فرصة للنجاة منه سوى عفو الله ورحمته .. ومع أن الطفل يعرف انه بارتكاب الاخطاء أو عصيان الأوامر لن يترتب عليه قيام أهله باعدامه عقابا له ، ولكن يؤمن فى قرارة نفسه وعن يقين بأن العقاب الذى يقف فى انتظاره أكبر كثيرا من رغبات الأهل وارادتهم ، ولذلك نجد الانسان الكبير الناضج كثيرا مايغلبه الخوف من الموت فيلجأ الى التدين ، ويغير أسلوب حياته على سبيل التكفير عن اخطائه وذنوبه ، ويفتح فى وجهه أبواب الأمل فى تخفيف العقوبة التى ينالها عند موته .. والكبار عندما يهددون الصغار بعقوبات الدنيا إنما يجسمون دون أن يقصدوا فكرة اقتران الموت بالعذاب ..

والعكس هو الأفضل والاسلم . فمن أهم قواعد الأمان النفسي الذي يجب أن يحيط بالطفل خلال تكوينه التربوى فى المرحلة الأولى من عمره ، أن تقوم هذه القواعد على مبدأ البقاء ، وهذا لايتأتى إلا إذا محوا من قاموس أحاديثهم مع صغارهم كلماينم عن التهديد بالموت أو مايأتى به الموت من عذاب .. فالطفل بعقليته الساذجة المحدودة القاصرة لايستطيع أن يحلل أو يوضح تصوراته ومخاوفه وأفكاره ، بل هو يقف عند الخطوط العريضة منها ، أى عند رءوس المواضيع دون غيرها .. والأمر بالمثل فى الكبار فالخطر كل الخطر عليهم أن يستسلموا للتفكير فى الموت ومايستتبعه والا تحركت فيهم مخاوف الطفولة وتجسمت بدرجة تطيح بتوازنهم النفسى والعقلى .

وغنى عن البيان أن طيبة « ايف هوايت » وتخاذلها وتدينها وحرصها الدائم على ارضاء كل من حولها ولو كانوا المتجنين عليها ، إنما جاءت لرغبتها المتأصلة فى نفسها منذ الطفولة فى النجاة بنفسها من العذاب الذى يأتى بعد الموت عادة لعقاب العصاة المخطئين .

ومن المعروف علميا أن الرغبات المكبوتة التى تهرب بها النفس بعيدا عن العقل الواعى وتخفيها بين طيات العقل الباطن ، تعمد الى الالتحام والاتحاد فى أعماق النفس مما يؤدى إلى أضرار نفسية بليغة .. فهى تربك النفس وتهز العقل وتدفع صاحبها إلى اتيان تصرفات شاذة مثل المداومة على غسيل اليدين او تبتليه بأمراض وهمية مثل العمى الكاذب

والشلل الوهمى ، أو إذا كانت الحالة حادة يكون تمزق الشخصية الواحدة وانقسامها إلى شخصيات متعددة .

وهذا مايسميه علم النفس « بالشيزوفرانيا » أو انفصام الشخصية .

وهذا أيضا هو ماحدث للطفلة « ايف » فالمؤثرات التى حدثت يوم رأت جثة المتسول الغريق ، ثم ماتبعها من احداث جناز جدتها ضخمت فى نفسها الموت ، ولفرط رغبتها فى الهرب من العقاب ، حاولت بكل ماتملك من جهد أن تكون طيبة فعمدت بغاية الصرامة إلى مقاومة مشاعرها الحقيقية وكبت رغباتها الطبيعية ، ولقد أفلحت هذه السياسة فى جعلها المرأة الطيبة ، المسالمة المغلوبة على أمرها .. تلك القديسة التى رآها الطبيب عندما دخلت عيادته للمرة الأولى ، وما اكدته له فى احاديثها المختلفة من رغبتها فى اسعاد الآخرين حتى ولو كلفها ذلك ان تعانى الظلم الفادح بنفسها وتجلب التعاسة على حياتها .. ففى قرارة نفس هذه القديسة كانت الرغبات الطبيعية تختفى بين طيات عقلها الباطن دائما فى تطاحن وغليان وثورة ، حتى تم الالتحام المدمر بينها وبين هذه الرغبات ، وأمكنها أن تخرج فى الشخصية التى تلائمها وهى شخصية « ايف بلاك » .

فالانسان منذ خروجه إلى الحياة يحمل فى صدره عناصر شخصيات متعددة : فيها بذور الخير ، وبذور الشر .. بذور الطاعة والاستقامة وبذور العصيان والاستهتار ، ولكن نوع التربية التى يتلقاها الطفل مع ظروف البيئة المحيطة به هى

التى تغلب كفة على كفة نتيجة للاندماج او الالتحام الذى يحدث للاتجاهات المختلفة .. ويظهر الجانب الأقوى ، ويكون بمثابة القائد الذى يعرف نفسه فقط ، ولايدرى شيئًا عن الفروع الكامنة بين طيات العقل الباطن .. وهذا القائد يصدر أوامره الى الجهاز كله . ويعمل على أن يتجه به إلى الناحية التى يريدها ، والتى قد لاتريدها الاتجاهات الاخرى الخفية ، فيكون التطاحن الذى لابد ان يؤدى إلى التمزق .

وهذا ماحدث « لايف » ..

فلقد خلقت وكلها رغبة فى المرح والاستمتاع بمباهج الحياة لكن صرامة والديها فى تربيتها ، وتهديدهما الدائم لها بالعقاب ، وحرمانها من أبسط الملذات وأشدها طهرا وبراءة بدعوى أن الملذات تخالف تعاليم الدين وتغضب الله ، وأنه لارضاء الرب يجب ألا تمرح ولاتضحك ولاتلبس اللون الاحمر ولاتختلط بأطفال الجيران خشية أن يفسدوا أخلاقها .. كل هذا الكبت لرغباتها المشروعة البريئة دفعها إلى ارتداء مسوح القديسين ارضاء لوالديها ولربها الذى يصوره لها ابوها وأمها فى شكل صارم قاس ، ويأمرانها بالتضحية كل التضحية فى سبيل ارضائه .

وفى حالة « ايف هوايت » تغلبت ناحية الاستسلام والطاعة وحرمان النفس على جميع النوازع الأخرى ، فظلت هذه النوازع فى مخبئها حية نشيطة تتحد وتتلاحم ، ولما عجزت هذه النوازع عن التغلب على الأخرى ، ترتب على ذلك « التطاحن النفسى » أن أصيبت « ايف » بانفصام الشخصية ، واصبحت امرأتين : احداهما كما يريدها أهلها ،

والاخرى كما تريد أن تكون فى قرارة نفسها .. فالشخصية الأولى هى شخصية المطيعة المتدينة ، والشخصية الثانية هى النوازع التى قويت الى درجة مكنتها من أن تخرج أحيانا فى صورة « ايف بلاك » الجميلة المرحة الخليعة الشقية ، ولقد تسببت هذه الصفات المثيرة فى أن تظهر « ايف هوايت » ممسوحة الشخصية لاتثير اهتماما ولاتستوقف انظارا ولاتجتذب قلوبا .

ومن الحقائق العلمية الثابتة ايضا ان المتاعب النفسية للانسان تبدأ فى الطفولة من خلال علاقة الطفل بوالديه ، ولقد بدا ذلك واضحا فى حالة « ايف هوايت » التى ظلت طول سنوات العلاج تردد وهى مستيقظة أو نائمة مغناطيسيا آيات المديح لوالديها ، وتؤكد حبها لهما ، وترسمهما فى صورة مثالية وتحمل نفسها اللوم كل اللوم فيما كانا ينزلان بها من صنوف العقاب حتى على الأخطاء التى لم ترتكبها .

لكن « ايف بلاك » كانت تردد العكس تماما كلما ورد ذكر الوالدين فى احاديثها مع الطبيب ، كانت تبدى دائما شعورها العدائى نحوهما ، وتؤكد انهما لم يكونا فى يوم من الايام أبوين طيبين وأن الأب رغم عيوبه كان أخف وطأة من الأم المستبدة القاسية .. وباستدعاء الطبيب للوالدين لمعرفة الحقيقة تبين من حديثهما ان « ايف هوايت » فى طفولتها وقبل الأحداث المتتالية التى مرت بهم : مولد التوأم وانتشال المتسول الغريق ثم جنازة الجدة ، كانت على أطيب علاقة وثيقة بوالديها ، وبعد ذلك بدأت الخلافات تتعدد وتتوالى وبما

أن الأب لم يستطع أن يأخذ دورا عمليا فى تأديبها على ت بأنها وتمردها بسبب انشغاله ليل نهار فى عمله ، فقد وكل إلى الأم مهمة القيام بعملية التأديب مما ترتب عليه الشعور المكثف الذى تحدثت عنه « ايف بلاك » نحو الأم أكثر من الأب وأشد .

ولكن التغيير الواضح الذى حدث فى حياة الأسرة بدأ بمولد التوأم ، فقد اتجه اهتمام الوالدين الى البنتين الصغيرتين وانحصرت رعايتهما وعواطفهما نحوهما ، مما أجحف بحق « ايف » الصغيرة ، وأشعرها بالوحدة والألم رغم كل ما كانت تردده وهى فى حالاتها الطبيعية من مديح الوالدين ودوام تعلقهما بها وحنانهما عليها ، ومن شغفها الجنونى وحبها البالغ لاختيها الصغيرتين ، وسعادتها الغامرة بالقيام على خدمتهما .. غير ان « ايف بلاك » التى تعبر بشخصيتها عن حقيقة مشاعر الفتاة ونوازعها المكبوتة أعربت فى كل مرة خرجت منها عن كراهيتها الشديدة نحو التوأم ، ولم تتورع عن الاعتراف بأنها هى التى كانت تعض المولودتين وتعذبهما ، وعندما تجد أن الموقف قد تأزم ، تعود إلى الاختفاء وتترك « ايف » الطيبة لتتلقى العقوبات الصارمة.. على أخطاء لم ترتكبها .. ولقد بلغ من حدة كراهية ايف بلاك لهما انها لم تبد فى أى لحظة من لحظات أحاديثها مع الطبيب أدنى ندم على مافعلته .

وهنا يظهر بوضوح أن المشكلة الحقيقية لمرض تعدد الشخصية الذى أصاب « ايف » يبدأ خيطه الأول من مولد

التوأم وما ترتب على ذلك من حرمان الطفلة من القدر الضئيل الذى كانت تستمتع به من الحنان ، فمجىء هاتين الدخيلتين سلبها حقها من الرعاية والمحبة ، وكلفها بما ناء كاهلها الصغير من خدمتها ، والأدهى من ذلك أن الحدث الجديد أخرج الأم عن سياستها التقليدية التى طبعت « ايف » الصغيرة على الصرامة والجفاء .. وبينما استمرت هذه السياسة الخرقاء مع الأخت الكبرى ، تغير الموقف مع الأخريين ، فقد استولى التوأم على قلبها ، وتلهت فى حب الصغيرتين ولم يعد فى قلبها مكان لغيرهما .

وكانت « ايف بلاك » الى تلك المرحلة من حياة الأسرة لاتزال كامنة بين طيات العقل الباطن للصغيرة « ايف » لاتقوى على الخروج إلى أن استجدت عوامل أخرى ضخمت المضاعفات النفسية . ومن هذه العوامل اليوم المشهود الذى رأت فيه الصغيرة مع أهل البلدة رجال الانقاذ وهم يستخرجون جثة المتسول العجوز الذى أخطأ ذات ليلة طريقه فى الظلام الحالك ، فسقط فى المستنقع وغرق .

وكان منظره بشعا للغاية ..

بشاعة لم يسبق للصبية أن رأت مثلها .. كان منتفخا متعفنا التهمت الاسماك جانبا من وجهه ويديه مما أنزل الرعب « بأيف » حتى كاد قلبها يتوقف .

وكانت الأم قد اعتادت أن تحذر دائما « ايف » من الاقتراب من المستنقع أو اللعب بجواره ، ورغبة فى ابقائها

بعيدة عنه تخيفها بالوحش .. أو التنين الذى يختفى تحت مياهه فى انتظار من يقترب ليفتك به ويلتهمه .. وعندما عادت الصغيرة الى البيت وهى ترجف لما رأته ، اتخذت الأم مما حدث وسيلة لوعظ الفتاة ، وأكدت لها أن المتسول العجوز كان شريرا لانه لم يسمع الكلام بالابتعاد عن المستنقع ، وبذلك نال عقابه على عصيانه وشقاوته ولقى حتفه وهذا المصير سوف يلقاه كل من يعصى أوامر والديه ولايحترم رغباتهما .

إزاء ذلك بدأت « ايف بلاك » تتحرك فى العقل الباطن للفتاة ، قلقة راغبة فى الخروج ، ولكنها لم تستطع الى هذه اللحظة أن تجد لها منفذا .

ثم كانت وفاة الجدة ، ومافعلته الأم باجبار ابنتها الصغيرة على تقبيلها ومس وجهها البارد تحقيقا للخرافة التى تزعم أن الميت لايسهل طريقه إلى قبره ولايتأتى له الاستمتاع بالسلام الابدى مالم يودعه الاحباء .. الصغار منهم والكبار .. بالحنان الواجب.. وهذه هى القصة التى كشفت عنها صرخة « جين » فى عيادة طبيبها ، وصياحها قائلة : أمى .. أمى .. لاتجبرينى على ذلك .. حرام عليك ياأمى .. فأنا لااستطيع !

ذلك أن لمسة وجه الميت البارد قد أضافت إلى الرعب الذى انتابها برؤية جثة المتسول الغريق وماقالته أمها فى تبرير غرقه ، رعبا مضاعفا أحدث فى صدرها البرىء الساذج ما يشبه انفجار بركان نفسى يلفظ حمما تؤدى بكل اتزان لها ، بدليل الكوابيس التى عذبتها فى نومها عقب ذلك ، واستمرت لمدة طويلة ..

وهنا تقوت « ايف بلاك » ، وامكنها التغلب على الموانع والسدود التي وقفت من قبل دون قدرتها على التحرك ، فخرجت لكي تؤدب وتعاقب بأفعالها الشريرة « ايف » الطيبة .. أو البلهاء الحمارة كما كانت تسميها ، على ضعفها وخضوعها للاستبداد ، واستكانتها إزاء العذاب المستمر الذى تناله على يدى والديها ، وأمها على وجه التخصيص التي شاركت بالقدر الأكبر فى تدمير نفسية ابنتها .

ومن ذلك الوقت اخذت « ايف بلاك » تواصل الخروج لتأديب « ايف هوايت » ومعاقبتها ، فكانت تنتقم وذلك بعض الطفلتين ، وتحطيم دمية فلورنس ، كذلك كسر قدح الشاى الثمين الذى كانت أمها تحرص عليه .. ولكي تضاعف من انتقامها من « ايف » الطيبة كانت تعمد بعد كل غلطة جسيمة الى الاختفاء فورا تاركة الطفلة البريئة تتلقى العقوبات القاسية على أفعال تؤكد أنها لم ترتكبها ..

وحقد « ايف بلاك » على الوالدين كان نتيجة هذا الاضطهاد والقسوة .

ولما كانت « ايف » الطيبة لاتعرف مطلقا بوجود الأخرى ، وتصاب أثناء خروج غريمتها بحالة من فقدان الوعى الذى يعجزها تماما عن معرفة مايجرى خلالها .. فقد كانت فى نظر نفسها .. وبكل صدق وأمانة بريئة تماما من كل ماينسب اليها ، ولكن الأب بواعز من الأم اخذ فى كل حادث تنكره يؤديها مرتين ، واحدة لارتكاب الغلط ، والأخرى لجريمة الكذب .

وتتقبل « ايف هوايت » العقوبات الوحشية بمنتهى الاستسلام ، معتبرة بينها وبين نفسها الواعية انها لابد قد اقترفت أخطاء يحق للأب أن يؤدبها عليها ، أو ربما تكون قد خرجت على ارادة الله فى أمر من الامور فسخر أباها لتعذيبها .

لكن توالى القسوة والظلم والتعذيب ، زاد « ايف بلاك » ضراوة ورغبة فى التفانى فى ايذاء الشخصية الأخرى ..

ثم كبرت الفتاة ، وشبت « ايف » عن الطوق وأصبحت شابة ، وبذلك حان الوقت لأن تكمل تعليمها العالى وما تلاه من خروجها إلى العمل ، فانتقلت إلى بلدة أخرى بعيدا عن بيت العذاب الذى ذاقت فيه الأمرين خلال طفولتها وصباها .

وبابتعادها عن البيت والتوأم والوالدين ، انتفت الأسباب التى كانت تتيح للأخرى « ايف بلاك » الخروج والعربدة بانتقاماتها ، وفقدت القدرة على الخروج عبر العوائق والسدود التى كانت تقف دونها .. فاستعادت « ايف » اتزانها النفسى واستقرارها العاطفى ، وعاد مسارها الى الخط الطبيعى .. لم تعد تعانى من الصداع ولانوبات غيبة الوعى التى اعتادت أن تصيبها أثناء خروج « ايف بلاك » الى الناس والحياة المحيطة بغريمتها .

ولقد شهد كل من عرفها خلال هذه الفترة ممن عاشوا معها فى الفنادق الصغيرة او زاملتهم فى العمل ، انها ظلت دائما وفى كل لحظة من حياتها ، فوق مستوى الخطأ . طيبة .

شريفة . مسالمة .. تحرص على عدم اغضاب أحد ولو جاء ذلك على حسابها .. تعيش فى غاية التقشف والتقتير لكى توفر من راتبها المحدود قدرا يمكنها من أن ترسل الهدايا إلى والديها واختيها التوأم ، وقد حدث فى إحدى المناسبات ان أرسلت الى كل من أختيها معطفا جميلا وقضت ذلك الشتاء وهى ترتجف من البرد بسبب معطفها القديم الممزق .. وحدث فى ذلك الوقت أن قابلت « رالف هوايت » وابدى غاية اهتمامه بها ، فوجدت فيه خير رفيق وأنيس ، وعندما رجاها أن تتزوجه ، ابدت قبولها دون تردد وهى متفائلة بالسعادة التى تنتظرها عندما تعيش فى كنفه ، وتلقى كل أنواع الرعاية التى مناها بها ..

ولكن « رالف » رغم حسن سلوكه ودأبه على العمل وتفانيه فى أداء واجبه لم يكن بالرجل الذى تصورته « ايف » وظهرت عند معاشرته عيوب خلقية تجعل الحياة معه أبعد ماتكون عن السعادة . من ذلك حرصه الشديد على المادة ، واستغلاله الحقير لما طبعت عليه زوجه من انكار للنفس فى فرض أسباب التقشف عليها أكثر مما يستدعيه دخله الطيب . ولكثرة ماتتقبل رغباته صامتة راضية ، مال إلى الاستبداد والتسلط ، ولجأ إلى الصرامة فى إدارة دفة الحياة الزوجية ولم يعد يقبل كلمة أو رأيا مخالفا من زوجته .

وتمشيا مع سلبيتها المعهودة ، تقبلت « ايف هوايت » هذه الأوضاع راضية ، وعندما أخلف وعده قبل الزواج باراحتها من العمل ، فما أن عقد عليها إلا ودفعها إلى الخروج للعمل لمضاعفة دخله ، تقبلت حكمة طائعة رغم ماكان يكبدها الجمع

بين العمل فى الخارج والقيام بجميع واجبات الأسرة من ارهاق بدنى أوشك أن يهدها .. فقد كان المطلوب منها أن تشتغل فى وظيفتها سبع ساعات يوميا ، ثم تعود الى البيت لتكنس وتمسح وتطهو الطعام وتحيك ثياب الاسرة كلها حتى قمصان زوجها وملابسه الداخلية .. هذه الواجبات التى كانت تحصرها بين العمل والبيت لأسابيع متتالية ، وكم مرت عليها من شهور دون أن تخرج مرة واحدة ولو لفترة قصيرة جدا للترفيه عن نفسها ..

وعندما رزقت بأول مولود لها وهى « بونى » أضىء قلبها بسعادة الأمومة وحبها الجارف .. ومع أن هذه الضيفة الجديدة أضافت الى أمها أعباء جديدة غير أن « رالف » لم يرحمها من العمل الخارجى إلى أن سقطت مريضة ، وعندما أذن لها بالاستقرار فى البيت ، ضاعف من استبداده بها ، وتقتيره عليها بدعوى أن « بونى » تحتاج الى رأسمال يؤمن حياتها المستقبلة .

وبشعورها المكبوت بالشقاء الشديد ، وعجزها المعهود عن مواجهة مشاكلها ، عادت « ايف بلاك » الى الخروج لتعاقبها بأبشع صورة على تخاذلها واستسلامها .. وكان من ألوان تنكيلها بالزوجة المسكينة أن اشترت الملابس الخليعة التى كلفت « رالف » جميع مدخراته وفوقها ديونا يدفعها لعشر سنين قادمة .

كانت « ايف » تكره « رالف » كل الكراهية بعقلها الباطن ، وتتمنى أن تنفصل عنه بالطلاق خلاصا من الذل الذى تعيش فيه .

لكنها بعقلها الواعى تراه سيد البيت ، وصاحب الحق فى تصريف أمور الاسرة بالطريقة التى تحلو له . أما الطلاق فلم يطرأ لها ولو للحظة واحدة على بال ، وذلك لشدة تدينها وايمانها الدينى بأن الطلاق بغيض لدى الله ، ومن يأته يرتكب الخطيئة الكبرى التى تُحق عليه عذاب الدنيا والآخرة .

ولم تقف الأمور عند هذا الحد ..

فقد استفحل الشقاق بين الزوجين حين نكثت « ايف » بالعهد الذى قطعته على نفسها أمام القسيس يوم الزفاف ، والذى يقضى بأن تنشىء جميع الابناء الذين ترزق بهم من « رالف » على دينه الكاثوليكى ، لادينها البروتستانتى .. ولقد كانت صادقة مع نفسها عندما قطعت هذا العهد ، ولكن مجىء « بونى » غير الوضع ، ودفعها إلى أن تتراجع عما وعدت به ..

كانت تعرف أنها ترتكب خطيئة بنكث العهد .

ولكنها تشعر فى نفس الوقت انها ترتكب خطيئة أخرى إذا هى فرضت على « بونى » اعتناق الكاثوليكية قبل أن تكون لدى الابنة القدرة على الاختيار لنفسها .

وفجر الخلاف والمشاكل والتطاحن مرض « ايف » واصبحت « ايف بلاك » طليقة تفعل ماتشاء من الوان تأديب شبيهتها على تخاذلها عن اتخاذ المواقف الحازمة ، ورفضها الطلاق من زوجها الطاغية .. ومن هنا كان تفننها فى الاساءة اليها فى كل عمل تشتغل به ، ومحاولة تشويه سمعتها النظيفة بالتقاط الرجال من الطريق ، بل والهمس فى أذنها محرضة

على دفعها الى قتل زوجها « المجرم الحقير » ، وخنق ابنتها « الحشرة التافهة » التى يمنعها وجودها وحرصها على مستقبلها من الاقدام على تحطيم قيود الاسرة ..

معنى ذلك ان « ايف بلاك » ، لم تكن تظهر الا فى الأزمات النفسية الحادة وأن السواء والتوازن لم تستمتع بهما « ايف هوايت » الا قبل مولد التوأم ثم أثناء فترة بعدها عن أسرتها خلال دراستها العالية وعملها بالوظائف المختلفة .. أى فى مراحل السعادة القليلة التى كانت تمر بحياتها .

ولعل أقرب وصف يمكننا أن نصف به « ايف بلاك » انها كانت الصوت الخفى الذى تعاقب به « ايف هوايت » نفسها على ضعفها أمام العدوان الذى يقع عليها والعجز عن انتزاع حقوقها المشروعة من مباهج الحياة ومسراتها .

وأكبر دليل على صحة هذا الكلام أن « ايف » أول مابدأت تجد نفسها ، كان ذلك بظهور « جين » ، التى تمثل فى الحقيقة فترة البراءة والسعادة الأولى من حياتها .. ثم تلا ذلك ظهور المرأة الجديدة التى لم تكن تعرف نفسها ، وبضغط الطبيب عليها اختارت اسم « ايف هوايت » .. فالصغيرة « جين » هى طفولتها ، والمجهولة « ايف » هى شبابها وبقية حياتها .

وأول ظاهرة ترتبت على اندماج هاتين الشخصيتين اللتين وجدت فيهما « ايف هوايت » نفسها ، أن حزمت أمرها على طلب الطلاق فورا ، ولقد شجعها على ذلك ماعرفته من أن

« رالف » قابل « ايف بلاك » بعد انفصال زوجته عنه ، ورغم أنه كان يعرف بمرضها وعلى دراية تامة بشخصيتها الأخرى الشريرة ، وقع في الفخ ، وبمجرد أن وجد منها ملاطفة عرض عليها أن تقضى معه نهاية الاسبوع ، فرحبت « ايف بلاك » مقابل ثوب جديد يشتريه لها .. وبعد أن حصلت على الثوب قضت معه ليلة ثم اختفت من حياته غير آسفة ولانادمة .. ولم تتورع قبل رحيلها ان تكاشفه بحقيقة مشاعرها نحوه ، وقد وجدته فى الليلة التى قضتها فى احضانه مقززا منفرا فى علاقته الجنسية ، وأنها ما سمحت له بذلك الا رغبة فى الحصول على الثوب الأحمر الجديد ، ولكنها الآن وبعد ان حصلت على الثوب تجد أنه لم يكن يستحق « القرف » الذى عانته أثناء علاقته بها !!

وهكذا حطمت « ايف بلاك » كبرياء « رالف » وطعنته طعنة نجلاء فى صميم رجولته .

أما « ايف هوايت » فقد اعتبرت الحادث خيانة زوجية من « رالف » ، بل حطة فى أخلاقه أن ينتهز فرصة المرض ليرضى رغباته الجنسية منها .

وأسرعت برفع قضية الطلاق ، ولم يعارضها « رالف » فى ذلك بعد أن يئس تماما من احتمال عودتهما الى الحياة معا ، وعرف بحقيقة شعورها نحوه من خلال ماواجهته به « ايف بلاك » من صراحة موجعة .

وصدر الحكم بالطلاق ، فهدأت نفس « ايف هوايت » ،

واستعادت استقرار ذهنها ومشاعرها ، وعندئذ تحولت « جين » الطفلة الى « ايف هوايت » الجديدة الناضبة ، وبدا واضحا أن هذه الشخصية الجديدة تجمع كل فضائل الشخصيات السابقة ، فقد كانت تتحلى بطبيعة « ايف » الأولى وطهارتها ، ورصانة « جين » ورجاحة عقلها ، وجاذبية « ايف بلاك » وسحرها المجرد من الخلاعة والاستهتار والابتذال .

ولقد شاء القدر أن يتم سعادتها بالرجل الكريم ، « برت لانكستر » الذى سبق أن قابلها وهى لم تزل مريضة ، وعرف بما تعانيه ، ومع ذلك تقبلها على علاتها ، ورفض أن يتخلى عنها ، واثقا بأن حبه لها سوف يقودها ذات يوم الى الشفاء ، فيسعد بالحياة معها .

وعندما ثبتت الشخصية الجديدة ، واختفت الشخصيات الأخرى ، تزوجت « ايف » بحبيبها « برت » واستقرت فى حياتها معه باحدى المدن التى لا يعرف أحد فيها شيئا مطلقا عنها .

وبعد شهور من الاطمئنان والاستقرار .. جاءت بابنتها « بونى » من لدن جديها ، واشركتها فى الحياة معها ، سعيدة بحبها لها وبما يغدقه « برت » على الصغيرة من آيات الرعاية والحنان .

ولكن رغم الانتصار الطبى العظيم الذى حققه الطبيبان « كليكلى » و« تيجين » بعد علاج دام أكثر من سبع سنوات ،

فقد أكدا بصريح العبارة أن الشفاء الدائم لمريضتهما السابقة « ايف » ليس مؤكدا ولا مضمونا ، وأن أى هزة نفسية شديدة قد تعيد اليها الانفصام مرة أخرى ، وإن حدث ذلك فستكون نكسة رهيبة اقوى من أن تعالج ، وقد ينتهى الأمر فيها الى ايداع « ايف » مستشفى للأمراض العقلية حيث تقضى ماتبقى من عمرها .

ولكنهما لم يقطعا بذلك ، وقد يشاء حظها ألاّ تقابل هزة نفسية أخرى ، وعندئذ يكون احتمال بقائها سليمة مازال قائما ، والمصير كله فى يد القدر !

كتاب الهلال القادم :

هجرة اليهود السوفييت

بقلم :

د . عبد الوهاب المسيرى

يصدر : ٥ ديسمبر سنة ١٩٩٠

روايات الهلال تقدم :

حسناء بحر كورتيز

تأليف

بيتر بنشلى

ترجمة

عبد العزيز مصطفى

تصدر : ١٥ نوفمبر سنة ١٩٩٠

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية . وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ١٩٩٠ / ٨١٢٢

I. S. B. N
977 - 07 - 0027 - 4

هذا الكتاب

«حواء ذات الوجوه الثلاثة» قصة واقعية تكشف نتائج قهر المرأة ، سواء فى ممارسة ما لا يتفق مع معتقداتها ، او نتيجة تسلط الرجل ورغبته فى جعلها شخصية أخرى بعيدة عن شخصيتها الحقيقية .

تقدمها للقارىء العربى الكاتبة الكبيرة أمينة السعيد التى تحمل مشعل الاستنارة وتخوض معركة دائمة دفاعا عن حقوق المرأة العربية وتكمل الدور الرائد الذى بداته السيدة هدى شعراوى .

والحالة التى تقدمها لسيدة مصابة بازدواج الشخصية وبدأ مرضها بصداع عنيف ينتابها وهى التى لا ينقصها الجمال ، وعجزت كل الوسائل الطبية عن علاجها وتأكد خلو جسدها من اى مرض يمكن ان يؤدى الى هذا الصداع .

وتبين الاطباء انها تعيش حالة تمزق حادة بين معتقداتها وحياتها ، وتعانى من تسلط زوجها ورغبته فى ان تكون شخصية اخرى غير التى خلقها الله ، وأن تغير من صفاتها الاساسية .

وقد اثار نشر هذه القصة ضجة كبيرة ، فى اوساط الطب النفسى ، بل وقامت الشركات السينمائية بتقديم افلام مستوحاة من هذه الحالة .



هجرة اليهود السوفييت

د. عبد الوهاب المسيري



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٨٠ - جمادى الاولى - ديسمبر ١٩٩٠ KITAB AL-HILAL

المكاتبات : ص . ب ٦١٠ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ -
تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 HILAL U.N.
فاكس : FAX 3625469
مكتب الاسكندرية : ٢٥ شارع النبى دانيال - ت : ٤٩١٢٦٩٦ / ٤٩٢٤٧٢٠

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٥٠ قرشا

لبنان ٣٠٠٠ ليرة ، الأردن ١,٥ دينار ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٠ ريالات ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٣٠ درهما ، الكويت ١,٥ دينار ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ١٠ ريالات ، الأمارات العربية ١٠ دراهم ، سلطنة عمان ١ ريال ، غزة والضفه والقدس ١,٥ دولار ، انجلترا ١,٧٥ جك .

الغلاف تصميم الفنان .
محمد ابو طالب

هجرة اليهود السوفييت

منهج فى الرصد وتحليل المعلومات

بقلم :

الدكتور / عبد الوهاب المسيرى



دار الهلال

مقدمـــة

« فى المنهج والمصطلح »

١ ـ إعرف عدوك ولتشعر بالهزيمة

صاحب سقوط النظام الاشتراكي فى رومانيا اضطرابات كثيرة تناقلت الصحف أخبارها : عن المذابح التى وقعت ، وعن آلاف الضحايا الذين سقطوا قتلى ، وعن الحرائق والخسائر . وعلى الرغم من أن هذه الأخبار كانت «أكيدة » إلا أنه بعد بضعه شهور بدأت تتكشف صورة مغايرة تماما لما ورد فى الصحف والاذاعات ، اذ تبين أن «ضحايا الثورة الرومانية أقل مائة مرة من الرقم الشائع » ، فهم ليسوا ٦٠ ألف قتيل ـ كما أذيع وأشيع من قبل ـ وانما ٦٨٩ فقط ، وشتان بين الرقمين . بل وثبت أن مذبحة تيميشورا ، التى راقب العالم أحداثها بوجل وقلق على شاشات التليفزيون ، كانت محض افتراء ، كما تبين أن وكالتى الأنباء المجرية واليوغسلافية كانتا هما المصدر الرئيسى للأنباء وأن كلا من المجر ويوغسلافيا كانتا لهما مصلحة فى إسقاط النظام الرومانى . ولعل هذا هو الدافع وراء تسريب الأنباء الزائفة عن المذابح .

ولابد أن الصورة الجديدة التى تكشفت صدمت الذين يتلقون كل ما هو مطبوع وكأنه الحقيقة التى لا شبهة فيها ، والذين يواجهون الواقع وهم مستلبون تماما ، يسجلون كل شىء دون عناء أو نقد ثم يسمون هذا الاستلاب «موضوعية » . وهم بالفعل موضوعيون ، ولكن موضوعيتهم هذه موضوعية متلقية تكتفى بتسجيل الوقائع ومراكمتها ، بحيث تصبح القضية الاساسية هى : هل حدثت الواقعة فعلا أم لا ؟ وبعد الموضوعية المتلقية تأتى الموضوعية التوثيقية ، وإذا كانت الأولى تسجل المعلومات دون تساؤل عن المعنى أو الدلالة فإن الثانية « ترصبها » رصدا وتربط بين الواقعة والأخرى بشكل مباشر وعلى أساس تصنيفى سطحى بعد ذكر المصادر فى الهوامش أو فى قائمة المراجع ، ثم يسمى هذا الأرشيف بحثا ! وفى هذا الإطار تصبح القضية الأساسية هو كم المعلومات وعدد المراجع وما إذا كانت بينها آخر المراجع (عادة الغربية) أم لا ، كما تصبح آليات البحث أكثر أهميه من ثمرته العلمية ومقدرته التفسيرية .

وكل من الموضوعية المتلقية والتوثيقية لا علاقة لهما بأى فكر حقيقى أو ابداعى ، بل أنهما يحولان العقل المتسائل إلى آلة رصد ، وبدلا من محاولة تفسير الواقع فإنهما يكتفيان بتسجيله وأرشفته . والوهم الكامن وراءهما أن الحقائق المتناثرة هى الحقيقة ، وأن المعلومة فى حد ذاتها تنطق بالصدق ، وأنه يتم التوصل إلى المعرفة من خلال عملية تجميعية تراكميه خارجية ـ معلومة فوق معلومة (ذره فوق ذره) . وبالطبع تصبح المعلومة المجهولة أو غير المعروفة بالضرورة أكثر أهمية من المعلومة المعروفة ، ويتحول الباحث إلى شرلوك هولمز أو أرسين لوبين يفتش فى المصادر عن مثل هذه المعلومة (أو يخفيها خشية أن يسبقه أحد إليها !) فالمسكين لا يعرف أن كم المعلومات لا يحدد مدى صدقها أو أهميتها ، وأن نوعية المعلومات ، معلومة كانت أم

مجهولة ، لا يجعلها أكثر أو أقل دلاله ، فالصدق والدلالة والأهمية أمور يجردها عقل الانسان المبدع من كم المعلومات والوقائع والحقائق المطروح أمامه ، وهو كم هائل متضارب ، خاصة بعد ثورة المعلومات التى أصبحت تتهدد عقل الانسان .

وغنى عن القول إن مناهجنا التعليمية تصدر عن فلسفة تراكمية ذرية مماثلة فكتبنا الدراسية تركز على المعلومات وكمها ، لا على طريقة تصنيفها وتفسيرها ونقدها ، والهدف من العملية التربوية هو تلقين الطالب حشدا هائلا من المعلومات (معلومة بجوار معلومة ، درسا بعد درس) إلى أن تضيع الحقيقة تماما ، ويبرز متوسطو الذكاء الذين لا يتمتعون إلا بموهبه الحفظ والتكرار والاجترار ، وتفقد الأجيال مقدرتها على التفسير والابداع والنقد .

ولا أعتقد انني أبالغ كثيرا إن قلت إن الموضوعية المتلقية

ولا اعتقد اننى ابالغ كثيرا ان قلت ان الموضوعية المتلقية التوثيقية تسيطر على طريقة ادراكنا للواقع ورصده وان اعلامنا العربى يدور فى فلكه ويتحرك داخل اطاره . ولأضرب مثلا على عملية الرصد دون اجتهاد وبموضوعية متلقية توثيقية . فى عام ١٩٨٢ صرح متيتيا هو دروبلس (رئيس قسم الاستيطان السابق فى الوكالة اليهودية) ان عدد المستوطنين الصهاينة فى الضفة الغربية سيصل الى ١٠٠ الف عام ١٩٨٧ وانه بحلول عام ٢٠١٠ ستضم الضفة الغربية ١,٢٥٠,٠٠٠ يهودى ! ونشر الخبر بحذافيره فى كثير من الصحف العربية ، وزينت المعلومة صفحاتها وعناوينها الرئيسية . ولكن بحلول عام ١٩٨٧ لم يكن عدد المستوطنين قد تجاوز ٥٠ ـ ٦٠ ألفا (انظر كتابنا «الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية») اى ان نبوءة دروبلس او مخططة فشل تماما ! ومع هذا صرح هذا المسئول الصهيونى نفسه فى ذلك العام (١٩٨٧) بأن هناك خطة مدروسة لزيادة عدد المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية وغزة لتبلغ نسبتهم ٤٠٪ من مجموع عدد السكان العرب فى نهاية القرن الحالى اى ٦٠٠ الف مستوطن . ثم اشار الى ان هذه الخطة تفترض هجرة مليون ونصف مليون يهودى من الاتحاد السوفييتى .

وقد نشر الخبر بحذافيره مرة اخرى فى كثير من الصحف العربية ، كما زينت المعلومة الجديدة صفحاتها وعناوينها الرئيسية ، لم يكلف احد خاطره بان يذكر كذبة دروبلس السابقة حتى نتحفظ تجاه تصريحاته الجديدة ، ولم يطرح احد احتمال انه قد يكون مثل سائر البشر يخلط الحقائق بالأمانى والحقيقة بالوهم ، وانه قد لا يختلف كثيرا عن المخابرات الاسرائيلية التى استمرت فى انكار وجود الانتفاضة بعد شهر من اندلاعها ، والتى أعلنت أنه تم اخمادها بشكل نهائى - عشر مرات حتى الآن !

ونفس الموضوعية المتلقية التوثيقية تظهر فى الحديث عن النبوءات الصهيونية التى تحققت ، ويشير «الخبرا» دائما الى نبوءة هرتزل أن الدولة الصهيونية ستتحقق بعد خمسين عاما ، ثم يهزون رأسهم فى حكمة بالغة ويقولون أنها قد تحققت بالفعل فى ذلك التاريخ ، ثم يشفعون ذلك بالاشارة الحتمية الى دقة التخطيط الصهيونى ومقدرات الصهاينة الجائبية .

ولكن لعل كثيرا ممن يقال لهم بالموضوعيين هم فى واقع الأمر مهزومون مغرمون بجمع المعلومات والنبوءات التى تبين مدى قوة العدو وبطشه ودقته وسيطرته وتحكمه ، ولذا نجدهم يرصدون نوعا من القرائن ، دون غيره - أى أنهم ليسوا موضوعيين بما فيه الكفاية ، ولذا فهم لايذكرون النبوءات الصهيونية الكثيرة التى لم تتحقق (هل أحصى أحد عددها وقارنها بعدد تلك التى تحققت ؟) ماذا عن نبوءة الصهاينة ان العرب سيقبلون بالدولة الصهيونية وان الفلسطينيين سيرحبون بها ؟ وماذا عن نبوءتهم انها ستكون دولة ليبرالية لادينية ؟ وماذا عن نبوءة هرتزل بأن «المانيا العظيمة القوية » هى التى ستقوم برعاية المشروع الصهيونى وبحماية اليهود «ووضعهم تحت جناحيها» كما قال بالحرف الواحد؟ وكلنا يعرف ان المانيا العظيمة هذه وضعتهم فى افران الغاز وفتكت

بالملايين منهم وغيرهم بعد مرور حوالى ثلاثين عاما من نبوءته ـ لم لايذكر احد تلك النبوءات ؟

كما لايذكر احد نبوءات الصهاينة بخصوص الأرجنتين التى تضم أكبر تجمع يهودى فى امريكا اللاتينية (يبلغ تعدادهم حوالى ٣٠٠ الف) . وأمريكا اللاتينية تعتبر احدى مناطق النزوح ، أى أنها بلد طاردة لليهود وليست جاذبة لهم . وهذا يعود لعدة أسباب من بينها رفض الحضارة اللاتينية لليهود ومقدرتها فى ذات الوقت على هضمهم ، ومن بينها ايضا تقاليد معاداة اليهود الراسخة ، وعدم الاستقرار السياسى أو الاقتصادى لبلاد القارة . وقد جاء انتخاب منعم رئيسا للأرجنتين ، بخلفيته الأثينه العربية ، فزاد من مخلوف اليهود فيها ، خاصة ان منافسه الفونسين كان متعاطفا مع اعضاء الجماعة لكل هذا اطلق الصهاينة النبوءات ان «هجرة جماعية» ستبدأ لامحالة من الأرجنتين الى اسرائيل .

ولكن الذى حدث بالفعل خيب امل الصهاينة اذ لم يهاجر سوى بضع مئات ، عادوا بعدها الى بلادهم ، وتوجه بعضهم الى الولايات المتحدة ، البلد الذى يشكل نقطة الجذب الاساسية بالنسبة للغالبية الساحقة من يهود العالم ، وصرح دوف شيكلانسكى ، المتحدث بأسم الكنيست واحد زعماء الليكود ان يهود الأرجنتين لم يستمعوا الى نصائحه الصهيونية (ميامى جويش تلغراف ٣ أغسطس ١٩٨٩) . الا يحتاج هذا القول الى رصد ؟ أو ليس هذا أيضا جديرا بالدراسة ؟

وهناك نوع اخر من المهزومين ، قد يختلفون فى منهجهم عن الموضوعيين ، الا أن رؤيتهم تؤدى الى النتيجة نفسها واعنى اولئك الكتاب الذين يحرصون دائما على أن ينسبوا لليهود كل شرور العالم ، فهم وراء الانحلال الخلقى والماسونية والثورة الرأسمالية والبلشفية والقورة المضادة وثورة الأجيال . وهؤلاء الكتاب يخدمون الصهيونية دون ان يدروا ، فمن ينسب كل الشرور

لليهود يجعل منهم قوة لاتهزم لها ذراع يصل الى أى مكان (وهذا بالمناسبة هو وصف الجيش الاسرائيلى لنفسه) . وأعتقد ان عملية التخويف من اليهود سواء بشكل «علمى» أم خرافى أصبحت ضرورة نفسية لدى بعض الكتاب والمواطنين العرب فهى تبرير ذكي غير واع للهزيمة ، اذ انه اذا ت ب العدو اخطبوطيا الى هذا الحد ، فما هى جدوى الحرب ضده ؟ الا يقف هذا شاهدا على أن هزيمتنا مسألة مفهومة ؟

وقد عبرت عملية التخويف عن نفسها ، وبشكل موضوعى ذكى من خلال سيل الكتب والدراسات التى نشرت تحت شعار «اعرف عدوك» والتى تتكون اساسا من كتب ترجمت عن العبرية أو غيرها من اللغات ومن دراسات هى فى واقع الأمر تجميع «وقص ولصق» لارقام واحصائيات وعبارات نقلت من مثل هذه الكتب والتى عادة ما تضم معلومات متناثرة موضوعية تبين قوة العدو وسطوته ـ ولا غزو فى هذا فهو الذى انتقى المعلومات من وجهة نظره ، وهو الذى قام بترتيبها حتى لاندرك مواطن الضعف فيه وحتى يولد فينا الرعب منه ، فيكسب الحرب دون ان يدخل المعركة . وتوازن الرعب اصبح مفهوما اساسيا فى ادارة الصراع ، وهو توازن يميل تماما لصالحه من خلال هذه الكتب التى نترجمها وننقل منها بدقة وامانة ، دون تفسيرا أو نقد أوتحليل ، وكأننا تلميذ فى احدى المدارس يحاول أن يرص المعلومة بجوار المعلومة فى ورقة الامتحانات بعد ان اثقل ذاكرته واتخمها بالمعلومات طيلة .:. العام !

٢ ـ الخطر الصهيونى الجديد

كل هذا إن هو إلا على سبيل المقدمة لموضوع الساعة أى «الخطر الصهيونى الجديد » المتمثل فى هجرة اليهود السوفييت بأعداد لم يسبق لها مثيل ، وهو موضوع كتب عنه المعلقون

والصحافيون والاخباريون والاعلاميون . ويذهب معظم هؤلاء إلى القول ، بل وإلى التأكيد ، بأن هذه الهجرة ستحل مشكلات إسرائيل الاقتصادية والسكانيه والاستيطانية الخ .. عن طريق حقنه بمادة بشرية تتمتع بمستوى تعليمى راق وكفاءة عالية يمكنها أن تخلق حقائق جديدة فى اسرائيل الكبرى أى داخل فلسطين التى احتلت قبل وبعد عام ١٩٦٧ . وهذه المادة البشرية ستستوطن فى الأراضى العربية المحتلة وستزيد الكثافة البشرية اليهودية وستساهم فى التقدم العلمى والتكنولوجى لاسرائيل ، أى أنه بضربة واحدة ستحل اسرائيل مشكلاتها الاقتصادية والسكانية والاستيطانيه ، ومن ثم فإن البناء السياسى فيها سيتغير لصالح اليمين وستتمكن المؤسسة الحاكمة من ضرب كل القوى التى تطالب بالسلام فى مقابل الأرض . بل وسيمكنها أيضا ضرب كل من العنصر اليهودى الشرقى الذى بدأ يحقق مكاسب من خلال قوته العددية ، والعنصر اليهودى الدينى الذى يتمتع بنفوذ واسع لا يتناسب مع قوته العددية بسبب الموازنات السياسية . ويذهب البعض إلى أن هذه الهجرة ستؤدى إلى بعث مشروع البديل الأردنى لحل المشكلة الفلسطينية ، وإلى تطبيق سياسة التهجير (الترانسفير) ، وكل هذه العناصر ستؤدى فى نهاية الأمر إلى رضوخ العرب للوجود الاسرائيلى مما يعنى دعما لدورها الاستراتيجى الذى بدأ فى التآكل مؤخرا - أى أن الهجرة هى الصيغة السحرية التى ستحل كل مشكلات إسرائيل .

ولايمكن لأى دارس للظاهرة الصهيونية إلا أن يوافق على أن هجرة اليهود السوفييت تشكل لحظة فى غاية الأهمية - قد تصبح حاسمة ونهائية - فى تاريخ الصراع العربى - الصهيونى - الذى بدأ عام ١٨٨٢ حينما هاجر بعض يهود شرق أوربا الاشكناز من روسيا القيصرية إلى فلسطين . هذه المجموعة البشرية نطلق عليهم اصطلاح يهود اليديشيه ، نسبة إلى الرطانه الألمانية التى

كانوا يتحدثون بها . ولكن بعد الحرب العالمية الأولى ومع تزايد اندماجهم الثقافى واللغوى ، ومع استقلال بولندا أصبحنا ننسبهم إلى بلادهم فنقول «اليهود السوفييت » ، أو « يهود بولندا » ، وهكذا :

هذه المجموعة البشرية كانت ، ولاتزال ، أهم مصادر المادة البشرية ، الاستيطانية والقتالية ، للكيان الصهيونى ، فقد نشأت الحركة الصهيونية بينهم ، ومن صفوفهم تم تجنيد غالبية المستوطنين الصهاينة حتى عام ١٩٤٨ . وهم المهيمنون على كل المؤسسات فى إسرائيل بما فى ذلك مؤسسات صنع القرار .

ولا يمكن لأى دارس للظاهرة الصهيونية إلا أن يوافق على أن هجرة اليهود السوفييت ستشكل ، خاصة إن تحققت على المستوى الكمى والكيفى الذى تتداوله الصحف ، دفعة حقيقية وتحولا نوعيا للتجميع الصهيونى ، فهو اولا واخيرا تجمع استيطانى يقوم على تجميع المادة البشرية اليهودية وتجنيدها وتدريبها لتقوم بالقتال دفاعا عن مجموعة من الأهداف أهمها المصالح الغربية فى المنطقة . وفشل التجمع الصهيونى فى جذب المادة البشرية سيشكل ولاشك ضربة فى الصميم له ولمقدرته على الاستمرار فى القتال . ولو وضعت مقدرته على القتال (وهى وظيفته الأساسية وربما الوحيدة) موضع التساؤل من قبل القوى الغربية التى تدعمه وتضمن وجوده وسلامته ، فإن شرعية وجوده ذاتها تصبح موضع تساؤل ، ومن هنا ياتى حرصه المحموم على الهجرة اليهودية .

ولكن ما قررناه مقولة عامة للغاية لا تساعد كثيرا على قراءة الواقع المتعين والمركب ، فالظاهرة الصهيونية ظاهرة سياسية اجتماعية تاريخية ، تخضع فى معظم جوانبها إلى القوانين العامة التى تتحكم فى الظواهر المشابهة لكنها أيضا ظاهرة مركبة الى اقصى درجة ، كما انها ـ شانها شأن اى ظاهرة اخرى ـ لها خصوصيتها ، فهى التشكيل الاستعمارى الاستيطانى الاحلالى الوحيد الذى لايزال فى طور التشكل .

كما ان هجرة اليهود السوفييت الجديدة ، رغم انها تدخل ضمن نمط الهجرات اليهودية الاستيطانيه وغير الاستيطانية ، فى العصر الحديث ، الا انها لها هى الأخرى خصوصيتها فهى هجرة تتم تحت ظروف خاصة للغاية (أزمة النظام الشيوعى - النظام الدولى الجديد) ، كما ان المادة البشرية التى تقذف بها هذه الموجه على شواطئنا العربية ذات نوعية مختلفة تماما عن المادة البشرية التى قذفت بها الموجات السابقة .

ومن ثم تكون الاستنامه للمقولات العامة عن خطر الهجرة اليهودية السوفييتية والاسراع بالكتابة عن القضية بموضوعية متلقية توثيقية سلبيه سطحيه هو تهرب من مسئولية التفسير والربط والتركيب ، وفى نهاية الأمر الفعل والحركة ، وكأن الواقع عنصر واحد بسيط ساكن لايتغير ،وكأن ما يحدث اليوم حدث بالأمس وسيحدث غدا ، بالطريقة نفسها وعلى نفس المنوال ، وكأن الظاهرة الصهيونية ليست بظاهرة بشرية تحتوى داخلها مقومات القوة والضعف ، والحياة والموت .

٣ - بين الحقائق والحقيقة والحق

ولكن ثمه مناهج أخرى لدراسة ظاهرة الهجرة اليهودية السوفييتية ، اذ يمكن تناولها بطريقة تتجاوز عملية التلقى والتوثيق التراكمى ورد الفعل المباشر . وابتداء يجب أن نقرر أن الحقائق رغم صلابتها ليست الحقيقة (تماما كما أن الحقيقة ليست بالضرورة الحق) . فإن قلت أن « زيدا ضرب عمروا » فهذه واقعة «والسلام » لا يمكن أن اقرر مدى صدقها أو اهميتها أو دلالتها ولا يمكن فهمها فى حد ذاتها إذ أنها مجرد حدث مادى فيزيقى ، كما لا يمكن التعميم منها ، فهى تكاد تكون دالا دون مدلول ـ كلام دون معنى أو له معنى خاص للغاية بحيث لا يعنينى على الاطلاق ، أو عام للغاية بحيث لا يضيف إلى معرفتى ، تماما كما لو قلت « فستان أحمر وقطه زرقاء » . ولكن إن ربطنا بين هذه الواقعة ووقائع أخرى ـ قد تكون أكثر أو أقل صلابة ـ فإن المدلول الحقيقى والخاص

لواقعة الضرب يبدأ فى الاتضاح ، فإن عرفنا (من خلال كتب التاريخ) أن عمروا (الضحيه المباشرة) كان قد اغتصب أرض زيد وقتل أباه منذ أربعين عاما ، وإذا عرفنا أن زيدا حاول بشتى

الطرق السلمية استعادة أرضه دون جدوى ـ أقول : إذا عرفنا ذلك أمكننا أن ندرك الدلالة الحقيقية لمواقة ، وبدل أن نقول « زيد شخص باطش وعمرو هو الضحية » فإننا سنعيد النظر لأننا وصلنا إلى حقيقة أكثر تركيبا من الاستجابة المباشرة ، ولرأينا أن زيدا هو الواقع الضحية ، بل لقلنا إنه لم يثأر بما فيه الكفاية لكرامته ، وأنه يتسم بكثير من التسامح تجاه أعدائه .

ولنفرض أننا سمعنا أن « زيدا الثانى ضرب عمروا الثانى » ، وأننا اكتشفنا من خلال ربط هذه الواقعة بتفاصيل اخرى أن زيدا الثانى هو أيضا الضحية الأصلية ، ولنفترض كذلك أننا فتحنا كتب التاريخ ووجدنا أنه كلما سرق أى عمرو أرض أى زيد وقتل أباه فإن زيدا المسروق يحاول أن يثأر لنفسه عن طريق الضرب أو القتل أو غيره ، إن فعلنا ذلك فإننا نكون قد اكتشفنا نمطا متكررا واستنتجنا منه أن الضرب هنا ليس إجراما وإنما فعل مشروع ، نحن قد وصلنا الى هذا النمط وجردناه من خلال عمليتى الملاحظة المتكررة والربط بين الوقائع المماثلة ، وبوسعنا أن نستخدم هذا النمط كنموذج تفسيرى للأحداث المماثلة التى تقع أمامنا ، بل إننا يمكننا الآن أن نصدر حكما أخلاقيا ونتحرك من عالم الحقيقة إلى عالم الحق ، وربما تحركنا منه إلى عالم الفعل الفاضل .

ولنلاحظ ما يلى :

١ ـ أن الوقائع أو الحقائق نطقت بالحقيقة وأصبح لها معنى خاص ومجدد من خلال عملية الربط ، إذ أصبح الضرب نتيجة لسبب لا مجرد فعل مادى فيزيقى .

٢ ـ ولنلاحظ أيضا أننا لم نرصد سلوك زيد وعمرو « من الخارج » وكأنهما حشرات أو حيوانات أو أشياء وإنما نظرنا لهما باعتبارهما بشرا على قدرٍ كبير من التركيب لهما دوافع مركبة ، وأن سلوكهما لا يمكن فهمه إلا فى إطار دوافعهما ، وفى إطار المعنى الذى ينسبه كل منهما إلى ما يقوم به من افعال ، وفى إطار إدراكهما لهذا المعنى . فحينما قام زيد بضرب عمرو فهو لم يفعل ذلك دونما سبب واضح أو ليشبع غريزة حيوانية ، وإنما ليدافع عن قيم إنسانية نبيلة ، ولابد أن عمرو كان يدرك ذلك وهو يتلقى اللكمات ، ولابد من أن ذلك إما زاده شراسة أو قوض من عزيمته .

٣ ـ ولنلاحظ أننا لم نكتف بالنظر إلى الواقعة وإنما عدنا إلى تاريخ زيد وعمرو ونظرنا إلى زيد الثانى وعمرو الثانى ، كما أننا ربطنا الواقعة التى عرفنا عنها بوقائع مماثلة فى أماكن وأزمنة مختلفة ، وقائع ظهرت دلالتها ومضامينها كواقعة لها ماض ولها مستقبل ، جزء من كل .

٤ ـ وأننا من خلال هذا كله اكتشفنا نمطا متكررا حولناه إلى نموذج قادر على تفسير جوانب كثيرة من الوقائع المماثلة .

والعمليات السابقة كلها عمليات عقلية ـ أى أنها لا تتم فى الواقع المادى وإنما تتم فى عقل الانسان ، إذ بدونه لا يمكن للنموذج التفسيرى أن يظهر ـ فالنموذج هو ثمرة الاجتهاد ، ثمرة الموضوعية الاجتهادية التفسيرية (فى الواقع أحاول قدر استطاعتى ألا استخدم اصطلاحى «موضوعى وذاتى » واستخدم بدلا من ذلك «أكثر تفسيريه وأقل تفسيرية » حتى ننقل بؤرة الإهتمام من الظاهرة المادية فى حد ذاتها إلى الظاهرة كبنيه مركبة وموضوع للتفسير) .

٤ ـ النموذج التفسيرى والمتتالية الاحتمالية

والنموذج التفسيرى الذى جردناه ليس قانونا عاما مثل القوانين الرياضية أو العلمية التى تسرى بشكل رتيب رهيب على كل الظواهر المماثلة فى كل زمان ومكان ، وانما هو أساسا فرضية منفتحة ، ذات مقدرة تفسيرية عالية اكتسبت قدرا من اليقينية ـ فرضية أصولها تجريبية ، ويتم اختبارها تجريبيا ، رغم أن صياغتها تتم من خلال عملية عقلية . ومن ثم فالنموذج التفسيرى ليس بموضوعى أو ذاتى ، بل إنه يتجاوز هذه الثنائية تماما فهو بمثابة الفلتر الذى ينظم عملية الادراك والرصد والملاحظة ، فلا يغرق العقل فى الذاتية ويعيد صياغة الواقع على هواه ، ولكنه لا يغرق أيضا فى المعطيات المادية المصمتة أو يخضع لها بل يتجاوزها ويتجه نحو تفسير الواقع بدلا من تسجيله ـ وهو وحده القادر على ذلك ، فهو هبة الله للإنسان ، وآية من آياته .

والنموذج التفسيرى يتسم بقدر عال من العمومية والتبسيط والخصوصية والتركيب ، إذ لابد وأن يكون من العمومية والتبسيط بحيث يمكنه التعامل مع المعطيات المختلفة باعتبارها انساقا وظواهر خاضعة لقوانين عامة وإلا تحولت هذه المعطيات إلى وحدات جميلة فريدة بلا نظير لا يمكن فهمها أو التعميم منها . ولكنه فى ذات الوقت لا يهمل خصوصيتها أو تركيبيتها التى تعطيها هويتها الخاصة ومنحناها الخاص وتنقذها من السقوط فى بحر العمومية الأملس . فالنموذج التفسيرى يحاول أن يرى الظاهرة فى علاقتها الحية بالظواهر الاخرى ، مما يكسبها دلالتها العامة ، ولكنه لا يهمل استقلالها النسبى وشخصيتها المستقلة ، فهو يربط الخاص بالعام ، والجزء بالكل ، والواقعة بالنمط ، والنتيجة بالسبب ، والعنصر بالنسق ، دون أن يفقد أى منهما شخصيته وهويته واستقلاله (على العكس من العلوم الطبيعية حينما تصبح

الظاهرة الطبيعية مجرد تعبير رتيب عن قانون عام ، فلا يوجد مسافة بين الظاهرة الخاصة والقانون العام - أو هكذا كان التصور حتى عهد قريب) .

ويمكننا الآن أن نتحرك خطوة للأمام ، ونضيف اننا لا ندرك الواقع من خلال نماذج تفسيرية وحسب وانما ينبغى الاستعداد له من خلال مجموعة من المتتاليات الافتراضية الاحتمالية التى تأخذ الشكل التالى :

اذا حدث أ اذن ب

واذا حدث جـ اذن د

واذا حدث أ و جـ اذن ب و د ،

أو قد يحدث شىء جديدة كل الجدة ، نظرا لامتزاج أ و جـ .

وهذه المتتاليات الافتراضية الاحتمالية لا تعنى ان كل شىء ممكن ومحتمل ، فهى ليست من « بنات أفكار » الباحث وانما هى فى واقع الأمر نماذج تفسيرية ، فرضية منفتحة لكنها لم تكتسب بعد قدرا معقولا من اليقينية . ومن ثم فصياغة هذه المتتاليات ذاتها لابد وأن يخضع لنفس القواعد التى تخضع لها صياغة النماذج التفسيرية مثل ملاحظة الواقع بدقة ، ورصد تكرار الوقائع المماثلة ، وترتيب العناصر المختلفة من منظور مدى أهميتها ومركزيتها ، ثم دراسة أشكال التفاعل بينها ، والنتائج المختلفة المتوقعة وغير المتوقعة الناجمة عنها . وبعد صياغة المتتاليات المختلفة يجب ترتيبها من منظور درجة احتماليتها ، ثم يتم مراكمة المعلومات فى اطار النموذج التفسيرى والمتتاليات الافتراضية ، فإما أن يزداد النموذج تفسيرية ويقينيه ، أو يتم تعديله عن طريق إعادة صياغته أو إحلال متتالية أخرى محله باعتبار أنها قد تكون اكثر تفسيرية .

ولنضرب مثلا على ما نود قوله ولنبدأ بقضية أعداد المهاجرين . إن قمنا برصدها بشكل موضوعى متلقى فاننا سنفاجىء بتضارب هائل بين الأرقام : فعدد المهاجرين المتوقع وصولهم هو تارة ٤٠٠

ألف وتارة اخرى مليون أو مليونين أو خمسة ملايين أو اثنى عشر مليون ! وتقوم صحفنا والصحف العالمية بنقل هذه الأرقام دون تفسير أو تحليل وكأن عقولنا فى آذاننا أو عيوننا أو حواسنا الخمس (وكأن الله لم ينفخ فينا من روحه) ، مع أن هذا التضارب هو ذاته دعوة للاجتهاد . ونحن لو اجتهدنا وربطنا الأرقام بأنماط وحقائق تاريخية ، أى لو استخدمنا أسلوب النماذج التفسيرية والمتتاليات الاحتمالية ، لاكتشفنا ان الرقم ٤٠٠ ألف صادق وكاذب فى ذات الوقت ، وان الأرقام الضخمة هى الاخرى صادقة وكاذبة . فالرقم الأول صادق إن أخذنا فى الاعتبار الاحصائيات السوفييتية ، وهى احصائيات خاصة باليهود الذين سجلوا أنفسهم يهودا (وهم لا يزيد عددهم عن مليون ونصف) ، وكاذب إن أخذنا فى الاعتبار اليهود المتخفين والمواطنين غير اليهود وشبه اليهود الذين سيأتون مع المهاجرين ، إما باعتبارهم أعضاء فى الأسرة اليهودية (زوجات أو أزواج وابناء) أو متسللين . ونفس الشىء يسرى على الأرقام الضخمة ، فهى كاذبة تماما إن أخذنا فى الاعتبار عدد اليهود السوفييت الحالى ، وصادقة تماما إن أخذنا فى الاعتبار اليهود المتخفين واشباه اليهود وغير اليهود . وهكذا تحولت الأرقام من مجرد شىء مصمت عام (يُقبل ويُدوّن ويُرفض ويُشجب) إلى موضوع للتفسير ومجموعة عناصر مركبة ذات مستويات احتمالية ويقينية مختلفة .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لشىء كمى مثل أعداد المهاجرين فهو من باب أولى يسرى على شىء كيفى مثل دوافعهم ومطامعهم ونوعيتهم . فنحن لوقنعنا بالحديث عن المهاجرين بشكل عام (مستوطنين يطمعون فى الأرض) لغابت عنا جوانب كثيرة فى الواقع ولجابهنا الواقع كمعطى جاهز جامد . أما لو ادركناه فى عموميته وخصوصيته ، فى بساطته وتركيبيته من خلال نماذجنا التفسيرية ومتتالياتنا الاحتمالية فاننا سنتوصل الى حقيقة هويتهم ودوافعهم فى الهجرة ومن ثم سيمكننا ان نقرر احتمالات استمرار

تدفقهم من انعدامه ، وأن نعرف اثرهم المحدد على التجمع الصهيونى ، فإذا كانوا يهودا فهم سيحدثون أثرا مختلفا تماما عما لو كانوا غير يهود أو شبه يهود ، ولو كانوا صهاينة فأثرهم سيختلف نوعيا عما لو كانوا مجرد باحثين عن المنفعة الشخصية واللذة المباشرة . ومن ثم ستكون عملية التصدى لكل مختلفة ، وستتفتح أمامنا سبل للعمل والحركة ماكنا لندركها لو تلقينا الواقع بسلبية وبساطة وخنوع .

٥ ـ لا تهوين ولا تهويل

وهذه الدراسة التى تتناول « واقعة هجرة اليهود السوفييت » لاتهدف إلى توصيل حقائق وأرقام محددة للقارىء وحسب ، وانما تهدف أيضا إلى طرح منهج فى الرصد والتحليل والتفسير . وابتداء نظرنا للواقعة باعتبارها لحظة جذورها فى الماضى واستمرارها فى المستقبل ، وباعتبارها جزءا من نمط متكرر أوسع ، ولا يمكن فهم اللحظة الآنيه الا بفهم الماضى ، ولا يمكن ادراك الجزء الا بفهم الكل والنمط . ولذا تناولنا بشكل سريع أنماط تطور أفراد الجماعات اليهودية السكانى وتزايدهم وتناقصهم وكذلك انماط هجراتهم عبر التاريخ مع التركيز على العصر الحديث اذ تنتمى هجرة اليهود السوفييت الى هذا النمط . ثم تناولنا تاريخ أفراد الجماعات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى منذ بداية استقرارهم هناك حتى الوقت الحاضر ، وتطورهم السياسى والثقافى والمهنى ، وهوياتهم الدينية والإثنية والعقائدية المختلفة ، وتوزيعهم الجغرافى . وتعرضنا كذلك لموقف البلاشفة من المسألة اليهودية والدولة الصهيونية ، ومن هجرة يهود الاتحاد السوفييتى .

هذه الخلفية التاريخية تشكل ماضى اللحظة والكل الذى تنتمى له الواقعة ، أما القسم الثانى من الكتاب فيركز على الواقعة ذاتها ، فتناولنا قضية أعداد المهاجرين اليهود السوفييت ، وبواعث

هجرتهم ، وقضية اليهود المتخفين ، وعوامل الطرد والجذب فى كل من الاتحاد السوفييتي واسرائيل ، ومشكلات الاستيعاب المختلفة ، والنتائج المتوقعة وغير المتوقعة للهجرة ، بما فى ذلك عداء المستوطنين الصهاينة القدامى للوافدين الجدد . وفى ختام الدراسة طرحنا تصورا شاملا لكيفية التصدى لهذه الهجرة . وفى طي الدراسة حاولنا دائما ان نشير إلى بعض السمات الأساسية والبنيوية للتجمع الصهيونى ، ثم ربطنا بينها وبين القضايا والوقائع التى نتناولها ، حتى تزداد الوقائع دلالة وتركيبا .

ونحن لن نهون ولن نهول ، فالتهوين والتهويل ضاران معرفيا وعمليا ، أما من الناحية المعرفية فهما عملية تبسيط وتسطيح للواقع المركب وتشويه له بحجة اقناع الناس بوجهة نظر ما ، اما لادخال الطمأنينة على قلوبهم أو لشحذ هممهم . ونحن ان قمنا بالتهوين فاننا بذلك نكون قد اعطينا أنفسنا وسادة ننام عليها بينما يشحذ العدو سكينه ـ وهذه بديهية نتفق عليها ، أما التهويل فيبدو انه لا يوجد اجماع بشأنه ، اذ يظن البعض ان التهويل من قوة العدو يؤدى الى الاستنفار ، وهذا أمر مشكوك فيه ـ إذ لا أعتقد أن هناك علاقة طردية بين حجم الخطر الصهيونى (الحقيقى أو الوهمى) ودرجة استجابة العرب له ، فان قل الخطر نام العرب وأن زاد تحركوا ، فالانسان ليس مخلوقا بسيطا الى هذا الحد ، ولا أعتقد اننا لو قلنا ان عدد اليهود السوفييت الذى سيحضرون هو ١٢ مليونا (كما يدعى شارانسكى) فاننا سنتحول الى مجاهدين فى التو واللحظة ، بل العكس قد يكون صحيحا إذ قد يؤدى التهويل الى توليد اليأس والهزيمة .

اننا نحاول رؤية الهجرة السوفييتية بطريقة تتجاوز مستوى الخبر المنشور والواقعة المكتوبة ومزاعم العدو وأوهامه عن نفسه وعن الاخرين بحيث يمكن ادراك الواقع فى كليته وتركيبته . وهذا الادراك ليس عملية تأملية مجردة أو أكاديمية مسلية ، وانما هو فى

تصورى الطريقة الوحيدة للحركة الهادفة نحو تغيير الواقع وزيادة المقدرة العربية على التعامل معه وزيادة التحكم فيه ، فالرصد العام (المتلقى السلبى) يؤدى الى الكآبة ـ فهو ابن الهزيمة . أما الرصد الخاص الذى يلم بظاهر الموضوع وباطنه ، بسطحه وبنتوئه والذى يضع الظاهرة فى سياقها التاريخى يفتح أمامنا مجالات الحركة ، ومن ثم افاق الحرية والامل .

ولكن قبل ان نبدأ الدراسة قد يكون من الضرورى تفسير بعض المصطلحات التى نستخدمها مثل "مادة بشرية" و"الجماعات اليهودية" ، ومصطلح "مادة بشرية" ليس من صكنا فهو مصطلح يستخدم فى الأدبيات الصهيونية حتى الوقت الحاضر للاشارة للبشر بشكل عام ولأعضاء الجماعات اليهودية بشكل خاص ، وقد استخدمه هرتزل فى دولة اليهود وفى مذكراته وكذا ناحوم سوكولوف ، ولايزال المصطلح سائدا فى إسرائيل ، والعبارة تشبه عبارات اخرى مثل "فائض بشرى" أو "الفائض اليهودى" ، وكلها جزء من الخطاب السياسى الغربى النفعى ، وتصلح للاشارة للانسان لا كمطلق وانما كمادة استعمالية نسبية يمكن توظيفها ، وقد تبنى الصهاينة المصطلح لأنهم طرحوا المشروع الصهيونى باعتباره مشروعا يهدف الى تحويل الفائض البشرى اليهودى غير النافع الى مادة استيطانية نافعة توظف فى خدمة الاستعمار الغربى فى أى مكان فى العالم "ثم استقر الأمر على فلسطين" ، وهذا المصطلح يتسق تماما مع الرؤية النفعية المتطرفة للانسان التى تنزع عنه اية قداسة وتنظر له بمقدار نفعه (أو ضرره) ، وهو كذلك أكثر اتساقا مع الرؤية الامبريالية للعالم الذى تراه كله مسرحا لنشاط الانسان الغربى يهيمن عليه ويوظفه لصالحه ، والعبارة تصف وبدقة شديدة رؤية الانسان الغربى لأفراد الجماعات اليهودية . فقد كان ينظر لهم ابتداء من القرن السابع عشر كأداة تستخدم ويحكم عليها بمقدار نفعها .

وسيلاحظ القارىء استخدامنا لكلمة "جماعات يهودية" بدلا من "يهود" ونحن نفضل استخدام المصطلح الأول لأن مشكلات الجماعات اليهودية متنوعة ونابعة من تواجدها فى مجتمعات مختلفة ذات مستويات مختلفة من التقدم والتخلف ، واستخدام اصطلاح يهود على "اطلاقه" لن يساعد كثيرا على التحليل والتفسير ، ونحن نذهب الى ان كلا من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية هما فى واقع الأمر عقائد وهويات متعددة تأخذ شكل تركيب جيولوجي يحتوى داخله طبقات غير متجانسة ولكنها تعيش الواحدة فوق الاخرى ، واذا ما اطلقنا على هذا التركيب يهود ويهودية فان فى هذا تعسفا ولويا لعنق الواقع ، ولذا فنحن نشير الى العقائد والجماعات اليهودية ، وكلمة "جماعات" تؤكد استقلال كل جماعة وخضوعها لحركيات تاريخية وحضارية مختلفة .

والمقدرة التفسيرية لمصطلح "الجماعة اليهودية" أعلى بكثير من مصطلح "اليهود" الذى يجعل الباحث يواجه اليهود وكأنهم كتلة واحدة متجانسة متماسكة لها قوانينها الخاصة ومنطقها الداخلى ، أما مصطلح أفراد الجماعات اليهودية فهو يؤكد عدم التجانس واستقلال كل جماعة عن اخرى ، وأن هذه الجماعات قد تكون خاضعة لقوانينها الخاصة ومنطقها الداخلى (باعتبارها "يهودية") ولكنها خاضعة أيضا لقانون أكبر ومنطق أشمل باعتبارها "جماعات" تشكل جزءا من كل ، فهو مصطلح يعين الظاهرة كظاهرة يهودية ولكنه لا يجعل من يهوديتها النقطة المرجعية الأساسية وانما يجعلها نقطة فرعية ، اذ تظل الحقيقة الأساسية المرجعية أنها جماعة فى مجتمع الأغلبية وانها جزء من

كل تاريخى حضارى أكبر تستمد منه هويتها وحركيتها ـ ترقى برقيه وتنحدر وتهوى بانحداره وسقوطه .

وسيلاحظ القارىء أيضا اننا لا نستخدم اصطلاح "الهجرة اليهودية" قدر استطاعتنا وبدلا من ذلك نستخدم اصطلاح "هجرة افراد الجماعات اليهودية" ، فالعبارة الأولى تعنى ان ثمة حركية يهودية مستقلة هى التى تتحكم فى هجرة اليهود وتدفعهم لها دفعا ، بينما نذهب نحن فى هذه الدراسة ، وفى غيرها ، الى ان أفراد الجماعات اليهودية المختلفة خاضعين الى حركيات اجتماعية وتاريخية عامة ، حركيات طرد وجذب لا تختلف ، الا فى حدتها ، عما يخضع له سائر أفراد المجتمع .

ومن المصطلحات التى حاولنا تحاشيها لأنها أعجميه مصطلح «اثنيه» ، ومع هذا أخفقنا واضطررنا لاستخدامه ربما بسبب جهلنا بالمعجم العربى أو لأن المصطلح يعبر عن رؤى ليس لها نظير فى تشكلينا الحضارى .

وكلمة «إثنيه» ماخوذة من الكلمة اليونانية «إثنوس» بمعنى قوم أو جماعة لها صفات مشتركة . وتستخدم كلمة «إثنيه» للاشاره لجماعة انسانية لا يربطها بالضرورة رباط عرقى ومع هذا تعتبر نفسها جماعة وتشعر بذلك ولها هوية (إثنية) مشتركة تستند إلى التراث التاريخى المشترك ومعجم حضارى واحد .

وكلمة حضارة هنا تستخدم فى أوسع دلالاتها فهى تشير الى كل فعل انسانى وكل ما هو ليس بطبيعة ، مثل الأزياء وطرق تصفيف الشعر وطريقة تنظيم المجتمع والرقص . ومن أهم العناصر الإثنية هى اللغة والأدب ، ويمكن للدين أن يكون عنصرا من ضمن هذه العناصر الإثنية ، فينظر المرء للشعائر الدينية باعتبارها تعبيرا عن

الهوية تماما مثل الرقص والطعام ، دون أن يؤمن بالضروره بالخالق . ويمكن للمرء أن يشير الى «طعام إثنى » بمعنى أنه يعبر عن هويته وليس مجرد طعام لسد حاجته الجسدية ، وبالتالى فالملوخية أو الكبسة طعام إثنى ، أما الهامبورجر فهو طعام ليس له مدلولات إثنية .

ويجب التفريق بين الإثنى والعرقى ، فالهوية التى تستند الى أساس عرقى تعنى وحدة الدم والجنس والأرض لا وحدة التراث والانتماء . والحركة الصهيونية كانت تعتبر اليهود شعبا بالمعنى العرقى ، ولكن بعد أن قام هتلر بإدة الملايين باسم النظرية العرقية والتفاوت بين الأجناس ، تغيرت الديباجات الصهيونية وأصبح اليهود شعبا بالمعنى الإثنى .

وبعد ـ أرجو الا يقال : « هذا كتاب جيد لأنه اعتمد على آخر المراجع والدراسات ويحوى معلومات قيمة وحقائق كثيرة عن هجرة اليهود السوفيت » ، أو : « هذا كتاب سيىء لأنه لم يعتمد على آخر المراجع والدراسات ولا يضم كل المعلومات والحقائق أو حتى معظمها » فالحاسوب ، هذه الآله المادية الصماء ، هو الذى يضم كل المعلومات والحقائق أو معظمها ، ولكنه مع هذا عاجز تماما عن ربطها أو تفسيرها أو صياغه نماذج تفسيريه ومتتاليات احتماليه ـ فعقل الانسان وحده هو القادر على ذلك . ونحن قد كتبنا هذه الدراسة آملين الا نقدم الحقائق والمعلومات وحسب ، وانما لنطرح كذلك ، وبالدرجة الأولى ، منهجا فى رصد الواقع وطريقه فى التفكير ، إذ ما يهم ليس كم الحقائق الذى يحشد وانما طريقة النظر

فيها وتحليلها ، وعن طريق الاجتهاد والابداع والحركة يمكن أن تتحول هذه اللحظة التاريخية من لحظة تجديد لحيوية الجيب الصهيوني وشبابه ، عن طريق حقنه بالطاقة القتالية التى يحتاج إليها ، إلى لحظة النزال الأخير معه .

د . عبدالوهاب محمد المسيرى
دمنهور والقاهرة
نوفمبر ١٩٩٠ ـ جمادى الأول ١٤١١

الفصل الأول

الجماعات اليهودية فى التاريخ أعدادهم وأنماط هجراتهم



أولا : بين الزيادة والنقصان :

لاتوجد حسب معلوماتى دراسة احصائية واحدة باللغة العربية عن تطور عدد أفراد الجماعات اليهودية عبر التاريخ أو أنماط هجراتهم . ولملء هذا الفراغ سنقدم هذه الدراسة السريعة حتى تتحدد كلمة « يهود » فتصبح مصطلحا تاريخيا اجتماعيا لا مصطلحا عجائبيا تحيطه الأسرار ، وحتى نضع هجرة اليهود في سياقها التاريخى العام . يقال - حسب بعض التقديرات التخمينية - إن عدد العبرانيين كان حوالى ١,٨٠٠,٠٠٠ ، وإن كان يقال إن هذا عدد مبالغ فيه . وقد تناقص عدد العبرانيين بعد سقوط الهيكل والتهجير ، ولكنه عاد إلى التزايد مرة أخرى حتى وصل (حسب بعض التقديرات) إلى ثمانية ملايين مع نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ، كان يعيش حوالى ٢,٥ مليون منهم فى فلسطين ، و٣,١ ملايين فى كل من سوريا وآسيا الصغرى وبابل ، إذ كانت تضم كل بلد أكثر من مليون يهودى ، أما الباقون فكانوا يوجدون فى أماكن مختلفة . ويبدو أن هذه الأرقام هى الأخرى مبالغ فيها إذ أن ثمة تقدير تخمينى يذهب إلى أن عدد اليهود لم يزد على خمسة ملايين ، ويبدو أن زيادة عدد اليهود يعود إلى حركات التبشير والتهويد التى قام بها بعض اليهود الذين رفضوا انغلاق اليهودية وتمركزها حول نفسها ، كما تفسر الزيادة على أساس « الباكس رومانا » أى السلام الرومانى الذى ساد فى المناطق التى تواجد فيها أفراد الجماعات اليهودية .

ولكن مع بداية العصور الوسطى فى الغرب والعصر الإسلامى فى الشرق فإننا نلاحظ أن عدد يهود العالم انخفض إلى ما بين مليون أو مليونين ، أغلبهم (ما بين ٨٢ ـ ٩٠٪) كان متركزا فى العالم الإسلامى مع نهاية القرن الثانى عشر . ولكن تغيرت هذه الصورة بالتدريج وتناقص عدد اليهود فى الشرق وتزايد يهود العالم الغربى الذين تركزوا أساسا فى بولندا .

وكان عدد يهود أوربا عام ١٣٠٠ م لا يزيد على ما بين ١٠٠ ـ ٣٥٠ ألف (من واقع ٤٤ مليون) ثم تزايد العدد إلى ٦٠٠ ألف عام ١٤٩٠ (من مجموع ٥٣ مليون) . وكان عدد يهود العالم آنذاك يبلغ مليون ونصف ـ أى أن ثلث يهود العالم أصبحوا متركزين فى أوربا . وفى أواخر القرن السابع عشر أنقسم يهود العالم البالغ عددهم مليونين إلى نصفين : مليون سفاردى وشرقى ، ومليون اشكنازى غربى . ومع العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر (١٧٧٠) بلغ عدد يهود العالم ٢,٢٥ مليون غالبيتهم العظمى ـ ١,٧٥ مليون ـ فى أوربا ، منهم ١,٢ فى بولندا وحدها أى أن يهود أوربا أصبحوا أساسا يهود بولندا (ويرى آرثر كوستلر أن هذا يعود إلى هجرة يهود الخزر إليها بعد سقوط دولتهم) .

ولكن بعد انعقاد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ تبدأ فترة جديدة تماما ، إذ حدث انفجار سكانى بين اليهود . فإذا كان عدد اليهود عام ١٨٠٠ هو ٢,٢٥٠,٠٠٠ فقد وصل عشية الحرب العالمية الثانية إلى ١٦,٧٢٤,٠٠٠ وهذا يعنى أنهم زادوا ستة أضعاف فى أقل من ١٥٠ عاما . وفى الفترة من ١٨٢٠ إلى ١٨٢٥ كان عدد اليهود ٣,٢٨٠,٠٠٠ زاد إلى ١٠,٦٠٢,٥٠٠ عام ١٩٠٠ فقد زادوا ثلاثة أضعاف فى خلال ٧٥ عاما .

ويلاحظ أن الزيادة كانت بين يهود العالم الغربى وحسب ، فعدد يهود الشرق لم يزد بل انكمش إلى ٩٠٠ ألف عام ١٨٤٠ و٨٠٠ ألف عام ١٨٦٠ ، ثم زاد إلى ٩٥٠ ألفا ربما بسبب هجرة بعض يهود اليديشية من الغرب أو بسبب تحسن الأحوال المعيشية فى الشرق بشكل عام .

ولكن لم تكن ظاهرة تزايد الأعداد مقصورة على أفراد الجماعات اليهودية ، ففى الفترة نفسها تقريبا من ١٨١٥ ـ ١٩١٤ زاد عدد سكان أوربا من ١٩٠ مليونا إلى ٤٠٠ مليون ، وزاد عدد سكان الولايات المتحدة من ٧,٢٤٠,٠٠٠ عام ١٨١٠ إلى ٩١,٩٧٢,٠٠٠ عام ١٩١٠ . وقد يكون من الممكن تفسير الزيادة فى الولايات المتحدة على أساس الهجرة فهذا هو عصر الهجرة الأوربية (اليهودية وغير اليهودية) الكبرى ، وقد استوعبت الولايات المتحدة حوالى ٨٥٪ من المهاجرين ، أما الزيادة فى أوربا فلا يمكن تفسيرها إلا على أساس زيادة نسبة المواليد وقلة نسبة الوفيات . ومع هذا يلاحظ أن نسبة أفراد الجماعات اليهودية كانت أعلى من النسبة العامة فى أوربا ، ولعل هذا يعود إلى أن أفراد الجماعات كانوا يعيشون تحت الظروف نفسها التى أدت إلى زيادة سكان أوربا ، ولكن كانت توجد ظروف أخرى خاصة بهم وحدهم ساهمت فى رفع نسبة الزيادة بينهم عن النسبة العامة فى أوربا . فعلى سبيل المثال يلاحظ أن تحسن الأحوال الصحية نتيجة للثورة الصناعية فى أوربا قد ترك أثره الايجابى على كل الشعوب والجماعات ، ولكن يبدو أن المستوى الصحى داخل الأحياء اليهودية كان أعلى من

المستوى الصحى العام بسبب الرقابة على اللحوم والأطعمة وبسبب تطبيق قوانين الطعام .

وفى شرق أوربا حيث تركز معظم اليهود كان دخل أفراد الجماعة اليهودية مرتفعا وأسلوب حياتهم أكثر راحة ووفرة من دخل وأسلوب حياة معظم الجماهير الفلاحية ، كما أن أفراد الجماعة كانوا يتمتعون بمستوى ثقافى أعلى ، وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على نوعية الطعام الذى يستهلكونه ، كما أدى الى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية . وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية للغاية من التماسك الناجم عن التمسك بالقيم الدينية والتقليدية تفوق بمراحل تماسك الأسر غير اليهودية ، ويظهر هذا فى احصائيات الأطفال غير الشرعيين حيث كانت نسبتهم بين اليهود أقل من نسبتهم بين غير اليهود أحيانا بدرجة ملحوظة . والعنصران السابقان سويا يسهمان فى تخفيض نسبة الوفيات بين الأطفال كما يشجعان على الانجاب .

ومن أهم العناصر الأخرى التى ساعدت على هذه الانفجارة زواج اليهود فى سن مبكرة للغاية فقد كان من الشائع أن يتزوج الشبان من سن ١٥ ـ ١٨ بفتيات من سن ١٤ ـ ١٦ ، وقد كانت الحكومات القومية فى روسيا والنمسا تلجأ أحيانا الى تحديد سن الزواج وعدد المسموح لهم بالزواج . وحينما كانت تنطلق الشائعات بخصوص القوانين وشيكة الصدور كان يسرع اليهود بتزويج كل صغار السن بينهم قبل صدورها ، وفى احدى الاحصائيات البولندية من القرن الثامن عشر ورد ذكر لزوجة عمرها ثمانى سنوات ، وفى عام ١٧١٢ منعت السلطات فى امستردام زواج طفلين

يهوديين تحت سن الثانية عشرة . ومن العناصر الأساسية التى ساهمت فى تزايد عدد اليهود أنه فى الفترة من ١٨٠٠ ـ ١٩١٤ لم تقع أية حروب فى الأماكن التى يوجد فيها أغلبية يهود العالم ، وحتى معارك نابليون ، فقد وقعت بعيدا عن مراكز التجمع اليهودى . وعلاوة على كل هذا لم يقم الكثير من الدول بتجنيد اليهود ، فروسيا القيصرية لم تبدأ تجنيدهم إلا عام ١٨٢٧ ولم يجندوا فى بولندا حتى عام ١٨٤٥ ، ولا فى الدولة العثمانية حتى عام ١٩٠٨ . أما بخصوص المذابح التى تثرثر عنها المراجع الصهيونية فهى لم يقع ضحيتها سوى بضعة مئات طيلة هذه الفترة .

لكل هذه الأسباب حدثت الانفجارة السكانية ، التى أشرنا لها فى الفترة من ١٨٢٠ ـ ١٨٢٥ ، حيث بلغ عدد يهود العالم ٣,٢٨١,٠٠٠ كان يوجد ٢,٧٣٠,٠٠٠ منهم فى أوربا ، حوالى نصفهم فى روسيا وبولندا ـ أى أن أغلبية اليهود الساحقة كانت فى أوربا وأغلبية هؤلاء من يهود اليديشية .

وفى عام ١٨٥٠ بلغ عدد يهود العالم ٤,٧٥٠,٠٠٠ كان نصفهم تقريبا موجودا فى روسيا وبولندا . وقد قفز هذا العدد قفزة هائلة عام ١٨٨٠ (فترة ظهور الصهيونية بين اليهود) ليصبح ٧,٥٠٠,٠٠٠ أكثر من نصفهم (٥٦,٢٪) فى روسيا وبولندا .

ومما لاشك فيه أن زيادة حجم الكتلة البشرية اليهودية فى العالم الغربى ، وفى روسيا وبولندا على وجه التحديد ، ساهم فى تفاقم أوضاع اليهود الاجتماعية والاقتصادية وهو ما يطلق عليه المسألة اليهودية . وقد قفز عدد اليهود مرة أخرى عام

١٩٠٠ ليصبح ١٠,٦٠٢,٠٠٠ ، وبلغ عشية الحرب العالمية الأولى ١٣ مليونا ، ثم قفز قفزة أخرى وأخيرة ليصل إلى ١٦,٧٢٤,٠٠٠ يهودى عام ١٩٣٩ ، أى عشية الحرب العالمية الثانية ، وهو أكبر عدد بلغه اليهود عبر التاريخ .

ويلاحظ أن الولايات المتحدة ، التى كانت تضم ٤,٩٧٥,٠٠٠ يهودى ، أصبحت منذ ذلك التاريخ مركزا لأكبر جماعة يهودية فى العالم دون منازع . ورغم أن عدد يهود اليديشية كان لايزال ضخما إلا أنهم كانوا موزعين بين ثلاث دول : ٢,٨٢٥,٠٠٠ فى الاتحاد السوفييتى ، ٣,٥٥٠,٠٠٠ فى بولندا ، ٨٥٠,٠٠٠ فى رومانيا ، وقد ظهر الجيب الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين فى ذلك التاريخ . ليضم ٤٧٥,٠٠٠ يهودى فقط .

بعد أن عرضنا للاتجاهات السكانية بين أفراد الجماعات اليهودية ورصدنا أعدادهم المتزايدة التى وصلت إلى الذروة عشية الحرب العالمية الثانية ، يمكننا الآن أن نرصد الاتجاه المعاكس ، وهو تناقص عدد اليهود وهو اتجاه بدا مع نهاية القرن الماضى وإن لم تظهر معالمه إلا مع الحرب العالمية الأولى ، كما لم تتضح نتائجه إلا مع الحرب العالمية الثانية .

ويلاحظ أنه منذ منتصف القرن التاسع عشر واليهود يتحولون إلى جماعة بشرية حضرية تعيش أساسا فى المدن ، وقد هاجرت أعداد كبيرة منهم من المدن الصغيرة إلى المدن الكبيرة وتركزوا فى المراكز التجارية والصناعية فى العالم . ففى عام ١٩٢٥ كان ٢٥,٣٪ من كل يهود أوربا وأمريكا يعيشون فى المدن فى مقابل ٥,٧٪ وحسب من مجمل عدد

السكان . وقد تصاعد هذا الاتجاه فى الفترة ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥ . فعشية الحرب العالمية الثانية كان حوالى نصف يهود العالم يعيشوون فى ٤٢ مدينة تضم كل منها حوالى ٥٠ ألف يهودى على الأقل . وإذا أخذنا ضعف هذا العدد ـ أى ١٠٠ ألف ـ أساسا للتصنيف فإننا سنجد أن ستة ملايين يهودى ـ أى ما بين ٣٥ ـ ٤٠٪ من مجمل يهود العالم كانوا مركزين فى عشرين مدينة وحسب .

ومن المعروف أن التركيز فى المدن لا يشجع على الانجاب وأن المدن لم تتمكن فى الماضى (فى روما واليونان القديمة) أن تحتفظ بالعدد المناسب من السكان من خلال التزايد الطبيعى .

وكنا قد أسلفنا أن المنطقة التى تركز فيها اليهود إبان القرن التاسع عشر كانت منطقة لم تدر فيها أية معارك كبرى أو حروب حتى الحرب العالمية الأولى . ولكن مع الحرب العالمية الأولى تغير الموقف تماما حينما تحولت بولندا وجاليشيا وليتوانيا ورومانيا وسالونيكا إلى مسرح للعمليات العسكرية ، ولم يتوقف الأمر مع نهاية الحرب إذ أضبحت أوكرانيا مسرحا لعمليات عسكرية عديدة التحمت فيها القوات البلشفية مع قوات الروس البيض وانضم الأوكرانيون إلى الفريق المعادى للثورة . وتم الهجوم على أفراد الجماعة اليهودية الذين كان ينظر إليهم باعتبارهم عملاء البلاشفة ، إذ أن هؤلاء كانوا قد قاموا بوضعهم تحت حمايتهم . وكانت عملية تجنيد اليهود فى القوات المسلحة قد أصبحت أمرا شائعا وقاعدة معمولا بها . وقد بلغ عدد المحاربين اليهود فى

الجيش الروسى والنمساوى والألمانى وقوات الحلفاء نصف مليون يهودى ، يشكلون نسبة مئوية ضخمة من أفراد الجماعات اليهودية ، وسقط منهم العديد من الضحايا فقد قتل ١٢ ألف جندى يهودى ألمانى ، ويمكن لنا أن نتخيل نسبة القتلى بين المقاتلين اليهود فى الجيوش الأخرى . ويجب أن نشير إلى أن هذا العنصر لا ينقص من عدد اليهود مباشرة من خلال الوفاة وحسب وإنما ينقص منه بشكل غير مباشر أيضا من خلال العزوف عن الإنجاب ، ففى مناطق وفترات الحروب والثورات يسود عدم الطمأنينة وتتزايد الحركة ويجد البشر أنه من السخف بمكان احضار طفل لهذه الدنيا .

ومن الظواهر الأخرى التى أدت إلى تناقص أعداد اليهود الزيجات المختلطة ، فبعد الحرب العالمية الأولى كانت ٥٠٪ من كل الزيجات اليهودية فى ألمانيا زيجات مختلطة زادت إلى ٦٠٪ عام ١٩٣٢ . وفى كوبنهاجن ووصلت نسبة الزيجات المختلطة فى الفترة من ١٨٨٠ ـ ١٩٠٥ إلى ٦٨٪ ، أما فى امستردام فقد وصلت النسبة إلى ٧٠٪ عام ١٩٣٠ ، وأدت معدلات الاندماج المرتفعة إلى تزايد الزواج المختلط .

ويلاحظ أنه فى نهاية القرن التاسع عشر أخذت عملية الاندماج شكل التنصر وكانت نسبة التنصر تتفاوت من بلد إلى آخر ووصلت أعلى نسبة لها فى ألمانيا حيث حقق اليهود أعلى معدلات الاندماج الذى أدى إلى الانصهار .

ولكن فى العصر الحديث يمكن أن ينصهر اليهود دون أن يتنصروا بالضرورة ، ففى الماضى كان على اليهودى الذى يود الهرب من هويته أن يعتنق المسيحية ، أما فى المجتمعات

العلمانية فيمكن لليهودى أن ينكر هويته اليهودية ويتخلى عنها دون أن يضطر لتبنى هوية دينية أخرى . ولعل شيئا من هذا القبيل حدث بين أعداد من المهاجرين الروس إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد ، ونحن نعرف أن كثيرا من اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية بشهادات تعميد مزيفة أصدرها الفاتيكان لتسهيل عملية هربهم من الارهاب النازى آثروا أن يبقوا هويتهم المسيحية ولم يعيدوا تأكيد انتمائهم اليهودى حتى بعد أن زال الخطر .

لكل هذه الأسباب تناقص عدد اليهود وتناقص معدل الانجاب بينهم ، وقد بدأ الاتجاه نحو التناقص بين يهود غرب أوربا فى منتصف القرن التاسع عشر ولكنهم كانوا يشكلون نسبة ضئيلة من يهود العالم ، ولذا لم يؤثر تناقصهم على عدد اليهود الكلى ، إذ أن التزايد بين يهود اليديشيه كان يفوق التناقص بين يهود غرب أوربا ويعوضه .

وكان يهود اليديشية مركزين فيما يسمى الجيب البولندى (الروسى) وهو منطقة أوكرانيا وحولها والتى ضمتها روسيا القيصرية فى بداية القرن التاسع عشر . وكان النازيون يسمون هذا الجيب البنية التحتية البيولوجية للشعب اليهودى إذ أن هذا الجيب هو الذى أفرز الملايين التى استوطنت فى عديد من بلاد أوربا وهاجرت واستقرت فى الولايات المتحدة ، ولذلك حينما ساد الاتجاه نحو التناقص بين يهود اليديشية فإن عدد اليهود الكلى تأثر سلبا بشكل واضح .

المعروف أن أفراد الجماعة اليهودية فى روسيا القيصرية كانوا يتمتعون بواحدة من أعلى نسب الخصوبة والتكاثر بين

شعوب الامبراطورية الروسية ولكن مع عام ١٩٢٦ (أى بعد تسع سنوات من نشوب الثورة) انخفضت هذه النسبة حتى أصبحت أقل الجماعات البشرية (الاثنية أو الدينية أو القومية) فى الاتحاد السوفييتى خصوبة وتكاثرا وأصبحت نسبة التزايد بينهم أقل النسب على الإطلاق ، إذ وصلت إلى ٢٤,٨ فى الألف بعد أن كانت ٣٥,٩ فى الألف ـ فى وقت ظلت نسبة التكاثر بين الجماعات القومية الأخرى عالية ووصلت إلى ٤٣,٦٥ فى الألف ـ مما يعنى أن هناك فارقا قدره ١٩,٥٧ بين نسبة زيادة شعوب الاتحاد السوفييتى وأفراد الجماعة اليهودية .

وقد ساد الاتجاه نفسه فى بولندا فنسبة المواليد فى وارسو انخفضت من ٢٨,٦ فى الألف عام ١٩٠٠ إلى ١٢,٣ عام ١٩٢٥ . وفى لودز انخفضت نسبة المواليد بين اليهود خلال سبعة أعوام إلى ١١,٦ فى الألف ، وفى جاليشيا كانت الاحصاءات درامية إذ كانت نسبة المواليد بينهم من أعلى النسب فى أوربا مع بداية القرن الحالى إذ وصلت إلى ٣٨,١٦ مالبثت أن انخفضت إلى ١٩,٣ عام ١٩٣٤ أى حوالى ٥٠٪ . وكانت نسبة المواليد بين يهود المجر ٣٣,٩١ فى الألف فى بداية القرن الحالى فانخفضت إلى ١٠,٥ فقط أى أنها انخفضت بنسبة ٢٣,٤ أى حوالى ٦٦٪ . وفى رومانيا كانت نسبة المواليد بين اليهود ٣٢,٦ فى الألف عام ١٩٠٠ ، ومع عام ١٩٣٤ انخفضت النسبة إلى ١٤,٨ فى الألف . وفى بروسيا كانت نسبة المواليد ١٩,٤٨ فى الألف انخفضت إلى ٥,٢ عام ١٩٣٥ أى بنسبة ١٤,٢٨ . وبلغت نسبة المواليد ٢ فى الألف فى لندن عام ١٩٣٢ .

وينظر آرثر روبين إلى ظاهرة تناقص المواليد من منظور عالمي ، أى ينظر إلى كل يهود العالم فيلاحظ أن نسبة المواليد بينهم عام ١٨٣٢ (ويبدو أن هذا هو عام الذروة للانفجار السكاني) كانت ٣٥,٥ فى الألف انخفضت إلى ٢٣,٧ بين عامي ١٨٨٨ - ١٨٩٢ ثم هبطت إلى ١٤,٦ في الألف عام ١٩٢٤ لتصل إلى ٩,١ فى الألف عام ١٩٢٩ - أى أن نسبة المواليد بين اليهود عام ١٩٢٩ كانت أقل من ربع نسبتهم فى حوالى قرن .

ويلاحظ روبين كذلك أنه فى خلال خمسة وعشرين عاما (١٩٠٥ - ١٩٣٠) هبطت نسبة الزيادة من ١٨ إلى ٨ فى الألف ، وأن التقدم الذى أحرزه اليهود فى ١٥٠ عاما (١٧٥٠ - ١٩٠٥) فقد فى خلال خمسة وعشرين عاما .

وقد لاحظ يوريا انجلمان فى كتابه ظهور اليهود فى العالم الغربى ١٩٤٤ أن نسبة المواليد لا تعوض نسبة الوفيات وأنه فى شرق أوربا وجنوب شرق أوربا (دول البلقان وربما النمسا) وصلت معدلات المواليد بين اليهود خط الخطر قبل العدوان النازى . وقد حذر فيلكس ثايلهابر عام ١٩٠٨ من اختفاء اليهود الألمان ومما سماه الضعف السكاني ، وبين أنه إن لم يوقف هذا الاتجاه فإن يهود ألمانيا (دون هجرة من الخارج) سيختفون تماما .

وبالفعل نجد أن عدد الوفيات بين يهود بودابست (حيث كان يعيش نصف يهود المجر) زاد عن عدد المواليد بـ ١٥٠٧ عام ١٩٣١ و١٤٦٩ عام ١٩٣٢ . واستمر هذا النمط

حتى الحرب العالمية الثانية . والشيء نفسه في بروسيا حيث فاق عدد الوفيات عدد المواليد بمقدار ٩٠٢ عام ١٩٢١ وزاد الفارق بينهما ٢٣٩٩ عام ١٩٣٢ و٣٤٨٠ عام ١٩٣٥ . وفي عام ١٩١٦ سجلت الجماعة اليهودية في برلين ٤٩٤ مولودا في مقابل ٢٤٨٣ حالة وفاة أي أن الوفيات بلغت خمسة أضعاف المواليد . وفي عام ١٩٣٩ كانت المسألة مخيفة ـ فمن مجموع سكان برلين البالغ عددهم ٩٠ ألفا سجل ستة مواليد وحسب طيلة العام في مقابل ١٩٤٤ حالة وفاة ـ أي مولود واحد لكل ٣٢٤ حالة وفاة . ولم يكن الأمر مختلفا في فيينا حيث كان يعيش ٩٢,٩٪ من يهود النمسا ، فمعدل المواليد كان آخذا في الانخفاض لمدة عشرة أعوام . وفي عام ١٩٣٦ سجل في فيينا ٦٧٢ مولودا يهوديا في مقابل ٢٠٦١ حالة وفاة . ويقول يوريا انجلمان تعليقا على الاحصائيات السابقة « إن العملية ذات الأبعاد الثلاثة ـ تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج ـ إن لم توقف ستؤدي في النهاية إلى التفسخ الكامل للسكان اليهود ، وأكبر دليل على أن هذا ليس مجرد افتراض هو تجربة السكان اليهود في فيينا وبودابست وبرلين وهامبورج وباريس ولندن وبادوا وتريستة ومدن أخرى » .

وأبان الحرب العالمية الثانية وصلت هذه الاتجاهات إلى ذروتها إذ زادت حركة أفراد الجماعات اليهودية واضطر كثير منهم إلى اخفاء هويته اليهودية ، كما أن ظروف الحرب لم تشجع كثيرا على القيام بالأفعال الإنسانية العادية مثل الزواج والانجاب . كما أن عددا كبيرا من اليهود فقدوا حياتهم بسبب الجوع والمرض .

وقد استمر هذا الاتجاه نحو التناقص الأمر الذى حدا بعلم الاجتماع المعاصر أن يتحدث عن « موت الشعب اليهودى » . ولاتزال نسبة المواليد بين اليهود منخفضة للغاية وتصل إلى واحدة من أقل النسب فى العالم . فمعدل انجاب المرأة اليهودية فى الولايات المتحدة هو ١,٥ مولود ـ مما يعنى أن الجماعات اليهودية فى الغرب غير قادرة على إعادة إنتاج نفسها ، وليس من المتوقع أن يتغير هذا الاتجاه إذ من الملاحظ تزايد نسبة الزواج المختلط وتفسخ الأسر اليهودية وتزايد نسبة الطلاق . كما أن ارتفاع معدلات العلمنة يؤدى إلى تفشى قيم المنفعة واللذة وهى قيم تتناقض مع الانجاب ، بكل ما يتضمن ذلك من تقييد للحرية وتخل عن المتعة الحسية المباشرة . ومن أكبر المؤشرات على تفاقم هذا الاتجاه هو تزايد المسنين (فوق سن الستين) ليبلغ أحيانا حوالى ٢٦٪ . ورغم أن هذه ظواهر تسم كل المجتمعات التى يقال لها متقدمة ، إلا أنها أكثر حدة بين أفراد الجماعات اليهودية .

وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت الصورة السكانية التى لاتزال سائدة حتى الآن ، فالولايات المتحدة أصبحت هى وطن اليهود بلا منازع (٥ ملايين يهودى عام ١٩٤٨ و٥,٨٧٠,٠٠٠ عام ١٩٦٧) من مجموع يهود العالم البالغ عددهم ١١,٣٧٣,٠٠٠ عام ١٩٤٨ ، و١٣,٨٣٧,٥٠٠ عام ١٩٦٧ ـ أى أن نصف يهود العالم تقريبا يوجد فى الولايات المتحدة . وبلغ عدد اليهود فى البلاد الاستيطانيـة ٩,٥٨٣,٠٠٠ (٦,٩٥٢,٠٠٠ فى الأمريكتين و٢,٤٣٦,٠٠٠ فى فلسطين (إسرائيل) و١١٥ ألفا فى جنوب افريقيا

و٥٥٠٠ فى روديسيا و٧٥ ألفا فى استراليا ونيوزيلندا) أى أن أعضاء الجماعات اليهودية انتقلوا من أوربا حيث كانوا متركزين حتى أواخر القرن التاسع عشر إلى الدول الاستيطانية خاصة الولايات المتحدة وإسرائيل ، مع احتلال الولايات المتحدة لمركز الصدارة . أما يهود اليديشية (الذين كانوا قد فقدوا شخصيتهم اليديشية ، ولذا فنحن نسميهم اليهود السوفييت ويهود بولندا وهكذا منذ الحرب العالمية الأولى) فقد إنكمش عددهم ولم يبق منهم إلا ٢ مليون (١٩٤٨) فى الاتحاد السوفييتى زاد عددهم إلى ٢,٦٥٠,٠٠٠ عام ١٩٥٩ وهم بذلك يكونون أكثر من نصف يهود أوربا فى ذلك الوقت . ولا توجد جماعات يهودية كبيرة إلا فى انجلترا ٤١٠ آلاف وفرنسا ٥٣٥ ألفا (١٩٦٧) .

ويلاحظ أن معظم هذه الأرقام (حتى عام ١٨٠٠) تخمينية إلى حد كبير لتصبح تقريبية حتى عام ١٩٠٠ ، ولكنها بعد ذلك التاريخ أخذت تخضع للأهواء المذهبية ، ولعل هذا قد يفسر بعض التناقضات فى الأرقام التى أوردناها وبعض الفجوات . ومن أكبر الأمثلة على التحيز المذهبى فى المراجع الصهيونية هو اسقاطها الحديث عن يهود الخرز وعن هجرتهم لبولندا إذ أن هذا يثير قضايا عديدة عن مدى « سامية » اليهود وعن هويتهم العرقية والأثنية و« حقوقهم الأزلية » . كما أن المراجع التى نشرت حتى عام ١٩٤٣ قبل ظهور الرقم ٦ ملايين يهودى الذين راحوا ضحية الإبادة النازية ، تختلف فى تقديراتها عن تلك التى ظهرت فى الستينيات بعد ترسخ هذا الرقم السحرى .

وحتى تكتمل هذه الدراسة يمكننا أن نذكر عدد اليهود فى العالم فى الوقت الحالى .

فطبقا لاحصاءات عام ١٩٨٧ (Zionist Year Book 1987) يقدر عدد سكان العالم من اليهود بحوالى ١٣ مليون (١٢,٩٣٤,٦٠٠) وهو يقل حوالى مليون يهودى عن عددهم عام ١٩٦٧ (١٣,٨٣٧,٥٠٠) أى أن عدد اليهود نقص حوالى مليون نسمة فى عشرين عاما دون إبادة وإنما من خلال تناقص طبيعى .

ويلاحظ أن الجماعات اليهودية أصبحت مركزة فى بلاد استيطانية يتمتع أهلها بمستوى معيشى مرتفع وينتمون إلى الجنس الأبيض .

ويلاحظ أن عدد يهود الاتحاد السوفييتى حسب هذا المصدر الصهيونى هو ١,٦٣٠,٠٠٠ . وقد استشرت عدة مراجع أخرى من بينها الموسوعة اليهودية Encyclopedia Judaica ، والمرجع السنوى الذى يصدره معهد الشئون اليهودية فى لندن بالاشتراك مع دار ماكميلان للنشر وعنوانه : The Jewish Communities of the World والذى قام أنتونى ليرمان بتحريره ورجعت لآخر طبعة وهى طبعة عام ١٩٨٩ ، وكل هذه المراجع تؤكد رقما قريبا من الرقم الذى ذكرناه (يذكر المرجع الأخير على سبيل المثال ١,٨١٠,٧٨٩) أما رقم ٢ مليون فلم يرد فى أى من المراجع التى اطلعت عليها .

كما يلاحظ أنه يوجد ثلاث دول فقط يزيد فيها عدد اليهود على مليون (الولايات المتحدة وإسرائيل والاتحاد السوفييتى) . ولا يوجد إلا فرنسا يزيد فيها عدد اليهود على نصف مليون . أما انجلترا وكندا والأرجنتين فالعدد يزيد قليلا عن ربع مليون . وتضم كل من البرازيل وجنوب أفريقيا حوالى

١٠٠ ألف ، أما بقية دول العالم فتضم جماعات يهوديه صغيرة للغاية (المكسيك ٣٥ ألف ، بلجيكا ٣٢,٥٠٠ ، ايطاليا ٣٢ الف ، أورجواى ٣٠ ألف ، رومانيا ٣٠ ألف) . ولا يمكن أن نتحدث عن وجود يهودى فى الهند (٤٣٠٠) أو اليونان (٥ آلاف) أو النرويج (٩٥٠) أو بولندا (٤٨٠٠) أو حتى تشيكوسلوفاكيا (٦ أو ١٢ ألف) .

ثانيا : هجرات افراد الجماعات اليهودية

بعد هذا العرض التاريخى السريع للواقع السكانى للجماعات اليهودية فى العالم يمكننا أن نتناول موضوع هجرة أفراد هذه الجماعات .

وتصر التواريخ الصهيونية والمعادية لليهود أن تنسب لليهود صفة واحدة لاتتغير ، وكأنها نابعة من داخلهم ، وهى صفة الهجرة المستمرة . فتذهب هذه التواريخ إلى أن أفراد الجماعات اليهودية لا يستقرون فى وطن واحد فهم دائمو التنقل والترحال والهجرة . وتجرد التواريخ الصهيونية هذه السمة وتعتبرها سمة مطلقة يتصف بها جميع اليهود . ولكننا لو درسنا سلوك أفراد الجماعات اليهودية الفعلى فإننا سنكتشف أن الهجرة ليست سمة مطلقة لهم ، بمعنى أنها لا تنطبق على « اليهود » أينما وحيثما وجدوا . فالجماعة اليهودية فى أثيوبيا المسماة بالفلاشاه مكثت مئات السنين فى موطنها لا تتحرك منه ولا تغادره ، ولم تهاجر منه إلا فى الثمانينيات حينما قامت الدولة الصهيونية بتهجير اعضائها (فى ظروف المجاعة فى افريقيا) لتحرز انتصارا مذهبيا أمام

يهود العالم وتظهر مرة أخرى بمظهر الدولة التى تنقذ اليهود . كما أن يهود بابل (العراق) ظلوا فى موطنهم منذ الألف الأولى قبل الميلاد حتى عام ١٩٥١ حينما قام العملاء الصهاينة المتخفون بإلقاء المتفجرات عليهم ليبثوا الرعب فى قلوبهم ولا يهامهم أن حياتهم تحفها المخاطر . أما اليهود الذين هجروا إلى أشور (أسباط إسرائيل العشرة المفقودة) فيبدو أنهم انصهروا تماما واختفوا .

ومع هذا يمكن القول إن سمة التنقل والهجرة تسم يهود الغرب منذ العصور الوسطى فهم الذين خضعوا لعمليات الطرد والتهجير والتوطين . ولعل عملية التنقل هذه تعد سببا ونتيجة في ذات الوقت لارتباط اليهود بحرفتى التجارة والربا كجماعة وسيطة فى التشكيل الحضارى الغربى . فالجماعة الوسيطة جماعة لا جذور لها فى المجتمع تعيش فى مسامه ، وهى دائما على أهبة الرحيل لأن المجتمع يبقيها بمقدار نفعها وبمقدار اضطلاعها بوظيفتها . ولذا فأعضاء الجماعة الوسيطة دائمو التنقل لا يشتغلون بالأعمال الزراعية ولا بالأعمال الإنتاجية التى تتطلب الاستقرار ، ومع ظهور طبقات تجارية محلية والدولة القومية الحديثة ـ وكلاهما اضطلع بوظائف اليهود الوسيطة ـ زادت عمليات الطرد وبالتالى التنقل . ويمكن القول إن صورة « اليهودى التائه » ـ رغم ايحاءاتها الدينية والعنصرية المختلفة ـ تضرب بجذورها فى عملية التنقل هذه .

ويجب الإشارة إلى أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على اليهود وإنما تتسم بها كل الجماعات الوسيطة ، بل وكل

الجنس البشرى ، والتنقل مسألة إنسانية لها آلياتها وحركياتها التاريخية والإنسانية المفهومة .

وإذا نظرنا إلى أهم فترتين تنقلت فيهما أفراد الجماعات اليهودية ـ وهما المرحلة العبرانية ثم المرحلة الحديثة فى أوربا من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ـ فسنكتشف أن العبرانيين وأفراد الجماعات اليهودية كانوا يشكلون جزءا من كل أكبر . فالعبرانيون كانوا جزءا من جماعات سامية ضخمة كانت تتحرك فى الشرق الأوسط القديم ابتداء من الألف الثانية قبل الميلاد تضم الخابيرو والاخلامو والاراميين والهكسوس وغيرهم . ونحن نسمى هذه المرحلة بالمرحلة السديمية السامية لأن معالم الأشياء لم تكن واضحة ولأن القبائل والأقوام المهاجرة المتنقلة كانت متداخلة . كما شهدت مرحلة الامبراطوريات الكبرى (البابلية والآشورية ثم الفارسية واليونانية والرومانية) بدايات الهجرة التى تعاظمت بالتدريج مع نهاية الألف الأولى قبل الميلاد حتى زاد عدد اليهود خارج فلسطين عن عددهم داخلها . ويبدو أن الهجرة اليهودية تتعاظم داخل إطار الامبراطوريات التى تيسر لهم حرية الحركة .

وهجرة يهود شرق أوربا من يهود اليديشية إلى الولايات المتحدة وكندا وفلسطين وغيرها من الدول الاستيطانية بأعداد هائلة هى أيضا هجرة تتم داخل إطار امبراطورى ، فهى هجرة تتم داخل التشكيل الاستعمارى الغربى وتجربته الاستيطانية فى أنحاء العالم والتى بدأت فى القرن السابع عشر وزادت حدتها فى أوائل القرن التاسع عشر ووصلت ذروتها فى أواخره . واستمرت بعد ذلك وبدأت تخبو بعد

الحرب العالمية الثانية (مع توقف الانفجارة السكانية فى الغرب) . وقد هاجر من سكان أوربا حوالى ٦٥ مليون فى قرن ونصف (١٨٠٠ - ١٩٥٠) من بينهم الايطاليون والايرلنديون والألمان وكثير من سكان شرق أوربا ومن بينهم أيضا أفراد الجماعات اليهودية . وقد هاجر إبان هذه الفترة ٤ ملايين يهودى أى ٦٪ من كل المهاجرين بينما كانوا لا يشكلون إلا ١,٥ و٢٪ من سكان أوربا أى أن معدل الهجرة بين اليهود كان أربعة أضعاف المعدل السائد فى العالم .

كانت الهجرة اليهودية فى الماضى تأخذ شكل التقهقر من المناطق المتقدمة إلى المناطق الأقل تقدما ، من الشرق القديم إلى أوربا باعتبار أنها كانت من أكثر المناطق تخلفا فى العالم . وفى أوربا نفسها فى العصور الوسطى أخذت الهجرة شكل التحرك من انجلترا وفرنسا إلى ألمانيا ومنها إلى شرق أوربا أكثر المناطق تخلفا . ولكن ابتداء من القرن السابع عشر أخذت الهجرة شكلا مغايرا وهو الهجرة من الأماكن الأقل تقدما إلى الأماكن الأكثر تقدما ، من شرق أوربا إلى وسطها وإلى انجلترا والولايات المتحدة . وإذا كان هذا هو نمط الهجرة فالولايات المتحدة تصبح منطقيا هى نقطة الجذب المطلقة وهذا هو الوضع القائم حتى الوقت الحالى .

وقد ظلت الولايات المتحدة هى نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البداية حتى الوقت الراهن للأسباب التالية :

١ - تشكل الولايات المتحدة أهم التجارب الاستيطانية

الغربية وأكثرها نجاحا ، وقد اجتذبت ثم استوعبت أعدادا كبيرة من المهاجرين من أوربا يبلغ أكثر من ٨٥٪ .

٢ ـ الولايات المتحدة قامت كدولة علمانية لم تلتزم قط بأى تقاليد أو حتى رموز دينية ، كما أنها نجحت فى إقامة مؤسسات علمانية لاستيعاب وصهر المهاجرين وأمركتهم وفتحت أمامهم فرصة الانتماء الثقافى الكامل لوطنهم الجديد مما زاد من جاذبيتها (على عكس أمريكا اللاتينية التجربة الاستيطانية الأخرى ، التى احتفظت بكاثوليكيتها وبالتالى استبعدت البروتستانت واليهود) .

٣ ـ كان اليهود يشكلون جماعة وسيطة يعملون بالتجارة والمال وبالتالى لم تكن بينهم أعداد كبيرة من العمال أو الفلاحين . والمجتمع الأمريكى هو مجتمع الاقتصاد الحر الذى يشكل القطاع التجارى والمالى أكبر قطاعاته والذى سادت فيه القيم التجارية الموضوعية ، ولذا فهو مجتمع له جاذبيه خاصة بالنسبة للمهاجر اليهودى .

وقد تنبأ المؤرخ الروسى اليهودى دوفنوف بأن مسار الهجرة اليهودية سيكون إلى الولايات المتحدة وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها .

وقد كان هناك موجات هجرة يهودية مختلفة خلال القرن التاسع عشر وقد أخذت اعداد المهاجرين تتزايد ووصلت الهجرة إلى قمتها فى مرحلة الهجرة اليهودية (وغير اليهودية) الكبرى ، والتى بدأت عام ١٨٨١ مع تعثر التحديث فى روسيا وتزايد العنصرية فى كل أوربا وانتهت عام ١٩٣٩

بصدور القوانين التى حدث من هجرة يهود شرق أوربا ، عام ١٩٢٤ ، ثم الكساد الاقتصادى وإغلاق أبواب الهجرة تماما من روسيا .

وقد بلغ عدد المهاجرين في هذه الفترة ٤ ملايين حسب الموسوعة اليهودية ، بينما يذهب آرثر روبين إلى أن العدد أكبر من ذلك فهو يرى أنه في الفترة من ١٨٨١ الى ١٩٣٠ هاجر حوالى ٣,٩٧٥,٠٠٠ . فإذا أضفنا رقم ٥٠٧,٨٤٥ وهو عدد المهاجرين من ٣١ ـ ١٩٣٩ حسب ليستشنكى فان العدد الكلى يصبح ٤,٤٨٢,٨٤٥ .

ولعل الدافع الأكبر وراء الهجرة فى هذه الفترة هو تعثر محاولات التحديث فى روسيا ، ثم توقفها تقريبا ، وهو تعثر عبر عن نفسه على شكل الاضطهاد الروسى القيصرى ضد جميع الأقليات فى الامبراطورية الروسية ولذا هاجرت أعداد كبيرة من يهود الامبراطورية الروسية خارجها بحثا عن مجالات جديدة للحراك الاجتماعى وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية . كانت الغالبية الساحقة للمهاجرين اليهود من بين يهود اليديشية (خاصة من روسيا) الذين كانوا يشكلون ما بين ٧٠ ـ ٨٠٪ من كل يهود العالم ، وقد كان عددهم ١٠ ملايين تقريبا مما يعنى أن نصفهم تقريبا أى واحدا من كل اثنين كان فى حالة حركة وهجرة وانتقال فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، وهذه نسبة عالية للغاية ، ولاشك فى أنها ساهمت فى تفتيت كثير من المؤسسات والروابط والأواصر .

وهاجر معظم اليهود فى الفترة الزمنية ١٨٨١ ـ ١٩١٤ (خاصة الفترة ١٩٠٠ ـ ١٩١٤) حيث بلغ عدد المهاجرين

٢,٧٥٠,٠٠٠ حسب الموسوعة اليهودية ، فإن خصمنا ٣٥٠ ألفا هاجروا داخل أوربا نجد أن عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة وصل الى ٢,٤٠٠,٠٠٠ ، بمعدل هجرة سنوية تصل الى ١٣٥ ألفا . وتعد سنة الذروة هى ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ عندما هاجر ٢٠٠ ـ ٢٥٠ ألفا فى ذلك العام وحده . وإذا كانت روسيا هى نقطة الطرد الكبرى فان الولايات المتحدة كانت هى نقطة الجذب الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تقدمها الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه ، وقد بدأت فى هذه الفترة تجربتها الامبريالية فى أمريكا اللاتينية والفلبين وكانت فى حاجة ماسة للأيدى العاملة التى لم يكن من الممكن تجنيدها خلال الزيادة الطبيعية (وبعد ابادة السكان الأصليين) . ولم تستوعب الولايات المتحدة ٨٥٪ من المهاجرين اليهود وحسب وانما استوعبت النسبة نفسها تقريبا من كل المهاجرين فى العالم ، ولا توجد سجلات بأعداد المهاجرين اليهود الى الولايات المتحدة الا ابتداء من عام ١٨٩٩ . وقد هاجر خلال ١٦ عاما (١٨٩٩ ـ ١٩١٤) حوالى ١,٥٠٠,٠٠٠ يهودى من روسيا .

توقفت الهجرة أثناء الحرب العالمية الأولى ولكن فتحت أبواب الهجرة مرة أخرى عام ١٩١٤ ، وكان عدد المهاجرين فى البداية ضئيلا ثم بدا فى الازدياد الى أن وصل الى الذروة عام ١٩٢١ ثم انخفض فى عام ١٩٢٢/١٩٢٣/١٩٢٤ بسبب نظام النصاب .

ويجب التنبية الى أن الفترة هذه هىَ أيضا فترة ظهور

الصهيونية ونشاطها ، ولابد من أن ندرك أن حركة أعضاء الجماعات اليهودية الضخمة هذه كانت مصدر قلق لكل من الدول الغربية لخوفها على أمنها الداخلى وليهود الغرب المندمجين لاحساسهم أن وصول يهود الشرق يهدد مكانتهم الاجتماعية .

وينبع تأييد الدول الغربية وأثرياء اليهود المندمجين للمشروع الصهيونى من مخاوفهم هذه ومن هنا تبنيهم لما نسميه بالصهيونية التوطينية ، أى حينما يقرر أحد يهود العالم الغربى الا يهاجر من وطنه ، ومع هذا يسعى سعيا حثيثا لارسال اليهود الآخرين الى فلسطين . ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك بانجلترا التى اتجه اليها حوالى ٢١٠ آلاف من المهاجرين اليهود فى الفترة من ١٨٨١ ـ ١٩٣٥ . وقد كان لوصولهم أثره فى إثارة قلق السلطات البريطانية ، وظهرت المحاولات الرامية الى تحويل تيار الهجرة اليهودية عن انجلترا ابتداء بمشروع شرق افريقيا لانشاء دولة صهيونية هناك مرورا بقانون الأجانب عام ١٩٠٦ للحد من دخول اليهود اليها (الذى كان بلفور من أكبر المدافعين عنه) ، وانتهاء بوعد بلفور الذى حول فلسطين الى أرض يلقى فيها « بالفائض البشرى اليهودى » ، كما كان يطلق على المهاجرين اليهود آنذاك .

ونلاحظ أن عدد المهاجرين الى فلسطين فى بداية الفترة كان ١٨٠٦ ، ولكنه زاد إلى ٨١٧٥ عام ١٩٢٣ بعد فتح أبواب الهجرة وانشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية المختلفة . وقد قفز العدد الى ١٣,٨٩٢ عام ١٩٢٤ . وشهدت

الفترة من ١٩٢٥ ـ ١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية مما أدى الى خوف كثير من الدول من الأيدى العاملة المهاجرة لأنها قد تفاقم من ظروف البطالة فيها ، فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بمقدار ماتسمح به مقدرتها الاستيعابية . ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب افريقيا واستراليا . وأدى تصاعد المقاومة العربية فى فلسطين الى الحد من الهجرة الاستيطانية ولكنها مع ذلك ظلت مفتوحة الأبواب ، ولعل أكبر مثل على محاولة الدول الغربية الحد من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التى أصدرت أولا قانون النصاب عام ١٩٢٣ وأعقبته بقانون جونسون عام ١٩٢٤ ، وحسب هذا القانون كان لا يسمح إلا بهجرة عدد يساوى نسبة ٢٪ من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش فى الولايات المتحدة حسب احصاء عام ١٨٩٠ . وقد عرفت المجموعة القومية بالنسبة للبلد الأم وليس بالنسبة للانتماء الدينى أو الاثنى ، وكان العدد المسموح له بالهجرة من شرق أوربا وروسيا هو ١٠٣٤١ فى مقابل حوالى ٥٠ ألفا فى عام ١٩٢٤ و١٥٣,٧٤٨ عام ١٩٠٦ . وبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من كل المهاجرين اليهود (فى الفترة من ١٨٨١ ـ ١٩١٤) انخفضت النسبة الى ٢٥٪ فى الفترة ١٩٢٦ الى ١٩٣٠ . كما أغلقت كثير من البلاد أبوابها فى وجههم . وكما يقول روبين أصبحت كل البلاد مغلقة أمام المهاجرين فى عام ١٩٣٣ ، ولم تفتح أمامهم سوى فلسطين المستعمرة أى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بنيوية ، أى بنية قانونية وظروفا موضوعية تفرض على اليهود الهجرة الى فلسطين شاءوا أم أبوا (كما تفعل الولايات المتحدة مرة

أخرى في الوقت الحالي) . وبالفعل زادت الهجرة من ٤,٠٠٠ عام ١٩٣١ الى ١٢,٥٥٣ عام ١٩٣٢ الى ٣٧,٣٣٧ عام ١٩٣٣ فكأن عنصر الطرد من الولايات المتحدة لا الجذب الى أرض الميعاد هو الذى حدد مسار الهجرة . ومع هذا يلاحظ أنه فى الفترة من ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠ حينما كانت أبواب أمريكا اللاتينية أكثر انفتاحا هاجر ٧٢,٣٨٧ إليها من مجموع المهاجرين اليهود ١٧٢,٩٠٨ اى ٤٢٪ بينما لم يهاجر سوى ١٠,١٧٩ الى فلسطين فى الفترة نفسها .

ويمكن أن تسمى المرحلة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨ المرحلة النازية ، ورغم تباكى الدول الغربية على مصير اليهود فان معظمها أوصد بابه دونهم . كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقا من عقيدتها التى تدعو الى توطين اليهود فى فلسطين ، وفلسطين وحسب ، ومن هنا جهود الصهاينة المكثفة لافشال مؤتمر افيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين ورفض اى عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين لخلق ما نسميه بالصهيونية البنيوية . وقد بلغ عدد المهاجرين من المانيا النازية والبلاد المهيمن عليها من قبل النازيين ومن كل أوربا ٥٧٠ ألفا (لا يضم هذا العدد عشرات الألوف من اليهود الذين هجرهم الاتحاد السوفييتى أبان الحرب لانقاذهم وعشرات الألوف الذين لجأوا للاتحاد السوفييتى فرارا من النازية) . وقد هاجر ٢٥٠ الفا (أى ٤٦٪) منهم الى فلسطين بسبب سياسة اغلاق الابواب ، وهاجر الباقون ٢٩٠ الفا الى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة (١١٠ آلاف) أى ٢٠٪ . وهاجر فى الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٤٨ ٣٠٠ الف يهودى هاجر ١٢٠ الفا (أى ٤٠٪) منهم الى فلسطين والباقون ١٨٠ الفا (أى ٦٠٪)

هاجروا الى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة اذ هاجر لها ١٢٥ ألفا أى ٤٢٪ . وهكذا أصبحت الولايات المتحدة مرة أخرى بلد الجذب الأكثر ، حتى أثناء سنى الحرب والابادة النازية .

ويمكننا القول إن المستوطن الصهيونى لم يشكل ملجأ ليهود أوربا ، فمن مجموع ٧٥٠ ألف مهاجر - يمكن أن نضيف لهم مئات الألوف من المهاجرين الى الاتحاد السوفييتى - لم يهاجر الى فلسطين إلا ٣٧٠ ألفا أى أنه رغم شراسة الصهيونية البنيوية ولا انسانيتها الا أن مسار الهجرة لم يتجه لفلسطين .

وبانتهاء الأربعينيات اصبحت الكتلة اليهودية الكبرى موجودة فى الولايات المتحدة ، وثمة كتلة أخرى فى أوربا ولكنها كانت آخذة فى التناقص ، مع وجود أقليات متناثرة فى انحاء العالم ، اضافة الى الكتلة اليهودية الاستيطانية فى فلسطين (اسرائيل) . وأصبح هناك قطبان أساسيان يتنازعان هجرة افراد الجماعات اليهودية هما الولايات المتحدة واسرائيل (فلسطين) . وكلاهما بلد استيطانى يمكن للمهاجر اليهودى أن يحقق فيه الحراك الاجتماعى الذى فشل فى تحقيقه فى بلده . ومع هذا تشكل دول أخرى مثل استراليا وفرنسا جاذبيه خاصة بالنسبة لبعض المهاجرين اليهود .

ويمكن أن نضيف بعدا آخرا يساعد على توجيه هجرة أفراد الجماعات اليهودية أساسا للولايات المتحدة واسرائيل (فلسطين) وهو ميراث الجماعات اليهودية كجماعة وسيطة

وتركز أعضائها فى قطاعات المال والتجارة . فهذا يعنى تأثرهم السلبى بالثورات القومية والاشتراكية التى تستولى على هذه القطاعات فتؤممها أو تحاول صبغها بصبغة قومية وتتدخل فيها مما يقلل فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية . ويمكننا فى واقع الأمر أن نفهم حركة هجرة أفراد الجماعات اليهودية فى العصر الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين : الحراك الاجتماعى وميراث الجماعة الوسيطة ، باعتبارها هجرة الى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسى من بلاد الاقتصاد الاشتراكى والفقر والثورات القومية والاشتراكية .

١ ـ فمثلا يمكن فهم الهجرة من الاتحاد السوفييتى حتى عام ١٩٩٠ باعتبارها تعبيرا عن ضيق يهود الاتحاد السوفييتى بالنظام الاشتراكى الذى يضيق الخناق على القطاع التجارى . كما يمكن تفسير ظاهرة التساقط بين اليهود السوفييت فى الاطار نفسه . والمتساقطون ، فى المصطلح الصهيونى ، هم هؤلاء اليهود الذين يزعمون أنهم سيذهبون إلى إسرائيل ، وطنهم القومى المزعوم ، ولكنهم بعد خروجهم يولون وجوههم شطر الولايات المتحدة . هؤلاء المتساقطون يفضلون الهجرة الى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعى ، بينما لا تشكل اسرائيل (فلسطين) أى جاذبية بالنسبة لهم ، وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة الى اسرائيل فمثل هذه الهجرة حققت لهم قسطا من الحراك الاجتماعى ، خاصة وأن مؤهلاتهم لم تكن عالية بينما نجد أن نسبة التساقط بين يهود أوكرانيا تصل الى ٩٠٪ ـ لأن مستواهم المعيشى مرتفع .

٢ ـ ويمكن فهم هجرة يهود ايران وخروجهم بأعداد هائلة داخل اطار قيام الثورة الايرانية فيها ، فيهود ايران ظلوا يمارسون نشاطهم فيها تحت حكم الشاه وتم خروجهم بأعداد هائلة بقيام الثورة الايرانية لأنها حاولت أن توجه الاقتصاد وجهة لا تتفق مع معايير الاقتصاد الحر . وفى كوبا كانت توجد جماعة يهودية ، ولكن حينما نشبت الثورة الاشتراكية هناك انخفض العدد الى العشر على الرغم من أن الحكومة الكوبية كانت تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ولم تقف فى طريق النشاط الصهيونى ولم تسىء معاملة اليهود على الاطلاق (باعتراف المراجع الصهيونية) . والشىء نفسه بالنسبة ليهود شيلى الذين تركوها حينما وصل الليندى بتوجهه الاشتراكى الى الحكم ، وعادوا لها مع بينوشيه . فارتباط أفراد الجماعات اليهودية فى كثير من بلاد العالم بنمط انتاجى معين وبعقلية تجارية محددة جعل من العسير عليهم الاستمرار فى المجتمع الجديد ، فهم « ضحايا التأميم » كما ورد فى « الموسوعة اليهودية » ومع تزايد الثورات وعدم الاستقرار السياسى فى أمريكا اللاتينية يلاحظ زيادة هجرة أفراد الجماعات . والوضع نفسه ينطبق على يهود جنوب افريقيا فمع تزايد ثورات السود يتجه أفراد الجماعة الى الولايات المتحدة .

٣ ـ ولعل أسباب هجرة اليهود من البلاد العربية فى الخمسينيات يعود الى مركب من الأسباب منها قيام الدولة الصهيونية وما خلقته من مشكلات لليهود العرب ، ومنها كذلك ارتباط عدد كبير من أفراد الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية ، ولكن مما لا شك فيه أن التحول البنيوى الذى

خاضته بعض المجتمعات العربية مثل المجتمع المصرى والمجتمع السورى وقيام تجارب تنموية تحت اشراف الدولة قد ساهم بشكل عميق فى عملية خروج اليهود التى لا يمكن رؤيتها كظاهرة منفصلة عن « خروج » جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الايطاليين واليونانيين من مصر ممن لم يستطعوا التكيف مع اجراءات التمصير والتعريب والتأميم . الى فضل هذا تحقق اسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسطا من الحراك الاجتماعى باعتبار أن المستوى المعيشى فى البلاد العربية أقل منه فى اسرائيل ، كما أن يهود البلاد العربية لم يكن عندهم الخبرات الكافية المطلوبة فى الولايات المتحدة . ويلاحظ أن عددا كبيرا من أعضاء نخبتهم الاقتصادية والثقافية هاجرت الى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشى المرتفع الذى يفوق نظيره فى اسرائيل والتى تتميز باقتصاد « متقدم » ومن ثم تحتاج لخبراتهم ورأسمالهم . ومع هذا هاجرت جماهير يهودية الى فرنسا حينما سنحت لها الفرصة ، حيث هاجر معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب الى هناك .

٤ ـ فى داخل هذا الاطار يمكن فهم لماذا يهاجر يهود أمريكا اللاتينية وجنوب افريقيا الى الولايات المتحدة ، فاسرائيل بالنسبة لهم لا تعنى أى تحسن فى مستوى المعيشة .

٥ ـ ويلاحظ أن يهود البلاد الغربية (أوربا والولايات المتحدة وكندا) لا يهاجرون قط الى اسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية . فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وإن

كان يلاحظ أيضا أن يهود انجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة الى الولايات المتحدة .

٦ ـ بل ويلاحظ أن هناك هجرة اسرائيلية متزايدة الى الولايات المتحدة شكلت ما يسمى بالدياسبورا الاسرائيلية (يبلغ عددها فى بعض الاحصائيات ٧٠٠ ألف) ومنهم عدد كبير من جيل الصابرا . ولاشك فى أن هؤلاء لا يبحثون عن الحراك الاجتماعى وحسب وانما يودون الهرب من الحياة المسلحة فى اسرائيل .

٧ ـ فى الاطار نفسه يمكن فهم هجرة (أو تهجير) يهود الفلاشاه تحت ظروف المجاعة فهى هجرة سيحققون من خلالها حراكا اجتماعيا كبيرا .

ويمكن القول إن مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية أخذه فى النضوب فأفراد أكبر جماعة يهودية فى العالم فى الولايات المتحدة لا يهاجرون ، ويهود العالم الغربى أن هاجروا فانهم يتجهون إلى الولايات المتحدة . ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرها من البلاد النمط نفسه ، وقد تم تصفية يهود العالم الشرقى والاسلامى ولم يبق سوى بضعة مئات من الأفراد . وتساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط وعزوف اليهود عن الانجاب فى تناقص عدد اليهود الكلى وبالتالى فى تناقص عدد المهاجرين المحتمل .

يبقى بعد ذلك الاحتياطى البشرى الوحيد للكيان الصهيونى فى الاتحاد السوفييتى وهو جوهر الصراع القائم الآن ، وسنتناول فى الفصل القادم تاريخ الجماعات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى .

الفصل الثانى

تاريخ الجماعات اليهودية فى روسيا القيصرية



يعود وجود الجماعات اليهودية فى روسيا الى القرن التاسع الميلادى حين توسعت مملكة الخزر اليهودية فى وادى الفولجا ومناطق روسية اخرى . وقد اشترك يهود الخزر - حسبما ورد فى الاساطير الروسية - فى المناظرة الدينية التى عقدت بين ممثلى الديانات التوحيدية الثلاث عام ٩٨٦ أمام امير كييف الذى اعتنق بعدها المسيحية واصبحت الارثوذكسية هى دين روسيا الرسمى . وبعد ان استوطن اليهود فى المدينة باعتبارها مركزا تجاريا يربط بين منطقة البحر الأسود وآسيا وغرب اوربا ، قوبلوا بعداوة شديدة من بلد اعتنقت المسيحية لتوها وتضم طبقة تجار ضعيفة للغاية وبدائية . ومع هذا استمرت حركة اليهود التجارية ، وكان لهم الجيتو (أى الحىّ) الخاص بهم فى كييف وغيرها من المدن .

وبعد غزو التتار لروسيا فى القرن الثالث عشر وتدهور امارة كييف ، زاد نشاط اعضاء الجماعة اليهودية التجارى ، لان الامبراطورية التترية جمعت كافة الجماعات اليهودية داخل اطار سياسى واحد مما سهل عملية انتقالهم . كما يبدو ان التتار كانوا يعتبرون اليهود الخزر من ذوى قرباهم (باعتبار أن الجميع من أصل تركى) .

وفى القرن الخامس عشر ظهرت فرقة مسيحية متهودة بين الروس فى مدينة نوفوجورود . وعلى الرغم من انه تم القضاء عليها فانها عمقت مخاوف المؤسسة الدينية الارثوذكسية من اليهود ، إلا أن حركة اليهود التجارية استمرت من روسيا واليها .

وكان ايفان الرهيب (١٥٣٣ ـ ١٥٨٤) هو أول روسى قرر طرد اليهود من روسيا ، ويعود هذا الى رغبته فى استبعاد اية عناصر تجارية اجنبية . وبعد الفترة التى تعرف باسم « زمن المتاعب » فى التاريخ الروسى (١٥٩٨ ـ ١٦١٣) والتى شهدت اعتلاء امير بولندى للعرش الروسى ، ونشوب حرب اهلية زاد عمق الرفض الروسى لليهود باعتبار أن مغتصبى العرش من البولنديين أحضروا معهم كثيرا من صنائعهم اليهود . لكل هذا مُنع اليهود من دخول روسيا الا لأسباب خاصة مثل حضور سوق تجارى أو غيره من الأسباب . وقد ظل هذا الحظر هو أحد الثوابت فى السياسة الروسية حتى تقسيم بولندا فى أواخر القرن الثامن عشر .

ولعل خوف روسيا القيصرية من أعضاء الجماعات اليهودية هو خوف العناصر الزراعية التقليدية من عنصر غريب له علاقات دولية واسعة فى دولة جديدة لم تكن سلطتها قد تدعمت بعد ولم تتدعم لمدة طويلة نظرا لترامى اطرافها . كما انه عنصر تجارى له مصالحه المالية الخاصة التى لاتتفق بالضرورة مع مصالح الدولة . كما انه كان هناك قوى اجتماعية داخل روسيا لم يكن فى صالحها البتة السماح لليهود بالاستقرار ، من اهمها التجار الروس الذين كانوا

يرزحون تحت عبء الضرائب ، والذين كان عليهم أن يدخلوا في منافسة غير متكافئة مع بعض اعضاء طبقة النبلاء الذين اشتغلوا بالتجارة وكانوا يتمعتون بمزايا عديدة وبمساندة البيروقراطية الحكومية . بل وكان هؤلاء التجار يجدون انفسهم أحيانا في منافسة مع الفلاحين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة والصناعات المنزلية ، وكل هذا داخل سوق محدود مكبل بالقوانين الاقطاعية الاستبدادية التي لاحصر لها . فاذا اضفنا الى كل هذا ان حجم التجار الروس المالي كان صغيرا في معظم الاحوال لادركنا لماذا وقف التجار الروس ضد دخول العنصر اليهودي التجاري الحركي النشيط الذي لاتكبله القيم المسيحية او القوانين الطبقية ويتحكم في رأسمال سائل لابأس به . وقد وجد هذا الموقف صدى في نفس حكومة كانت تكتسب شيئا من شرعيتها من اعتناقها الارثوذكسية ، وعلى الرغم أن من الفكر المركنتالي وجد طريقة الى روسيا في مرحلة لاحقة فأن قبضة الحكومة ظلت قوية ، وظل التجار يعارضون نشاط اليهود التجاري ويطالبون بالحد منه حتى اندلاع الثورة البلشفية .

ولعل من الثوابت الأخرى التي كانت عنصرا قويا ومحددا في السياسة الروسية القيصرية هو ان اليهود كانوا عنصرا متحركا لايملك اي أرض تخصه كما هو الحال مع شعوب واقوام واقليات وطوائف الامبراطورية الأخرى مما خلق لهم وضعا ومشاكل خاصة .

وقد ضمت روسيا مقاطعة روسيا البيضاء في أول تقسيم لبولندا عام ١٧٧٢ ، وضمت في التقسيم الثاني منطقة منسك

وفولينيا (وهى جزء من مقاطعة كييف) ومنطقة بودوليا فى الجنوب اى انها ضمت كل اوكرانيا ، ثم ضمت فى التقسيم الثالث ليتوانيا ، وقد ضمت كل هذه المقاطعات (بما فى ذلك كورلاند وبيالستوك التى حصلت عليهما روسيا فيما بعد) الى روسيا ذاتها ، بينما اصبحت بولندا المركزية (التى كانت تضم حوالى ثلاثة ارباع دوقية وارسو النابلونية) تكون مايسمى ببولندا المؤتمر Congress Poland أو بولندا الروسية وكان اسمها الرسمى مملكة بولندا حتى عام ١٨٣٠ وكان لها دستورها الخاص .

وهذه المقاطعات كانت تضم غالبية يهود شرق اوروبا ، او يهود اليديشية ، وقد انطلقوا من هذه المناطق بعد ضمها واستوطنوا المناطق الجنوبية من روسيا وساحل البحر الأسود ، ومقاطعة بيساربيا (مولدافيا) وهى مناطق تابعة للدولة العثمانية وقامت روسيا بضمها باسم روسيا الجديدة ، كما تسللت مجموعات صغيرة من اليهود الى وسط روسيا ذاتها .

وكان وضع اعضاء الجماعة اليهودية فى هذه المناطق متميزا تماما من الناحية الثقافية والاجتماعية والوظيفية ، فقد كانت اعداد كبيرة منهم تعمل بنظام الارندا (استئجار عوائد القرى بما فى ذلك الضرائب والمطاحن ، والغابات والحانات من النبلاء البولنديين الغائبين) كما كان بين اليهود تجار واصحاب حوانيت وباعة جائلون ، وكان الباقون حرفيين يعملون للنبيل الاقطاعى والفلاح . وحسب التقديرات كان التركيب الوظيفى لليهود على النحو التالى : ١٪ فقط كانوا

يعملون فى الزراعة و٣٪ فى الاعمال الدينية ، و٣٠٪ يعملون فى نظام الارندا و٣٠٪ يعملون فى التجارة والرهونات و١٥٪ فى الحرف المختلفة .

وكان من أهم الوظائف التى اضطلع بها اليهود والتى أصبحت جزءا اساسيا من مشكلتهم تقطير الخمور وبيعها فى الحانات التى استأجروها من النبلاء (كجزء من نظام الارندا) ، كما يلاحظ ان التجارة اليهودية كانت تجارة طفيلية وكان التجار اليهود يشتغلون بالتهريب ويقومون بالتهرب من الضرائب نظرا لوجودهم على المنطقة الحدودية وبسبب استخدامهم اليديشية كوسيلة للتفاهم الأمر الذى يسر لهم عمليات التهريب والتهرب والتلاعب بالاسعار . ومع هذا ظلت نسبة كبيرة من اعضاء الجماعة تعانى من الفاقة فكان هناك ٢١٪ منهم بدون وظيفة محددة .

ولكن لم يكن التميز وظيفيا أو طبقيا وحسب وإنما كان ثقافيا ولغويا أيضا ، فأفراد الجماعة اليهودية كانوا يشكلون جماعة وسيطة تدين باليهودية ويتحدث اعضاؤها اليديشية ويمثلون المصالح المالية للنبيل البولندى الذى يتحدث البولندية ويدين بالكاثوليكية لدى الفلاحين والاقنان الأوكرانيين الذين يتحدثون الأوكرانية ويدينون بالمسيحية الأرثوذكسية . كما ان اليهود كانوا عنصرا المانيا يعيش فى وسط سلافى ويظهر تميزهم حتى فى الطريقة التى كانوا يحلقون بها رؤوسهم وفى ازيائهم المتميزة ، وفى اسمائهم . كما تظهر عزلتهم فى نظامهم التعليمى المقصور عليهم ، وفى الشتتلات التى أسسها لهم النبلاء الاقطاعيون البولنديون ،

وهى مدن صغيرة تضم التجار والوكلاء والحرفيين اليهود . وشكل اليهود أغلبية السكان فى هذه المدن الصغيرة مما كان يعنى عدم احتكاكهم بالسكان (كما كانت تعيش اعداد كبيرة منهم على مفترق الطرق ومنتشرين فى بعض القرى) . هذه الكتلة البشرية كانت على وشك الزيادة الهائلة إثر انفجار سكانى لم تعرف له مثيلا فى تاريخها . وهى رغم عزلتها لم تكن متماسكة ، فقد كانت الصراعات الاجتماعية قد بدأت تترك اثرها على مؤسسة القهال (مؤسسة الادارة الذاتية لليهود) وهو صراع عبر عن نفسه فى الصراع بين الحسيديين المتصوفين ومعارضيهم من أعضاء المؤسسة الحاخامية الذين اطلق عليهم المتنجديم . وكانت المنطقة التى ضمتها روسيا تضم أهم « البلاطات » الحسيدية وأهم يشيفات (المدارس التلمودية) المتنجديم فى ليتوانيا ، وكانت اليهودية الحاخامية فى هذه الفترة قد دخلت ازمتها الكبرى .

وفجأة وجدت هذه الكتلة البشرية نفسها تابعة لتشكيل اقتصادى ، سياسى ، حضارى جديد أى روسيا القيصرية التى رأت دائما ضرورة نبذهم والتلخص منهم ، وعلى رأسها حكومة استبدادية متخلفة لاتسمح بالتعددية الدينية او الفكرية او المهنية ، سياستها فى جوهرها سياسة الملوك المطلقين المستنيرين (كما كان الحال فى وسط أوروبا والنمسا والمانيا) أى التحديث بالقوة ومن فوق ، ولم يكن لدى هذه الحكومة اية خبرة باليهود او مشاكلهم ، كما أن روسيا نفسها كانت على عتبات انفجارات اجتماعية ضخمة نتيجة

لعملية التحديث والعلمنة التى كانت تخوضها ، وهى انفجارات أدت فى نهاية الأمر الى قيام الثورة البلشفية . وتاريخ المسألة اليهودية فى روسيا هو تاريخ الاحتكاك بين الكتلة البشرية اليهودية المنعزلة ، بكل تخلفها ومشاكلها وتميزها ، مع البيروقراطية القيصرية المتخلفة بكل وحشيتها وتعصبها وعدم كفاءتها .

وقد ظلت المشكلة قائمة دون حل وكلما كانت تحتدم الازمة كانت الحكومة الروسية تشكل لجنة لدراسة الموقف وترفع توصياتها للحكومة ، وقد كانت توصيات فى معظم الاحيان تستند الى فلسفات شمولية مطلقة ، وتنبع من جهل عميق بآليات الظواهر الاجتماعية . وكان يتولى تنفيذها جهاز تنفيذى متعصب جاهل يتسم بعدم الكفاءة . وقد ظل التناقض الاساسى فى سياسة الحكومة القيصرية بين رغبتها فى التحديث والتنمية الاقتصادية من جهة والشكل الاستبدادى السياسى القائم من جهة أخرى ، يفشل كل المحاولات نحو حل المسألة اليهودية إلى أن تعثر تحديث اليهود (والمجتمع ككل) تماما فى اواخر القرن التاسع عشر ، واحتدم التناقض بين الحقيقة الاجتماعية والشكل المتكلس مما نجم عنه مجموعة من الاضطرابات والثورات انتهت بالثورة البلشفية التى حلت المسألة اليهودية (والمسائل القومية الأخرى) بطريقة نوعية مختلفة .

ادى تقسيم بولندا كما أسلفنا إلى ضم أجزاء كبيرة منها إلى روسيا بمن عليها من يهود كانوا يضطلعون بوظيفة محددة هى وظيفة الجماعة الوسيطة لأن النبلاء البولنديين كان محرما عليهم التجارة (وتفرغوا للأعمال السياسية والحرب) . ويقف

هذا على طرف النقيض من الوضع فى روسيا اذ لم تكن التجارة هناك مهنة وضيعة ، وكانت الحكومة نفسها تقوم بالتجارة وتشجعها واضطلع بعض النبلاء بها .

وروسيا من الناحية الاقتصادية كانت مستعمرة انجليزية او منطقة نفوذ اقتصادية انجليزية ، ولكن بعد الحصار القارى الذى فرضه نابليون على انجلترا حدث تقدم صناعى وتجارى نظرا لاضطرار روسيا الى الاعتماد على نفسها ، وعلى سبيل المثال كانت روسيا تملك ١٩٩ مصنع قطن عام ١٨٠٤ زاد عددها الى ٤٢٣ عام ١٨١٤ ، وزادت واردات القطن من الولايات المتحدة من ٢٠٤ اطنان عام ١٨٠٩ الى ٣٧٨٧ طنا عام ١٨١١ .

من كل هذه الحقائق يمكن القول إن الاقتصاد الروسى لم يكن فى حاجة لليهود ، ومع هذا تم ضمهم فى محاولة بناء الدولة القيصرية ، ولم تكن المسألة اليهودية هى المسألة الوحيدة التى جابهتها الحكومة القيصرية ، فقد كان هناك « مسألة إسلامية » ومسألة « تترية » و« مسألة بولندية » و« مسألة أوكرانية » ، فالامبراطورية القيصرية مترامية الأطراف تضم مئات الإقليات والتشكيلات الحضارية المختلفة وكانت تحاول ان تفرض عليها ضربا من الوحدة حتى يمكن للحكومة المركزية التعامل معها . وقد قسمت الحكومة القيصرية هذه الأقليات إلى قسمين أساسيين الاقليات السلافية ، مثل اوكرانيا وبولندا ، والاقليات غير السلافية الاينورودتسى » Inorodtsy وهى كلمة روسية كانت تشير فى بادىء الأمر للقبائل التى كانت تعيش فى سيبيريا ثم اتسع

نطاقها الدلالى واصبحت تشير لكل الشعوب غير السلافية ، وكانت السياسة العامة تهدف الى ترويسهم (أى صبغهم بالصبغة الروسية) . وغنى عن البيان أن اجراءات الترويس بالنسبة للاقليات غير السلافية كانت اكثر راديكالية وعنفا ، خاصة اذا كانت تلك الأقليات لاتدين بالمسيحية . وقد بدأت الحكومة القيصرية علاقتها بأفراد الجماعة اليهودية بالاعتراف بالقهال وبصلاحياته الدينية والقضائية ، كما تم الاعتراف بالجماعة اليهودية كجماعة مستقلة فى المدن والقرى . وفى عام ١٧٨٣ صنف اليهود على اساس انهم من سكان المدن ، ولهم نفس الحقوق مثل غير اليهود فى انتخاب مجالس المدن والبلديات وحق التمثيل فيها .

وقد استقر بعض التجار اليهود فى موسكو وسمولنسك فدخلوا فى منافسة مع التجار المسيحيين بطرق شرعية وغير شرعية . وحينما تقدم تجار موسكو بشكوى ضد هذا الوضع صدر فرمان ١٧٩١ يحظر على اليهود الاتجار خارج روسيا البيضاء وفى بعض المقاطعات الاخرى مثل روسيا الجديدة ، ويعد هذا الفرمان الاساس القانونى لمنطقة الاستيطان الذى حدد اقامة اليهود داخل منطقة بعينها وقد سمح لمجالس القهال ان تستمر فى عملها بكل صلاحياتها .

وشهدت هذه المرحلة ضم روسيا لبعض الامارات الاسلامية التابعة لتركيا على ساحل البحر الاسود وسميت (هى ومناطق اخرى) بروسيا الجديدة . وحيث ان اليهود كان يتم النظر لهم فى التشكيل الحضارى الغربى باعتبارهم عنصرا رياديا حركيا يمكن استخدامه فى مثل هذه العملية

(كما فعل شارلمان من قبل ، وكما فعلت القوات المسيحية فى اسبانيا والنبلاء البولنديون في أوكرانيا ، والاستعمار الغربى في فلسطين فيما بعد) قامت الحكومة القيصرية بتشجيعهم على الاستيطان فى المناطق الجديدة ، باللجوء لطريقة الطرد والجذب ، فضوعفت الضريبة المفروضة على التجار اليهود ، واعفى المستوطنون فى روسيا الجديدة تماما من كل الضرائب (وقد استثنى هذا المرسوم اليهود القرائين الذين عوملوا على قدم المساواة مع كل الروس ، وهذا ايضا هو احد ثوابت السياسة القيصرية تجاه اليهود) . وفى نفس الوقت تفاقمت مشكلة السُكرْ بين الفلاحين ، كما ساعدت احدى المجاعات التى وقعت عام ١٧٩٧ على تعميق المشكلة . وكان اليهود هم السبب الواضح المباشر للجميع ، (ولكنه فى واقع الأمر لم يكن السبب الحقيقى) لإدمان الفلاحين الروسيين للمشروبات الكحولية فغالبية صانعيها وبائعيها كانوا من اليهود وهم الذين كانوا يديرون معظم الحانات ، فشكلت لجنة لبحث المسألة اليهودية فى روسيا برئاسة السناتور جافريل ديرجافين (١٧٤٣ ـ ١٨١٦) الشاعر الروسى الذى رأى ان اليهود يستغلون الفلاحين الروس وان عزلتهم الطبقية والحضارية هى سبب العداء ضدهم ، وبناء عليه طالب بضرورة ترويسهم بالقوة والى تغيير بنائهم الاقتصادى والوظيفى حتى يتسنى استيعابهم « كيهود نافعين » فى المجتمع الروسى ، وقد وضع بذلك الاطار الاساسى لكافة المحاولات التى بذلتها الحكومة القيصرية لحل المسألة اليهودية .

وبعد اعتلاء الاسكندر الأول العرش (١٨٠١ ـ ١٨٢٥) شُكلت لجنة تدعى مجلس الشئون اليهودية واصدرت قراراتها

عام ١٨٠٤ ، والتى تسمى بالقانون الاساسى لليهود او دستور اليهود ، وجاء فى قرارات اللجنة ان اليهود يجب ان يُنقلوا خارج المناطق الزراعية بين عامى ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ ، كما أوصت بضرورة إبعاد اليهود عن استئجار الأراضى الزراعية بهدف الربح . ولتنفيذ هذا المخطط وضع تحت تصرفهم بعض أراضى القيصر وأعفى المزارعون اليهود من الضرائب لمدة تتراوح بين خمسة وعشرة أعوام ، كما أنهم لم يصنفوا على انهم اقنان مرتبطون بالأرض بل احتفظوا بحقوقهم فى حرية الحركة والسكن . وقد وعدت الحكومة كذلك بتقديم العون للمصانع التى تقوم باستئجار العمال والحرفيين اليهود ، وسمح للعاملين بالصناعة بين اليهود ان يستقروا داخل روسيا بما فى ذلك موسكو وسانت بطرسبرج . وحد القانون الاساسى من سلطة القهال واصبح تنظيم الأمور الدينية والعبادات من اختصاص الحاخامات وحدهم الذين كان يتم اختيارهم دون العودة للقهال ، ولم تتجاوز صلاحيات القهال تحديد الضرائب وجمعها واحصاء عدد السكان اليهود . وتقرر الا يوجد سوى قهال واحد فى كل مدينة ، وسمح لكل فرقة دينية ان يكون لها معبدها اليهودى وحاخامها الخاص (مما ادى الى تحسين وضع الحسيديين) وفتحت أبواب المدارس الحكومية العلمانية أمام اليهود ، وتقرر أنه إذا لم يرسل اليهود بأولادهم فإنه سيتم فتح مدارس يهودية علمانية خاصة على حساب أفراد الجماعة اليهودية، واصبح من شروط شغل وظيفة حاخام أو عضوية مجلس ادارة القهال أو البلدية معرفة الألمانية أو الروسية أو البولندية ، كما تقرر ان يكتب أفراد الجماعة كل وثائقهم واوراقهم باحدى اللغات الثلاث وخرم كتابتها بالعبرية او اليديشية . وقد اكد القانون حقوق اليهود

فى الاشتراك فى الانتخابات الخاصة بالحكومات المحلية ، ومنع ارتداء الازياء اليهودية التقليدية وقص الشعر على الطريقة اليهودية (وترك السوالف) واصبح توجيه تهمة الدم جريمة يعاقب عليها القانون (١٨١٨) . وكانت استجابة الجماعات اليهودية سلبية الى اقصى درجة وصاموا حدادا على صدور هذه القرارات بل واقترحت بعض القهالات تأجيل الاصلاحات الى فترة تتراوح بين ١٥ و٢٠ عاما !

ونتيجة لمقاومة أفراد الجماعة اليهودية ولعدم كفاءة البيروقراطية وفسادها (فكثيرا ما كان الموظفون القياصرة يتقاضون الرشاوى ويتغاضون عن تعليمات الحكومة) وبسبب عدم الثقة المتبادلة بين الحكومة واليهود وعدم واقعية القرارات باعتبار ان وجود اليهود فى القرى كان أمرا ليس من اختيارهم وانما واقع اجتماعى تفرضه عليهم ظروفهم والظروف الاقتصادية المحيطة بهم ، ونظرا لان أفراد الجماعة كانوا فى واقع الأمر يقومون بوظيفة مهمة بالنسبة للريف الروسى حتى ولو كان لها جوانب سلبية من الناحية الاجتماعية ، لكل هذا لم تنجح الحكومة القيصرية فى تنفيذ توصيات اللجنة . وعلى كل لم يتم اتخاذ خطوات تنفيذية نحو طرد اليهود من القرى الا عام ١٨٢٢ (خاصة فى مقاطعة بيلوروسيا أو روسيا البيضاء) ولكن كثيرا ما كان يتم طرد اليهود دون تأمين أرض زراعية لهم مما كان يعنى الفشل الأكيد لمحاولة تغيير وضع اليهود الوظيفى ، بل وأحيانا كان يتم تأمين الأرض ويصل المستوطنون ليكتشفوا انه لاتوجد تسهيلات للسكن أو الرى أو الصرف .

توقفت كثير من الاصلاحات أثناء الحرب الروسية ـ الفرنسية حين قام نابليون بغزو روسيا ، وقد وقف أفراد الجماعة اليهودية أثناء هذه الحرب إلى جانب الحكومة الروسية لان المؤسسة الحاخامية كانت تعتبر نابليون عدو اليهودية اللدود ، بل وقام اليهود بالتجسس لحساب الحكومة القيصرية على القوات الفرنسية (وان كان هذا لم يمنع وجود بعض حالات متفرقة قام فيها اليهود الروس بالتجسس على روسيا لحساب الفرنسيين) .

وفى أواخر حكم الاسكندر قامت محاولة لتنصير اليهود عن طريق الوعد بعتقهم واعطائهم حقوقهم السياسية . وكان العقل المدبر وراء هذه الفكرة هو لويس واى رئيس جمعية الكتاب المقدس فى انجلترا الذى اسس جمعية المسحيين الاسرائيليين عام ١٨١٧ تحت رعاية الامبراطور . ثم صدر قرار بمنع اليهود من استئجار خدم مسيحيين ومن السكن فى منطقة طولها خمسون فرسخا (حوالى ٣٣ ميلا) على الحدود ولم يستثن من ذلك سوى ملاك الأراضى .

وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الجماعة اليهودية بوصول نيقولا الثانى للعرش (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) وقد اعتلى العرش بعد اخماد الثورة المعروفة باسم ثورة الديسمبريين وهم مجموعة من النبلاء المتأثرين بالافكار الغربية التى كان من قادتها بول بستل (صاحب الافكار اليعقوبية ، وصاحب مشروع صهيونى لحل المسألة اليهودية) . وقد صعّد نيقولا من سياسة الترويس والدمج القسرية فصدر مرسوم عام ١٨٢٧ بفرض الخدمة العسكرية على يهود روسيا ، وكانوا قبل

ذلك يدفعون ما يشبه البدل النقدى ، وكانت فترة الخدمة فى الجيش الروسى تستمر لمدة خمسة وعشرين عاما ، وكان يتم تجنيد الفتيان والشبان بين ١٢ و٢٥ عاما ، وأوكل للجماعة اليهودية ذاتها ان تقوم باختيار الفتيان الذين يتم تجنيدهم . فعينت كل جماعة يهودية « خطافين » ليمسكوا بالفتيان (من ابناء الفقراء عادة) لتسليمهم للحكومة مما زاد من حدة الصراعات الاجتماعية . ويلاحظ ان هذا القانون لم يطبق على يهود بولندا وحسب وانما طبق على كل الروس مسيحيين وغيرهم ، وكان الاختلاف الوحيد فى عدد المجندين ، فبينما كانت النسبة ٧ فى الألف بين المسيحيين ، كانت فى ١٠ الألف بين غير المسيحيين . وقد أعفى المثقفون والتجار والحرفيون من الخدمة العسكرية (نظير الف روبل) كما اعفى العاملون فى القطاع الزراعى (فى مرحلة لاحقة) وكان هدف الخدمة العسكرية تحقيق مزيد من الدمج والترويس القسريين . ومع هذا كان نظام التجنيد قاسيا بل غير انسانى خاصة بسبب صغر سن المجندين . ولكن فى نهاية الأمر لم يُجنّد سوى عدد صغير من اليهود يتراوح بين ٢٦ و٦٠ الفا فى فترة ٢٨ سنة ، فاذا اخذنا بتقدير متوسط وهو ٤٥ الفا فهذا يعني ان عدد المجندين سنويا لم يزد على الف وخمسمائة مجند من مجموع عدد اليهود البالغ انذاك ٣ ملايين . ثم صدر قرار عام ١٨٣٥ ، ولم يكن مختلفا فى جوهره عن قرار ١٨٠٤ فاعاد تحديد منطقة الاستيطان وحرم استئجار الخدم المسيحيين وحظر على اليهود الزواج المبكر وحدد السن الادنى للزواج بـ ١٨ سنة للذكور و١٦ سنة للاناث ، كما حظر استخدام اليديشية او العبرية فى الاعمال التجارية وغيرها من النشاطات ، وحدد المهن التى يمكن

لليهود ان يعملوا فيها ، كما حرم على اليهود دخول القرى (عام ١٨٢٥) .

وقد أبقى القانون على القهال ليقوم بجمع الضرائب وتطبيق القوانين الروسية ، وأصبح مسئولا عن الأمور الدينية والخيرية ، وصرح القانون ببناء المعابد شريطة أن تكون على مسافة معقولة من الكنائس ، واعتبر الحاخامات موظفين حكوميين لا تقتصر مهمتهم على الجوانب الدينية وانما اصبح من واجبهم الرقابة على الجوانب الاخلاقية العامة وعلى اداء اليهود لواجباتهم المدنية للدولة والمجتمع وفتحت امام اليهود أبواب المدارس العامة ، وفرضت الرقابة على كتب اليهود (عام ١٨٣٦) .

ويبدو انه فى هذه المرحلة بدأت الحكومة القيصرية تشعر ان ماسمته بالروح التلمودية وليس اليهودية ذاتها هى سبب عزلة اليهود ، ولذا قامت باستشارة اثرياء اليهود الروس باعتبارهم خبراء فى الشئون اليهودية ، كما طلبت العون من يهود الغرب الذين تم تحديثهم ومن دعاة التنوير اليهود . وقد كانت نتيجة المشاورات والمداولات مؤيدة لموقف الحكومة ، وكان اهم داعية لهذه السياسة وزير التعليم اوفاروف (وكان كثير من دعاة التنوير اليهود يتفقون معه ومن بينهم اسحق بير ليفينسون فى كتابه التعليم فى اسرائيل ١٨٢٨) . واغلقت كثير من المطابع العبرية بهدف الحرب ضد الخرافات الحسيدية و« التعصب الناجم عن دراسة التلمود » (ويلاحظ ان موقف الحكومة القيصرية من القرائين كان متسامحا للغاية لانهم لايؤمنون بالتلمود) .

واتجهت الحكومة الروسية أيضا نحو علمنة التعليم

اليهودى وحاولت تطبيق المشروع الذى طرحه ليفينسون فى كتابه . ولتحقيق هذا الهدف ، استدعى التربوى الالمانى اليهودى ماكس ليلينتال (١٨١٥ ـ ١٨٨٢) حتى يمكنه ان يقرب فكرة التعليم العلمانى ليهود روسيا وليؤكد لهم حسن نية الحكومة . وكان ليلينتال يعمل مدرسا فى احدى المدارس التى اسسها دعاة التنوير اليهود فى ريجا ، فقام برحلة استطلاعية ولكنه قوبل بعداوة شديدة من الجماهير اليهودية التى سمته « بالحليق » (أى الذى حلق لحيته وسوالفه على عكس عادة الارثوذكس) . وقد كان كثير من دعاة التنوير اليهود يرون انه لايمكن تحديث الجماهير اليهودية بطرق ديمقراطية وانه لابد من استخدام شىء من القسر والارهاب وايدهم فى ذلك اعضاء البيروقراطية ، وقد أوصى ليلينتال باغلاق المدارس الدينية التقليدية (الحيدر) وبمنع المدرسين التقليديين (الميلاميديم) من التدريس وباستجلاب مدرسين من الخارج . وقد تم بالفعل تأسيس مدارس علمانية يهودية تم تمويلها بضريبة الشموع (شموع السبت) وقام بالتدريس فى هذه المدارس مسيحيون ويهود من دعاة التنوير واسست مجموعة من المدارس لتدريب حاخامات ومدرسين يهود ، وكانت هذه المدارس هى الاطار الذى تم فيه تدريب وتعليم اعداد كبيرة من دعاة التنوير المتحدثين بالروسية والذين لعبوا دورا مهما فى الحركات الاندماجية والثورية والعلمية .

وقد تبع ذلك إلغاء القهال عام ١٨٤٤ وأبقى على اطار تنظيمى ادارى عام واستمر المسئولون عن التجنيد وجامعو الضرائب فى اداء عملهم . وابتداء من عام ١٨٥١ بدأت

الحكومة الروسية تنهج النهج الألماني فى تقسيم اليهود الى يهود نافعين وغير نافعين ، والفريق الأول ويضم كبار التجار والحرفيين والمزارعين كانوا يتمتعون بمعظم حقوق المواطن الروسى . اما الفريق الثانى الذى كان يضم بقية اليهود من صغار التجار واعضاء الطبقات الفقيرة فالأمر كان مختلفا بالنسبة لهم ، اذ كان عليهم اداء الخدمة العسكرية ليكون بوسعهم ان يتعلموا بعض المهن النافعة فان تعلموها صنفوا على انهم من النافعين واعفوا من الخدمة العسكرية . وقد نجحت هذه السياسة بشكل محدد اذ قامت ١٤ مستوطنة زراعية فى خرسون وعدد مساو فى ايكاترينوسلاف و٤٥ مستوطنة فى كييف ، وعدة مستوطنات فى بيساربيا ، وبلغ عدد سكانها ٦٥ الف يهودى . وقد زار فى هذه الفترة السير موسى مونتفيورى - الثرى الانجليزى اليهودى - روسيا كجزء من محاولة الحكومة القيصرية ان توسط يهود الغرب المندمجين فى اقناع يهود روسيا بتقبل عمليات الدمج والتحديث والترويس . ولكن يمكن القول ان هذه العمليات لم تحقق كثيرا من النجاح .

وقد تغيرت الصورة السياسية والاقتصادية فى روسيا القيصرية مع اعتلاء الاسكندر الثانى (١٨٥٥ - ١٨٨١) للعرش إذ تميز حكمه بأن حركة التحديث فى روسيا خطت خطوات واسعة واتخذت شكلا ليبرالياً (فى أعقاب هزيمة روسيا فى حرب القرم) . فعلى سبيل المثال تم تحديث النظام القضائى (١٨٦٤) ، ونظام البلديات (١٨٧٠) ، ونظام التجنيد ، بل وبدأ الحديث عن قيام حكومة دستورية . ولعل اهم القرارات هو قرار الغاء نظام الاقنان عام ١٨٦١ الذي تم

نزولا على ضغوط من النبلاء الاقطاعيين الذين بدأت تظهر بينهم تطلعات نحو الانتقال إلى صفوف البورجوازية الكبيرة سواء من خلال اقامة المزارع الحديثة ورسملة الزراعة أو التوجه للعمل فى المجالات التجارية والصناعية .

ويشكل هذا القرار أخطر منعطف فى تاريخ المجتمع الروسى إذ شهدت الفترة زيادة معدلات التصنيع والتحديث بشكل كبير ، فمدت السكك الحديدية وفتحت فرص الحراك الاجتماعى أمام الكثيرين . ولكن بدأت أيضا بذور ازمة النظام القيصرى ، فالدولة الروسية حررت الاقنان ولم توفر لهم أرضا ، وبدأت القرى تقذف بالملايين الى المدن ليعيشوا تحت ظروف اقتصادية أشد واقسى مما كانت عليه فى عهد الاقطاع ، فلم تكن هناك اية مؤسسات وسيطة (الأسرة او الكنيسة) لتحميها وتوفر لها شيئا من الطمأنينة النفسية (الحقيقية أو الوهمية) . كما أنهم كانوا يتقاضون اجورا منخفضة لاتفى بحاجات المدينة تؤدى فى الوقت ذاته الى التراكم السريع الرأسمالى الذى كان يؤدى بدوره إلى تصاعد عملية التحديث وازدياد افقار الجماهير وانتشار الحركات الثورية وزيادة الأوتوقراطية من جانب النظام السياسى ، وهى الحلقة المفرغة التى ادت فى نهاية الأمر إلى الثورة البلشفية .

وقد تفتحت فرص الحراك الاجتماعى والاقتصادى أمام افراد الجماعة اليهودية وغيرهم من القطاعات والاقليات فى المجتمع . وربطت الحكومة عملية عتق اليهود بمدى تحولهم إلى عنصر نافع . ولتشجيع أفراد الجماعة على تقبل التحديث

والترويس وُسّع نطاق حقوق اليهود « النافعين » مثل حق السكن فى روسيا بأكملها خارج منطقة الاستيطان بالنسبة للتجار الأثرياء (تجار من الدرجة الأولى) (١٨٥٩) ، وخريجي الجامعة (١٨٦١) والحرفيين (١٨٦٥) والجنود اليهود المسرحين (١٨٦٧) . ومن الأشياء المؤسفة أن العاهرات كن يعتبرن « نافعات » مما شجع كثيرا من الفتيات اليهوديات داخل منطقة الاستيطان على امتهان البغاء كوسيلة للحراك الاجتماعى والجغرافى (إلى أن تحولت هذه المنطقة إلى واحدة من أكبر المصادر للبغايا فى العالم بأسره من عام ١٨٨١ ـ حتى عام ١٩٣٥) وصرح ليهود منطقة الاستيطان بالسكن فى كل بولندا (١٨١٨) ، وأصبح من حق كل من يعمل بمهنة الطب السكن فى أى مكان (١٨٧٩) . ووسّع نطاق منطقة الاستيطان ذاته فأبطل العمل بالقانون الذى يحظر على اليهود السكن فى منطقة مساحتها ٥٠ فرسخا على الحدود .

وفى عام ١٨٥٦ الغيت القوانين الخاصة بتجنيد اليهود والعقوبات الخاصة التى كانت توقع عليهم ، وتم مساواتهم ببقية الشعب الروسى . وفى عام ١٨٤٧ اعتمد نظام التجنيد الاجبارى العام لمدة اربع سنوات ولم يعد مقصورا على الفقراء ، وانضم آلاف الشباب اليهودى إلى الجيش ومنحوا حقوقا ومزايا عديدة ، كما خفضت مدة خدمة المجندين الذين انهوا دراستهم من اربع سنوات إلى سنة واحدة . وفى حقل التعليم ، بعد فشل تجربة اوفاروف ، أغلقت المدارس اليهودية الحكومية عام ١٨٧٣ ، ماغدا مائة مدرسة ، وفتحت المدارس الحكومية العادية أمام أفراد الجماعة ، واعتبرت هذه الطريقة

هى الطريقة المثلى لعملية الترويس . وأخذ عدد اليهود الذين التحقوا بهذه المدارس فى التزايد ، كما فتحت الجامعات ابوابها لهم فزاد عدد الطلبة اليهود فى الجامعات بين عامى ١٨٥٣ و١٨٧٢ من ١,٢٥٪ من مجموع الطلبة الى ١٣,٢٪ . وظهر فكر حركة التنوير الذى كان من اقطابه ابراهام مابو ويهودا ليب جوردون وكانوا معارضين لليديشية فى البداية (على النمط الألمانى) إلا أن بعضهم تبناها كلغة قومية (لادينية) وظهر أدب يديشى من أعلامه منديل موخير سفاريم وغيره . وظهرت مطبوعات يهودية بالعبرية واليديشية والروسية وتركت الثقافة اليهودية الروسية العلمانية الجديدة أعمق الأثر على اليهود حتى وصلت إلى المدارس الدينية ذاتها .

وقد نشأ إحساس عام لدى اليهود بأن الحكومة تأخذ مسألة الدمج بشكل جدى ومعقول ، فاشترك اليهود فى الحياة الروسية العامة وظهر من بينهم عازفون موسيقيون ونشأت طبقة من التجار الأثرياء والمثقفين الداعين للدمج والترويس أسست جمعية تنمية الثقافة (الروسية) بين يهود روسيا (١٨١٣) . وقام كبار الممولين اليهود ببناء الطرق والقلاع والسكك الحديدية وبتزويد الجيش بالتموين والغذاء . وامتلكوا المناجم وصناعات الطعام والنسيج وتصدير الأخشاب وساهموا فى تأسيس المصارف الجديدة (وكانت هذه الطبقة تتركز فى سانت بطرسبرج وموسكو واوديسا ووارسو) . وكان من أقطابها اسرة جونزبرج وبولياكوف الذين اعتبروا أنفسهم قيادة الجماعة اليهودية . وقد ارتبطت هذه الطبقة بالمثقفين اليهود الروس من المشتغلين بالمهن

الحرة ومحررى الصحف والعلماء والكتاب ، وكانت ثقافة هذه الطبقة والشرائح المحيطة بها روسية تماما . ويلاحظ أن عددا كبيرا من الشباب اليهودى فى هذه المرحلة بدأوا يعملون كضباط فى الجيش الروسى .

وقد ساهمت هذه الجيوب الحديثة فى عملية تحديث بقية يهود روسيا فقد كانوا يرفضون الحديث باليديشية وكانوا يتعاونون مع الحكومة فى عملية التحديث ، ويساهمون فى نشر الثقافة الروسية بين اليهود . ومع هذا ونظرا لوضعهم الطبقي المتميز كانوا منعزلين عن بقية الجماهير اليهودية التى كانت تدفع وحدها ثمن التحديث ويجنون هم ثمراته .

ومما ساعد على ازدهار اليهود داخل منطقة الاستيطان أنه لم تحدث أى حروب فى هذه المنطقة فى الفترة من ١٨١٢ ـ ١٩١٤ ، كما أن وجود يهود روسيا داخل إمبراطورية واحدة سهل عملية الحركة بين الجماعات المختلفة وأكد تماسك الجماعة اليهودية . وقد تزايد عدد يهود روسيا بسرعة تفوق معدل زيادة السكان ، ففى عام ١٨٢٥ بلغ عددهم ١,٦٠٠,٠٠٠ (أى ٣٪ من كل سكان الإمبراطورية و١٢٪ من سكان المناطق التى تواجدوا فيها) وفى عام ١٨٥٠ بلغ عددهم ٢,٣٥٠ مليون . وفى عام ١٨٨٠ بلغ عددهم اربعة ملايين أى أن عددهم قد زاد حوالى ١٥٠٪ خلال حوالى ٥٠ عاما .

ولكن محاولات الدمج لم يقدر لها النجاح لأسباب عدة من أهمها مايلى :

١ ـ خلق الانفجار السكانى آنف الذكر فائضا بشريا

ضخما لم يكن من الممكن توفير فرص العمل والتعليم الكافية له . كما أن الانفجار السكاني كان يخلق تجمعات يهودية كثيفة يتعامل من خلالها أفراد الجماعة مع بعضهم البعض دون حاجة للعالم الخارجي الأمر الذى كان يقلل معدلات الاندماج .

٢ - كما يلاحظ أن عملية التحديث ذاتها كان لها جوانب سلبية عديدة ، فحظر الاتجار فى الخمور على اليهود كان يهدف إلى تقليل الاحتكاك بين اليهود والفلاحين ، ولكنه مع هذا حرم آلاف اليهود من مصادر الدخل الوحيدة المتاحة لهم ، فقد كان منهم الصناع والموزعون والتجار . كما أن إنشاء السكك الحديد (التى مولها كبار الرأسماليين اليهود كما تقدم) قضت على مصادر الدخل الأساسية لآلاف اليهود الذين كانوا يعملون فى صناعة وتجارة العربات التى تجرها الخيول .

٣ - ومما عقد الأمور أن عملية عتق اليهود تزامنت مع عتق الأقنان ، مما جعل رقعة الأرض المتاحة للزراعة ضيقة للغاية خاصة وأن التاجر والمرابى اليهودى لم يكن من السهل تحويله إلى مزارع . وادى عتق الاقنان ايضا الى وجود عمالة رخيصة فى السوق الأمر الذى أدى إلى طرد اليهود من كثير من وظائفهم التقليدية وإلى انحدارهم إلى مستوى الطبقة العاملة وتحولهم الى عمال (مع ملاحظة أن مستوى اليهود المعيشى حتى فى أكثر أيامهم فاقة وفقرا كان أعلى بكثير من مستوى القن الروسى أو القن البولندى) .

٤ - كلما كانت تزداد معدلات التحديث كانت عملية التكيف

مع الاقتصاد الجديد تزداد صعوبة ، الأمر الذى كان يزيد من ضحايا التقدم - ففى مرحلة ما قبل ١٨٨٠ خففت من آلام الانتقال إلى النمط الرأسمالى فى الانتاج ان هذا النمط فى مراحله الأولى كان يحتفظ بأشكال انتاج بسيطة (غير متقدمة) مما أتاح لعدد من اليهود أن يجدوا مجالا رحبا للعمل فى التجارة فى المدن الصناعية الجديدة وفى الحرف .

غير أن النمو الرأسمالى لم يتوقف عند هذه المرحلة بل اتسعت رقعة الصناعة لتشمل الصناعة الخفيفة أيضا ، فكان ذلك بمثابة ضربات قاضية دمرت الاقتصاد الاقطاعى ودمرت معه الفروع الرأسمالية الحرفية ، حيث كان اليهود يتركزون بنسبة مرتفعة ، ومن ثم تشابكت عملية تحويل التاجر اليهودى فيما قبل الرأسمالية إلى عامل حرفى أو تاجر رأسمالى مع عملية أخرى وهى القضاء على عمل اليهودى الحرفى . وحيثما كان يتحول اليهودى إلى عامل فإنه كان يواجه منافسة الفلاحين الروس المقتلعين الذين كانوا يقنعون بأجور منخفضة بسبب اسلوب حياتهم البسيط .

ومما زاد الأمور تشابكا وتعقدا أن الحرفى اليهودى كان يعمل فيما يمكن تسميته « بالحرف اليهودية » التى ولدت فى الظروف الخاصة بالمدينة اليهودية (الشتتل) . فالحرفى اليهودى لم يكن يعمل من أجل الفلاحين المنتجين بل من أجل التجار والصيارفة والوسطاء ، ولذلك نجد أن انتاج السلع الاستهلاكية هو الشاغل الرئيسى للحرفى اليهودى ، لكون زبائنه يتألفون من رجال متخصصين بتجارة الأموال والبضائع ، أى غير منتجين أساسا ، أما الحرفى غير

اليهودى فان ارتباطه بالاقتصاد الزراعى جعله لاينتج سلعا استهلاكية ، لأن الفلاح كان يكفى نفسه بنفسه ، وهكذا إلى جانب الفلاح كنا نجد الحرفى غير اليهودى (الحداد) وإلى جانب رجال المال اليهودى كنا نجد الحرفى اليهودى (الخياط) . وقد ساعد على تطور الحرفى غير اليهودى ارتباطه بالتاجر المسيحى الذى كان يوظف أمواله فى حرف متخصصة غير مرتبطة بالنظام الاقطاعى مثل نسيج الأصواف ، وهى حرف كان الغرض منها الانتاج للتصدير وليس للاستهلاك المباشر ، أى أنها حرف كانت تقع خارج نطاق النظام الاقطاعى وتمثل نواة الاقتصاد الجديد ، وبالتالى لم تسقط مع الاقتصاد القديم . وقد انعكس هذا الوضع على أعضاء الطبقة العاملة من اليهود ، فالحرف الأقل قابلية للتطور إلى صناعة كانت محصورة فى أيدى الحرفيين اليهود . على حين انحصرت المهن الأكثر قابلية لهذا التطور فى ايدى الحرفيين غير اليهود .

٥ ـ وقد قويت شوكة الطبقة الوسطى الروسية ، خاصة بعد تدفق رؤوس الأموال الأوربية الغربية على روسيا ، بحيث فتحت آفاقا جديدة أمامها ، وأصبحت قوة اقتصادية لها وزنها ، يمكنها التفاهم مع البيروقراطية الحكومية التى كانت تحابيها وتعطيها الأولوية والأفضلية . وقد تسبب كل هذا فى إضعاف الطبقة الوسطى اليهودية الروسية وصغار الممولين اليهود .

٦ ـ أدى القضاء على ثورة بولندا عام ١٨٦٣ إلى حرمان آلاف اليهود ممن كانوا يعملون فى نظام الأرندا كوكلاء للنبلاء البولنديين (الشلاختا) من وظائفهم .

٧ ـ وفى الحالات القليلة التي كان يحقق فيها بعض اعضاء الجماعة مكانة مرموقة أو حراكا اجتماعيا كانوا يصبحون محط الحقد الطبقى فى وقت كانت الضائقة الاجتماعية آخذة فى التزايد . ومن هنا اتهام اليهود بالسيطرة الاقتصادية واستغلال غير اليهود ومن هنا صورة اليهودى كرأسمالى جشع .

٨ ـ ولكن من المفارقات أيضا أن عددا كبيرا من اليهود سقطوا ضحية التقدم وتحولوا إلى أعضاء فى الطبقة العاملة الحضرية التى فقدت جذورها الثقافية ونمط حياتها وانتماءها الدينى ومصدر حياتها ، وقد بلغ الفقر درجة أن ثلث يهود روسيا كانوا يعيشون على معونات المنظمات اليهودية الغربية . وكل هذا يعنى أن الجماهير الفقيرة لم تكن مستفيدة تماما من عمليات التحديث ولم تكن ترى فيه حلا لمشاكلها الحضارية ، ولذا التفت قطاعات كبيرة منهم (خاصة صغار التجار) حول القيادات الحسيدية التى منحتها شيئا من الطمأنينة فى عالم لم تكن تفهمه ، ويميد من تحت اقدامها .

٩ ـ أما بالنسبة للعمال اليهود الروس وللمثقفين العلمانيين فقد أدى تردى وضعهم إلى انخراطهم بمعدلات كبيرة فى صفوف الحركات الثورية خاصة وأن مستواهم الثقافى كما تقدم كان أعلى من مستوى الاقنان . ففى عام ١٨٩٩ كانت نسبة اليهود فى الحركات الثورية تبلغ ٢٤,٨٪ وأحيانا ٣٠٪ فى وقت كانت نسبتهم إلى عدد السكان ٤,١٪ .

١٠ ـ ويمكن أن نضيف بعض العناصر الثقافية التى أدت إلى فشل عملية التحديث من بينها انها كانت تتم رغم أنف

اليهود ، وقد بدأت هذه العملية بقضها وقضيضها من داخل المجتمع الروسى ، لا من داخل الجماعة اليهودية ، التى ظلت رافضة لها ولحركياتها . وقد لاقت مقاومة شديدة من جانب الجماهير اليهودية المختلفة التى رفضت ارسال اطفالها للمدارس الروسية العلمانية ، خاصة وأن عملية التحديث ، كما تقدم ، كانت تضيرها اقتصاديا فى كثير من الأحوال وتحولها إلى طبقة عاملة حضرية مفتقدة المعنى الذى كانت تجده فى وجودها التقليدى .

١١ - قامت الدولة الروسية الاستبدادية الملتصقة بالكنيسة الأرثوذكسية المتعصبة ، بالاشراف على عملية التحديث ، وقام بتنفيذها بيروقراطية روسية ضيقة الأفق ، مرتشية ، ليس لها خبرة كبيرة باليهود وبأمورهم فامبراطورية القياصرة كانت تحظر على اليهود دخولها ، وكانت عملية التحديث تتم داخل اطار فكرة القومية السلافية (الروسية) التى كانت تصدر عن منطلقات عضوية ضيقة تفترض التفاوت بين الناس وأن السلافية (أو الروسية) خاصية لا يكتسبها المرء وانما يولد بها (على عكس فكرة القومية الليبرالية فى بلاد غرب أوروبا) . وقد تمت عملية التحديث هذه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الذى شهد انتكاسة الفكر الليبرالى فى أوروبا بشكل عام وظهور الفكر السياسى الرجعى بشكله الرومانسى .

وقد نجم عن ذلك تصاعد معاداة اليهود الذين اصبحوا بؤرة تصب فيها احقاد ضحايا التحديث من راسماليين روس يخافون منافسة الرأسماليين اليهود إلى طبقة عاملة روسية

يرى أعضاؤها « الرأسمالية اليهودية » واقفة ضدهم ، اما اليهود من ابناء الطبقة العاملة فقد وجدوا أنفسهم فى عزلة عن الطبقة العاملة الروسية . وكان أعضاء النخبة الروسية الثقافية ينقسمون الى قسمين : ثوريين يرون الانعزالية اليهودية كشكل من اشكال الرجعية المعادية للثورة ومحافظين (من بنيهم دوستويفسكى) يرون اليهودى رمزا لاقتحام الغرب والافكار الغربية لامهم روسيا السلافية . ووجد اليهود أنفسهم فى مجابهة كنيسة ارثوذكسية تخشى العلمانية التى كان اليهود اهم دعاتها كما تخشاهم باعتبارهم اعداء المسيح ، وحكومة روسية رجعية وجدت أن الثوريين الروس فى كل مكان يضمون أعدادا متزايدة من اليهود ، وظهرت كتابات معادية لليهود من اهمها كتاب جيكوب برفمان (يهودى متنصر) اسمه كتاب القهال (١٨٦٩) وظهرت فكرة الحكومة اليهودية العالمية ومنشورات اخرى عن التلمود وتهمة الدم (أى إتهام اليهود بأنهم يذبحون طفلا مسيحيا ويخبزون فطير عيد الفصح بدمه) . وعلى الرغم من أن هذه الأفكار ظلت على السطح دون تأثير قوى إلا أنها بدأت تؤثر فى تفكير اعضاء البيروقراطية ثم اخذت شكل مذبحة ضد اليهود فى اوديسا ١٨٧١ ، ووجهت تهمة دم عام ١٨٧٨ (ولكن المتهم برىء بعد محاكمته) .

ويجب أن نبين أن الجماعة اليهودية لم تكن وحدها هى المستهدفة وإنما كانت عنصرا واحدا فى بانوراما اجتماعية اقتصادية ، فقد بدأ المناخ العام فى روسيا يتغير ومع تصاعد عملية التحديث (وتعثرها) ، زاد ضحايا التقدم وزادت معها الهجمات على كل الغرباء من أعضاء "الاقليات سواء من

الأرمن أو المسلمين أو اليهود أو حتى المسيحيين من غير الارثوذكس والاوكرانيين . فالتحولات الاقتصادية كانت ذات طابع بنيوى عميق ، لم يواكبها أى تحديث فى الأشكال السياسية للمجتمع . ومن الواضح أنه مع نهاية السبعينيات من القرن الماضى كان المجتمع الروسى قد وصل الى طريق مسدود لم يكن من الممكن له تجاوزه ولم يكن من الممكن استئناف التحديث إلا عن طريق ثورة اجتماعية .

ولعل أكبر دليل على تعثر محاولات الدمج والتحديث انه على الرغم من تصاعد معدلات التحديث الاقتصادى ، كان الهرم الوظيفى لأفراد الجماعة لايزال دون تغير كبير إذ كان ٣٨٪ من أفراد الجماعة يعملون بالتجارة و٣٥٪ يعملون بالحرف (اليهودية) والصناعات المرتبطة بها و٣٪ فقط يعملون بالزراعة ، ولذلك كانت عملية اغتيال القيصر الاسكندر الثانى عام ١٨٨١ - على يد مجموعة من الشباب الروسى الثورى من بينهم يهودية ملحدة - تعبيرا عن المشاكل البنيوية العميقة التى يواجهها المجتمع الروسى ، خاصة مشكلة التناقض بين البنية الاقتصادية المتطورة والأشكال السياسية والاجتماعية المتحجرة ، فشكلت لجنة لاعادة النظر فى المسألة اليهودية ، أعلنت فشل السياسة التسامحية ، أى فشل عملية التحديث القيصرية .

لم تقدم الحكومة القيصرية أية صيغ عقائدية تساهم فى تقليل آلام الانتقال وفى توسيع نطاق المشاركة فى تسيير دفة الحكم . بل إنه مع اعتلاء الاسكندر الثالث الحكم (١٨٨١ - ١٨٩٤) ازداد التشدد والاوتوقراطية خاصة تحت تأثير

بوبيدونستسيف الذى كان يرفض المثل الديمقراطية تماما ، وقد تلقى القيصر نفسه تعليما دينيا تقليديا، كما ظهر عديد من المفكرين الرجعيين مثل كاتكوف وليونتييف الذين طالبوا بضرورة وضع حدود صارمة على الشعب الروسى وضرورة الحد من حرياته من جديد ، فقد نمت روسيا وتطورت ـ فى رأيهم ـ مع نمو التفاوت بين الطبقات فى المجتمع الروسى ، ومع تأسيس نظام الاقنان وتطور الوظائف التى تشغل بالوراثة . وسيطرت تلك الروح الرجعية على جميع مجالات الحياة فى روسيا ووصل أثرها لحياة كل الفئات والطبقات والطوائف ، فأعيدت التشريعات التى تحدد التعليم على أساس طبقى ، واصبح من العسير على أبناء الطبقات الفقيرة أن يلتحقوا بالمدارس . وفى منشور صادر من وزارة التربية معروف باسم منشور « أبناء الطباخين » جاء انه من الواجب عدم قبول ابناء « قائدى العربات والخدم والطباخين واصحاب الحوانيت الصغيرة والغسالات ومن شابههم » . كما زيدت مصاريف الجامعات حتى تقلل من فرص الالتحاق بها امام الفقراء ، وألغى الفصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية فعين بدلا من القضاه فى الريف « رؤساء قرويون » عادة من طبقة النبلاء يقومون باصدار الاحكام وتنفيذها . وتم تقييد حرية الصحافة تماما ، وطورد اعضاء الطوائف المسيحية التى لاتدين بالارثوذكسية ، وفى كثير من الأحيان كانوا يمنعون تماما من اقامة شعائرهم ، بل وكان يتم خطف اطفالهم منهم . واتضحت السياسة القومية الرجعية فى القيود الشديدة التى فرضت على كل الجماعات غير الروسية ، السلافية منها وغير السلافية الموجودة على الحدود مثل البولنديين ، اذ فرض عليهم برنامج قاس للترويس . وقد

انتهى عصر القيصر بمجاعة وقعت عام ١٨٩١ زادت من بؤس . الجماهير .

ولم يكن أفراد الجماعة اليهودية سوى أحد القطاعات البشرية المنكوبة التى وقعت ضحية لعملية القمع الرجعية هذه ، فبدأ عهد الأسكندر الثالث بسلسلة من الهجمات على كثير من مراكز اليهود السكانية واستمرت حوالى ثلاثة أعوام وتأثر بها حوالى ٦٠ ألف يهودى . وقد وقعت الهجمات بعد أن قامت بعض الصحف الروسية الرسمية بشحن الجو ضدهم باعتبارهم مستغلى الفلاحين ، ثم تشكلت لجنة للتحقيق فى الحوادث فتوصلت الى أن نشاط اليهود الاقتصادى هو السبب فى هذه الهجمات ، ولكن لاحظت اللجنة أن سلوك الشرطة والجيش لم يكن فوق الشبهات . ثم شكلت لجنة أخرى لإعادة النظر فى المسألة اليهودية طرحت اقتراحات لاتختلف كثيرا عن اقتراحات وتوصيات اللجان السابقة ، وبناء عليه أصدر وزير الداخلية الكونت إجناتييف قوانين مايو (١٨٨٢) المؤقتة باعتبارها اجراءات استثنائية تنطبق على منطقة الأستيطان تهدف لحماية المواطنين الروس من اليهود باعتبارهم عنصرا اجنبيا غريبا . ولكن ظهرت صعوبات كثيرة عند تطبيق القوانين ، فشكلت لجنة أخرى عام ١٨٨٣ لمناقشتها واستمرت اللجنة الجديدة فى اجتماعاتها لمدة خمسة أعوام وأوصت عام ١٨٨٨ بضرورة رفع القيود عن اليهود وعتقهم ، ولكن البيروقراطية تجاهلت تلك التوصيات وقامت بعملية طرد اليهود من موسكو عام ١٨٩١ وبتحديد عددهم فى المدارس الثانوية والجامعات مما أدى الى سفر

أعداد متزايدة من الشباب اليهودى إلى الخارج حيث تمت عملية تسييسهم وتثويرهم .

ولم يتغير الوضع كثيرا فى حكم نيقولا الثانى (١٨٩٤ ـ ١٩١٨) آخر قياصرة آل رومانوف . وقد شهدت هذه المرحلة تصاعدا فى عملية التحديث والتصنيع لم يواكبها تحديث فى النظام . فشهد عام ١٨٩٢ تصاعدا فى تطور الصناعة الرأسمالية على مستوى لم يسبق له نظير وتضاعف أعضاء الطبقة العاملة . وقد زاد انتاج الفولاذ والبترول ثلاثة أضعاف ، وزاد طول السكك الحديدية من ٢٨ ألفا إلى ٤٩ ألف فرسخ . ورغم السياسة التى اتبعتها الحكومة والتى تهدف الى التقليل من فرص التعليم أمام الفقراء زاد عدد الطلبة فى المدارس وقلت نسبة الأمية ، ففى بلد كانت الأمية كاملة فيها تقريبا فى بداية القرن ، وصل عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة الى ٢٧,٨٪ عام ١٨٩٧ ، وزاد حجم الطبقة العاملة ، فكانت الألوف تهجر القرى وتنضم للطبقة الحضرية .

ولكن من أهم نتائج قوانين مايو أن تدفق يهود روسيا على العالم تزايد بشكل ملحوظ الأمر الذى طرح المسألة اليهودية على العالم الغربى ، وأعطى الفكر الصهيونى دفعة حقيقية ، فهرتزل مؤسس الحركة الصهيونية كان يهوديا مندمجا تماما لا يكترث باليهودية ، ولكن وصول يهود اليديشية (خاصة من جاليشيا) الى فيينا حيث كان يقيم جعله يشعر بالخطر ، فاهتدى إلى أن الصهيونية ستساهم فى تحويل سيل الهجرة

بعيدا عن موطنه النمسا ، حيث يتمتع بالمستوى المعيشى المرتفع والمكانة المرموقة .

فى عام ١٩٠٥ وصل النظام القيصرى إلى قمة أزمته ، وكرد فعل لذلك الوضع زادت النزعات القومية السلافية الروسية وزاد قمع الأقليات والشعوب التابعة ، خاصة غير السلافية ، فتم قمع الأوكرانيين والبولنديين والمسلمين (فى الامارات الإسلامية السابقة) وكذلك أفراد الجماعات اليهودية . ومن أشهر الأحداث التى شهدتها الفترة يوم الأحد الأسود فى ٩ يناير ١٩٠٥ حين قام ٢٠٠ ألف عامل (من الرجال والنساء والأطفال) ويقودهم الأب جابون بالسير إلى قصر الشتاء ليقدموا شكواهم « لأبيهم القيصر » . ولكن بدلا من أن يقابلهم انهالت عليهم رصاصات الحرس الملكى فحصدت حوالى سبعين منهم وجرحت ما يزيد على الألف .

واستمر الفوران فشهد أكتوبر ١٩٠٥ اضرابا عاما شل الحياة ، فاضطر القيصر إلى أن يمنح الحريات البرلمانية للشعب بعد هزيمة القوات الروسية على يد اليابان ، ولكنه ظل يماطل ويعدل فى القوانين الى أن تم تعديلها بحيث فقدت كثيرا من فعاليتها وظهرت جماعات ارهابية مثل جماعة المائة السود التي قامت باغتيال زعماء المعارضة وبالهجوم على تجمعات اليهود .

وقد بلغ النظام القيصرى نهايته مع ظهور راسبوتين عام ١٩١٣ ومع سيطرته على زوجة القيصر ثم على القيصر نفسه . وراسبوتين ، كما يقول آرون سيمانوفيتش ، سكرتيره اليهودى ، كان شخصية كاريزميه جاء من صفوف الفلاحين

وكان يتلذذ بإذلال أعضاء الطبقة الارستقراطية (خاصة النساء) ولا يعين منهم الا من يروق له أو من يدفع له الثمن . وقد أغتيل عام ١٩١٦ بعد أن قضى على كل العناصر التى كان بإمكانها أن تعالج الأزمة وتتصدى للعاصفة المقبلة .

وقد كان اليهود جزءا من هذه العملية الانقلابية ، فوقعت مذبحة كيشينيف عام ١٩٠٣ (يقال بتحريض من وزير الداخلية فون بليفيه ، وهو أمر غير مستبعد تماما ، فالحكومة القيصرية كانت تلجأ إلى مثل هذه الأساليب فى قمع معارضيها) ، وكانت مذبحة كيشينيف جزءا من سلسلة من الهجمات دبرت ضد أفراد الجماعة وغيرهم ، كما وجهت تهمة الدم الشهيرة لبيليس (١٩١١) ولكن العناصر الليبرالية دافعت عنه ، وتمت تبرئته تماما .

وحينما عقدت الانتخابات تم اختيار ١٢ مندوبا من اليهود فى الدوما (البرلمان) ، كما كان هناك عدد كبير من النواب الليبراليين الذين دافعوا عن حقوق اليهود . ولكن التشكيل السياسى الروسى ذاته كان محافظا ، وكانت أكبر الكتل السياسية داخل الدوما ـ اتحاد الشعب الروسى ـ معادية لليهود ، ولذا حين طرح اقتراح بخصوص الغاء منطقة الأستيطان أجل بحثه ، ثم حل الدوما ذاته فى العام نفسه ، وعدلت القوانين الانتخابية ذاتها بحيث تم القضاء تماما على العناصر الليبرالية فى الدوما الذى انتخب عام ١٩٠٧ .

كان تركيب اليهود الوظيفى فى نهاية القرن الماضى (احصاء ١٨٩٧) كما يلى : ٢١,٦٪ يشتغلون بالتجارة ، ٣٧,٩٠٪ يشتغلون بالحرف والصناعات اليدوية (نصفهم

يعمل بالخياطة) و٦٦,٦١٪ يشتغلون كخدم منازل وعمال يومية ، و٥٪ فى المهن الحرة والادارة ، و٣,٢٪ فى النقل مما يعنى أن عدد اليهود العاملين فى التجارة كان لايزال مرتفعا . وقد سيطر التجار اليهود على تجارة الحبوب داخل منطقة الاستيطان ، كما سيطروا على تجارة السكر والفرو والجلود والماشية ، ومختلف المنتجات الزراعية . وقد ارتفع بعض التجار اليهود الى مصاف كبار الرأسماليين كأصحاب المصارف والوظائف العامة ، واستثمر هؤلاء التجار فى المشاريع الصناعية ، غير أن هذه المشاريع اتسمت بالطابع الاستهلاكى كالنسيج والتبغ ودبغ الجلود والصابون والمطاط وأعمال التقطير وهى كلها بقايا نظام الأرندا البولندى . وكانت هذه المشاريع الصناعية داخل مناطق الاستيطان ، وكثيرا ما كان العمال اليهود ينظمون الاضرابات ضد الرأسماليين اليهود ، كما أنهم هم أنفسهم كانوا فى كثير من الأحيان يفضلون العمال غير اليهود بسبب أنخفاض أجورهم وبسبب عدم وجود ضغوط اجتماعية عليهم من قبل الجماعة اليهودية .

ومن الملاحظ أن تركيز اليهود فى مهن مثل التجارة والصناعة يعنى أنهم كانوا مركزين تماما فى المدن اذ لم يكن يشتغل منهم الا ١,٧٪ فى الزراعة ، وكان هناك ٥,٤٩٪ بدون وظيفة محددة ، وقد وصلت نسبة اليهود الذين يقطنون المدن الى ٨٠٪ .

تركت كل هذه التحولات أعمق الأثر على أفراد الجماعة واستجابوا لها استجابات متباينة حسب وضعهم الطبقى أو مدى استفادتهم من عملية التحول أو مدى تركزهم فى المدن

أو خارجها ، وأولى الاستجابات كانت الاستجابة الثورية اذ انخرط الشباب اليهودى فى صفوف الحركات الثورية بنسبة تفوق بمراحل نسبتهم الى عدد السكان .

ويلاحظ أن الشباب اليهودى كان من أكثر العناصر ثورية بسبب أن ثقافتهم التقليدية كان قد تم القضاء عليها إلى حد كبير ، كما تم اقتلاعهم من بيئتهم التقليدية وألقى بهم فى عالم حديث رموزه القومية مسيحية ، الأمر الذى زاد من غربتهم وحداثتهم ، وعلى عكس الشباب الروسى الذى كان يجد شيئا من الخصوصية ويمارس نوعا من التجذر من خلال القومية السلافية ذات البعد الأرثوذكسى القوى . وعلى الرغم من أن الشباب اليهودى كان قد فقد جذوره الثقافية الروسية ، إلا أنه لم يكن قد استقر بعد فى التقاليد الثقافية الروسية . ومما زاد من نسبة الثوريين فى صفوف اليهود تزايد معدلات التحديث الذى حول صغار التجار والحرفيين (الذين كانوا يتمتعون بمستوى ثقافى لا بأس به) الى بروليتاريا صناعية حضرية تشعر بالهبوط فى السلم الاجتماعى وتمارس احساسا بالاضطهاد الواقع عليها الأمر الذى حولها الى تربة خصبة للأفكار الثورية .

أما الاستجابة الثانية فهى الهجرة ، وقد شهدت هذه المرحلة هجرة على نطاق واسع لم يشهد اليهود مثلها من قبل اذ ترك روسيا فى الفترة من ١٨٨١ الى ١٩١٤ مليونى يهودى (٢,٧٥٠٠٠٠ من كل شرق أوربا) . وقد نتج عن ذلك تحسن نسبى فى مستوى المعيشة ، لأن المهاجرين كانوا يرسلون لأقاربهم وأسرهم بمعونات مالية كما أنه حل مشكلة الانفجار السكانى حلا مؤقتا .

وقد قامت مؤسسات يهودية خيرية في الغرب بالمساهمة في تسهيل عملية الهجرة ، فعرض البارون هيرش نقل ٣ ملايين يهودى الى الأرجنتين على أن تقوم بذلك شركة ايكا . ولقد بلغ عدد اليهود الناطقين باليديشية (وفق احصاء ١٨٩٧) ٥,٠٥٤,٣٠٠ ، وكان معظم اليهود مركزا في منطقة الاستيطان (٤,٨٩٩,٤٢٧) ويشكلون ١١,٦٪ من سكانها . ويلاحظ كذلك وجود ١٠٩,٥٠٠ يهودى غير ناطقين باليديشية من يهود الجبال ويهود جورجيا ويهود بخارى والكرمشاكي .

أما الاستجابة الثالثة ، فهى ظهور الصهيونية بين اليهود بشقيها الشرقى (الاستيطانى) والغربى (التوطينى) . ففى الشرق توقف الحراك الاجتماعى بالنسبة لبعض قطاعات البورجوازية الصغيرة المتعلمة وغيرها من القطاعات اليهودية الأمر الذى أدى إلى إحساسها بالاحباط وبعبث محاولة تحقيق نفسها اثنيا وطبقيا داخل التشكيل السياسى الروسى ، فبدأت فى التفكير فى أشكال أخرى مثل الهجرة إلى الولايات المتحدة (وهو النمط السائد) أو الاستيطان الصهيونى . وقد أدت الهجرة اليهودية (المكثفة) إلى غرب أوربا والولايات المتحدة إلى فزع قطاعات كبيرة من يهود الغرب ، فتبنوا الحل الصهيونى كوسيلة لاغاثة يهود الشرق ولتحويل طوفان الهجرة عن بلادهم أى أنهم تبنوا الصهيونية التوطينية .

ومن أهم الاستجابات الأخرى ظهور اتجاه قومية الدياسبورا (الجماعات) التى كان سيمون دوفنوف أهم مفكريها ، وقد تبنى حزب البوند ، الذى ظهر فى هذه المرحلة ، هذا الاتجاه الذى ينظر لأفراد الجماعة فى شرق

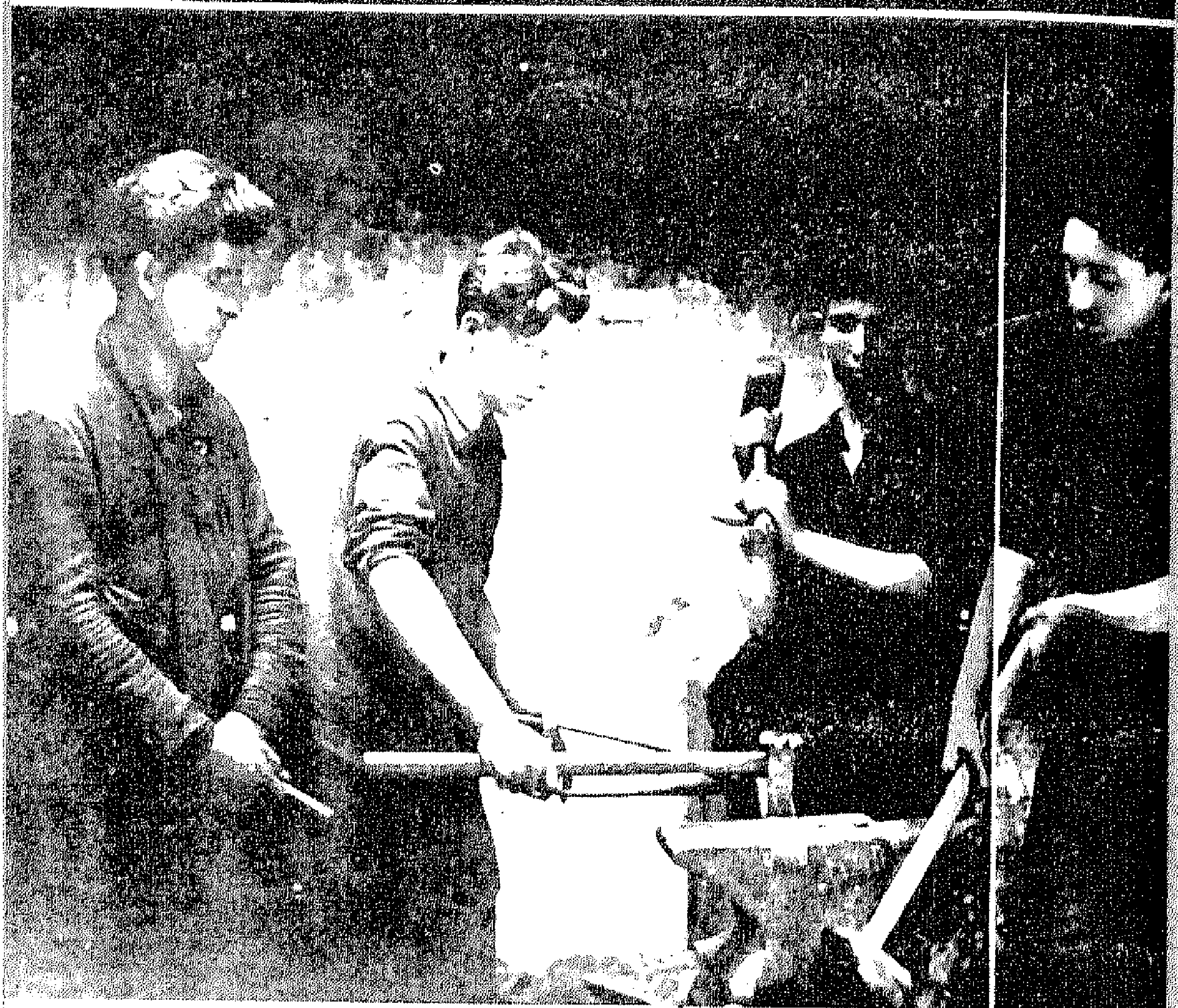
أوربا باعتبارهم قومية لا بالمعنى العالمى العام الذى يضم اليهود فى كل مكان وزمان وإنما بمعنى جماعة قومية شرق أوربية تتحدث اليديشية وتحدد هويتها على هذا الأساس الإثني لا على أى أساس دينى .

والاستجابات الواعية أو النظرية السابقة كان يتم طرحها بينما كانت عملية الدمج اليومية تتم على قدم وساق على مستوى كامن بنيوى ، على الرغم من تعثرها على المستوى الواضح الشكلى .

ولكن ما حدد تاريخ الجماعات اليهودية فى روسيا لم يكن الاستجابات المختلفة لأفراد الجماعات بقدر ما كان تحول ضخم فى تاريخ الأمة الروسية ، وهو الثورة البلشفية .

الفصل الثالث

الدولة السوفييتية والجماعات اليهودية



كان لاندلاع الثورة البلشفية أعمق الأثر على أفراد الجماعات اليهودية على عدة مستويات ، فبعد أن أخذت حدود الاتحاد السوفييتي شكلها النهائي عام ١٩٢٠ كان هذا يعني أن عدد يهود روسيا الذين كانوا يعيشون داخل مناطق تابعة لدول حصلت على استقلالها من روسيا (بولندا وليتوانيا ولاتفيا وايستونيا وبيساربيا التى ضمت إلى رومانيا) أصبحوا تابعين لهذه الدول . فلم يبق سوى ٢,٦٨٠,٠٠٠ يهودى داخل الاتحاد السوفييتي ، في مقابل ما يزيد على خمسة ملايين قبل الحرب ، كان ٨٠٪ منهم يعيش فى أوكرانيا وروسيا البيضاء . وقد تركز ٨٧٪ من كل اليهود فى المدن (وتركز ٤٠٪ منهم فى ست مدن على وجه التحديد) . وكان أفراد الجماعة يعملون أساسا بالتجارة . أما بالنسبة لتوزيعهم الجغرافى فيلاحظ أن أوكرانيا كانت تضم ١,٥٧٤,٤٧٨ (٥,٤٪ من عدد السكان) ، وروسيا البيضاء ٤٠٧,٤٢٨ (٨,٢٪ من مجموع السكان) ، والجمهوريات الآسيوية ١٠٩,٨٥ (٠,٤٠٪ من مجموع السكان) . وقد زاد عدد اليهود إلى ما يزيد على ٣ ملايين يهودى عشية الحرب العالمية الثانية .

وكانت من أولى الخطوات التى اتخذتها الحكومة البلشفية عتق اليهود واعطاءهم كل حقوقهم السياسية فأصبحت معاداة

اليهود جريمة تصل عقوبتها إلى الاعدام وحدد الانتماء العرقى على أساس اختيار المواطن ووفق ما يدلى به كل فرد باختياره المحض ، كما تم الاستناد فى تحديد الانتماء القومى أيضا إلى اللغة التى يدلى بها الفرد بأنها لغته القومية . ولكن الحكومة البلشفية مع هذا أهملت الجوانب الخاصة للمسألة اليهودية فى روسيا وقللت من شأن سماتها المحددة ربما بسبب رؤيتها الثورية الأممية . فلينين ومن بعده ستالين تأثرا بتجربة ماركس الألمانية وبطرحه العالمى للمسألة اليهودية الذى يرى أن ثمة ظاهرة يهودية عالمية واحدة ، وأن ثمة حلا واحدا وهو الثورة الاجتماعية ودمج اليهود ، ففى ألمانيا التى كان يعرفها ماركس لم يكن هناك كتلة بشرية يهودية ضخمة غير متجانسة ، تم كل الطبقات ، وإنما كانت هناك أقلية صغيرة معظم أفرادها من البورجوازية موزعون داخل دولة تسودها أغلبية متجانسة عرقيا ، ولذا كان الاندماج هو الحل الذى تبناه لينين والبلاشفة مع إدخال بعض التعديلات لينطبق على وضع مختلف تماما . فنادى بأنه لا أساس لوجود « أمة يهودية » مستقلة وأن « شعار الثقافة اليهودية هو شعار الحاخامات والبورجوازية ، شعار أعدائنا » . وطرح القضية فى الإطار الألمانى أو غرب الأوربى فوجد أن القضية هى قضية الانعزال والاندماج خاصة بعد تحقيق الثورة الاجتماعية ، وطرح ستالين تعريفه الشهير للأمة ، وقال إن اليهود أمة على ورق . ويلاحظ أن لينين وستالين استخدما اصطلاح أمة « بالمعنى العام للكلمة » تماما مثلما فعل ماركس . ولكن حيث أن التشكيل السياسى الروسى مختلف تماما عن التشكيل السياسى الألمانى وحيث أن وضع الجماعات اليهودية داخله كان متميزا ، فإن تاريخ السياسة

السوفييتية تجاه المسألة اليهودية فى روسيا هو تاريخ التناقض بين الرؤية الماركسية الأممية (الألمانية) والواقع الروسى الخاص .

ولعل أولى القضايا التى أفلتت من يد البلاشفة هى أن لفظة « يهودى » فى الاتحاد السوفييتى كانت تشير إلى عدة مجموعات حضارية ودينية واجتماعية علاقتها بعضها بالبعض واهية . فكانت لفظة « يهودى » تشير إلى :

١ - يهود روسيا الذين يتحدثون اليديشية فى المقام الأول ، وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى عمال وتجار صغار ورأسماليين كبار وفلاحين . ويلاحظ أن عمر الثقافة اليديشية كان قصيرا للغاية ، فلم يظهر الأدب اليديشى إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ولذا لم تثبت اليديشية كثيرا أمام تيارات التحديث وبدأت تظهر عليها أعراض الشيخوخة .

٢ - قطاعات من يهود روسيا تتحدث اليديشية ولكنها تكتب مؤلفاتها بالعبرية باعتبارها لغة العبادة فى الماضى واللغة القومية فى المستقبل ، وهؤلاء كانوا أساسا من الصهاينة الذين بدأوا يؤسسون أدبا مكتوبا بالعبرية .

٣ - اليهود الذين تم علمنتهم ودمجهم فى المجتمع الروسى ولا يتحدثون سوى الروسية .

٤ - يهود من أصل ألمانى يتحدثون الألمانية .

٥ - اليهود القراؤون (لايؤمنون بالتلمود) وكانت أعداد

كبيرة منهم تتحدث التركية والتترية إذ يبدو أن هؤلاء هم بقايا يهود الخزر .

٦ ـ يهود جورجيا ويتحدثون اللغة الجورجية وهم مندمجون تماما فى مجتمعهم ولا يمارسون كثيرا من شعائر اليهودية ، ولذا كان يشير لهم جيرانهم اليهود بأنهم « الكنعانيون » .

٧ ـ يهود الجبال ويعيشون فى مقاطعة داغستان السوفييتية يتحدثون لغة التات وهى مشتقة أساسا من اللغة الفارسية وهم مندمجون فى الحضارة الشركسية وتشبه معابدهم المساجد من الخارج .

٨ ـ يهود بخارى ويتحدثون الطاچيكية وهى لهجة فارسية ، وهم متأثرون تماما بالتشكيل الحضارى الاسلامى الذى عاشوا بين ظهرانيه . (انظر الصورة فى بداية الفصل) .

٩ ـ يهود الكرمشاكى الذين يتحدثون اللغة التترية وهى لغة تركية ويبدو أن هؤلاء أيضا من نسل يهود الخزر .

١٠ ـ وكانت لفظة يهودى بطبيعة الحال تشير أيضا إلى كل يهود العالم خاصة يهود ألمانيا وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة .

لهذا كان من الصعب بطبيعة الحال إطلاق لفظة « قومية » على كل هذه الجماعات اليهودية التى تتحدث بعدة لغات وتعيش داخل مناطق مختلفة وليس لها أرض مقصورة عليها ربما باستثناء يهود الجبال والمجموعات القبلية الصغيرة الأخرى ، لأنه من الناحية المنطقية المجردة إذا كانوا كلهم لا

يشكلون قومية واحدة ، فهم ليسوا بأمة على الاطلاق . ومع هذا كان من الممكن اعتبارهم جماعات يهودية مختلفة بعضها ليس له هوية اثنية خاصة (مثل يهود انجلترا وألمانيا) والبعض الآخر يتمتع بمثل هذه الهوية بدرجات متفاوتة من الاستقلال . وبدلا من التفكير فى اطار القومية العالمية أو الجماعة الواحدة كان من الممكن التفكير فى إطار الجماعات القومية وغير القومية داخل التشكيل السياسى الروسى ، وكان من الممكن طرح سياسات مختلفة تختلف باختلاف الأوضاع الثقافية للجماعات اليهودية المختلفة ، وهو مالم يفعله السوفييت فى بادىء الأمر ، وان كان الواقع قد فرض عليهم تعددية الحلول بعد أن ظلوا يتخبطون بين طرح القضية أولا فى إطار الاندماج والانعزال ، ثم فى إطار الهوية الثقافية اليهودية الشرق أوربية المستقلة داخل الإطار الاشتراكى .

شهدت الشهور الأولى للثورة اندلاع الحرب الأهلية فى عدة مناطق من أهمها منطقة أوكرانيا الحدودية التى كانت تحارب فيها عدة جيوش من بينها الجيش الأوكرانى القومى تحت قيادة بتليورا وعصابات الفلاحين التابعين له والجيش الأحمر الذى كان يضم وحدات أوكرانية وجيوش صغيرة وقوات آخرى . وقد لجأت القوات السوفييتية لاستخدام العنف ضد الفلاحين خاصة وأن سياسة مصادرة الحبوب أدت الى تمرد العناصر الفلاحية الأوكرانية التى رأت فى اليهود عناصر مقترنة بالنظام السوفييتى الجديد وبالسلطة الحاكمة فهاجمتها كما هاجمتها قوات بتليورا . وقد ادى كل هذا إلى التفاف اليهود حول الثورة (وقد حلت تنظيمات يهودية اشتراكية كثيرة نفسها وانضمت للثورة بينما تعاون الزعيم الصهيونى جابوتنسكى مع بتليورا وعصاباته) .

وانضم الشباب اليهودى فى أوكرانيا وغيرها من المناطق للجيش الأحمر الذى أسسه ليون تروتسكى وكان من قادته البازرين زينوفييف وسفيردلوف فى عام ١٩٢٦ . وكان عدد الضباط اليهود ٤,٤٪ من مجموع ضباط الجيش الأحمر ولعب اليهود دورا مهما فى اعادة بناء الهيكل الادارى للدولة الجديدة بعد أن هاجرت أعداد كبيرة من المثقفين والموظفين الروس البيض الى الخارج .

ولكن وعلى الرغم من عتق اليهود سياسيا فإن سياسة النظام السوفييتى الاقتصادية قد تسببت موضوعيا فى اقتلاع كثير من أفراد الجماعات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى وتغيير نمط حياتهم . فالثورة البلشفية ـ كما كانت تطلق على نفسها ـ ثورة عمال وفلاحين ، واليهود لم يكونوا لا عمالا ولا فلاحين ، وحتى أعضاء الطبقة العاملة من اليهود كانت نسبتهم صغيرة ولم يكونوا مرتبطين بالطبقة العاملة الروسية ارتباطا حضاريا ولا حتى اقتصاديا اذ تركزوا فى المصانع الصغيرة والحرف اليدوية وقطاعات معينة من الصناعات الاستهلاكية ، كما أن الظروف فرضت عليهم الارتباط الى حد كبير بالرأسماليين اليهود الصغار . أما بقية اليهود من اعضاء البورجوازية الصغيرة والكبيرة فهؤلاء اما يمتلكون صناعات استهلاكية او يضطلعون بدور الوسيط التجارى (فى المدن الصغيرة) .

وقد أدت الممارسات البلشفية الاقتصادية الى اكتساح الاساس الاقتصادى لوجود الكتلة البشرية اليهودية وتركزها فى مناطق معينة فانفرط عقدها وبدأت عملية ذوبانها

التدريجي وهي عملية استمرت حتى صفيت معظم التجمعات السكانية اليهودية داخل منطقة الاستيطان .

وقد شهدت مرحلة شيوعية الحرب (١٩١٨ ـ ١٩٢١) العديد من القرارات الاقتصادية ذات الطابع الثورى مثل تحويل أجور المستخدمين إلى أجور عينية وإجبار المزارعين على تسليم منتجاتهم من المواد الغذائية ، كما اتخذت قرارات أخرى كان لها تأثير مباشر على اليهود مثل تأميم الصناعة والتجارة وفرض العمل الاجبارى على البورجوازية .

ثم عدلت الحكومة السوفييتية مؤقتا عن سياسة شيوعية الحرب وتبنت السياسة الاقتصادية الجديدة المعروفة بالنيب NEP (١٩٢١ ـ ١٩٢٧) التى سمحت باشكال من الاستثمار الخاص والنشاط التجارى والمصانع الصغيرة وكان اليهود من كبار المستفيدين من هذه السياسة الجديدة . أما توزيعهم الوظيفى لعام ١٩٢٦ فكان كما يلى :

١٩,١٪ فى التجارة (كان ثلث المحلات فى موسكو عام ١٩٢٤ يملكها يهود) ، ٣٤,٣٪ فى الصناعة والحرف و٩,٢٪ فى الزراعة و١٠,٢٪ وظائف ادارية ومهنية . وعلى الرغم من أن عدد العاملين بالزراعة قد وصل الى ٩,٢٪ (بالقياس الى ٢,٦٪ حسب احصاء عام ١٨٩٧) فإن نسبة المشتغلين بالتجارة كانت مرتفعة . كما يلاحظ أن حوالى ٢٧٪ من العاملين اليهود كانوا غير مصنفين وظيفيا ويرجع ذلك إلى أن غالبية هؤلاء كانوا يمارسون التجارة والمضاربات سرا وتحت ستار أعمال أخرى .

أدى كل ذلك إلى ظهور طبقة رجال النيب فى المدينة (والكولاك فى القرية) مما كان يهدد الأساس الاقتصادى للنظام الجديد ، وعلى الرغم من أن التجارة كانت مهنة مشروعة فإن الدولة البلشفية الجديدة لم تكن سعيدة بهذا التطور ، اذ كانت تنظر بعين الشك لكل القطاعات الاقتصادية المستفيدة مثل رجال النيب .

ومع بدء تطبيق الخطة الخمسية الأولى (١٩٢٧ ١٩٣٢) تم التراجع عن هذه السياسة التى تشكل بداية عملية التذويب الحقيقية لأفراد الجماعة ، فحسب احصائيات العشرينيات كان ثلث اليهود الذين ينتمون لطبقات اقتصادية مثل طبقة صغار التجار محكوما عليها بالاختفاء نتيجة لاعادة صياغة الاقتصاد السوفييتي . ويقال إن حوالى ١,١٢٠,٠٠٠ يهودى اضطروا إلى إغلاق تجاراتهم الصغيرة فزاد عدد العاطلين عن العمل عن مليون نسمة إتجهت أعداد منهم إلى التعامل فى السوق السوداء .

وقد قرر الاتحاد السوفييتى حل مسألته اليهودية عن طريق عمليتين مختلفتين متناقضتين وان أدت كل واحدة منهما ، على طريقتها ، إلى دمج أعضاء الجماعة .

أما الأولى فهى سياسة توجيه اليهود نحو الزراعة والاستيطان الزراعى وهى استمرار لمحاولات الحكومة القيصرية تحويل اليهود لعنصر منتج . وأسست لجنة توطين اليهود فى الأراضى الزراعية (كومزيت) وتم اختيار بعض مراكز الاستيطان الزراعى السابقة حيث كان يوجد ٤٠ ألف فلاح يهودى (فى جنوب روسيا او روسيا الجديدة) .

واختيرت شبه جزيرة القرم حيث كانت توجد مناطق صالحة للاستيطان الزراعى . وقد ساهمت المنظمات الغربية الامريكية الاستيطانية مثل ايكا ولجنة التوزيع المشتركة فى هذه العملية ، فزاد عدد المزارعين اليهود زيادة هائلة ، وزادت الرقعة الزراعية التى يشغلونها أربعة أضعاف ، وبلغ عدد المزارع التعاونية اليهودية ٥٠٠ مزرعة حتى أواسط الثلاثينيات ، وهى الفترة التى وصلت فيها التجربة إلى قمة ازدهارها . ووصل عدد اليهود العاملين بالزراعة الى ١٥٥ الف مزارع يهودى عام ١٩٢٦ (٦٪ من العاملين اليهود) ثم زاد الى ٢٢٠ الف عام ١٩٢٨ (أى ٨,٥٪) ثم إلى حوالى ٣٠٠ الف فى اوائل الثلاثينيات اى حوالى ١٠,١٪ (ويلاحظ ان اضطلاع اليهود بالعمل فى الزراعة لايعنى بالضرورة العمل اليدوى وانما يعنى فى الواقع قطاع الزراعة ككل بما فى ذلك الاعمال الكتابية والادارية التى كان يتركز فيها أفراد الجماعة اليهودية) . ولكن بعد فترة توصل المسئولون السوفييت إلى أن شبه جزيرة القرم لاتوجد فيها أرض زراعية كافية كما ان التوطين الزراعى يؤدى الى زيادة التماسك العائلى مما يدعم من عملية الانفصال اليهودى ، ويقال أيضا إن القيادة السوفييتية وجدت ان شبه جزيرة القرم منطقة مهمة من الناحية الاستراتيجية تقع على مقربة من غرب اوروبا وقد يؤدى تركيز العنصر اليهودى فيها إلى خلق مشاكل ذات طابع أمنى فى المستقبل . وقد شهدت الثلاثينيات بداية عملية الزراعة الجماعية والتى كانت أيضا عملية تذويب ، اذ تم ضم عناصر غير يهودية الى الكولخوزات (المزارع الجماعية) اليهودية . وقد أدت كل العناصر السابقة الى القضاء على تجربة الزراعة اليهودية .

وفى عام ١٩٢٨ تقرر أن تكون بيروبيجان هى منطقة الاستيطان الزراعى اليهودى وإحدى وسائل دمج اليهود فى المجتمع السوفييتى على المستويين الاقتصادى والثقافي ، ولكن لم يقدر لهذه التجربة أى نجاح وأدى الغزو النازى إلى تدمير كل المستوطنات الزراعية فى اوكرانيا والقرم ولم يتم تشييدها بعد الحرب .

فشلت تجربة بيروبيجان ، كما فشلت محاولة توجيه اليهود من المدن والتجارة إلى قطاع الزراعة لابسبب طبيعة اليهود التجارية وانعزاليتهم (كما أدعى خروتشوف) وإنما بسبب التحول العميق فى الاقتصاد السوفييتى من الزراعة الى الصناعة وهى إحدى ثمرات مشروع السنوات الخمس الأولى (١٩٢١ - ١٩٣٤) وهى عملية متناقضة مع عملية التوطين الزراعى ، ولكنها مع هذا أدت إلى دمج اليهود وتذويبهم ربما بمعدلات أكثر من تلك التى خطط لها السوفييت ، ولأن مشروع السنوات الخمس أكد على أهمية التنمية الصناعية وخصص لها الاعتمادات الضخمة زاد الطلب على الأيدى العاملة وفتحت الفرص امام اليهود أن يتحولوا لعنصر منتج من خلال الصناعة . وقامت المنظمات اليهودية مثل ايكا وامرت (جمعية تشجيع الحرف اليدوية) ولجنة التوزيع المشتركة بفتح مدارس لتدريب اليهود على الحرف . كما قامت حكومات اوكرانيا وروسيا البيضاء بوضع خطط لتدريب الشباب اليهودى على الصناعة . ونجحت هذه الخطط فى توفير اعمال فى القطاع الصناعى والحكومي لالاف اليهود خارج منطقة الاستيطان ، ولم يكن هناك اى بطالة بين اليهود بحلول عام ١٩٣٠ ونشأت من صفوف اليهود طبقات جديدة من موظفى

الحكومة والعاملين فى المشاريع الصناعية . ونتيجة لهذه التحولات تزايدت هجرة اليهود الى داخل روسيا والى المدن ، وكانت هذه هى أكبر هجرة يهودية منذ التدفق اليهودى اليديشى الى امريكا فى نهاية القرن السابق . وقد أدت هذه الهجرة ، مثل الهجرة الى الولايات المتحدة ، إلى دمج اليهود واستيعابهم وحل المسألة اليهودية . ويظهر مدى راديكالية هذه العملية فى الزيادة الملحوظة فى عدد اليهود فى اكبر مدينتين روسيتين - موسكو ولنينجراد - اللتين كانتا تضمان ٢٦,٠٢٤ يهوديا وحسب عام ١٨٩٧ ، اصبح عدد اليهود فيهما بعد حوالى ٤٠ عاما ٥٧٥ ألفا .

وكل هذا يعنى فى واقع الأمر زيادة تحلل المراكز السكانية الضخمة اليهودية ، وتوزيع سكانها ، وكان ٧٦٪ من يهود روسيا فى أوكرانيا عام ١٩٢٦ انخفض الى ٦٢٪ عام ١٩٣٩ وهو اتجاه استمر حتى العصر الحديث ، وقد تغير وضع اليهود الوظيفى اذ اصبح عدد العمال ٣٠,٦٪ والحرفيين ١٠,١٪ والفلاحين فى الكولخوزات ٥,٨٪ و٤٠,٦٪ فى أعمال كتابية ، ٢,٩٪ وظائف أخرى (عام ١٩٣٩) . ويلاحظ ان الوظائف الكتابية حلت محل التجارة كأهم وظيفة يضطلع بها اليهود، وتضم الوظائف الكتابية فى الاتحاد السوفييتى المؤلفين والعلماء والمثقفين والموظفين الحكوميين ، وكان عدد اليهود العاملين فى تلك الوظائف ٣٦٤,٠٠٠ منهم ١٢٥ الف محاسب .

اما من الناحية الثقافية ، فقد كان الاتجاه العام نحو الدمج الثقافى أو تأكيد الثقافة اليديشية العلمانية اللادينية التى لاعلاقة لها بالثقافة الدينية التقليدية . وقد انشأت الحكومة

السوفييتية عام ١٩١٨ قسما خاصا للشئون اليهودية يسمى القسم اليهودى (يفيسكتسيا) (حل عام ١٩٣٠) . وحيث أن أعضاء الحزب اليهود كانوا من دعاة الاندماج فان هدف القسم اليهودى كان « فرض ديكتاتورية البروليتاريا بين الجماهير اليهودية » . وقد انضم لهم قطاعات من البوند وعمال صهيون وحزب العمال اليهودى المتحد الذين طالبوا بتشجيع اليديشية كوسيلة للتعبير عن ثقافة يهودية علمانية معادية للدين اليهودى وللعبرية وللتوراة (وقد قام القسم اليهودى بتصفية اطر تعليمية تقليدية متبقية بين اليهود من مدارس وخلافه ، ومنع تدريس العبرية وجرم النشاط الصهيونى) . وتم الاعتراف باليديشية كلغة رسمية وأصبحت إحدى اللغات المعترف بها فى المحاكم وتدار بها المحاكمات ، وشجع الادب اليديشى خاصة المسرح اليديشى وشهدت الفترة بشكل عام ازدهارا حقيقيا لهذا الأدب ، وأسست شبكة من المدارس الابتدائية والثانوية لغة التدريس فيها اليديشية ، وكليات تربوية لاعداد مدرسين لليديشية . وقد وصل عدد اليهود الذين التحقوا بهذه المدارس الى ٥١٪ من مجموع كل الطلاب اليهود عام ١٩٢٦ ، ولكن العدد بدأ فى الانخفاض التدريجى مما يبين أن الانصراف عن اليديشية وتقبل الترويس (وهى العملية التى بدأت فى حكم القياصرة) اصبحت عملية تلقائية تنبع من الحركيات الداخلية لأفراد الجماعة ، الذين كانوا يفضلون ارسال اطفالهم للمدارس الحكومية الروسية ، لأن ذلك كان يعنى زيادة فرص الحراك أمامهم . ولذا نجد أن أعداد الطلبة اليهود فى مدارس أوكرانيا وروسيا البيضاء أخذت فى التزايد ، واخذت الثقافة اليديشية فى الاختفاء التدريجى خاصة مع تغير وضع اليهود

الوظيفى وهجرتهم من مراكز التجمع التقليدية إلى المدن وابتعادهم عن مراكز الثقافة اليديشية أو التقليدية .

ولذا انصرف كثير من اليهود عن التحدث باليديشية أو دراستها وانصرف كثير من الكتاب اليهود الروس عن الكتابة بهذه اللغة وبدأوا يكتبون بالروسية . وتناقص عدد الطلبة اليهود الذين يدرسون في المدارس اليديشية الى ٣٣٪ عام ١٩٣١ ثم الى الي ٢٠٪ عام ١٩٣٩ ، واغلقت عدة مدارس يديشية ابوابها لعدم وجود طلبة . وعبر الاندماج عن نفسه فى زيادة نسبة الزواج المختلط فى الثلاثينيات الى ٢٥٪ من مجموع الزيجات اليهودية . ويلاحظ ان معدلات الاندماج بين الشباب كانت اعلى بكثير من مثيلتها بين المتقدمين فى السن . ويمكن القول إن العقيدة اليهودية لم تعد احد اشكال التضامن بين أفراد الجماعة الذين بدأت عملية علمنتهم فى منتصف القرن الماضى ثم تصاعدت مع نهاية القرن ، ثم أخذت شكلا عقائديا واعيا وحادا مع ظهور الدولة السوفييتية .

وقد بلغ عدد اليهود عام ١٩٣٢ حوالى ٢,٨٧٠,٠٠٠ بزيادة قليلة نسبيا عن عام ١٩٢٦ ، نتيجة تسارع تدفق اليهود نحو المدن وعدم توافر الزمن الكافى للاستقرار والزواج ، إضافة الى ماتحمله الحياة فى المدينة من تعقيدات حياتية تقلل من فرص الانجاب . وقد بلغت الزيادة الطبيعية بين اليهود ١٪ فى مدن روسيا بينما وصلت ٢,٥٪ فى الجمهوريات الاسيوية . وحسب إحصاء عام ١٩٣٩ ، بلغ عدد اليهود نحو ٣,٠٤٠.٠٠٠ أى بزيادة مقدارها ٣٠٠ ألف . وقد لاحظ سيمون دفنوف عام ١٩٣٥ (عشية الحرب العالمية

الثانية) أن أفراد الجماعة قد انفصلوا تماما عن تاريخهم ، وتنبأ بأنهم سيصبحون مواطنين سوفييت ، وليسوا يهودا ، الأمر الذى اثبتته التطورات التاريخية اللاحقة . ولم تترك حملة التطهير التى شنها ستالين بين عامي ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ ضد كوادر الحزب الشيوعى وقياداته ، والتى شملت العديد من أفراد الجماعة اليهودية مثل زينوفييف وكامينيف وراديك وغيرهم ، لم تترك أثرا ملحوظا على غالبية اليهود الذين كانوا ينظرون الى مايجرى بانه صراع بين ستالين ومعارضيه ، وبين الستالينية والترتسكية ، وهو الأمر الذى كان لايعنيهم كثيرا .

•

ضمت روسيا عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ أراضى تضم اعدادا كبيرة من اليهود (جاليشيا الشرقية وليتوانيا وبيساربيا وبوكوفينا وغيرها) . وقد رحبت الجماهير اليهودية بالضم السوفييتى إذ وجدت فيه حماية لها من الغزو النازى الوشيك . ولكن مع عام ١٩٤١ قامت القوات النازية بطرد الاتحاد السوفييتى ذاته من هذه المناطق ثم ضمتها لألمانيا ، فهرب ما يزيد على مليون يهودى منها وبذلت الحكومة السوفييتية مجهودا غير عادى لنقل اليهود وأعطت الأولوية لهذه العملية (وقد ساهم ذلك بدوره فى عملية اقتلاع اليهود من مناطق تجمعهم التقليدية) . أما بقية أفراد الجماعة فقد سقطوا فى يد النازى ـ حيث تم ابادتهم باعتبارهم « اوست يودين » (يهود شرق أوروبا) الذين يمثلون « القاعدة البيولوجية » للشعب اليهودى فى كل العالم . كما تمت ابادة أعضاء بعض الطوائف والأقليات الأخرى . وقد شهدت السنون التى تلت

الحرب مباشرة ، فترة الارهاب الستالينى ، الذى يقال إنه كان له نبرات عنصرية واضحة ومعادية لليهود .

ومع هذا يمكن القول إن عملية الدمج والترويس قد اصبحت حركياتها داخلية تنبع من داخل الجماعة ذاتها وليست مفروضة عليها من قبل الحكومة من الخارج ومن ثم أخذت فى التسارع واصبح الدمج اندماجا . ولايزال أعضاء الجماعة مركزين أساسا فى المدن الكبرى ، ويلاحظ أن عدد اليهود المشتغلين بالزراعة قد تناقض وحتى اولئك الذين يعملون فى الريف فمعظمهم يقوم بأعمال كتابية ، ويلعب أفراد الجماعة دورا متميزا فى المؤسسات التجارية السوفييتية ، كما يلاحظ أيضا أنه فى أواخر الخمسينيات بلغ عدد اليهود العاملين فى التجارة الحرة نصف مليون فرد (من مجموع عدد العاملين فى التجارة من عموم المواطنين السوفييت البالغ عددهم نحو خمسة ملايين) . وهكذا شكل التجار اليهود نسبة ٢٠٪ من كل العاملين بين أفراد الجماعة ونسبة ١٩٪ من مجموع التجار ، بينما لم تزد نسبة اليهود لعدد السكان عن ١٪ . وقد قامت الحكومة السوفييتية فى أوائل الستينيات بحملة ضد النشاطات الاقتصادية غير المشروعة ، وسنت قانونا بمعاقبة مرتكبى الجرائم الاقتصادية بالاعدام ، وتم تنفيذ العقوبة فى عدد من المتهمين بلغ عددهم حوالى ١١٢ تاجرا من تجار السوق السوداء ، كان نصفهم من اليهود .

وقد شهدت أواسط الخمسينيات والسنوات التى تلتها ارتفاعا بالغا فى عدد الطلاب اليهود فى المعاهد العليا

والجامعات مما نتج عنه زيادة عدد المشتغلين من اليهود بالمهن الحرة .

وبصفة عامة يتمتع يهود الاتحاد السوفييتي بأعلى مستوى تعليمى بالمقارنة بسائر القوميات السوفييتية . وتشير احصاءات تعداد عام ١٩٥٩ أن نسبة اليهود الحاصلين على ٧ سنوات من التعليم أو اكثر هى ٦١٢ لكل ١٠٠٠ وهى نسبة فاقت مثليتها بين القوميات الأخرى . كما نجد أن نسبة اليهود الحاصلين على تعليم عالى عام ١٩٥٩ كانت ١٧٩ لكل ١٠٠٠ شخص فوق ١٠ سنوات ، زادت الى ٢٣٩ عام ١٩٧٠ بالمقارنة لـ ٦٢ لكل ١٠٠٠ على مستوى اجمالى السكان السوفييت .

وقد شكل اليهود عام ٥٦ - ١٩٥٧ ٤,٢٪ من طلبة الجامعات والمعاهد العليا إلا أن هذه النسبة انخفضت الى ١,٢٪ عام ١٩٧٨ حيث شهدت فترة ٦٥ - ١٩٧٨ انخفاضا كبيرا فى أعداد الطلاب اليهود بنسبة ٤٦,٧٪ نتيجة الهجرة الى الخارج وارتفاع متوسط أعمار السكان اليهود وما ترتب عليه من تقلص فى حجم من هم فى السن الجامعى .

ويذكر أيضا أن عدد الطلاب اليهود فى الجامعات والمعاهد العليا السوفييتية جاوز فى أواخر الستينيات ١١٠ آلاف طالب (بينما لم يكن عدد الطلاب اليهود فى الجامعات والمعاهد العليا الاسرائيلية قد جاوز ٣٥ الفا رغم أن العدد الكلى لليهود السوفييت يقل عن عدد اليهود فى إسرائيل) .

ولايوجد اليهود كعمال سواء فى الصناعة او الاعمال الزراعية إلا بشكل هامشى يكاد لا يذكر ، حتى أن

الاحصائيات فى العقدين الاخيرين لاتورد أية احصائيات عن عدد اليهود فى المعامل والمصانع الثقيلة أو الزراعية .

ونجد أن ٣/٤ العاملين من اليهود حاصلين على تعليم عالى ويتجهون الى التمركز فى مهن معينة ، خاصة وأن بعض المهن مثل الجيش والأجهزة الأمنية والخارجية وغيرها مغلقة تقريبا أمامهم .

وقد كانت هناك نسبة عالية من اليهود فى القيادة العليا للجيش السوفييتى خلال الحرب العالمية الثانية إلا أنه خلال أعوام ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ تم تقاعد ٣٣٣ من القيادات العليا من اليهود ، ولم يتبق يهودى واحد عام ١٩٥٣ بين صفوف كبار الضباط .

وقد اتجه اليهود إلى التمركز فى المهن العلمية والحرة مثل الهندسة والطب والعلوم . ففى عام ١٩٦٢ من عام ١٩٦٤ شكل اليهود ١٤,٧٪ من اجمالى الأطباء فى الاتحاد السوفييتى و٨,٥٪ من اجمالى الكتاب والصحفيين و١٩٪ من الموسيقيين و١١٪ من العاملين فى مجالات البحث العلمى . وتدل هذه النسب على أن اليهود اصبحوا يتمتعون بأوضاع اقتصادية متميزة عن بقية شعوب الاتحاد السوفييتى وبشكل أدى الى منح أبناء الفئة التجارية بشكل خاص فرص دخول الجامعات والمعاهد العليا بدلا من أن تضطرهم الحاجة الاقتصادية للتوجه نحو العمل فى المعامل والمصانع ، كما تدل من جهة ثانية على تمتعهم بالمساواة التامة فى الحقوق ، وعلى أنه لم يتم فرض أى قيود للحد من ارتفاع نسبتهم فى الجامعات والمعاهد العليا .

أما في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات فقد انخفضت هذه النسبة حيث شكل اليهود ٤,٥٪ من العاملين في مجال البحث العلمي و٦٪ من الفن والثقافة والأدب والصحافة ، ٣,٤٪ في الطب و٦٪ في القانون و٧,٦٪ من اجمالي العلماء (الحاصلين على درجات علمية عليا) ؛ ونجد انه كلما زادت الدرجة والمرتبة العلمية كلما زادت نسبة اليهود .

وبالرغم من أن هذه النسب تعرضت للانخفاض فإنه لازال اليهود يشكلون نسبة عالية من المتخصصين في الاقتصاد القومي والعاملين في المجالات العلمية إلا أن هذه النسبة تتعرض للتدهور التدريجي وخاصة في مجال البحث العلمي الذي انخفضت نسبة اليهود العالمين فيه من ١٧٪ عام ١٩٤٧ الى ٤,٥٪ عام ١٩٨٢ .وأسباب هذا الانخفاض هو ارتفاع متوسط أعمار اليهود العاملين عن متوسط أعمار العاملين من السكان السوفييت ، واقتراب الكثير منهم من سن التقاعد وانخفاض أعداد طلبة الجامعة من اليهود الذين يشكلون المصدر الرئيسي لهذه الاختصاصات . وبالتالي يلعب اليهود دورا أقل في مجال العلوم والبحوث ويتركز غالبيتهم في المراكز ذات المكانة المتوسطة والدنيا .

أما نسبة اليهود في الحزب الشيوعي فقد شكلت في أوائل الستينيات إحدى أعلى نسب القوميات المختلفة في الحزب . فقد قدرت النسبة بنحو ٣,٥٪ عام ١٩٦١ ، وقد بلغت نسبتهم عام ١٩٨٢ نحو ١,٥٪ وذلك استنادا الى تقدير عدد الاعضاء اليهود بنحو ٢٦٠ ألفا وذلك من مجموع أعضاء الحزب البالغ

في ذلك الحين نحو ١٤ مليون عضوا . ويلاحظ ان دخل اليهودى السوفييتى اعلى من دخل المواطن الروسى .

يلاحظ ان عدد اليهود الكلى آخذ فى التناقص ولعل تركزهم فى المدن وفى المهن الحرة يفسر سر تناقصهم وذوبانهم (كما هو الحال فى الولايات المتحدة حيث تؤدى السمات نفسها الى النتائج نفسها) . واليهود هم « القومية » الوحيدة فى الاتحاد السوفييتى التى تناقص عددها ، فقد قدر عدد اليهود السوفييت بثلاثة ملايين عشية الحرب العالمية الثانية ، ونقص عددهم الى ٢,٢٦٨,٠٠٠ عام ١٩٥٩ (١,١٪ من السكان فى مقابل ٢,٥٪ عام ١٩٤٠) (على الرغم من ضم بضعة آلاف من المناطق التى ضمت من رومانيا وبولندا) . وقد اصبح يهود الاتحاد السوفييتى اقلية حضرية، اذ يوجد ٢,١٦١,٧٠٢ يهودى فى المدن ، ولايوجد سوى مائة ألف يهودى تقريبا فى الريف ، وبعضهم مندوبون للحزب ويعملون بالوظائف الكتابية الحسابية . وقد تناقص عدد أفراد الجماعة عام ١٩٧٠ إلى ٢,١٥١,٠٠٠ أى أقل من الاحصاء السابق بحوالى مائة ألف نسمة ، فإذا اضفنا إلى ذلك مجمل نسبة الزيادة الطبيعية لليهود وهى ٢٥٠ ألفا سيتضح أن نحو ٣٥٠ ألف يهودى قد ذابوا فى المجتمع خلال الستينيات . وحسب احصاء عام ١٩٧٩ بلغ عدد يهود الاتحاد السوفييتى ١,٨١٠,٨٧٦ أى ٦٩,٠٪ من مجموع السكان مما يعنى انه قد نقص عددهم ٣٤٠ ألفا ، هاجر منهم ١٧٧ ألفا (وفى احصائيات أخرى ٢٠٠ الى ٣٠٠ الف) أى انهم تناقصوا حوال ١٦٣ ألفا بفعل العناصر السكانية والاندماج . ويمكن أن نضم الزيادة الطبيعية المحتملة والتى يمكن أن نقدرها

على أنها حوالى ١٥٠ ألفا إلى ١٦٣ ألفا ، وهذا يعنى أنه قد ذاب حوالى ٣٠٠ ألف يهودى فى حوالى تسعة أعوام .

وفى عام ١٩٨٥ بلغ مجموع اليهود السوفييت ١,٦٠٠,٠٠٠ ثم هبط عددهم عام ١٩٨٩ إلى ١,٤٥٠,٠٠٠ أى أنهم تناقصوا حوالى ٤٠٠ ألف أو أكثر خلال عشرة أعوام . ويقال إن معدل تناقصهم السنوى هو ٣٠ ألف وإن كان حسب هذه الاحصائية يكون معدل التناقص هو ٤٠ ألف سنويا ، وهو تناقص طبيعي وليس من خلال الهجرة . ويقال إن عددهم سيصل إلى مابين ١,٢٠٠,٠٠٠ فى نهاية القرن وسيختفون تماما فى النصف الأول من القرن العشرين ، ولكن معدل الهجرة اليهودية الحالى قد يعجل باختفائهم قبل ذلك التاريخ .

والجماعة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى جماعة مسنة فتركيبها العمرى على النحو التالى :

العمر	١٩٥٩	١٩٧٠
صفر ـ ١٥	٣٠,٤٪	١١,٢٪ (فى مقابل ٣٥٪ من أعضاء القوميات الأخرى)
١٦ ـ ٤٩	٥١٪	٤٦٪
فوق ٥٠	١٨,٦٪	٤٢,٨٪

والتركيب العمرى يدل على أن المشكلة آخذة فى التفاقم وقد بلغ العمر الوسيط (أى الواقع فى الوسط) ٤٩ سنة عام ١٩٨٦ ، وقد اصبح ٥٠ عام ١٩٨٨ . وتذكر الموسوعة اليهودية ان حوالى ٢٦٪ من يهود الاتحاد السوفييتى فوق الستين فى مقابل ١٥٪ من أعضاء القوميات الأخرى . وتؤيد

الاحصائيات الخاصة بالمهاجرين السوفييت هذه الأرقام فـ١١٪ منهم فوق سن الـ ٦٥ . أما عدد اليهود السوفييت تحت سن الخمسين فهو ٨٠٤ ألف من بينهم ٧٠٠ ألف فقط من كاسبى الرزق . وعدد الاناث هو ٤٠٠ ألف ، وعدد القادرات منهن على الحمل (بين ٢٠ ـ ٤٠) هو ٢٤٠ ألف أنثى ، ونسبة المواليد هى بين ١,٦ الى ١,٨ طفل للأنثى الواحدة ، بل استقرت على ١,٦ فى آخر الاحصائيات . ويولد ١٤,٥٠٠ طفل سنويا منهم ١٠ آلاف لأبوين يهوديين ومن ثم يطلب منهم تسجيلهم يهودا (وإن كانوا لايفعلون ذلك بالضرورة) . ونسبة المواليد بين اليهود هى ٦,٧ فى الألف بالمقارنة ١٤,٧ لغير اليهود ، أما فى أوزبكستان فنسبة المواليد بين اليهود هى ١٩,٩ فى الألف بالمقارنة ٣٢,٧ لغير اليهود .

ولايزال الاتجاه العام نحو اختفاء المراكز السكانية القديمة مستمرا ، فعدد اليهود فى مناطق أوكرانيا وروسيا البيضاء عام ١٩٧٩ اصبح ٧٦٩ ألف يهودى فى مقابل مليون عام ١٩٥٩ .

اما بخصوص الوضع اللغوى لليهود فى الاتحاد السوفييتى فقد جاء أن اليديشية قد آلت الى الزوال تقريبا ، ولايتكلمها سوى الشيوخ من اليهود . وقد جاء فى الإحصاء الرسمى لعام ١٩٥٩ التوزيع اللغوى التالى لليهود السوفييت : ١,٧٣٣,٠٠٠ يتحدثون الروسية ، و٥٠٠,٩٣٦ يتحدثون اليديشية ، و٣٥,٦٧٣ يتحدثون الجورجية و٢,٠٦٣ يتحدثون الطاجيكية ، و٢٥,٢٢٥ يتحدثون التترية و٢٤,٢٧٥ يتحدثون الأوكرانية ، و٢٢,٥٧٠ يتحدثون لغات أخرى ، وقد شكلت

نسبة الناطقين باليديشية ١٧٪ فقط من مجموع اليهود ، وانخفضت هذه النسبة خلال الستينيات حيث أشار احصاء عام ١٩٧٠ إلى أن نحو ٨٦,٧٪ افادوا بأن لغتهم هى الروسية فيما توزع نحو ١٧,٧٪ بين مختلف اللغات الأخرى ، (هذا في مقابل ٩٧٪ افادوا أن لغتهم هى اليديشية قبل قيام الثورة) . ومعظم المتحدثين باليديشية من المتقدمين فى السن الذين يسكنون فى المناطق الغربية (ليتوانيا ولاتفيا ومولدافيا) التى كانت تضم كثافة سكانية يهودية فى الماضى .

وتشير المصادر إلى أن ظاهرة الزواج المختلط لاتزال منتشرة بين اليهود ، ومعظم هذه الزيجات قد تمثلت فى زواج الذكور اليهود من اناث غير يهوديات (ويدعم هذه النظرية عدد الزيجات المختلطة بين المهاجرين اليهود) . وقد تم الاستدلال من احصاء عام ١٩٥٩ الى أن واحدا من كل سبعة يهود متزوجين ، كان متزوجا من امرأة غير يهودية ، وبأن نحو ربع الرجال اليهود قد تزوجوا من نساء غير يهوديات بينما كانت نسبة النساء اليهوديات المتزوجات من رجال غير يهود اقل من ذلك بكثير . وقد تزايدت النسبة أخيرا ففى احصائيات عام ١٩٨٧ ظهر ان مابين ٤٠ ـ ٥٠٪ من كل الزيجات اليهودية مختلطة وتصل النسبة فى بعض المناطق الى ٨٠٪ . والأهم من هذا أن ٩٠٪ من أولاد المتزوجين زواجا مختلطا يعرفّون انفسهم بأنهم غير يهود .

أما بخصوص الوضع الدينى فيسمح القانون للمواطنين السوفييت بالتعبد ، وكل ٢٠ متعبد يمكن أن يكونوا جماعة

دينية تسمى دفاتساتكا ، وهى خاضعة لاشراف لجنة السوفييت المحلية ومجلس شئون العبادات الدينية ، وهى مخولة بتعيين وطرد أعضاء مجلس المعبد اليهودى . وكثيرا ماتغلق السلطات السوفييتية المعابد لأن عدد المتعبدين يقل عن عشرين . ولذا تنتشر جماعات المنيان (النصاب اللازم لاقامة الصلاة اليهودية) وهؤلاء يحق لهم التعبد بدون تسجيل ، شريطة أن تتلقى السلطات إعلاما بذلك قبل إقامة الصلاة . ويوجد حوالى ٦١ معبد يهودى وعدد صغير من الحاخامات ، ولايوجد حاخام أكبر ، ولاتوجد المواد اللازمة لاقامة بعض الشعائر . وعدد اليهود المتدينين ٦١ ألف حسب احصاء ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ أى ٣٪ من اليهود . وتؤيد الاحصائيات الخاصة بالمهاجرين السوفييت هذا العدد إذ أن ٣٪ فقط منهم أرسل بأبنائه لمدارس دينية .

وحتى تكتمل الصورة لابد وأن نشير إلى ظاهرة اليهود المتخفين وهم المواطنون السوفييت من أصل يهودى ولكنهم يخفون ذلك . وهؤلاء استفادوا من القانون السوفييتى الذى يعطى للمواطن الحق فى اختيار جنسيته فكثيرون اختاروا تسجيل انفسهم على انهم غير يهود . كما أن ٩٠٪ من أولاد الزيجات المختلطة ، كما أسلفنا ، يسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود . ويذهب جريجورى روز نتشاين الديموغرافى الاسرائيلى إلى أنه يوجد ٣,٥ مليون مواطن سوفييتى من سلالة يهودية لم يصنفوا على أنهم يهود . ويسميهم لاست أهارون اليهود المجهولين (وهى تسمية خاطئة فى تصورنا) ويقدر عدهم مابين ١,٣ و١,٥ مليون وعددهم لايتأثر بالهجرة وهم يتمتعون بمستوى تعليمى عالى . ويذهب كثير من

الدارسين إلى أن هؤلاء سيعرفون أنفسهم يهودا « حينما لايؤدى ذلك إلى الإضرار بمكانتهم » ومن ثم فإنه إذا استمرت إسرائيل فى أن تكون مركز جذب بالنسبة لهم فإنهم سيعيدون تسجيل أنفسهم يهودا حتى يتسنى لهم الهجرة إليها .

ويبدو أن الصورة العامة هى نحو مزيد من الاندماج ، ولايشكل المنشقون الصهاينة سوى جماعة صغيرة وضئيلة ليس لها قيمة تذكر ، ويبدو أنها غير قادرة على ان توقف عملية الاندماج التلقائية السريعة ، وتآكل ثقافة يهود اليديشية ، وهويتهم الاثنية بعد أن تآكل انتماؤهم الدينى ، وهو الأمر الذى أوضحه المنشق الصهيونى شارانسكى بعد خروجه من الاتحاد السوفييتى . وكثير من أعضاء النخبة الحاكمة فى إسرائيل من يهود اليديشية من أصل روسى مثل حاييم وايزمان ويتسحاق بن تسفى وزلمان شازار وجولدا مائير وموشيه شاريت وجابوتنسكى . فإن أضفنا لهذه الاسماء اسماء النخبة من اصل بولندى اى من يهود اليديشية ايضا ، فيمكن القول إن نخبة من يهود اليديشية الاشكناز هى التى تحكم الدولة الصهيونية .

وحتى تكتمل الصورة العامة ، قبل أن نعالج موضوع الدراسة « هجرة يهود الاتحاد السوفييتى »، لابد وأن نتناول موقف الدولة السوفييتية (والبلاشفة) من المسألة اليهودية والدولة الصهيونية وأخيرا قضية الهجرة . يبدو أن البلاشفة ـ مثل ماركس من قبلهم ـ كما أسلفنا قد خلطوا بين مفهوم الأمة اليهودية العالمية ، وهو مفهوم صهيونى مطلق ، ومفهوم

اليهود بوصفهم أقلية قومية شرق أوربية ، لها خصوصيتها اليديشية التى لاتختلف عن خصوصيات القوميات الأخرى الموجودة فى روسيا القيصرية ، وهى خصوصية قد تفصل أفراد الجماعة اليهودية عن محيطهم الثقافى ، ولكنها لاتربطهم ـ بالضرورة ـ بالجماعات اليهودية الأخرى فى بقية العالم ، وهو طرح حزب البوند . ولعل هذا الخلط هو نتيجة محاولة البلاشفة ـ والماركسيين عموما ـ الوصول إلى مستوى تعميمى عال ـ يقال له علمى ـ يتجاهل كل الخصوصيات ، وهذا ميراث عصر الاستنارة والنموذج المادى الذى يصر على مستوى عال من البساطة والوضوح لايتفقان مع تركيبيه الظاهرة الانسانية ، ولعل هذا هو الذى أدى إلى تخبط السياسة السوفييتية بعض الوقت ، إلا أن المسألة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى لم تحسم إلا من خلال التطورات الاقتصادية للمجتمع الاشتراكي ككل ، خارج إطار الحلول النظرية المطروحة ، وبدون هدى كبير منها .

ومن الواضح أن موقف البلاشفة من المسألة اليهودية برغم معاداته الضارية للصهيونية ومعاداة اليهود ، وبرغم اعترافه من البداية باليديشية لغة قومية ورفض الاعتراف باللغة العبرية باعتبارها لغة قومية وهمية ، استنام بعض الوقت للصياغات العامة والمقولات المجردة ، مثل اليهود ككل . ولكن تم تصحيح هذا الوضع ـ فيما بعد ـ بتأسيس منطقة بيروبيجان ، إذ إن هذه الخطوة تعنى ضمنا القبول بما رفضه لينين ، وهو أنه إذا كان اليهود لايشكلون أمة بالمعنى المطلق ، فيهود روسيا يشكلون أقلية قومية روسية لها وضعها الثقافى المتميز ، ولها خصوصيتها التى لاتستمدها من جوهر

يهودى عام ، وإنما من تجربتها تحت ظروف اجتماعية وحضارية معينة فى شرق أوربا ، ولم يبق سوى توفير الأرض لها لتصبح أقلية قومية مثل مئات الأقليات الأخرى فى الاتحاد السوفييتى .

وإذا انتقلنا ـ من استعراض موقف الفكر البلشفي ـ من المسألة اليهودية إلى تأمل موقف الاتحاد السوفييتى ، فإننا نجد الأمر لايختلف كثيرا ، فالقانون السوفييتى يجعل من الصهيونية ومعاداة اليهود جريمتين يعاقب عليهما ، وقد ألغيت جميع التنظيمات الصهيونية ، وأصبح نشاطها غير شرعى ، مع أن روسيا كانت مركز النشاط الصهيونى فى العالم . ولقد وقف المندوبون السوفييت فى المنظمات والمؤتمرات الشيوعية ضد السماح للأحزاب الصهيونية ـ ذات الديباجات الماركسية (البوروخوفية) ـ بالانضمام إليها حتى لاتكتسب أى شرعية .

ومع هذا ، أيد الاتحاد السوفييتى قيام الدولة الصهيونية ، واعترف بها فور قيامها ، ولقد تحدث المندوب السوفييتى ـ فى هيئة الأمم المتحدة ـ عن « الشعب اليهودى » الذى لاقى الاضطهاد ، أى أنه كان يتحرك داخل إطار مقولة اليهود العامة والمجردة ، التى رفضها كل البلاشفة من قبل ، لا إطار يهود شرق أوربا ، بوصفهم قومية . فمع بداية الأربعينيات وتصاعد النفوذ النازى الذى كان يشكل تهديدا قويا للدولة السوفييتية ، بدأت الاتصالات بين السوفييت والصهاينة ، وشكلت فى بداية الأمر لجانا يهودية لمناصرة السوفييت ، ولمناهضة الفاشية . وفى عام ١٩٤٣ وضمن إطار

الاستعدادات للتسوية النهائية ـ لعالم ما بعد الحرب ـ بدأ السوفييت يتحدثون فى إطار أن المشكلة اليهودية ستصبح مشكلة عالمية ملحة فى نهاية الحرب ، وليس مجرد مشكلة ألمانية أو حتى مشكلة غربية ، ومن ثم كان لابد وأن يحددوا موقفهم بوضوح منها وفى إطار عالمى .

ويبدو أن هناك فى الحزب من كان يذهب إلى أن اليهود الاشتراكيين والتقدميين فى فلسطين سيكونون « أكثر فائدة لنا من العرب المتخلفين الذين تسيطر عليهم مجموعات اقطاعية من الباشوات والأفندية » . وقد استمرت هذه النغمة طيلة الحرب وبعدها ، وأصبحت لبنة أساسية فى الديباجات الاشتراكية الصهيونية . وأخذ السوفييت يتحدثون عن الدولة الصهيونية على اعتبار أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة فى منطقة الشرق الأوسط لاسيما وأنها كانت تسمح للحزب الشيوعى بممارسة نشاطاته بشكل قانونى ، كما أن الأحزاب الصهيونية ذات الديباجات الاشتراكية المتطرفة كانت تشكل ـ من وجهة نظرهم ـ نواة للاشتراكية فى المنطقة !

ويبدو أن هذا هو المنطق الذى ساد بعض الوقت إذ يقال إن مستشارى ستالين قد نصحوه بأن اقامة الدولة الصهيونية فى الشرق الأوسط المتخلف ، ستدخل عنصرا من عدم الاتزان والصراع فى المنطقة ، مما سيؤدى الى تثويرها . ويرى بعض المحللين العسكريين أن اندفاع موسكو وانضمامها إلى الولايات المتحدثة فى تأييد قيام دولة يهودية كان خطوة ذكية لإحداث شرخ دائم فى العلاقات الأمريكية العربية حول فلسطين . فقد كان السوفييت يدركون أنهم لن

يخسروا شيئا فى المنطقة ، لأنهم لايملكون شيئا فيها ، على نقيض وضع الولايات المتحدة الأمريكية التى ستخسر الكثير من جراء هذا الموقف .

ومهما كانت الديباجات ـ قومية أم طبقية ، بيروقراطية أم ثورية ـ فإنه من الواضح انه قد تقرر توظيف فلسطين وشعبها فى خدمة مصالح الاتحاد السوفييتى الاستراتيجية ، وكان المفروض أن انتشار الاشتراكية يخدم هذه المصالح ، وقد تكون هذه الديباجات الاشتراكية زائفة أو حقيقية ، ولكن مايهم هو أن الدولة السوفييتية بدأت تدرك دورها باعتبارها قوة عظمى ، وأنها من الضرورى ان يكون لها دور تلعبه فى الصراع .

وقد ظهر هذا الاهتمام العملى بفلسطين بوصفها عنصرا يوظف فى خدمة المصالح السوفييتية فى صورة تحول كامل على المستوى العقائدى وعلى مستوى الخطاب السياسى . ويلاحظ أنه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، بدأ تأييد الاتحاد السوفييتى لفكرة الدولة اليهودية فى فلسطين يتخذ عدة صور واضحة . ففى فبراير عام ١٩٤٥ عقد مؤتمر نقابات العمال العالمى فى لندن ، وصوت الوفد السوفييتى الى جانب قرار يؤيد اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ونص القرار أيضا على « ضرورة ايجاد علاج أساسى عن طريق عمل دولى لإصلاح الخطأ الذى وقع على الشعب اليهودى ، وينبغى أن تكون حماية اليهود من الاضطهاد والتمييز فى أى بلد من بلدان العالم من واجب السلطات الدولية الجديدة . كما ينبغى اعطاء اليهود الفرصة فى الاستمرار لبناء فلسطين كوطن

كوطن قومى عن طريق الهجرة ، والاستيطان الزراعى ، والانتماء الصناعى ، على أن يكون ذلك مقرونا بتأمين المصالح الشرعية لكل السكان فى فلسطين وتأمين المساواة في الحقوق والفرص كذلك » . وهذا جزء لايتجزأ من الخطاب السياسي الغربى النفعي الذى لاتثقله اى مثاليات او مطلقات أخلاقية أو عقائدية .

كما اتفق ستالين مع كل من روزفلت وتشرشل - فى مؤتمر يالطا بفبراير عام ١٩٤٥ - على ضرورة انشاء وطن قومى يهودى في فلسطين وعلى وجوب فتح سريع للأبواب التى كانت تعوق الهجرة اليهودية الى فلسطين ، مقابل السماح للسوفييت باقامة مناطق نفوذ لهم فى أوربا الشرقية . وبادر الاتحاد السوفييتى - فى يوليو من العام نفسه - الى الاعتراف بالوكالة اليهودية ، وسمح بفتح مكتب لها فى موسكو ، ثم قام جروميكو بتأييد قرار التقسيم ، حتى يتم التعايش بين « الشعبين » العربي واليهودى فى ابريل ١٩٤٧ ، وقد تحدث فى ١٣ اكتوبر ١٩٤٧ من نفس العام عن ارتباط الشعب اليهودى التاريخى بفلسطين ، وأشار الى الظروف التى وجد الشعب اليهودى نفسه فيها نتيجة للحرب . وهنا لانجد مجرد منطق ذرائعي وانما نجد كل مكونات الخطاب الغربى العنصرى تجاه اليهود باعتبارهم شعبا ، ومادة استيطانية متحركة ، لها ارتباط أزلى بفلسطين مما يعطيها حقوقا أزلية فى هذه الأرض خاصة وأن مايعانيه اليهود فى الغرب لابد من تعويضهم عنه فى الشرق بأن ينقلوا إليه - وهذا هو منطق الامبريالية - وانه يمكن استخدام عملية النقل هذه لخدمة الحضارة الغربية متمثلة هذه المرة فى الاتحاد السوفييتى

والاشتراكية العالمية والعلمية . وهذا هو الموقف الغربى التقليدى من الجماعة الوسيطة الى تستخدم كأداة ولذا ليس من المدهش معرفة ان الاتحاد السوفييتى هو أول دولة منحت اسرائيل اعترافا قانونيا ، وبذلك أعطتها مصداقية كانت فى امس الحاجة اليها . ومما يجدر ذكره انه من مجموع إحدى عشرة دولة اعترفت بإسرائيل خلال شهر واحد من إقامتها كان يوجد ست منها من دول الكتلة الاشتراكية .

ولم تكن علاقة الاتحاد السوفييتى بالصهيونية على مستوى العقيدة النظرية أو على مستوى الاعتراف القانونى وحسب ، وإنما امتدت لتشمل الدعم البشرى والعسكرى ، اذ سهل السوفييت عملية الهجرة للعديد من يهود بولندا إلى مناطق احتلال الحلفاء فى النمسا والمانيا مدركين أن هؤلاء المهاجرين سيتوجهون فى النهاية الى فلسطين . كما أن تشيكوسلوفاكيا زودت المستوطنين بالأسلحة التى لعبت دورا اساسيا فى عملية الغزو الصهيونى . ومع هذا يبدو أن السوفييت ـ فى الخمسينيات ـ حينما اكتشفوا عدم جدوى الدولة اليهودية وعدم نفعها قطعوا العلاقات السياسية معها ، ودخلوا فى تحالف مع العرب . ولكن مع تغير سياسة الدولة السوفييتية باتجاه الانفتاح ، فإن العلاقات مع « الشعب اليهودى » والدولة الصهيونية شهدت تحسنا مرة أخرى ، ونحن نؤكد عبارة « الشعب اليهودى » لان الاتحاد السوفييتى لم يتصالح مع دولة إسرائيل وحسب ، وإنما سمح بالهجرة السوفييتية اليها ، مما يعنى قبولا كاملا للعقيدة الصهيونية ، وليس تصالحا ذرائعيا مع الدولة الصهيونية .

يمكننا الآن الحديث عن تاريخ الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتى بعد عام ١٩١٧ ، ويمكننا بشىء من التبسيط القول إنه يتحكم فى سياسة السوفييت تجاه الهجرة ثلاثة اعتبارات أساسية :

١ - الاعتبارات العقائدية والتى يشكل صالح الدولة السوفييتية جزءا أساسيا منها ، وغنى عن القول إن رأى البلاشفة فى المسألة اليهودية مكون أساسى فى الاعتبارات العقائدية .

٢ - إعتبارات السياسة الداخلية خارج الاطار العقائدى . فعلى سبيل المثال يقال إن بعض العناصر الروسية القومية داخل الحزب فى السبعينيات كانت تهدف الى تنظيف المجتمع من اليهود باعتبارهم عناصر اممية ، وكان هذا يعنى فى ذات الوقت إخلاء عدد لابأس به من الشقق . كما كانت توجد عناصر فى المخابرات السوفييتية ترى أن اليهود عنصر مسبب للقلق وأنه لو سمح بهجرة بعض العناصر القيادية فإن الهدوء سيسود ، خاصة وأن بعض العناصر من الرافضين اليهود كانوا قد بدأوا يتصلون بعناصر الرفض فى ليتوانيا ولاتفيا وأوكرانيا . بل ويذهب البعض إلى أن أعضاء القوميات الأخرى غير الروسية يعتبرون اليهود من دعاة الترويس (أى صبغ الأقليات بالصبغة الروسية) ورحيلهم يعنى إخلاء بعض الوظائف التى يشغلها الروس لأبناء جلدتهم .

٣ - اعتبارات السياسة الخارجية مثل العلاقة مع العرب والرغبة فى التقارب مع الغرب ، أو التصدى له .

وفى الغالب كانت العناصر الثلاث تلتقى حتى بداية السبعينيات ، حين بدأت العقيدة الماركسية فى التآكل وبدأت

الاتجاهات الذرائعية فى الظهور . وقد صاحب ذلك رغبة فى الوفاق مع الغرب والتقرب منه والتخلى عن المبادىء العقائدية .

هذه هى بعض المحددات العامة للسياسة السوفييتية تجاه هجرة اليهود السوفييت ، ويمكن الآن أن نتناول التطور التاريخى ذاته . وحينما قامت الثورة البلشفية تناقص عدد المهاجرين الى فلسطين بحيث بلغ عددهم فى الفترة من عام ١٩١٩ الى تاريخ اعلان الدولة الصهيونية ٥٢,٣٥٠ أى أقل من الفى مهاجر كل عام (من مجموع اليهود السوفييت الذين كانوا يصل عددهم حوالى ٢,٥ مليون) . وظل موقف السوفييت من الهجرة لايتغير فى أساسياته بعد إعلان الدولة إذ يبدو أن عدد اليهود الذين هاجروا فى الفترة من ١٥ مايو ١٩٤٨ حتى نهاية ١٩٦٩ حوالى عشرة آلاف ـ أى أقل من خمسمائة مهاجر فى العام . ففى الفترة من ١٩٥٤ ـ ١٩٦٤ بلغ عدد المهاجرين ١٤٥٢ (بمعدل ١٤٠ كل عام) وفى الفترة من ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠ بلغ عدد المهاجرين ٢٢٤ (اى حوالى ٨٠ مهاجر كل عام) (انظر الجدول فى نهاية الفصل) . (ومع هذا لابد وأن نشير إلى أن ٢٠ ألف يهودى روسى تم اعادة توطينهم فى بولندا عام ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩ مع علم الاتحاد السوفييتى أنهم كانوا سيهاجرون فى نهاية الأمر إلى إسرائيل) . ولعل المحرك الأساسى للسياسة السوفييتية تجاه الهجرة بعد اعلان الدولة وحتى السبعينيات هو مركب من الاعتبارات العقائدية واعتبارات المواجهة مع الامبريالية والدولة السوفييتية والايديولوجية الماركسية والرغبة فى الوقوف ضد إسرائيل ، قاعدة الاستعمار الغربى فى الشرق

الأوسط . كما أن الاعتبارات الداخلية لعبت دورا ولاشك اذ أن الاتحاد السوفييتى كان يحتاج المادة البشرية اليهودية فى فترة بنائه بعد الحرب ، كما أنه كان يرفض التعاون مع اى اتجاهات قومية تهدد وحدته .

وقد تغير موقف السوفييت ـ ومن ثم عدد المهاجرين ـ ابتداء من عام ١٩٧١ ، ولايمكن تفسير هذا التغير على أساس الضغوط الصهيونية أو تصاعد الروح القومية اليهودية وانما هو أمر مرتبط تماما بحركيات المجتمع السوفييتى (والمجتمع الأمريكى) إذ يبدو أن الاتحاد السوفييتى بدأ يصبح اكثر انفتاحا واستجابة للضغوط الدولية وضغوط الأحزاب الشيوعية الأوربية التى كانت قد بدأت فى تحسين صورتها أمام الغرب (وهى العملية التى إنتهت فى نهاية الأمر بفقدان الجميع لتوجهاتهم الماركسية أو التخفف منها) . كما أن الاتحاد السوفييتى كان يفكر فى تحسين علاقاته الاقتصادية مع الغرب ، بل ويقال إنه كان يود أيضا التخلص من العناصر القلقة والمشاغبة داخله ، ولذا بينما هاجر عام ١٩٧٠ نحو ١,٠٢٧ يهوديا وحسب من الاتحاد السوفييتى فان عام ١٩٧١ شاهد هجرة ١٣,٠٢٢ زادت الى ٣١,٦٨١ فى العام التالى ، ووصلت الى ٣٤,٧٣٣ فى عام ١٩٧٣ (وقد شهدت الفترة أيضا فتح أبواب الهجرة أمام أعضاء الأقليات الأخرى فهاجر ٩,٠٦٤ المانى و٤,٠٠٠ أرمنى) . وقد تراجع عدد المهاجرين اليهود الى ٢٠,٦٢٨ عام ١٩٧٤ ثم الى ١٣,٢٢١ عام ١٩٧٥ ، ويبدو أن التراجع يعود الى حرب ١٩٧٣ ، وتوتر العلاقة بين الاتحاد السوفييتى وفشل المحادثات الأمريكية

السوفييتية الخاصة باعطاء الاتحاد السوفييتى معاملة الدولة الأكثر تفضيلا . ويقال إن الاتحاد السوفييتى بدأ يفكر فى الخسارة الناجمة عن هجرة العقول منه ، وكان بين المهاجرين عددا ضخما من اليهود الذين تلقوا تعليما عاليا ، كما كان هناك بعض الاعتبارات الأمنية إذ كان بين المهاجرين عددا كبيرا مطلعا على الأسرار العسكرية واسرار الدولة .

وقد زاد عدد كل المهاجرين فى الفترة من ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩ فكان عدد المهاجرين اليهود ١١١,١٩٥ والألمان ٣٦,٦٥٩ . ويبدو ان هذا يعود لمؤتمر هلسنكى عن حقوق الانسان ومحاولة الاتحاد السوفييتى تحسين علاقاته الاقتصادية . ولكن تغيرت السياسة السوفييتية عام ١٩٨٠ وخاصة عام ١٩٨١ (بالنسبة لليهود وغير اليهود) . ويبدو ان السبب هو تدهور العلاقات مع الغرب . وقد ازداد التدهور مع انتخاب ريجان . ويقال ان الاتحاد السوفييتى ترك أعدادا اسمية من المهاجرين تستمر فى الخروج ليؤكد للعالم ان عنده سلعة ثمينة يمكنه التفاوض بشأنها ليحصل على الثمن .

ويبدو أن عام ١٩٨٩ كان عاما حاسما اذ قفز عدد المهاجرين إلى ٣١,٢٩٧ ، ولم يحدث الأمر بشكل تلقائى إذ يبدو انه حدثت اتصالات بين الجانبين الاسرائيلى والسوفييتى ، وتوصل البلدان إلى توقيع أول اتفاق تجارى علمى منذ سنة ١٩٦٧ . إلا أن كلا منهما كان يلتمس من ورائه صيدا سمينا مختلفا . فقد كان الاسرائيليون يودون رفع القيود عن خروج اليهود السوفييت الراغبين فى الذهاب الى إسرائيل ، أما السوفييت الذين كانوا مقتنعين بأن « اللوبى اليهودى » يتحكم فى صنع قرارات الولايات المتحدة ، فكانوا

يريدون سياسية امريكية اكثر لينا فى مجالى التسليف والتجارة معهم ، بحيث تمكنهم من تحقيق الاصلاحات التى جاء جورباتشوف بها » (الفى باليس ، « الروس قادمون » مجلة الدراسات الفلسطينية العدد ٣ صيف ١٩٩٠ ص ٥٧) . ثم نشرت أخبار فى الجيروساليم بوست (ابريل ١٩٨٩) عن أن « موجة مهاجرين تتكون من مئات الألوف من اليهود الروس قد باتت وشيكة ، وانها تفوق قدرة الولايات المتحدة على الاستيعاب » . والعبارة الاخيرة لها دلالتها ، فالولايات المتحدة هى التى ضغطت على الاتحاد السوفييتى لإخراج اليهود وهيجت من أجل حقوق الانسان ، ولكنها كانت قد منحت اليهود السوفييت وضع لاجىء سياسى مما أعطاهم الحق فى الهجرة إليها دون التقيد بأىٍ نصاب ، وقد ادى ذلك الى هجرة الغالبية الساحقة من اليهود السوفييت الى الولايات المتحدة ، ولذا كان لابد وأن تغير الولايات المتحدة سياستها حتى يمكن توجيه المادة البشرية اليهودية السوفييتية الى اسرائيل ومن هنا كان التحذير. وبدأت وزارة الخارجية الأمريكية تناقش علانية فرض القيود على الهجرة الى الولايات المتحدة . ثم انها سرعان ما اكتشفت بسرور بالغ أن المنظمات اليهودية الأمريكية التى سعت فيما مضى بقوة لفتح المجال أمام هجرة اليهود القادمين ، كانت الآن ، نزولا عند طلب اسرائيل ، مستعدة للقبول بهذه القيود . وعندما بدأ اليهود السوفييت فعلاً يغادرون بأعداد كبيرة شعرت إدارة بوش بأنها حرة فى التصرف . وأنهت حقهم شبه التلقائى فى الدخول كلاجئين فى سبتمبر ١٩٨٩ ، وأعيد تصنيفهم لاجئين عاديين ، ووضعت سقفا لايتجاوز ٥٠,٠٠٠ لطلبات تأشيرة

الدخول من الاتحاد السوفييتي تتوزع بين اليهود وبين غيرهم من الجماعات الأخرى .

وفي الوقت نفسه ، بدأ مسئولو وزارة الخارجية ينظرون بعطف متزايد الى طلبات السوفييت المالية ومقترحاتهم بشأن إقامة مشاريع مشتركة ، مع أن ذلك يستلزم تغييرات في القوانين الأمريكية ، ولاسيما تعديلات جاكسون ـ فانيك وستيفنسون .

وقد وقع الاسرائيليون اتفاقا مع غرفة التجارة السوفييتية ، ثم عقدا ضخما لبيع المنتوجات الاسرائيلية في الاتحاد السوفييتي . وهم يحظون بعلاقات مطردة التحسن مع اتحاد سوفييتي شديد الامتنان ، وبتقدير من وزارة الخارجية الأمريكية على تحذيرهم لها مسبقا من موجة هجرة ضخمة ، وعلى أهم من ذلك : على واقع أن ٩٠٪ من اليهود السوفييت ، الذين اختاروا حتى الآن الاقامة في الولايات المتحدة ، لم يعد في وسعهم القيام بذلك » . (« الروس قادمون » ، ص ٥٧ ـ ٥٨) .

ونلاحظ أن الاعتبارات (أو الديباجات) العقائدية قد توارت الى حد كبير في الخطاب السياسي السوفييتي وأصبح الحديث الآن عن صالح الدولة ومصالحها ، بشكل مباشر دون الاختباء وراء أي مقولات اشتراكية ، وإن كان يتم الاشارة أحيانا الى حقوق الانسان ، ومن آونة لأخرى نسمع أصداء باهتة للخطاب الاشتراكي القديم وتهديدات بوقف الهجرة إن تم توطين اليهود السوفييت في الضفة الغربية . ولعل الواقعة

التالية تلخص بعض جوانب الوضع الجديد تلخيصا طريفا وجيدا ، فحينما سئل رئيس احدى البعثات السوفييتية التجارية لاسرائيل عن توطين اليهود السوفييت فى الأراضى المحتلة أجاب مثل اى رجال أعمال أمريكى : « فلنتحدث عن الأعمال التجارية ، Businessفأنا لا أحب أن أتحدث عن أشياء في غير تخصصى » (الجيروساليم بوست ١٠ فبراير ١٩٩٠) . وهكذا أصبح القوميسار-تاجر شنطة ! بل وهناك همس بأن هجرة اليهود السوفييت الجماعية ستترك للسلطة السوفييتية قرابة ٢٠٠ ألف مسكن ووظيفة شاغرة توزعها على أعضاء القوميات الأخرى ، الى جانب مزيد من الأمن الاجتماعى . ومع هذا يجب ان نشير الى أن الموقف داخل الاتحاد السوفييتى على مستوى الحكومة والشعب ، مركبا الى اقصى درجة ، وانه لايعقل ان الخطاب الاشتراكى قد مات تماما بين يوم وليلة . وفيما يلى جدول باعداد المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفييت ونسبة توزيعهم بين اسرائيل وبقية العالم :

المصدر : موردخاى التشولار : اليهود السوفييت منذ الحرب العالمية الثانية : السكان والبناء الاجتماعى .



السنة	عدد المهاجرين الكلي	هاجر منهم إلى اسرائيل		وإلى دول اخرى	
		عدد المهاجرين	النسبة المئوية	عدد المهاجرين	النسبة المئوية
١٩٥٩	٧	٧	١٠٠	—	—
١٩٦٠	١٠٢	١٠٢	١٠٠	—	—
١٩٦١	١٢٨	١٢٨	١٠٠	—	—
١٩٦٢	١٨٢	١٨٢	١٠٠	—	—
١٩٦٣	٣٨٨	٣٨٨	١٠٠	—	—
١٩٦٤	٥٣٩	٥٣٩	١٠٠	—	—
١٩٦٥	١,٤٤٤	١,٤٤٤	١٠٠	—	—
١٩٦٦	١,٨٩٢	١,٨٩٢	١٠٠	—	—
١٩٦٧	١,١٦٢	١,١٦٢	١٠٠	—	—
١٩٦٨	٢٢٩	٢٢٩	١٠٠	—	—
١٩٦٩	٢٩٧٩	٢,٩٧٩	١٠٠	—	—
١٩٧٠	١,٠٢٧	١,٠٢٧	١٠٠	—	—
١٩٧١	١٣,٠٢٢	١٢,٩٦٤	٩٩,٦	٥٨	٠,٤
١٩٧٢	٣١,٦٨١	٣١,٤٣٠	٩٩,٢	٢٥١	٠,٨
١٩٧٣	٣٤,٧٣٣	٣٣,٢٧٧	٩٥,٨	١,٤٥٦	٤,٢
١٩٧٤	٢٠,٦٢٨	١٦,٧٤٩	٨١,٢	٣,٨٣٩	١٨,٨
١٩٧٥	١٣,٢٢١	٨,٢٩٣	٦٢,٧	٤,٩٢٨	٣٧,٣
١٩٧٦	١٤,٢٦١	٧,٢٥٧	٥٠,٩	٧,٠٠٤	٤٩,١
١٩٧٧	١٦,٧٣٦	٨,٢٥٣	٤٩,٣	٨,٤٨٣	٥٠,٧
١٩٧٨	٢٨,٨٦٥	١١,٩٩٨	٤١,٦	١٦,٨٦٧	٥٨,٤
١٩٧٩	٥١,٣٣٣	١٧,٢٧٧	٣٣,٧	٣٤,٠٥٦	٦٦,٣
١٩٨٠	٢١,٤٧٢	٧,٣٩٤	٣٤,٤	١٤,٠٧٨	٦٥,٦
١٩٨١	٩,٤٤٨	١,٧٦٢	١٨,٦	٧,٦٨٦	٨١,٤
١٩٨٢	٢,٦٨٣	٧٣١	٢٧,٢	١,٩٥٢	٧٢,٨
١٩٨٣	١,٣٢٠	٣٩١	٢٩,٦	٩٢٩	٧٠,٤
١٩٨٤	٨٨٣	٣٣٢	٣٧,٦	٥٥١	٦٢,٤
١٩٨٥	١,١٤١	٣٥٤	٣١,٠	٧٨٧	٦٩,٠
١٩٨٦	٩٠٤	٢٠١	٢٢,٠	٧٠٣	٧٨
١٩٨٧	٨,٠٨٠	٢,٠٨٣	٠٢٦	٥,٩٩٧	٧٤
١٩٨٨	١٩,٢٥١	٢,٢٣١	١١,٦	١٧,٠٢٠	٨٨,٤
١٩٨٩	٧١,١٩٦	١١,١٠٠	١٥,٥	٦٠,٠٩٦	٨٤,٥
إجمالي	٣٧٠,٠٣٣	١٨٣,٩٥٥	٤٩,٧٪	١٨٦,٠٧٨	٥٠,٣٪

الفصل الرابع

اليهود السوفييت عشية الهجرة الجديدة



بعد أن تناولنا تاريخ الجماعات اليهودية في الاتحاد السوفييتي وموقف الدول السوفييتية منها (ومن الدولة الصهيونية والهجرة اليهودية) يمكن أن نخفض من مستوانا التعميمي قليلاً وأن نقلص البانوراما الزمنية كثيرا ، لنركز على يهود الاتحاد السوفييتي عشية الهجرة - موضوع هذا الكتاب . ولذا سننظر للمجتمع السوفيتي من منظور الجذب والطرد لأفراد الجماعات اليهودية ومدى قابليتهم للهجرة أو الاستقرار .

ومن المعروف أنه يوجد وراء أي هجرة عناصر طرد (من البلد الذي يقيم فيه المهاجر) وعناصر جذب (إلى البلد الذي يفكر في الهجرة إليه) . وعناصر الطرد ليست كافية في حد ذاتها لأن يهاجر إنسان ما ، والقول نفسه ينطبق على عناصر الجذب ، كما أن عناصر الطرد والجذب يجب أن تكونا من القوة بحيث يقتلع الانسان نفسه من أرض ليشد رحاله إلى أرض غريبة .

ولنبدأ بعناصر الطرد في الاتحاد السوفييتي . تذكر كل وسائل الاعلام ظهور معاداة اليهود (يقال لها معاداة السامية) بحدة في صفوف العناصر القومية الروسية (مثل

جماعة باميت وهى كلمة روسية تعنى الذكرى أو الذاكرة) وهى عناصر بدأت تلعب دورا أكثر نشاطا فى المجتمع السوفييتى . كما يقولون إن الجو الديمقراطى العام ذاته يكفل حرية التعبير عن كل شىء بما فى ذلك العداء لليهود . وبدأت مرة أخرى تظهر الاتهامات العنصرية القديمة التى تجعل من اليهود مسئولين عن كل الشرور وتجعل ورطة روسيا الحالية نتيجة مباشرة للتآمر اليهودى الذى أخذ شكل النظام الشيوعى هذا النظام الذى أذل روسيا طيلة السنوات الماضية . (عندما اندلعت الثورة البلشفية كان يسميها البعض « بالثورة اليهودية ») . ويمكن الاشارة أيضا إلى تقاليد معاداة اليهود الراسخة فى الحضارة الروسية التى لم ينجح اليهود قط فى ضرب جذورهم فيها . ويمكن أن نضيف عناصر أخرى مثل ارتباط عدد كبير من اليهود بالسوق السوداء والنشاطات التجارية المشبوهة الممنوعة مما جعلهم يضيقون دائما بالنظام الاشتراكى .

وقد حقق اليهود السوفييت قدرا كبيرا من النجاح والحراك الاجتماعى داخل المجتمع السوفييتى فتوجد بينهم أعلى النسب بين الملتحقين بالجامعات والمتميزين علميا ومهنيا ووظيفيا حتى أنهم وصفوا بأنهم نخبة علمية ومتخصصة . ويدل هذا على أن أبناء العمال والتجار اليهود قد أصبحوا أساسا مهنيين . وهذا تطور يشبه ما حدث لليهود فى الولايات المتحدة . وعادة ما يؤدى هذا التطور إلى مزيد من الاندماج فى المجتمع إذ أنه يعنى أن اليهودى قد تحول من كونه عضوا فى جماعة وسيطة هامشية تقف على أطراف المجتمع الى

عضو فى الطبقة المتوسطة التى توجد فى صميمه ، خاصة وأن المهنى شخصية حديثة يرتبط بمؤسسته أو زبائنه (إن كان طبيبا على سبيل المثال) أكثر من ارتباطه بجماعته الإثنية أو الدينية . فالنجاح قد أدى بلا شك إلى مزيد من الاندماج ، ولكنه على مستوى آخر تحول إلى عنصر طرد ، وذلك للبحث عن مزيد من الحراك الاجتماعى ، إذ أن المجتمع السوفييتى لم يعد مجتمع الفرص المتزايدة .

تقابل عناصر الطرد السابقة عناصر جذب عديدة أخرى تحد من قوة الطرد قليلا إن لم تنفها تماما . ولنبدأ ببعض عناصر الطرد التى ذكرناها ، وأولها معاداة اليهود . نحن لا نعرف على وجه الدقة مدى حدة هذه الموجة ، وما هو مصدرها . وقد أنكر المتحدثون باسم (بامييت) أكثر من مرة علاقتهم بالعداء لليهود ، ويبدو أن قيادات هذه الجماعات أكثر صقلا من العناصر المعادية لليهود فى الماضى ، ولذا فعنصريتها ستكون أكثر تركيبا وقد لا تأخذ شكلا علنيا قط . ولا يمكن القول أن توجيه السباب والتمييز العنصرى ضد بعض اليهود يرقى الى مستوى الظاهرة البنيوية التى تدفع بمئات الألوف منهم خارج الاتحاد السوفييتى ، ولا يمكن لبعض الاشاعات عن (بوجروم) مذبحة أن تنجح فى اقتلاع الملايين . ومثل الأرجنتين لا يزال ماثلا فى الأذهان .

ويبدو أن هذا أيضا هو رأى موردخاى التشولار الذى يعمل فى مركز دراسات اليهود المعاصرين التابع للجامعة العبرية ورئيس مكتب التوثيق الخاص بيهود شرق أوربا فى الجامعة ذاتها ، فهو يبين أن (بامييت) هى حقا منظمة معادية لليهود

ولكن هناك منظمات روسية تهاجمها وصحف تناصبها العداء . كما أن هناك اهتماما فى بعض الأوساط بالحرب ضد العداء لليهود لحماية نظام جورباتشوف واصلاحاته ، ولذا حينما يتخذ المرء موقفا معاديا لأعداء اليهود فان هذا يضعه فى صف العنصر التقدمى فى النظام . ويبين التشولار أن معاداة اليهود على الطريقة الفظة القديمة لم يعد لها وجود . « كما لم يعد يرى أحد كتبا معادية لليهود .. والهجوم على الصهيونية فى الوقت الحالى يأخذ شكلا سياسيا ، بدلا من الشكل العنصرى القديم حين كان البعض يصنف الصهيونية باعتبارها عنصرا وراثيا يجرى فى عروق اليهود » .

ويضيف التشولار إلى كل هذا قوله : « إن النشيطين الصهاينة أكثر حساسية لمظاهر معاداة اليهود من غيرهم ، وقد يميلون الى المبالغة فى أهميتها . ولكن الآخرين الذين لا يصلون إلى نفس الدرجة من الوعى بيهوديتهم قد يمكنهم التكيف مع هذه الأشكال الخفيفة من معاداة اليهود مادام أنها ليست عنيفة أو فظة » . و« ستزداد درجة تحمل معاداة اليهود إذا ما تضعضعت الحواجز القائمة أمام صعود اليهود فى الحياة المهنية والاقتصادية نتيجة لاصلاحات جورباتشوف » . والتشولار لا يخترع هذه الآراء ولا يعبر عن أمنيات انسان متفائل وإنما يستند إلى المعرفة التاريخية المقارنة ، ولذا فهو يشير لتجربة يهود الولايات المتحدة : فاليهود المتعلمون الباحثون عن النجاح المادى والمهنى على استعداد لأن يتعايشوا مع قدر من معاداة اليهود فى الجو ، إن لم يصبهم هذا العداء فى حياتهم اليومية ولا يعوق تقدمهم واندماجهم .

وأنا أميل إلى الاعتقاد أن اشاعات (البوجروم) المذبحة وما شابه تطلقها الدعاية الصهيونية للمساهمة فى خلخلة وضع اليهود السوفييت . فالصهيونية ، على حد قول المفكر الأمريكي اليهودى ، أى . أف . ستون تعيش على الكوارث . وقد سبق وأرسل الصهاينة مبعوثين لوضع القنابل فى معابد اليهود فى العراق فى أوائل الخمسينات ، فاليهود بالنسبة لهم وسيلة لا غاية ، ووقود لآلة الحرب . ومما يدعم وجهة نظرنا تعليق التشولار على احتمال اندلاع المذابح : « لم أتملك نفسى من الضحك حينما سمعت ذلك . فمثل هذه الأمور غير متوقعة تحت هذه الظروف » (الجيروزاليم بوست ١٢ أغسطس ١٩٨٨) .

وأحب هنا أن أطرح تصورا آخر لتطور محتمل وغير مستبعد فالتاريخ الروسى يشبه الأرجوحة ، إذ سيطر العنصر التركى (التترى الآسيوى) على روسيا ، حينما كان التتار (القطيع الذهبى) يأخذون الجزية من الأمراء الروس . ثم يبدأ التاريخ الروسى القومى حين يصدهم أمير كييف ويبدأ الزحف الروسى بالتدريج من حوالى القرن العاشر . وظل تاريخ روسيا أساسا صراع ضد الأتراك المسلمين ، إذ أن الدولة العثمانية والامارات التركية التابعة لها هى التى أوقفت الزحف الروسى فى كثير من بقاع أوربا ونحو الشرق ـ أى أن المجال الحيوى للقوتين كان متداخلا ، ولم تتحول روسيا الى قوة عظمى بمعنى الكلمة إلا بعد الهيمنة على الامارات التركية وبعد تراجع الدولة العثمانية ثم فكها فى نهاية الأمر ـ أى أنه بعد أن كان هناك العنصر التركى الآسيوى مسيطرا على

العنصر الروسى انقلبت الآية وأصبح العنصر الروسى هو المسيطر على العنصر الآسيوى التركى . وقد اكتسب هذا الصراع مضمونا دينيا كما كان الحال دائما فى العالم بأسره حتى القرن التاسع عشر ، ولذا نظر للصراع باعتباره صراع بين المسيحية الروسية والاسلام (بشقيه الشيعى والسنى) . وقد عاد الخطاب الدينى يطل برأسه مرة أخرى ، خاصة بعد هزيمة السوفييت على يد المجاهدين الأفغان (الآسيويين) ، وبعد أن اكتسب الاحتجاج فى الجمهوريات السوفييتية الإسلامية حدة غير عادية ، كما أن المؤسسة الحاكمة السوفييتية لم تتعامل معه بنفس القدر من الرقة الذى يسم تعاملها مع الجمهوريات البلطيقية على سبيل المثال .

ولكن الخطاب الدينى ـ فى تصورى ـ لن يحرز جماهيرية كبيرة بعد ٧٠ عاما من الدعاية الشيوعية الالحادية وبعد تصاعد معدلات العلمنة بدرجة ليس لها نظير فى العالم ، ولذا ليس من المستبعد أن يحل الخطاب العرقى محل الخطاب الدينى بحيث تتحول المسألة من مسيحين ضد مسلمين إلى بيض ضد صفر وسود ... الخ . وهذا على كل هو تاريخ تطور الخطاب السياسى فى الغرب ، إذ حل العنصر أو العرق كمصدر للشرعية والاطلاق محل الدين ، تماما كما حلت الدولة ووطن الأجداد محل الكنيسة .

ويجب ألا ننسى أن الخطاب العرقى كان هناك دائما فى التفكير الروسى ، فالنهضة في روسيا كانت تعنى التوجه نحو الغرب والخروج من الشرق ، دخول أوربا والخروج من آسيا .

لو حدث مثل هذا التحول ـ وهو ليس بمستبعد كما

أسلفت ـ فإن العقيدة العرقية لن تستبعد اليهود البيض وإنما ستضمهم فى صفوفها باعتبارهم كثافة بشرية تنضم للروس البيض لتزيد من عددهم فى مقابل جحافل آسيا . وهناك سوابق تاريخية لمثل هذا الوضع ، ففى جنوب افريقيا ـ على سبيل المثال ـ صنف اليهود باعتبارهم بيض (وذلك على الرغم من قوة الخطاب الدينى هناك) . وينص القانون على أن حق الهجرة لا يمنح الا لمن ينجح فى امتحان باحدى الابجديات الأوربية . وحينما توافد يهود ليتوانيا الذين كانوا لا يعرفون إلا اليديشية والتى تكتب بحروف عبرية أى آسيوية عدل القانون من أجلهم .

ومن الأمثلة الأخرى هو حالة اليهود فى الجنوب الأمريكى قبل الحرب الأهلية ، فبينما كان التصنيف يتم على أساس دينى عرقى فى الشمال (ولذا كان البروتستانت البيض على قمة الهرم يليهم الكاثوليك ثم اليهود وأخيرا الزنوج) كان التصنيف فى الجنوب يتم على أساس عرقى لونى وحسب : أبيض فى مقابل أسود ، ولذا صنف اليهود على أنهم بيض وأصبحوا جزءا لا يتجزأ من النخبة الحاكمة ، وتجار رقيق وأصحاب مزارع يعمل فيها العبيد ، وقد سقطوا بسقوط نظام الاقطاع العبودى الجنوبى . وكما أسلفنا ينظر كثير من أعضاء القوميات غير الروسية إلى أفراد الجماعات اليهودية باعتبارهم روس .

ثم نأتى إلى عناصر الطرد الأخرى فى الاتحاد السوفييتى وهى عمل اليهود فى الأعمال التجارية والمالية المشبوهة والممنوعة أو صعوبة الحراك الاجتماعى بالنسبة لهم . يمكننا

القول إن حالة الانفتاح المذهلة التى يعيشها المجتمع السوفييتى والتخلى عن كثير من المثل الاشتراكية ، بما فى ذلك ديكتاتورية البروليتاريا ، سينشط كثيرا من القطاع التجارى الحر وسيجعل كثيرا من النشاطات التجارية التى كانت تعد مشبوهة حتى عهد قريب نشاطات شرعية مما سيفتح المجال أمام كثير من العناصر اليهودية التى كانت تعمل فى الخفاء أن تعمل فى العلن وبنشاط كبير . بل إنه يمكن القول أن هذه العناصر ، لأنها مارست الأعمال التجارية طيلة هذه المدة ، عندها من الخبرات ما يؤهلها أكثر من غيرها للحركة داخل المجتمع الجديد .

ويمكن القول إن المهنيين اليهود قد تتفتح أمامهم فرص جديدة للحراك خاصة مع دخول الشركات عابرة القارات وبيوت الخبرة وكل أدوات الانفتاح التى تنعش الاقتصاد وتصعد من حدة الرغبات والشهوات وثورة التوقعات وتفتت نسيج المجتمع وتجعله مجتمعا ديناميا ساخنا . وباختصار شديد يمكن القول إن الوضع الجديد من الناحية البنيوية قد يخلق بين اليهود قطاعات مستفيدة تجد أن من مصالحها البقاء والاستمرار . وقد أشرنا إشارة عابرة إلى الهويات . اليهودية الاثنية المختلفة فى الاتحاد السوفييتى ، ويمكننا الآن فى هذا الجزء من الدراسة أن نوسع مفهوم الهوية ليضم لا الهويات الاثنية (ذات الامتداد التاريخى) وإنما ليضم أيضا الهويات العقائدية والدينية وغيرها . وسنحاول أن ندرس موضوع الهوية من منظور القابلية للهجرة ، وهو المنظور الذى يهمنا فى هذه الدراسة . ولفهم خريطة الهويات اليهودية المختلفة فى الوقت الحاضر من منظور الهجرة سنستعين بآراء التشولار وسنضيف لها ما توافر لدينا من معلومات حتى تزداد الخريطة دقة وتركيبا ومطابقة لواقع اليهود السوفييت :

١ ـ يوجد أولا فريق الصهاينة وهم أكثر الفئات المسموعة خارج الاتحاد السوفييتي . ويرى التشولار أنهم أصبحوا قلة ، ولا توجد حركة صهيونية في الاتحاد السوفييتي ، ولذا يمكن القول إن الحديث عن المهاجرين اليهود السوفييت باعتبارهم صهاينة هو من صنع الاعلام العربي واختراعه ، وقد توصل الاعلام العربي لهذا الرأي نتيجة لعملية منطقية عقلية ساذجة لا علاقة لها بالواقع يمكن تلخيصها على هذا النحو :

* يهود الاتحاد السوفييتي يهاجرون إلى إسرائيل .
* جوهر الصهيونية هو الهجرة إلى إسرائيل .

إذن :

* يهود الاتحاد السوفييتي صهاينة .

وهو ادعاء لم يجرأ حتى شامير نفسه على اطلاقه .

وقد قال شارانسكي ، أهم الرافضين من اليهود السوفييت وهو الآن مستوطن في إسرائيل : « إن هؤلاء المهاجرين الجدد ليسوا مثاليين (أي لا تدفعهم العقيدة الصهيونية) » (جويش ويك ١٩ أكتوبر ١٩٨٩) . أما آرثر أبوليون ، موظف الهجرة الأمريكي الذي استوطن في إسرائيل ، فقد وصف المهاجرين بأنهم ليسوا نشيطين سياسيا ولا صهاينة (جويش ويك ٢٧ أكتوبر ١٩٨٩) . وقد وصفهم أوري جوردون رئيس قسم الهجرة والاستيعاب في الوكالة اليهودية بأنهم « لا يفكرون في إطار صهيوني » (الجيروساليم بوست ٢٥ فبراير ١٩٨٩) .

ويفسر التشولار هذا الوضع تفسيرا مقنعا إذ يقول حتى

عام ١٩٧٤ كان المهاجرون يأتون من الدويلات البلطيقية التى لم تقع تحت سطوة الشيوعية إلا عام ١٩٤٠ - أى أنها لم تخضع إلى الدعاية الشيوعية إلا ٥٠ عاما تقريبا . كما أن ليتوانيا على سبيل المثال كانت تقليديا من أهم مراكز الدراسات التلمودية فى العالم . ولذا نجد أن اليهود فى هذه البلاد كان عندهم ما يمكن تسميته « بوعى يهودى » واحساس بيهوديتهم . ونجد نفس الظاهرة بين يهود جورجيا وبخارى ولكن لأسباب مختلفة ، فهى مجتمعات قيمها تقليدية مبنية على الفصل بين الجماعات والطبقات ، كما أن الدعاية الشيوعية لم تنجح كثيرا فى اختراق الشبكات العائلية والقبلية .

كل هذا يقف على طرف النقيض من يهود روسيا الاتحادية وأوكرانيا (المركزين فى المدن ، خاصة موسكو وكييف) فهؤلاء بدأت عملية دمجهم منذ عهد القياصرة ثم تصاعدت مع الثورة البلشفية ، ولم يبق عندهم حس يهودى قوى . وفى فترة الهجرة اليهودية فى السبعينيات ثم فى الثمانينيات هاجرت العناصر اليهودية ذات الحس القومى ، ومن ثم جفت هذه الخزانات ، ومعظم اليهود الآن - حسب قول التشولار - يشبهون يهود موسكو (الجيروساليم بوست ١٣ أغسطس ١٩٨٨) . والاتحاد السوفييتى ليس فريدا فى هذا المضمار فيهود أمريكا اللاتينية هاجرت منهم العناصر التى يقال لها قومية ويمكن أن نضيف قيادية ، فتركت الجماعات اليهودية بلا قيادة وبلا احساس قومى ، مما زاد من عملية إندماج أفرادها فى المجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها وابتعادهم عن المستوطن الصهيونى . ويؤكد التشولار أن الصورة

الاجتماعية العامة لليهود السوفييت فى الوقت الحالى لا تختلف كثيرا عن يهود الولايات المتحدة : كلاهما يبعد من ثلاثة إلى أربعة أجيال عن الشتتل (مدن اليهود الصغيرة) ويتمتع بدرجة اندماج عالية .

ومن أهم أشكال الاندماج الزواج المختلط فمن المعروف لدينا أن نسبة الزواج المختلط بين يهود الاتحاد السوفييتى مرتفعة للغاية وتفوق مثيلتها حتى فى الولايات المتحدة (تصل فى المتوسط إلى ٥٠٪ ، وفى الجماعات الصغيرة مثل يهود بيروبيجان تصل النسبة الى ٨٠٪) . وقد ذكرنا الزواج المختلط باعتباره أحد أسباب « موت الشعب اليهودى » (يسمونه الهولوكوست الصامت فى المصطلح الصهيونى) . ويقول التشولار : « نصف اليهود يتزوجون من غير يهود ، وأولاد مثل هذه الزيجات يسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود » . ولابد من أن يتفق معى القارىء فى أن وجود زوجة أو زوج غير يهودى سيقلل إلى حد ما من الرغبة فى الهجرة .

٢ ـ أما الفريق الثانى فهم اليهود المتدينون وهم يضمون فى صفوفهم عناصر غير يهودية إن لم تكن معادية للصهيونية . والمتدينون كانوا أقلية ، ولكن بدأت تتزايد أعدادهم مع إغلاق باب الهجرة إذ اتجهت حركة الإحياء اليهودى اتجاها دينيا روحيا (غير صهيونى) . وقد افتتحت أكثر من يشيفاه (مدرسة تلمودية) من أهمها يشيفاه آدين ستاينسلاتس ، الحاخام الاسرائيلى مترجم التلمود الى العبرية ، وهذا التيار الدينى صدى لحركة الإحياء الدينى فى الاتحاد السوفييتى والعالم بأسره ، كرد فعل لأزمة العلمانية

المعاصرة . ولكن عدد المتدينين صغير للغاية ولايزيد على ٣٪ من مجموع يهود الاتحاد السوفييتى .

والتيار الدينى الروحى فى تصورنا يشكل حركة جذب للاتحاد السوفييتى ، خاصة أن غالبية سكان اسرائيل علمانيون ، كما يقول الحاخام أدولف شاييفتس ، حاخام موسكو (الجيروساليم بوست ، ١٤ يناير ١٩٨٩) .

٣ ـ اليهود اللادينيون : واصطلاح يهودى لا دينى أو يهودى ملحد اصطلاح يصدم الأذن العربية الاسلامية والمسيحية ، ومع هذا يمكن القول إن هذا النمط هو السائد فى الوقت الحالى فى العالم الغربى ، إذ تُعرّف الهوية اليهودية داخل إطار غير دينى . بل يمكننا القول إن العناصر اليهودية المتبقية ليست يهودية بالمعنى المتعارف عليه فى العالم العربى وإنما هويتهم هوية بمعنى عرقى إلحادى جديد تماما (وذلك إن قبلنا بمقولة اليهودى الملحد أو اليهودى غير اليهودى) . ولنسمع وصف المتحدثين اليهود والصهاينة ليهود الاتحاد السوفييتى . يقول الحاخام أدولف شاييفتس (الجيروساليم بوست ١٤٠ يناير ١٩٨٩) ، واصفا هؤلاء اليهود : « إنهم فقدوا علاقتهم باليهودية فى السبعين عاما الماضية (ويمكن أن نضيف من قبل ذلك) . نحن هنا نتحدث عن أشخاص لم تطأ أقدامهم معبدا يهوديا ، ولم يتلقوا أى تعليم يهودى » . وفى مقال فى الصنداى تايمز يتحدث الكاتب عن معاداة اليهودية كأحد أسباب الهجرة ، ولكن يشير إلى صاحب مطعم الكوشير الوحيد ـ أى الطعام الشرعى اليهودى (القبس ٢١ فبراير ١٩٩٠) مما يدل على أن يهود الاتحاد

السوفييتى لا يهمهم كثيرا شعائر دينهم . وهناك اصطلاح شائع الآن فى الكتابات اليهودية وهو « يهود الصدفة » أى اليهود الذين وجدوا أنفسهم يهودا بالمولد ، وهى حقيقة تسبب الغم لبعضهم بينما لا يكترث بها البعض الآخر . ويبدو أن هناك أعدادا كبيرة من يهود الصدفة هؤلاء بين اليهود السوفييت . وكما يقول آرثر اوبليون ، موظف الهجرة الأمريكى السابق ، إن إحساس هؤلاء بأنهم يهود ضئيل إلى درجة كبيرة فكل ما يعرفونه هو أن كلمة « يهودى » مدونة فى بطاقات الهوية الخاصة بهم (الجويش ويك ٢٧ أكتوبر ١٩٨٩) . وهذا الفريق من اليهود اللادينيين هو الأغلبية الساحقة من يهود الاتحاد السوفييتى .

وإذا كان ٥٠٪ من يهود الولايات المتحدة أما لا أدريين يشكون فى وجود الله أو ملحدين ينكرون وجوده أو غير مكترثين بالدين تماما و٤٠٪ يؤمنون بصيغ مخففة للغاية من اليهودية (لا يعترف بها الأرثوذكس) فإن هذا قد يعطينا فكرة عن نسبة اليهود الملحدين فى الاتحاد السوفييتى بعد سبعين عاما من الدعاية الالحادية المنهجية المنظمة والشرسة ، وهى دعاية بدأت بعد أن كانت اليهودية الحاخامية قد دخلت مرحلة الأزمة الحادة فى نهاية القرن التاسع عشر . كما يلاحظ أنه لا يوجد حركة اصلاح دينى يهودى فى الاتحاد السوفييتى مما يجعل الاختيار إما بين الأثوذكسية أو الالحاد . والاختيار فى مثل هذه المواقف معروف ، خاصة فى مجتمع يعد الإلحاد فيه دين الدولة الرسمى . ومن المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية يتأثرون ، حتى فى عقائدهم الدينية أو اللادينية ، بالأيديولوجية السائدة فى المجتمع .

ولكن ، كما هو الوضع فى الولايات المتحدة ، مع فقدان الهوية الدينية لا تختفى الهوية تماما بالضرورة وانما تكتسب مضمونا جديدا يعوض فقدان المضمون القديم ويحل محله . وفى حالة يهود الولايات المتحدة ظهرت الإثنية الأمريكية اليهودية التى تعبر عن نفسها فى تعلم بضعة كلمات يديشية والاحتفاظ بنجمة داود بارزة فى المنزل وارتداء حرف اليود (أول حرف فى اسم يهوه) وإقامة إحدى الشعائر الدينية كشكل من أشكال الفلكلور القومى . كما تعبر هذهً الإثنية عن نفسها فى ارسال تبرعات لاسرائيل وربما التظاهر من أجلها ، ولكن مع هذا يظل الأمريكى اليهودى أمريكيا حتى النخاع ينتمى إلى وطنه الأمريكى ويرتبط بمصيره . وقد ظهر فى روسيا شىء من هذا القبيل . فالهوية اليهودية الجديدة تعبر عن نفسها من خلال أطر علمانية مثل دراسة ما يسمى بـ « التاريخ اليهودى » والحفاظ على الأماكن الأثرية اليهودية مثل المعابد والمقابر وافتتاح المتاحف اليهودية . وهذا جزء من عملية بعث قومية إثنية عامة فى روسيا .

وهناك نوعان من البعث الثقافى اليهودى فى الاتحاد السوفييتى أولهما هو البعث اليديشى ، ويجب أن نتذكر أن يهود اليديشية فى روسيا وبولندا كانوا دائما مهتمين بهويتهم شرق الأوربية وكانوا يروون أنهم يكونون « قومية » أو « أقلية قومية » شرق أوربية لها تجربتها التاريخية المحددة وتراثها الثقافى ولغتها اليديشية ، ولذا ارتطم هؤلاء من البداية مع التيار الصهيونى الذى كان ينادى بتصفية كل الجماعات اليهودية فى العالم ونقلها إلى فلسطين والذى شن حربا ضارية ضد اليديشية حتى نجح فى القضاء عليها تقريبا ـ أى أن هناك تيارا معاديا للصهيونية داخل التشكيل اليديشى .

وقد جاء فى الجيروساليم بوست (٨ أبريل ١٩٨٩) أن دعاة اليديشية أسسوا منظمة جديدة تضم شبابا وكهولا معادين للصهيونية وللعبرية ! ولكن إلى جانب هذا البعث الثقافى اليديشى يوجد بعث ثقافى روسى يهودى ، وهو الأهم (يعود الانقسام بين اتجاه يديشى وآخر روسى إلى أواخر القرن التاسع عشر) . هذا البعث الثقافى يشبه البعث الثقافى الأمريكى اليهودى ، والأدباء الروس اليهود ، تماما مثل أقرانهم الأمريكيين اليهود ، يكتبون أدبا روسيا باللغة الروسية يتناول زوايا خاصة من الحياة اليهودية ويعالج شخصيات يهودية وقد يقدم منظورا روسيا يهوديا . والأدباء الروس اليهود لا يختلفون فى هذا عن الأدباء الأوكرانيين الذين يعيشون فى روسيا ويكتبون أدبا أوكرانيا باللغة الروسية . وافتتاح مركز ميخولز Mikhoels للثقافة اليهودية هو تعبير عن هذا البعث الثقافى (يبدو أن هذا المركز قد أغلق أبوابه أخيرا ولكن توجد مراكز محلية أخرى كثيرة) .

ولابد من أن نبين هنا أن المضمون اليهودى للهوية مرتبط تماما بالمضمون الروسى أو اليديشى مما يعنى أن الحركة الناتجة عن هذا التعريف ليست طاردة وإنما جاذبة ، وقد عقد المؤتمر الأول للجان والمنظمات اليهودية حضره ٧٠٠ مندوب يهودى سوفييتى ، ومراقبين من كل العالم من ١٥٠ مركزا ثقافيا وسكانيا مختلفا . وهذا أول اجتماع من هذا النوع يعقد منذ نشوب الثورة البلشفية ، وكان أول مشروع قرار قدم له ذى طابع صهيونى فاقع ، إذ طلب مقدم المشروع أن يشار للهجرة اليهودية بأنها « إعادة توطين » . ولكن مندوب كييف (وهى تضم ثانى أكبر تجمع يهودى فى الاتحاد السوفييتى)

إعترض قائلا إنه لم يخول أحد أن يسمى إسرائيل وطن يهود كييف ، وأضاف أن مثل هذا القرار سيرضى المعادين لليهود لأنه يعنى أن كل اليهود السوفييت هم مواطنون مؤقتون يرغبون فى الهرب (وهذا هو الصراع الأزلى بين الصهاينة ويهود العالم) . وقال الاسكندر بوراكوفسكى من الجمعية اليهودية الثقافية : « يجب أن نتذكر اليهود الذين سيمكثون هنا فى روسيا ويعتبرونها وطنهم . كل كلمة ستنطق بها هنا ستنشر غدا فى الصحف ، وبوسعها أن تسبب لهم ضررا أو نفعا كبيرا » .

عند هذه النقطة قد يكون من المفيد أن نتوقف قليلا لنرسم صورة عامة وسريعة (اسكتش) لواحد من أهم الشخصيات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى ، إن لم يكن أهمها طرأ وهو ميخائيل تشلينوف ، الرئيس المناوب لمنظمة القاعد (وهى المنظمة المظلة التى تضم كل التنظيمات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى) : ولعل هذه الصورة تعطينا صورة محددة عن الإنسان السوفييتى اليهودى الجديد ! يعمل تشليتوف عالم لغة متخصص فى الإثنوغرافيا ولعله عالم فيما يسمى اللغويات الإثنية ، وهو متخصص أساسا فى قبائل الإسكيمو وشعوب المحيط الهادى فى جزر أندونيسيا ، كما أنه يجيد العبرية بل يعد من أهم معلمى العبرية فى روسيا . وتشلينوف هو حفيد واحد من أهم القادة الصهاينة الذين هاجروا إلى فلسطين واستوطنوا فيها ، وهو يحيل تشلينوف . وأم تشلينوف ليست يهودية ، وكذلك زوجته وابنه ، والمؤسسة الدينية الأرثوذكسية فى داخل وخارج اسرائيل لا تعتبره يهوديا . ويبدو أن اهتمامه بالعبرية ليس له أى مضمون صهيونى وإنما هو

اهتمام بالجذور الإثنية لشخصيته الروسية الثقافية (وهذه سمة أخرى مشتركة بين يهود الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، فيهود أمريكا مولعون بشكل يكاد يكون مرضيا بالبحث عن « جذورهم ») .

ويعمل تشلينوف رئيسا للجماعة اليهودية الثقافية فى موسكو أى أنه يسعى إلى بعث ثقافى لهويته الروسية اليهودية ، وجماعته هى أول جماعة يهودية منظمة منذ الثورة وتضم آلاف الأتباع . ومجموعة اهتماماته هذه تضعه فى مجابهة الصهيونية التى تهدف الى تصفية الجماعات اليهودية فى العالم والى تحويلها إلى وقود لآلة الاستيطان والحرب الصهيونية ، ولذا ليس من الغريب أن يصرح تشلينوف أنه لا ينوى الهجرة إلى اسرائيل لأنه يعلم جيدا الجو السيىء فى إسرائيل بخصوص الزوجات غير اليهوديات ، وأنه غير مستعد أن يخضع زوجته لهذه المعاملة . ثم أضاف أنه يرى أن الهجرة ليست سوى عنصر واحد للتعبير عن الهوية اليهودية (الروسية) (الجيروساليم بوست ١٩ يناير ١٩٩٠) . ويمكن أن نضيف أن تخصص تشلينوف فى قبائل الاسكيمو يجعل من المستحيل عليه الهجرة إذ أنه سيجد نفسه فى إسرائيل دون المادة التى يعمل عليها . وكم عدد علماء اللغويات والإثنوغرافيا الذين يمكن للمجتمع الاسرائيلى استيعابهم ؟ ويمكن القول إن تشيلنوف نموذج جيد لكثير من اليهود السوفييت . ومما يجدر ذكره أنه على الرغم من أنه قد قرر عدم الهجرة إلا أنه يؤيد هجرة اليهود السوفييت بل ويشجعها ، أى أنه صهيونى توطينى .

وحتى تكتمل لدينا خريطة يهود الاتحاد السوفييتي من منظور القابلية للهجرة سننظر لهم من زاوية توزيعهم الجغرافى ، وإن كان هذا التوزيع الجغرافى هو أيضا توزيع للهويات ، إذ أن كل جماعة يهودية تتأثر بمحيطها الحضارى فتكتسب هويتها مضمونا محليا يختلف عن المضامين التى تكتسبها الهويات الأخرى فى المحيطات الأخرى . وفيما يلى جدول بأعدادهم (حسب احصاء ١٩٧٩) :

جمهورية روسيا الاتحادية	٧٠١,٠٠٠
أوكرانيا	٦٣٤,٠٠٠
روسيا البيضاء	١٣٥,٠٠٠
أوزبكستان	١٠٠,٠٠٠
مولدافيا	٨٠,٠٠٠
جورجيا	٢٨,٠٠٠
أذربيجان	٣٥,٠٠٠
لاتفيا	٢٨,٠٠٠
ليتوانيا	١٥,٠٠٠
تاجيكستان	١٥,٠٠٠
استونيا	٥,٠٠٠
كازجستان	
كرجزيا	
تركمان	٣٥,٠٠٠
أرمينيا	

والغالبية العظمى من يهود الاتحاد السوفييتى أشكناز ، وهؤلاء هم بقايا يهود اليديشية الذين تركزوا فى بولندا وأوكرانيا وحدثت بينهم الانفجارة السكانية فى القرن التاسع

عشر فهاجرت من صفوفهم الملايين . وثمة نظرية تذهب إلى أن كل يهود العالم الغربى من نسل هؤلاء (باعتبار أن اليهود الأصليين فى انجلترا وفرنسا وغيرهما من البلدان انصهروا تماما فى مجتمعاتهم) .

ويعد الاشكناز العمود الفقرى للهجرة الجديدة . ولكن هؤلاء ينقسمون إلى قسمين :

أ) يهود المركز ، وهؤلاء هم الذين يعيشون فى تلك المناطق التى دخلت الاطار الشيوعى عام ١٩١٧ . أى أنهم عاشوا تحت الحكم الشيوعي ما يزيد على سبعين عاما وهذه الجماعات هى التى تتسم بأعلى درجات الاندماج والعلمنة . ويبلغ عدد هؤلاء على الأقل ١,٤٧٠,٠٠٠ حسب احصاء ١٩٧٩ ، أى أن أعدادهم الآن أقل ، ولكن لعل نسبتهم إلى غيرهم من الجماعات اليهودية لم تتغير ، وهم العناصر التى لا ترغب فى الذهاب إلى إسرائيل إذ أنها ـ بسبب درجة تأهيلها العلمي والمهني العالي ـ لن يمكنها أن تحقق أى حراك داخل المجتمع الصهيوني . ويجب الإشارة إلى أنه قد توجد أعداد من يهود المركز بين يهود الشرق ، إذ أن جزءا من السياسة السوفييتية كان دائما توطين عناصر روسية بيضاء فى جمهوريات الأطراف حتى لا تنفصل عن الدولة الروسية (فيما يشبه الاستعمار الاستيطاني) وفى هذه الحالة فإنه ينظر إلى اليهودى باعتباره روسيا أبيض لا باعتباره يهوديا ، وهذا تطبيق أولى للاحتمال الذى ذكرناه من قبل .

ب) اليهود الزابادنكى Zapadnki أى الغربيون ، وهؤلاء

هم الذين يعيشون فى المناطق التى ضمت إلى روسيا فى الحرب العالمية الثانية ولا يزالون محتفظين « بهويتهم اليهودية » وبعضهم لا يزال يتحدث اليديشية . ومن أهم هذه المناطق الجمهوريات البلطيقية : أستونيا ولاتفيا وليتوانيا (٤٨ ألف) ، ومولدافيا (بيساربيا) وهى على الحدود مع رومانيا (٨٠,٠٠٠) . وهؤلاء هم أكثر العناصر صهيونية إن صح التعبير ومن أكثرها رغبة فى الهجرة والتوجه إلى إسرائيل . ولكن لعل عددهم قد تناقص إذ لابد من أنه فى الخمسة عشر عاما الماضية هاجرت معظم العناصر القادرة على الهجرة والراغبة فيها . كما أن نسبة المسنين بينهم من أعلى النسب فى العالم . أما الجماعة الموجودة فى مولدافيا فهى من أهم الجماعات من منظور القابلية للهجرة فهم يقعون على منطقة حدودية مع رومانيا ، وهى منطقة تطالب رومانيا باستعادتها ، أو يطالب أهلها بالانضمام إلى الوطن الأم . ووضع اليهود داخل رومانيا كان دائما سيئا نظرا لظروف تاريخية طويلة وهم يشكلون نسبة ٢٪ من عدد السكان فى مولدافيا (وهى أعلى نسبة تركيز لليهود فى الاتحاد السوفييتى) وكلما زادت نسبة اليهود اتضح بروزهم ووجودهم وزادت درجة احتكاكهم بالسكان .

بقى بعد ذلك يهود جورجيا والجمهوريات الاسلامية ، وهؤلاء يبلغ عددهم ٢١٣ ألفا حسب احصاء ١٩٧٩ ، ولا يمكن القول إن عددهم تناقص لأن خصوبتهم عالية . وهى عناصر كما اسلفنا ليست كلها شرقية إذ يمكن القول أن ٢٥٪ منهم من اليهود الاشكناز . كما أن أعدادا كبيرة منهم بدأت تفقد هويتها التقليدية وتقبل عملية الترويس أو الروسنة (أى

صبغهم بالصبغة الروسية) وَمن ثم لا تعرف أعداد متزايدة منهم لغتها الأصلية (الجورجية أو لغة التات) ويتعلم أولادهم الروسية (وهم فى هذا يشبهون يهود البلاد العربية الذين فقدوا هويتهم العربية بالتدريج مع وصول الاستعمار الغربى وأرسلوا بأولادهم إلى مدارس الاليانس لتعلم الفرنسية وحصلوا على الجنسيات الأوربية المختلفة . ولذا عندما أعلنت الدولة الصهيونية كانت نسبة العرب بينهم لا تتجاوز أحيانا ٥٪) . هذا القطاع من اليهود مرشح بشدة للهجرة . فهذه جمهوريات تشبه البلاد النامية فى اقتصادياتها وفى التناقضات التى تعتمل داخلها وفى علاقاتها بالدولة السوفييتية . وهى تضم جماعات عرقية وإثنية مختلفة . فالقوقاز مثلا تعد من أثرى المناطق فى العالم من ناحية التنوع الإثنى واللغوى (ويقال إن هذا يعود إلى طبيعتها الجبلية التى تؤدى إلى انفصال كل مجموعة بشرية عن الأخرى ، بل وعن العالم بأسره) . وهذه المجموعات لابد من أنها ستتناحر فيما بينها مع تراجع سلطة الدولة السوفييتية المركزية ومع تصاعد الوعى القومى بينها ، ولذا فهذه الجمهوريات ستكون مناطق طرد . ولكن يجب أن نشير إلى عنصرين :

١ ـ قد تجد نسبة الـ ٢٥٪ من أصل اشكنازى أن ثمة فرصا جديدة تتفتح أمامها داخل المجتمع السوفييتى الجديد الذى يضم قطاعا خاصا كبيرا ، كما أن العناصر الشرقية نفسها ، خاصة التى تروسنت ، قد تجد أنه يمكنها أن تهاجر إلى المدن الروسية الكبرى لتحقيق ما تطمح إليه من حراك . ويوجد سابقة لهذا فى تاريخ الهجرة اليهودية ، إذ اتجهت

العناصر المهاجرة من وسط روسيا ومناطق الاستيطان فى منتصف القرن التاسع عشر إلى ما كان يسمى حينذاك روسيا الجديدة على ساحل البحر الأسود وهى الإمارات التركية التى ضمتها الامبراطورية الروسية .

٢ ـ يجب أن نشير إلى أن كثيرا من العناصر القادرة على الهجرة والرغبة فيها قد هاجرت فى الفترة بين ١٩٧٠ ـ ١٩٩٠ ، مما يعنى أن نسبة القادرين والراغبين بين العناصر المتبقية صغيرة .

وقبل أن نترك خريطة الهويات اليهودية لابد من أن نذكر أنه يوجد عدم تجانس كبير داخل كل مجموعة يهودية ، وهو عدم تجانس يتزايد كلما زاد عدد المهاجرين . فيهود المركز يتحدثون أساسا الروسية (ولعلهم يتسمون بقدر من التجانس أعلى من أى مجموعة يهودية أخرى ، وهو تجانس اكتسبوه من خلال تزايد اندماجهم فى المجتمع الروسى) . ومع هذا توجد بينهم عناصر تتحدث الأوكرانية واليديشية . وهم علاوة على هذا ينقسمون إلى صهاينة ومتدينين وعلمانيين متقبلين لهويتهم الروسية اليهودية وعلمانيين رافضين لها متمردين عليها الخ . أما يهود الزابادنكى فهم ينقسمون إلى ليتوانيين ولاتفانيين الخ ، ولكل جماعة قسماتها الحضارية (التى لا تزال لها أصداؤها داخل التجمع الصهيونى) .

أما يهود جورجيا والجمهوريات الاسلامية فدرجة عدم التجانس بينهم أعلى بكثير كما هو متوقع ، فهناك يهود الجبال الذين يتحدثون التات ، ويهود بخارى وهم أكبر مجموعة ويتحدثون الطاجيكية ، ويهود جورجيا الذين يتحدثون

الجورجية ، ويهود الكرمشاكى (الذى يبدو أنهم هاجروا بقضهم وقضيضهم إلى الولايات المتحدة) ، واليهود القراؤون الذين يبلغ عددهم خمسة آلاف وهؤلاء لا يفكرون فى الهجرة إلى إسرائيل فهم رافضون لليهودية الحاخامية . وعدم التجانس يمكنه أن يؤثر سلبا أو ايجابا على كل مجموعة فى عمليات الطرد والجذب وعمليات التساقط . وقد وجدت احصائية عن نسبة المتساقطين عام ٧٧ ـ ٧٨ من منظور مسقط رأسهم تبين أن حوالى ٨٥٪ من كل المهاجرين الروس من يهود المركز قد تساقطوا (٩٦٪ من كل المهاجرين من أوديسا ، و٩٢٪ من كل المهاجرين من كييف) ، بينما لم يتساقط سوى ١٧,٦٪ من كيشينيف (الموجودة فى جمهورية مولداڤيا) ٢٤٪ من المهاجرين من تفليس (أوزبكستان) . وهذا يؤيد استنتاجنا السابق بأن يهود الشرق ومولداڤيا سيكونون من أهم العناصر التى ستتجه إلى إسرائيل ، خاصة أن مستواهم التعليمى منخفض نوعا (بالقياس ليهود المركز) ولذا قد تكون فرصتهم فى تحقيق الحراك الذى يطمحون إليه فى إسرائيل أعلى منه فى المجتمع الأمريكى الذى يتطلب تخصصات دقيقة ومستوى تعليمى رفيع . ويقف هذا على طرف النقيض من يهود المركز الذين يشكلون ـ كما أسلفنا ـ نخبة فنية علمية مهنية ، وبالتالى فهجرتهم إلى إسرائيل تعنى ورطة حقيقية للطرفين إذ أن المجتمع الصهيونى ليس متقدما بما فيه الكفاية ليستوعب هذا العدد من المؤهلات العالية ـ ومن هنا نسبة التساقط العالية بينهم التى تصل أحيانا إلى ما يزيد على ٩٠٪ .

وحتى لا يخرج القارىء بانطباع احصائى خاطىء ويظن أن هناك مجموعات وهويات يهودية متساوية فى الأهمية

والعدد يجب أن نكرر أن اليهود المتدينين أقلية صغيرة للغاية (٣٪) . أما يهود مولدافيا ولاتفيا وليتوانيا وأستونيا الذين يتسمون بوجود عدد كبير من الصهاينة بينهم فهم لا يزيد نسبتهم على ٧٪ ، كما أن العناصر الصهيونية بينهم وبين اليهود السوفييت قد هاجرت فى المرحلة السابقة (١٩٧٠ ـ ١٩٩٠) . أما يهود جورجيا وأرمينيا والجمهوريات الاسلامية (أزبكستان وأذربيجان وغيرها) الذين يتمتعون بهويات إثنية واضحة فهم لا يزيد عددهم على ١١٪ (ربعهم من اليهود الاشكناز المتروسين) . ويجب أن نضيف إلى كل هذا أن الهوية الروسية اليهودية أمر جديد كل الجدة وهش ولا تصلح أساسا للتعبئة أو التنظيم إذ لا توجد عقيدة سياسية أو إثنية تنادى بالدفاع عنها والحفاظ عليها وتطويرها ، هذا على عكس الهوية اليديشية التى لها أيديولوجيتها المحددة . ولكن عدد المتحدثين باليديشية صغير للغاية ومعظمهم من المسنين وعدد المهتمين بها أصغر .

كل هذا يجعلنا نذهب إلى أن الغالبية الساحقة من يهود الاتحاد السوفييتى لا دينيون ولا يؤمنون بالصهيونية أو أى عقيدة أخرى ولا توجد عندهم هوية يهودية واضحة . ولكننا سنجد أنهم يتسمون بسمة جوهرية واضحة مركزية أنهم ينتمون إلى ما يسمى فى علم الاجتماع الغربى عصر ما بعد الايديولوجيا أى أن يعيش المرء فى الحياة الدنيا بشكل اجرائى كفء ، لا يفكر إلا فى يومه ، وإن فكر فى مستقبله فهو يفعل ذلك بنفس المعايير الهندسية الاجرائية ، وهو عادة لا يفكر فى الماضى . وعملية التفكير عادة ما تكون بريئة من أى أثقال ايديولوجية أو أعباء نظرية أو أخلاقية ، فالمعايير

المستخدمة علمية مادية دقيقة تهدف إلى تعظيم المنفعة واللذة . ويلاحظ بالفعل أن معدلات العلمنة بين اليهود السوفييت مرتفعة إلى أقصى درجة (بل يقال إنهم يتصفون - فى بعض الجوانب - بأعلى معدلات العلمنة فى الاتحاد السوفييتى) وأنهم يؤمنون بقيم المنفعة (عادة الكمية) واللذة (عادة المباشرة) ، وتطلعاتهم الاستهلاكية شرهة لا يخفف من حدتها أية قيم ، وهى تطلعات لا تقبل أى ارجاء بسبب غياب أى مثل عليا أو نظريات دينية أو عقائدية .

لهذا السبب نجد أن وعى اليهود السوفييت السياسى ضعيف للغاية وان كانوا يتسمون بعداء حقيقى للاشتراكية . ولكن عداءهم هنا لا يعنى موقفا نظريا وإنما هو عداء ذرائعى لكل النظريات والمطلقات ، فالاشتراكية فى نهاية الأمر تحوى داخلها قدرا من المثاليات ينبع من إيمانها بالانسان كمطلق . وقد حاول بعض المعلقين السياسيين أن يطرحوا إمكانية أن يكون اليهود السوفييت على قدر عال من الوعى السياسى بسبب أجهزة الإعلام السوفييتية التى كانت تحاول أن تفضح إسرائيل والصهيونية . ولكن بناء على العينة التى وصلت بالفعل نجد أن هذا تصور لا أساس له من الصحة ، فالمهاجرون السوفييت يكرهون الكيبوتسات بسبب شكلها الجماعى فهى تذكرهم بالمجتمع الذى نبذهم ونبذوه ، وقد أظهروا عدم اكتراث بكل من الصهاينة والعرب .

مثل هؤلاء البشر يتسمون بحركية غير عادية وبرغبة عارمة لتحقيق الحراك الاجتماعى وتحسين المستوى المعيشى دون أى اكتراث بأى قيم ثقافية أو دينية أو خصوصية حضارية أو

أيا من هذه المطلقات التى تسبب الصداع للرؤوس الاستهلاكية - أى أن قابليتهم للهجرة مرتفعة إلى أقصى حد . والمهاجرون الذين وصلوا يبينون مدى صدق الصورة التى رسمناها . وقد وصفهم كاتب فى الفايناشيال تايمز بأنهم « مهاجرون اقتصاديون » (عن القبس ٤ مارس ١٩٩٠) . كما وصفهم كاتب آخر فى التايمز (٣ يناير ١٩٩٠) بأنهم هاربون من الاتحاد السوفييتى وليسوا مهاجرون إلى اسرائيل . أما جوليا ميرسكى (عالمة نفسية فى الجامعة العبرية) فقد وصفتهم بأنهم لاجئون وليسوا مهاجرون . ووصفهم كارل شراج (فى الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) بأنهم مستوطنون بالاكراه أو رغم أنفهم . ولكننى أفضل وصفهم بالمرتزقة ، والاصطلاح الذى أقترحه أكثر دقة فالمرتزق هو الذى لايقوم بعمل إلا نظير مقابل ، والتزامه بعمل ما هو التزام خارجى تعاقدى أى أنه لا يشعر نحوه بأى ولاء حقيقى . ويتميز مصطلحنا أنه مصطلح متداول فى علم الاجتماع ، مما يعنى أنه يحوى قدرا من العمومية ولا يسقط فى التخصيص الكامل .

وهؤلاء المهاجرون المرتزقة كما قلنا عندهم قابلية هائلة للهجرة بحثا عن تحسين المستوى المعيشى ، ولذا فالمنطقى أن يتجهوا إلى الجولدن مدينا ، وهى عبارة يديشية تعنى البلد الذهبى ، أى الولايات المتحدة ، حيث الشوارع من فضة والأرصفة من ذهب . ولذا يلاحظ أنهم لا يعرفون العبرية وإن أعدادا كبيرة منهم تجيد الانجليزية إذ كانوا يعدون أنفسهم للهجرة لها . وكما لاحظ آلان فراشون (لوموند فى القبس ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩) « أن الغالبية العظمى من اليهود السوفييت

المسموح لهم بالهجرة كانوا لا يتحدثون سوى عن الولايات المتحدة » .

ولكن البلد الذهبية اللعوب هيجت من أجلهم ثم أوصدت أبوابها دونهم (أو واربتها قليلا) ومن ثم أصبحت إسرائيل بالنسبة لهؤلاء الحركيين العمليين أسهل سبيل ، بل السبيل الوحيد للخروج من الاتحاد السوفييتى ، ولكن يظل الحلم الأكبر هو أرض الميعاد الأمريكية . ولذا فكثير من المهاجرين يأتون صاغرين لا يحملون فى قلوبهم أى تطلع لصهيون أو حب لها « فهم لا يريدون سماع أى شىء عنها » (على حد قول أورى جوردون رئيس قسم الهجرة بالوكالة اليهودية) (يدعوت أحرونوت ١٠ ابريل ١٩٨٨) ، كما أنهم لم يبدوا موافقة أو ترحيبا باستئناف العلاقات بين الاتحاد السوفييتى واسرائيل لأن هذا الأمر سيؤدى إلى نقل المهاجرين مباشرة إلى إسرائيل ، مما يفوت فرصة الهجرة إلى الولايات المتحدة (هآرتس ٨ فبراير ١٩٨٩ ، عمر سعاده ، « اليهود فى الاتحاد السوفييتى واشكالية استيعابهم فى اسرائيل » (شئون فلسطينية عدد ٢٠٧ يونيه ١٩٩٠ ص ٨٠) .

ومن بين هؤلاء الذين لم يتمكنوا من الحصول على تأشيرة مارينا ليشكنر وزوجها ديمترى اللذان اضطرا للذهاب إلى إسرائيل : « ولا أعرف ماذا سنفعل فى المستقبل ؟ سنعيش هنا فى الوقت الحاضر ، ثم سنرى » . (الجيروساليم بوست ٣٠ فبراير ١٩٩٠) . أما برنارد خالفين (أوكالفين) فقد قال لم يكن أمامى خيار سوى أن أذهب إلى إسرائيل بعد أن قضينا سبعة شهور فى روما . ولكنه أضاف : « لا أريد أن

أبقى هنا » خاصة أن حبيبته / صديقته التى قابلها فى روما حصلت على تأشيرة ويود أن يلحق بها هناك ، على الرغم من أن قوانين الولايات المتحدة تجعل ذلك صعبا ، ولكن هذه الحقائق لا تغير من تصميمه أن يهرب « لقد اضطررت أن أحضر هنا . هذه أرضى ولكنى لا أشعر أنى جزءا منها . الكل هنا غريب » (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) .

وقد لاحظ أحد المعلقين أنه يوجد الآن سبع صحف ناطقة بالروسية فى إسرائيل أسس خمس منها عام ١٩٨٩ ليس لها موقف سياسى واضح ، أما السابعة فاسمها كروغ تؤيد حزب تسوميت (بزعامة روفائيل ايتان الداعى لتهجير العرب) . وتتألف الصحف من مقالات مطولة من الصحافة الغربية والاسرائيلية ، وينسخ بعضها صفحات كاملة من الصحف الروسية ، وتعتمد على الاعلانات ، وحيث أن المهاجرين السوفييت « هى أول جماعة مهاجرين على الاطلاق تمنحها الحكومة مبالغ نقدية كبيرة فقد راجت جميع المصارف الاسرائيلية تغازلهم . وثمة مساحة كبيرة يحتلها معلنون يعرضون تزويد القراء بأشد ما يرغب المستهلكون فيه من سلع : تأشيرات دخول إلى كندا (« الروس قادمون » ص ٧١) ـ أرض ميعاد أخرى مجاورة للجولدن مدينا . وقد وصف أرييه ديرى ، وزير الداخلية ، المهاجرين المرتزقة وصفا دقيقا حين قال إنهم بعد وصولهم ستجدهم جالسين على حقائب السفر (الجيروساليم بوست ٢٠ يوليو ١٩٩٠) .

أما أوبليون فقد قال :

« بعض ممن لا يمكنهم الذهاب إلى الولايات المتحدة سيأتون إلى إسرائيل بهدف استخدامها كمحطة على الطريق ، وسيقومون باستغلالنا أيضا ، وسيأخذون أى خبرات قد نقدمها لهم ، وقد ينتهى بنا الأمر بأن يتجمع عندنا عدد كبير من الناس الذين يشعرون بالبؤس ، والذين ينتظرون أول فرصة لينزحوا عن إسرائيل » (الجويش ويك ٢٧ أكتوبر ١٩٨٩) . فهم يعرفون تماما « أن إسرائيل بلد صعب وأن الولايات المتحدة بلد سهل بالمقارنة » (الجيروساليم بوست ٢٥ فبراير ١٩٨٩) . والسهولة قيمة أساسية بالنسبة لهؤلاء الباحثين عن « الراحة والترف » (كما وصفهم يورى جوردون رئيس قسم الاستيعاب فى الوكالة اليهودية ، المسئول عن توطين اليهود السوفييت) (النيويورك تايمز ٢٨ يناير ١٩٩٠) .

وحيث أن الإعلام العربى والدراسات العلمية تتحدث دائما عن « الموضوعية الصهيونية » و« الوحدة اليهودية » لألخص للقارىء خطابا نشرته جريدة الجيروساليم بوست عن سلوك بعض المهاجرين . إذ لاحظ أحد القراء أن بعض يهود جنوب افريقيا من الشبان يهاجرون منها إلى أرض الميعاد ويستفيدون بالمنح الدراسية المتاحة للمهاجرين وبالخدمات المجانية المختلفة وبالاعفاء من الخدمة العسكرية ، وعند الحصول على الشهادة الجامعية يحزمون أمتعتهم ويولون الأدبار . وبريد القراء ملىء بخطابات مثل هذا عن سلوك المهاجرين الجدد الذين لا يكفون عن الشكوى وعن طلب الخدمات والمزيد من الخدمات وعن الشقق الفاخرة التى تمنح لهم وهكذا .

وإذا كانت المؤسسة الصهيونية تتغاضى عن هذا الجانب

« إذ يرفض المسئولون الحكوميون والوكالة اليهودية التفكير بموضوعية فى بواعث الهجرة الحقيقية لدى هذا الجيل من المهاجرين » (اللوموند فى القبس ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩) إذا كانوا يفعلون ذلك من أجل الحاجة الماسة للمادة البشرية القتالية ، فإن هذا لايغير من الصورة شيئا . إذ أن مايحدد سلوك هؤلاء المهاجرين المرتزقة سواء فى الاتحاد السوفييتى أم خارجه ، وسواء فى إسرائيل أم خارجها ، هو تطلعاتهم الشرهة وانعدام الولاء لأى أرض أو بلد أو قيم ، فهذا هو الذى سيجعلهم عندهم قابلية غير عادية للهجرة من الاتحاد السوفييتى إلى إسرائيل لتحسين مستواهم المعيشى ، ولكن هذا أيضا هو الذى سيجعل عندهم قابلية غير عادية للتساقط والنزوح . كما أنهم ـ لنفس السبب ـ سيشكلون ولاشك عبئا على التجمع الصهيونى الذى يود شراء رضائهم إن هم حلوا فيه .

ونحن حينما استخدمنا مصطلح مرتزقة (منذ عام تقريبا) لوصف المهاجرين اليهود السوفييت كنا نستخدمه بشكل مجازى ، ولكن يبدو أن النموذج التحليلى يمكن أن يكون أكثر صدقا وتفسيرية مما يتصور المرء ، ويظهر هذا فى ظاهرة البغايا بين المهاجرين . فقد جاء فى الأنباء أن حوالى ألف مهاجرة سوفييتية ، كثيرات منهن حاصلات على شهادات جامعية ، قد امتهن وظيفة البغاء : منهن ٥٠٠ عاهرة ، و٢٥٠ يعملن فى مصحات التدليك و١٥٠ فى خدمات الاسكورت المرافقة escort . ومصحات التدليك وخدمات الاسكورت هى شفرات أو واجهات لممارسة حرفة البغاء (الجيرو ساليم بوست ٣ نوفمبر ١٩٩٠) . وجاء فى الأهرام (نفس اليوم)

« أن حيا بأكلمه هو حى كرمئيل تحول الى حى القادمات الجدد المشتغلات بهذه المهنة الرخيصة » .

ومن المعروف أن البغاء لاينتشر بسبب الضيق الاقتصادى وحسب (كما قد يتبادر للذهن لأول وهلة) وانما بسبب تصاعد التطلعات ومن ثم ضعف التحمل . وقد اطلعت على دراسة في الموضوع تبين أن معظم البغايا لايعشن فى حالة ضيق اقتصادى وانما هن أساسا عناصر حركية نشطة ولذا ضقن ذرعا بأوضاعهن وفقدن الايمان بأى مطلقات أو مثاليات (سوى المنفعة واللذة) فحولن أجسادهن الى احدى وسائل الانتاج أو جزء من قطاع الخدمات ، وبذا تحول الانسان من غاية الى وسيلة أو سلعة - أى أن البغى هى حالة متطرفة متبلورة من الانسان المرتزق . (وقد يكون من المفيد أن نشير الى أن يهود اليديشية كانوا من أهم مصادر البغايا فى العالم بين الفترة من ١٨٨٢ حتى عام ١٩٣٥ ، ولعل اشتغال المهاجرات السوفييت بالبغاء هو بقايا هذا الميراث الاقتصادى المهنى المشين) . وبالمناسبة ألا يصلح هذا مؤشرا على ماحدث للانسان السوفييتى بعد سبعين سنة من الدعاية الالحادية وربما على ما يحدث داخل المجتمع السوفييتى ؟ وأرجو الا يفهم من هذا أننى أصدر حكما أخلاقيا على أحد ، فكل ما أهدف إليه هو تحسين مقدرتنا على الرصد .

وفى ختام هذا الفصل قد يكون من المفيد تزويد القارىء ببعض المعلومات عن قوانين الجنسية فى الاتحاد السوفييتى وطريقة التقدم بطلب الهجرة والحصول على الجنسية الاسرائيلية .

يوجد فى الاتحاد السوفييتي بندان لوصف وضع المواطن القانوني : جراجدانستفا grazhdanstva وهى حرفيا تعنى المواطنة ، وناسيونالنوست nationalnost أى القومية وهى تشير الى الاصول الاثنية والعرقية ، فالأوكراني هو أوكراني القومية ولكنه مواطن سوفييتي ، وكذا يهود الاتحاد السوفييتى فهم يهود القومية ولكنهم مواطنون فى الاتحاد السوفييتى (مع الفارق أن اليهود هم أعضاء القومية الوحيدة التى ليس لها أرض ـ خاصة بعد فشل تجربة بيروبيجان) . ويحمل المواطنون السوفييت مايسمى بجوازات سفر داخلية وهى أشبه ببطاقات تحقيق الشخصية وتظهر فيها « قومية » حاملها . وبحكم القانون يجب على اليهود تسجيل أنفسهم يهودا كما يجب على الأبوين اليهوديين تسجيل أولادهم يهودا (ولكن يبدو أنه على مستوى الممارسة تتم تجاوزات كثيرة) . ويلجأ كثير من اليهود السوفييت الى تغيير اسم الأسرة بحيث تختفى منه النكهة اليهودية ، كما يتسمون باسماء روسية فاقعة مثل ايفان ويبتعدون عن الاسماء اليهودية . أما ابناء الزواج المختلط بين الذكر اليهودى والانثى غير اليهودية فان القانون السوفييتى يلزم تسجيل ابناء هذا الزواج يهودا على عكس الزواج المختلط بين الذكر غير اليهودى والانثى اليهودية . ومع هذا يسمح القانون لابناء هذه الزيجات اختيار القومية التى يريدها كل عند بلوغ سن الرشد .

وفى الماضى إن أراد اليهودى الهجرة كان عليه التقدم بطلب الهجرة إلى الدائرة المختصة فى وزارة الداخلية السوفييتية ، يتضمن معلومات وافية ودقيقة عن وضعه الاجتماعى ، والثقافى ، والمادى ، فتدرس السلطات

المختصة طلب الهجرة فى فترة قد تطول أو تقصر ، وفقا لتوجيهات سياسية عليا . وبصورة عامة ، فأن فترة سنتين من الانتظار هى معدل وسطى تصل احيانا بضعة سنين ، والاستجابة لطلبات الهجرة فى المناطق الريفية ومناطق آسيا الوسطى أسرع نسبيا منها فى مناطق المدن .

بعد الموافقة الأولية على طلب الهجرة يطلب من صاحبه الحصول على تأشيرة دخول الى اسرائيل . وبعد الحصول عليها يصبح المواطن اليهودى السوفييتى فى حكم المهاجر ، ويفقد جواز سفره وجنسيته دون أن يكتسب أية جنسية أخرى .

وبعد انتهاء اجراءات الهجرة كانت تقوم الحكومة السوفييتية بتسفير هؤلاء المهاجرين الى فيينا التى تعتبر محطة « ترانزيت » وذلك بموجب اتفاق خاص مع الحكومة النمساوية . وفى فيينا ، حيث كان يصل المهاجرون اليهود اليها برا أو جوا ، استأجرت الحكومة النمساوية بالاتفاق والتعاون مع منظمتى « هياس » و« جوينت » فنادق خاصة لاقامة المجموعات اليهودية الوافدة ، وكانت الحكومة النمساوية تمنع أى اتصال من جانب ممثلى السفارة الاسرائيلية أو الوكالة اليهودية بهؤلاء قبل أن يختاروا مركز التوجه : فلسطين المحتلة أو إحدى بلدان أوربا الغربية أو الولايات المتحدة الامريكية أو غيرها . وبعد أن يختار هؤلاء جهة التوجه تتولى السفارة الإسرائيلية والوكالة اليهودية مهمة تسفير من اختاروا الأرض المحتلة .

أما الذين كانوا يختارون المهاجر الأخرى وهم يشكلون

النسبة الأكبر عادة فيقيمون فى فيينا فترة لاتقل عن اسبوعين ولاتزيد على شهر ينتقلون بعدها الى ايطاليا حيث توجد لهم ثلاثة مراكز تجمع كبيرة ينتظرون فيها فترة تتراوح بين الشهرين والستة شهور وأحيانا اكثر من ذلك إلى أن يحصلوا على إذن الدخول والهجرة الى الولايات المتحدة الأمريكية التى يفضلها معظمهم ، أو إلى أستراليا أو كندا أو نيوزيلنده . وكثيرا ماتطول فترة بقاء الكثيرين منهم على ستة شهور.

وقد تم تعديل القانون بحيث لايمكن لأى من اليهود السوفييت الهجرة للولايات المتحدة الا إذا تقدم بطلبه فى موسكو ذاتها ، وتحاول الدولة الصهيونية سد أى ثغرة مماثلة ، ولذا رفضت أن تحول فنلندا الى نقطة عبور لأن الحكومة الفنلندية أصرت على اعطاء الخيار لليهود السوفييت أن يهاجروا الى أى مكان يشاءون . كما أنها تحاول أن تقوم خطوط الطيران بنقل المهاجرين مباشرة من موسكو الى تل أبيب ، (هشام الدجانى ، هجرة اليهود السوفييت ، الخلفيات والوقائع والتطورات ، شئون فسلطينية ، ابريل ١٩٩٠ ، ص ٨٦ ـ ٨٧) . وقد جاء فى الجيروساليم بوست (٦ اكتوبر ١٩٩٠) أن خطا مباشرا على وشك أن يبدأ .

حينما يصل المهاجر الى اسرائيل فمن حقه أن يصبح مواطنا إسرائيليا فى التو واللحظة ـ أو هكذا كان الأمر فى السابق . ولكن بعد أن ظهرت مشكلات قانونية يمنح المهاجرون لدى وصولهم وضع المقيم ووثيقة مهاجر وبطاقة هوية ، ولذلك يتعين عليهم تقديم معلومات عن اسمائهم وأسماء والديهم وأماكن اقامتهم السابقة ومهنهم وأعمارهم .

وهم يسألون عن ديانتهم ، فاما الذين يعجزون عن تقديم اثبات كشهادة الحاخام او الاسم اليهودى ، وتلك هى حالة معظم اليهود الروس ، فلا يطلب منهم إلا توقيع تصريح يفيد بأنهم يهود . وأما الذين لايستطيعون أن يفعلوا ذلك ، كالزوجات عادة أو غيرهن من الأقارب ، فيمنحون وثائق شخصية تبين جنسيتهم كروس أو اوكرانيين أو ماشابه ذلك .

ولايوجد تمييز حقيقى فى هذه المرحلة بين اليهود وغير اليهود أو بين اولئك الذين امهاتهم يهوديات ، وهو مايجعلهم يهودا بحسب الشرع اليهودى ، وبين أولئك الذين آباؤهم يهود فحسب ، وهو مالايؤهلهم لأن يكونوا يهودا . ثم إن الجميع يحالون من قبل مسئولى الوكالة اليهودية على مسئولى وزارة الاستيعاب العاملين فى المطار ، والذين يطلعونهم على حقوقهم وعلى الترتيبات المعدة لهم مثل الدروس العبرية ، والاعمال المتاحة لهم ، كما انهم يمنحون مبلغا قليلا من المال لتغطية نفقاتهم فى الايام القلائل الأولى .

وبعد مرور عام يصبح اليهود المهاجرون مواطنين اسرائيليين تلقائيا ، اما أولئك الذين يفتقرون الى الوالد « الملائم » وغيرهم من الزوجات غير اليهوديات ، فقد يصبحون مواطنين باعتناق اليهودية دينا ، وأما المهاجرون الذين يزعمون كذبا انهم يهود فيجردون من وثيقة الاقامة ويرحلون (باليس ، ص ٦٢) .

ثم تبدأ اجراءات الاستيعاب وهى تتفاوت من مرحلة لأخرى ولكن فى الوقت الحالى يتم اعطاء المهاجر منحة مالية وقروض

لتوفير الاسكان والمعيشة تعجل باستيعابه فيما يسمى بالاستيعاب المباشر ، ولكن هذه الاجراءات ذاتها تجعل نزوحه فيما بعد صعبا إن لم يكن مستحيلا اذ عليه رد المبالغ والفوائد .

ويلاحظ أنه فى الآونة الأخيرة بدأت اجراءات الاستيعاب فى الاتحاد السوفييتى ذاته اذ إنه نظرا لتأخر كثير من اليهود السوفييت عن الهجرة بسبب متاعهم وحقائبهم التى يستغرق شحنها وقتا طويلا فقد قررت الوكالة اليهودية بالتعاون من منظمة ڤاعد أن تدفع لكل مهاجر ١٥٠٠ دولار ليترك متاعه .

وقد خفض المبلغ فى نوفمبر إلى ألف دولار ، كما خفض الوزن المسموح به لكل مهاجر إلى طن واحد بعد أن كانت الوكالة تدفع مصاريف شحن أى أمتعة يرسلون بها مهما كان وزنها (والتى كانت تبلغ فى المتوسط طنين) . كما لم يعد من حق المهاجر ترك أمتعته فى مستودعات الوكالة اليهودية لمدة تزيد على عشرة شهور . وستطبق هذه القواعد الجديدة ابتداء من يناير ١٩٩١ .

وبطبيعة الحال أحتج المرتزقة وممثلوهم . فقال أحدهم إن هذا سيحول القادمين « من مهاجرين إلى لاجئين » (الجيروساليم بوست ٨ نوفمبر ١٩٩٠) . واحتج ميخائيل تشلينوڤ الرئيس المناوب لمنظمة ڤاعد على منحة بدل الشحن التى تعطى للمهاجرين قائلا إنه مبلغ صغير ولايمثل اى شىء بالنسبة لأسرة من أربعة يتركون كل ممتلكاتهم وراءهم . وحينما اخبروه بضيق الاسرائيليين من اصرار اليهود

السوفييت على احضار ممتلكاتهم الضخمة بما فى ذلك البيانو ، كان رده : « متى سيمكن لليهودى السوفييتى المهاجر أن يشترى بيانو آخر » (الجيروساليم بوست ٧ أكتوبر ١٩٩٠) . (وقد سجل تشيلنوف احتجاجه قبل التخفيض المقترح) . أما صموئيل زيلبرج (وهو الرئيس المناوب الآخر لمنظمة قاعد) فقد أشار إلى أن مشكلة المهاجرين ليست قلة الأموال وإنما مقدرتهم على تحويلها (بسبب القوانين السوفييتية) ، ولذا فهم يقومون بشراء أكبر قدر ممكن من السلع المعمرة مرتفعة الثمن مثل الفيديوهات وأفران الميكروويف لينقلوها معهم ، (الجيروساليم بوست ، ٨ نوفمبر ١٩٩٠) . وقد وُصِف المجتمع الاسرائيلى بأنه مجتمع الثلاثة ڤيه V ـ نسبة إلى ولع الاسرائيليين بالڤيللا والڤولڤو والڤيديو ـ وها هى ذاڤيه رابعة تضاف إليه ـ رغم أنها تقع فى آخر الكلمة . ولعل هذه هى المرة الأولى فى التاريخ تناقش فيه أمور مثل الڤيديو والميكروويف فى سياق الحديث عن انقاذ الشعب اليهودى المسكين من المذابح .

وإذا قرر المهاجر النزوح فإنه سيفاجىء أنه قد فقد حق دخول الولايات المتحدة باعتباره لاجئا ولم يعد أمامه الا التقدم بطلب تأشيرة دخول عادية كما يفعل الكثيرون من الاسرائيليين ، « كما أنه سيكتشف أنه غارق فى الديون التى تتضمن ثمن تذكرة الطائرة والاقامة والمعونات والقروض التى حصل عليها . ولاتعتبر كل هذه المبالغ هبة الا إذا مكث فى إسرائيل خمسة أعوام . وفى حالة التقدم بطلب الحصول على جواز سفر من أجل المغادرة ، فعلى المهاجر رد المال المستحق عليه فورا . ويتم ارسال جميع المعلومات عن

جوازات سفره إلى دائنه الرسمى « عيد ود بنك » الذى تمتلكه الوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب » (باليس ، ص ٧٣) .

وفى ختام هذا الفصل يمكننا أن نحصر السمات العامة للجماعات اليهودية فى روسيا فى الوقت الحاضر :

١ - جماعة مسنة .

٢ - تدنى الخصوبة بين الاناث .

٣ - ارتفاع نسبة الزواج المختلط ووجود عدد كبير من الأعضاء غير اليهود فى الأسرة اليهودية .

٤ - الأسر اليهودية صغيرة أو متوسطة الحجم وهى أساسا أسر نووية .

٥ - الغالبية العظمى لافراد الجماعات اليهودية يعيشون فى المدن .

٦ - تناقص اعدادهم .

٧ - يتركزون فى الجمهوريات الأكثر تطورا . (يوجد ثلاث اربع يهود الاتحاد السوفييتى فى روسيا الاتحادية وأوكرانيا وروسيا البيضاء ومولدافيا) .

٨ - متعلمون تعليما عاليا .

٩ - عدم تجانس الخلفيات الثقافية والعقائدية لافراد الجماعات اليهودية .

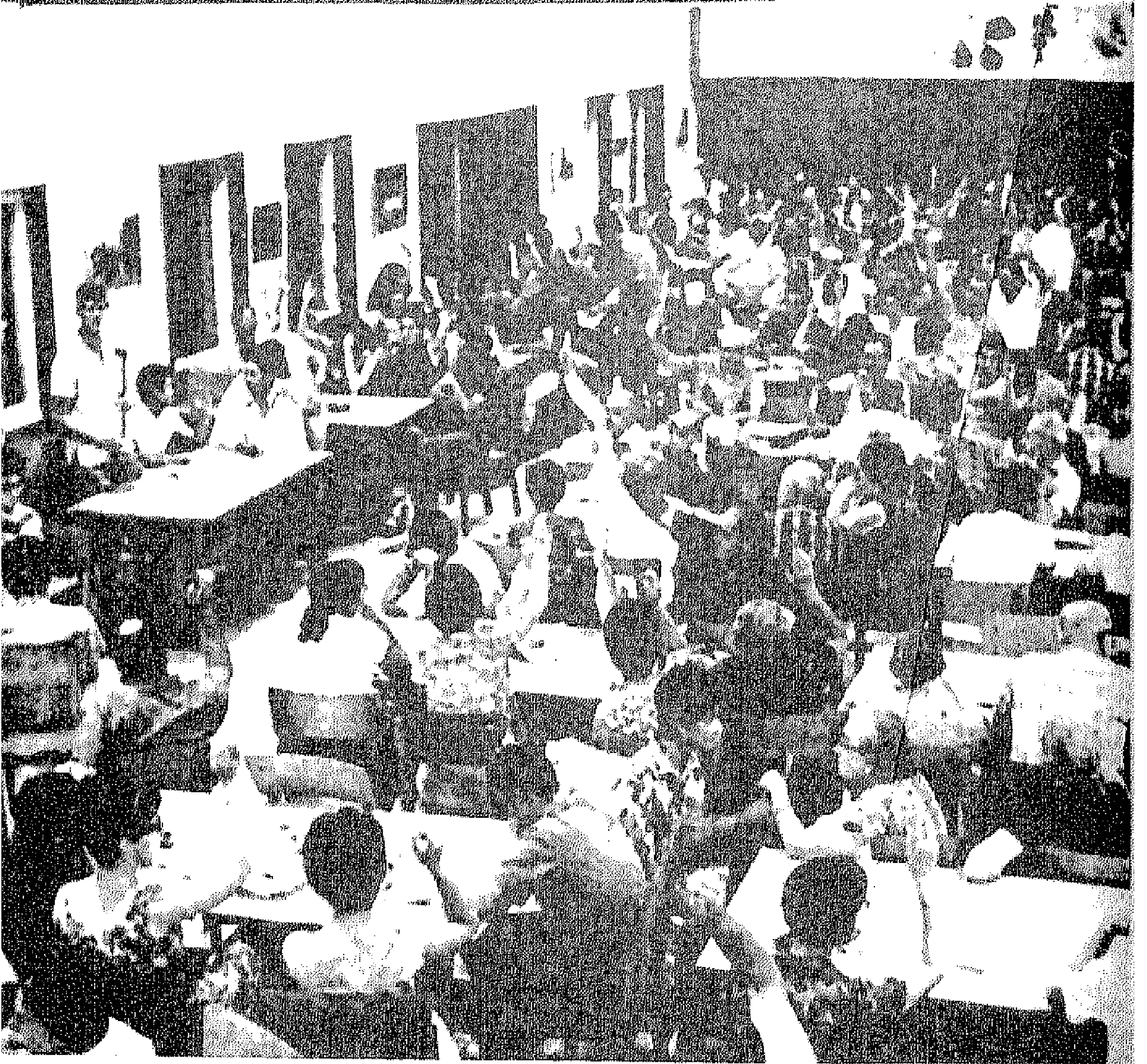
١٠ - ازدياد معدلات العلمنة بينهم .

١١ - عدم انتشار العقيدة الصهيونية بينهم .

١٢ - يهاجرون لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى ولذا فالولايات المتحدة هى الدولة الاكثر تفضيلا بالنسبة لهم ، وان كان لامانع لديهم من الهجرة إلى إسرائيل إن كان هذا هو السبيل الوحيد لتحسين أحوالهم المعيشية .

الفصل الخامس

اليـــهود المتـــخفون وغيـــرهم



بعد هذه المقدمة التاريخية العامة وبعد تقديم هذه الحقائق والأنماط الاحصائية يمكننا أن نتناول القضية أو الواقعة المباشرة : « هجرة اليهود السوفييت » . ولنبدأ بقضية الكم : كم هو عدد المهاجرين ؟ ترددت أرقام كثيرة خلقت حالة من الفوضى وسأذكر للقارىء بعض التوقعات والاحصائيات . فالايكونومست (٢٧ يناير ١٩٩٠) توقعت وصول مليون مهاجر فى غضون الخمس سنوات القادمة (أى ٢٠٠ الف كل عام) . وفى هآرتس (٦ يونية ١٩٩٠) ثمة حديث عن مليون أيضا ، وقد تحدث شارانسكى عن ١٢ مليون (الجيروساليم بوست ١٢ يوليو ١٩٩٠) . وقالت إيدا ناديل - وهى من زعماء اليهود السوفييت فى إسرائيل - إن عددهم من ٥ إلى ١٢ مليون . وقال أحد الخبراء المجريين إن حوالى ٧ ملايين مهاجر قد يصلون إلى إسرائيل (الجيروساليم بوست ٢٧ يوليو ١٩٩٠) . ومن أطرف الشواهد على الفوضى والتخبط هو ماجاء فى جريدة الجيروساليم بوست (الطبعة الدولية الأسبوع المنتهى ٣ نوفمبر ١٩٩٠) ، ففى صفحة ٣ قالت الصحيفة إن عدد المهاجرين المتوقع وصولهم هذا العام هو ١٨٠ ألف . أما فى صفحة عشرة فتذهب الصحيفة الى ان العدد المتوقع هو ٢٠٠ ألف (و٢٠٠ ألف العام القادم زيدت الى ٤٠٠ ألف) . ولكن فى ص ١٧ تخبرنا الجريدة ان عدد

المهاجرين الذين وصولوا بالفعل حتى آخر سبتمبر هو ٨٣ الف ، فهل من المتوقع وصول ١١٠ ألف فى الشهور الثلاثة المقبلة ؟ أما بخصوص عدد من وصل بالفعل من اليهود فالأرقام لاتقل اختلافا ، فهناك من يقول إنهم ٣٥ الف أو ٤٠ ألف أو ٥٠ الف أو ٨٠ ألف وأن عددهم مع نهاية العام يصل إلى ١٠٠ أو ١٥٠ أو ٢٥٠ ألف (والرقم الأخير رقم شارانسكى الذى أضاف انه يتوقع ٥٠٠ ألف عام ١٩٩١) (الجيروساليم بوست ١٢ يولية ١٩٩٠) . ولعل آخر الاحصائيات هو الذى ورد فى الجيروساليم بوست (٨ نوفمبر ١٩٩٠) والذى يذهب الى أن عدد لمهاجرين عام ١٩٩١ سيكون ٤٠٠ على الألف . ومما يزيد الأمور صعوبة وفوضى انه اعتبارا من مارس ١٩٩٠ صارت المعلومات عن عدد القادمين وعدد المهاجرين المتوقع وصولهم فضلاً عن محطات توقفهم فى الطريق تعامل باعتبارها من أسرار الدولة ولايجوز نشرها فى وسائل الاعلام .

وقد سارعت الصحافة الغربية بنقل الأرقام الضخمة المتضخمة مع أنه كان هناك أخبار أخرى تشكك فى صحتها ، فقد صرح ادوارد شفرنادزة بأنه يتوقع هجرة ١٥٠ ألف يهودى خلال عامين (الجيروساليم بوست ٩ فبراير ١٩٩٠) . كما جاء فى مقال بعنوان وارسو نقطة عبور للسوفييت الآن (بقلم هرى كاينون وولتر روبى مايلى : « من المحتمل ان الموجة الحالية سينتج عنها زيادة عدد المهاجرين الى حوالى نصف مليون يهودى فى الأعوام المقبلة » (الجيروساليم بوست ٩ يونية ١٩٩٠) . وقد ورد بالحرف الواحد فى خبر نشر بالجيروساليم بوست (١٢ مايو ١٩٩٠) مايلى : « يوجد

١٥ ألف شقة وان استمر معدل الهجرة الحالى فستختفى هذه الشقق خلال ستة شهور » . والسؤال لم لاتختفى الشقق فى شهر واحد أو شهرين أو حتى ثلاثة ، أو ستة شهور ، ألا يخبرنا هذا شيئا ما عن معدل الهجرة ، بل إن الجيروساليم بوست فى عددها الصادر ٣ سبتمبر ١٩٩٠ صدرت بالعنوان التالى : « عدد المهاجرين السوفييت هذا العام بلغ ٩٤ ألف حتى الآن » . وهذه كذبة لانه ظهر ان عدد المهاجرين من يناير الى آخر سبتمبر هو ٨٢ ألف . ولكن هذا العنوان الكاذب ربما يهدف الى تغطية العنوان الذى يليه : « الهجرة فى أغسطس أقل من التقديرات المبدئية » . فقد توقعوا ٢٥ ألف ولم يصل سوى ١٧,٥٠٠ ألف . ولعل الجيروساليم بوست (فى افتتاحيتها بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٩٠) قد وصفت الموقف وصفا دقيقا حين قالت : « لاشىء أكيد » بخصوص أعداد المهاجرين . ومع هذا استمر الاعلام العربى (والعالمى) فى نقل الأرقام الضخمة .

والآن ما هو مصدر هذه الأرقام ؟ سنكتشف أن المصدر الرئيسى والأساسى هو المؤسسة الصهيونية التى أذاعتها على الجميع ، ولم يسأل أحد السؤال التقليدى عما إذا كان هناك مصلحة لأحد ما فى إشاعتها ، لأنه إذا كان الأمر كذلك ، فإنها تصبح أرقاما مشكوكا فيها على التو . والمؤسسة الصهيونية لها مصلحة أكيدة فى اشاعة هذه الأرقام فهى أولا تزيد من شرعيتها أمام يهود العالم ، إذ يحول اسرائيل إلى ملجأ لليهود ، خاصة بعد أن أوصدت الولايات المتحدة بعض بواباتها فى وجههم . كما أنها تقوى من يد اليمين الصهيونى داخل النظام السياسى الاسرائيلى ، فأمام هجرة اليهود

السوفييت الاستيطانية ، والهجرة الاستيطانية هى جوهر الصهيونية ، لا يمكن لأحد أن يحاول هز القارب إذ يجب الانتظار وادخار الطاقة لتسهيل عملية الهجرة والاستيعاب . كما أن دعاة الانسحاب من الضفة الغربية ـ داخل المؤسسة الصهيونية ـ يشيرون دائما إلى مشكلة إسرائيل السكانية ، وأنه إن لم تنسحب الدولة من الضفة فإنها ستفقد هويتها اليهودية . وبالتالى فمن مصلحة دعاة التوسع والاستيطان تضخيم أعداد المهاجرين .

كما أن تضخيم الرقم سيساعد إسرائيل على الحصول على المزيد من المعونات من الولايات المتحدة ، فى وقت أصبحت فيه الدولة الصهيونية فى أمس الحاجة إلى الدعم المالى ، والولايات المتحدة تزداد فيه امساكا بسبب عناصر اقتصادية محلية ، وبسبب الرغبة فى تحويل المعونات الى شرق أوربا . وقد ذكرت (الفاينانشيال تايمز) شيئا من هذا القبيل حينما أشارت إلى أن المبالغة فى الأرقام قد يكون الهدف منها « زيادة التبرعات التى تتدفق على الدولة اليهودية سواء من جيوب دافعى الضرائب الأمريكيين أو من مصادر يهودية خاصة » .

ولكن يجب أن نتذكر أن الهجرة اليهودية السابقة لم تترك ذكريات سعيدة لدى المؤسسة الامريكية إذ أن كثيرا من هؤلاء المهاجرين السوفييت دخلوا عالم الجريمة المنظمة (فى كاليفورنيا ونيويورك) وكونوا مافيا خاصة بهم إلى جانب المافيا التى كونها المهاجرون الاسرائيليون . وقد قام الكونجرس الأمريكى باجراء تحقيق فى الموضوع ، ولابد من

أن صانع القرار الأمريكى يجد أنه من الأوفر له أن يدفع للدولة الصهيونية لاستيعاب المهاجرين ، بدلا من أن ينفق أضعاف ذلك فى مكافحة الجريمة فى بلده ، ولذا كلما تضخم الرقم زادت المعونة وزاد رصيد الصهاينة ، سواء كان هناك مهاجرون أم لا .

وفى خطاب (للجيروساليم بوست) (بريد القراء ٢٣ أكتوبر ١٩٨٩) يناقش أحد القراء رقم الثلاثة بلايين دولار المطلوبة لاستيعاب المهاجرين (الذين كان يقال أن عددهم ١٠٠ ألف وحسب وحتى ذلك التاريخ) ويذهب الى أن « اسرائيل انتقلت من مرحلة إستيعاب المهاجرين السوفييت الى مرحلة استيعاب النقود التى يزعم أنها مخصصة لاستيعاب اليهود السوفييت » . وهو احتمال وارد ولا شك .

كما أن من صالح الكيان الصهيونى ، الذى يعانى من كساد اقتصادى وانتفاضة فلسطينية لا تريد أن تتوقف ، أن يحرز نصرا ما على إحدى الجبهات ، ويستحسن أن يكون هذا الانتصار ضخما مدويا ، حتى ترتفع معنوياته . وهذه النقطة الأخيرة لها علاقة وثيقة بالانتفاضة إذ تحولت المسألة الى حرب مستمرة بين فريقين سيربحها صاحب النفس الأطول ، وإشاعة مثل هذا الرقم محاولة لتثبيط عزم وقوة المنتفضين ، (وبالفعل قابلت فى عمان صديقة فلسطينية كنت أعرفها قبل عام ١٩٦٧ جاءت لتوها من الضفة ، وكل حديثها كان مفعما بالأمل ، ولم تتجهم الا حينما ذكرت الهجرة السوفييتية ، ويبدو أن الإعلام الصهيونى فى الداخل قد ركز على هذه النقطة كثيراً) .

هذا هو العنصر الأول ، وهناك عنصر ثان وهو أن العدو ربما يعنى ما يقول بخصوص المهاجرين اليهود وأنه بالفعل يتوقع وصول ٧٥٠ ألف مهاجر أو حتى مليون أو مليونين ، ولكنه ليس من المستبعد أن يقع العدو فى الخطأ وأن يفشل فى تكوين صورة موضوعية عن الواقع ، وخاصة اذا كان أمله الوحيد أن تتحقق الهجرة على هذا المستوى . كما أن الصحافيين الغربيين الذين يروجون للأرقام الضخمة هم أيضا بشر ، وهم أيضا ضحايا للآلة الإعلامية الجهنمية ، ولابد من أن تصدر الجريدة يوميا فى الصباح ولابد من أن يظهر فيها الخبر ، واذا قالت التيكرز لصحفى ما أن عدد المهاجرين هو ٧٥٠ ألفا أو مليون ، فلا يوجد عنده من الوقت ما يسمح له أن يذهب إلى المكتبة ليستخرج بعض المراجع ليتحقق من مدى معقولية الرقم أو صدقه .

وقد لاحظ الآن فراشون فى (اللوموند فى القبس ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩) شيئا مما ذكرناه فهو يشير إلى اتجاه السلطات الصهيونية نحو « تضخيم وتفخيم الظاهرة » ومن ثم « يجد المرء نفسه تائها وسط الأرقام والتقديرات ، ففى بداية شهر أكتوبر الماضى ، أعلنت اسرائيل أن مائة ألف مهاجر سيصلون الى فلسطين المحتلة خلال السنوات الثلاث المقبلة . وفى بداية نوفمبر الماضى ، تحدث شامير عن موجة هجرة قريبة تضم نصف مليون مهاجر يهودى سوفييتى ، ووصل هذا الرقم خلال ديسمبر إلى ٧٥٠ ألفا ، وبما أن الأرقام تتضخم كل يوم كان الرقم الأخير المعلن مليون شخص » .

ويبدو أن كثيرا من الصحفيين قبلوا بالرقم ٧٥٠ ألفا بناء على عدد التذاكر المحجوزة بين لينينجراد وبودابست وبوخارست محطتى الترانزيت الى فلسطين المحتلة . فمندوب (اللوموند) يقول إن الرحلات بين المدن الثلاث محجوزة بالكامل حتى يوليو ١٩٩١ لما يقدر بـ ٧٥٠ ألف مهاجر من أصل حوالى مليونين ، وأضاف قائلا أنه لدى كل يهودى سوفييتى رسالة دعوة لزيارة من قبل أصدقاء أو أقارب فى اسرائيل (القبس ١٥ فبراير ١٩٩٠) .

ولا ندرى هل يتطلب نظام حجز التذاكر فى الاتحاد السوفييتى أن يذكر الراكب قوميته أم لا ؟ ويجب أن نضيف أن من يحجز مكانا فى طائرة لن يغادر بلده بالضرورة ، وهناك من يحجز أكثر من مقعد مبالغة فى الحرص ، وهناك من حجز بسبب حالة ذعر أولية ثم قد يتراجع بعد ذلك ؟ وعندنا حالة يهود جورجيا فعندما قرر الاتحاد السوفييتى فى أوائل السبعينيات تطهير الحزب هناك من العناصر الفاسدة فزعت بعض العناصر اليهودية التى كانت متورطة فى عمليات السوق السوداء وتجارة العملة وغيرها . ومن ثم بدأت هذه العناصر فى الهجرة ، ومن المعروف أن يهود جورجيا كانت تأتيهم دعوات تفوق عددهم ! ولكن بعد حالة الفزع الأولى واكتشاف سكان جورجيا (بما فى ذلك اليهود) أن الأمور ستسير كما كانت عليه فى سابق عهدها هدأت النفوس وتوقفت الهجرة اليهودية على الرغم من الحجوزات والدعوات .

ويشير الآن فراشون فى مقالة الى أن الوكالة اليهودية فى القدس ذهبت الى ان اسرائيل ستستقبل مائة الف يهودى

سوفييتى خلال السنوات الثلاث المقبلة (بناء على أنه فى سنة الذروة عام ١٩٧٩ هاجر ٥١,٣٣٣ يهودى ، بينما هاجر فى العام الماضى ٧١ ألف يهودى تقريبا ، لم يهاجر منهم إلا احد عشر ألف الى. اسرائيل) . هذا التقدير المبدئى الذى يستند الى بعض المعطيات الملموسة قام شامير وأعضاء المؤسسة الحاكمة فى اسرائيل برفضه واستندوا بدلا من ذلك إلى طلبات تأشيرات الخروج الموضوعة فى الوقت الحالى بين أيدى السلطات السوفييتية . ويقولون إن هناك ما يقرب من أربعمائة ألف طلب ، ومثل هذا الرقم يسمح بالقول بأن مئات الألوف من المهاجرين الجدد سيصلون الى اسرائيل خلال السنوات المقبلة .

ومن الواضح أن أساس رقم شامير واه للغاية ، ورفضه لرقم الوكالة اليهودية يدل على رغبته الحادة فى اشاعة الرقم ، كما أحب أن أسأل لِمَ لم يرجع شامير الى أحد مراكز البحوث المتخصصة فى اسرائيل ؟ ألا يتسم العقل الصهيونى ـ كما يقال لنا دائما ـ بالعلمية والموضوعية والمقدرة على التخطيط ؟ لم لم يسأل رئيس الوزراء الصهيونى موردخاى التشولار وهو من أهم المتخصصين فى الجماعات اليهودية فى العالم ، وهو له وجهة نظر محددة فى الموضوع ، فهو وغيره من العلماء الديموغرافيين يذهبون إلى أن عدد يهود الاتحاد السوفييتى أقل من مليون ونصف . لم لم يستشرهم أحد ؟

لكل هذا يمكن القول إن رقم ٧٥٠ ألف مهاجر رقم مبالغ فيه لأقصى حد إذ أنه يشكل حوالى نصف عدد يهود الاتحاد

السوفييتى . ولم يحدث قط فى تاريخ يهود روسيا قبل أو بعد الثورة البلشفية أن هاجر ٥٠٪ منهم دفعة واحدة .

إننى لست من المتخصصين فى شئون الهجرة ولكننى أعرف بضعة أشياء عن النفس البشرية ، وهجرة ٥٠٪ لا يمكن تصورها إلا فى حالات متطرفة إلى أقصى حد . والمعرفة الانسانية معرفة تاريخية مقارنة ، ونحن نعرف أنه فى عصر الهجرة اليهودية الكبرى ، حينما توقف الاقتصاد الروسى عن النمو تماما وصدرت قوانين مايو ١٨٨٢ التى اغلقت ابواب الحراك الاجتماعى أمام اليهود وغيرهم من الطبقات والجماعات فان حجم المهاجرين لم يزد على ٢٥٪ ، وذلك فى وقت كانت الولايات المتحدة فيه على استعداد لتوطين كل من يشاء . وهذا أمر مفهوم ، اذ أن من يهاجر لابد من أن تتوافر فيه مواصفات جسدية ونفسية ووظيفية معينة ، فهو لابد من أن يكون قادرا على الحركة وعلى تحمل شظف العيش . كما أنه لابد من أن يكون عنده الاستعداد النفسى للبدء من نقطة الصفر وللتجريب والمحاولة والخطأ ، وهذه المواصفات لا تنطبق إلا على مرحلة عمرية معينة عادة ما تكون بين سن العشرين والأربعين ، ونسبة المسنين بين يهود الاتحاد السوفييتى مرتفعة (وهذه أيضا من الظواهر العامة التى تسم الجماعات اليهودية فى العالم الغربى) . ففى عام ١٩٨٨ كان ٥٠٪ منهم فوق الخمسين (أكثر من نصفهم فوق الستين) ، فإذا استبعدنا بعض المعوقين والمرضى فإن نسبة القادرين على الهجرة لا يمكن أن تكون بآية حال ٧٥٠ ألفا .

ومن المواصفات التى يجب أن تتوافر فى المهاجر أن يكون عنده من الخبرات والمهارات ما يظن أنه يمكنه استخدامها للبدء من جديد فى الوطن الجديد ، وكثير من يهود الاتحاد السوفييتى يمتلك خبرات لا يمكن استخدامها الا فى الاتحاد السوفييتى مثل العاملين فى بيروقراطية الحزب الشيوعى السوفييتى ، واليهود كانوا من أكثر الأقليات تمثيلا فى هذه البيروقراطية . كما أن العاملين فى المزارع الجماعية وغيرها من القطاعات الاشتراكية ليس عندهم خبرات تؤهلهم للعمل خارج الاتحاد السوفييتى . ويمكن أن نضم إلى هؤلاء الفنانين الذين تعودوا الانتاج والابداع من خلال تمويل الدولة وليس عندهم الكفاءات اللازمة للعمل فى السوق .

أرجو أن يلاحظ القارىء أننا حتى الآن لم نتحدث الا عن القادرين على الهجرة أو المرشحين لها ، وفى تقرير عدد هؤلاء عادة ما تستخدم مواصفات موضوعية برانية عامة . ونحن لم نتحدث بعد عن الراغبين فى الهجرة ، وهؤلاء يخضعون إلى معايير مختلفة ، ذات طابع ذاتى جوانى ، ونحن بذلك سننتقل من عالم الأرقام المحدد الصلب إلى عالم الرغبات والأمنيات المركب الغامض . فكل هجرة ـ كما أسلفنا ـ يحكمها عنصران : عنصر طرد من الوطن الأصلى وعنصر جذب إلى الوطن الجديد . وعناصر الطرد والجذب لا يمكن تحديدها بشكل كمى منضبط اذ أن ما يشكل عنصر طرد لشخص ما ، قد لا يكون بالضرورة كذلك لشخص آخر . كما أن درجة الطرد والجذب تختلف من إنسان إلى آخر . وإلى جانب عنصرى الطرد والجذب يوجد المتساقطون الذين يزعمون أنهم سيذهبون إلى إسرائيل ثم يتجهون إلى الولايات المتحدة ، فإن أوصدت أبوابها دونهم فهم يتجهون الى أى بلد

آخر أو يمكثون فى أوربا فى انتظار الفرج ، والتساقط هو فى واقع الأمر نتيجة عنصر جذب ـ من بلد جديد آخر غير اسرائيل .

والتحدى الأكبر لإسرائيل يأتى من الولايات المتحدة التى تفوق جاذبيتها أرض الميعاد ، ولذا اجتذبت ـ كما أسلفنا ـ ٨٥٪ من كل اليهود المهاجرين فى العالم منذ نهاية القرن التاسع عشر (و٨٥٪ من كل المهاجرين من كل الجنسيات والمصادر) . ونحن نعرف أن الولايات المتحدة ستمنح المهاجرين السوفييت ٥٠ ألف تأشيرة دخول ، وهؤلاء المهاجرون سيحصلون على المعونات التى تمنحها الولايات المتحدة لهم ولغيرهم ، ممن هم فى الوضع القانوني نفسه ، ولكن هناك أيضا الألوف التي يمكنها أن تحصل على تأشيرة بناء على ما يسمى Attorney General's Parole Authority

وهؤلاء يمكنهم دخول الولايات المتحدة بشكل قانونى ولكنهم لن يحصلوا على معونات ، وهناك كذلك الآلاف الأخرى التى ستتسلل بشكل غير قانونى .

وقد نشرت الهيراليد تريبون (٣٠ أكتوبر ١٩٩٠) أن الولايات المتحدة تعانى من نقص فى العمالة ولعلاج المشكلة أصدر الكونجرس قانونا من شأنه زيادة الهجرة بما يزيد على ٣٥٪ للمساعدة فى النمو الاقتصادى . وأهم ملامح القانون الجديد أنه يعطى الحق لوزارة الخارجية أن تسمح بدخول مهاجرين عندهم مهارات تحتاج إليها الولايات المتحدة . وسيؤدى هذا إلى أن التأشيرات التى ستمنح على أساس المهارة للعمال وأقاربهم ستزيد من ٥٤ ألف إلى ١٤٠ ألف .

وبمقتضى هذا القانون سيزداد عدد المهاجرين من ٥٠٠ ألف إلى ٧٠٠ ألف حتى عام ١٩٩٥ يهبط بعدها الى ٦٧٥ ألف . وقد صرح الرئيس بوش أنه موافق على القانون وسيوقع عليه . ولا نعرف بعد أثر هذا على الهجرة السوفييتية . ولكن لاشك فى أن هذا يعني زيادة الأعداد على خمسين ألف . بل إن هناك أنباء عن أن الأعداد قد زيدت بالفعل عن خمسين ألف (مابين ٢٠ ـ ٣٠ ألف) وذلك حتى قبل صدور القانون .

ونضيف الى كل هذا هؤلاء الذين سيخرجون من الاتحاد السوفييتى ثم سيرفضون الاستمرار فى رحلتهم وسيبقون إما فى النمسا أو ايطاليا أو غيرها من بلاد العالم رغم عدم حصولهم على تأشيرات هجرة الى الولايات المتحدة .

وقد يقول قائل إن أبواب الهجرة أغلقت أمام هؤلاء ، وعليهم أن يذهبوا الى أرض الميعاد صاغرين ، ولنر الآن ماذا يقول آرثر أوبليون ، وهو موظف أمريكى سابق عمل فى ادارة الهجرة والجنسية الأمريكية بين عامى ٧٨ ـ ١٩٨٣ ، أعوام الهجرة السوفييتية السابقة ، وقد استقر فى اسرائيل ، وقام هو وزوجته بالسفر الى لاديسبولى بالقرب من روما فى إيطاليا حيث يعيش عديد من المتساقطين وقام بسؤالهم عن قضية الهجرة الى اسرائيل . ويشير أوبليون الى الآلاف من الذين رفضت الولايات المتحدة أعطاءهم تأشيرة ومع هذا لايزالون هناك ، وأشار الى وجود ما بين ٥٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ فى روما ومثلهم فى ألمانيا ، كما ذكر أنه ما بين ستة وسبعة آلاف منهم حصل على الجنسية النمساوية . وقد توصل أوبليون الى ما يلى : « أعتقد أن الموقف سيتكرر ، ولا ننسى أنه ليس من

السهل على البلاد الأوربية ، خاصة المانيا والنمسا ، أن تطرد اليهود » ـ وهو يشير بذلك إلى « عقدة الذنب » أياها التى طالما ولدها الصهاينة فى نفوس الأوربيين وغذوها ورعوها (الجويش ويك ٢٧ أكتوبر ١٩٨٩) .

كما أن المتحدثين باسم اليهود السوفييت أنفسهم يذهبون الى أن إغلاق أبواب الولايات المتحدة لن يؤدى بالضرورة الى تحويل سيل المهاجرين إلى إسرائيل . وقد نشرت جريدة الميامى جويش تربيون (٢٠ يناير ١٩٩٠) إعلانا بعنوان « إلى اليهود الأمريكيين ». رجاء من نشيطى اليهود السوفييت » وقعه بعض كبار المتحدثين باسم يهود الاتحاد السوفييتى وجماعات الهجرة اليهودية التى تشرف على هذه الهجرة وتشجعها . يبدأ الاعلان بأن يذكر الموقعون عليه أنهم يمثلون كل « تيارات الحياة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى ، بما فى ذلك نشيطو الهجرة والبعث الثقافى ومعلمو العبرية والصهاينة وغير الصهاينة » . وهم يهيبون بيهود أمريكا العمل على فتح أبواب بلادهم بأى ثمن للمهاجرين اليهود . ويستطرد الاعلان قائلا : « قد يجيب البعض قائلا إذا كان يهود الاتحاد السوفييتى حقا فى خطر ، فإن إسرائيل ستكون لهم بمثابة ملجأ أمن ، وهذا صحيح بطبيعة الحال ولكن يجب أن نعرف أن الغالبية العظمى من اليهود السوفييت لا تزال ترفض الذهاب الى هناك . وما يسبب قلقنا أن عدة آلاف كانت ستترك الاتحاد السوفييتى لن تهاجر إن لم تستطع الذهاب إلى الولايات المتحدة » .

ونود هنا أن نشير إلى دور منظمة هاياس HIAS وهى

مؤسسة أمريكية دينية يهودية أرثوذكسية اسمها اختصار (جمعية مساعدة المهاجر العبرى) وهى جمعية كان لها مركز فى فيينا ، وكانت تساعد المهاجرين السوفييت على التوجه إلى الولايات المتحدة بدلا من إسرائيل ، وتمد الراغبين منهم فى الحصول على تأشيرة دخول بالنصح وبالمساعدات المالية . وحاولت المؤسسة الصهيونية إغلاقها دون جدوى . وكمحاولة للالتفاف حولها أصدرت سلطات الهجرة الأمريكية عام ١٩٨٩ قرارا بألا يسمح لليهود السوفييت بالهجرة إلى الولايات المتحدة إلا إذا تقدموا بطلب تأشيرة وهم لا يزالون فى الاتحاد السوفييتى ، ففتحت الجمعية مكتبا لها فى موسكو فى فبراير ١٩٩٠ . وقد اتهم عضو الكنيست الاسرائيلى ميخائيل كلاينر رئيس لجنة الهجرة فى الكنيست منظمة هاياس بأنها « نمو سرطانى يجب استئصاله » وذلك بعد نجاحها فى استصدار ثمانية آلاف تأشيرة دخول للولايات المتحدة للمهاجرين اليهود السوفييت ، زيادة عن النصاب (الجيروساليم بوست ١٩ فبراير ١٩٩٠) .

وقد كان رد هاياس على هذا أنه من الضرورى التضحية بمصلحة الصهيونية (ودولتها) فى سبيل حماية اليهود . وكما قال الحاخام شنيئرسون ، أبرز وجوه الجمعية ، « كيف يمكن لإسرائيل أن تنحط إلى حد المطالبة بحجب الخبز والماء عن يهود لا يفكرون على طريقتها ؟ » . أما الحاخام يتسحاق بيريتس وزير الاستيعاب وهو يهودى أرثوذكسى فقد أكد أنه « إذا كان طريق النجاة لليهود السوفييت سيقودهم إلى أوربا

الغربية أو الولايات المتحدة ، فإن ذلك أفضل لهم من البقاء في الاتحاد السوفييتى » (باليس ص ٥٩) .

وما نود تأكيده هنا أن بعض المؤسسات الأمريكية ذات التوجهات غير الصهيونية لاتزال نشيطة وستسباهم فى تشجيع حركة التساقط .

ويجب ألا ننسى أيضا البلاد الاستيطانية الأخرى مثل كندا واستراليا ونيوزيلنده وهى لاتزال مراكز جذب ، خاصة كندا التى توجد فيها نواة يهودية قوية ، فيها عناصر سفاردية وشرقية وأخرى اشكنازية ، ولابد أن بعض أعداد المهاجرين ستتسرب إلى هناك (تعد أمريكا اللاتينية وجنوب افريقيا ـ خاصة بعد الافراج عن مانديلا ـ من مراكز الطرد) .

ويمكننا عند هذه النقطة أن نحاول حساب عدد المهاجرين الذين « سيخرجون » من الاتحاد السوفييتى ، وهذا مختلف تماما عن عدد الذين « سيدخلون » إسرائيل أى سيهاجرون إليها ، فكما بينا بين موسكو وتل أبيب يوجد الولايات المتحدة ـ ثم الدول الأوربية ـ ثم الدول الاستيطانية الأخرى ـ ثم هناك موسكو ذاتها مرة أخرى . وإذا افترضنا أن عدد يهود الاتحاد السوفييتى هو مليون ونصف المليون فإن عدد من سيخرج سيكون حوالى ٢٥٪ على أحسن الأحوال أى حوالى ٤٠٠ ألف ، فإذا كانت الولايات المتحدة ستستوعب حوالى ٥٠ ألفا كل عام ويمكن للبلاد الأخرى أن تستوعب حوالى خمسة عشر ألفا بطرق شرعية أو غير

شرعية ، فنحن نتحدث عن ٦٥ ألف مهاجر لن يدخلوا إسرائيل كل عام ، فإن امتدت الهجرة إلى حوالى خمسة أعوام فإن هذا يعنى أنه يمكن تسريب غالبية المهاجرين إلى خارج فلسطين . وعلى كل ، هذا هو ماحدث فى كل الهجرات اليهودية السابقة ، فالهجرة الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر هاجر ٨٥٪ من أعضائها إلى الولايات المتحدة ، وهجرة ١٩٧٠ - ١٩٩٠ هاجر ٦٦٪ من أعضائها إلى الولايات المتحدة حسب تقدير أرينز . والطريف أن أجهزة الإعلام العربية لم تنتبه إلى أن الدلائل كانت تشير إلى أنه لو فتح باب الهجرة فإن مايزيد على مائتى ألف يهودى سوفييتى سيتركون الاتحاد السوفييتى (وفى تقرير آخر يقال إن العدد سيصل إلى ٤٠٠ ألف) ، وكان لا يتوقع أن يهاجر منهم إلى إسرائيل إلا ٢٠٪ - كما صرح إسرائيل فاينبلوم ، المهاجر السوفييتى المقيم في إسرائيل (الجيروساليم بوست ٣٠ أبريل ١٩٨٧) إلى أن قررت المؤسسة الصهيونية تغيير الحقائق .

وقد يقول قائل إن هناك مصادر أخرى للمادة البشرية القتالية للمستوطن الصهيوني . ويمكننا أن نمر سريعا بهذه المصادر من منظور قابلية أفراد الجماعات اليهودية فيها للهجرة .

أولا : البلاد الاستيطانية :

أ) بلاد الجذب : الولايات المتحدة الأمريكية وكندا أو استراليا ونيوزيلنده . وهذه البلاد لا يهاجر منها يهود إلا بأعداد قليلة غير مهمة احصائيا ، فالولايات المتحدة التى

تضم أكبر تجمع يهودى على وجه الأرض (٥,٧٠٥,٠٠٠) لا يهاجر منها إلا ألفين كل عام ، من بينهم مسنون يبحثون عن مكان رخيص للتقاعد . أما كندا أو أستراليا ونيوزيلنده فعدد اليهود فيها صغير (٣٠٨ آلاف فى كندا) أو صغير للغاية (٧٩ ألفا فى استراليا ونيوزيلنده) ، وهى أساسا بلاد جذب كما أسلفنا .

ب) بلاد الطرد : وهما جنوب افريقيا وأمريكا اللاتينية ، أما جنوب افريقيا فعدد اليهود فيها لا يتجاوز ١٢٠ ألفا ولكنها إذا كانت بلد طرد لليهود فهى أيضا بلد جذب للإسرائيليين (إذ هاجر إليها حوالى ٢٥ ألف إسرائيلى) . كما أن اليهود الذين يهاجرون منها يؤثرون الهجرة إلى العالم الغربى نظرا لارتفاع مستواهم المعيشى ولم تستوطن إلا أعداد صغيرة للغاية منهم فى إسرائيل . أما أمريكا اللاتينية فاليهود فيها تتوافر فيهم مواصفات المهاجر المحتمل إلى إسرائيل فهى بلاد طرد كما أن المستوى المعيشى منخفض ومن ثم تشكل الهجرة إلى إسرائيل حراكا اجتماعيا للمهاجر ، ولكن ـ كما أسلفنا ـ لم يهاجر يهود أمريكا اللاتينية ، الذين يوجد حوالى نصفهم فى الأرجنتين ، إلى الدولة الصهيونية .

ثانيا : بقية العالم ماعدا أوربا :

وقبل أن ننتقل ليهود أوربا نود أن نشير إلى أنه لا يوجد جماعات يهودية فى آسيا أو أفريقيا (باستثناء أثيوبيا ١٣ ألفا وإيران ٢٥ ألفا والمغرب ١٣ ألفا) وبضعة آلاف هنا وهناك .

وبالتالى لا تمثل هذه البلاد مصدرا حقيقيا لطاقة البشرية وقد هاجر معظم الراغبين فى الهجرة منها والقادرين عليها .

ثالثا : أوربا :

أ) بلاد الجذب : وهى أساسا بلاد أوربا الغربية ويتركز يهود أوربا الغربية بين فرنسا (٥٣٠ ألفا) وانجلترا (٣٥٠ ألفا) وجماعات متناثرة فى البلاد الأخرى (بلجيكا ٣٠ ألفا ، ألمانيا الغربية ٢٨ ألفا ، اليونان ٥ آلاف ، ايطاليا ٣٤ ألفا ، وهولندا ٢٥ ألفا ، السويد ١٥ ألفا ، سويسرا ١٨ ألفا ، أسبانيا ١٢ ألفا ، تركيا ٢٣ ألفا) . ويهود أوربا الغربية يتمتعون بحياة سياسية مستقرة ويتمتعون بمستوى معيشى عال وهم مندمجون فى مجتمعاتهم التى لها جاذبية مطلقة بالنسبة لهم .

ب) بلاد الطرد : وهى شرق أوربا ، وشرق أوربا كانت تضم أكبر تجمعات يهودية فى العالم ، إلا أنها تكاد تكون خالية من اليهود فى الوقت الحاضر إذ لا يزيد عددهم فيها عن مائة ألف إن أخذنا بأن عدد يهود رومانيا ٣٠ ألفا وليس ٨٠ ألفا ، وهو رقم خلافى ، ومعظم يهود شرق أوربا مسنون أو مندمجون كما أنه خلال الأربعين عاما الماضية هاجرت العناصر الراغبة فى الهجرة والقادرة عليها . وبالتالى فشرق أوربا لا يمكنه أن يزود المستوطن الصهيونى بأية مادة بشرية جديدة . فالحديث عن الملايين القادمة لا يمكن قبوله بناء على المعطيات الاحصائية المتداولة ، ولا يمكن أخذه على عواهنه .

وقبل أن نترك الأرقام تماما وحتى لا يستنيم أحد لهذه النتائج وتتحول إلى تبرير لمزيد من النوم العربى أحب أن أقرر أنه لا يوجد شىء نهائى فى الحياة الدنيا (الا القيم الأخلاقية المطلقة) فكل

شىء خاضع للتغيير وكل تقديراتنا احتمالية ، ولذا أحب أن أذكر النقطتين التاليتين :

أولا : ما أقدمه ليس أرقاما نهائية وحقائق صلبة وإنما هو اجتهاد وحسب ، قد يصيب صاحبه فله أجران وقد يخطىء فله أجر واحد ، وهو اجتهاد يستند إلى قواعد فى الرصد والربط والتحليل وما أقدمه هو هذه القواعد أو الطريقة التى توصلنا من خلالها إلى النتائج لا النتائج ذاتها وحسب . أما ما يتداول من أرقام فهو نتيجة الموضوعية المتلقية التى تكتفى بنقل الأرقام دون اجتهاد أو أعمال للعقل ، ودون تحليل أو تفسير .

ثانيا : قد يحدث شىء فجائى ما فى الاتحاد السوفييتى يغير الصورة تماما مثل حدوث تدهور اجتماعى واقتصادى كامل ، قد يدفع بالملايين من اليهود وغير اليهود خارج الاتحاد السوفييتى (وهذه متتالية احتمالية افتراضية فى غاية الأهمية ، لابد من وضعها فى الاعتبار . وقد تتحرك إسرائيل بذكاء شديد وسرعة فتخلق الصعاب فى وجه المتساقطين بحيث تجعل حياتهم مستحيلة فيضطرون للتوجه صاغرين إلى أرض الميعاد ، فإن كان عدد المهاجرين المحتمل هو بين ٢٠٠ ـ ٤٠٠ ألف فإنه يمكن أن نجدهم كلهم فى إسرائيل ، وهذه كارثة حقيقية . فالصورة التى رسمناها والتوقعات التى بيناها هى مادة محايدة وإمكانية كامنة ومن ثم فهى يمكن أن توظف لصالحنا إن تحركنا ويمكن أن توظف ضدنا إن آثرنا السكون والسكينة . وكما قال الحاخام جداليا رابينوفتش (وهو حاخام من بروكلين فى الولايات المتحدة فتح مدرسة تلمودية فى موسكو فى فبراير الماضى) حينما سئل عن عدد المهاجرين ؟ « لإسرائيل أم لأمريكا ؟ وكم عدد الذين سيمكثون ليساعدوا فى بناء نهضة يهودية فى

روسيا » ؟ ثم أضاف : « نظرا لأن الموقف متقلب للغاية لا يوجد طريقة للتنبؤ بالمستقبل » (النيويورك تايمز ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩) . فالموقف فى حالة سيولة كبيرة .

ومصدر هذه السيولة أن ثمة أبعادا أخرى لابد من أخذها فى الاعتبار . ونحن قد تحركنا حتى الآن فى إطار أرقام ثابتة تفترض وجود كم يهودى محدد مندمج أو غير مندمج ، صهيونى أو غير صهيونى . ولكن الأمر قد يكون مختلفا قليلا ، فدانيال دورون (مدير مركز إسرائيل للتقدم الاجتماعى والاقتصادى ، وهو مركز بحوث استشارى خاص فى تل أبيب متخصص فى السياسات العامة والاقتصادية) ويورى ستيرن (وهو من كبار الرافضين اليهود السوفييت وكان يعمل اقتصاديا فى جامعة موسكو واستوطن فى إسرائيل) ، فى مقال لهما عن اليهود السوفييت يوردان هذه القصة : « سئل أحد القادة السوفييت مرة عن عدد اليهود فى الاتحاد السوفييتى فقال : ما بين مليونين وثلاثة ملايين » . فسئل عن عدد هؤلاء الذين يرغبون فى الهجرة فأجاب : « ستة ملايين » . (الوول ستريت جورنال ٢٩ ـ ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩) . وقد تكون القصة نكتة طريفة تتحدث عن مدى حدة الرغبة فى الهجرة ، ولكن مدلولها قد يكون أعمق من ذلك بكثير . فهناك ظاهرة اليهود المتخفين ، وهؤلاء هم اليهود الذين ينكرون هويتهم لأسباب عملية عديدة ، وعادة ما يذوب هؤلاء وينصهرون فى مجتمعاتهم بعد عدة أجيال ، ولكنهم قد يظهرون هويتهم اليهودية تحت ظروف معينة . ولنضرب مثلا بيهود المارانو وهم يهود أسبانيا المتخفون ، الذين أظهروا الكاثوليكية وأبطنوا اليهودية فى القرن السابع عشر . ورغم مرور مئات السنين ظلت أعداد منهم محتفظة بهويتها

المتخفية - رغم ضعفها وهزالها وتآكلها - حتى الوقت الحاضر . (وبالمناسبة ، هذه ليست ظاهرة مقصورة على اليهود إذ أن أعدادا كبيرة من الموريسكيين ، وهم بقايا مسلمي الأندلس ، قد أظهروا الكاثوليكية ، وأبطنوا الإسلام لمئات السنين أيضا . وقد ذكر أحد الرحالة الانجليز في القرن التاسع عشر أنه مر بقرية كان أهلها مسلمين متخفين . كما أن أحد أساتذة الأنثروبولوجيا في أسبانيا أخبرني أنه هناك عدة قرى من هؤلاء المسلمين المتخفين) . هؤلاء المارانو أو اليهود المتخفون عادة ما يظهرون هويتهم اليهودية الخفية حينما تسنح لهم الفرصة . وبالفعل هذا ما حدث في أسبانيا وبدأت أعداد منهم تعود لليهودية بشكل علني ، وقد تم التفاوض بينهم وبين إسرائيل أخيرا وتقرر أن يهاجروا اليها شريطة أن يقبلوا التهود إذ أن الشرع اليهودي لا يعترف بهم يهودا . ويبدو أن أعدادا منهم قبلت بذلك ، وعدد هؤلاء المارانو هو خمسة عشر ألفا . لم لم يهيج الإعلام العربي ضد الهجرة المارانية ؟ !

ولكن هناك حالات أقل درامية من حالة يهود المارانو وإن كانت تشبهها من بعض النواحي وهي حالة يهود تشيكوسلوفاكيا فعدد الذين سجلوا أنفسهم يهودا لا يزيد على ستة آلاف ، ويقال إنه يوجد حوالي ستة آلاف آخرين مسجلين على أنهم غير يهود وهم في واقع الأمر يهود . ويبدو أنه إبان الحرب العالمية الثانية قبلت بعض الكنائس المسيحية تسجيل أعداد من اليهود على أنهم مسيحيون لتتيح لهم فرصة الافلات من الارهاب النازي . ومع انتهاء الحرب

احتفظ هؤلاء بالوضع القائم ، فهو يتهم اليهودية على أية حال كانت ضعيفة للغاية ، وتوجد أعداد كبيرة من هؤلاء فى أمريكا اللاتينية إذ أصدرت الكنيسة الكاثوليكية لهم شهادات تعميد حتى يمكنهم الهجرة من أوربا إلى أمريكا اللاتينية (التى كانت لاتقبل اليهود آنذاك) . وقد احتفظت أعداد كبيرة من هؤلاء بانتمائهم الكاثوليكى الجديد . وقد تزايد عدد يهود المكسيك فجأة من عشرة آلاف إلى ٣٥ الفا ، ويقال فى تفسير هذا الوضع إن كثيرا من اليهود المتخفين أفصحوا عن هويتهم ليستفيدوا من المساعدات السخية التى يقدمها يهود أمريكا ، كما أن البعض يذهب إلى أن بعض فقراء المكسيك (من غير اليهود) سجل نفسه يهوديا حتى يحقق شيئا من الحراك الاجتماعى وحتى يصبح من السهل عليه الهجرة إلى الولايات المتحدة ، وهذه طريقة أسهل للتسلل .

كما وردت هذه العبارة الغامضة فى مقال نشر فى جريدة الأندبيندانت (القبس ٤ مارس ١٩٩٠) « لم يتبق فى بولندا إلا ما يعادل ٦٠٠٠ شخص من الأقلية اليهودية الفعلية ، إضافة إلى بضعة آلاف يعتبرون أنفسهم يهودا » . ولعل العبارة تشير إلى ظاهرة مماثلة لتلك التى نتحدث عنها .

مهما كان الأمر فإنه يجب ألا نستبعد شيئا من هذا القبيل فى الاتحاد السوفييتى : أى أن يظهر بعض اليهود المتخفين ، أو أن ينضم إلى اليهود عناصر شبه يهودية أو غير يهودية من منظور الحاخامية التى صرحت أن مابين ٣٠ ـ ٤٠٪ من المهاجرين السوفييت ليسوا يهودا للأسباب التالية :

أ) الزوجة ليست يهودية .

ب) الزوج لم يختن .

جـ) الأبناء ليسوا يهودا (لأن الأم ليست يهودية) .

د) أن واحدا من الزوجين لا تربطه أى صلة بالديانة اليهودية (القبس ٥ ابريل ١٩٩٠) . وقد يتسلل معهم عناصر غير يهودية أصلا ، والهدف واحد فى كل الحالات وهو الاستفادة من الفرص الجديدة المفتوحة أمام اليهود فى الولايات المتحدة أو إسرائيل .

ولنبدأ باليهود المتخفين . توجد إشارات عديدة لهم الآن فى الدراسات السكانية ويطلق عليهم اصطلاح اليهود المجهولين وهى تسمية غير دقيقة باعتبار أن غالبيتهم تعرف أصولها اليهودية وتنكرها لأسباب عديدة . وهم يبلغون حسب تقديرات لاست أهارون حوالى ١,٣ ـ ١,٥ مليون وسيصل عددهم ١,٢ مع نهاية القرن الحالى . وعددهم لم يتأثر كثيرا بالهجرة وهم يتمتعون بمستوى تعليمى مرتفع للغاية (الكتاب السنوى للموسوعة اليهودية ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩) .

ونحب أن نثير الآن قضية شبه اليهود أو غير اليهود من منظور دينى . ولنبدأ باستعراض قانون العودة الاسرائيلى : ينص قانون العودة على أن اليهودى هو من ولد لأم يهودية أو تهود وليس عضوا فى دين آخر . وتحاول المؤسسة الأرثوذكسية تعديل القانون بحيث تجعل اليهودى هو من تهود حسب الشريعة أى على يد حاخام أرثوذكسى مما يستبعد

الحاخامات الاصلاحيين والمحافظين ونسبة كبيرة من يهود الولايات المتحدة . وكانت المشكلة تدور حول هذا الموضوع وحسب ، ولكن يوجد بند آخر أكثر تفجرا وهو البند القائل بأنه يحق لأبناء وأحفاد اليهودى الهجرة إلى إسرائيل وكذلك يحق الهجرة لزوج أو زوجة اليهودى وزوج أو زوجة ابنه أو إبنته أو زوج أو زوجة حفيده أو حفيدته ، وهذا الجد اليهودى ليس من الضرورى أن يكون فى اسرائيل ولا حتى على قيد الحياة . وعدد مثل هؤلاء - حسب تقدير عالم الديموغرافيا الاسرائيلى سرجيود ديللا بيربولا - حوالى مليون - أى أن تعريف اليهودى هو من كان له يوما ما جدا يهوديا من ناحية الأب أو الأم ومن ثم يحق لمثل هذا الشخص أن يصبح مواطنا اسرائيليا وأن يصحب زوجته . وقد أسلفنا أن القانون السوفييتى يعتبر ابن الذكر اليهودى - يهوديا - الأمر الذى يتنافى مع الشريعة اليهودية - أى أن كثيرا ممن صنفوا يهودا حسب القانون السوفييتى ليسوا كذلك حسب الشريعة اليهودية .

ولم يكن من المتوقع من اليهود المتخفين الهجرة ، كما أن احتمال هجرة أبناء الزيجات المختلطة وأعضاء الأسر التى فيها عضو غير يهودى كان غير مطروح . ولكن مع تفكك المجتمع السوفييتى أصبحت المسألة مطروحة وبحدة . وبدأ اليهود المتخفون يكتشفون هويتهم وبدأ الأحفاد الذين لا يربطهم باليهود أو اليهودية أى علاقة سوى أن لهم جدا يهوديا مدفونا فى الاتحاد السوفييتى (على حد قول أربيه ديرى ، وزير الداخلية فى الجيروساليم بوست ٢٧ يوليو ١٩٩٠) بدأوا يكتشفون أنهم يهودا . بل وهناك احتمال أن كثيرا من أقارب هؤلاء أن ينضموا لهم ، بل وهناك أعداد

لابأس بها قد تدّعي أنها عناصر يهودية وهي ليست كذلك . فكون الواحد يهوديا هو بمثابة جواز السفر الذي يضمن للمرء الخروج من الاتحاد السوفييتي (فيكتور سيغلمان ، نوفيل أوبسرفاتير ، القبس ١٩ مارس ١٩٩٠) . وقد ظهر أنه يمكن الحصول على شهادة ميلاد مزيفة في موسكو تثبت أن حاملها يهودي نظير ١٥٠٠ روبل (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) ، أي أننا يمكن الآن الحديث عن مدعي اليهودية وهذا أمر جديد كل الجدة في التاريخ الانساني ، إذ أن العكس كان دائما هو الصحيح . هذه الفوضى هي التي تفسر فوضى الأرقام فالملايين التي ستأتي تضم نسبة يهودية ولكنها تضم نسبة أيضا شبه يهودية أو ليست يهودية على الاطلاق .

وقد قالت نوفا الينسون ، المتحدثة باسم وزارة الداخلية ، إن ٣٠٪ من المهاجرين السوفييت و٦٥٪ من المهاجرين الرومانيين يسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود ، ولا يوجد سبيل لمعرفة من من هؤلاء نتاج الزيجات المختلطة ، وكم منهم قد حضر بسبب جده اليهودي (الجيروساليم بوست ٢٠ يوليو ١٩٩٠) . وقد سجل بيريتس أن الرقم أكبر من ٣٠٪ ، كما بين ديفيد ايفراتي مدير ادارة السكان في وزارة الداخلية أن ٦٨٪ سجلوا على أنهم يهود أما الباقي ٣٢٪ فقد تركوا خانة القومية والدين خالية أو ذكروا قوميات سوفييتية أخرى . ومن المعروف أن كثيرا ممن سجلوا أنفسهم يهودا ـ على الرغم من أنهم ليسوا يهودا ـ فعلوا ذلك خوفا من الحرمان من المزايا الممنوحة للمهاجرين اليهود ، كما أن كون المرء غير يهودي في الدولة اليهودية وصمة عار (الجيروساليم بوست ٢٧ يوليو ١٩٩٠) ، مما يعني أن من الـ ٦٨٪ توجد نسبة لابأس بها من غير اليهود (بل إن بعض المهاجرين كما بين

الحاخام الياهو ايساس معاد للسامية (أى معاد لليهود) . وإذا عدنا إلى الأرقام مرة أخرى فسنجد أن وزير الاستيعاب قد صرح أمام لجنة الاستيعاب فى الكنيست أنه توجد إمكانية هجرة عدة ملايين سوفييتي بمقتضى قانون العودة بينهم مليونى يهودى وحسب (الجيروساليم بوست ٤ أغسطس ١٩٩٠) أما الباقون فهم غير يهود أساسا ، أو غير يهود حسب وجهة نظر الشريعة ، ومعظم اليهود المتخفين من هذا النوع الأخير . وقد بين الحاخام بنحاس جولد شميت ، رئيس المحكمة الشرعية الجديدة فى موسكو ، أن عدد هذه الملايين غير اليهودية وشبه اليهودية سيصل إلى عشرة ملايين (الجيروساليم بوست نوفمبر ١٩٩٠) فإذا أضفنا إليهم مليونى يهودى نصل إلى رقم اثنى عشر مليون مهاجر ـ رقم شارانسكى . ورغم أنه رقم مبالغ فيه تماما ومستحيل (حسب المعطيات المتاحة فى الوقت الحاضر) إلا أننا يمكننا الآن فهم طريقته فى الحساب ، فشارانسكى لا يكترث بالمضمون اليهودى لهوية القادمين ، بل يبدو أنه يأخذ بتعريف جان بول سارتر لليهودى أنه من يعتبره الآخرون كذلك ، إذ أنه قال فى مجال الدفاع عن القادمين وأحقيتهم فى الهجرة إلى إسرائيل وفى الحصول على المعونات والاستقرار والاستيطان فيها ، قال : « كيف يمكن لإسرائيل إنكار حقهم فى الهجرة بينما كانوا يضطهدون بسبب انتمائهم اليهودى » (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) ـ أى أنه أسقط الشريعة اليهودية أو حتى العرف اليهودى مصدرا للتعريف ، وقبل بالحكومة السوفييتية أو أعداء السامية فى المجتمع السوفييتى مصدرا وحيدا مشروعا . ولا أعتقد أن هذه طريقة مقبولة للاحصاء ، ولكن مهما كان الأمر فهذا هو منهجه ، وهذه هى طريقته ، وقد

بين الحاخام الياهوايساس أن مثل هذه الهجرة ستعمق من الانقسامات فى التجمع الصهيونى بحيث ينقسم إلى « يهود وعرب وروس » (٢٧ يوليو ١٩٩٠) »

ويطرح السؤال التالى نفسه : « هل سيقوم الصهاينة بتأسيس دولة غير يهودية ؟ » (على حد قول بيريتس « الجيروساليم بوست ٤ أغسطس ١٩٩٠ ») . ونحن نميل إلى القول أنه من المرجح أن تنجح المؤسسة الاشكنازية فى إرغام الجميع على قبول كل العناصر المهاجرة اليهودية وشبه اليهودية وغير اليهودية ، باعتبارهم مستوطنين صهاينة ، ونحن نؤسس رأينا هذا على بعض الشواهد التاريخية من أهمها حالة الفلاشاه .

فعقيدة الفلاشاه هى خليط من اليهودية والإسلام والمسيحية (ولاشك فى أن المكون اليهودى هو أقواها وأهمها) فهم يتعبدون باللغة الجعيزيه لغة الكنيسة القبطية فى أثيوبيا ، فى مكان يقال له المسجد ، يخلعون نعالهم قبل دخوله ويقود جماعتهم قساوسة ويوجد بينهم رهبان وراهبات وتضم كتب الصلوات الخاصة بهم بعض المقتطفات من العهد الجديد . وهذا النوع من العبادات المختلطة معروف فى افريقيا . وهو أمر معروف أيضا لدى المؤسسة الصهيونية ، ولذا حينما بدأت الاتصالات بين مندوب الوكالة اليهودية ومندوبى الفلاشاه ، نصحهم مندوب الوكالة اليهودية أن يعتنقوا المسيحية حلا لمشكلتهم !

هذا فى الخمسينات حينما لم تكن أزمة الدولة الصهيونية

السكانية قد أصبحت حادة ، ومع نهاية السبعينات وضم الأراضى العربية والمغامرات العسكرية فى لبنان وغيرها تعطشت آلة الحرب لمزيد من الوقود البشرى ، لذا لم يكن هناك بد من قبول الفلاشاه رغم لون جلدهم ورغم عدم نقاء عقيدتهم وبدأ التهييج من أجل انقاذ يهود الفلاشاه من الاضطهاد والمجاعة . وحينما بدأت المؤسسة الحاخامية تغمغم عن هويتهم الدينية ضغطت المؤسسة الصهيونية الحاكمة فتراجعت المؤسسة الدينية ، واكتفت بمراسم مخففة للتهود لا يزال يرفضها غالبية الفلاشاه ، ولاتزال عملية تهجيرهم مستمرة ، بل إنهم بدأوا يطالبون أخيرا بالسماح لأقاربهم ممن تنصروا بالهجرة أيضا ، وزعموا أن هذا قد تم بالقوة . ولكن سواء تهودوا أم تنصروا فإنهم قد تحولوا إلى مادة قتالية فى الضفة الغربية وقطاع غزة وفى الأراضى اللبنانية .

مما سبق يظهر الموقف الذرائعى من المادة البشرية ويتضح الاستعداد لاتخاذ مواقف مساومة لا تتفق بالضرورة مع الشريعة اليهودية أو حتى مع المعايير الصهيونية الخاصة بالنقاء العرقى والإثنى والخصوصية اليهودية وما شابه من ادعاءات . ومما يجدر ذكره أن الاهتمام العملى ، الذى يتجاوز الاعتبارات النظرية ، كامن فى الممارسة الصهيونية منذ البداية ، فقد كان بن جوريون فى وقت من الأوقات يفكر فى زيادة الكثافة السكانية اليهودية فى فلسطين عن طريق تهويد بدو النقب ، وقد نجح بالفعل مع بضعة أفراد ، ولكنه لم ينجح على مستوى شامل (ومن الممكن أيضا أن يندرج تحت هذا البند اعطاء هوية يهودية للعناصر العربية التى تجندها

المخابرات الاسرائيلية ثم تستقر فى إسرائيل بعد انتهاء وظيفتها أو عند اكتشاف أمرها) .

وهذه نقطة تشابه أخرى بين النازية والصهيونية . فرغم ادعاءات كليهما عن النقاء العرقى فإنه أمام ضغط الواقع يتنازلون عن الأسطورة . فالنازيون نظرا لحاجتهم الماسة للكثافة البشرية كانوا يجندون العناصر السلافية التى تحمل ملامح آريه (عيون خضر وشعر أشقر) وكان هناك برنامج لالمنة هؤلاء . كما أنه نظرا لوجود تحالف بين الألمان واليابانيين (الآسيويين) صنف اليابانيون على أنهم آريوّن شرفيون وهكذا . فالأسطورة العرقية هى مجرد ديباجات ويظل الهدف النهائى هو النهب والسيطرة بأى ثمن .

ومن أهم القرائن الأخرى على استعداد اسرائيل قبول أى مادة بشرية ، بغض النظر عن مدى يهوديتها من عدمه ، ما حدث فى حالة جيرى وشيرلى بيرسفورد وهما يهوديان سابقان انضما إلى جماعة دينية تبشيرية مسيحية اسمها راهات هاشارون . ويقول المصدر الذى استخدمته (الجيروساليم بوست ٥ فبراير ١٩٨٨) أنهما يهوديان يؤمنان بالمسيح ، ولايبين المصدر معنى هذه العبارة ، وفى الغالب تعنى أنهما آمنا بأن المسيح عيسى بن مريم هو المسيح الذى ينتظره اليهود دون الايمان ببنوته للخالق ودون التخلى عن انتمائهما اليهودى ، (وهما فى هذا يشبهان بعض أعضاء الجماعات اليهودية المسيحية فى القرن الأول المسيحى) . وقد طلب الإثنان الجنسية الاسرائيلية بمقتضى قانون العودة . وحين عرضت القضية على الرأى العام الاسرائيلى قال ٧٨٪ منهم

أنهما يجب أن يمنحا الجنسية الاسرائيلية إن كانا صهاينة ، بمعنى أن الصهيونية عُرّفت هنا بأنها الهجرة إلى اسرائيل وحسب . بل وعقدت مقارنة بين هذين الفردين اللذين حضرا إلى إسرائيل ويهود أمريكا الذين يرفضون الهجرة إليها . فكأن الهجرة ، أن يقدم المرء نفسه إلى الدولة / الإله ، أصبحت هى المعيار الأول وربما الأخير للقبول والرفض ، وهو معيار ينطبق على المهاجرين السوفييت يهودا كانوا أم غير يهود .

قد يندهش البعض لهذا التحول ويجدون فيه تراجعا عن « المثل الصهيونية » التى توصف بأنها يهودية تضرب بجذورها فى التوراة والتلمود (والماسونية وبروتوكولات حكماء صهيون .. إلى آخره) . مثل هؤلاء المندهشين هم ضحية الأطروحات الخاطئة المتداولة التى تصر على الحديث عن « الخطر اليهودى » حينما تتحدث عن الأستعمار الصهيونى . فالصهيونية عقيدة تضرب بجذورها لا فى اليهودية وإنما فى التشكيل الاستعمارى الغربى فى جانبه الاستيطانى بالذات . بل إنها على مستوى من المستويات معادية للعقيدة اليهودية وتطرح نفسها بديلا لها .

والصهيونية على كل رفضت من البداية التعريف الدينى لليهودية وطرحت بدلا منه تعريفا عرقيا بحيث أصبحت اليهودية تشبه الآريه مثلا . وبالتالى يصبح التهود مثل التجنس بأى جنسية ، ويصبح المقياس هو مدى استعداد الفرد أن يربط « مصيره » بمصير الأرض والوطن والشعب ، وهى معايير مادية أو عرقية لا علاقة لها بأية مقاييس دينية أو

أخلاقية . والمهاجر السوفييتى ، يهوديا كان أم غير يهودى ، على استعداد أن يربط مصيره بقطعة الأرض التى ستدر عليه الخيرات وعلى استعداد أن يساهم فى عملية الاغتصاب والسلب .

وإذا كانت الصهيونية ترتدى رداء يهوديا فى الخارج حتى تحلب يهود العالم وتبتز الضمير الغربى باسم ضحايا الهولوكوست ، فهى فى الداخل لا تكترث بذلك كثيرا . ومع تزايد معدلات العلمنة أصبحت ورقة التوت الدينية لا أهمية كبيرة لها ، خاصة أنه فى الكيان الصهيونى ذاته لم ينجح أحد بعد فى تعريف من هو اليهودى ؟

إن ما نقوله فى واقع الأمر إن الاستعمار الاستيطانى الصهيونى الذى كان يكتسب خصوصية ما من خلال هويته اليهودية المزعومة بدأ يفقد هذه الخصوصية وبدأت تتضح هويته الأصلية كمشروع استيطانى غربى وحسب يبحث عن المادة البشرية أينما كانت ، وإذا كانت المادة البشرية غير يهودية ، فهذا أمر ثانوى .

ويمكننا هنا أن نعطى مخططا سريعا لتاريخ المشروع الصهيونى من منظور مضمونه اليهودى المزعوم ، فقد بدأ هذا المشروع بتعريف استبعادى للهوية اليهودية يصر على أن محور هذا المشروع هو اليهودى الخالص . وقد عبر هذا الموقف عن نفسه فى إصرار الصهاينة لا على استيطانية مشروعهم وحسب وإنما على احلاليته ، ومن هنا عمليات الطرد عام ١٩٤٨ ، ومحاولة « تطهير » فلسطين من العناصر

غير اليهودية . ولكن المشروع الصهيوني فشل في تعريف الهوية اليهودية ، كما أن توسع عام ١٩٦٧ فرض عليه كثافة عربية كان عليه أن يتعامل معها ، فغير هويته ، ولا يهم إن كان تم ذلك برضاه أم رغم أنفه ، إذ ما يهم في مثل هذه الأمور هو طبيعة التحول البنيوى ، وأصبح استعمارا لونيا من نظام الأبارتهايد الذى لايهدف إلى طرد السكان وإنما يحاول الاحتفاظ بهم داخل تجمعات سكانية تضم المادة البشرية التى تشكل بالنسبة له عمالة رخيصة وسوقا للبضائع . ولكنه مع هذا لم يكن نظاما لونيا محايدا ، وإنما كان لونيا يهوديا (أى دينى / عرقى) .

وجاءت الانتفاضة وأثبتت أن هذا الوضع ليس نهائيا أو أن الحفاظ عليه يتطلب مادة قتالية ، وقد حدثت الانتفاضة بعد أن فرغت مصادر الطاقة البشرية بالنسبة للمستوطن الصهيوني في كل أنحاء العالم ، والمستودع الوحيد المتبقى ، الاتحاد السوفييتى ، ليس فيه مادة قتالية يهودية كافية . كما أن معظم أعضاء هذه المادة يؤثرون الهجرة إلى الولايات المتحدة ، كما فعل معظم أسلافهم من قبل . ولذا لِمَ لايأخذ المستوطن الصهيوني خطوة أخرى إلى الأمام ليتحول من استعمار لونى يهودى إلى استعمار لونى وحسب ، قلعة استيطانية (حصن غربى ضد الهمجية الشرقية على حد قول هرتزل) تحول كل من يأتى إليها إلى مادة قتالية وتضمن له مستوى معيشيا مرتفعا فيحل مشكلته الاقتصادية ويحقق الحراك الاجتماعى وتحل هى مشكلتها السكانية الحادة ؟.

وهذا التحول الأخير كامن في التحول الذى حدث عام

١٩٦٧ والذى يتخذ جنوب افريقيا نموذجا ، فجنوب افريقيا ترى نفسها قلعة للديمقراطية الغربية وحصنا للحضارة الغربية ، وهى تفتح أبوابها لكل دعاة التقدم من ذوى الجلد الأبيض ، ورغم أنها تستخدم ديباجات مسيحية قوية ، إلا أنها تقبل فى نهاية الأمر بكل أبيض ملحدا كان أم يهوديا ، وساعتها تنسى المزاعم المسيحية . (بل يقال إنها تقبل المسلمين البيض) .

وهناك عنصران آخران قد يشجعان المؤسسة الحاكمة على أن تغض النظر عن هوية المهاجرين السوفييت ، أولهما : هو الصراع الدائر بين الاشكناز من جهة واليهود السفارد والشرقيين من جهة أخرى ، إذ أن المشروع الصهيونى فى جوهره مشروع اشكنازى ومع هذا هاجرت ألوف اليهود من البلاد العربية والشرق وأصبحت هى الأغلبية . ولم يكن هناك مانع من هجرتهم مادام أنهم يقدمون أنفسهم كعمالة رخيصة وكمادة قتالية وحسب دون المطالبة بالمشاركة السياسية ودون أن يفرضوا رموزهم الثقافية على الكيان الصهيونى . ولكن من الواضح أن شوكتهم فى الآونة الأخيرة بدأت تقوى وتزداد مهارتهم فى اللعبة السياسية ، وبدأوا يشكلون أحزابا تعبر عن طموحاتهم وعن رغبتهم فى تحقيق الحراك الاجتماعى والمشاركة فى صنع القرار والتعبير عن هويتهم الثقافية .

هذا هو العدو الأول للمؤسسة الاشكنازية . أما العدو الثانى فهو المؤسسة الدينية ، فرغم أن معظم قيادات المؤسسة الدينية اشكنازية الا أن لها رموزا وعقائد وشعائر تعد مصدر ضيق أساسى للنخبة الاشكنازية التى هاجرت من

جيتوات أوربا كى تحيا حياة علمانية طبيعية ، تشكل الرموز الدينية اليهودية فيها مجرد رموز قومية ، وتصبح الشعائر تعبيرا عن الهوية ، أما أن تتحول الرموز والشعائر الى قيود تحد من البحث عن اللذة والمنفعة ، فهذا ما لايرضاه هؤلاء ، وقبول المهاجرين السوفييت يهودا كانوا أم غير يهود ، سيحل كلا المشكلتين بضربة واحدة ، إذ سيزيد الكثافة السكانية الاشكنازية فى مقابل الشرقيين ، وسيزيد عدد العلمانيين فى مقابل المؤسسة الدينية وجماهيرها .

وأرجو أن يلاحظ القارىء ما حاولنا انجازه فى الفصلين الأخيرين ، فقد بدأنا بعدة حقائق صلبة (مثل تلك التى ترد فى كتب الجغرافيا) : عدد اليهود فى الاتحاد السوفييتى حسب التقديرات الاحصائية الرسمية وغير الرسمية ـ مدى قابليتهم للهجرة ـ عناصر الطرد والجذب فى الاتحاد السوفييتى وفى مراكز التجمع اليهودى فى العالم . وقد خلصنا من ذلك إلى أنه داخل هذه المعطيات لا يمكن أن يزيد عدد المهاجرين عن ما بين ٢٠٠ ـ ٤٠٠ ألف ، وهو الرقم الذى كان متوقعا حتى منتصف عام ١٩٨٩ . ثم ربطنا هذه الحقائق الصلبة بحقائق أقل صلابة : أن المهاجرين ليس لهم انتماء دينى أو أيديولوجى محدد ، فهم مرتزقة باحثون عن الحراك الاجتماعى مما يزيد من قابليتهم للهجرة إلى أى مكان ـ ظاهرة اليهود المتخفين ـ ظاهرة غير اليهود من المتسللين ومدعى اليهودية وأعضاء الأسرة اليهودية (زوجات وأبناء) ـ مدى قابلية المستوطن الصهيونى للقبول بمادة بشرية غير يهودية ـ دوافعه فى ذلك ـ الأوضاع المتردية فى الاتحاد السوفيتى .... الخ . وبالتدريج بدأنا فى إدراك نمط جديد يفسر لنا هذا الحديث عن الملايين الذى لا يتسق بأية

حال مع الحقيقة الاحصائية الصلبة : ان عدد يهود الاتحاد السوفييتى يقل عن مليون ونصف . وقد ذكرنا هذه الحقائق الصلبة وغير الصلبة وربطنا بينها وخلصنا لنتائج محددة قد لاتكون مشجعة لا لنحاصر العقل العربى ، أو لنهول من شأن القادمين حتى نستنفره وإنما لننحت النماذج التفسيرية المركبة والمتتاليات الاجتماعية التى تجعلنا ملمين بالواقع مهما بلغ من تركيبيه ، متجاوزين له ، متحررين من الحقائق الصلبة المتناقضة التى ترسل بها وكالات الأنباء وتذيعها الاذاعات ، واضعين نصب أعيننا كل الاحتمالات القريبة والبعيدة ، متذكرين أن هذه الاحتمالات قد تتحقق فى اطار معطيات معينة أو إن خلدنا إلى النوم والسكينة وقد لا تتحقق فى إطار معطيات أخرى أو إن تحركنا وتصدينا لهذه الجحافل الهمجية بذكاء واصرار ـ بحيث تدفن وهى بعد فى عالم الإمكان والاحتمال دون أن تخرج إلى عالم الواقع ، بحيث قد يقال فى المستقبل ـ والله قادر على كل شىء ـ إن عرب عام ١٩٩٠ قد أوقفوا التتار الذين يسرقون الأرض ويلتهمون الزرع ويجففون الينابيع والآبار ، مثلما أوقفناهم من قبل فى عين جالوت فى فلسطين ! .



الفصل السادس

المشكلة السكانية والاستيطانية

حينما يتحدث الصهاينة عن الملايين القادمة فهم عادة ما يذكرون المشكلات التى سيحلها هؤلاء ولكنهم لا يكلفون خاطرهم بإعطائنا صورة محددة عن كيف سيحدث ذلك ، كما أنهم لا يتوجهون قط للمشكلات الناجمة عن وصول من مليون إلى ١٢ مليون شخص فى مجتمع لا يزيد عدد سكانه على أربعة ملايين .

ونحن فى الفصول القادمة سنتناول بعض هذه الجوانب فسنعالج أهم القضايا وهى القضية السكانية والاستيطانية ، ثم نتطرق بعد ذلك إلى مشاكل المجتمع الاسرائيلى الاستيعابية خاصة الإسكان ، وهى مشكلة آخذة فى التفاقم بسبب الأزمة الاقتصادية . ثم سنتناول ما نسميه بمشكلة العداء للوافدين وهو العداء الذى يقابل به المهاجرون من قبل قطاعات كثيرة فى المجتمع الصهيونى مثل الشرقيين والمتدينين وغيرهم . ونحن نتناول كل هذه الجوانب حتى لا نتردى فى الكآبة ونذم الدهر ونبكى على الأطلال بطريقة إمبيريقية رصينة تتصور أن الأرقام نهائية وأن الحقائق صلبة وأن النتائج الصهيونية المتوقعة للهجرة ستتحقق كلها أو بعضها وعلى النحو الذى يتنبأ به الصهاينة .

ولنتناول بعض الأبعاد التى تدل على إمكان فتح باب

الاجتهاد سواء فى تفسير الواقع أم تغييره . ولنأخذ أهم العناصر طرا وهو معضلة إسرائيل السكانية وحاجة الجيب الاستيطانى الصهيونى الدائمة إلى المادة البشرية الاستيطانية القتالية لخلق تعادل مع العرب فى كل فلسطين المحتلة ولخلق حقائق بشرية جديدة فى الأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧ ، فهل سينجح المهاجرون اليهود السوفييت فى انجاز ذلك ؟ . وللاجابة عن هذا السؤال سننظر إلى المهاجرين باعتبارهم مادة بشرية أولا ، ثم باعتبارهم مادة استيطانية ، ثم باعتبارهم مادة قتالية .

وقد واجه الجيب الصهيونى منذ نشأته خطرين تهددا وجوده : توقف الهجرة من الخارج ، وتناقص خصوبة المرأة اليهودية فى الداخل . وقد ارتفع عدد اليهود من ١٧٪ من مجموع سكان فلسطين عام ١٩٣٠ الى ٣١٪ عام ١٩٤٥ ثم إلى ٦١٪ عام ١٩٦٠ وإلى ٦٥٪ عام ١٩٧٥ (اذا ما أخذت منطقة فلسطين بأسرها من البحر الأبيض المتوسط حتى نهر الأردن ، متجاهلين كل الحدود السياسية) . أما إذا نظرنا إلى حدود إسرائيل حتى عام ١٩٦٧ فإن نسبة اليهود ارتفعت من ٥٠٪ تقريبا عام ١٩٤٥ الى ٨٩٪ عام ١٩٦٠ ، ثم انخفضت الى ٨٦٪ عام ١٩٧٥ (بسبب ضم شرق القدس) .

وقد ظهر عنصر أساسى فى تحديد الاتجاهات السكانية وهو خصوبة الإناث العربيات واليهوديات ، ويلاحظ أن نسبة الإنجاب بين الإناث اليهوديات من الغرب والشرق أصبحت متقاربة إذ أصبح الفارق بينهما نصف طفل بعد أن كان هناك فارق ٤ أطفال عام ١٩٥٠ ، وقد وصل معدل الخصوبة الى ٢,٧ طفل لكل الاناث اليهوديات فى فلسطين المحتلة (وهو

ضعف نسبة الخصوبة بين الاناث اليهوديات فى الخارج - مما يعنى أن يهود العالم لا يعيدون انتاج أنفسهم) . أما خصوبة الاناث العربيات فقد وصلت الى عشرة أطفال عام ١٩٦٥ ثم الى ٤,٦ عام ١٩٨٦ . (من الظواهر الجديرة بالملاحظة أن معدل الخصوبة بين الإناث العربيات المسيحيات انخفض الى ٢,١ ، وهو أقل من المعدل بين اليهوديات . ولكن فى الفترة نفسها التى ولدت فيها الانتفاضة زادت الخصوبة عند الأنثى العربية المسلمة الى ٤,٧ والى ٢,٦ بالنسبة للمسيحيات ، وتنطبق الزيادة على الاناث داخل وخارج حدود ١٩٦٧ ، والمرأة النفوض - كما يقول المعجم - هى المرأة كثيرة الأولاد) .

بناء على كل هذا كان من المتوقع أن ينخفض عدد اليهود من سكان فلسطين المحتلة قبل وبعد ١٩٦٧ إلى ٦٠٪ عام ١٩٩٠ وإلى ٥٦٪ عام ٢٠٠٠ ، وإلى ٥٢٪ عام ٢٠١٠ ، وإلى ٤٨٪ عام ٢٠٢٠ . وكان من المتوقع أن يتساوى عدد اليهود والعرب (المسلمين والمسيحيين) عام ٢٠١٥ .

ويتجه اليمين الاسرائيلى نحو تضخيم أعداد المهاجرين باعتبار أنه سيحل مشكلة اسرائيل السكانية المزمنة ، ومشكلة الاستيطان الجديدة - أى ضم الأراضى العربية دون أن توجد مادة يهودية استيطانية قتالية فيها . وكانت تتعالى الأصوات مطالبة بالانسحاب من منظور ذرائعى ، فالتوسع والاستيطان - حسب أطروحة الذرائعيين - لا يشكل خرقا للقيم الأخلاقية أو القوانين الدولية وانما يتهدد الشخصية اليهودية للدولة الصهيونية . ويشير اليمين الآن إلى الجحافل

القادمة ويقول للذرائعيين لا تحاولوا تخويفنا بالأرقام (عيزراسوحار ، الجيروساليم بوست ٢٢ أغسطس ١٩٩٠) . ومع هذا كتب الديموغرافي الاسرائيلي سيرجيو ديللا بير جولا (وهو من أهم الداعين للانسحاب من الأراضى المحتلة من منظور ذرائعى) ليبين زيف الدعاوى . إذ بين أن كل مجموعة من ١٠٠ ألف مهاجر يهودى قد تؤدى الى تأجيل نقطة التعادل بين العرب واليهود لمدة عام واحد - أى أن مجموعة من ٥٠٠ ألف مهاجر ستؤدى الى تأجيل تاريخ التعادل من عام ٢٠١٥ الى عام ٢٠٢٠ ، ومجموعة من مليون مهاجر ستؤجلها الى عام ٢٠٢٥ ، ومجموعة من مليون ونصف ستؤجلها الى ٢٠٣٠ (الجيروساليم بوست ٥ أكتوبر ١٩٩٠) .

وديللابيرجولا ليس وحيدا فى موقفه هذا اذ يتفق معه يوسف ألفر (نائب رئيس مركز جافى للدراسات الاستراتيجية فى جامعة تل أبيب) الذى يقول أنه حتى لو هاجر ٨٠٠ ألف يهودى الى اسرائيل (ومكثوا فيها) فإن العرب فى أرض اسرائيل (أى فلسطين المحتلة قبل وبعد عام ١٩٦٧) سيكونون ٤٠٪ من السكان عام ٢٠٠٠ وخلال ١٥ عام سيصبحون الأغلبية لأن السكان العرب يتزايدون حاليا بمعدل ٥٠٪ كل عشرة أعوام . ولخلق أغلبية سكانية يهودية مريحة تبلغ ٨٠٪ خلال عشرة أعوام لابد من أن تهاجر الدياسبورا اليهودية بأسرها - أى ثمانية ملايين يهودى (استراتيجية للهجرة - الجيروساليم بوست - ١٥ مارس ١٩٩٠) .

أى أن مشكلة اسرائيل السكانية قائمة ولن تنجح الهجرة

فى حلها وإنما ستنجح فى تأجيلها ، فهى مشكلة بنيوية لا يمكن حلها إلا عن طريق الإبادة أو التهجير .

ولكن أعداد المهاجرين هو جانب واحد من القضية إذ يوجد جانب لا يقل عنه أهمية وهو الجانب الاستيطانى : فالدولة ترحب بالمهاجرين الجدد ليخلقوا توازنا مع العرب ، وعدم التوازن هذا يظهر أكثر ما يظهر فى الأراضى المحتلة بعد عام ١٩٦٧ حيث لا يقطن سوى ٧٠ الف مستوطن يهودى بعد مرور ربع قرن من الاستيطان . ومعظم سكان اسرائيل يتزاحمون فى مثلث صغير من قرايوت فى الشمال الى اشدود فى الجنوب والقدس فى الشرق . فالجليل به أغلبية عربية والنقب ستكون فيه عما قريب أغلبية عربية أيضا (يشير لها الاسرائيليون بأنها اغلبية بدوية) . والضفة والقطاع - غنى عن القول - بهما كثافة عربية كاسحة . ولكن المهاجرين الجدد لا يكترثون كثيرا بالقيم اليهودية أو الصهيونية لذا لا يتجهون الى القدس التى تحيطها هالة من القداسة فى العقل اليهودى والصهيونى ، فهى لا تعنى لهم شيئا - ولذا لم يستوطن فيها سوى ٥,٣٩٧ أى ٨٪ من مجموع المهاجرين حتى آخر سبتمبر ١٩٩٠ والبالغ عددهم ٨٣ الف (على عكس المهاجرين فى السبعينات الذين اتجه ٢٥٪ منهم الى القدس) . ولا يتجه المهاجرون الجدد الى النقب (التى يمكن أن تستوعب مليون مهاجر حسب التقديرات الاسرائيلية) ، ولم يستقر منهم فيها سوى ٥٪ (استقر ٢٧ فى بيت شيميش ، و٤٠ فى ديمونا ، و١٨٧ فى ايلات) . أما غالبيتهم الساحقة فقد استقرت فى حيفا والسهل الساحلى الأوسط بين أشدود ونتانيا . وقد استقر ١٣,٦٩٥ الف فى حيفا ، و٨,٩١٧

فى تل أبيب ، و٥,٦٥٥ فى نتانيا . وتبلغ نسبة الذين استقروا فى المنطقة الوسطى (بما فيها تل أبيب) ٥٢٪ ونسبة الذين استقروا فى المنطقة الشمالية (التى تشمل حيفا) ٢٣٪ ، (أى استقر ٨٥٪ منهم فى أماكن مكدسة بالسكان) ويقال انه لا يستقر إلا ١٪ فى الضفة الغربية . ويرى اليشع افرات ، أستاذ الجغرافيا والتخطيط فى الجامعة العبرية ، أنهم يفضلون المدن على المستوطنات الريفية ، ومن المدن يفضلون المدن القديمة فى قطاع الساحل الأوسط على مدن الأطراف . وهم لا يميلون الى الاستقرار فى المناطق المحتلة أو مدن الاعمار أو الكيبوتسات على الرغم من كل محاولات الأحزاب الدينية والصهيونية إقناعهم بالاستيطان فيها . وهؤلاء المهاجرون المرتزقة يؤثرون الدعة ويحبون الترف ، ولذا يستقرون فى أماكن مأهولة ، قريبة من المراكز الاقتصادية والادارية ، أماكن متطورة تتمتع ببنية تحتية مادية جيدة بها مستوى متقدم من الخدمات ، وفيها فرص متميزة للسكن . وقد سيقت الأسباب التالية فى محاولة تفسير سبب استقرارهم على هذا النحو :

أ ـ يحاول المهاجرون الجدد الحصول على أكبر قدر من المنفعة ثمنا لهجرتهم لاسرائيل ، ولذا فهم يخططون مسبقا للسكن فى إحدى المدن الكبرى أو فى ضواحيها ـ أى أنهم ينوون استخدام الدولة واستغلالها بدلا من أن يدعونها تستغلهم . وكما قال يوسى كوتشيك (المدير العام السابق لوزارة الاستيعاب) : « إن اليهودى السوفييتى الذى تطأ قدماه نيويورك يقول فى نفسه : شكرا لله ، وشكرا للولايات

المتحدة الامريكية التي سمحت له بالهجرة اليها . ولكن عندما يصل المهاجر السوفييتي الى اسرائيل فانه يقول : يا دولة اسرائيل ، احمدى إله واشكريه ، واشكريني أنا أيضا لأنني هاجرت إليك » (سكيراه حودشيت عدد ٣ ١٩٨٩ ، عمر سعادة ص ٨٥) .

٢ ـ يبدو أن المهاجرين السوفييت يصلون وعندهم معلومات محددة عن المناطق والمستوطنات المفضلة . كما أن اسلوب الاستيعاب المباشر الذى اتبعه الاسرائيليون أخيرا ، لتسهيل استيعاب المهاجرين ، يتيح الفرصة أمامهم إلى اختيار أماكن إقامتهم بحرية تامة .

٣ ـ يقال أيضا إن المهاجرين يتمتعون بمستوى تعليمى مرتفع ولذا فهم يتجهون الى مدن الساحل التى يتركز فيها حوالى ٨٠٪ من المنشآت الاقتصادية (لوموند نقلا عن القبس ٣٠ يناير ١٩٩٠) أما مدن الأعمار فهى تعانى من البطالة أولا ، كما أن ما فيها من أعمال لا يتناسب مع مؤهلاتهم . ومهما كان الأمر فليس من المتوقع أن تحل الهجرة المشكلة الاستيطانية ، وقد حذر وزير الاستيعاب من تركز المهاجرين الجدد فى وسط البلاد قائلا : « إن بركة الهجرة يمكن أن تتحول الى لعنة ، لو تداعت الأطراف » ، أي تركت خالية . وهرب كاينون : مواطنونا الجدد ـ الجيروساليم بوست ١٩ يناير ١٩٩٠) .

٤ ـ حاول أحد المعلقين الاسرائيليين (باليس ص ٧٠) ان يفسر نمط الاستيطان هذا على أساس انه اختيار سياسى

واع من جانب المهاجرين الجدد يستند إلى رفض للاقامة وراء الخط الأخضر ، أى أنهم لا يؤيدون التوسع الصهيونى ويقبلون باسرائيل الصغرى لعام ١٩٤٨ لا اسرائيل الكبرى لعام ١٩٦٧ ، وأعتقد أن هذه المحاولة التفسيرية مثل جيد على كيف يمكن فرض أى معنى على الحقائق الصلبة ان ظلت بمعزل عن الحقائق الاخرى ، فهو تفسير يبدو معقولا للغاية وهو موثق امبيريقيا . ولكن بعد ربط هذه الواقعة ، عدم الاستيطان فى الضفة الغربية ، بمعرفتنا بوقائع أخرى (طموحات المهاجرين دوافع هجرتهم ـ نمط استهلاكهم ـ موقفهم من الاتحاد السوفييتى) يمكننا بكل طمأنينة استبعاد هذا التفسير .

بقى بعد ذلك أن نناقش امكانية تحويل المهاجرين الجدد الى مادة قتالية ، ومن المعروف انه تم تجنيد أعداد من يهود الفلاشاه فى الجيش الاسرائيلى ، ولابد أن الصهاينة يفكرون فى نفس الشيء بالنسبة للمهاجرين السوفييت ، ولكن ثمة صعوبات حقيقية ستعوقهم عن تحقيق مآربهم . فالمهاجرون الجدد ـ كما أسلفنا ـ مرتزقة ، باحثون عن المتعة ، ومن ثم لا يتوقع أن يسارعوا بالدفاع عن المثل الصهيونية أو أى مثل أخرى .. كما أن نسبة عالية للغاية منهم تتمتع بأعلى المستويات التعليمية ويعملون فى أهم التخصصات المهنية والأكاديمية وأدقها ومن ثم لا يشكل الانخراط فى السلك العسكرى أى حراك اجتماعى بالنسبة لهم ، خاصة وأنه لا يوجد بينهم من له خبرة فى العمل العسكري ، ومع هذا سيتم الاستفادة ولاشك من مؤهلاتهم وخبرتهم فى قطاع الصناعات العسكرية (ولكن حتى هذا أمر مشكوك فيه الى حد ما إذ أن المؤسسة العسكرية الصهيونية تعتقد أن من بينهم نسبة لا بأس بها من الجواسيس الذى يعملون لحساب الاتحاد السوفييتى الذى قام بتدريبهم وتسريبهم مع المهاجرين) . وحتى اذا قررت المؤسسة العسكرية تدريبهم على القتال ، فان هذا سيستغرق وقتا

طويلا وأموالا طائلة ، اذ لابد من استيعابهم فى المجتمع الاسرائيلى ودمجهم وتعليمهم اللغة العبرية قبل أن يتحولوا الى مادة قتالية ذات كفاءة عالية (وإن كان ينبغى الاشارة الى ان الجيش الاسرائيلى هو أهم مؤسسات الدمج والاستيعاب الصهيونية وأكثرها نجاحا) .

هذه هى أبرز القضايا الخاصة بالهجرة والمشكلة السكانية الاستيطانية . ولكن هناك قضايا أخرى ليست لها نفس الأهمية فى الوقت الحاضر ، ولكنها قد تكتسب مركزية وتزداد حدة بمرور الزمن . ونحن نعرف أن نصف يهود الاتحاد السوفييتى فوق سن الخمسين وأن ربعهم فوق سن الستين ، هذا يعنى أن الربع لن يعمل وانما يشكل عبئا على المجتمع الاسرائيلى ، كما أن الربع الآخر سيتقاعد بعد عدة سنوات - اى أن التجمع الصهيونى سيجد نفسه يجابه تلك المشكلة التى تواجهها المجتمعات التى يقال لها متقدمة ، وهى مشكلة المسنين ، خاصة أن التجمع الصهيونى يوجد فيه عدد كبير من المسنين يتزايد عددهم بسبب هجرة بعض اليهود الغربيين الذين يهاجرون إلى اسرائيل للتقاعد فيها لأن المعاشات التى يتقاضونها فى بلادهم تحقق لهم مستوى معيشى أفضل فى المستوطن الصهيونى .

أما على المستوى الاجتماعى فمن المعروف أن كثيرا من المهاجرين السوفييت (خاصة من جورجيا) قد تركزوا فى أعمال الجريمة وتخصصوا فى جرائم بعينها من أهمها تزييف الأوراق المالية .

وقد أشرنا إلى عدد النساء من المهاجرات اللائى يعملن بالبغاء ، مما يدل على أن اعدادا لا بأس بها من المهاجرين

سينخرطون فى أعمال الجريمة ، ربما بنسبة أعلى من الموجات السابقة .

كما يمكن أن نذكر مشكلة عدم التجانس التى يواجهها التجمع الصهيونى باعتباره مجتمع مهاجرين وهى مشكلة تعمق من تفككه وتقوض من تماسكه وتضعف من تضامنه ، وقد تقبل علم الاجتماع الاسرائيلى مقولة وجود امتين واحدة غربية والأخرى شرقية . واذا كانت السنين الماضية قد خففت قليلا من حدة الانقسام فالهجرة الجديدة ستعمقها وستبين للجميع أن مقولة الامة اليهودية مقولة وهمية . بل إنه يمكن أن نرى وجود انقسام حضارى بين اليهود الاشكناز من جيل الصابرا والقادمين الجدد . فهؤلاء القادمون عندهم عاداتهم وقيمهم وتطلعاتهم وسلوكهم التى تختلف عن عادات وقيم وتطلعات وسلوك الاسرائيليين .

ولابد من أن نتوجه أيضا إلى عنصر قد يبدو وكأنه لا صلة له بموضوعنا ، وهو ما يسمى ظاهرة اليورديم أو المرتدين ، كما يسمونهم بالعبرية فى المصطلح الصهيونى ، وهؤلاء هم مواطنو اسرائيل الذين يتركون « بلدهم » ويهاجرون منها (أى يرتدون عنها باعتبار أن الايمان بالأرض هو جوهر اليهودية العلمانية أى الصهيونية) . ونحن نذكر هذا الموضوع باعتبار أن الزعم هو أن الهجرة السوفييتية ستحل مشكلة اسرائيل الاستيطانية والسكانية ، ولكن يبدو أن النزيف السكانى من الكيان الصهيونى ـ أى عدد النازحين منه ـ أعلى بكثير مما يتصور بعض الدارسين ، لقد كانت آخر التقديرات شبه الرسمية (عام ١٩٨٧) تذهب إلى أن عدد المهاجرين هو ما

بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ ألف ، بينما كانت تذهب الشائعات الى ان العدد هو ٧٠٠ الف . ولكن يبدو أن الأعداد قد زادت ففى جريدة وست سايد سبيريت (١٨ فبراير ١٩٨٩) وهى نشرة مغمورة ولكن مصادرها موثوق بها تماما وأحدهم هو اتسيك دراى وهو مبعوث إسرائيل ، ملحق بالقنصلية الاسرائيلية ، مهمته اقناع « المرتدين » بالعودة . وقد صرح أن عددهم هو ٣٠٠ الف فى نيويورك ومثلهم فى لوس أنجلوس ، كما توجد جماعات صغيرة فى ميامى وشيكاغو ـ أى أن رقم ٧٠٠ الف قد تحرك من نطاق الشائعات إلى نطاق التقديرات شبه الرسمية ، وكما قال رونى زافير رئيس تحرير جريدة (اسرائيل شيلانو) (اسرائيلنا) أن الرقم يصل إلى مليون إن تم حساب أولاد المهاجرين .

ومن المتوقع أن يتزايد عدد النازحين بسبب وصول اليهود السوفييت والمشكلات الناجمة عن ذلك (ازدحام فى المساكن ، زيادة التوتر الاجتماعى ، نقصان الفرص) وبالفعل يقال إن عدد النازحين هذا العام ٤٠ الف (الأهرام ١٧ يوليو ١٩٩٠) . ويجب ملاحظة أن البطالة متفشية فى قطاعات معينة (مثل الهندسة والطب) كان ينزح منها أعداد كبيرة ، وأن نسبة عالية من المهاجرين الجدد سينضمون أو يحاولون الانضمام لها ويصعدون من ازمتها .

بل ويجب ألا ننسى عدد النازحين من بين المهاجرين المرتزقة ذاتهم اذ يقوم بعضهم باقتراض المال من بعض المصارف متكلين على قوة الرواتب المرتفعة التى يتوقعون الحصول عليها فى مكان آخر فهم يدخلون الولايات المتحدة أو

كندا أو أوربا الغربية بصفة سياح ، ثم يحصلون عادة على اجازة اقامة بفضل اهتمام بعض أرباب العمل بهم . ولا نعرف على وجه الدقة عدد الذين نزحوا فالأرقام خاضعة للرقابة ، ولكننا نعرف أن ١٨ الف قادم جديد سجلوا أنفسهم في القنصلية السوفييتية طالبين الرجوع الى مواطنهم الاصلية » (الاهرام ٣ نوفمبر ١٩٩٠) . وهؤلاء النازحون أو المطالبين بالنزوح يشكلون نزيفا على التجمع الصهيوني وعنصر خلخلة وقلق فيه . بل وقد بدأت تظهر بعض الأصوات الهامسة في صفوف النخبة الحاكمة الاشكنازية ترى أن التساقط قد لا يكون فكرة سيئة (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) .

وقد أثار بعض العلماء الاسرائيليين المشكلة الايكولوجية الناجمة عن هجرة جماعية ضخمة مثل هذه . فبين اليشع افرات أن الهجرة ستؤدى إلى تحويل اسرائيل الى يابان أخرى . فبعد المليون الأولى ستضطر اسرائيل الى استقطاع كثيرا من أراضيها الزراعية لبناء المدن (الجيروساليم بوست ٢٠ أكتوبر ١٩٩٠) ، كما أن هناك مشكلة المياه المتفاقمة الذى سيؤدى وصول المليون الى زيادة حدتها . فإسرائيل تستغل ٢٥٪ من مصادر المياه المتاحة وهى أعلى نسبة في العالم فهي تستهلك حاليا ١,٦ بليون متر مكعب من أصل ١,٨٥ بليون متر مكعب من المصادر المائية . ويقال إن ٤٠٪ من المياه المستهلكة فى اسرائيل هى مياه فلسطينية مصدرها الضفة الغربية تحديدا . ويسأله كاتب مقال بعنوان « الهجرة اليهودية الكبيرة .. تحتاج إلى مصادر مائية كبيرة » (الحياة ٥ مارس ١٩٩٠) .. اذا كان للسبعين الف مستوطن الذين

يعيشون اليوم فى ١٣٤ مستوطنة فى الضفة الغربية ٢٧٠ بئر تضخ ٢٠ مليون متر مكعب (فى مقابل ٢١٤ بئرا تضخ ١١ مليون متر مكعب يملكها الفلسطينيون) فماذا سيكون عليه الوضع في اسرائيل الكبرى خلال عقد الهجرة الكبرى من الاتحاد السوفييتي ، خاصة أنه كان من المتوقع - قبل وصول المهاجرين - ارتفاع معدلات استهلاك المياه لأغراض الصناعة والاستعمالات المنزلية مع النمو السكاني الطبيعي ؟
هذه هي بعض المشكلات السكانية الناجمة عن الهجرة وهي كلها نتائج غير متوقعة يمكن تصعيدها وزيادة حدتها من خلال إعمال العقل والحركة ، كما يمكن للعدو تجاوزها إن قنعنا بالسكون .

الفصل السابع

البطالة والاسكان



من أهم المشكلات التى يواجهها التجمع الصهيونى نتيجة هجرة اليهود السوفييت مشكلة استيعابهم ، وأكثر جوانب هذه المشكلة حدة هو جانبها المباشر أى الاسكان . وحينما تم توطين يهود الشرق كانوا يلقى بهم فى مستعمرات الموشاف الجماعية أو فى المعابر . أما اليهودى السوفييتى فانه أمامه خيار الاستيعاب المباشر أى أن يختار مسكنا حيثما يشاء ، وتقوم وزارة الاستيعاب بدفع قيمة الايجار للعام الأول ، فان عجز عن تدبير منزل فبوسعه أن يطلب السكن فى واحد من ٤٦ مركز استيعاب تديرها الوكالة اليهودية .

وقد أدى تدفق المهاجرين إلى خلق أزمة مساكن ، ولكن فساد البيروقراطية الاسرائيلية المألوف عاد للظهور ، إذ نشب صراع بين المؤسسات المختلفة خاصة حينما اكتشفت المبالغ الهائلة المعتمدة ، فعاد الصراع التقليدى بين وزارة الاستيعاب والوكالة اليهودية وبين المؤسسات المختلفة المسئولة عن الاستيعاب داخل إسرائيل ذاتها . وحينما اقترح شامير تأسيس لجنة تنسيق بين الجهات المختلفة احتج كل من بيريتس ، وزير الاستيعاب ، وشمعون بيريس وزير المالية السابق (النيويورك تايمز ١٨ يناير ١٩٩٠) . وهو صراع لا يزال مستمرا بين شارون (وزير الاسكان) وموداعى وزير المالية (الجيروساليم بوست ٩ أكتوبر ١٩٩٠) .

وقد قام الصراع بين هذه الشخصيات والجبهات على الرغم من أن مراكز الاستيعاب فى حالة يرثى لها ، تقول مجلة تايم (٧ أغسطس ١٩٨٩) أن هناك ٢٨ مركز استيعاب لا يوجد فيها عدد كاف من الموظفين ، وهى مزدحمة تماما بالنزلاء الذين وصل عددهم عشرة آلاف مواطن جديد من الفقراء ، أما دانيال دورون ويورى ستيرن (وول ستريت جورنال ٢٩ ـ ٣٠ سبتمبر ١٩٨٩) فقد وصفا إسرائيل بأنها غير معدة لاستقبال أعداد كبيرة من المهاجرين ، وقد أشارا إلى أن زيادة عدد المهاجرين بضعة آلاف العامين السابقين أدى إلى ظهور أزمة فى خدمات الاستيعاب والتوطين التى تشرف عليها « الدولة » . فأماكن السكن المؤقتة للمهاجرين مزدحمة ، ومن الصعب الحصول على مسكن دائم .

ولا يختلف تقرير النيويورك تايمز (١٧ سبتمبر ١٩٨٩) كثيرا عن ذلك ، إذ يؤكد أن مراكز الاستيعاب ممتلئة ، فمركز جيلو ـ على سبيل المثال ـ يسكن فيه ٣١١ أسرة ، بينما هو معد لاستقبال ٢٧٠ أسرة وحسب . ولم تجد سوى ١٥ أسرة عملا ، وحينما يصل المهاجر فإنه يوقع عقدا ينص على أنه سيمكث فى المركز الاستيعابى ستة أشهر وحسب ، ولكنهم عادة ما يمكثون فترة أطول من ذلك بكثير . وتفسر الجريدة عودة كثير من المهاجرين الأرجنتينيين على أساس هذا الفشل فى استيعاب المهاجرين وتدبير عمل لهم .

وتشير مجلة التايم (٧ إغسطس ١٩٨٩) إلى أن فترة الاقامة فى مراكز الاستيعاب قد تصل إلى مابين عامين أو

ثلاثة ، ولنأخذ على سبيل المثال حالة تيموثى والاسكندرا بيرازين اللذين انتظرا لمدة عشرين عاما ليحصلا على تصريح بالهجرة من الاتحاد السوفييتى ، ولكنهما بعد وصولهما وجدا أنهما عليهما أن يقضيا ثلاثة أعوام فى مركز استيعاب ميڤاسيريث صهيون بجوار القدس ليبدأوا حياتهم . ويقول تيموثى الذى يكد ويتعب ليعول أسرة من تسعة أشخاص : « لقد كذبوا علينا ولذا نشعر الآن أن لا مكان لنا فى هذه البلدة » . وهذه شكوى عامة بين المهاجرين الذين يشعرون أنهم مهملون تماما « ولايمد لنا أحد يد المساعدة ، نحن لا نطلب الكثير ولكن هل لأحد أن يخبرنى ما هو وضعنا ؟ وكيف يمكن أن نخرج من هذا المكان ؟ » أى مركز الاستيعاب ، وهو فى هذه الحالة فندق ميامى ، وهو فندق رخيص فى أشدود ، « لم أكتب خطابا واحدا لأصدقائى فى روسيا ، لا أعرف ماذا يمكننى أن أخبرهم ؟ » ، أو « أكتب لابنى (الموجود فى الاتحاد السوفييتى والذى ينوى أن ينضم لى) خطابات أذكر فيها أشياء طيبة عن اسرائيل لاننى لا أريد أن أفقده » .

وتزايد معدل البطالة يؤدى إلى إطالة المدة التى يمكثها المهاجر فى مراكز الاستيعاب . ويقول يواف بيك ، رئيس مجلس منظمات المهاجرين ومساعد مدير رابطة الأمريكيين والكنديين فى اسرائيل : « يمكن أن أخبركم عشرات القصص عن أسر تضطر إلى قضاء عدة أيام نائمة فى المطار ، والعثور على عمل ليس أسهل حالا ، وان وجدت نفسك حاصلا على مؤهلات عالية ، أعلى مما تحتاج إليه السوق ، فقد تجد نفسك تعمل فى تنظيف الشوارع » (تايم ٧ أغسطس ١٩٨٩) .

ولكن نظام الاستيعاب الجديد (المباشر) يتيح الفرصة امام المهاجرين لأن يبحثوا عن مسكن ، ويقال إن ١٠٪ فقط الآن من المهاجرين يوطنون فى مراكز الاستيعاب أما الباقون فيذهبون للبحث عن مساكن ، مما يعنى خضوعهم إلى آليات السوق الحر والعرض والطلب وهى أمور لم يألفوها بسبب خلفيتهم السوفييتية . ومما زاد الطين بلة بالنسبة لهم أن اسرائيل كانت تعانى من أزمة اسكان قبل وصولهم . وقد استغل أصحاب الشقق الوضع - على الرغم من الاعفاء الضريبى الممنوح لأى مالك مستعد لتأجير المساكن للمهاجرين - إذ يصر بعضهم على الحصول على عدة شهور مقدما قبل تجديد عقد الايجار السنوى كما يزيد البعض الآخر من الايجار . وقد زادت ايجارات الشقق ما بين ٥٠ - ١٥٠ دولار أى مايزيد على ٥٠٪ أحيانا . ففى ضاحية كارمئيل ارتفع ايجار شقة من أربع غرف الى ٣٠٠ دولار ، وهو ضعف الايجار منذ عدة شهور (الجيروساليم بوست ١٧ مارس ١٩٩٠) كما أن فى مستوطنة معالوت زادت ايجارات الشقق ٨٠٪ فشقة من ثلاث غرف أصبحت تكلف ٤٠٠ دولار (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) ، وقد اختفت تماما الشقق ذات الايجار المعتدل (١٥٠ دولار) مع آخر صيف ١٩٨٩ (يديعوت أحرونوت ١٣ يوليو ١٩٩٠) .

ويوجد نظام تمليك الشقق فى اسرائيل ، وتقوم الدولة الصهيونية باعطاء كل مهاجر ما قيمته ٥٠ ألف دولار لشراء شقة ، ولكن أسعار الشقق زادت هى الأخرى فأقل شقة تكلف ٨٠ ألف دولار (الاندبندات ١٠ مارس ١٩٩٠) . ولذا لم يتمكن سوى ألفى مهاجر من شراء شقق . ومما يزيد الأمور

صعوبة إصرار المصارف الاسرائيلية على أن يقدم لها المهاجرون خطابات الضمان وكل الأوراق والوثائق اللازمة ، الأمر الذى لا يتيسر لهم بحكم ظروفهم (الجيروساليم بوست ١٣ نوفمبر ١٩٩٠) .

ويقال إن مشاريع وزارة الاسكان تتضمن إنشاء ٤٥ ألف وحدة سكنية . ولكن لم يبدأ فى العمل سوى فى عشرها (الجيروساليم بوست ٣ نوفمبر ١٩٩٠) مع العلم بأن المطلوب هو ٢٥٠ ألف شقة بشكل مبدئى ، ويقدر الخبراء أن الوقت المطلوب لانشاء عمارة سكنية هو ٢٠ شهرا ، وأنه لابد من ٣٥ شهرا لبناء مجمع سكنى . واذا كان مهاجرو هذا العام ابتداء من سبتمبر ١٩٨٩ حتى أغسطس ١٩٩٠ هو حوالى مائة ألف فهم سيصلون الى نهاية فترة ايجارهم قبل أن يكون أى من هذه المنازل قابلا للسكن ، مما قد يضطر وزارة الاستيعاب الى دفع أجور مساكنهم لعام آخر أو عامين . ولكن سيكون قد تكدست عشرات الألوف الأخرى من المهاجرين (لو صدقت التوقعات الصهيونية) (باليس ص ٦٤) .

وقد طرح مشروع باستيراد منازل متنقلة ولكن لم يستورد منها سوى ٥٠٠٠ ، .كما قدم اقتراح آخر باستيراد البيوت الجاهزة . وأحب هنا أن أتوقف قليلا لأصف ما حدث فى التجمع الصهيونى (الذى نتحدث دائما عن تماسكه وديناميته ..... الخ) اذ هدد حاييم هابرفلد ، أحد زعماء الهستدروت (نقابات العمال الاسرائيلية الصهيونية) « بأن الدماء ستجرى فى الشوارع » . وقد علقت الجيروساليم بوست فى افتتاحيتها (٢٥ يونيه ١٩٩٠) أن هابرفلد « لم

يكن يتحدث عن حرب شاملة أو عن هجوم ارهابى على نطاق واسع وإنما كان يهدد الحكومة ان هى سمحت باستيراد مثل هذه البيوت » . وقد يتبادر للذهن لأول وهلة أنه فعل ذلك بهدف حماية الصناعة الاسرائيلية والعمال الاسرائيليين ولكننا نعرف أن شركة يوفال (لانتاج المنازل الجاهزة) كانت قد أفلست منذ عامين . لم إذن الدماء ؟ سنكتشف أن هابرفلد يزيد أن يقوم الهستدروت ذاته باستيراد المنازل - لتحقيق الأرباح ! وماذا عن المنازل الخالية فى ديمونا ؟ ومدن الاعمار ، ماذا عن الريادة والرواد - والحالوتسيوت والحالوتسيم ، سنكتشف أن المرتزقة الجدد يبحثون عن بلد خمس نجوم يكفل لهم كل سبل الراحة والترف .

ومع تزايد عدد المهاجرين ستتفاقم الأزمة حتى إن بيريتس صرح بأنهم قد يعيشون فى الخيام (الجيروساليم بوست ٢٧ أكتوبر ١٩٩٠) . وقد عبر بعض المهاجرين عن ضيقهم بالوضع . ولنأخذ على سبيل المثال ابرام رودشتاين الذى وصل فى ديسمبر ١٩٨٩ ، يقف رودشتاين هذا مع ابنه وابنته وزوجها وطفليها في حجرة رطبة باردة لا يوجد فيها سوى موقف واحد للتدفئة . « لقد أعطونا كتيبات بالروسية، تعدنا بـ ٣٠٠ جنيه استرلينى ولم يحصل ابنى أو زوج ابنتى على شىء ، وعلىّ أن أدفع ثمن الدواء الذى اشتريه لعلاج حالة القلب التى عندى . وقد أخبرونى أن النقود قد نفذت » .

أما آسيا شندروفا وهى طبيبة أطفال من موسكو فتحكى باكية كيف أن رجال الشرطة الاسرائيلية حاولوا اخلاءها من منزلها . « البيروقراطية هنا أسوأ من روسيا . لقد تمكنا من

البقاء إبان حكم هتلر ثم ستالين وظننا أننا سنحصل على الحرية فى وطن اليهود ، شعبنا . ولكنهم هنا يدقون على الأبواب أيضا في منتصف الليل بأوامر اخلاء .. اننى أشعر أننى خدعت ـ مواطنة من الدرجة الثالثة » (التايمز ١٣ يناير ١٩٩٠) .

وقد يقول قائل إن هذه مشكلات طبيعية وعادية ، وقد يكون الأمر كذلك فى ظروف طبيعية ، ولكن المادة البشرية التى نتعامل معها ـ كما نؤكد ونكرر ـ مادة تتسم بعدم القدرة على التحمل وارجاء التوقعات . وقبل أن نختتم هذا الجزء لابد من أن نشير الى ما حدث لأناتولى التمان وهو من زعماء المنشقين الصهاينة فى الاتحاد السوفييتى . وقد طلب التمان الهجرة من الاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٨ وحاول اختطاف طائرة عام ١٩٧٠ هو ومجموعة من اليهود السوفييت فى عملية سميت « بعملية الزواج » . وقد قبض على كل من اشترك فى هذه العملية ، وحكم عليهم بأحكام سجن طويلة ، وقد نجح التمان فى الوصول إلى إسرائيل فى نهاية الأمر عام ١٩٧٩ واستقبل استقبالا حافلا : مديح من رجال السياسة ، رحلات للخارج ومقابلات صحفية ، واستقر التمان فى كيبوتس ياجور (وهو الكيبوتس الذى « تبناه » أثناء فترة سجنه) ولكنه ترك الكيبوتس بعد أربعة أعوام ، ولا يذكر الأسباب فى خطابه للجيروساليم بوست ، ولعله سئم الاشكال الجماعية للحياة .

ثم استقر التمان فى شقة تمتلكها شركة اسكان تابعة للحكومة (اميدار) لأنه لم يكن عنده من المال ما يكفى لشراء شقة ، ثم بدأ يعمل فى مصنع سولتام ، ولكن المصنع أغلق

أبوابه ولم ينجح التمان في أن يجد عملا لمدة عام . وفى نهاية الأمر عثر على عمل نظير ٢,٦٣ شيكل فى الساعة (أى حوالى دولار وثلث) . وحين تقدم بطلب مساعدة من قسم سجناء صهيون فى فرع الوكالة اليهودية فى حيفا أخبره الموظف المختص أنه يحق له الحصول على عون فى حالتين اثنتين : لو كان قعيدا أو لو ترك البلد ثم عاد بعد عامين أو ثلاثة . ولم يستطع أن يحصل التمان حتى على المساعدة التى يمنحها معهد التأمين القومى للفقراء لأنه كان يمتلك سيارة (لم يكن بمقدوره فى واقع الأمر أن يستخدمها لأنه لم يكن عنده ما يكفى من المال لتغطية قيمة التأمين) . وفى عام ١٩٨٣ استقر التمان فى الدور الأرضى فى شقة فى أحد مبانى اميدار القديمة وكان عليه أن يتحمل العفونة والرطوبة على الحوائط ، وكانت المواسير تنفجر من آونة لأخرى ، وتغطى أرض الشقة بالقذارة والعفن .

وقد تقدم التمان بعد ذلك بعدة شكاوى لاميدار التى أرسلت فى نهاية الأمر لجنة لتفحص الشقة ووجدتها بالفعل غير صالحة للسكن ، ثم حولت حالته الى شيكمونا التى تقوم بتصليح البيوت المتهدمة وتجديدها ، ومر عام دون اتخاذ آية اجراءات ، فاضطر لترك شقته ليعيش مع بعض الأصدقاء حين خصصت اميدار له شقة أسوأ من سابقتها .

ويعيش التمان سجين صهيون الشهير فى الشارع تقريبا لأنه لا يمكنه أن يمكث مع أصدقائه أكثر من ذلك ، ويختم خطابه للجيروساليم بوست (٣٠ سبتمبر ١٩٨٩) بما يلى : « يقال إن الوكالة اليهودية ودولة إسرائيل تقومان بمساعدة

سجناء صهيون ، وعلى سبيل المثال قال أحد كبار المسئولين فى الوكالة اليهودية إن سجناء صهيون السابقين يحق لهم أن يحصلوا على تسهيلات تأمينية خاصة لشراء شقة وللحصول على العناية الطبية وخلافه .

ولكن خلال العشرة أعوام التى عشتها فى إسرائيل لم يتصل بى أى مكتب من المكاتب المسئولة عن رفاه سجناء صهيون السابقين إلا حينما عقدت حفلات الاستقبال الصاخبة التى نظمت بعد وصولى ، أحب أن أعرف عن حق ما إذا كان لا يزال بوسعى أن أحصل على أى شكل من أشكال المساعدة فى إسرائيل ؟ » .

ولكن يجب أن ننظر إلى أزمة المساكن من منظور آخر فهى لها جانب مظلم وهو أن هذه الأزمة ذاتها قد تدفع بالمرتزقة باتجاه الضفة الغربية حيث يوجد سكن مدعوم ، خاصة بعد أن تتكدس الأعداد فى المدن الاسرائيلية المزدحمة . ورغم أن هذا لم يحدث حتى الآن على نطاق واسع ، إلا أن ما يحدث فى مستوطنة اريبل قد يتحول من كونه واقعة أو حادثة ليصبح نمطا متكررا ، ولذا لابد من مراقبته بحذر حتى نزيد من المقدرة التنبؤية لنماذجنا التفسيرية ومتتالياتنا الاحتماليه . واريبل هى مستوطنة « فى السامرة » (كما تقول الجيروساليم بوست ١٠ فبراير ١٩٩٠) : مدينة صغيرة تعدادها ٨ آلاف مما يجعلها من أكبر المستوطنات ، تقع بالقرب من مدينة نابلس أى أنها فى قلب الضفة الغربية . ومع هذا لم يجد المرتزقة الجدد أى مانع من السكن فيها ، فالمستوطنة كانت قد أسست بنية تحتية لاستقبال المهاجرين من جنوب افريقيا

وأمريكا اللاتينية الذين لم يحضروا . ويشير عمدة المدينة ، رون نخمان (كما جاء فى جريدة الحياة ٣١ يناير ١٩٩٠) الى القرار الخاص « ببناء حوالى ألفى وحدة سكنية جديدة على هضبة جميلة ضمت أخيرا الى أملاك اربيل . وتعهدت شركة أمريكية ببناء تلك الوحدة بطريقة حديثة جدا وتم الاستغناء عن العمال العرب خوفا من قيامهم بأعمال تخريبية فى الأبنية . وهذه الطريقة الأمريكية الحديثة تشمل بناء قاعدة اسمنتية يقوم عليها بيت جاهز مكون من طابقين الأول يضم صالة كبيرة والثانى يضم ثلاث غرف نوم . وتساوى تكلفة هذه الشقة نصف تكلفة البيوت الأخرى ، لذلك وعدت الشركة الأمريكية أن تسلمها كل شهر حوالى عشر شقق وبهذه الطريقة تستطيع المستوطنة استقبال أى عدد ممكن من المهاجرين . أما عن ايجاد عمل للمهاجرين فقد طرح مشروع لبناء مختبرات للعلماء السوفييت مما يتيح لهم فرصة اجراء بحوث خاصة بهم » . ويحاول رون نخمان بالتعاون مع شارون وزير التجارة والصناعة والوكالة اليهودية توسيع المستوطنة عن طريق توظيف أموال طائلة وجلب المهاجرين اليها . وعلى كل تضم المستوطنة بعض الصناعات المهمة مثل مصنع أجهزة الكومبيوتر البسيطة وهى الصناعات التى يمكن لليهود السوفييت أن يعملوا فيها . وأخيرا يوجد فى اربيل جماعة روسية كبيرة ، بل وقد استوعبت حوالى ثمانين عائلة فى الفترة الأخيرة .

ولأربيل منافع أخرى للمرتزقة ، فهى « جميلة ، جوها جميل ، لايوجد عرب فيها » (النيويورك تايمز ٢٨ يناير ١٩٩٠) . ويظهر تدنى مستوى المهاجرين الجدد السياسى

وخساستهم فى أقوال هذا النقاش الذى يبلغ من العمر ٥٦ سنة والذى هاجر من روسيا البيضاء ويسمى جريجورى كاتسمان ، فقد قال إنه لم يكن يعرف أى شىء عن اريبل قبل أن يحضر الى هنا . « كل ما سمعت عنها أنها ليست داخل حدود اسرائيل . ولكن هذا لم يضايقنى كثيرا لأن الشىء الأساسي هو أننى لم أضطر لدفع مبلغ كبير لشراء شقة . فالسياسة لا تهمنى كثيرا » . (هل تجار الشنطة كثيرون فى الاتحاد السوفييتى ؟) وقد عرف كاتسمان عن اريبل من خلال مكتب عقارات متخصص فى التعامل مع المهاجرين (فهو يبحث عن وطن عقارى ، وطن يشتريه بسعر بخس اذ لا فرق فى عقل المرتزق بين البلاد وبين الفنادق) . ولا يختلف أعضاء أسرة يانكفتش كثيرا عن النقّاش النفعى من روسيا البيضاء : « قالوا لنا إن الشقق أرخص وأن الجو جميل ، فالشقة أربع غرف ايجارها ٢٨٠ دولار فى الشهر » (يابلاش) . وماذا عن الانتفاضة ؟ عرفوها للمرتزقة بشكل بسيط « عرب يلقون حجارة » وبما أن « هناك مستوطنون عاشوا هنا لمدة ١٢ سنة من قبل دون خوف فلم نخاف إذن ! » . وهذا هو أيضا موقف ايجور بلكين (عمره ٢٥ سنة طباخ من لنينجراد) ، فهو لا يعرف شيئا عن حقوق الانسان أو التاريخ أو حتى الجغرافيا ، ولذا فالحجر يظل حجرا ـ جسم مندفع نحوه ـ لا توجد وراءه سنوات طويلة من الاضطهاد والصراعات والمخيمات والأطفال المحترقين بالنابالم (فزيد قد ضرب عمروا وخلاص) . « ومن الممكن أن يصيبنى حجر فى لنينجراد » . أما بخصوص توطين المهاجرين فى الأراضى المحتلة (أما بخصوص النساء التى تقتل والأطفال التى تداس) فان ايجور الطباخ لا يكترث

كثيرا : « عندى الآن الحق أن أعيش أينما أريد » . (الجيروساليم بوست « اريبل فى عين الشمس » هرب كاينون ١٠ فبراير ١٩٩٠) .

إن المادة البشرية القتالية المرتزقة والتى تفر من الشمس والضفة الغربية يمكن أن تتحول بسبب الضائقة السكانية الى مادة قتالية ضارية تأتى على الأخضر واليابس . ويمكن هنا أن نضرب مثلا آخر على حقيقة صلبة تتلاشى تماما أو تتحول من خلال حقيقة أخرى ، قد تكون اقل صلابة منها . من المعروف أن المهاجرين السوفييت هاربون من الاشتراكية ومؤسساتها وقيمها ولذلك فهم يرفضون الاستيطان فى الكيبوتسات لأنها تذكرهم بالبلد الذى فروا منه . هذا هو الوضع حتى الآن ! ولكن من المعروف أن الكيبوتسات قد تكون مؤسسات ذات طابع تنظيمى جماعى ولكنها لا علاقة لها بالقيم الاشتراكية أو قيم المساواة ! فهى مقامة على أرض مغتصبة من العرب وتستبعدهم كما تستبعد اليهود الشرقيين ، بل ان الكيبوتسات تحولت إلى مؤسسات اشكنازية ارستقراطية تتمتع بأعلى مستوى معيشى فى اسرائيل . ومن ثم قد يكتشف المهاجرون الاشكناز أن التنظيم الجماعى انما هو فلسفة ادارية لتنظيم عملية السلب وتوزيع الغنائم ، ولعلهم حينما يذهبون إلى الكيبوتسات ويرون بأنفسهم المتاحف وحمامات السباحة والتليفزيونات الملونة والرحلات السياحية ، لعلهم حينما يرون ذلك سيتدفقون عليه ، خاصة أن الكيبوتسات فى حالة ازمة مالية وبشرية ، إذ أن عدد سكانها آخذ فى التناقص منذ عدة سنوات . وبالفعل بدأت تظهر فى الصحف الاسرائيلية اشارات لهذا الاحتمال ،

وبدأت القيادات الكيبوتسية تتحدث عن محاولة « تحويل » الكيبوتسات الى بيت المهاجرين الأول (الجيروساليم بوست ٢٦ أكتوبر ١٩٩٠) . وقد حضر حاييم هيرتزوج رئيس الدولة احدى الاحتفالات بمرور ثمانين عام على انشاء أول كيبوتس وأشار إلى أن الحركة الكيبوتسية هي « جوهر الصهيونية » . ويبدو أن المؤسسة العمالية الاشكنازية قد تحاول تحقيق بعض المكاسب عن طريق جذب المهاجرين الجدد اليها وتجنيدهم سياسيا في صفوفها ، والكيبوتس قد يكون هو أداتها في ذلك . وقد أسست بعض الكيبوتسات معاهد لتعليم اللغة العبرية للوافدين . وتشير صحيفة الجيروساليم بوست الى أن اريل شارون وزير الاسكان [اليميني الرجعي] لن يتردد في التعاون مع الكيبوتسات (اليسارية الاشتراكية الخ) في عملية توفير الاسكان للمهاجرين . فالصهيونية هي الهجرة الاستيطانية .

ويشير مقال بعنوان « هم سود ونحن بيض » (افيجيل جتمان ، الجيروساليم بوست ، ٤ أغسطس ١٩٩٠) الى تصريح بيريتس أن « الاسكان هو أقل مشكلاتنا ازعاجا » باعتبار أن البطالة هي المشكلة الحقيقية ، خاصة بسبب أزمة الاقتصاد الاسرائيلي . فالبطالة في الكيان الصهيوني تقترب من ١٠٪ على المستوى القومي (وصلت الى ٢٠٪ بالنسبة للمرحلة العمرية ١٨ ـ ٢٤ ، و٣٥٪ في مدن الاعمار) . وقد زاد عدد العاطلين ممن يتلقون تعويضات عن البطالة والتي تصرف لمدة ثلاثة شهور إلى ٥٢,٢٠٠ في يناير ١٩٩٠ ـ اى بزيادة ٦٢٪ عن يناير ١٩٨٩ . وقد زاد العدد مرة أخرى الى ٥٧ الف في فبراير من العام نفسه بالقياس الى ٣٩ الف في

فبراير ١٩٨٩ ـ أى بزيادة ٤٦٪ . هذا الرقم هو رقم من سجل اسمه فى مؤسسة التأمين القومى . والواقع أن عدد المتعطلين يبلغ ١٥٠ الف منهم ، وقد سجلت مصلحة العمل عدد ٩٣,١٠٠ باحث عن العمل . وتقول الصحف انه يوجد وظيفة واحدة لكل خمس أشخاص (الجيروساليم بوست ١٧ فبراير ٤ و ٩ و٣١ مارس ١٩٩٠) . وقد بين رئيس مصلحة العمل ديفيد مينا أنه يوجد ٧٠ عالم رياضة وإحصاء لكل وظيفة واحدة شاغرة فى هذا المجال . اما النسبة فى التخصصات الأخرى فهى ٦١ فيزيائى و١٥ ممن يعملون فى العلوم الاجتماعية والانسانية و١٣ اقتصادى و٩ مهندسين و ٢ ممن يعملون فى حقل الالكترونيات وهندسة الكمبيوتر . أما بالنسبة لبرمجة الكمبيوتر والمحاسبة والصيدلة فلا يوجد أزمة (الجيروساليم بوست ١٧ مارس ١٩٧٠) .

وهذه الاحصائية هامة إذ تبين ان البطالة ترتفع بين العلماء وذوى المؤهلات العالية ممن تكتظ بهم اسرائيل (على عكس الهجرة فى الفترة من ١٩٧٠ ـ ١٩٩٠ التى ضمت نسبة عالية من يهود جورجيا القليلى الثقافة وأنصاف المهرة) . وكما أسلفنا فقد أعلن أكثر من مسئول اسرائيلى عن أن من المتوقع أن تكون مؤهلات المهاجرين السوفييت أعلى بكثير من مستوى المؤهلات المطلوبة لسوق العمل الاسرائيلى حيث تتركز حاجة الاقتصاد الاسرائيلى على العمال الفنيين والعمال غير المهرة ، وهى المهن التى يرفض الاسرائيليون القيام بها ، ويفضلون البطالة والعيش على مخصصات الضمان الاجتماعى بدلا من القيام بها . وقد صنفت الوكالة اليهودية وظائف ومهن المهاجرين المتوقعين بناء على معلوماتها

المسبقة عن اليهود السوفييت ، وبناء على العينة التى وصلت بالفعل ، على النحو التالى :

٥٣,٦٪ وظائف أكاديمية .

٢١,٣٪ ياقات زرقاء .

٢٢٪ ادارى وتجارى وخدمات .

٣,١٪ وظائف أخرى .
(الجيروساليم بوست ١٧ فبراير ١٩٩٠) .

والمعروف أن اسرائيل تخرج ٢٦٠ طبيبا متدربا سنويا (نزح منهم أعداد كبيرة) الى جانب مئات المهندسين وعلماء البحوث والموسيقيين ، ولدى اسرائيل ست فرق موسيقية ، وتفيض جامعاتها بالعاملين الزائدين عن الحاجة .

وقد أثبتت الاحصائيات الأخيرة عن المهاجرين الذين وصلوا فى الفترة من يناير حتى آخر سبتمبر صدق التوقعات وان هذا هو النمط الذى سيسود فمن بين ٨٣ الف مهاجر وصلوا بالفعل يوجد ١١,٥٠٠ مهندس (أى حوالى ١٢٪ من كل المهاجرين) و٢٥٧٨ طبيب و١٥٢٥ اقتصادى و١٤٥٢ عازف موسيقى و١٠٧٧ سائق و٣٧٣ حلاق و٢٨٤ مصور و٢٤٥ طبيب أسنان و٢٤١ كيميائى ، و١٩٧ طباخ و١٨٧ نحات و١٤٢ عالم احياء و١٣٧ مصلح ساعات ويوجد معهم قاضيان وشرطى ومخبر وعشر سعاة بريد ! (الجيروساليم بوست ١٩ اكتوبر ١٩٩٠) ولنتخيل مدينة مثل تل أبيب أو

حيفا حينما يتزايد أطباء الأسنان فيها خلال عام واحد مائة أو مائتين بخلاف خريجي الجامعات الاسرائيلية ، أو يصلها خمسمائة عازف أو ربما الف و١٨٧ نحات (فى الوقت الذى تحتاج فيه هذه المدن لعمال مهرة أو غير مهرة) . ومن المعروف أن إحدى المشكلات الاساسية التى يواجهها الاقتصاد الاسرائيلى هو تضخم قطاع الخدمات على حساب القطاع الانتاجى . ويبدو أن هذا العيب البنيوى سيزداد عمقا مع تزايد الهجرة .

ومن الطريف أن البطالة لم تطل العاديين وحسب وانما وصلت إلى بعض زعامات المهاجرين ، ولنغطى سيرة أحد أبطال حركة الرفض اليهودية الصهيونية فى موسكو وفى تل أبيب وهو الاسكندر باريتسكى . قام باريتسكى بتأسيس « جامعة يهودية » . معاناة باريتسكى فى مدينة خاركوف الأوكرانية فأرسل إلى أحد معسكرات العمل فى سيبيريا لمدة ثلاثة أعوام ، ومن ثم كان واحدا من أهم « سجناء صهيون » . وهى العبارة التى كانت تطلق على نشطاء حركة الرفض الذين كانت السلطات السوفييتية تلقى القبض عليهم وتودعهم فى السجن بسبب نشاطهم الصهيونى واستمرت فترة معاناة باريتسكى ورفضه لمدة أثنى عشر عاما ، ظل خلالها صابرا منتظرا أن يبدأ حياته الجديدة ، ثم هاجر فى نهاية الأمر إلى اسرائيل عام ١٩٨٨ ، واحتفل بعيد « استقلال » اسرائيل الأربعين فى فيينا وهو فى طريقه لتحقيق أحلامه فى صهيون . ولكنه بعد وصوله وقع ضحية البطالة المتفشية ، ولذا فهو يقيم الآن فى مركز ميفاسيريت صهيون للاستيعاب الذى يعد واحدا من أحسن مراكز الاستيعاب وأفخرها . ونسبة

البطالة بين المقيمين فيه حوالى ٥٠٪ ، وعلى الرغم من أن باريتسكي يعمل مهندسا اليكترونيا (أى أن تخصصه نادر) ودعى لإلقاء محاضرة فى مجال تخصصه فى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا إلا أنه لا يجد عملا لأن المؤسسة الصهيونية تشك فى أن كل مهاجر سوفييتي يبحث عن عمل فى قطاع التكنولوجيا المتقدمة العسكرية قد يكون جاسوسا ، ويعلق باريتسكى على هذا الوضع قائلا : « لقد منعت من الهجرة طيلة هذه السنوات لأننى مطلع على أسرار الدولة [السوفييتية] والآن حينما أبحث عن عمل [فى اسرائيل] يقال إنه لا يمكن توظيفى لأسباب أمنية » . ثم يضيف باريتسكى : « مازلت آمل أن أجد شيئا هنا ، ولكن إن لم أنجح ، فسأبحث فى مكان آخر » (الجويش ويك ٢ يونيه ١٩٨٩) .

ومما يجدر ذكره أن أرقام البطالة التى سبق وأشرنا إليها لا تعكس أعداد المهاجرين السوفييت ولذا « يتوقع أن يسوء الأمر فى الشهور المقبلة » (الجيروساليم بوست ١٧ فبراير ١٩٩٠) ، وأن يصل معدل البطالة الى ٢٥ ـ ٣٠٪ لا بسبب تزايد المهاجرين وحسب وإنما بسبب تخرج أربعين ألف مهاجر يدرسون العبرية ، وسيبدأون فى البحث عن عمل فور تخرجهم فى نهاية العام ، وحينئذ ستبدأ « المنافسة الحتمية على العمل وستكون أكثر شراسة وعنفا وشخصية » على حد قول بيريتس (الجيروساليم بوست ٤ أغسطس ١٩٩٠) الذى أشار أيضا إلى أن ربع المهاجرين وحسب من الباحثين عن عمل قد نجحوا فى مساعيهم .

وهناك عدة حلول لأزمة البطالة من بينها شد الأحزمة على البطون (الجيروساليم بوست ١ سبتمبر ١٩٩٠) مما سيؤدى إلى تفجر الصراعات الطبقية ذات المضمون العام والاثنى (كما سنبين لاحقا) . ومما يفاقم المسألة أن المرتزقة الجدد يعانون من (أو يتمتعون بـ) درجة عالية من التوقعات والتطلعات . وقد استخدم يتسحاق بيريتس بعض استعارات الخطاب الدينى والصهيونى لتهدئتهم فقال لهم : « حينما ترك اليهود مصر لم يسألوا عما إذا كان هناك عمل فى الصحراء وما إذا كان هناك وظائف للأطباء .. أن كرههم للاضطهاد وحبهم للحرية كان عظيما الى درجة أنهم لم يسألوا حتى « ماذا سنأكل هناك ؟ » . وبالطبع قوبل ذلك بسخرية شديدة إذ رد عليه ليف سيمر (طبيب يبلغ من العمر ٣٣ عاما) ردا مفعما بالمنفعة واللذة : « الحياة فى حالة سيولة ، نحن نعيش الآن وهنا . لا يمكن أن نعود إلى آلاف الأعوام ونقول « هكذا يجب أن تكون الحالة الآن » (هرب كاينون « الحرية أهم من الوظائف » الجيروساليم بوست ٤ ابريل ١٩٩٠) . ولابد أن سيادة الوزير قد أفحم لأنه يعرف مسبقا أن هؤلاء المهاجرين لا يحلمون ولا يحملون أى مثاليات (كما قال شارانسكى) .

وفى مجال البحث عن مخرج من الأزمة طرح تصور إمكانية إعادة تدريب المهاجرين ، فسيعاد تدريب الأطباء ليشغلوا وظائف ممرضين ومدرسى علوم وفنيين فى المعامل (الجيروساليم بوست ١ سبتمبر ١٩٩٠) . وغنى عن القول إن مثل هذا الحل سيصعد من حدة المشكلات إذ أنه يعنى هبوطا فى السلم الاجتماعى لجماعة بشرية جاءت لتحقق حراكا اجتماعيا ، وسيزيد من الاحتكاك بينهم وبين الأعضاء

السابقين فى التجمع الصهيونى . وهناك تصور أن المهاجرين سيحلون محل العمالة العربية فتعالج النتائج السلبية للانتفاضة على الاقتصاد الاسرائيلى وتحل مشكلة العمالة العربية المتغلغلة فى الاقتصاد الاسرائيلى خاصة في القطاعات الانتاجية والمتواجدة بأعداد كبيرة فى قاعدة الهرم الانتاجي (مما يشكل مشكلة أمنية للتجمع الصهيونى). وقد صرح رئيس اتحاد أصحاب المصانع فى اسرائيل أن القطاع الصناعى بالتعاون مع الحكومة يستطيع أن يستوعب ٣٠ ألف مهاجر جديد يعملون فى الصناعة خلال السنتين المقبلتين حيث أن فرص العمل سوف تزيد عندما يتم استبدال عمال المناطق المحتلة والأجانب بعمال من المهاجرين (عمر سعادة ، ص ٨٠) . وقد أصدرت الحكومة الاسرائيلية توجيها لكل أصحاب الأعمال الاسرائيليين تطلب منهم اثبات انه لا يمكن الاستغناء عن مستخدميهم العرب واحلال يهود محلهم (الجيروساليم بوست ٢٩ أكتوبر ١٩٩٠) .

ولكن مثل هذه التوجيهات تتجاهل طبيعة المهن التى يشتغل فيها العمال الفلسطينيون من الضفة والقطاع والتى لاتتناسب مع المؤهلات الأكاديمية التخصصية التى يحملها معظم المهاجرين من الاتحاد السوفييتى . فهل يمكن أن يتم تشغيل مهندسى الالكترونيات والأطباء والخبراء السوفييت عمال بناء ، أو عمالا زراعيين فى اسرائيل ؟ أى هل يمكن تحويل نخبة متعلمة كانت على قمة الهرم الانتاجى فى مجتمع متقدم الى بروليتاريا فى قاعدة الهرم الاسرائيلى ؟ أى هل يمكن قلب هرم بوروخوف العتيد . وبوروخوف هو منظر ما يسمى بالصهيونية الاشتراكية وكان يرى أن المشكلة

الأساسية بالنسبة لأفراد الجماعات اليهودية فى الغرب انهم يتركزون فى قمة الهرم الانتاجى (أطباء ومهندسين ومحامين) ولا يوجدون فى قاعدته (عمال وفلاحين) أى أن معظم اليهود يعملون بالأعمال الفكرية والمكتبية والمهن الحرة ولا يعملون فى الوظائف اليدوية . كما أن الوظائف التى يقوم بها العرب شاقة ، وقد قال أحد أصحاب المحلات أن كل المهاجرين السوفييت الذين عرض عليهم وظائف رفضوها لأنها تبدأ الساعة الثانية والنصف صباحا (بعد منتصف الليل) وتتطلب القيام بأعمال جسدية شاقة . (الجيروساليم بوست ٢٩ أكتوبر ١٩٩٠) . هذا بخلاف انخفاض أجور العمال العرب ، وهذا كان الدافع الأول والأساسى فى عملية استئجارهم . وكما أسلفنا تحول الاستعمار الصهيونى من استعمار استيطانى احلالى الى استعمار لونى لايطرد العرب وانما يستغلهم كعمالة رخيصة وسوق للبضائع . ومع هذا يمكن لهذا الوضع ألا يستمر ، ويمكن لآليات السوق الشرسة أن تدفع بالمهاجرين الروس وغيرهم ليحلوا محل العرب .

وتكاليف استيعاب المهاجرين السوفييت لا يمكن أن توصف الا بأنها مذهلة . وقد بينت أحدى الصحف أن هجرة ٢٠٠ ألف مهاجر إلى إسرائيل تعادل هجرة ٣٠ مليون مهاجر الى الولايات المتحدة ، أما هجرة نصف مليون فتعادل هجرة ٧٥ مليون الى الولايات المتحدة . وتتضارب التقديرات الخاصة بتكاليف الاستيعاب فقد ذهب بلوتسكير فى يديعوت أحرونوت (١٣ يوليو ١٩٩٠) إلى أن تكلفة استيعاب ٢٤٠ ألف شخص تصل الى ٢٢,٥ مليار دولار : ٧,٥ مليار للسكن ، ١١,٥ مليار للتشغيل (العمالة) ، ٢ مليار للبنية التحتية ،

١,٥ مليار للمبالغ التى تسلم للمهاجرين لدى وصولهم..

أما الجيروساليم بوست (٢٧ سبتمبر ١٩٩٠) فقد ذهبت الى أن تكاليف استيعاب ١٠٠ ألف مهاجر (وهو عدد المهاجرين من سبتمبر ١٩٨٩ حتى أغسطس ١٩٩٠) وصل ٤ بلايين دولار (ولا يشمل ذلك تكاليف الاسكان والاستثمارات لخلق وظائف) . وتحدثت بعض الصحف الأخرى عن تكاليف استيعاب مائة ألف مهاجر بأنها خمسة بلايين (بليونان للإسكان وثلاثة بلايين للمصاريف الأخرى) (نيويورك تايمز ٢٠ أكتوبر ١٩٨٩) . وقد نشرت البوست فى ٢٤ فبراير ١٩٩٠ (نقلا عن تقرير بنك هابوعاليم فى مقال بعنوان « التدفق سيؤدى إلى البطالة » بقلم جاليت ليبسكى يونيه ١٩٩٠) أنه من بين ٩٠ ـ ١٠٠ ألف مهاجر يوجد ٥٥ ألف أعمارهم مناسبة للعمل مما يعنى ضرورة ايجاد ستين ألف فرصة عمل سنويا لمنع ارتفاع البطالة ، (ونحن نعتقد أن المطلوب أكثر من ذلك لاستيعاب الشباب الاسرائيلى غير المهاجر) ، وبينت الجريدة أن هذا الأمر يحتاج مبلغ ٣,٥ مليار بليون ، ومعدل نمو يصل الى ٨٪ فى العام وزيادة الصادرات بنسبة ١٣٪ . كما أن استيعاب ١٠٠ ألف مهاجر يحتاج الى ٢,٢٥ بليون دولار ثمنا للأثاث والأجهزة الجديدة . وهذا يعنى أن رقم ٢٢,٥ بليون دولار لاستيعاب ربع مليون مهاجر ليس أمرا مبالغ فيه ، فإذا تصورنا أن عدد المهاجرين هو نصف مليون فالمطلوب هو ٤٥ بليون دولار . والسؤال هو من سيدفع الفاتورة ؟

وستحاول إسرائيل دون شك حل المشكلة على الطريقة المألوفة ـ المعونات الخارجية من الولايات المتحدة وابتزاز

يهود العالم (أى يهود الولايات المتحدة) . وأؤكد فى دراساتى أن اسرائيل استثمار استراتيجى (كنز استراتيجى كما يحلو لبعض الصهاينة والأمريكيين أن يقول) وليست استثمارا اقتصاديا مباشرا . ولذا فالغرب على استعداد لتمويل اسرائيل بطريقة تتجاوز حسابات الربح والخسارة المباشرة اذ أن العائد المطلوب هو عائد استراتيجى ، وهذا يفسر البلايين التى صبت فيها منذ نشأتها حتى الوقت الحالى . ولكن الفاتورة هذه المرة باهظة للغاية . ولا أعتقد أن الولايات المتحدة ذاتها قادرة على دفعها وبالسرعة المطلوبة ، ومع هذا فهى قد تعهدت بتقديم قرض طويل الأجل الى اسرائيل بقيمة ٤٠٠ مليون دولار للمساهمة فى عملية اسكان اليهود السوفييت ، ولكن غنى عن القول أن هذا المبلغ ضئيل للغاية .

أما يهود الولايات المتحدة فالمطلوب منهم حوالى بليون دولار ، وكان توقع المؤسسة الصهيونية أنهم سيهرعون ويدفعون كما فعلوا عام ١٩٦٧ ، ولكن يبدو أن التوقعات كانت من باب الأمنيات إذ بدأت تحيط الشكوك بهذه الامكانية ، وقال حاييم هرتزوج ، رئيس الدولة الصهيونية : « مع الأسف لم ينضم لنا يهود العالم بكل قوتهم فى هذه المعركة » (النيويورك تايمز ١٨ يناير ١٩٩٠) .

وقد ألقى شامير باللوم على القائمين على حملات التبرعات واتهمهم بعدم إدراك جوهر الثورة « الناجمة عن هجرة مئات الآلاف من المهاجرين » ، وطالب الشعب اليهودى (أى يهود العالم) بأن يضاعف من تبرعاته عشرة أو عشرين مرة . ولكن

ما لم يدركه شامير أن مصادر التمويل آخذة فى النضوب مما يجعل من المستحيل الاستجابة لندائه . فحتى لو ضاعف يهود العالم تبرعاتهم فإنها لن تتجاوز - من ناحية قيمتها الحقيقية - تبرعاتهم لعام ١٩٧٥ ، كما أن تبرعات يهود العالم فى الماضى كانت وتغطى نسبة مئوية لابأس بها من نفقات الدولة الصهيونية ، ولكن هذه التبرعات لايزيد فى الوقت الحالى عن ١,٥٪ من ناتج إسرائيل القومى ، كما لايتجاوز العائد من بيع سندات إسرائيل نفس النسبة ويعود هذا إلى نمو إسرائيل وتوسعها ، كما يعود إلى إنصراف يهود العالم عن حملات التبرع . فقد لوحظ أن ٠,١٪ من كبار المتبرعين يدفعون ٢٥٪ من كل التبرعات ، وأن ١٠٪ من المتبرعين يدفعون ٨٠٪ منها - أى أن صغار المساهمين من الجماهير اليهودية لم يعودوا يتبرعون للدولة الصهيونية تقريبا . وقد لوحظ أن كبار المتبرعين هم عدة أفراد تم استئناسهم واستيعابهم ، ولكن هذا يعنى أيضا أن المنظمات الصهيونية واليهودية أصبحت معتمدة عليهم تماما لاستمرار بقائها ومن ثم تواجه أزمات مالية حادة حينما يمتنعون - لسبب أو لآخر - عن دفع تبرعاتهم . ومن الملاحظ أن هؤلاء المتبرعين من كبار السن ومن الأجيال القديمة ، أى أن خلفيتهم فى الغالب أوربية ، أو أنهم من أبناء المهاجرين مما يعنى وجود رابطة عاطفية « بالوطن القديم » وبالهوية القديمة . ويترجم هذا نفسه إلى ارتباط بالمنظمات اليهودية والصهيونية باعتبارها منظمات تعبر عن هذه الهوية ، وإلى تبرعات لها . هذا على عكس أبنائهم المتأمركين المندمجين الذين لاتربطهم رابطة قوية بالمؤسسات اليهودية ومن ثم لن يستمروا فى التبرع للمنظمات اليهودية والصهيونية . كما أن كون كبار المتبرعين

مسنين يعنى أن رحيلهم سيؤدى إلى تسارع نضوب المصادر المالية الحالية ، ويلاحظ أن من أهم مصادر التمويل فى الوقت الحالى هى التركات التى يوصى بها كبار المتبرعين للمنظمة الصهيونية ، ورغم أن مثل هذه التركات تحل كثيرا من المشكلات إلا أنها فى نهاية الأمر « تبرع أخير » لن تليه تبرعات أخرى .

وثمة عنصر آخر لابد من ذكره فى محاولة تفسير نضوب تبرعات يهود العالم وهو أن الجماعات اليهودية بدأت تنفق جزءا كبيرا من التبرعات التى تجمعها على الخدمات المحلية مثل المدارس اليهودية وبيوت العجزة وقد تزايدت الحاجة إلى ذلك إبان حكم ريجان الذى قطعت حكومته كل المعونات عن مؤسسات الخدمة الاجتماعية ، وتبلغ نسبة ما تنفقه الجماعات على نفسها فى الوقت الحاضر ثلثى كل التبرعات التى تقوم بجمعها .

وأحب أن أشير هنا إلى قضية مهمة وهى : الفرق بين الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية ، أما الأولى فهى صهيونية من يقرر الهجرة والاستيطان فى فلسطين ، أما الصهيونية التوطينية فهى صهيونية اليهودى الذين يكتفى بإرسال الدعم المالى لتوطين يهودى آخر ، ويمكن أن نشير إلى نوع ثالث وهى صهيونية « النشيطين عن بعد » ـ أى هؤلاء اليهود الذين ينضمون إلى المنظمة الصهيونية العالمية ويتظاهرون لصالح اسرائيل ويهيجون ضد الاتحاد السوفييتى لانقاذ اليهود السوفييت ويجمعون الأموال من الصهاينة التوطينيين ولكنهم لا يهاجرون قط . وقد عرف أحد الظرفاء الصهيونى بأنه يهودى يأخذ معونة مالية من يهودى ثان

لتوطين يهودى ثالث فى أرضً الميعاد . والدافع وراء الصهيونية التوطينية كان دائما « الدفاع عن الذات » ، لا « حب صهيون » . فيهود العالم الغربى الذين اندمجوا فى مجتمعاتهم وحققوا حراكا اجتماعيا غير عادى وحصلوا على مكانة اجتماعية متميزة وأصبحوا جزءا لا يتجزأ من الطبقات والنخب الحاكمة ، هؤلاء اليهود كانوا يشعرون أن مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية كانت مهددة بجحافل يهود شرق أوربا التى بدأت تصل اليهم مع نهاية القرن التاسع عشر . وقد أيد هؤلاء المشروع الصهيونى ودعموه ماليا لا حبا فى صهيون وانما خوفا من المهاجرين اليهود ؛ إذ أن هذا المشروع وعد بتحويل تيار الهجرة عنهم إلى فلسطين . ولكن يبدو أن المشروع الصهيونى لم ينجح تماما فهذه الجحافل تصل دائما الى الغرب خاصة الولايات المتحدة ، أينما سنحت لها الفرصة ، إذ أن حبها للجولدن مدينا يفوق حنينها لصهيون بمراحل . ولذا نجد أن بعض الصهاينة التوطينيين يغيرون استراتيجيتهم أحيانا وبدلا من دفع الاعتمادات للصهاينة فانهم يحتفظون بها للانفاق على عمليات استيعاب المهاجرين ، أى أنه بدلا من الاستراتيجية التوطينية تظهر استراتيجية استيعابية هدفها الاسراع بدمج المهاجرين الوافدين حتى لا يهددوا مواقع اليهود الأصليين ، خاصة أن هؤلاء المهاجرين ـ كما أسلفنا ـ تحولوا إلى الجريمة المنظمة ، ولو تركت الأمور على عواهنها لزادت سوءا . هذا الوضع سيؤثر حتما على يهود الولايات المتحدة ، وقد جاء فى الجيروساليم بوست (١٣ يناير ١٩٨٩) أن يهود الولايات المتحدة فى حاجة إلى ٦٠ مليون دولار أكثر من العام الماضى للمساهمة فى توطين المهاجرين الجدد . وقد أظهر نشيطو

الهجرة السوفييتية فى إعلانهم الذى سبق الاشارة إليه ، تفهما لهذا الوضع وحاولوا أن يهدئوا من روع يهود الولايات المتحدة حتى يمكن تحويلهم من صهاينة توطينيين يرسلون بهم إلى إسرائيل إلى صهاينة استيعابيين يمدون لهم يد العون للاندماج فى المجتمع الأمريكى :

« نحن نعرف أن مصادر بلدكم محدودة ، وأن تدفق المهاجرين سيجهد بشكل خطير إمكانات الجماعة اليهودية الأمريكية ؛ ولكن يجب أن تضعوا فى الاعتبار أنه حالما يتم استقرار هؤلاء المهاجرين (اليهود السوفييت) وحالما يتم تحولهم إلى عناصر منتجة فإن العائد منهم من الضرائب وحدها سيكون أكثر مما أنفق عليهم » (الميامى جويش تريبون ٢٠ أكتوبر ١٩٨٩) .

وماذا عن الحكومة الاسرائيلية ذاتها ؟ لم ترصد الحكومة أكثر من ٩٠٠ مليون دولار لانفاقها على مختلف مجالات الاستيعاب . ولكن من المعروف أن الاقتصاد الاسرائيلى لا يمكن أن يستوعب هذا الفيض من مئات الألوف من المهاجرين ، فهو ليس كالأسفنجة الكبيرة (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) و٢٢ بليون دولار هو قيمة نصف الناتج القومى ، كما أن الاقتصاد الاسرائيلى ليس فى أحسن أحواله إذ أنه توقف عن النمو منذ ١٢ سنة (بلوتسكير يديعوت أحرونوت ١٣ يوليو ١٩٩٠) . وقد وصل التضخم ٢٠٪ وثمة برنامج تقشف فى سنته الخامسة (الايكونومست نقلا عن القبس ٢٠ مايو ١٩٩٠) . وكما تقول مجلة الميدل ايست : عند انشاء اسرائيل عام ١٩٤٨ استوعبت مايزيد على ٧٠٠ ألف يهودى من الدول العربية لأنه فى ذلك الوقت كان

الاقتصاد لايزال فى مرحلة طفولته ، وكان مسموحا بالتدخل الحكومى واسع النطاق فيه . وبعد ٤٢ عاما لم يعد بالامكان تنفيذ نفس الوسائل . فأكثر من ثلث السكان يعملون الآن فى القطاع العام ، وعمال هذا القطاع هم الأقل انتاجا بين سائر دول العالم الغربى ، والكيبوتسات مدينة بما يبلغ اجمالية حوالى ٤ مليارات دولار [فى الواقع مديونية الكيبوتس أعلى من ذلك بكثير] ، وبرامج الرعاية الصحية والتعليم على وشك الانهيار ، وصناعات « كور » التى تعتبر أكبر تجمع صناعى مختلط فى اسرائيل تطالب بخمسين مليون دولار من الحكومة لانقاذها من الانهيار ، والعديد من المصدرين يواجهون خطر فقدان أسواقهم الرئيسية بعد توحيد أوربا ، ولم يحدث أى تقدم فى مبيعات مايزيد على ١٩٠ شركة تملكها الحكومة . ويقول مسئول بوزارة المالية الاسرائيلية : « إسرائيل ليست فى موقف القادرة على تحمل أية أعباء اقتصادية اضافية وخاصة اذا كانت هذه الأعباء من النوع الذى لا يعطى ثمارا عاجلة » (ميدل ايست نقلا عن القبس ٨ يوليو ١٩٩٠) .

ولن يؤدى وصول المهاجرين إلا إلى تفاقم المشاكل الاقتصادية (خاصة فى المراحل الأولى) فالأموال التى ستتوفر فى أيديهم على هيئة منح ومعونات ، والخدمات التى سيستفيدون منها ، والسلع التى سيستهلكونها ستؤدى إلى انخفاض مستوى المعيشة ، إذ أن الخدمات سيتقاسمها عدد أكبر من الناس ، كما أنها ستؤدى إلى زيادة العجز فى الميزان التجارى ، لأن المهاجرين سيستهلكون سلعا كان بوسع إسرائيل تصديرها . بل إن التضخم قد يأخذ فى التزايد خاصة أن الحكومة تطبع أوراق النقد بسرعة غير عادية !

وهنا لابد من أن نذكر أثر الانتفاضة المجيدة ، فقد أكدت الايكونومست ان الانتفاضة وراء الكساد الاقتصادى (القبس ٢٠ مايو ١٩٩٠) ، وبين بلوتسكير أن من أهم أسباب الأزمة الاقتصادية الراهنة حالة الحرب المستمرة مع الشعب الفلسطينى التى أدت إلى ركود اقتصادى منذ ثلاث سنوات . وبين أرييه الياف أن الانتفاضة تصفى دماء إسرائيل من النقد الذى تحتاج إليه لتوطين الروس (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) . والانتفاضة من منظور النيويورك تايمز (١٧ سبتمبر ١٩٨٩) قد لا تشكل مشكلة مباشرة بالنسبة لمعظم الاسرائيليين إلا أن المتاعب الاقتصادية التى تسببت فيها أدت إلى خلق عقبات مخيفة فى الاسكان والعمالة ، عقبات يجد المهاجرون أنه من المستحيل التغلب عليها . فالانتفاضة أثرت على السياحة ، أهم مصادر النقد الأجنبى فى اسرائيل . كما أن مقاطعة السلع الاسرائيلية أغلق أهم أسواق التصدير أمامها . وقد « أغرق هذا اسرائيل فى كساد عميق » . كما أن المشكلات التى يواجهها قطاع الاسكان (أكثر القطاعات الاقتصادية تأثرا بالانتفاضة) من أهم الأسباب لظهور أزمة المساكن .

وقد انتهز دعاة الاقتصاد الحر هذه المناسبة لينسبو أزمة الاستيعاب الى بنية الاقتصاد الاسرائيلى « الاشتراكية » أى التى تسيطر عليها البيروقراطية العمالية ، ولذا فهم يطالبون بتوسيع نطاق القطاع الخاص وتقليص القطاع العام ، ويساعدهم فى ذلك المفكر الاقتصادى الأمريكى ملتون فريدمان (الجيروساليم بوست ٢٢ فبراير ١٩٩٠) الذى طرح اقتراحا بخصوص اعطاء المهاجرين بعض المبالغ التى ستقدمها الحكومة للانفاق على الاستيعاب حتى يفتحوا مصانعهم ويبدأوا أعمالهم التجارية ويبنون بيوتهم داخل اطار

اقتصاديات السوق الحر (الجيروساليم بوست ١٩ سبتمبر ١٩٩٠) .

بل إن بعض دعاة الاقتصاد الحر قد وصلوا الى درجة غير عادية من الجرأة اذ هاجموا المفهوم الصهيونى الخاص بملكية الأرض من قبل الشعب اليهودى (ممثلا بالوكالة اليهودية) وحظر بيعها للأفراد والاكتفاء بتأجيرها لليهود وانشاء مستوطنات زراعية فى كل أرجائها . وقد وصفوا هذه الرؤية الصهيونية بأنها « عقدة الأرض » لدى الحرس القديم ، أتوا بها من شرق أوربا ، وهى لا تؤدى إلا إلى رفع سعر الأرض (يشكل ثمن الأرض ٤٠٪ من ثمن أى عقار) . ويطالب دعاة الاقتصاد الحر بتحرير الأرض أى باتخاذ سياسات أكثر تساهلا فى مسألة بيعها ونسيان مسألة قداستها وطهرها وضرورة التركيز على الزراعة (التى لاتشكل سوى ٢ ـ ٣٪ من الناتج القومى) وتجاوز مسألة توزيع السكان على كل مناطق إسرائيل الجغرافية . وقد قال دانيال دورون ، وهو من أهم المفكرين الاقتصاديين الاسرائيليين المدافعين عن الاقتصاد الحر « إن سياسة توزيع السكان قد أحرزت نجاحا ـ فقد وزعناهم على سيدنى (استراليا) وجوها نسبرج (جنوب أفريقيا) ونيويورك » (الجيروساليم بوست ١٩ سبتمبر ١٩٩٠) . ولاشك أن هذه الجرأة تدل على ان دعاه الاقتصاد الحر قد يستغلون هذه الفرصة للقضاء على البقية الباقية من الاشكال الجماعية فى الملكية والادارة والتى تشكل الأساس المادى للمؤسسه العمالية الأشكنازيه . ولاشك أنهم لو نجحوا فى هذا فإن طبيعة النظام السياسى الاسرائيلى ستتغير بشكل جوهرى .

كما يجب ألا نستبعد ان سرعة التحرك الصهيونى قد تحول

الفائض البشرى الذى يسبب مشكلة البطالة فى الوقت الحالى الى عنصر إنتاجى ، داخل اشكال تنظيمية مبتكره فى المستقبل . وقد كتبت منذ مده عن مشروع صهيونى ينطلق من حقيقة معاصره وهى إن رأسمال عصر العلم هو العقول ، كما كانت النقود رأسمال عصر الصناعة ويهدف الى تحويل اسرائيل إلى أول مجتمع فى عصر الفضاء وأكثر المجتمعات تركيبا من الناحية التكنولوجية والعلمية والثقافية ، وبذا تصبح اسرائيل قوه عظمى صغيرة فى صادرات التكنولوجيا وتحل مشكلة ميزان المدفوعات . وقد طرح هذا المشروع فى اطار محاولة ربط يهود العالم بالمستوطن الصهيونى بحيث يمكنهم المساهمة فيه والمشاركة فى مشاريعه بل وقضاء أوقات طويلة فيه دون أن يهاجروا إليه بالضرورة . ومثل هذا المشروع يمكن أن يبعث من جديد كى يحل مشاكل إسرائيل الاستيعابية ثم الإنتاجية . وبالفعل نشرت الجيروساليم بوست (١٣ نوفمبر ١٩٩٠) أن يتسحاق موداعى وزير المالية قد بدأ يفكر فى تأسيس مركز لشركات التكنولوجيا المتقدمة ، سيطلق عليه « سليكون النقب » مثل وادى السليكون الشهير فى كاليفورنيا الذى يعد أكبر تركيز لشركات الكومبيوتر فى العالم . والهدف منه هو المساعدة فى استيعاب المهاجرين وتشجيع النازحين الاسرائيليين على العودة . وهذا ليس بمخطط أو خطة بعد وإنما مجرد فكرة (على حد قول موداعى) ورغم صعوبة تنفيذه فهو ليس بمستحيل ، ويمكن أن نستيقظ يوما لنجد أن ما كان متتالية محتملة بعيدة الاحتمال حقيقة قائمة .

الفصل الثامن :



العداء للقادمين

عادة ما يُقابَل الوافدون في كل المجتمعات البشرية بشيء من العداء بسبب الاختلاف في اللغة والشكل والسلوك . ولكن بعد فترة قصيرة إن أثبت الوافدون أنهم لا يشكلون خطرا على أعضاء هذا المجتمع ، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وأنهم قادرون على التكيف مع المجتمع الجديد وإن ساهموا فيه بشكل ايجابى وتحولوا إلى عناصر منتجة ، فإن المجتمع يبدأ فى قبولهم .

وفى تصورى أن مقومات الاحتكاك بين الوافدين الجدد وأعضاء التجمع الصهيونى مرتفعة للغاية على المستويات الاقتصادية والطبقية والاجتماعية . وقد أشرنا من قبل إلى الصراع الثقافى الذى قد يحدث داخل التجمع الصهيونى بين المستوطنين من جيل الصابرا والقادمين الجدد الذين يحملون ثقافة وقيما روسية . أما على المستوى الطبقى فتوجد قطاعات عديدة داخل التجمع الصهيونى لن يسعدها كثيرا وصول هؤلاء المهاجرين السوفييت وخاصة حينما تبدأ الدولة الصهيونية فى تقديم المساعدات لهم وفى توفير شتى أنواع الخدمات المجانية وتدبير المسكن لهم وحرمانهم هم منها .

فسكان مدن التطوير يخشون من القادمين (الأهرام ٣ فبراير ١٩٩٠) خاصة أنها أصبحت بؤرة للبطالة ، فحسب ما

جاء فى الجويش برس (٢٢ ـ ٢٨ سبتمبر ١٩٨٩) أعلنت الحكومة الاسرائيلية أن ٤٣ مستوطنة ، تضم ١٦٪ من سكان إسرائيل ، أصبحت مراكز بطالة إذ بلغت نسبة البطالة فيها من ٩,٤٪ إلى ٢١,٦٪ .

وبما أن كثيرا من المهاجرين هم من المهنيين ذوى المؤهلات العالية (الياقات البيضاء) فإن كثيرا من المهنيين الاسرائيليين يشعرون بشىء من القلق من مزاحمة الوافدين ، خاصة بعد الغاء مشروع اللافى الذى كان سيفتح فرصا أكبر للعاملين فى الالكترونيات وغيرها من المجالات التى تتطلب مستوى تعليميا متقدما .

ولابد من أن تفكير الحكومة الاسرائيلية فى أن تحل مشكلة التمويل « من خلال الاسرائيليين » على حد قول شامير (النيويورك تايمز ١٨ يناير ١٩٩٠) سيزيد من حدة التناقض بين الوافدين والمستوطنين القدامى . وعبارة شامير مبهمة إلى حد كبير ، ولكن بدأت تتضح بعض معالمها إذ يبدو أن الحكومة الاسرائيلية بدأت تطبع مزيدا من الأوراق المالية الاسرائيلية وتحول ميزانيات من مشروعات مختلفة لتركز على تمويل مشروعات الاستيعاب (الصنداى تايمز ، القبس ١٤ فبراير ١٩٩٠) . ويذهب أحد الكتاب فى الفاينانشيال تايمز إلى أن الهدف من المبالغة فى أرقام المهاجرين « هو تهيئة الرأى العام الاسرائيلى حتى يكون مستعدا لتقديم التضحيات » (القبس ٤ مارس ١٩٩٠) .

وستؤدى الهجرة إلى الاستقطاب الطبقى فى التجمع الصهيونى ، وقد بين بلوتسكير أن الهجرة ستلحق الأذى

بالصناعات العسكرية لأن تخفيض ميزانية الدفاع أصبح ضروريا ، هذا في الوقت الذي سيستفيد أصحاب الشقق [الذين كسبوا خلال ثلاثة شهور عدة مئات الملايين من الدولارات في الوقت الذي خسر فيه المستأجرون بنفس المعدل] ، كما سيحقق مقاولو البناء وقطاع المستوردين والموردين أرباحا طائلة . وطبعا فإن المستفيدين سوف يلتزمون الصمت وسوف يتحول المتضررون إلى قطاعات احتجاج : أغنياء الحرب في مقابل الفقراء الجدد .. وكل مجموعة ضغط متضررة من الهجرة (كل فرقة مدرعات في الجيش على حد قول بلوتسكير) لا تنطلق إلا من مصلحتها الضيقة . وستتمزق إسرائيل من جراء التوترات الداخلية ، وستزداد الكراهية وستظهر الفتنة - أي أن الهجرة ستزيد من حرارة المجتمع الطبقية ، ومن ثم سيطرح هذا السؤال : «هذه الموجة الهائلة من المهاجرين ستتم على حساب من ولصالح من ؟ » (يديعوت أحرونوت ١٣ يوليو ١٩٩٠) .

ولعل هذا يظهر فيما يسمى بمدن الخيام ، فمع تزايد وصول المهاجرين الذين تزودهم الوكالة اليهودية بالمعونات ضاعف أصحاب المساكن أجور شققهم - كما أسلفنا - بل واختفى الفائض السكني المتوفر حتى نفذت الشقق المعروضة للايجار بسعر معقول (يوجد اسكان لوكس في إسرائيل ، وقد قرأت عن شقة في تل أبيب إيجارها في العام ٨٠ ألف دولار ، كما قرأت إعلانا آخر عن شقة ثمنها مليون دولار) . ولذا أفلست قطاعات من المستأجرين وعجز الألوف من الشباب والعاطلين والعجزة عن دفع الايجار واضطروا للسكنى في خيام وأكواخ خارج المدن . وقد ظهرت ٣٠ مدينة خيام في إسرائيل تضم حوالي ١٥٠٠ أسرة تنقسم إلى ثلاث مجموعات :

١ ـ المحتجون الأصليون الذين لهم أعمال ثابتة ولكنهم لم يعد بوسعهم الاستمرار فى دفع إيجار الشقة بعد زيادته .

٢ ـ الفقراء الذين يعيشون على الاعانات الحكومية والذين كانوا يبحثون عن مسكن حتى قبل الهجرة .

٣ ـ هؤلاء الذين فشلوا فى دفع أقساط رهن شققهم أو منازلهم ومن ثم فقدوا حقهم فى المساعدة المالية من الحكومة . « نحن سود وهم بيض » (الجيروساليم بوست ١٤ أغسطس ١٩٩٠) . وقد أصبح سكان الخيام من أهم القضايا التى تشغل الرأى العام فى إسرائيل خاصة بعد أن ضربوا بعض خيامهم فى حديقة الكنيست . ويتنبأ بعض أعضاء الكنيست أنه ستظهر جماعات احتجاج أكثر عنفا كلما ازدادت الفجوة بين الذين تركهم القطار والوافدين الجدد . وهذا هو الذى حدا بالجيروساليم بوست لأن تقول إن الاسرائيليين « يحبون الهجرة ويكرهون المهاجرين » (٣١ يناير ١٩٩٠) .

وقد كتب مات نيسفسكى ، الكاتب الإسرائيلى الفكاهى ، صاحب مقال « العمود / الطابور الخامس » مقالا عن الصراع المحتمل بين الوافدين وأعضاء المجتمع (الجيروساليم بوست ١٨ أغسطس ١٩٨٩) . يبدأ المقال فى مكتب التوظيف فى إسرائيل ويدخل شاب تبدو عليه علامات الذكاء فيسأله الموظف ماذا تعمل ؟ فيقول : « مهاجر جديد » . فيفهم الموظف انه من الوافدين ويسأله أى وظيفة تود أن تشغلها ؟ فيجيبه الشاب « مهاجر جديد » .

ـ نعم فهمت أنك « مهاجر جديد » ولكن ما نوع العمل الذى تود تأديته ؟

ـ مهاجر جديد .

فيبتسم الموظف إذ يتحقق من أن الشاب لا يفهم العبرية ويتحدث معه ببطء شديد .

ـ أأنـــــ تــــ ت

مـــ مــب هــ هـــــ ا جــ جــد ر

جــــ د يــــ يــــ د .

حسنا أين ولدت ؟

فيجيبه الشاب : « بتاح تكفا » . وعند سماع هذه العبارة تغمر الدهشة وجه الموظف تماما ، إذ أن بتاح تكفا هى أول مستوطنة صهيونية فى فلسطين والمولود فيها يعنى انه ينتمى إلى جيل الصابرا ـ أى أنه ليس وافدا وإنما ولد على أرض فلسطين المحتلة ـ وأن لغته الأولى هى العبرية . ولعل الكاتب يود أن يقول لنا ان بتاح تكفا هى اسرائيل ، وأن الشاب هو كل أعضاء المجتمع الصهيونى ، وحينما يطلب الموظف من الشاب تفسيرا يجيب هذا بقوله :

ـ سمعت ان لديكم وظائف للمهاجرين الجدد . وأنا عاطل عن العمل .. ولذا قررت أن اكون مهاجرا جديدا .. وقد سمعت ان هناك مئات الملايين من الدولارات لتأهيل المهاجرين

الجدد . لم لا يعاد تأهيلى حتى أصبح مهاجرا جديدا ؟ فمثلا يمكننى أن أتعلم كيف أتحدث بالعبرية الأساسية . ويمكن أن أتحدثها بلهجة رديئة ، وسأرتدى ملابس مضحكة مثل المهاجرين الجدد .. أنظر ، أنا مستعد أن أضحى بكل هذه الأمور ، لقد سرحت من الجيش منذ عام ولم أعثر بعد على عمل . أسمع أن كثيرا من أصدقائى ينزحون عن هذا البلد ولا أريد أن أفعل ذلك فأنا مؤمن بالصهيونية ، وأحب هذا البلد ، وإذا كانت الطريقة الوحيدة للبقاء هنا هى أن أصبح « مهاجرا جديدا » محترفا حسنا إذن سأفعل ذلك . أعرف أن هذا يعنى أننى سأصبح عضوا فى أقلية محتقرة وأن أبدأ من نقطة الصفر وأن أعانى من صدمة حضارية وأن أشعر بالحنين نحو وطنى الأصلى .. كل شىء .. لا مانع عندى ! إذا كان هذا هو المطلوب فأنا على استعداد للقيام به ، سأكون مهاجرا جديدا مثاليا .. سأقضى وقتا قصيرا فى معهد تعلم العبرية . وسأتكيف تماما فى الجيش - وأعدك أن أطلب كل شىء مثل المهاجرين الجدد ، وسأبقى هيئة الاستيعاب فى حالة قلق حيث أننى لن أكف عن الشكوى بخصوص كل ما أحتاج إليه .

وقد رسم لنا الكاتب صورة فكاهية دقيقة للمهاجر الجديد وموقفه الاستهلاكى وبحثه عن الترف وشكواه المستمرة ، عند هذه النقطة يظهر الموظف تعاطفا نحو الشاب ولكن تظهر مشكلة وهى أن حفيظة النفوس الخاصة به تدل على أنه ولد فى بتاح تكفا وبالتالى من المستحيل تصنيفه « مهاجرا جديدا » ، فيخبره الشاب أنه لا يوجد مشكلة البتة ويطلب ستكر (ورقة لاصقة) . وحينما يستفسر الموظف عن السبب يخبره الشاب أن وزارة الداخلية تصدر ورقات لاصقة تقول إن

المعلومات الواردة بحفيظة النفوس ليست دليلا قانونيا على القومية . عند هذه النقطة يرفض الموظف ويعرفه أن الورقات اللاصقة التي تصدرها وزراة الداخلية تشير إلى قضية من هو اليهودى ؛ وتعنى أن من يسجل نفسه يهوديا فيها لا يعنى بالضرورة أنه قد تهود حسب الشريعة فالإشارة هنا ـ كما يقول الموظف ـ إنما هى الى التهود غير الشرعى ، وهنا يقول الشاب : وماذا عن وصمة الانتماء إلى جيل الصابرا ؟ طيلة حياتى ؟ .

والعبارة الأخيرة تلخص الموقف تماما ، وتبين الصراع المرتقب بين الوافدين والمستوطنين القدامى .

ومن أهم القطاعات التى بدأت تعبر عن مخاوفها من القادمين الجدد المؤسسة الدينية واليهود المتدينين . ومخاوفهم تستند إلى أن القادمين جاءوا من مجتمع تعرضوا فيه إلى دعاية الحادية لمدة سبعين عاما ورؤيتهم للحياة دنيوية إلى أقصى حد ففقدوا كل علاقة مع قيم دينهم وشعائره . ومن المعروف أن المعابد اليهودية تتقاضى من المصلين ما يشبه ضريبة دخول لأداء الشعائر ، والضريبة هى بمثابة تبرع للانفاق على المعبد . ولتشجيع المهاجرين السوفييت على الذهاب للمعبد فى عيد روش هاشاناه (رأس السنة اليهودية) وهو من أهم الاعياد اليهودية الغيت هذه الضريبة بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من تزايد معدلات العلمنة فى المجتمع الاسرائيلى إلا أن عدد من يذهب إلى المعبد اليهودى فى هذا العيد (وعيد يوم الغفران) عالية للغاية تصل أحيانا إلى ٥٠٪ . أما المهاجرون السوفييت فلم يذهب

منهم إلا اقل من ١٠٪ (الجيروساليم بوست ٩ سبتمبر ١٩٩٠) . ويظهر مدى انفصالهم عن شعائر دينهم حينما تقوم المحكمة الحاخامية التى تحاول معرفة ما إذا كانوا يهودا أم لا بطرح بعض الأسئلة عليهم بخصوص الشعائر اليهودية ، والنتيجة ان معظمهم لا يعرفها ولا يتذكر منها إلا اشياء غامضة مثل « كانت أمى تطبخ خبزا مثلث الشكل فى مارس » أو « فى بعض الليالى كان أبى يوقد شمعدانا » ، وهكذا (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) .

بل يمكن القول إن هؤلاء المهاجرين ليسوا منفصلين عن شعائر دينهم وحسب وإنما أيضا عن أى قيم أخرى . وقد اشرنا إلى الجرائم والأمراض الاجتماعية الاخرى مثل البغاء التي يحضرها المهاجرون معهم . والمجتمع الصهيونى ذاته يعانى من كثير من الأمراض الاجتماعية (فعدد المحلات التى تتاجر فى المجلات والأشياء الاباحية آخذ فى التزايد فى القدس ، وشارع ذرنجوف فى تل أبيب يوجد فيه أشكال من الاباحية والمتع الجنسية الشاذة من الصعب وجودها فى كثير من عواصم الدول الغربية المتقدمة) . ولذا فوصول مثل هؤلاء لابد من أن يزيد الأمور سوءا . ولكن هذه قضية ذات طابع بنيوى ولذا فليس من المتوقع أن تتفجر .

وذلك على عكس قضية تعريف اليهودى (من هو اليهودى ؟) فهى مطروحة دائما ولكن أعيد طرحها ، من منظور جديد ، مع وصول اليهود السوفييت . وكنا قد أشرنا من قبل إلى ما يلى :

١ ـ وجود أعداد من غير اليهود ضمن المهاجرين .

٢ - وجود اعداد من اشباه اليهود ، أى اليهود من أبناء الزيجات المختلطة ، ومن اليهود اسما الذين لا علاقة لهم باليهودية (سوى الجد المدفون فى روسيا) واليهود غير المختتنين - أى أن أشباه اليهود هؤلاء ليسوا يهودا من منظور الشريعة اليهودية .

وقد أشرنا من قبل إلى احتجاج بيريتس وزير الاستيعاب وقوله هل نقوم بتأسيس دولة غير يهودية . وقد أكد ديرى وزير الداخلية أن معظم من يهاجر ليسوا بيهود ويأتون لأن قانون العودة يعطيهم الحق في ذلك (كما أشار إلى أنهم مرتزقة أيضا ستجدهم بعد قليل ، بعد التهام المعونات ، جالسين على حقائب السفر مرة أخرى لتحقيق مزيد من الحراك والالتهام) ، وقد بين كلاينر أن توطين واستيعاب مهاجرين غير يهود هو ترف لا يمكن للدولة اليهودية تحمله (الجيروساليم بوست ١٢ يوليو ١٩٩٠) ولذا طالب أن يعدل القانون بحيث ينص على أن الجد اليهودى الذى ينتسب إليه المهاجر لابد من أن يكون مقيما فى إسرائيل (٢٠ يوليو ١٩٩٠) . وقد اتهمت المؤسسة الصهيونية وزير الداخلية والاستيعاب (عضوا شاس وهو حزب دينى سفاردى) بأنهما يعطلان الهجرة بل قد يدمرانها (١٧ فبراير ١٩٩٠) وايدها في ذلك المتحدثون باسم حركة اليهودية الاصلاحية . ولكن إذا كانت قضية قانون العودة قضية نظرية بالنسبة ليهود الولايات المتحدة فهى مشكلة حقيقية ومباشرة بالنسبة للمهاجرين الجدد ، إذ ان وزارة الداخلية ترفض تسجيل بعض المهاجرين يهودا وبالتالى لا يحصلون على التسهيلات التى تمنحها الوكالة اليهودية لهم . وكما قال روبرت جولان

رئيس رابطة المهاجرين فى الاتحاد السوفييتى « هذه القضية » ، وليس مشكلة الاستيعاب ، « هى الأهم » (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) ، وقد طالب يوسف جول (الجيروساليم بوست ١٩ يناير ١٩٩٠) « ببريستوريكا حاخامية » . وقد وعدت الحاخامية بالتعاون مع المؤسسة الحاكمة فى هذا المضمار فصرحت أنها مدركة مدى ضخامة المشكلة وأعلنت أنها لن تبذل أى محاولة من جانبها كى تفرض على المهاجر ذى الأصل غير اليهودى أن يتهود وأنها ستقيم محاكم تهويد خاصة لمن يرغب منهم فى التهود . ولكن الذى حدث هو أنها ارسلت الحاخام بنحاس جولد شميت ليشرف على محكمة حاخامية عُرِّف هدفها الأساسى بأنه التحقق من هوية المهاجرين وهم بعد فى موسكو لتفويت الفرصة على مدعى اليهودية بين القادمين الجدد والذين يحتجون بأن الوثائق الدالة على هويتهم توجد هناك . وقد وصف ميخائيل تشلينوف اجراءات التحقق من الهوية بأنها مسألة مذلة (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) ، وهو يرى أن اختيار اليهود على أساس الشريعة اليهودية مسألة لا يمكن تحملها (الجيروساليم بوست ٣ فبراير ١٩٩٠) .

ولكن المشكلة الحقيقية للمهاجرين تبدأ عادة حينما يلجأ احدهم إلى المحاكم الحاخامية ليعقد زواجه أو ما شابه من أحوال شخصية إذ أن الحاخامية لا تبدى أى تنازل أو تسامح فى هذه الحالة ، فهى لابد من أن تتحقق من أصوله اليهودية قبل ابرام عقد الزواج ، وعلى كل من يريد أن يحصل على زواج أو طلاق شرعى حتى لا يوسم أولاده بأنهم مامزير (أى

اطفال غير شرعيين) أن يخضع إلى مراسم التهود ، وهى طويلة ومعقدة .

بل أن تهود المرأة يتطلب أن تقف عارية فى الحمام الطقوسى (المكفية) تحت عيون ثلاثة حاخامات ، وليس من المتوقع أن تقبل مجموعة بشرية مثل اليهود السوفييت الخضوع لمراسم التهود . (وقد رفضت من قبل غالبية « يهود » الفلاشاه أن تخضع لهذه المراسم رغم أن خلفيتهم الدينية كان لابد من أن تسهل عليهم تقبل مثل هذه الشعائر) .

وكما يقول يوسف جول : « من الأكيد أن هذا المجال سيأتى لنا بمتاعب لا نهاية لها لعدة سنوات » . كما قال آخر « إن عملية التحقق من خلفية المهاجرين قد تؤدى إلى توقف الهجرة تماما » . وفى تصورى أن هذا القول فيه كثير من المبالغة ، فالهجرة اليهودية السوفييتية أمر متعلق بحركيات مركبة لا يمكن لعنصر واحد أن يغيرها تماما على هذا النحو . ومع هذا فالمبالغة ، مثل الاستعارة ، تأخذنا أحيانا إلى جوهر الواقع ، ولاشك فى أن موقف المؤسسة الحاخامية سيشكل واحدا من أهم عناصر الطرد خاصة بالنسبة لمادة بشرية لا يمكنها أن تفهم ، ولو بشكل بدائى ، العقلية الدينية والمطلقات .

وهناك مشكلة أخرى ستواجهها اليهوديات المهاجرات ، وتتلخص المشكلة فى أن كلا من الزواج والطلاق فى الاتحاد السوفييتى يتمان أمام محاكم مدنية ، وتعترف المحاكم

الحاخامية بمثل هذه الزيجات وحسب ولكنها لا تعترف بالطلاق ، إذ أن المرأة اليهودية لا تعتبر مطلقة إلا إذا حصلت على قسيمة طلاق تسمى « جت » يعطيها زوجها لها ، وإن طلقت ولم تحصل على « الجت » فهي « عجونة » أى مطلقة ولكنها مربوطة ، لا يحق لها الزواج من رجل آخر . وأن حدث وتزوجت من رجل آخر فثمرة مثل هذا الزواج تعد أطفالا غير شرعيين . ومع تآكل الأسرة فى الاتحاد السوفييتى ، كما هو الحال فى معظم المجتمعات التى يقال لها متقدمة ، فإن نسبة الطلاق مرتفعة وكثير من المطلقات يتزوجن مرة أخرى دون جت . وهن على كل لم يسمعن به قط فيهوديتهن فى أساسها تصنيف ومجرد كلمة ترد على جواز السفر ، وسيكون بين المهاجرين عدد كبير من المطلقات المربوطات ، العجونة (الجيروساليم بوست ١٨ سبتمبر ١٩٨٩) .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا واقعة دالة تلقى الكثير من الضوء على عقلية المهاجرين الجدد وهويتهم ، إذ لوحظ أن ٤٪ فقط منهم ذكروا أنهم مطلقين (الجيروساليم بوست ١٩ أكتوبر ١٩٩٠) وهذا يتناقض مع ما عندنا من معلومات . ولا يوجد تفسير لهذه الظاهرة سوى أن المهاجرات قد عرفن بالمشكلات التى قد تثيرها المؤسسة الدينية ، ولذا آثرن تغيير البيانات بدلا من المواجهة ، وهى حلول تدل على المرونة الفائقة والاستعداد غير العادى للتكيف حسب الظروف بما فى ذلك تغيير الهوية والتاريخ ! .

وقد يحق لنا أن نثير قضية قد تصبح فى غاية الأهمية فى المستقبل القريب ، فكل مجتمع إنسانى يقوم على أساس عقد اجتماعى ، يتضمن اتفاقا على مجموعة من الأهداف النهائية

أو المطلقة التى لا يمكن اخضاعها للتساؤل . وبالنسبة للكيان الصهيونى عرفت الصهيونية بأنها الهجرة والاستيطان أو الهجرة الاستيطانية ، وهذا أمر مفهوم باعتبار أن المشروع الصهيونى مشروع استعمارى استيطانى . ولكن مع اندلاع الانتفاضة فى الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ تصاعد السخط فى صفوف المستوطنين الصهاينة فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ وفى المؤسسة العسكرية ضد المستوطنين الصهاينة فى الضفة ، باعتبار أنهم هم المسئولون عن الانتفاضة ، وأنهم هم الذين أغرقوا التجمع الصهيونى وأدخلوه فى دوامة الانتفاضة التى لا تريد أن تنتهى والتى ثبت عجز الجيش عن اخمادها . وبدأت تظهر فى صفوف النخبة قطاعات مهمة تطالب بوقف الاستيطان فى الضفة والانسحاب منها وبالتفاوض أو الحوار مع الفلسطينيين ، أو حتى المنظمة وبالسماح بانشاء دولة فلسطينية فى المناطق المحتلة . وكل هذا يعنى فى واقع الأمر سقوط جزء مهم من العقد الاجتماعى الصهيونى وتآكل الاجماع بخصوص الاستيطان . ونحن لانستبعد أن يحدث شىء مماثل بخصوص الهجرة ، فمع تصاعد الاحتكاك بين الوافدين الجدد والمستوطنين ، قد يسقط الاجماع الصهيونى بخصوص الهجرة ، ولو حدث مثل هذا ، فإنه سيشكل تطورا جوهريا فى تاريخ الكيان الصهيونى وفى رؤيته لنفسه ولأسطورة الشرعية التى يستند إليها ، كما أنه سيعيد صياغة علاقته مع يهود العالم ، ولعل شيئا من هذا القبيل قد بدأ يحدث فى صفوف اليهود الشرقيين والسفارد .

ويمكن القول إنه ثمة تداخل ـ شبه كامل ـ بين الطبقات

والانتماء الاثنى فى اسرائيل إذ أن معظم السفارد ويهود الشرق ـ رغم أنهم يشكلون أغلبية المجتمع ـ ينتمون إلى الشرائح الدنيا من المجتمع الصهيونى من الناحية الطبقية والتعليمية ومنظور المكانة ، بينما يهيمن الاشكناز على المراكز القيادية الحساسة فى مختلف مجالات النشاط فى اسرائيل (السياسية والثقافية والنقابية) ويشكلون الشرائح الأعلى فى المجتمع . ولذا تحدث بلوتسكير عن « بروز الفوارق الاجتماعية بين الطوائف » وهى عبارة دقيقة توحد بين الفوارق الاجتماعية والاثنية وتعادل بينهما .

وقد نجح الاشكناز فى الاستمرار فى الهيمنة السياسية فلم يظهر حزب واحد قوى لليهود السفارد والشرقيين ، ومع هذا اضطر الاشكناز ـ فى الآونة الأخيرة ـ الى تقديم « تنازلات عديدة للشرقيين بسبب تكاثر عددهم على صعيد نسبة تمثيلهم فى السلطات المختلفة » ، كما باشرت الدولة بتخصيص جزء من مواردها لتحسين الظروف الاقتصادية (عمر سعادة ص ٨٤) .

ولكن مع وصول المهاجرين الجدد سيعود التحيز الاشكنازى ضد الشرقيين فى كل المجالات الى الظهور اذ سيتم استقطاع آلاف الدولارات من ميزانيات الصحة ، والتعليم ، والخدمات الاجتماعية لتأمين الموارد اللازمة من أجل استيعاب اليهود السوفييت .

وقد حاول أحد المتحدثين الصهاينة الاشكناز (عضو الكنيست يوسى بيلين الذى جاءت أمه من روسيا) إن يقدم

الرؤية الصهيونية الاشكنازية فى الموضوع : « ان كل موجة هجرة تأتى معها بقدر من المرارة ، ولكن هذه بلد صهيونية ولذا فالهجرة لها أولوية ، وعلى الذين لا مأوى لهم أن يتفهموا الموقف » . وقد رد عليه شيمون شطريت عضو الكنيست (عن التحالف) والمسئول المالى للوكالة اليهودية وهو من أصل مغربى (مستخدما منطقا صهيونيا) : « الجميع أبناؤنا وليس من المعقول أن تحضر مهاجرين من لنينجراد وترسل بأبنائنا إلى لوس أنجلوس . نحن نريد زيادة السكان ، لا تبادل السكان » (الجيروساليم بوست ١٤ أغسطس ١٩٩٠) . وفى مقام آخر قال أن استيعاب أسرة من مهاجرى الاتحاد السوفييتى يكلف نفس المبلغ اللازم لمنع نزوح ستة من الاسرائيليين (هآرتس ٢٤ أكتوبر ١٩٨٨ ، عمر سعادة نقلا عن الأرض ٣٠ أكتوبر ١٩٨٨) . واقترح شطريت أن يتم تحويل الأموال المخصصة لاستيعاب المهاجرين السوفييت الى تحسن أوضاع التعليم وحل المشكلات الاجتماعية .

ويظهر التميز العنصرى ضد الشرقيين فى جميع المجالات ولكنه يظهر بشكل صارخ في مجال الاسكان ، وقد لاحظ كاتب مقال « نحن سود وهم بيض » تواتر هذه العبارة بين سكان المدن / الخيم اذ أن معظم سكانها من أبناء المهاجرين من البلاد العربية والشرق الذين ألقى بهم فى المعابر (وهى معسكرات بنيت لاسكانهم بشكل مؤقت ومع هذا استمرت اقامتهم فيها لعدة سنوات) . وقد أرغموا على السكنى فى هذه المعابر أو فى مزارع الموشاف الجماعية ولم يعطوا قط خيار الاستيعاب المباشر كما يحدث للمهاجرين السوفييت . ونفس الوضع حدث بالنسبة للفلاشاة الذين

هاجروا منذ حوالى خمس سنوات ولايزالون مقيمين فى مراكز الاستيعاب ولا يسمح لهم بالبحث عن سكنهم الخاص ، بل لابد من أن ينتظروا حتى تقرر السلطات أنهم قد تعلموا ما يكفي من العبرية ، وصاروا أهلا للسكن الدائم الذى سيختار لهم (هآرتس ٤ مايو ١٩٩٠ باليس ص ٦٣) . وقد لاحظت الصحف الاسرائيلية (الجيروساليم بوست ١٠ فبراير ١٩٩٠) أن عمدة معالوت (فى الجليل) قد منع الفلاشاة من الاستيطان على الرغم من حاجة المستوطن للكثافة البشرية اليهودية ، وسارع بالترحيب بالقادمين الجدد البيض ! (ولكن يبدو مع تزايد عدد المهاجرين وتفاقم المشكلات الناجمة عن استيطانهم طالب بوقف هجرة اليهود السوفييت ، الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) . لكن هذا قال يامين سويسة (وهو يهودى شرقى يشار له بأنه زعيم الخيام) : « لن نستقبل المهاجرين من روسيا بالتصفيق فالهجرة من روسيا نقمة على دولة اسرائيل لا بركة عليها ، إذ لا يمكن أن نخبر الشرقيين أنه « لايوجد » ثم نقول للمهاجرين الاشكناز « يوجد » . ثم تفوه بالمحظور إذ قال : « وإذا كان اصطلاح « انتفاضة » قد أضيف إلى القاموس ، فليس من الصعب إضافة مصطلح « انتفاضة اجتماعية » (عودة المارد الطائفى لليلى جاليلى ، هآرتس ١٠ ديسمبر ١٩٨٩ نقلا عن الأرض العدد ١ السنة السابعة عشر ١٩٩٠) ـ أى أن الشرقيين سيقلدون الفلسطينيين ويقومون هم أيضا بانتفاضتهم .

وراديكالية سويسة تعبر وبشكل مثير عن انقسام المجتمع الاسرائيلى تجاه الهجرة الاستيطانية على أساس أثنى (ربما لأول مرة فى تاريخه) ، وهى راديكالية لا تقتصر على

المصطلح الجرىء بل تتجاوزها وتأخذ شكل اجراءات محددة إذ كتب سويسة رسالة مفتوحة لكل من الرئيس الأمريكى ، جورج بوش ، والزعيم السوفييتى ، جورباتشوف يطالبهما فيها بوقف هجرة اليهود السوفييت .

ولا يمكن فهم راديكالية موقف سويسة هذا الا فى ضوء الخطر البنيوى الذى تشكله الهجرة على الشرقيين ، وكما يقول الدكتور محجوب عمر (« الوجه الآخر للهجرة اليهودية الروسية » القدس ١٥ مارس ١٩٩٠) « إذا كان المهاجرون اليهود الروس يطرحون تحديا مباشرا أمام العرب الفلسطينيين ، سواء الذين يعيشون داخل الخط الأخضر أو فى الأراضى المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، فانهم يشكلون أيضا تحديا مباشرا لليهود الشرقيين داخل المؤسسات الاسرائيلية والتجمع الاسرائيلى » . فهم يهددون طموحات الشرقيين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . أما على المستويين الاقتصادى والاجتماعى فمن المعروف أن المهاجرين الجدد لأى مجتمع يشغلون عادة الشريحة السفلى فيه مما يؤدى إلى تحرك بعض الجماعات الأخرى إلى أعلى ، كما حدث لليهود وللايطاليين فى الولايات المتحدة على سبيل المثال . ولكن الكيان الصهيونى يعامل المهاجرين الاشكناز الجدد معاملة خاصة ، ولذا حذر أرييه الياف (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) من أنه إن استوعب التجمع الصهيونى الاشكناز ووضعهم أعلى السلم سيحدث تصادم دون شك ، ولكن هذا هو ما يحدث بالفعل . إذ لاحظ عالم الاجتماع الاسرائيلى دانيال مامان أن المهاجرين السوفييت المتعلمين يدخلون التجمع الصهيونى فى أعلى مستوياته ولذلك يدخلون

فى منافسة مع هؤلاء الذين يحاولون تحقيق شيئا من الحراك » (الجيروساليم بوست ١٤ أغسطس ١٩٩٠) .

أما على المستوى السياسى فقد أشار سويسة إلى أن القوة العددية هى التى دفعت بأبناء الطوائف الشرقية إلى مركز السياسة الاسرائيلية وهم يخشون أن يفقدوا هذه الورقة . فالخوف ليس فقط خوفا على مصادر الرزق وإنما على القوة السياسية التى اكتسبوها من خلال التوازن الديموغرافى الذى يعمل لصالحهم ، ثم قال فى عبارة طريفة : « لن تفقد أصواتنا الانتخابية أهميتها وحسب بعد وصول مليون أخرى من الاشكناز ، بل إن ديفيد ليفى ذاته سيصبح غير ذى موضوع » . (عودة المارد الطائفى هآرتس ١٠ ديسمبر ١٩٩٠) . وليفى ، بعد تعيينه وزيرا للخارجية ، أصبح أهم شخصية يهودية شرقية فى المؤسسة الحاكمة ويشغل أعلى وظيفة وصلها أى يهودى شرقى فى تاريخ المستوطن الصهيونى .

وظهور شخصيات مثل سويسة وشطريت تدل على أن اليهود الشرقيين قد وصلوا إلى مستوى من الوعى السياسى يجعل من الصعب على المؤسسة الاشكنازية التلاعب بهم واستغلالهم كما كانت تفعل فى الماضى . والخطاب السياسى الذى يستخدمونه ، رغم حذره الشديد ، يدل على أنه بدأ يتخلص من أية مضامين صهيونية ويهدد العقد الاجتماعى الذى يستند له التجمع الصهيونى . ولاشك أن هجرة اليهود السوفييت قد تساهم فى بلورة هذا الموقف إذ أنها تؤكد المضمون الأثنى للصراع الطبقى ، والمضمون الطبقى للصراع الأثنى .

الفصل التاسع :



برنامج التصدى

بعد هذا العرض السريع لجوانب قضية خروج اليهود السوفييت واحتمال هجرتهم الاستيطانية فى فلسطين المحتلة ، يمكننا أن نقترح بعض الخطوط العريضة لتحرك عربى ، ولكن قبل أن نفعل ذلك قد يكون من المهم أن نثير بعض القضايا الاجرائية والمنهجية :

أ) هذا البرنامج يهدف إلى تحديد بعض أشكال التحرك للتصدى لهجرة اليهود السوفييت وليس « لتحرير فلسطين بأكملها » . ورغم أن محاولة التصدى هذه هى جزء من جهادنا الأشمل نحو تحرير الأرض الا أنه يظل مجرد جزء من كل ، وفى اطار حدود هذا البحث وأهدافه لا يمكن أن نخوض فى غمار برنامج الحد الأقصى مثل المطالبة باستخدام سلاح البترول أو الاستثمارات العربية أو دعم الانتفاضة ، فهذه أمور أعتقد أن غالبيتنا ـ ان لم يكن كلنا ـ متفق على ضرورتها لتحقيق الهدف الاستراتيجى الأكبر ، وعدم تعرضنا لها لا يعنى أننا نسقطها من اعتبارنا .

ب) النموذج الاسرائيلى فى الحركة نموذج جراحى (اى مثل العملية الجراحية) فالكيان الصهيونى قادر على الحركة بكفاءة هائلة إن كان تحركه فى جبهة واحدة لانجاز هدف محدد فى وقت محدد فى موقف يتسم بالوضوح والبساطة ،

ومن هنا نجاحه في الحروب النظامية المختلفة ، ومن هنا أيضا فشله فى لبنان وفى قمع الانتفاضة ، فالموقف الذى قابله فى الحالتين الأخيرتين يتسم بالتركيب والاستمرارية والابهام وعدم التحدد ومن هنا فشله فى فرض ارادته أو قواعد اللعبة التى يهواها ويجيد لعبها . وأعتقد أن المنتفضين أدركوا ذلك بذكائهم الفطرى ولذلك يتسم بنموذجهم النضالى بما أسميه التكامل غير العضوى وهو نموذج به ثغرات يكاد يكون مساميا مما يكفل له الحركة التى قد تكون بطيئة ولكنها مستمرة ومبدعة .

وفى تصورنا أنه في مجابهة النموذج الجراحى ينبغى أن يكون تحركنا على جميع المستويات الرسمية والشعبية ، الصديقة والمعادية ، اليهودية والعربية . كما أن برنامج التصدى يجب أن يلاحق المهاجرين أينما كانوا : فى الاتحاد السوفييتى قبل خروجهم ، فى البلاد التى ينزلوا فيها بعد خروجهم ، وفى اسرائيل بعد وصولهم . المهم خلق مواقف مركبة للعدو تربكه فيتعثر وتنكشف أكاذيبه وتتبلور تناقضاته .

جـ) يتسم العدو الصهيونى بكفاءته العالية فى التحرك الاعلامى وهذا يعود الى عدم اصراره على التصريح بنواياه بخصوص الحد الأقصى : (دولة من النيل إلى الفرات أو أمن إسرائيلى / أمريكى يفرض على المنطقة وتدور الأمة العربية بأسرها فى فلكه) . كما أن هناك عادة من ينوب عنه فى التحرك الاعلامى . ويقف هذا على طرف النقيض من التحرك الاعلامى العربى حيث يصر الجميع أن نصرخ بأعلى صوتنا فى كل مكان وزمان حتى ولو كنا أمام كاميرات التليفزيون

المتخصصة فى الكذب ، نصرخ بأن هدفنا هو تحرير كل تراب فلسطين اليوم قبل غدا . ومثل هذا الصراخ يضر بالقضية ، فطرح هذه الشعارات يسبب لنا الحرج ، كما أن الاعلام ذا اللون العربى الفاقع يفقد كثيرا من مصداقيته فى عالم الكلام المصقول والسلع المغلفة . ومن يصرخ بهذه الطريقة لا يثق فى جماهيرنا التى تعرف أنه لكل مقام مقال وان التحرير الشامل هو هدف الجميع ولا داعى للثرثرة الدائمة . ولعل المنتفضين قد لقنونا درسا فى هذا ، فمنشوراتهم لم تتحدث حتى الآن عن تحرير يافا وحيفا ـ مع أن أى طفل صغير يعرف أن تحرير نابلس يعنى فى نهاية الأمر تحرير كل الأرض السليبة .

وبوسعنا الآن اقتراح بعض الخطوط العريضة لتحرك عربى ، وقد قال شارانسكى ، زعيم اليهود السوفييت المقيم فى إسرائيل ، إن « الكثير يتوقف على ما سيحدث لأول عشرة أو خمسة عشر ألف مهاجر سوفييتى .. يجب أن يشعر المهاجرون بعد وصولهم أن الأمور تتحرك . وحتى لو اضطروا للبقاء فى مساكن مؤقتة لمدة عامين ، يجب أن يعتقدوا أن الأشياء تتقدم وأنهم فى نهاية الأمر سيحصلون على وظيفة جيدة وشقة دائمة » (الجيروساليم بوست ٢١ أكتوبر ١٩٨٩) أى أنه ليس من المهم تحقيق الأحلام المستحيلة وإنما المهم الاستمرار فيها حتى يستمر تدفق المهاجرين . وهو بذلك يعطينا ملامح التحرك العربى ، فهو لابد من أن يكون سريعا وشاملا ومركبا وطويل النفس ، ويهدف إلى فضح الأسطورة الصهيونية أمام العالم وأمام المهاجرين . وهذا التحرك لابد من أن يتم فى عدة مجالات وعلى عدة مراحل

زمنية مختلفة ، وأن ننظر إلى الواقع لا من خلال صيغ وأفكار جاهزة وثابتة وإنما من خلال متتاليات افتراضية ممكنة ومحتملة فى المدى القريب أو البعيد ، وأعتقد أن نقطة البدء لابد من أن تكون مصدر المادة البشرية ، الاتحاد السوفييتى . ويجب ابتداء أن نضع فى اعتبارنا نقطتين أساسيتين :

١ ـ أن هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتى ليست جزءا من المخطط اليهودى القديم (الذى بدأ منذ آلاف السنين كما يظن أصحاب هذا الرأى) ولا هى جزء من المؤامرة الشيوعية بعد أن أخذت شكلا جديدا (كما يحلو للبعض الآن أن يقول) وإنما هى نتيجة تحولات بنيوية عميقة حدثت للمجتمع السوفييتى لها جذور تاريخية وحضارية واجتماعية ذات امتداد طويل . ومثل هذه التحولات ونتائجها لا يمكن وقفها من خلال المساعى السياسية والدبلوماسية مهما بلغت من ذكاء وصقل . وخروج اليهود السوفييت هو جزء من عملية خروج أخرى تضم العديد من غير اليهود .

٢ ـ أن الاتحاد السوفييتى ـ على حد قول الدكتور أسعد عبدالرحمن ـ قد أصبح دولة عظمى من الدرجة الثانية . وفى ظل هذا الواقع الجديد علينا أن نلاحظ كيف أن الاتحاد السوفييتى قد بدأ يتحدث بلغة المصالح على نسق دول أوربا الغربية والولايات المتحدة ، ومن الطبيعى أن يأتى الحديث بهذه اللغة على حساب عدد من المبادىء ، وبخاصة تلك المبادىء التى حكمت علاقة الاتحاد السوفييتى مع دول العالم الثالث وقضاياه .

ومن مصالح الاتحاد السوفييتى الآن الحصول على التكنولوجيا المتقدمة من الغرب والمعونات الاقتصادية والا يهاجمه الغرب الآن حتى يمكنه أن يحقق الانتقال من مرحلة الشيوعية إلى مرحلة جديدة لم تتضح ملامحها بعد - أى أن الاتحاد السوفييتى - نظرا لحاجته الماسة للغرب - على استعداد لإظهار قدر كبير من المرونة والتنازل تجاه المطالب الغربية ، وعدم اكتراث بالقيم الأممية ومساندة المقهورين وما شابه من قيم هى جزء من ميراثه القديم الذى لم يعد يشكل أسطورة الشرعية بالنسبة له فى المرحلة الجديدة !

وإذا كان العنصر الأول هو تحول بنيوى على مستوى البنية التحتية فإن العنصر الثانى هو تحول على مستوى البنية الفوقية (إن أردنا استخدام مصطلح شبه ماركسى) - والتحولات التى تحدث على هذين المستويين فى الوقت نفسه عادة ما تكون عميقة إلى أقصى حد ، كاسحة إلى أقصى حد .

ويمكننا القول إن الاتحاد السوفييتى - على مستوى من المستويات - قد لحق أخيرا بركب الحضارة الغربية الحديثة ، بعد أن انعزل عنها لمدة سبعين عاما ، وأحد الملامح الاساسية لهذه الحضارة وقوانين بنيتها هو تصدير مشكلاتها خارج حدودها ، وفرض فواتير تقدمها على الآخرين . وهذا ما يفعله الاتحاد السوفييتى فى الوقت الحاضر - أن يتبنى النمط البلفورى (نسبة إلى بلفور) أى أن يصدر فائضه البشرى إلى الشرق (وبطبيعة الحال عندما تغلق الولايات المتحدة أبوابها فى وجه اليهود السوفييت بعد التهييج من أجلهم وبعد

خلخلة وضعهم فى بلادهم ـ فإنها تفعل الشيء نفسه وتنتمى لنفس النمط) .

بعد تحديد هذا الإطار العام لخروج اليهود السوفييت يمكننا الآن أن نحدد بعض ملامح التحرك وهو لابد من أن يكون على المستويين الرسمى والشعبى ، سواء فى الاتحاد السوفييتى أم خارجه . والمستوى الرسمى فى الاتحاد السوفييتى ينقسم إلى الأجهزة المباشرة والبنية الرسمية . ولكن هناك قنوات الاتصال غير المباشرة والبنية غير الرسمية ، أما الأولى فأمرها معروف للجميع ، على عكس الثانية ، أى البنية غير الرسمية ، فهى ما قد يحتاج لشيء من الايضاح . ولا أزعم أننى على علم بتركيب وزارة الخارجية السوفييتية وآليات النظام السياسى الدقيقة هناك ، ومع هذا لابد من أن هناك « لوبى عربى » فى وزارة الخارجية السوفييتية ، وقد قرأت عنه فى الصحف الإسرائيلية . ويرى هذا اللوبى أن من مصلحة الاتحاد السوفييتى ألا يناصب الدول العربية العداء وأنه كى يستمر فى كونه دولة عظمى (أو حتى شبه عظمى) لابد من أن يتحالف مع هذه الدول كجزء من رصيده الاستراتيجى العالمى . ولابد من أن هناك فى وزارة الخارجية السوفييتية عناصر آسيوية إسلامية تتمتع عندها برصيد من التعاطف المبدئى ، وقد أشار ڤلاديمير نوسينكو (وهو متخصص فى شئون الشرق الأوسط فى معهد الاقتصاد العالمى والعلاقات الدولية فى أكاديمية العلوم فى موسكو) إلى الكثيرين فى وزارة الخارجية ممن لايزالون متعاطفين مع الموقف المعادى إلى إسرائيل (على عكس جورباتشوف وشيفرنادزة فقد وصفهما بأنهما "تقدميان"

(الجيروساليم بوست ٧ نوفمبر ١٩٩٠) ، لابد من اكتشاف هذا اللوبى وتشجيعه حتى يمدنا بالمعلومات وحتى يتم ممارسة الضغط من خلاله وتوصيل الرسائل إلى القياده السوفييتية بطريقة كفءة وسريعة .

ولعل من أهم الرسائل التى يجب أن تصل إلى القيادة السوفييتية هو حجم الغضب الشعبى العربى مما حدث ، ولابد من التلويح بأن الجماعات الإسلامية فى العالمين العربى والإسلامى قد تبدأ بفتح قنوات مع الساخطين والمنشقين فى الجمهوريات الإسلامية . كما أنه لابد من التلويح بأن مصالح الاتحاد السوفييتى فى المنطقة قد تضار . نحن فى عالم وثنى فى جوهره لا يفهم القيم المطلقة كثيرا ، ولكنه يفهم لغة الأرقام كما لم يفهمها أحد من قبل ، والخطاب الذى لا يصاحبه الأرقام الخاصة بموازين القوى والمدفوعات يذهب أدراج الرياح . قد لا نحب هذه الحقيقة ، وهى حقيقة كريهة ولا شك ، إلا أنها الحقيقة الأساسية فى العالم الغربى الآن - خاصة بعد البريسترويكا .

ولكننا يجب الا نطلب من الاتحاد السوفييتى مطالب غير معقولة نعلم سلفا أنه لن يمكنه تنفيذها . فمطلب وقف الهجرة (حتى ولو ظل بالنسبة لنا هدفا استراتيجيا مهما نسعى له بكل السبل) هو مطلب مستحيل . ولذا قد يكون من الاصوب البحث عن مستويات أخرى من العمل كأن نحاول إبطاء الهجرة وتقييدها . وفى هذه الدائرة يمكن ان تدخل المجر ورومانيا أيضا باعتبارهما محطات الترانزيت .

ولا أعرف ما طبيعة العلاقات الاقتصادية والسياسية

القائمة والمحتملة بين الدول العربية من جهة ، ورومانيا والمجر من جهة أخرى . وهل يمكن الضغط فى هذه الجبهة خاصة أن هذه الدول فى حاجة إلى الاستثمارات والبترول ؟ ويمكن مطالبة كل هذه الدول الاقلال من حركة الطيران من موسكو ، حتى نبطىء من عملية الخروج . بل أننى أعتقد أن عملية الإبطاء يجب أن تكون هدفا اساسيا ، لأنه كلما أبطأت عملية الخروج ، وأخذت ثمانى سنوات بدلا من أربع على سبيل المثال ، فهذا يعنى اعطاء فرصة لأعداد اكبر من العازمين على الهجرة على إعادة النظر فى مواقفهم . كما أن الأمور قد تستقر فى الاتحاد السوفييتى وقد تتفتح فرص جديدة وقد تزول بعض عناصر الطرد التى سببت الفزع ، ولكن الأهم من هذا كله أن الإبطاء فى عملية الخروج يعنى إمكان تسريب أعداد اكبر إلى الولايات المتحدة وفتح مراكز جذب أخرى .

ويجب علينا فى هذه التحركات ألا نطالب إلا بما يتفق مع قوتنا الذاتية ومع مقدرتنا الفعلية على الضغط ، والمطالبة بالإبطاء فى عملية الخروج بدلا من إلغائها أو وقفها تماما طلبا معقولا إذ أنها لن تحرج السلطات السوفييتية (أو السلطات المجرية والرومانية) ان قبلت التعاون . كما أن عملية الإبطاء يمكن أن تتم فى لباقة دون أن تحدث ضجة إعلامية . هذا لا يعنى أن نقلع عن المطالبة بوقف الهجرة ، بل يجب أن نستمر فى ذلك وأن نسعى إلى تحقيقه . ولكن هذا هو مطلب الحد الاقصى ، ولا يوجد مبرر للاصرار عليه والتمسك به وحده ، وهذا ما نعنيه بمواجهة الواقع بمتتاليات مختلفة .

اما على المستوى الشعبى فالتحرك لابد من أن يكون اكثر تركيبا ، فهو يجب أن يتم من خلال منظمات شعبية عربية وغير عربية وعربية / امريكية وغربية . كما يجب التحرك من خلال ما يعرف باسم المنظمة الواجهة Front Organization وهى منظمة محلية تؤسس خصيصا لتحقيق هدف محدد وعاجل ، تعمل من داخل قوانين البلد ، ويتم تمويلها من الخارج . ومعظم الجماعات المتعاطفة مع اليهود والصهاينة هى من هذا النوع .

ولابد من أن يكون التحرك بين أعداء اليهود وأصدقائهم ، وبين الصهاينة وأعدائهم ، ولنبدأ بالمؤسسات الدينية والثقافية الروسية اليهودية إذ لابد من أن نشجعها ونضخ فيها بعض الأموال ، إذ أن مثل هذه المؤسسات هى التى تشكل مركز الجذب ليهود الاتحاد السوفييتى ، فهى ستكون المجال الذى يمكنهم التعبير عن هويتهم الروسية اليهودية أو اليديشية من خلاله . وأعتقد أنه ليس من الصعب إيجاد القنوات ، والجماعات اليهودية المعادية للصهيونية كثيرة فى انحاء العالم ، وهم جماعات قد تكون صغيرة ولكنها تضم اعضاء على درجة عالية من المثالية تناضل وحيدة ضد الصهيونية باعتبارها عقيدة علمانية تتهدد العقيدة اليهودية بل وتراث يهود العالم بالزوال . وجماعة الناطورى كارتا من أهم هذه الجماعات وقد أعلنت عن معارضتها لهجرة اليهود السوفييت . ولعلنى لا أذيع سرا حين اشير إلى أن اعضاء هذه الجماعة هم الذين تحركوا حتى منحت الولايات المتحدة للمهاجرين السوفييت ـ ابتداء من السبعينات ـ مكانة اللاجىء السياسى وبذا لم يدخلوا ضمن النصاب المسموح به

للمهاجرين العاديين ، مما سهل عملية هجرتهم إلى الولايات المتحدة وتم تحويل سيل الهجرة اليهودية إليها من فلسطين .

كما أنه توجد جمعيات كثيرة فى الولايات المتحدة وغيرها من بلدان غرب أوربا تدعو إلى بعث ثقافى يهودى فى الدياسبورا - أى خارج فلسطين المحتلة . وهؤلاء يرون أن الدعوة الصهيونية لنفى الدياسبور أى استغلالها وتصفيتها هى دعوة إجرامية ذات طابع إبادى genocidal . ومثل هذه الجمعيات يمكنها أن تبدأ حملة لتاكيد حق اليهود السوفييت فى البقاء فى وطنهم وتطوير هويتهم اليهودية الروسية والتمتع بجميع الحقوق المدنية والسياسية والدينية - وكل هذا يتعارض مع المخطط الصهيونى الذى يهدف إلى تحويل كل بقاع الأرض إلى مناطق طرد لليهود . كما يمكن أن تقوم هذه الجمعيات بحملة لتاكيد حق اليهود السوفييت فى الهجرة إلى أى بلد يختارونه ، فالهجرة القسرية الجديدة لاسرائيل منافية لحقوق اليهودى فهى تهدر حقه فى حرية الاختيار نتيجة سد منافذ الاستيعاب فى دول العالم . وكان من الممكن الاستفادة من تصريحات ميخائيل كلاينر (رئيس لجنة الاستيعاب فى الكنيست) فى هذا المضمار فقد صرح أن اسرائيل « رفضت أن تصبح فنلندة رابع محطة ترانزيت للمهاجرين السوفييت ، لأن الفنلندين وضعوا بندا يقول عندما يصل المهاجرون الى فنلندة يجب أن يتمكنوا من إعادة النظر فيما اذا كانوا يرغبون فى الهجرة الى اسرائيل أو الى ملاذ آخر .. فهذا سيعيد ظاهرة التساقط » (الجيروساليم بوست ٢٤ يوليو ١٩٩٠) . كان من الضرورى أن تقام حملة إعلامية مكثفة حول هذا الموضوع لاثبات أن هجرة اليهود السوفييت إنما هى عملية

تهجير وأن الهدف ليس انقاذهم وانما توطينهم فى فلسطين المحتلة وتسخيرهم لخدمة الدولة الصهيونية وأهدافها. وأخيرا يجب أن تطالب جمعيات حقوق الانسان الاتحاد السوفييتى بإعطاء المهاجرين السوفييت الحق فى العودة إلى أوطانهم. وأعتقد أن المؤسسة السوفييتية يمكنها التعاون فى هذا المضمار فمعاداة اليهود فى روسيا (والاتحاد السوفييتى) كانت دائما ظاهرة شعبية إلى حد كبير، بينما كانت البيروقراطية الحاكمة تسعى إلى حل المسألة اليهودية عن طريق دمج اليهود فى المجتمع. وتأييد حقوق اليهود المدنية والسياسية هو أيضا تأكيد لانتمائهم إلى أوطانهم وحقهم فى الاندماج فيه. كما أن السعى إلى مثل هذه الأهداف لا يتناقض مع الصورة التى يود أن يذيعها النظام السوفييتى الحالى عن نفسه، وهى فى نهاية الأمر امتداد للخطاب السياسى الغربى وللدفاع الشرس إياه عن حقوق الإنسان خاصة الإنسان اليهودى السوفييتى!

ويجب ألا ننسى حقوق إنسان آخر: الإنسان الفلسطينى فالهجرة السوفييتية تتم على حساب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فى أرضه. وهناك فى القانون الدولى ما يجعل مثل هذه الهجرة الجماعية والاستيطان فى بلد الآخرين أمرا غير مشروع. وقبل ترك الموضوع، يجب الإشارة إلى الاقتراح الذى طرحه الأستاذ محمد حسنين هيكل وهو أن نطلب وضع الهجرة من الاتحاد السوفييتى تحت إشراف المفوضية العامة لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة - أو تحت أى إشراف دولى آخر - ويمكن أيضا المطالبة بإيجاد

نوع من المراقبة الدولية لمتابعة الاستيطان فى الضفة الغربية باعتباره خرقا للقوانين الدولية .

ويتسم هذا الجانب من التحرك المقترح أنه ومن خلاله يمكن تجنيد جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان فى العالم بأسره وتجنيد شخصيات يهودية وغير يهودية للمساهمة فيه ، فهو دفاع عن حقوق الإنسان بشكل عام ، ولا يمكن لاحد أن يرى أن الدفاع عن حقوق الإنسان فيه معاداة لليهود . وهذه الحملة لن تثير حفيظة الاتحاد السوفييتى بل تمكنه من التعاون مع العرب بشأنها إلى أبعد حد ، إذ لا يمكن أن يتصدى لها إلا العنصريون الأغبياء والصهاينة .

وأود هنا أن أثير قضية فى غاية الخطورة وهى قضية التمييز بين الاستيطان فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ (خلف « الخط الأخضر » فى المصطلح الاسرائيلى) وتلك التى احتلت عام ١٩٦٧ (« المناطق » فى المصطلح الاسرائيلى أيضا) ، وهذا التمييز وهمى ولا يمكن مراقبته أو التحكم فيه ، فان تكونت كتلة بشرية داخل المستوطن الصهيونى فانها ستصبح لها حركياتها المستقلة ، وقد يمكن عزلها خلف الخط الأخضر بضعة أيام أو شهور ، ولكن عند نقطة ما ـ مع تراكم الأعداد ومع تفاقم الأزمة الاقتصادية ومشكلات الاسكان والاستيعاب ـ فإنها ستنفجر لامحالة وستؤكد بنيتها التوسيعية ، وهى بنية تتجاوز نوايا الأفراد ودعوتهم ومخططاتهم . ولكن لا مانع بتاتا من استخدام هذا الخط بسبب فائدته الاعلامية . وقد يكون من الضرورى الا يتورط فيه أى متحدث عربى لأن هذا التمييز يتضمن قبولا

ضمنيا لا لاحتلال فلسطين وحسب وانما للرؤية الصهيونية للدولة اليهودية باعتبارها دولة يهود العالم ، ولذا يجب أن تقوم إحدى منظمات الواجهة بهذه العملية .

ثم نأتى إلى أهم العناصر - أى اليهود السوفييت المرشحين للهجرة . هؤلاء يجب أن تنظم بينهم حملة إعلامية عنيفة وسريعة . وقد نشرت الجويش ويك (١٩ أكتوبر ١٩٨٩) أن فيلم فيديو يتحدث عن مفاتن إسرائيل سيوزع عليهم ، ولعله الفيلم الذى أعده شارانسكى ويسمى « وطننا فى اسرائيل » (تايمز ١٣ يناير ١٩٩٠) أو لعله غيره . مهما كان الأمر فإن كثيرا منهم يميل الى تصديق ما جاء فى المادة الدعائية الاسرائيلية لانهم يظنون أن كل ما سمعوه عن اسرائيل خطأ ، مجرد بروباجندا (مثل موقف المواطن العربى من البيانات الحكومية الموضوعية الرسمية) . وكثير من المهاجرين يكتشفون الحقيقة المرة بعد وصولهم الى صهيون . وثمة نكتة يتداولها المهاجرون تصف احساسهم بالخديعة نتيجة لتصديقهم الدعاية الصهيونية « عن رجل تقى كان فى طريقه إلى الجنة ولكنه لم يمكنه مقاومة زيارة جهنم وعند وصوله لها أخذ يتمتع بالخمر والنساء والأغانى ، ولذا طلب نقله إليها ، وقد أجيب إلى طلبه ولكن عندئذ بدأت الشياطين فى تعذيبه وحينما يشكو من الخديعة يخبره حارس جهنم : لقد كنت سائحا أما لآن فأنت مهاجر » (التايمز ٢٧ مارس ١٩٩٠) وإذا عرفنا أن كثيرا من المهاجرين إلى إسرائيل يذهبون إليها فى بادىء الأمر مع رحلات سياحية من الاتحاد السوفييتى ويتعرفون على ما تقدمه من متع فيقررون الهجرة اليها على اثر ذلك ، إذا عرفنا ذلك فإن الجنة هى

ولاشك الجولدن مدينا (الولايات المتحدة) أما جهنم فهى اسرائيل والمخدوع هو المهاجر ! وهو الذى يتعذب ثمنا لبلاهته وتصديقه المادة الاعلامية المصقولة .

والمهاجرون لا يصدقون أيضا الحديث عن الانتفاضة (« عرب يلقون حجارة ») ولكن بعضهم يكتشف الحقيقة أيضا بعد وصولهم إسرائيل ويكتشفون مدى خطورة الموقف « سمعنا قصصا عن سيارات تحرق ، وحتى عن اطلاق الرصاص » . كما قال جريجورى فى مركز ميفا سيريت صهيون للاستيعاب (ديلى تلجراف ٢٩ مارس ١٩٩٠) . لابد أن يعرف هؤلاء المرتزقة حقيقة الموقف فى إسرائيل ، وأن يشاهدوا مناظر الانتفاضة وأن يطلعوا على أشكال النضال قبل ذلك حتى يستقر فى روعهم أنها ليست مسألة عابرة . كما لابد من أن يعرفوا أنهم منذ جاء المهاجرون الروس اليهود الأول (الذين كان يقال لهم المسكوب نسبة إلى موسكو) بدأت الحرب ، وأن بيوتهم لهذا السبب كانت تأخذ شكل السور والبرج ، وأن هناك انتفاضات وثورات أعقبها حرب تلو حرب بعد إعلان الدولة وحركات فدائية ثم الانتفاضة تتويجا لكل هذا النضال السابق . لابد من أن يفهم المهاجرون المرتزقة أنهم غير مقبلين على نزهة خلوية ، كما تحاول الدعاية الصهيونية أن تصور لهم الأمر ، وإنما سيستوطنون أرضا لن يهدأ أهلها حتى يستعيدوها ، ولذا فهم قد قاتلوا من أجلها فى الماضى وينوون الاستمرار فى الجهاد من أجلها فى الحاضر والمستقبل .

ثم يجب أن يدرك المهاجرون المحتملون حجم المصاعب التى سيواجهونها فى أرض الميعاد . ومن ثم يجب التركيز

على الملامح العسكرية للمجتمع الصهيونى وقانون الخدمة العسكرية والتردى الاقتصادى الذى يعانى منه التجمع الصهيونى . ويمكن أن نذكر لهؤلاء المهاجرين المرتزقة ان مئات الالوف من مواليد إسرائيل قد لجأوا إلى أمريكا ، وان يهود العالم الغربى لا يهاجرون قط إلى إسرائيل (وإن كان لا مانع لديهم من توطين اليهود الآخرين) . ويمكن هنا طرح تساؤل بالنيابة عنهم : من هو وراء إغلاق أبواب الولايات المتحدة أمام الهجرة ؟ ولم لم تهيج الجماعات اليهودية كعادتها ضد معاداة السامية ؟ هل يريدون التخلص منهم بأى ثمن ؟

وأحب ان اثير هنا قضية اثارها معى بعض أصدقائى وهى ماسموه الضمير الاشتراكى لهؤلاء المهاجرين ، والافتراض هنا أن هؤلاء المهاجرين أتوا من مجتمع مبنى على المثل الاشتراكية والمساواة ومعاداة الامبريالية ، مجتمع وفر لسكانه مجموعة من المعلومات عن الصهيونية واستيطانيتها ومذابحها ضد العرب لم توفرها المجتمعات الغربية لاعضائها . ومن ثم يجب التوجه إلى هؤلاء من منظور اخلاقى . وبالفعل أسس أحد المهاجرين فرعا لحركة السلام الآن فى موسكو (فى مايو ١٩٨٨) وقد اجتمع اثنان من اعضائها مع ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية (باليس ص ٧٠) ، ولكنى اعتقد أن هذا هو الاستثناء الذى يثبت القاعدة . فهؤلاء المهاجرون بمجرد أن تطأ اقدامهم أرض فلسطين قد تحولوا بنيويا الى مغتصبين مهما كانت طبيعة الايديولوجية التى يؤمنون بها ولا يعقل أن يقوم أحد باغتصاب أرض آخر ليقوم بالدفاع عن حقوق الضحية المهدرة وينادى

باحترامها الا اذا كان هذا الشخص مغفلا كاملا أو مصابا بحالة حادة من انقسام الشخصية . وهؤلاء المهاجرون ـ كما أسلفنا ـ وبناء على العينات المتاحة شخصيات نفعية ليس لها ولاء واضح الا للحراك الاجتماعي ، وهي تعيد اكتشاف هويتها اليهودية أو تفبركها لتحقيق أهدافها . ومع هذا رأيت أن أذكر هذه النقطة ـ رغم عدم اقتناعي بها ـ حتى نضعها ضمن المتتاليات المحتملة ، حتى وإن كانت بعيدة الاحتمال .

ولابد من جمع الاحصائيات عن مصير المهاجرين السوفييت الذين سبقوهم وقصص الفشل بينهم ، وكم منهم يود العودة ؟ وكم منهم نجح في الفرار إلى الولايات المتحدة ، وكم عدد الذين يفكرون في الفرار ولكنهم تورطوا في استلام شقق لا يمكنهم تسديد ثمنها وفي الحصول على خدمات عليهم أن يدفعوا تكلفتها قبل أن يهاجروا ؟ كم منهم وضعت هويته موضع الشك ؟ يجب أن يفهم هؤلاء المهاجرون اصطلاحات مثل « تهود حسب الشريعة » أى على يد حاخام أرثوذكسى أو « مامزير » أى طفل غير شرعي و« عجونه » أى المطلقة المربوطة . وهي مصطلحات لا يفهمونها البتة ويمرون عليها مرور البلهاء بسبب خلفيتهم الثقافية ، ومع هذا فإنهم سيجدون أنفسهم ليسوا يهودا لأنهم لم يتهودوا حسب الشريعة ، كما سيكتشفون أن أبناءهم « مامزير » وأن زوجاتهم « عجونة » . وليس من الصعب جمع المعلومات عن بعض سجناء صهيون وبعض الرافضين الذين يقفون في طوابير المتعطلين ، أو يقضون سحابة يومهم في مراكز الاستيعاب . وليس من الصعب تجهيز فيلم فيديو وثائقي عن الموضوع . وحينما كنت أعمل في الجامعة العربية أتذكر أن

إفرام سيفلا ، وهو أحد قادة اليهود الجورجيين ، كتب كتابا عن أوضاع المهاجرين السيئة بل وصور فيلما داخل إسرائيل ، فى حوزة الجامعة نسخ منه . وقد جاء فى الجيروساليم بوست (٢٧ أكتوبر ١٩٩٠) أن المهاجرين قد عبروا عن قلقهم من أنهم سيضطرون للعيش فى خيام عند وصولهم .

ولابد من أن يعين على الفور مندوب خاص للجامعة العربية أو منظمة التحرير الفلسطينية فى موسكو تكون وظيفته إدارة الصراع وجمع المعلومات وتقديم الاقتراحات وتنفيذ البرامج المقترحة . فالمجتمع السوفييتى ليس مجتمعا مفتوحا ولابد من أن هناك كما كبيرا من المعلومات المتداولة التى لم يدونها أحد ، رغم أهميتها الكبيرة . كما أن هذا المندوب سيزودنا بمعلومات محددة لا عامة تزيد من مقدرتنا على التنبؤ والحركة . فمعرفتنا على سبيل المثال أن يهود موسكو أكثر اندماجا فى محيطهم الحضارى من يهود جورجيا ، وأن نسبة التساقط بين يهود كييف تصل إلى ٩٢٪ ، هذا النوع من المعلومات الذى يتسم بالخصوصية يحسن من أدائنا كثيرا ، إذ يمكننا أن نركز على التجمعات اليهودية الكبيرة فى المدن الروسية باعتبار أنها تضم أكبر عدد وأكثرها قابلية للذهاب بعيدا عن فلسطين .

كما أن معرفتنا بالمهاجرين السوفييت كعناصر بشرية مرتزقة ، توظف يهوديتها فى الحراك ، قد يفتح لنا فرص تجنيد بعض العناصر بينهم سواء كانوا فى داخل فلسطين أو خارجها ، ومن خلال تجنيدهم يمكن التركيز على الفضائح

وافتعال الأحداث . وأرجو ألا يفهم من وصفى للمهاجرين بأنهم مرتزقة أنهم ليسوا شرسين ولا مقاتلين . فالجندى المرتزق قد يقاتل بضراوة ربما أشد من المجاهد ، خاصة إذا حوصر وتهدد الخطر « رزقه » أى طموحاته المادية . كل ما أود تأكيده أنه يقاتل لا من أجل مثل عليا وإنما من أجل أهداف مادية ، ومن ثم فإننا بوسعنا التسلل من خلال هذه الثغرة ، فهو فى نهاية الأمر يمكن شراؤه ، فالمرتزق يعرض نفسه دائما للبيع ، أليس هذا هو قانونه الأساسى ؟

المجال الأخير للحركة هو البلاد التى يمكن أن نسرب إليها الهجرة اليهودية (التى تتجه إلى هناك إن تركت وشأنها) . وهذه الدول هى أساسا الولايات المتحدة ثم استراليا ونيوزيلندة وكندا ، ثم أخيرا بعض دول أوربا . ولنبدأ بالولايات المتحدة . أعتقد أنه يجدر بالدول العربية التى تبالغ فى الهجوم على الاتحاد السوفييتى والجماعات التى تصب جام غضبها على امبراطورية الشر الالحادية (التى تداعت) أن يوجهوا بعضا من هذا إلى الولايات المتحدة . ويجب أن نتذكر أنه إذا كان القرار السوفييتى نابعا من حركيات بنيوية كبرى لا يمكن للنظام السوفييتى الحاكم ضبطها أو التحكم فيها ، فإن القرار الأمريكى هو فعل سياسى محض يهدف إلى خدمة المستوطن الصهيونى ، ويمكن من الناحية النظرية أن يلغى غدا . ولذا لابد من أن تمارس الدول العربية شيئا من الضغط حتى تخفف الولايات المتحدة قليلا أوكثيرا من القيود المفروضة على الهجرة . ومرة أخرى هذا طلب معقول لأقصى حد ؛ فنحن لا نطالب هنا بإلقاء « اليهود فى البحر » بل العكس نحن نطالب بحمايتهم بوضعهم على الشاطىء

الأمريكي ، خاصة ومن الواضح أن هذا هو مطلب غالبيتهم الساحقة . وأعتقد أن هذا لو حدث فإنه لن يخفف من وطأة الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين المحتلة ، بل وقد يصفيها تماما . وإلى جانب الضغط العربي الرسمي يمكن تجنيد كثير من الجماعات والشخصيات اليهودية وغير اليهودية لصالح هذه الحملة .

والإعلان الذى نشره اليهود السوفييت فى احدى الصحف الأمريكية والذى أسلفنا الاشارة اليه يصلح نموذجا يحتذى . وأعتقد أنه يمكن للجماعات المسيحية من أصل روسى أو أوكرانى فى الولايات المتحدة أن تتحرك فى هذا المجال . فإغلاق باب الهجرة أمام اليهود السوفييت هو بالضرورة إغلاق الباب أمام العناصر المسيحية . ومن ثم يمكن لهذه الجماعات أن تتحرك للمطالبة بحق المسيحيين فى الهجرة ، ويمكن للجاليات العربية فى الولايات المتحدة أن تلعب دورا فى هذا المجال .

كما يجب دراسة قوانين الهجرة فى كل البلاد التى يمكن تسريب اليهود إليها ، فإن كان هناك فرص وثغرات فإن هذه المعلومات لابد من أن تنقل إلى المهاجرين المحتملين . ولابد من التركيز على استراليا ونيوزيلندة . كما أن كندا قد تكون إمكانية جيدة باعتبار أنها تضم نواة سفاردية وأخرى اشكنازية ، ووجود النواة أمر أساسى للهجرة . ولعلنا لو نجحنا فى تقوية النواة اليهودية الموجودة فى استراليا فإنها قد تصبح هى الأخرى منطقة جذب . أما بالنسبة لأوربا فإن الحديث الصهيونى الممل عن الهولوكوست قد يمكن توظيفه

لصالحنا ، فقد حان الوقت أن « تكفر أوربا عن خطاياها » بعد أن فتكت باليهود فيها حتى أصبحت Judenrein خالية من اليهود . عليها أن تتحمل جزءا من « مسئوليتها التاريخية » ، وتعيد فتح محطات الترانزيت ، وتقبل كوتا أو نصاب من المهاجرين فى أوربا ـ مثلما ساعدت المهاجرين من فيتنام ـ تعويضا عن الستة ملايين الذين قرأنا عنهم الكثير .

ولعله قد يكون من المفيد التركيز على ألمانيا بالذات فهى من المنظور الأوربى عليها دين كبير لليهود بسبب « جريمتها » تجاههم وقد حان الوقت لدفعه . ولا أدرى لم لا تفتح ألمانيا أبوابها على مصراعيها لأبناء أو أحفاد ضحاياها ؟ لماذا تكبدهم مشقة السفر ؟ ويجب أن نتذكر أن ثمة علاقة خاصة بين يهود الاتحاد السوفييتى والثقافة الألمانية ، فاللغة اليديشية هى لهجة من اللغة الألمانية (فى الواقع يصعب تسميتها لغة مستقلة) والثقافة اليهودية فى شرق أوربا ووسطها كانت أساسا ألمانية اذ أن كل الحركات الفكرية الحديثة بين اليهود ألمانية النشأة : حركة الاستنارة ، واليهودية الاصلاحية ، واليهودية الارثوذكسية ، وعلم اليهودية ، وأهم المفكرين الدينيين اليهود (مارتن بوبر وليوبايك وهرمان كوهين وفرانز روزنزفايج) ألمان يكتبون بالألمانية ، وكذا أهم المفكرين والصهاينة (هرتزل ونورداو) . ولغة المؤتمرات الصهيونية الأولى كانت الألمانية ، بل أنه كان ينظر إلى اليهود فى الدول السلافية (بولندا وروسيا وغيرها) باعتبارهم عنصرا ألمانيا ، ولذا حينما كانت تضم ألمانيا جزءا من بولندا كانت تعتبر اليهود جزءا من الكثافة البشرية الألمانية (وعلى كل حينما استوطن

اليهود فى بولندا فى العصور الوسطى استوطنوها مع التجار الألمان وكان يطبق عليهم القانون الألمانى !) . ألا يصلح هذا أساسا ايجابيا يكمل الميراث السلبى ؟ أليس هذا تراثا حضاريا مشتركا ؟ ويبدو أن هناك هجرة يهودية سوفييتية بالفعل الى ألمانيا فقد وصل ٢٥٠٠ يهودى سوفييتى ، كما تقدم عشرة آلاف بطلب تأشيرات هجرة للقنصلية الألمانية فى كييف . بل وظهر أن الحكومة الائتلافية فى ألمانيا الشرقية توفر حقوق الاقامة والعمل آليا لهم « فهى وسيلة جيدة للتعامل مع ماضينا » ـ على حد قول رئيس لجنة الهجرة فى ألمانيا الشرقية ، (الجيروساليم بوست ١٢ يوليو ١٩٩٠) . ومن المفارقات أن مكتب تقديم المشورة للمهاجرين يقع فى مبنى قديم كانت تشغله وزارة الإعلام إبان الحكم النازى والتى ترأسها جوبلز . ويبدو أن حكومة ألمانيا الغربية تحاول أن توقف هذا السيل العرمرم المحتمل بأن تفرض نصابا معينا ، وأن تمنح حق الهجرة لليهود من أصل ألمانى وحسب . ولكن ـ كما هو متوقع بعد عشرات السنين من الحديث عن الهولوكوست ـ ظهرت معارضة للاجراءات المقترحة فقال ديتريش فيستيل ، وهو أحد زعماء حزب الخضر : « لم يفرض نصاب حينما أرسل الألمان باليهود لأفران الغاز ، ويجب الا يفرض نصاب الآن » (ألا يصلح هذا شعارا لحملة إعلامية مثيرة يشترك فيها فلسطينيون ويهود سوفييت وبعض الخضر ؟) . وقد قدم حزب الخضر مشروع قرار للبرلمان الألمانى يطالب بإعطاء اليهود السوفييت الحق فى الهجرة بلا قيد أو شرط وبلا حدود ، وقد حول المشروع إلى لجنة لمناقشته (تايم ١٩ نوفمبر ١٩٩٠) ربما لقتله . وهذه فرصة

ذهبية لابد من اغتنامها ، ولابد من الايعاز لبعض المنظمات اليهودية والليبرالية واليسارية بالتهييج ، فمثل هذه المنظمات تحدث ضجة غير عادية حينما يرسم أحد صليبا معقوفا على شاهد قبر يهودى ، وأعتقد أنه ليس من الصعب تحريكها للدفاع عن حق يهود الاتحاد السوفييتى الاستيطان فى ألمانيا المتحدة ! مع العلم بأن المؤسسات الصهيونية تجد أنه من المحرج للغاية أن تحاول وقف مثل هذه الجهود إذ أن هذا يفضح التناقض الأساسى الكامن فى الفكر والحركة الصهيونية ـ ان الصهيونية تهتم بالدولة اليهودية ولا تهتم باليهود ، بل وتسخرهم لخدمتها .

يبقى بعد ذلك الجبهة الثالثة وهى العالم العربى وهذا ينقسم إلى قسمين داخل فلسطين وخارجها والتحرك على المستويين الحكومى والشعبى . أما على المستوى الرسمى فقد أسلفنا الاشارة إلى بعض نواحيه .

أما المستوى الشعبى فيمكن للجماعات الشعبية أن تعبر عن رأيها للاتحاد السوفييتى ، ويمكن للشيوعيين العرب أن يلعبوا دورا مهما فى هذا المضمار فهم ولاشك لايزال لهم اتصالات مع بعض العناصر المهمة داخل النخبة الحاكمة فى الاتحاد السوفييتى وغيره من الدول التى كانت اشتراكية . ويمكن لهذه الجماعات أن تمارس أنواعا مختلفة من الضغط لا يمكن للحكومات ممارستها .

وقد بات من الضرورى كذلك تأسيس جمعيات فى كل العالم الاسلامى مهمتها فتح قنوات مع مسلمى الاتحاد السوفييتى ومراقبة البيروقراطية الروسية العسكرية التى قد

تتخذ موقفا قوميا عنصريا ، وتعود إلى النمط القديم حينما كانت القوات القيصرية تضرب بيد من حديد على يد الإينوروينتسى أى الأقليات والشعوب غير السلافية . وقد صرح أوليج جورديفسكى - رئيس المخابرات السوفييتية السابق فى لندن - وكان عميلا مزدوجا هرب الى الغرب عام ١٩٨٥ قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه - صرح بأن موسكو لن تتردد فى استخدام القوة فى أذربيجان والأماكن المماثلة . فالقوقاز هامة للغاية من الناحية الاستراتيجية كما أن القيادة السوفييتية أقل أكتراثا بردة الفعل الشعبية هناك . على عكس الدول البلطيقية ، فهى - على حد قوله - متحضرة للغاية ، ومرتبطة بالغرب مما يجعل التدخل الحربى هناك أكثر صعوبة (تايم ٥ مارس ١٩٩٠) . مثل هذه الجمعيات ستشكل لاشك أداة ضغط ، كما أنها مسألة حيوية هامة حتى خارج اطار الصراع العربى - الاسرائيلى . ونحن لا نطالب هنا بالتدخل فى الشئون الداخلية للاتحاد السوفييتى وانما بمراقبة سلوكه ازاء الشعوب الاسلامية لنرى هل يتفق بسلوكه مع ما يدعى هو من انفتاح واهتمام بحقوق الانسان أم لا - أى أنه يجب محاكمته من منظور ما يطرحه هو من قيم وادعاءات ، ومقارنة موقفه من المسلمين بموقفه من الشعوب والأقليات الأخرى .

وربما قد حان الوقت لبعث مشروع سفينة العودة مرة أخرى على ألا تشرف عليها المنظمة وإنما جهة شعبية يستحسن أن تكون غير عربية . ويمكن أن يقوم بالتنظيم والإشراف تحالف من عدة جمعيات عربية يمكنها المناورة بكفاءة . ولتحمل سفينة العودة هذه المرة عددا كبيرا من المسنين الذين طردوا عام ١٩٤٨ ، وليكن الشعار هو أنه إذا

كانت أرض فلسطين قادرة على استيعاب مليون يهودى سوفييتى فما قولهم فى ربع هذا العدد من الفلسطينيين ؟ ويمكن هنا أن نهيب بالإحساس الخلقى اليهودى الذى تتحدث عنه كل المراجع الغربية التى أقرأها والتى أجد صعوبة بالغة فى العثور على ثمرته فى الكيان الصهيونى . يجب أن نلجأ للحيل والألاعيب فالإعلام العالمى يحتاج دائما إلى حوادث مسرحية ولابد من أن نزود آلته النهمة بما يحتاج من مادة . فيمكن مثلا تجنيد بعض كبار الشخصيات لمصاحبة العائدين ، ولابد من أن هناك من المختصين ممن يمكنهم طرح تصورات أكثر إبداعا وإثارة وتسلية من اقتراحاتى .

ولكن العبء الأكبر يقع على المنتفضين فى الداخل ، فلابد من أن يعرفوا بيوت المستوطنين الجدد وأن يركزوا عليها بحيث يضطر العدو أن يضعهم تحت حراسة مشددة خاصة ، تسبب لهؤلاء المرتزقة الباحثين عن اللذة فى الحياة الدنيا الضيق الشديد وفقدان الشهوة والشهية . ولابد من أن تذاع هذه الحقيقة : إن المنتفضين سيعاملون المهاجرين الجدد معاملة خاصة جديرة بهم ، وكما قال أرييه إلياف : « قيصر الهجرة على حد قول الجيروساليم بوست (٢٤ فبراير ١٩٩٠) لو ازدادت الانتفاضة سخونة ، أو لو اندلعت حرب كاملة فان الروس سيفرون بكل بساطة من اسرائيل . ونحن هنا لا نتحدث عن الإرهاب وإنما عن عملية مضايقة واعية مستمرة تجعلهم يبحثون عن المتعة فى مكان آخر . وإذا كان المستوطنون القدامى يتحدثون عن الزراعة المسلحة فليتحدث هؤلاء عن الرفاهية المسلحة ، واذا كان الاستيطان فى الضفة الغربية أصبح مكيف الهواء (استيطان دى لوكس على حد

قول زئيف شيف ، المعلق العسكرى الاسرائيلى) فليكن اذن مكيفا بالهواء مزودا بالسلاح وجميع الأدوات الدفاعية . كما أنه يمكن السعى لتسعير التناقضات داخل الكيان الصهيونى بين الشرقيين وبين المؤسسة الدينية من جهة ، والوافدين من جهة أخرى ولابد من أن نتذكر كلمات شارانسكى الخاصة بأول عشرة آلاف مهاجر .

وبما أن إدارة الصراع تتطلب معلومات محددة لابد وأن يوجد مندوب داخل إسرائيل مهمته ضمان تدفق المعلومات . وهذا أمر ليس صعبا ، فالمجتمع الصهيونى منفتح نسبيا خاصة بالنسبة للمؤسسات والأفراد الغربيين . ولابد من أن موردخاى التشولار كتب دراسات لم تترجم إلى اللغات الأوربية . كما أنه لابد من أن مراكز البحوث التابعة للجامعة العبرية والمتخصصة فى شئون اليهود السوفييت ويهود شرق أوربا عندها كم هائل من المعلومات المتحيزه وغير المتحيزة ، ويمكن لمراكز البحوث الفلسطينية المساهمة فى هذا الجانب . ولكن المندوب فى الداخل سيظل ذا أهمية حيوية إذ سيمكنه متابعة الصحف حتى غير المهمة منها ، كما أن إحساسه بنبض أعضاء التجمع الصهيونى سيكون أكثر مباشرة . ويمكن أن تنشر صحيفة محلية يصدرها بعض اليهود الشرقيين خبرا في غاية الأهمية لا نكتشفه إلا بعد أسبوعين ، على سبيل المثال .

إن ادارة الصراع تتطلب عملية رصد وتصنيف دائمه للمعلومات المتاحة ، ولكل ما يستجد منها حتى نعرف الكيان الصهيونى من الداخل حق المعرفة بكل تناقضاته وصراعاته وتحركاته ، وبكل ما يطرأ عليه من تغيرات . ولابد من توصيل

بعض هذه المعلومات لليهود السوفييت فى وطنهم حتى يمكن لبعضهم أن يعيد النظر . ولابد من توفيرها لليهود الشرقيين أيضا حتى يظلوا واعين بالتمييز الطبقى والعنصرى ضدهم . بل ويمكن توفير معلومات عن خلفية بعض اليهود الوافدين للمؤسسة الدينية حتى تؤجج من حدة الصراع . فالمعلومات أساسية لإدارة أى صراع بشكل ذكى . ونحن لانعنى بالمعلومات هنا قصاصات الصحف واستطلاعات الرأى العام والموضوعية المتلقية الموثقة ، وإنما نعنى المعلومات التى يتم جمعها وتفسيرها وربطها لنستخلص منها نماذج تفسيرية يتم مراكمة المعلومات من خلالها ، فإما أن تزداد النماذج تفسيرية ويقينية أو يتم تعديلها وإعادة صياغتها . أما المعلومات التى نراكمها فى الوقت الحالى فهى توثيق للبديهيات الواضحة والعموميات الشائعة .

وأخيرا سأضرب مثلين على إدارة الصراع : واحد لا يستند إلى المعلومات الدقيقة العامة والخاصة التى ينتظمها نموذج تفسيرى ، وانما يدور فى اطار الصيغ والقوالب الفكرية الجاهزة والتلقى السريع لمعطيات الواقع . ويقف الآخر على طرف النقيض منه . أما المثل السلبى فهو بخصوص اليهود القرائين فى العالم العربى . فكثير من المفكرين العرب وصناع القرار ينظرون إلى أفراد الجماعات اليهودية غير المتجانسين ، المتنافرين أحيانا فيما بينهم (شأنهم شأن أى جماعة بشرية) ، باعتبارهم « يهودا » والسلام ، على الرغم من أن الواقع التاريخى والفعلى يناقض ذلك تماما ، فاليهود القراؤون هم يهود يؤمنون بالتوراة ، وهذا هو العنصر الوحيد المشترك بينهم وبين اليهود الحاخاميين أو التلموديين ، إذ أن القرائين لا يؤمنون بالتلمود (نظرا لتأثرهم بالفكر المعتزلى الإسلامى العقلانى) . وقد انقسموا عن

وقد اتسعت رقعة الخلاف بين الفريقين حتى أن الحاخاميين يكفّرون القرائين ـ حتى الوقت الحاضر . وبينما كان أسلافنا يعرفون الفرق بينهما (يتحدث المسعودى عن اليهود القرائين فى مقابل السماعيين ، أى الذين يؤمنون بالتلمود الذى يقال له أيضا الشريعة الشفوية أى المسموعة غير المكتوبة) ، فإن الدول العربية فى الأربعينات لم تكن تدرك الفرق ، ولذا هاجر القراؤون مع من هاجر من يهود .

ومن ثم تم تحويل عنصر بشرى كان من الممكن تجنيده فى صفنا إلى عنصر ساخط علينا مضطر للانضمام إلى أعدائه رغم أنفه للقتال ضدنا دفاعا عن النفس . ويمكن أن نقارن موقفنا هذا بموقف القوات النازية إبان الحرب العالمية الثانية . فحين احتلت هذه القوات مناطق فى الاتحاد السوفييتى تضم يهودا قرائين وتم القاء القبض عليهم ، تقدم هؤلاء بشكوى إلى القوات النازية ، وبينوا اختلافهم الجوهرى عن اليهود الحاخاميين . فأرجأت القوات النازية اتخاذ أى اجراءات بصددهم ، وأجريت بعض الدراسات والحرب العالمية الثانية مستعره ووافق النازيون على وجهة نظر القرائين ، وبالتالى لم يتم إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال وإنما تم تجنيدهم فى القوات النازية .

والقراؤون لا يزالون يعانون الويلات فى إسرائيل إذ لا تعترف الحاخامية بهم يهودا ولا تعترف بالطلاق الذى يتم على يد حاخام قرائى (تماما كما هو الحال مع اليهود السوفييت) . ويبدو أن كثيرا من عرب الداخل لا يعرفون من أمرهم شيئا . وقد سألت عنهم كثيرا من أصدقائى الذين

اليهود الحاخاميين منذ القرن التاسع الميلادى وأصبحت لهم مدارسهم وفكرهم ومفكروهم .

يعيشون فى الأرض المحتلة ، فلم يدلنى أحد على مصيرهم ، ويخلط البعض بينهم وبين يهود الناطورى كارتا الذين هم من أهم جماعات اليهود الحاخاميين ، ومعادون تماما للصهيونية ، من منظور حاخامى (ومن ثم فهم لايعترفون بالقرائين يهودا) . وغنى عن القول إن ملفات المعلومات التى تحتفظ بها الحكومات العربية ليس فيها أى شىء عن اليهود القرائين .

وقد وقعت فى يدى أخيرا إشارة وحيدة لهم فى بريد القراء فى الجيروساليم بوست (١٣ يناير ١٩٩٠) تشير إلى وجود أعداد منهم فى مدينة رام الله (مع يهود من الهند وجورجيا وأثيوبيا) . كما أن موسوعة اليهودية التى صدرت هذا العام تذكر الرقم ٢٠ ألفا ، ولا ندرى هل هذا هو عددهم فى فلسطين المحتلة وحسب ، أم أن هذا هو عددهم فى العالم وبذا يضم الخمسة آلاف الموجودين فى الاتحاد السوفييتى ؟ ما يهمنا فى هذا الموضوع أنه يوجد قطاع داخل الجماعات اليهودية يمكننا التعامل معه بشكل مختلف حينما تتوافر عندنا المعلومات الدقيقة (لا العامة) عنه والنماذج التفسيرية المركبة والشاملة . وتجاهلنا للقرائين حتى الوقت الحاضر ناجم عن جهل بخريطة الهويات والانتماءات اليهودية .

فى مقابل ذلك أحب أن أذكر واقعة الأخ دانيال ، كنموذج على كيفية إدارة الصراع . توجد إشكالية أساسية داخل العقيدة اليهودية وهى أنها عرّفت اليهودى أنه « من ولد لأم يهودية » ، والمشكلة تكمن فى أنه حينما يتخلى اليهودى عن عقيدته ويصبح ملحدا فإنه مع هذا يظل يهوديا . وقد استفاد الصهاينة الملحدون من هذا الوضع ، إذ أصبح فى مقدورهم الزعم بأنهم يهود رغم عدم إيمانهم لا بالله ولا بالتوراة (وأرجو ملاحظة أن هناك اختلافا جوهريا هنا بين التعريف

اليهودى لليهودى والتعريف الإسلامى لليهودى ، فنحن لا نعترف باليهودى الملحد يهوديا ، فحسب التعريف الإسلامى لابد من أن يؤمن اليهودى بالله والتوراة كى يحسب يهوديا ، مما يعنى أن الصهيونية ليست حركة يهودية من منظور إسلامى علي الرغم من ادعاء أصحابها أنهم يهود) . ورغم أن المؤسسة الدينية لم تكن سعيدة بهذا الوضع ، خاصة أن قيادة « اليهود » وقعت فى يد العناصر الصهيونية ، فإنها آثرت الصمت باعتبار أن هذا هو تعريف الشريعة وعليها تقبله .

وهنا تحركت الكنيسة الكاثوليكية (الفاتيكان) المدركة للإشكالية ولأزمة اليهودية المعاصرة وللتناقضات الناجمة عن ظهور الدولة الصهيونية ، فأذنت للأخ دانيال بالهجرة إلى إسرائيل . والأخ دانيال هو اليهودى البولندى أوزولد روفايزين الذى ولد لأبوين يهوديين ولكنه أثناء الحرب العالمية الثانية لجأ إلى دير للراهبات هربا من النازيين وأثناء فترة اختبائه اعتنق المسيحية ثم أصبح راهبا ، وقد هاجر الأخ دانيال وطلب الجنسية الإسرائيلية بمقتضى قانون العودة الذى يعطى الجنسية لكل يهودى يعود إلى وطن الأجداد . وقد رفضت وزارة الداخلية اعطاءه الجنسية بمقتضى قانون العودة وعرضت عليه الجنسية عن طريق التجنس ، ولكن حيث أن الهدف من الهجرة كان تفجير المشكلة من الداخل ، فإن الأخ دانيال رفض العرض ورفع قضية فى المحكمة العليا ، وبين فى عريضة الدعوى أنه إذا كانت الشريعة اليهودية تعترف بالملحد يهوديا ، فمن باب أولى يمكنها اعتبار المسيحى يهوديا ، فالشريعة اليهودية تقرر أن اليهودى لا ينسلخ بتاتا عن دينه اليهودى مهما بلغت ذنوبه (حسبما جاء

فى كتاب السنهدرين فى التلمود) . وقد رفضت المحكمة العليا طلبه عام ١٩٦٦ وقالت فى حكمها أنه وفقا « للعرف » المعمول به فإن كل من يغير دينه بدين آخر يعد غير يهودى ، إذ أنه اختار أن ينفصل عن مصير « الشعب اليهودى » وتاريخه - أى أن المحكمة اضطرت أن تحل العرف محل الشريعة . واضطرت المؤسسة الدينية أن تقبل بهذا الحكم الذى يؤسس اليهودية ذاتها على أساس العرف ، أى أساس علمانى . ولم يفق المستوطن الصهيونى بعدها ، إذ أخذت القضية فى التفاقم ولاتزال من القضايا الأساسية التى تؤدى إلى انقسام التجمع الصهيونى وإلى تصعيد الخلافات بينه وبين يهود العالم وكما سلفنا أطلت المشكلة برأسها مرة أخرى مع وصول اليهود السوفييت .

ويمكن القول إن التناقضات الكامنة كانت ستنفجر إن عاجلا أم آجلا ، وهذا هو منطق الكسالى المهزومين ، فإن التناقضات يمكنها أن تبقى كامنة خامدة ثم تنفجر بعد قرنين من الزمان . كما أنه لو تفجرت بشكل تلقائى دون عملية تصعيد واعية من الخارج فإن العدو يمكنه أن يجد تسويات وصيغ مهادنة ، كما أنه يمكنه أن يحيطها بالصمت فلا يشعر بها أحد (ومن يسمع عن القرائين الآن ، على سبيل المثال ، وعن القمع الواقع عليهم ؟) .

لابد من إدارة الصراع بطريقة تتسم بالشمول والدقة والسرعة ، ومما يكسب القضية إلحاحا ما قاله شارانسكى بشأن العشرة آلاف الأولى ، ويمكننا أن نضيف أن اليهود السوفييت هم آخر مصادر المادة القتالية للكيان الصهيونى . وقد أخبرنى أحد اليهود المعادين للصهيونية أن المؤسسة

الصهيونية سعت لوقف الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي في أواخر السبعينات مع تصاعد نسبة التساقط حتى وصلت إلى ٩٠٪ ، إذ أن استمرار الهجرة اليهودية كان يعني انتقال الجيب اليهودي من روسيا إلى أمريكا ، والصهاينة يعرفون عن حق أن من يدخل الجولدن مدنيا لا يخرج منها قط . وكانت توصف فرنسا في القرن التاسع عشر بأنها البلد الذي يأكل اليهود ، أي تدمجهم تماما مما يؤدي إلى اختفائهم ، ويمكننا القول إن الولايات المتحدة هي البلد الذي يأمركهم تماما بحيث لا يبقى منهم إلا بعض الرموز الباهتة والشعارات الصاخبة ، ولذا مهما كان الحال في الاتحاد السوفييتي ، فعلى الأقل يظل اليهود فيه يهودا ، ورغم تآكل هويتهم يظل عندهم الطموح في الخروج ، ولذا آثرت المؤسسة الصهيونية الاحتفاظ بآخر المستودعات البشرية اليهودية إلى أن تأتي اللحظة المواتية . وهم يظنون أنها قد حانت وأنهم سيكون بوسعهم أن يحقنوا الجيب الاستيطاني بالمادة البشرية القتالية التي يحتاج إليها ، ولكننا لو تحركنا ونجحنا ، فإن هذا سيعني تصفية آخر مصادر المادة القتالية للجيب الاستيطاني ، وبالتالي تتحول اللحظة التي كان يظن العدو فيها أنه ستتجدد فيها حياته وحيويته إلى لحظة النزال الأخير معه بإذن الله .

المصادر ولمزيد من الاطلاع

لا يوجد فى المكتبة العربية كتاب واحد عن اليهود السوفييت سوى كتاب سلافه حجاوى (اليهود السوفييت : دراسة فى الواقع الاجتماعى ، مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد ، ١٩٨٠) وهى دراسة جيدة للغاية ومتزنة ، وان كان قد مر على نشرها عشرة أعوام . ويوجد مقالات مختلفة نشرت فى مجلات مثل "شئون فلسطينية" و« مجلة الدراسات الفلسطينية" و"السياسة الدولية" . (أنظر خاصة دراسات كل من د . أحمد يوسف ود . أمين على محمود التى اعتمدنا عليها فى الجزء الخاص بعلاقة الدولة السوفييتية بالدولة الصهيونية) . كما توجد فى الوقت الحاضر مجلات تنشر ترجمات مستفيضة من الصحافة العبرية من أهمها "الملف" و"الأرض" و"نشرات دار الجليل" .

وقد تعرضت بعض الكتب لتاريخ يهود أوربا وخاصة يهود روسيا القيصرية ثم السوفييتية فى طى تناولها لتاريخ الصهيونية ، من أهمها : تاريخ الصهيونية لصبرى جريس (صدر منه جزآن ١٩٨٧ و١٩٨٦ ، وينشره ، مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية) ، والمشكلة اليهودية

والحركة الصهيونية لبديعة أمين (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٤) . وقد استفدنا كثيرا من دراسات هذين الكاتبين رغم اننا لم نقتبس من أعمالهما مباشرة ، وهذا أمر يحتاج للتنويه . اذ يظن البعض ان قائمة المراجع يجب ألا تضم سوى الكتب التى تم الاقتباس منها بالفعل ، مع أن المصادر التى لا نقتبس منها قد تفوق فى أهميتها وعمق اثرها بمراحل تلك التى نقتبس منها ، وذلك إن أثّرت فى صياغه النموذج التفسيرى ذاته ، بينما نجد ان كثيرا من الكتب التى نقتبس منها هى مجرد مصدر للحقائق - مادة أرشيفية وحسب !

ومن أهم الدراسات الموجودة باللغة العربية والتى تلقى كثيرا من الضوء على يهود اليديشيه دراسة ابراهام ليون : المفهوم المادى للمسألة اليهودية ، وهى دراسة تفوق فى أهميتها وعمقها درسا ماركس فى المسألة اليهودية وتتجاوزها . ولعل هذا يعود إلى حدود تجربة ماركس التاريخية ، وإلى عدم اكتراثه بالموضوع اليهودى ، وإلى جهله باليديشيه ويهود شرق أوروبا ، هذا على عكس ليون الذى كان يعرف تاريخ يهود روسيا وبولندا وكان مطلعا على المصادر اليديشيه .

وغنى عن القول إن المكتبة الانجليزية مكتظة بالكتب عن يهود الاتحاد السوفييتى بشكل مبالغ فيه ، ولذا نجد أن كثيرا من الكتب لا يأتى بجديد ويكرر نفس الآراء والمعلومات دون إضافة معرفية حقيقية . ولعل هذا يعود الى ان سوق الكتب عن اليهود السوفييت رائجة ، ولذا تسارع دور النشر باصدار الكتب لتحقيق الربح دون ابداء أى رحمة بالقراء خاصة

المتخصصين منهم الذين يجدون أن من واجبهم العلمى الاطلاع على ما جاء فيها .

وفيما يلى قائمة بأهم المراجع :

Altshuler, Mordechai. **Soviet Jewry since** the Second World war : Population and Social Structure. Green wood Press, New York, 1987.

Boron, Salo W. **The Russian Jew Under Tsars and Soviets.** Macmillan, New York, 1964.

Hirszowicz, Lukasz. Ed. **Proceedings of the Experts' Conference on Soviet Jewry Today.** London, 4–6 January 1983, Institute of Jewish Affairs, London, 1985.

Kochan, Lionel. Ed. The Jews in Soviet Russia since 1917. Oxford University Press, Oxford 1972.

Lerman, Antony **et al.** Eds. **The Jewish Communities of the World : A Contemporary Guide.** Institute of Jewish Affairs and Macmillan, London, 1989.

Levin, Nora. **The Jews in the Soviet Union Since 1917 : Paradox of Survival.** Two Volumes, New York University Press, New York, 1988.

Mahler, Raphael. **A History of Modern Jewry, 1780 - 1815.** Vallentine, Mitchel, London, 1971.

Pinkus, Benjamin. **The Jews of the Soviet Union : The History of a National Minority.** Cambridge University Press, Cambridge, 1988.

وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة وغيرها على الموسوعات اليهودية المتخصصة وأهمها فى تصورنا

Landman, Isaac. Ed. **The Universal Jewish Encyclopedia.** Kitav, New York, 1969.

فى عشرة اجزاء

وهذه طبعة طبق الاصل من الموسوعة التى صدرت عام ١٩٤١ . وتعود اهمية هذه الموسوعة الى انها كتبت قبل أن يهيمن الفكر الصهيونى تماما على الجماعات

اليهودية وعلى الدارسين ولذا تضم هذه الموسوعة قدرا من المعلومات تحرص المراجع الصهيونية على استبعاده . واستفدنا أيضا بالموسوعة التالية :

Wigoder, Geoffrey Ed. **The Encyclopedia of Judaism,** Macmillan, New York, 1989.

وتقع فى جزء واحد .
ومن أهم الأعمال الموسوعية

Roth, Cecil. Ed. **Encyclopedia Judaica.** Keter, Jerusalem, 1972.

وتقع فى سبعة عشر جزء .

· وهى تعد أضخم عمل موسوعى عن الظواهر اليهودية والصهيونية ولكن رؤيتها صهيونية تماما . ومع هذا يمكن للقارىء المسلح بنموذج تفسيرى نقدى أن يستخلص منها قدرا من المعلومات الذى يتجاوز النموذج الصهيونى بل ويتحداه . وتصدر الموسوعة اليهودية كتابا سنويا صدر آخرها عام ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ ، يزود الباحث بآخر المعلومات والاحصائيات ، ومن الغريب ان الكتاب السنوى اكثر توازنا

من الموسوعة ذاتها .

أما بالنسبة للجزء التاريخي فقد اعتمدنا على تواريخ الجماعات اليهودية خاصة كتاب سالو بارون S. Baron (١٩ جزء) وهاينريش جرايتز H. Graetz (خمسة أجزاء) وسيمون دبنوف S. Dubnow (أربعة أجزاء) والتاريخ الذى حرره بن ساسون Ben. Sasson والتواريخ التى ألفها كل من سيسل روث C. Roth وهوارد ساخار H. Aochar وهاليفى Helevi .

ويوجد حوليه متخصصة عن اليهود السوفييت تسمى Soviet Jewish Affairs وهى صهيونية المنحى ضعيفة المستوى ، ومع هذا هى أحسن مصدر لمتابعة الاصدارات الجديدة وكل ما يستجد من اشكاليات . ويصدر هذه الحوليه Institute of Jewish Affairs

وهى هيئة علمية صهيونية تصدر أيضا العديد من الدراسات من بينها سلسلة دراسات قصيرة (مونوجراف) عن أحوال يهود العالم .

وسيلاحظ القارىء أننا لم نشر إلى أى مرجع فى الفصول الثلاث الأولى وهذا يعود الى أننا اعتمدنا على « موسوعة الجماعات والعقائد اليهودية » وهى للمؤلف وستصدر هذا العام . ولا تذكر المراجع عادة بعد مداخل الموسوعات وإلا تضاعف حجمها ، ومصادر هذه المداخل هى أساسا مصادر هذا الكتاب ، وقد اعتمدنا فى بقية فصول الكتاب على الصحف والمجلات خاصة الجيروساليم بوست .

وغنى عن القول إن هناك عشرات المراجع الاخرى التى يمكن الاطلاع عليها (والتى استفدنا من بعضها) ولكن هذه ليست قائمة شاملة للمراجع والمصادر ، وانما هى قائمة جزئية للمراجع واقتراحات عامة لمن يود أن يتعمق فى الموضوع .

فهــــرس

صفحة

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

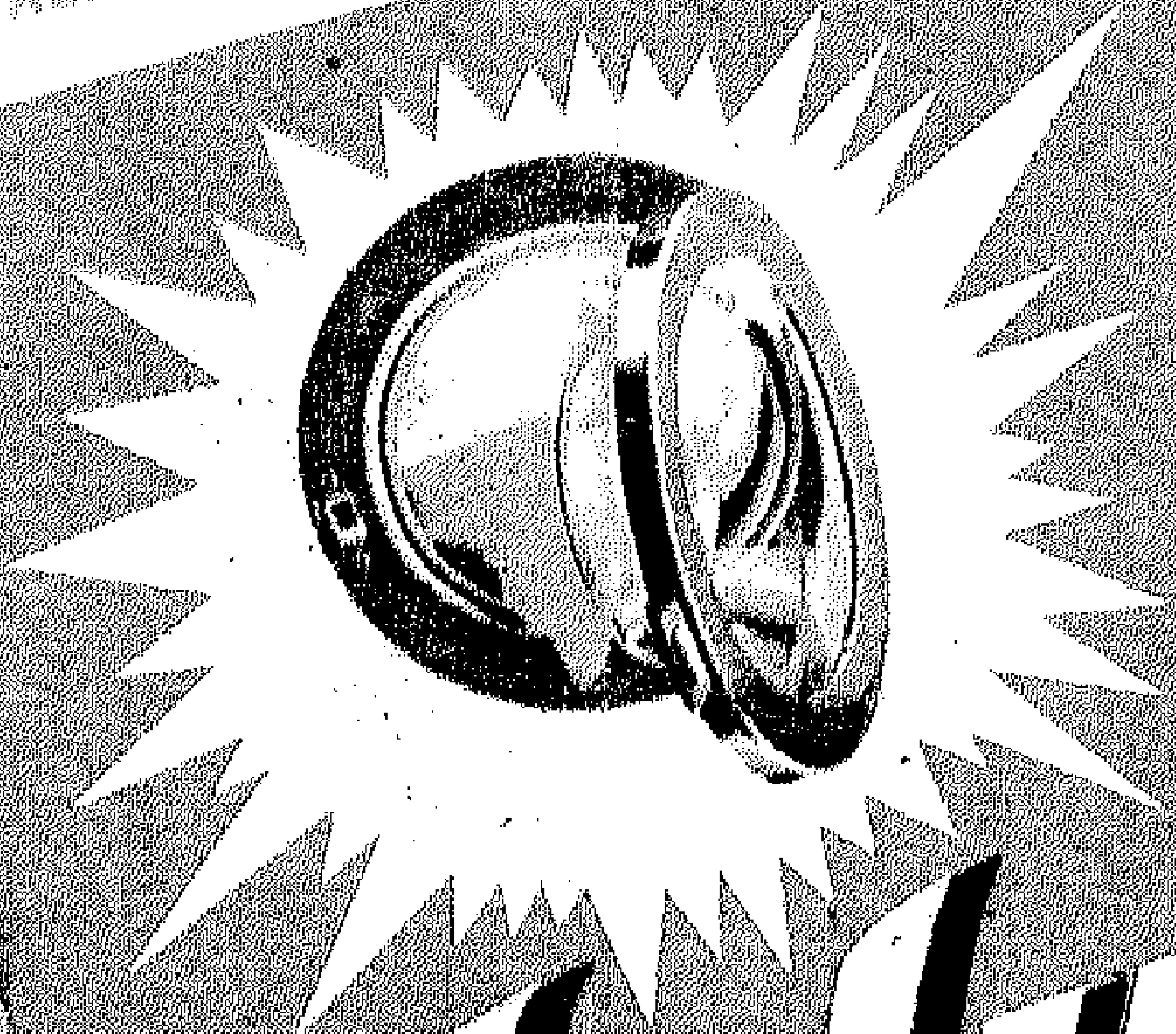
رقم الايداع : ٨٩٢٧ / ١٩٩٠

I.S.B.N.
977 - 07 - 0038 - X

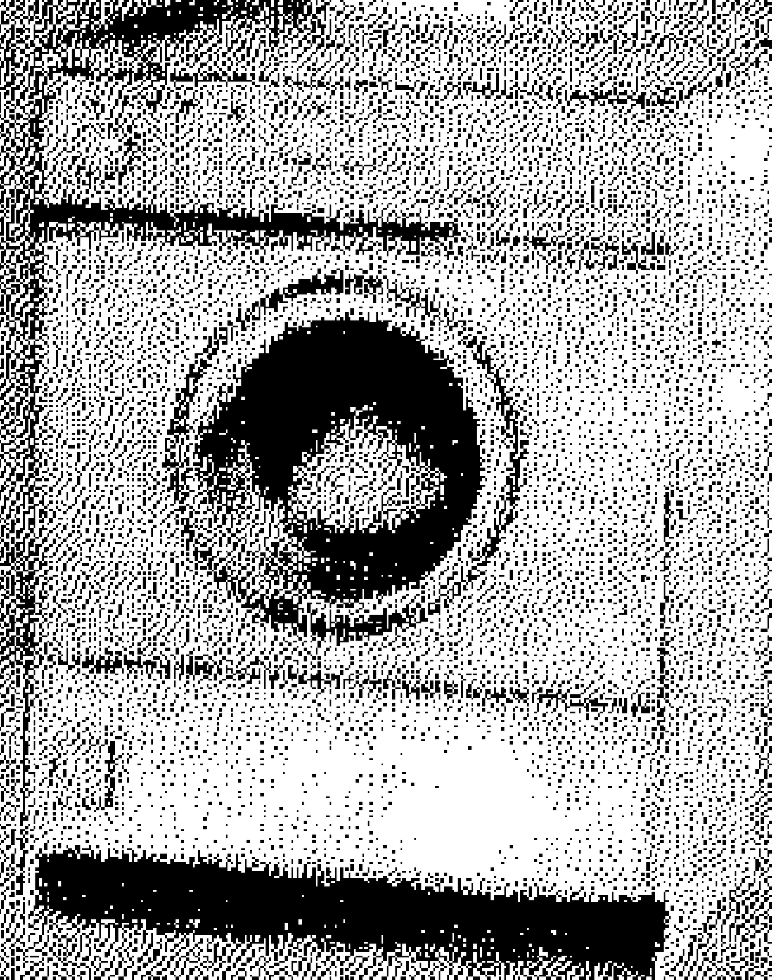
هذا الكتاب

لا تحاول هذه الدراسة أن تقدم أهم الحقائق والمعلومات عن هجرة اليهود السوفييت وحسب ، ولكنها تهدف أيضا ـ وبالدرجة الاولى ـ إلى تقديم منهج فى الرصد والتحليل والتفسير ينظر لهذه الواقعة باعتبارها جزءا من نمط متكرر ، ومن ثم تناولت الفصول الاولى من الكتاب انماط التطور السكانى للجماعات اليهودية وهجراتهم عبر التاريخ ، وكذلك تاريخهم فى الاتحاد السوفييتى منذ بداية استقرارهم فيه حتى الوقت الحاضر . وتناولت الفصول الأخيرة قضية اعداد المهاجرين السوفييت وبواعث هجرتهم ، وقضية اليهود المتخفين واشباه اليهود وغير اليهود ممن سيأتون مع المهاجرين ، وعوامل الطرد والجذب فى كل من الاتحاد السوفييتى واسرائيل ، ومشكلات الاستيعاب المختلفة ، والنتائج المتوقعة وغير المتوقعة للهجرة بما فى ذلك عداء المستوطنين الصهاينة القدامى ـ خاصة اليهود المتدينين والشرقيين ـ للوافدين الجدد . ويطرح الفصل الاخير تصورا شاملا لكيفية التصدى لهذه الهجرة .

FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES



PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX EGYPT



لولى

• رغوة محدودة ممتدة المـ
• الوحيد الذى يتعبر ب
على أنزيمات فعاله
لها القدرة على ا
البقع البروتيـ